موسوعة

تاريخ مصر

أحمد حسين

مؤسسة دار الشعب

أحمد حسين

موسوعة تاريخ مصر

الجزء الثاني

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

بعثة محمد رسول الله

٦١٠ م —

وفى نفس السـنة ، حيث كان يجرى هـذا التبدل فى عرش بيزنطة ويرتقى العرش هرقل الأول .

كان حدث انسانى خطير يتم فى خفاء لم يتجاوز من علموا به فى وقته بضعة اشخاص يعدون على اليد الواحدة ، ولم يكن هذا الحدث سوى بعثة محمد بن عبد الله ليكون رسولا نبيا ... وكان محمد بن عبد الله الذى ولد عام الفيل « ٥٧٠ م » قد بلغ من العمر اربعين سنة ولم يكن قد اشتهر فى هذا العمر الطويل بغير صـفة واحدة وهى الأمانة فأطلق عليه اهله وعشيرته لقب الأمين ، وكان قد ولى تجارة خديجة سيدة قريش ، فسافر على راس قوافلها الى الشام . فأنست فيه ما حببه الى قلبها فعرضت عليه الزواج منه... فاستجاب الى العرض... وكفى بهذا الزواج مؤونه الكدح فى طلب الرزق واحس بالعزوف عن الاختلاط بالناس ، والرغبة فى الخلوة فاصبح من عاداته ان (يتحنث) أى يعتكف على راس جبل من جبال مكة يدعى غار حراء شهرا فى كل سنة ، وبينما كان يخلو بنفسه فى الغار جريا على عادته فى هذا الشهر من كل عام . اذ سمع صوتا يقول له « اقرأ » ففزع محمد بن عبدالله من هذا الصوت الذى لا يرى صـاحبه . ورد عليه بأنه لايستطيع القراءة ولكن الصوت « غطه » فى صدره وكرر عليه الأمر بالقراءة ...

وكرر محمد بن عبد الله الاعتذار عن القراءة لجهله بها ...

فانطلق الصـوت يقول له :

— اقرأ باسـم ربك الذى خلق .

— خلق الانسـان من علق .

— اقرأ وربك الأكرم .

— الذى علم بالقـلم .

— علم الانسـان مالم يعـلم .

ولم يكن هذا الصوت الا وحيا من رب العالمين ... ولم يكن هذا اللقاء الا لقاء بين الأرض والسماء ، ليكون محمد بن عبد الله ، هو محمد رسول الله الى بنى البشر كافة ، رسول رحمة ومحبة واخوة وانسانية تقوم على أساس من توحيد الألوهية ، ومحاربة كل عبادة لغير الله الواحد الأحد ، والتقاء البشر فى ظل هذا التوحيد على اختلاف اجناسهم والوانهم وقومياتهم ، أخوة يتحابون ويتعاونون على البر والتقوى، ويتصدون لحرب الاثم والعدوان .

٦١١ م ــ انتصار الفرس على الروم :

لو صح ما أدعاه كسرى الثانى من ان زحفه على أراضى بيزنطة كان غضبه لصاحبه وحاميه وراعيه الامبراطور موريس ، لوجب أن تتوقف جيوشه بعد أن اقتص من قاتل صهره ، ولكن العلاقات بين الدول لا تقوم على العواطف أو العلاقات الشخصية .. وانما تتم لعديد من العوامل المحركة لمصير الانسانية ، ولذلك فان سقوط فوكاس وارتقاء هرقل عرش بيزنطة لم يزد جيوش الفرس الزاحفة الا نشاطا فى زحفها ... فسقطت كبريات المدن السورية واحدة بعد أخرى فى قبضة الفرس، ابتداء من انطاكية عاصمة الأقاليم حتى حمص وقيصرية .

٦١٣ م ــ سقطت دمشق فى يد الفرس :

٦١٤ م ــ سقطت مدينة بيت المقدس فى يد الفرس ونهب الفرس كل ما كان بها من ذخائر ومقدسات...بما فى ذلك صليب الصلبوت « وهو قطعة من خشب الصليب الذى صلب عليه المسيح » .. وكان موضوعا فى صندوق محلى بالذهب والبرونز واليواقيت . واعمل جنده سيوفهم فى رقاب المسيحيين من سكان المدينة ...

ويقول درانت أن ٢٦ الف يهودى انضموا الى جيشه ليعاونوهم فى الفتك بالمسيحيين حتى قيل ان عدد من مات فى هذه المذبحة قد بلغ ٩٠,٠٠٠ قتيل .

٦١٦ م ــ وفاة الأنبا انستاسيوس :

توفى الأنبا انستاسيوس بعد أن اقام على كرسى الكرازة المرقسية روحيا اثنى عشر عاما .

الأنبا ان روتيكوس :

واختار الشعب والاكليروس المصرى المتمسك بعقيدته المونوفيزنية الأنبا ان روتيكوس ليكون بطريركا لكنيستهم .

يوحنـا الرحوم :

ولكن البطريرك الملكى الذى كان صاحب السلطة الفعلية فى الكنيسة كان هو الأسقف يوحنا الرحوم أو « المتصدق » والذى استطاع ان يظفر بحب المصريين على خلافهم معه لفرط رحمته وتسامحه وانفاقه على البؤساء والفقراء والمعوزين .

ويتخذ المؤرخون الحديثون من سيرة يوحنا الرحوم الدليل على مدى ما كانت عليه الاسكندرية فى هذه الفترة من التاريخ من غنى وثروة ، وأنها كانت لا تزال أعظم المدن التجارية على الاطلاق .

ويستنتجون ذلك من ثروة الكنيسة كما تنطق بها أعمال يوحنا الرحوم . الذى وجد بالقصر البطريركى حين اعتلائه مبلغ ٨٠٠٠ رطل من الذهب وكان له اسطول مكون من ثلاث عشرة سفينة تجارية كبيرة تنقل التجارة بين الاسكندرية وشواطىء بحر الادرياتى وانشغل هذا البطريق بين عامى « ٥٩٦ — ٦٠٣ » بسلسلة طويلة من المفاوضات مع جريجورى الأكبر للحصول على أخشاب تصلح لبناء السفن من ايطاليا وبلغت ثروته حدا كبيرا جدا فعندما استغاثت به مدينة القدس بعد استيلاء الفرس عليها أرسل لها الف قطعة ذهبية ، والف جوال من القمح والف كيل من البقول الجافة والف رطل من الحديد والف رطل من السمك المقدد والف دن من النبيذ والف صانع من المصريين. وذلك معاونة منه على اعادة بناء المدينة .

ويمضى أرشبيالد . ر . لويس الذى ننقل عنه هذه العبارات ليقول لنا :

« ولعل مصر هى أكثر بلاد الامبراطورية رخاء ، ولا سيما مدينة الاسكندرية العظيمة ، التى تلت فى المكانة مدينة القسطنطينية مباشرة حينذاك ، والتى كانت أعظم مدن البحر المتوسط على الاطلاق . وليس ببعيد أن تكون قد فاقت فى اهميتها كمركز تجارى أهمية القسطنطينية ذاتها وصارت الاسكندرية محط رحال تجارة الشرق ، التى اشتملت على التوابل والحرير القادمين عبر طريق البحر الأحمر . وصدرت هذه البضائع منها الى عالم البحر المتوسط ، واذن أصبحت لمصر تجارة واسعة فى ذلك البحر وذهب قمحها الى القسطنطينية واقلعت منها السفن محملة بالحبوب وفاخر الصناعات الى ايطاليا لتبادل بذلك على الخشب ، واوفدت تجارها الى اسبانيا ومرسيليا وغيرهما من مدن جنوب فرنسا ، كما اتجرت على نطاق واسع مع شمال افريقيا ويحتمل كذلك أن تكون سفنها الكبيرة قد اجتازت اعمدة هرقل « جبل طارق » وقامت بتجارة واسعة النطاق فى مادة القصدير مع بريطانيا البعيدة المدى واذا صح هذا فانه يفسر أصل وجود العناصر الشرقية والاغريقية فى الصور الايرلندية والكنائس السكتلندية كما يفسر ما تدهش له من معرفة علماء الايرلنديين للغة اليونانية (١) .

(١) ص ٦٥ — القوى البحرية التجارية — ترجمة احمد محمد عيسى .

٦١٩ م ـ سقوط مصر فى يد الفرس :

كان من أثر زحف الجيوش الفارسية على سوريا وفلسطين وتساقط عواصمها ومدنها الواحدة أثر الأخرى ... أن لجأ الى مصر عشرات الألوف من المهاجرين من هذه المدن والمناطق يلاحقهم الفرس بزحفهم ، حتى وصل المهاجرون الى شرق الدلتا ... والفرس فى أعقابهم ... فهرع اللاجئون الى الاسكندرية التى أصبحت تغص بعشرات الألوف من اللاجئين .

ومرة أخرى تطالعنا شخصية البطريرك الملكى . يوحنا الرحوم ومدى الثروة التى كانت تتمتع بها الكنيسة المصرية فى أيامه ...

فقد أخذ على عاتقه عملية اطعام هذه الجيوش الجرارة من اللاجئين . على أن العملية لم تلبث أن أصبحت مستحيلة ازاء تزايد عدد اللاجئين المستمر، وشراستهم المتصاعدة .

وشاء سوء الحظ أن تقحط مصر فى هذه السنة ، فعزت الأقوات ... ولم يستطيع يوحنا الرحوم مواجهة الموقف المتدهور فغادر مدينة الاسكندرية ، ناجيا بنفسه ومصطحبا معه نبكيتاس حاكم مصر وقائد الجيوش ، وقصدا جزيرة قبرص، حيث لم يلبث يوحنا الرحوم أن مات (٦١٧ م) .

أما الاسكندرية التى خلفاها وراءهما . فقد فتحت أبوابها لجيش الفرس عن طريق الخيانة كما يقول بتلر (ص ٦٦ على أن المحقق أن الشعب السكندرى وخاصة المنوفيزنى منه قابل الفرس بالترحاب ، أملا منه أن يتيح له هذا القبول فى السلطة الحاكمة ، تدعيم الكنيسة المونوفيزنية وانتصار بطريركهم اندردنيكوس الذى أقام فى الاسكندرية طوال مدة ولايته .

على أن بتلر ينفى بشدة فى كتابه « فتح مصر » أن أقباط مصر قد رحبوا بالغزو الفارسى الوثنى .

غلبت الروم :

وقد كان هذا النصر المؤزر الذى أحرزه الفرس (الوثنيون) على الروم المسيحيين من أهل الكتاب هو الذى جعل مشركى قريش من أعداء الرسالة المحمدية يشمتون بالمسلمين ، فنزل القرآن الكريم بسورة الروم التى تنبأت بانتصار الروم بعد هزيمتهم :

« الم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . »

وهكذا نرى اصداء الأحداث العالمية تتردد فى آيات القرآن...ومن دلائل اعجاز القرآن وصدق رسول الله ... ان هذه النبوءة التى بدت ساعة الافصاح عنها وكأنها

تتحدث عن أمر مستحيل . . هى التى تحققت بالفعل فى المدة المحددة والتى لا تخرج عن نطاق (بضع سنوات) .

٦٢٢ م ـ هرقل يستأنف الحرب ضد الفرس :

بدأ هرقل حربه ضد الفرس يوم الصفح من عام ٦٢٢ عندما نزل بسفنه من جديد فى موقع بين حدود الشـــام وقاليقيا فى الأناضـــول ، بعـد أن ترك وراءه القسطنطينية وابنه فى « ايدى الله وأمه العذراء والبطريرك » .

٦٢٢ م ـ ١ هجـرية :

هجرة رســـول الله :

وفى الوقت الذى كان هرقل يبدأ حربه التى سيقدر لها أن تستمر ست سنوات تكلل فى ختامها بالنصر ، ليخرج منها هرقل كأقوى ما عرفت الامبراطورية الرومانية من أباطرة .

كان هذا النبى الأمى الذى ولد عام الفيل ، فلم يكد يحس بميلاده سوى أفراد اسرته ، والذى بعث يوم كان هرقل يتســلم عرش بيزنطة ، فلم يؤمن به ســوى زوجته خديجة وبضع نفر من أصحابة المقربين ، كان يهاجر من مكة أخيرا نحو المدينة هذهالقرية التى تقع الى الشمال من مكة. . .وذلك بعد أن ضاق وضاق المؤمنون من قبله باضطهاد ذوى قرباهم الذين عذبوهم وانتهبوهم وحاصروهم وأخرجوهم من ديارهم ، هاجر من مكـة مصطحبـا خليله وصفيه وخليفته من بعـده « أبو بكر الصديق » الى حيث الانصـار من أهل المدينة والذين كانوا قد اعتنقوا الاســلام وبايعوا الرسول واستقبله أهل المدينة بالنشيد الذى خلد على مر الزمن :

« طلع البدر علينا من ثنيات الوداع »

« وجب الشـكر علينا ما دعا لله داع »

« أيها المبعوث فينا .. جئت بالأمر المطاع »

٦٢٣ م ـ وفاة الأنبا اندروتيكوس :

توفى الأنبا اندروتيكوس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية سبع سنوات اقام فيها فترة الحكم الفارسى فى الاسكندرية .

الأنبا بنيامين :

واختار الشـعب المصرى المونوفيزنى والاكليروس الأنبـا بنيامين ، وقد وافق اختيار بنيامين لولاية الدين ، هوى فى قلوب الناس ، فقد كان حبيبا اليهم عزيزا على نفوســهم .

وقد ظل ذلك حظه عند الناس لم ينل منه تغير الأحوال أو تقلب الظروف .

وقد اخذ الأنبا بنيامين على عاتقه ان يعيد للدين فى نفوس القسس مكانته وهيبته فأخذهم بالشدة ، حتى لقد نفى البعض منهم لانحرافه عن جادة السلوك القويم وراح يعمل جاهدا على تدعيم وحدة الكنيسة القبطية من جديد وان يعيد اليها طمأنينتها واستقرارها .

٦٢٤ م — ٣ هجرية :

غزوة بدر :

عاش الرسول منذ مبعثه حتى هجرته ، وهو يدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، يرد على الاساءة بالاحسان ، وعلى الاضطهاد بالصبر ، وعلى التخشن فى القول والبغى بالتسامح والصفح الجميل ... فلم يزد ذلك قريشا الا مزيدا من الحقد والتآمر والرغبة فى استئصال دعوة التوحيد ... فنزل القرآن الكريم يأذن للمسلمين ان يدفعوا عن أنفسهم الظلم والبغى بقوة السلاح : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » .

وهكذا التقت لأول مرة حفنة المؤمنين المجاهدين حول رسول الله الذين لم تتجاوز عدتهم ثلثمائة رجل ليس فيهم الا فارس واحد ، مع جيش المشركين الذى كان يتألف من ثلثمائة فارس مقابل هذا الفارس الواحد وبالاضافة الى سبعمائة راجل آخر من حملة القسى والحراب .

فكان النصر للمؤمنين المجاهدين ، وصرع أبطال المشركين ودهاقنتهم وعلى رأسهم ابو جهل أعدى اعداء النبى .

ويقف التاريخ ليلقى علينا أحد دروسه الخالدة ... فليست العبرة فى هذا الوجود بالكم وان كثر .. فهذه المعركة التى تشبه ان تكون شجارا يقع فى كل يوم وفى كل ساعة بين قبائل العرب ، كانت أحدى معارك التاريخ الفاصلة التى ختمت فصلا من كتاب حياة البشر وفتحت فصلا جديدا ، ولم تكن كذلك مثل هذه المعارك الطاحنة التى كانت تدور الى الشمال وقتئذ بين جحافل الفرس وجيوش الروم التى تقدر بمئات الألوف .

٦٢٧ م — جلاء الفرس عن مصر :

كان هرقل فى حربه ضد الفرس التى بداها منذ خمس سنوات فى آسيا الصغرى « الاناضول » وسوريا . ينتقل من نصر الى نصر .

فاضطر الفرس الى سحب جيوشهم من مصر للاستعانة بها فى حربهم ضد هرقل .

وهكذا عادت جيوش الروم الى مصر فى غير معركة ، وبدون قتال ..

٦٢٧ م ـ ٦ هجرية :

رسالة النبى الى المقوقس حاكم مصر :

وفى هذه السنة تسلم المقوقس حاكم مصر وكبير القبط بها ـ على ما يقول مؤرخو المسلمين ـ رسالة من النبى صلوات الله عليه حملها اليه حاطب بن أبى بلتعة وقد جاء نص الرسالة كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فأنى أدعوك بدعاء الاسلام ، فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لانعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

وقد حار المؤرخون الاوربيون الذين ارخوا لهذه المرحلة من تاريخ العالم فيمن يكون هذا المقوقس ، ولقد كان بتلر على رأس من حاولوا التحقق من هذه الشخصية واستقر رأيه بعد البحث على المقوقس لا يمكن الا أن يكون هو قيرس البطريرك الملكى ، والحاكم الذى سيبعث به هرقل لحكم مصر عام ٦٣٢ ، وكان هو البطريرك والحاكم الذى تفاوض مع عمرو بن العاص لتسليم مصر ، والذى سلم لعمرو مدينة الاسكندرية ، ومؤرخو العرب يجمعون على أن من فعل ذلك هو المقوقس .

ومن هنا يستنتج بتلر أن لابد أن يكون مؤرخو العرب قد اطلقوا هذا الاسم على ذات الوالى والحاكم الذى تسلم رسالة رسول الله عام ٦٢٧ م.وكيفما كان الأمر ، وكيفما كان اسم الشخص الذى تسلم رسالة الرسول ، أو طبيعة وظيفته فى مصر، فان لدينا الحقيقة المادية القاطعة التى تدل على أن من تسلم رسالة الرسول فى مصر قد اكرم وفادة مبعوث رسول الله ، ووعد بأنه سيبحث فى الأمر ، وزاد على ذلك انه بعث بهدية عظيمة لرسول الله ، وكان يمكن ذلك كله مجرد اخبار تروى ، لولا أن الهدية شملت فيما شملت (١) ارسال جاريتين مصريتين ، هما ماريه القبطية وأختها شيرين وقد اعتقهما الرسول بمجرد وصولهما اليه وتزوج الرسول مارية القبطية بعد أن أشهرت اسلامها بينما تزوج حسان بن ثابت بأختها شيرين . وانجبت ماريا القبطية لرسول الله أبنه ابراهيم الذى كان ريحان حياته فى هذه السن المتأخرة بحيث حزن على موته حزنا لم يعهده المسلمون عليه من قبل .

---

(١) كان من بين الهدية مبلغ من المال وبغلة سماها النبى (دلدل) وحمار وتقول بعض الآثار التى لم يذكرها المؤرخون أن من بين الهدية كان هناك طبيب معالج فرده رسول الله بقوله لقد اغنانا الله عن الطبيب ذلك أننا قوم لا نأكل حتى نجوع واذا اكلنا لا نشبع ..

٦٢٩ م ـ انهزام كسرى ومصرعه :

واصل هرقل انتصاراته على الفرس ، ودحر جيوشهم فاضطر كسرى الى الفرار مهانا ذليلا ، فقبض عليه خلفه شيرويه والذى يقول البعض أنه أنبه وعذبه عذابا شديدا ثم قتله (١) .

وعقد شيرويه الصلح مع هرقل على أن يتخلى الفرس عن كل البلاد التى لاتزال فى أيديهم من أملاك الروم ، وان يدفع جزية للروم ، وكان من أهم شروط الصلح اعادة صليب الصلبوت المقدس ـ ويقول المؤرخون أن ملك لفرس وخلفاءه لم يمسوا هذا الصليب أو الصندوق الموضوع فيه بسوء ولذلك فقد عاد كما كان .

الاحتفال بعودة الصليب :

وجرى احتفال من الاحتفالات الخالدة فى التاريخ بعودة الصليب الى مكانه فى كنيسة القيامة فى أورشليم ، حيث ضجت السموات والأرض على ما يقول مسيحيو هذا الزمان بالبشرى لانتصار الصليب ، واعتبر هرقل أعظم شخصية عرفها التاريخ ، وأن له من هرقل الاغريق الذى كان نصف اله شبها ، ولا بد أن تكون روح القدس قد حلت به .

رسالة النبى لهرقل :

يقول لنا بتلر وقد تسلم هرقل ـ وهو فى أوج مجده ، وقد بلغت احتفالاته الذروة ـ رسالة من النبى محمد يدعوه فيها الى الاسلام (٢) .

ونحن نرجح أن تكون الرسالة قد وصلته قبل ذلك عام ٦٢٧ مع بقية الرسائل ، فهذا ما يؤكده مؤرخو المسلمين ولا يوجد دليل على عكسه . بل ويؤيده أن التاريخ الاسلامى يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن هذه الرسالة وأنها وصلت لهرقل ابان وجوده فى القسطنطينية فى عاصمة بلاده ، وأنه دعا من كان موجودا من العرب يومئذ وعلى رأسهم أبو سفيان لسؤالهم عن النبى وما يعرفونه عنه .

وأغلب الظن أن بتلر اراد أن يشير الى هذا الموقف الدرامى وهو المقابلة عند وصول رسالة الرسول الى هرقل وهو فى ذروة مجده .

على أن هذه المقابلة الدرامية متحققة على كل حال وستظل تتحقق فى كل عام بل وفى كل يوم وفى كل ساعة ، كما يشهد على ذلك الحادث التالى :

---

(١) جاء فى كتب السيرة المحمدية أن كسرى الثانى كان واحدا ممن بعث اليهم الرسول ـ برسائله داعيا للاسلام ، فمزق كسرى الرسالة وقتل مبعوث الرسول .. فلما بلغ الخبر الى سيدنا محمد . قال : مزق خطابى فليمزق الله ملكه وهكذا كان .

(٢) أثبت كتاب السيرة نص الرسالة .

٦٢٩ م ــ غــزوة مؤتة :

فى هذه السنة هاجمت سرية ضخمة من المسلمين يراســها زيد بن حارثة عند قرية مؤته بالقرب من نهر الأردن أحد جيوش الروم ، فقتل زيد بن حارثة ، وقتل من ولى القيادة من بعده .

وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا ان حمل الراية خالد بن الوليد ، فاستطاع أن يثبت أقدام الجيش الاســلامى ، وأن ينجو به من كارثة محققة ، لينسحب به بعد ذلك فى أمن وسلام .

ولا شك أن جيوش الروم ، وهرقل من قبلهم ، لم يشــغل ذهنه كثيرا بهــذا الحادث ولم يعلق عليه كبير أهمية واعتبره مجــرد غارة من غارات البدو والعرب ، من هذه الغارات المألوفة التى لا خطر منها .

ولم يطف لجيوش الروم فى خيال ، ولا فى رأس قائدها هرقل المظفر ... ان هذا العربى الذى يدعى خالد بن الوليد سيكون هو الذى يسحق جيوش الروم بعد بضع سنوات فى معركة من أكبر معارك التاريخ وهى اليرموك ناسفا بذلك كل انتصارات هرقل التى أذهلت الدنيا فى ذلك التاريخ .

٦٣٠ ــ ٨ هجرية ــ فتح مكة :

دخل محمد رسول الله مكة فاتحا منتصرا بعد ثمانى سنوات من خروجه منها ، عاد اليها على رأس جيش من المســلمين بلغ عدته عشرة آلاف مقاتل كاملى العــدد والعدة وهو حشد لم تسمع به جزيرة العرب من قبل . وكان ذلك نهاية هذا الشوط من المعارك والغزوات كبدر وأحد والخندق وخيبر ... بحيث أن أهل مكة لم يكن أمامهم غير الاستسلام على الرغم من تصورهم سوء الجزاء الذى سيلقونه على يد الرسول ، لمــا اضطهدوا وقتلوا من أصحابه ومحاولتهم المستمرة لتدميره ، ولذلك فقد كانت مفاجأتهم عظيمة عندما أصدر الرسول عفوا عاما عنهم وقال لهم حكمته المدوية فى سمع التاريخ .

« اذهبوا فأنتم الطلقاء ــ اليوم أقول لكم كما قال يوسف لاخوته » .

بل وأذهلهم فوق ذلك كله ... عندما رد مفاتيح الكعبة الى أصحابها من أهل قريش .

متمثلا بقول القرآن « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » .

وهكذا دخل أهل مكة فى دين الله أفواجا ونزلت سورة النصر :

« اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » .

٦٣١ م ــ ولاية قيرس على مصر :

تصور هرقل أن واجبه المقدس هو أن يوحد العقيدة المسيحية بعد أن تنجـ انقاذ الامبراطورية المسيحية . فوضع بالاتفاق مع بعض رجال الكنيسة صيغة جد للتوفيق بين المذهب الخليقدونى والمونوفيزنى ، وذلك بأن يكف الناس عن الخو فى الكلام عن طبيعة المسيح ، وما اذا كان لها طبيعة واحدة أو طبيعتان ، على يؤمنوا بأن له ارادة واحدة وقضاء واحدا .

واختار مطران مدينة فاسيس بالقوقاز ، وكان يدعى قيرس ليقوم بمهمة تو المذهبين اليعقوبى والملكى ، أو الخليقدونى ، والمونوفيزنى فى مصر .

ولم يكد الأنبا بنيامين بطريرك مصر يسمع عن مقدم قيرس وعن المهمة التى اليه بها ، حتى أسرع بعقد مجمع فى مدينة الاسكندرية للقساوسة والرعية وا فيهم خطابا حرضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت و الى الاساقفة يأمرهم بالهجرة الى الجبال والصحارى ، ريثما يرفع الله عنهم غضـ ونقمته ، وبعد أن قام بهذه الاجراءات أسرع بمغادرة الاسكندرية ، متوجها الجنوب . . . نحو الصعيد .

عهد جديد من الاضطهاد فى مصر :

ووصل قيرس الى الاسكندرية ، وحاول فى بادىء الأمر أن يشرح للناس فى د وكياسة حقيقة المذهب الجديد مذهب وحدة الارادة (المونوتليتى) وانه لا يختلف جوهر المونوفيزنى ، ولكنه لم يلق من عامة الشعب اذنا صاغية ، فعقد فى الاسكند مجمعا من الاساقفة والقساوسة الملكيين الذين أسرعوا الى اقرار النحلة الجديد ولكن ذلك لم يزد الناس الا نفورا .

وهنا بدأ قيرس يتنكر للناس ويشرع فى حملة من الاضطهاد استمرت على و العباد عشر سنوات ويحوى تاريخ الكنيسة القبطية الكثير من قصص التعـ والاضطهاد والتى تعيد للذاكرة أسوأ ما تعرض له المسيحيون فى تاريخهم الطويل ويسوقون الأمثلة على ذلك أولها ما أصاب منياس شقيق الأنبا بنيامين « حيث سلط نيران المشاعل على جسده فأخذ يحترق ــ حتى سال دهنه من جبينه الى الأرض ولكنه لم يتزعزع عن عقيدته وايمانه فنزعوا أسنانه ، ثم وضعوه فى حقيبة رمل ، وتوغلوا به فى البحر وأخذوا يعرضون عليه الحياة اذا هو آمن بما أقره مجـ خليقدونيا ، فلما أن أصر على الرفض رموا به فى البحر فمات غرقا » .

وليس هذا الا قصة من عشرات ومئات القصص .

ويجمع المؤرخون الأوربيون ، على أن هذه الحماقة من جانب قيرس هى ا مهدت السبب لفتح المسلمين لمصر ، فقد كره الأقباط الحكم البيزنطى الذى سـا عليهم قيرس ، ودعوا الله أن ينجيهم من شروره وآثامه . . . فلما جاء المسلـ الى مصر استقبلهم المصريون ، كما يستقبلون المخلصين والمحررين من رسل السما

٦٣١ م – ولاية قيرس على مصر :

تصور هرقل أن واجبه المقدس هو أن يوحد العقيدة المسيحية بعد أن نجح فى انقاذ الامبراطورية المسيحية . فوضع بالاتفاق مع بعض رجال الكنيسة صيغة جديدة للتوفيق بين المذهب الخليقدونى والمونوفيزنى ، وذلك بأن يكف الناس عن الخوض فى الكلام عن طبيعة المسيح ، وما اذا كان لها طبيعة واحدة أو طبيعتان ، على أن يؤمنوا بأن له ارادة واحدة وقضاء واحدا .

واختار مطران مدينة فاسيس بالقوقاز ، وكان يدعى قيرس ليقوم بمهمة توحيد المذهبين اليعقوبى والملكى ، أو الخليقدونى ، والمونوفيزنى فى مصر .

ولم يكد الأنبا بنيامين بطريرك مصر يسمع عن مقدم قيرس وعن المهمة التى عهد اليه بها ، حتى أسرع بعقد مجمع فى مدينة الاسكندرية للقساوسة والرعية والقى فيهم خطابا حرضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت وكتب الى الاساقفة يأمرهم بالهجرة الى الجبال والصحارى ، ريثما يرفع الله عنهم غضبه ونقمته ، وبعد أن قام بهذه الاجراءات أسرع بمغادرة الاسكندرية ، متوجها نحو الجنوب ... نحو الصعيد .

عهد جديد من الاضطهاد فى مصر :

ووصل قيرس الى الاسكندرية ، وحاول فى بادىء الأمر أن يشرح للناس فى رفق وكياسة حقيقة المذهب الجديد مذهب وحدة الارادة (المونوتليتى) وانه لا يختلف عن جوهر المونوفيزنى ، ولكنه لم يلق من عامة الشعب اذنا صاغية ، فعقد فى الاسكندرية مجمعا من الاساقفة والقساوسة الملكيين الذين اسرعوا الى اقرار النحلة الجديدة ، ولكن ذلك لم يزد الناس الا نفورا .

وهنا بدأ قيرس يتنكر للناس ويشرع فى حملة من الاضطهاد استمرت على رقاب العباد عشر سنوات ويحوى تاريخ الكنيسة القبطية الكثير من قصص التعذيب والاضطهاد والتى تعيد للذاكرة أسوأ ما تعرض له المسيحيون فى تاريخهم الطويل ، ويسوقون الأمثلة على ذلك أولها ما أصاب منياس شقيق الأنبا بنيامين « حيث سلطت نيران المشاعل على جسده فأخذ يحترق – حتى سال دهنه من جبينه الى الأرض – ولكنه لم يتزعزع عن عقيدته وايمانه فنزعوا أسنانه ، ثم وضعوه فى حقيبة بها رمل ، وتوغلوا به فى البحر واخذوا يعرضون عليه الحياة اذا هو آمن بما اقره مجمع خليقدونيا ، فلما أن اصر على الرفض رموا به فى البحر فمات غرقا » .

وليس هذا الا قصة من عشرات ومئات القصص .

ويجمع المؤرخون الأوربيون ، على أن هذه الحماقة من جانب قيرس هى التى مهدت السبب لفتح المسلمين لمصر ، فقد كره الأقباط الحكم البيزنطى الذى سلط عليهم قيرس ، ودعوا الله أن ينجيهم من شروره وآثامه ... فلما جاء المسلمون الى مصر استقبلهم المصريون ، كما يستقبلون المخلصين والمخزرين من رسل السماء .

٦٣٢ م ـ ١١ هجرية : وفاة رسول الله :

وفى هذه السنة فى يوم الاثنين ليلة الثانى عشر من ربيع الاول توفى محمد رسول الله صلوات الله عليه ، بعد أن أدى الامانة وأتم الرسالة ، ونصح الأمة ولا يتسع هذا الكتاب المخصص لتاريخ مصر ، أن يفيض فى التعريف بدين الاسلام ويغنينا عن ذلك ان جمهور قراء هذا الكتاب من المسلمين الذين يعرفون تفاصيل دينهم ... ومع ذلك وجريا على سنتنا حتى الآن فى ايجاز المبادىء الأساسية للمعتقدات والأديان التى تعاقبت على مصر .

من المعروف والمشهور أن قواعد الاسلام خمس :

١ ـ شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

٢ ـ الصـــلاة .

٣ ـ الـــزكاة .

٤ ـ صوم رمضان .

٥ ـ حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا .

ولكن الذى يغيب عن أفهام الكثيرين حتى بين المسلمين المتعبدين أن هذه التقاليد والعبادات ليست مقصودة فى ذاتها ، وانما هى وسائل لتربية النفس لخير الجماعة الانسانية فى مجموعها ، فالله غنى عن العالمين ، وسواء آمنوا به أو لم يؤمنوا ، عبدوا أو لم يعبدوا فلن يضيره ذلك فى قليل أو كثير ... وانما العبادة وسائر التعـاليم انما كانت لخير العالمين ، فالرسول صلوات الله عليه يقول ... « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وهو يصف نفســه بأنه رحمـة مهداة ويقول القرآن الكريم « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

فتوحيد الاله هنا على سبيل المثال ، لايعنى سوى تحرر البشر من طغيان بنى الانسان ، فليس ثمة ســوى اله واحد وجميــع الناس عبيــد له ... فلا كهـان ولا قساوسة ، ولا وسطاء ، ولا طقوس ، أو هياكل ، فالله فى كل مكان أقرب لكل انسان من حبل الوريد ـ حسبه أن يدعوه ليجده سميعا مجيبا ، ويتفرغ من هــذا المبدأ الأساسى بقية تعاليم الاسلام ، من مساواة بين المسلمين وحرية وأخاء ..

والصلاة ليست سوى تربية نفسية ليظل ضمير الانسان حيا ، عاكفا على أداء الواجب ومحاسبة النفس والسير على الجادة ... وهى بعد ذلك تزويد للانسان بسلاح يستعين به وقت الشدة وخلال الازمات حيث لا يتصور نفسه وحيدا ضائعا فى الوجود وأن يدعو الله فيجده أقرب اليه من حبل الوريد .

والصوم لون آخر من الوان التربية تعويد النفس على احتمال المشاق والصبر على المكاره ، ومن أجل تحقيق مثل أعلى .. وهو فوق ذلك تنبيه للانسان أن يقدر معنى الجوع والظمأ ...

وأن يعمل على الا يكون على ظهر الأرض جائع أو ظمأن . وذلك من خلال المبدأ الرابع « الزكاة » : فالزكاة هى طريق الاسلام ليقضى على الجوع والحرمان على ظهر الأرض ، فليس لانسان أن يستأثر بملك شيء من الأشياء الا أن يدفع منه جزءا للمحتاجين والمحرومين ، لا على سبيل المن والاحسان ، ولكن على سبيل أداء الواجب وتوفية الحقوق ... فمال الغنى ليس من كسب يده ، وانما هو من صنع الجماعة كلها .

ويتكامل التهذيب الاسلامى وتربيته الاجتماعية والنفسية لخير الجماعة فى منسك الحج . حيث يتوافد المسلمون من كل فج عميق من أربعة أرجاء المعمورة ، ليحتشدوا حول بيت الله الحرام فى مكة ليتعارفوا فيما بينهم ، ولتتجلى وثاق وحدتهم فى اجتماع واحد ، حاشدا مرة فى كل عام ، الأقوياء المسلمين من كل لون ومن كل جنس ومن كل مدينة ، ومن كل طبقة ، ليذوبوا جميعا فى بوتقة واحدة هى بوتقة الايمان باله عادل رحيم يطالب منهم أن يتحابوا وأن يتعاونوا وأن يرحم بعضهم بعضا ويصل نسك الحج الى ذروته وهو يطلب من جميع الحجاج أن يخلعوا ملابسهم الا من قطعة قماش غير مخيطة تلتف حول جسدهم ، وأن يقفوا عاريى الرءوس .. وهكذا لا يعرف فيهم الملك والامبراطور ، من أصغر الناس ..

فالكل أبناء الله ... والكل عبيد الله ... فلا استعلاء ، أو استكبار ولا استغلال ، ولا استعباد .

ذلكم هو روح الاسلام .

جزع المسلمين لوفاة الرسول :

وقد جزع المسلمون لوفاة رسول الله ، وحق لهم أن يجزعوا ، وليس هناك ما يصور هول ما أصيبوا به من موقف عمر بن الخطاب ، وهو من هو ، رجاحة عقل ، وقوة شكيمة ، وبعد نظر فقد انكر أن يكون محمدا قد مات كما يموت سائر البشر وجرد سيفه وأعلن انه سيقطع به رقبة كل من يكرر هذه القولة المفزعة ، ولم يكن سوى أبى بكر الصديق حبيب رسول الله وصفيه وخليله ، من تمالك رشده فى هذا الموقف العصيب وخرج على المسلمين الذين كاد الحزن يذهب بصوابهم وقل لهم قولته الخالدة : على مر الزمن : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، وتلا عليهم من القرآن : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

وهنا فقط زالت الغشاوة عن عين عمر وقلبه ... وأدرك من لم يكن قد ادرك أن رسول الله قد لحق بالرفيق الأعلى . فعمدوا الى اختيار خليفة له ليلى أمورهم .

خلافة أبى بكر الصديق :

وعلى الرغم من أن رسول الله ... قد أشار أكثر من اشارة لرغبته فى أن يكون أبو بكر الصديق خليفته ، فقد آثر أن يدع الأمر لاختيار المسلمين من بعده ، لكى

يكون أمرهم شورى بينهم ، وليضع القاعدة الاساسية من قواعد الاسلام فى الحكم أن لا حاكم الا ما اختاره الناس اختيارا حرا . فهو وحده الذى له عليهم حق السمع والطاعة .

ولذلك فقد اوشك المسلمون أن يفترقوا فيمن يولون واجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة ليولوا احد كبرائهم خليفة لرسول الله ... لولا أن أدركهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب فما كان ليلى الخلافة سوى واحد من قريش ممن قاموا مع رسول الله منذ اليوم الأول ... ورشح لهم عمر بن الخطاب ... ولكن عمر طلب من أبى بكر أن يبسط يده ليبايعه ، فلما أن بايع عمر أبا بكر تنبه الناس الى أنه أحق المسلمين بالخلافة فأسرعوا جميعا لمبايعته .

وبايع الناس فى اليوم التالى أبا بكر في المسجد بيعة عامة ...

فالقى خطبة موجزة تعتبر بحق والى الابد دستور العلاقة بين الحاكم والمحكوم أى هى العقد الاجتماعى قبل أن تعرفه أوروبا بأكثر من الف سنة والذى قال بوجوده الفلاسفة فى القرن الثامن عشر – واليك ما قال :

« أيها الناس انى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله الا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع فاحشة فى قوم قط الا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم : قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله » .

ارتداد العرب :

وفوجىء أبو بكر الصديق او بالأحرى فوجىء المسلمون جميعا بارتداد عرب الجزيرة عن الاسلام وتوقفهم عن اداء الزكاة التى ترمز لوحدة الدول العربية الواحدة، والاعتراف بالقائد الواحد ، وامتلأت الجزيرة بأنبياء كذبة وأدعياء النبوة من أمثال مسيلمة وطليحة وسجاح ، ولاذت كل قبيلة بنبيها المدعى لتعلن عن سلطانها واستقلالها عن قريش ، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا ، ولم يتصوروا أن بقدرتهم أن يواجهوا العرب مجتمعين ، فأشاروا بالمهادنة والملاينة وكان على رأس الداعين الى ذلك عمر بن الخطاب .

ولكن رجلا واحدا امتلأ قلبه بالايمان الذى يزحزح الجبال – ذلك الرجل هو ابو بكر الصديق ، فقد أصر أن لا سلام ولا مهادنة مع العرب المرتدين ، فاما الاذعان لما كانوا عليه أيام الرسول واما الحرب والقتال ... وأمعن أبو بكر الصديق فى الاعراب عن ايمانه العميق بالله وبرسالة محمد ، فأوفد الجيش الوحيد الذى كان يوجد بالمدينة ساعتئذ ، الى حدود شبه الجزيرة لمناوشة الروم . وانتصر ايمان أبى بكر ، وسحقت حركات الردة وقتل أدعياء النبوة ... وعادت من جديد جزيرة العرب موحدة تحت راية الاسلام ، ورأى أبو بكر الصديق بوحى من ايمانه وعلى هدى من بصيرته أن يوجه جموع العرب الى الآفاق ... لتواجه الروم والفرس ، وتدعوها الى الدين الجديد، بعد ان رسخ الايمان به فى أعمق أعماق من كانوا يكفرون به ويتحدونه .

٦٣٣ م ــ ١٢ هجرية :

قام خالد بن الوليد بأول غارة على الامبراطورية الفارسية فاستولى على مدينة الحيرة عاصمة المناذرة الدولة العربية التابعة للفرس .

٦٣٤ م ــ ١٣ هجرية :

بعد الانتصار ضد أول جيوش الفرس ، اندفع خالد بن الوليد بناء على طلب الخليفة ابى بكر الى الشام ليواجه الجيوش البيزنطية فى سوريا وفلسطين فحصل على أول انتصار ساحق على الروم فى موقعة اجنادين .

وفاة أبى بكر الصديق وخلافة عمر بن الخطاب :

وفى اليوم السابع من شهر جمادى الآخر توفى أبو بكر الصديق بعد أن مكث فى خلافته عامين وثلاثة اشهر وتسعة ايام ، تعتبر فى طبيعتها استمرارا لحياة الرسول صلوات الله عليه ، وتثبيتا للرسالة وتدعيما لها .

ومات عن ثلاث وستين سنة على أصح الروايات ..

وقد استشار المسلمين قبل وفاته فيمن يخلفه بعده فأجمع الكل على ولاية عمر بن الخطاب فأوصى به خليفة من بعده ولذلك فقد انتقلت الخلافة اليه بطريقة آلية .

٦٣٦ م ــ ١٥ هجرية : موقعة اليرموك :

كانت ولاية عمر للخلافة بمثابة قوة دافعة للجيوش الاسلامية التى مضت فى حربها ضد جيوش الفرس والروم فى آن واحد .

وكانت أعظم واقعة فى بلاد الشام بين المسلمين والروم هى واقعة اليرموك ، والتى ولى قيادتها « خالد بن الوليد » على الرغم من عزل عمر بن الخطاب له وتوليه أبى عبيدة . ويعتبر المؤرخون الاوربيون ان انتصار المسلمين فى معركة اليرموك على قلة عددهم على جيش الروم المنظم المدرب المحترف ، والذى كان يقوده تيودور شقيق الامبراطور هرقل والذى يعتبر مفخرة القواد البيزنطيين لبلائه فى الحرب ضد فارس .. يعتبرون انتصار العرب فى هذه المعركة لغزا استعصى عندهم على التفسير العلمى .

وبانهزام الروم فى موقعة اليرموك ، استولى المسلمون على دمشق وحمص وسقطت حلب وانطاكية ...وقد شهد سكان هذه البلاد شيئا لاعهد لهم به من قبل، فقد اقرهم المسلمون على دينهم .. وتركوا لهم انظمتهم وكنائسهم وأموالهم ... واكتفوا منهم بالجزية التى لم تكن تزيد عن دينارين على كل رأس ...وهو لايكاد

يؤلف جزءا صغيرا من الضرائب التى اعتادت بيزنطة والرومان من قبلهم أو الفرس من بعدهم أن يبهظوهم بها فكان لهـذه المعاملة المثالية أثر كبير فى اعتناق الكثيرين لدين الاسلام ومصادقة من لم يسلم للمسلمين ، مما كان له أكبر الأثر فى استمرار الفتوح .

٦٣٧ م ــ ١٦ هجرية : معركة القادسية :

انتصر سعد بن ابى وقاص على رأس جيش المسلمين فى واقعة القادسية التى حشد لها الفرس زهرة جيوشهم المدربة الباسلة ، والتى كانت تفوق فى العدد اضعاف المسلمين ، وكانت مزودة بالأسلحة التى لاعهد للعرب بها من قبل وخاصة بالفيلة ... وكان يقود الجيش الفارسى رستم كبير وزراء كسرى يزدجرد والذى أثبت كفاءته المنقطعة النظير .

وبانتصار المسلمين فى القادسية ، تهاوت مدن فارس الكبرى وأهمها المدائن عاصمة فارس ، واستولى المسلمون على ايوان كسرى وكنوزه وذخائره .

٦٣٨ م ــ ١٧ هجرية :

استسلمت مدينة « أورشليم » (القدس) للمسلمين واشترط اسقفها منقرنيوس أن لا يسلمها الا لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين نفسه ، فقصدها عمر بن الخطاب قاطعا الرحلة من المدينة الى بيت المقدس ، فى غير حاشية أو رفاق ، وليس يصحبه سوى تابع له فراح عمر يركب بعض الطريق بينما يمشى تابعه ، ثم ينزل ليركب تابعه ... حتى وصل فى لباسه البسيط المتواضع الى بيت المقدس ، فكانت هذه القداسة افعل فى نفوس المسيحيين ، من الجيوش الاسلامية الظافرة ... وتناقلت الدنيا احاديث هذا الأمر العجيب .

الفصل الثامن

مصر الاسلامية

٦٣٩ م ــ ١٨ هجرية :

عمرو بن العاص يقترح على الخليفة فتح مصر :

فى هذه السنة شرع عمرو بن العاص يقنع عمر بن الخطاب الذى كان لايزال موجودا بالشام أن يفتح مصر ، وراح يبين له المزايا التى ستعود من فتح مصر ، فى حرمان الروم من مواردها الوفيرة واستقرار المسلمين بها . ومضى يهون له من شأن هذا الفتح وانه لن يحتاج الى جيش كبير ، فقد سبق ان زار مصر ويعرف مسالكها واحوالها وظروفها ، فأذن له عمر بن الخطاب على مضض ، فقد كان شديد الحرص على دماء المسلمين ، وعلى أن لا بشتت قواهم شرقا وغربا فى الفتوحات ، وكانت جيوش المسلمين فى هذا الوقت القصير قد بدأت تضرب فى أنحاء فارس بعد أن استولت على كل بلاد النهرين وسوريا وفلسطين .

وسار عمرو بن العاص بجيشه المحدود الذى أجمع المؤرخون على أن عدته لم تربو على أربعة آلاف مسلحين بالسيوف والرماح والقسى ولازيادة .

وثمة خلاف على الوقت الذى بدأت فيه الحملة على مصر ، فمن قائل أنها تمت فى السنة السادسة عشرة من الهجرة على ماروى الطبرى نقلا عن سفب ولكنه لم ــ يأخذ بهذا الرأى وأثبت تاريخ فتح مصر فى السنة العشرين من الهجرة .

٦٤٠ م ــ ٢٠ هجرية : فتح مصر :

حدث خلط كثير بين المؤرخين العرب فى كل ما يتعلق بفتح مصر وقد نشأ ذلك عن الخلط بين مصر البلد التى كانت تنصرف الى مدينة منف وحصن بابليون وبين مصر كلها كاقليم ... وكذلك بالنسبة لدخول المسلمين الاسكندرية صلحا ، ثم عودتهم اليها حربا .

ونحن نثبت هنا أرجح الآراء التى اتفقت عليها الأغلبية :

تقدم عمرو بن العاص بجيشه الى مصر ، حتى اذا وصل الى رفح أول الحدود المصرية لحق به رسول من قبل عمر بن الخطاب يحمل رسالة ، ولما كان عمرو بن العاص

يعرف بناقب ذكائه مقدار تردد عمر بن الخطاب فى الاذن له بفتح مصر ، فقد غاب على خاطره أن يكون فى هذه أمر يصرفه عن غزو مصر ، ولذلك فقد تقاعس عن مقابلة رسول الخليفة واستلام الرسالة ومضى بجيشه نحو الأمام حتى وصل مدينة العريش وأصبح بذلك بوغل فى ارض مصر . وهنا فقط استدعى الرسول وفض الرسالة ، فاذا بها تصدق حدسة وتخمينه ، وتشهد له بحسن البراعة والتقدير وأن الفضل فى فتح مصر وادخالها الى العالم الاسلامى يدين بالدرجة الأولى الى عمرو بن العاص ، فقد كانت رسالة الخليفة تقول له انه اذا تسلم الرسالة وهو لايزال خارج حدود مصر فعليه أن يعود ادراجه ، ولا يمضى لهدفه .. أما اذا كان قد تجاوز الحدود المصرية بالفعل فقد أصبح لزاما عليه أن يمضى على بركة الله .

وأخبر عمرو بن العاص من حوله بمضمون الرسالة وهو يخفى من غير شك ابتسامة الاحساس بالنصر ... فأصبح لزاما طبقا لأمر الخليفة ان يمضوا نحو الأمام .

سقوط مدينة الفرما :

وكانت أول مقاومة قابلها المسلمون حول مدينة الفرما حيث كانت توجد بها حامية بيزنطية ، وبعد حصار ومناوشات استمرت شهرا سقطت المدينة فى يد المسلمين وانسحب منها الروم ، فكان ذلك أول الفتح ، فضاعف من عزائم المسلمين وقوى ايمانهم فى الوقت الذى أوهن من عزائم الروم وفت فى عضدهم . وكانت انتصارات المسلمين المذهلة على جيوش الروم والفرس ، قد بدأت تجعل الشعوب تؤمن بأن قوة المسلمين لاتغلب . . كما أن حسن معاملتهم للشعوب التى ذاقت الأمرين فى ظل الفرس والروم ، والعدل والأمانة التى اشتهرت بها هذه الطلائع الاسلامية قد فتحت لهم القلوب وازاحت من طريقهم أقوى العقبات ... وهى كراهية الشعوب ومعاداتها . .

سقوط مدينة بلبيس :

ولذلك فقد أعقب سقوط الفرما ، سقوط مدينة بلبيس ، بعد حصار ومناوشات استمرت شهرا آخر ، وانسحبت حامية المدينة بما انضم اليها من حامية الفرما المنسحبة الى حصن بابليون أقوى حصون مصر ومفتاحها فى الشرق .

معركة هليوبوليس :

وصل المسلمون الى حيث كان يقوم حصن بابليون (مصر القديمة) ـ فى الوقت الحاضر فوجدوه أمنع من عقاب الجو ، ولم يكن لدى جيش عمرو آلات الحصار ، ولذلك فقد رأى عمرو انه لامحل للتفكير فى الاستيلاء على الحصن عنوة ، وقد كان بداخله اضعاف اضعاف جنده من جنود الروم ، ولذلك فقد أرسل الى عمر بن الخطاب يطلب منه مددا ، ثم خلف حصن بابليون وراءه وراح يهاجم بجيشه الخفيف السريع حول مصر الوسطى ، فوصل الى الفيوم ودارت له معركة حامية الوطيس عند مدينة البهنسا خسر فيها بعض رجاله ولكن النصر كان حليفه فى ختامها ...

على انه لم يسول على الفيوم اد وصلته الانباء ان مدد الخليفة قد وصل فعاد ادراجه للاتصال بالمدد . ولم يكن المدد الذى وصله سوى اربعة آلاف . وعلى أثرها اربعة آلاف اخرى على رأس كل منها صحابى جليل قومه عمر بن الخطاب بألف رجل وهؤلاء الاربعة القادة هم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ـ أو خارجة بن حذافة .

وهكذا تكامل لعمرو بن العاص جيش من اثنى عشر ألف مقاتل وصفها عمر ابن الخطاب بأنها لاتغلب عن قلة .

ولعل تيودور قائد الروم فى حصن بابليون قد تصور ان هذا الذى وصل من طلائع المسلمين هو أول المدد الذى لن يلبث أن يتزايد ويتضاعف .. فرأى ان يضرب ضربته قبل أن يستكمل المسلمون أهبتهم ، خاصة وقد كانوا بعددهم الضئيل لايصلون الى ربع القوات التى كانت تحت امرته . فغادر الحصن الذى كان يلوذ به على رأس جيشه ليشتبك بجيش المسلمين عند هليوبوليس « مصر الجديدة فى الوقت الحاضر » وتكررت الاعجوبة التى أذهلت المعاصرين ولا تزال تذهل الباحثين حتى اليوم ، فهذا العدد المحدود من المسلمين ، قد تفوق تفوقا ساحقا على جيوش الروم المدربة المجهزة المحاربة داذا بهـا تتمزق شر ممزق ، فيموت من يموت ، ويغرق فى النيل من يغرق . ويهرب من يهرب .. ويلوذ بحصن بابليون من يلوذ ولكن كان من المحقق ان الأمر قد قضى وان مصر قد سقطت ، كما سقطت الشام والعراق من قبل ، ولكن بأيسر سبيل هذه المرة وبأقل جهد .

وأسرع عمرو بن العاص فاستولى على قرية أم دنان « الأزبكية حاليا » متخذا منها قاعدة على النيل يتحرك منها الى أى جزء من اجزاء مصر .

مفاوضات قيرس مع عمرو بن العاص :

من المحقق أن هوى قيرس حاكم مصر وبطريركها الملكى ـ كان مع المسلمين عندما دخلوا البلاد ـ كان شديد الرغبة فى التصالح معهم .

ولذلك فقد دخل عقب موقعة هليوبوليس فى مفاوضات مع عمرو بن العاص ـ انتهت الى اعداد مشروع معاهدة حفظ لنا الطبرى نصها لحسن الحظ :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص ، لا يساكنهم النوب (النوبة) وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين ألف ألف وعليهم ماجنى لصوتهم (لصوصهم) فاذا أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن ابى بريئة ، وان نقص نهرهم عن ثمانية ، رفع عنهم بقدر ذلك .

« ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب ، فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ قامته أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثا ، فى كل ثلث جبايته ثلث ما عليهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يبعثوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرنسا على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير وعبد الله ومحمد وابناه وكتب وردان » .

وقد يكون قد رفع خطأ من النســـاخ فى الرقم الوارد فى مقداد الجزية بهـذه المعاهدة ولكن هذا الخطأ الذى يمكن أن يوصف (بالطبعى) لا يمكن أن يؤثر على سلامة المعاهدة فى مجموعها . فهى نموذج لما جرى عليه العمل فى الاقطار الاخرى ، ودستور المسلمين فى هذه الفترة .

وقد علق قيروس شرط ابرام المعاهدة نهائيا على موافقة هرقل امبراطور الروم ، والى أن تتم هذه الموافقة ، فعلى الجيوش أن تلزم مواقعها ولا يدور بين الطرفين قتـــال .

ولم يكد مشروع هذه المعاهدة الذى يمثل فى حقيقته تسليم مصر للمسلمين يصـــل الى هرقل ، حتى غضب وحنق على قيرس وأرســل يســـــتدعيه الى القسطنطينية . حيث عنفه وعزله عن ولاية مصر ونفاه ، وأرسل الى رجاله فى مصر أن يمضوا فى مقاومتهم للغزو الاسلامى .

٦٤١ م ـ ٢١ هجرية ـ انتصار المسلمين فى معركة نهاوند :

فى هذه الفترة انتصر المسلمون انتصارا ساحقا فى معركة نهاوند ، وبهذا انتهت الحرب مع فارس نهائيا ، اذ تساقطت أقاليمها كالرى وهمذان وأذربيجان وجرجان وخراســـان .

٦٤١ م ـ موت هرقل وسقوط حصن بابليون :

فى مارس من هذه السنة وصل نبأ موت هرقل امبراطور الروم الى المسلمين المحيطين بحصن بابليون ، فأرتفعت من صفوف الجيش أصوات التكبير والتهليل ، فلما أن سأل المحاصرون فى الحصن عن علة التكبير وعلموا بنبأ موت هرقل فت ذلك فى عضدهم وكسر شوكتهم على ما يقول مؤرخو العرب ، فوهنت قوتهم وانهار عزمهم فى الوقت الذى تقوى فيه المسلمون حتى أن الزبير بن العوام تسور جدار الحصن من زاويته الجنوبية الشرقية شاهرا سيفه وكبر فرددت جموع المسلمين

المحتشدين أسفل الحصن الكبير وراءه ، فتصور من بالحصن أن المسلمين قد اقتحموا الحصن بالفعل ، فأرسلوا الى عمرو بن العاص يفاوضونه فى التسليم على ما سبق الاتفاق عليه وأجابهم الى ما طلبوا وفى يوم الاثنين ١٩ أبريل سنة ٦٤١ فى عيد الفصح غادر البيزنطيون حصن بابليون مسلمين الى عمرو بن العاص وجيش المسلمين ، ويلطم كثير من المؤرخين خدودهم ، ويرفعون أصواتهم بالاحتجاج والحسرة ، وعلى رأسهم بتلر ، كيف يسلم الروم هذا الحصن الذى ما كان باستطاعة العرب أن يأخذوه عنوة أبدا .

٦٤٢ م — ٢٢ هجرية : فتح مدينة الاسكندرية :

سارت الجيوش الاسلامية بعد فتح حصن بابليون نحو الاسكندرية فتصدت لها بعض الجيوش الرومانية ، فى بعض المواقع ، ولكن الهزيمة كانت تدور عليهم فى خاتمة المطاف وأخيرا وصلت جيوش المسلمين الى مشارف مدينة الاسكندرية ، ويعبر بتلر عن حسرته لسقوط الاسكندرية وهو يصور بعين الخيال ما كانت عليه المدينة الخالده من عظمة بالقيـاس الى هؤلاء الاعراب الشعث الوجوه النحيلى الاجسام القليلى العدد وهم يتجولون وسط الحدائق وبساتين الكروم والاديرة الكثيرة بأراضيها فيقول فى وصف المدينة : لقد كانت الاسكندرية حتى ذلك الوقت تعتبر أجمل مدن العالم وأبهاها . فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئا يعادلها اللهم الا روما وقرطاجنة القديمتين .

فما سرحت العين الا لتقع على أسوار وحصون لا نظير لها بقيت بعد ذلك قرونا وهى مثار اعجاب من رآها من أهل الاسفار وكانت تشرف وراء هذه الاسوار والحصون بدائع من قباب ومن عمد بعضها اسطوانى وبعضها مربع تقوم فوق قواعدها ، ومن تماثيل ومعابد وقصور تتلألأ وتتألق ، فاذا مانياسرت رأيت دون ذلك معبد السيرابيوم وقد أناف بسقفه المذهب والقلعة التى كان يشرف عليها عمود دقلديانوس ، فاذا مانيامنت بدت لك الكنيسة العظمى كنيسة القديس مرقس ، تليها العمد المربعة التى سميت مسلات كليوباترا والتى كانت قد عمرت نيفا وألفى عام وفيما بين يمينك ويسارك يرتفع بناء المنارة الرائع (فاروس) والذى كان يعده الناس أحد العجائب السبع وحق لهم أن يفعلوا .

وكان من الممكن أن يقف المسلمون على أبواب الاسكندرية الى ما شاء الله دون أن يستطيعوا لها فتحا .. فقد كانت مفتوحة الى البحر الذى لا يوجد للمسلمين فيه أى سفينة فأصبح يستحيل حصارها ، وكان ماؤها موفورا وثروتها لاحد لها وكانت أسوارها لا يمكن اقتحامها: بل لم يستطع المسلمون الاقتراب منها ، فقد انهالت عليهم قذائف المنجنيق ، وكانت المدينة تغص بعشرات الالوف من الجند ومرة أخرى يظهر قيرس فى الميدان ليسلم الاسكندرية للمسلين فبعد وفاة هرقل ، تولى الحكم من بعده قسطنطين ابنه ، فاستدعى قيرس من منفاه ليستشيره فى أحوال مصر ، وسبيل الدفاع عنها ، على أن قسطنطين لا يلبث أن يموت ليلى العرش بعده

أخوه هرقلوناس الذى تشاركه قسطنطين فى الحكم . فاتفقا على أن يوفدا قيرس الى مصر ليعقد صلحا مع المسلمين بعد أن بين لهم استحالة الدفاع عن مصر .

وفى نوفمبر سنة ٦٤١ أبرم قيرس معاهدة جديدة على غرار معاهدة بابليون على أن يسلح لجيش بيزنطة أن يغادر الاسكندرية وأن يحمل جنوده إمتعتهم وأموالهم وكذلك كل من يرغب فى مغادرة الاسكندرية من رعاياها .

وأن يتعهد المسلمون ان لا يتعرضوا للكنائس .

وتم الانفاق على أن يتم الجلاء بعد احد عشر شهرا .

وفى التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ انسحب الروم حسب الاتفاق ودخل المسلمون مهللين مكبرين الى مدينة الاسكندرية فى هدوء وسلام .

وكان قيرس قد مات خلال هذه الفترة من الهدنة :

عمرو بن العاص يكتب الخليفة :

وارسل عمرو بن العاص يبشر عمر بن الخطاب بالفتح ويقول له « ان الله فتح علينا مدينة من صفتها أن بها اربعة آلاف قصر ، واربعة الاف حمام ، واربعمائة ملهى وإثنى عشر ألف بائع خضر ، وأربعين الفا من اليهود اهل الذمة ،وقد يكون فى هذه الارقام بعض المبالغة كما هى العادة ...

ولكن الامر المجمع عليه ان الاسكندرية حتى ذلك الوقت كانت أعظم مدن العالم التجارية بصفه عامة وليس يفوقها أو بالاحرى يضاهيها من حيث العمران فى هذه الفترة سوى القسطنطينية وربما روما .

هل حرق المسلمون مكتبة الاسكندرية :

وقد نسب بعض مؤرخى المسلمين « المتأخرين » الى جيش المسلمين الفاتح للاسكندرية أنه أحرق مكتبة الاسكندرية .

وقد رأينا فيما مر بنا من أحداث ان هذه المكتبة قد احترقت من قبل . وليس لكتاب بتلر من حسنة سوى أنه جهد نفسه فى هذه الناحية لاثبات زيف هذه القرية وبطلانها وكيف انها لم ترد فى أى من مصادر التاريخ الاسلامى أو البيزنطى أو القبطى التى كتبت فى القرون التى عقبت الفتح . وان جميع الذين زاروا الاسكندرية قبل الفتح الاسلامى لم يشيروا الى وجود مكتبة بها .

انشاء مدينة الفسطاط :

وكشف المسلمون عن طبيعتهم الصحراوية فالم يتخذوا من الاسكندرية عاصمة للبلاد ، ويرجع ذلك الى عبقرية عمر بن الخطاب ، الذى أصر على أن يحافظ جيش المسلمين على تقشفه وطهارته فأشار فى كل قطر دخلوا اليه الى انشاء مدينة جديدة يوافق جوها مزاج العرب وتقع على حافة الصحراء ، وعلى هذا الأساس أنشأ عمرو بن العاص مدينةالفسطاط بالقرب من حصن بابليون أما سبب تسميتها

بالفسطاط . فيرجع الى أن المسلمين عندما حلوا خيامهم من حول حصن بابيلون ، ليستأنفوا زحفهم نحو الاسكندرية اكتشفوا ان حمامة ، قد عششت فى خيمة عمرو بن العاص وأفرخت ، فقال عمرو بن العاص انها نزلت فى حماية المسلمين ، فطلب منهم ان يبقوا الفسطاط على حاله اكراما لها . فلما أن رجع الجيش من الاسكندرية تساءلوا أين ينزلون فقال البعض عند الفسطاط فكان ذلك هو اسم المدينة الجديدة .

لم ترق هذه القصة التى أجمع عليها مؤرخو العرب الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه ــ تاريخ مصر الاسلامية ــ ولذلك فهو يناقشها مناقشة عقلية يستبعد بها أن تعشش حمامة على فسطاط عمرو بن العاص . وهو يرجح برأى مؤرخى الفرنجة من ان كلمة فسطاط كلمة قد أخذت عن الكلمة الاغريقية Fossotun أى المدينة ــ وان كان يرى ان الفسطاط كلمة عربية الاصل بمعنى المدينة والذى فات الدكتور الشيال ان وجود كلمة الفسطاط فى المعاجم العربية بمعنى ــ المدينة لا يمنع أن تكون منقولة عن اليونانية ، فما فاته أن يفسر لنا ، اذ كانت كلمة الفسطاط تعنى أى مدينة فلماذا اختصت مدينة الفسطاط التى انشأها عمرو بهذا الاسم دون أى مدينة اخرى انشأها العرب ، حتى ليقولوا على ما فعل هو نفسه :

« سميت البصرة فسطاطا على التشبيه بفسطاط مصر » .

المسجد الجامع : أو مسجد عمرو بن العاص :

وكان أول مبنى أقيم فى المدينة هو المسجد الجامع جريا على عادة المسلمين فى هذه الفترة ، فخط مسجد عمرو الذى لا يزال باقيا حتى الآن وكانت مساحته يوم أن انشأه عمرو بن العاص لا تتعدى خمسين ذراعا فى ثلاثين ، ولم يلبث هذا المسجد ان تحول الى مركز اسلامى علمى ، فيه محدثون من الصحابة ومن التابعين وتابعى التابعين ، والاجماع على أن أستاذ المعهد الاول هو الصحابى الجليل عبد الله ابن عمرو بن العاص ، الذى يشهد له الكل بالتفقه فى الدين ، وينسب اليه أنه من أول أو لعله الوحيد الذى كتب أحاديث رسول الله .

ترعة أمير المؤمنين :

وليس هناك ما يكشف عن عبقرية عمرو بن العاص وكأنه قد ولد مفطورا على الادارة والقيادة ، من أنه عكف أول ما استتب له الأمر على تطهير هذه القناة التى كانت مقياسا دائما على مدى رقى مصر أو تدهور أحوالها ، فكانت هذه القناة تطهر وتستعمل كلما صلحت الاحوال فى مصر ، وتردم كلما تدهورت الاحوال ، ونعنى بها هذه القناة الموصلة من النيل الى البحر الاحمر ، والتى كانت سبيل التجارة بين الشرق والغرب عبر النيل ، وقد كان آخر من طهرها واستعملها هو تراجان ولذلك اطلق اسمه عليها ، اما هذه المرة فقد أطلق عليها اسم قناة أمير المؤمنين ، ذلك أنها أصبحت الطريق الرئيسى لحمل الغلال وسائر الاقوات من مصر الى المدينة .

الأنبا بنيامين ينبوأ كرسيه فى الاسكندرية :

بادر عمرو بن العاص باشعار أقباط مصر بروح التسامح الاسلامى، واحترامه لمختلف العقائد فأصدر كتاب أمان للأنبا بنيامين بطريرك الأقباط هذا نصه :

« أينما كان بطـريق الأقباط بنيامين نعده بالحماية والأمان وعهـد الله فليأت البطريق ها هنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته » .

ولم يكن بنيامين يطمـع فى أكثر من ذلك لكى يظهـر من مخبئه ويدخـل الى الاسكندرية دخول الظافرين حيث احتفل به الشعب احتفالا رائعا بعد غيبة ثلاثة عشر عاما .

وقد كان لهذه السياسة التى انتهجها عمرو بن العاص بوحى من تقاليد الاسلام أثرها المباشر فى نفسية المصريين ، اذ بدأوا يدخلون فى دين الاسلام وعندما تيقنوا أن الدخول فى الاسلام يعفيهم حقا وصدقا من دفع الجزية ويرتفـع بهم الى مرتبة الحاكمين ... تدفقوا باعداد غزيرة ...

بحيث لن يمضى وقت كبير ، حتى لا يبقى على دين المسيحية سوى الرهبان فى اديرتهم ورجال الدين بصفة عامة ، والأغنياء والقادرون على حماية أنفسهم ورعاية مصالحهم .

الشعب المصرى عند الفتح :

واذ نوشك الآن أن ندع مصر المسيحية لنشرع فى تاريخ مصر الاسلامية نرى أن نثبت وصف المقريزى لشعب مصر عند الفتح الاسلامى .

« اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت جميعها مشحونة بالنصارى على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم . أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة المسيحية الملكية ، وكانت عدتهم تزيد على تلثمائة الف رومى ، والقسم الآخر عامة اهل مصر ، ويقال لهم القبط ، وأجناسهم مختلفة لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الاسرائيلى الأصل ، من غيره وكلهم يعاقبه فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم أهل الفلاحة والزراعة ومنهم أهل الخدمة والمهنة ، وبينهم وبين الملكيين أهل الدولة ـ من العداوة ما يمنع زواجهم ويوجب قتل بعضهم بعضا » (١) .

٦٤٣ م ـ ٢٣ هجرية :

وهى أرجح التواريخ فى رأى بتلر لفتح ليبيا ولكن أمين باشا سامى يجعل هذه الواقعة فى السنة السابقة ومن رأينا أن فتح ليبيا أعقب فتح الاسكندرية .

---

(١) المقريزى ـ الخطط ـ ج ٤ ص ٢٩٣

وقد وصلت جيوش عمرو الى برقة فى غير كبير مشقة ، وسلمت المدينة صلحا على أن تدفع للمسلمين ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل سنة ، ثم سار الجيش بعدها الى طرابلس وكانت أمتع حصونا ، وأعز جندا ، ولكنه لم يحـل دون اقتحام عمرو للمدينة والاستيلاء عليها ، وهكذا دخلت ليبيا كلها تحت ولاية عمرو بن العاص فى ظل الحكم الاسلامى .

٦٤٤ م — ٢٣ هجرية : استشهاد عمر بن الخطاب :

فى الثانى والعشرين من ذى الحجة من عام ٢٣ هجرية ، اغتال أبو لؤلؤة فيروز المجوسى عبد المغيرة بن شعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو قائم يصلى فى المسجد وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وكان عمره يوم وفاته نيفا وستين سنة على أرجح الآراء .

ودفن الى جوار صاحبيه محمد رسول الله وأبى بكر باذن خاص من الســيدة عائشة . وسيرة عمر وحكايات عمر وزهد عمر وعدالة عمر وحزم عمر وتقشف عمر ، قد كتبت فيها وسنظل نكتب مئات الألوف من الصفحات ، فهو عصر الاســلام فى ذروته ، فى حقيقته وجوهره ، فى نقائه وطهارته ، ولذلك فمن العبث أن نشوه ذلك بالاشارة الى بعض هذه الجوانب ، فهى أشهر من أن تعرف .

ولو حاولنا أن نقف عند حد وصفه بأنه كان أول من فعل كذا وكيت لاحتاج الأمر بدوره الى صفحات وصفحات ولذلك فنكتفى ببعض العبارات التقليدية التى لا يخلو منها كتاب مهما كان مختصرا .

فعمر بن الخطاب أول من نقل الدعوة الاسلامية من السر الى العلن ولذلك أطلق عليه اسم الفاروق وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين ، وأول من سن للمسلمين العمل بالتاريخ الهجرى ، وأول من وضع الخراج بدلا من نزع الأرض من تحت يد المنتفعين بها وأول من مصر الامصار فأمر بانشاء البصرة والفسطاط وأشار بطرق تخطيطهما ، وأول من استقضى القضاة ، ودون الدواوين ، بحيث كان يوزع على كل مسلم ابتداء من الطفل المولود حتى كبار الشيوخ قدرا من المال يكفى لاعاشته وبالجملة فهو مرسى قواعد الدولة الاسلامية بحق وواضع دستور الحكم بها ، استنادا على روح الاسلام والقرآن وسنة الرسول .

خلافة عثمان بن عفان :

وقد عهد عمر بن الخطاب بعد استشارة أولى الرأى الى ستة من كبار الصحابة ليتفقوا على من يتولى الخلافة من بعده ، وهم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف فانتهى الأمر بهم الى اختيار عثمان بن عفان ، فأصــــبح بذلك ثالث الخلفاء الراشدين .

٦٤٥ م ـ ٢٥ هجرية : عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر :

وكان من أول ما فعله عثمان بن عفان ، ان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعهد بولايتها الى عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وهو أخ لعثمان بن عفان من امه وكان ذلك فاتحة التصرفات التى اخذت على عثمان بن عفـان من أنه يعزل الولاة الصالحين لحساب أفراد عائلته ، والاجماع على أن حكم عمرو بن العاص كان آية في العدل والاصلاح ، وكان آخر ما جباه من الجزية فى مصر اثنى عشر الف الف دينار ، ولما كانت الجزية كما ذكرنا من قبل هى دينارين على الفرد القادر البالغ من العمر اثنى عشر عاما حتى الستين ، وهؤلاء يؤلفون عادة ثلث السكان فان ذلك يدل على ان عدد سكان مصر فى هذه الفترة كان يبلغ ثمانية عشر مليونا .

عودة الروم الى الاسكندرية :

وكان الروم استغلوا فرصة ابعاد عمرو بن العاص عن مصر فأرسلوا اسطولا وصل مدينة الاسكندرية . فلم ير عثمان بن عفان الا أن يعيد عمرو الى مصر على راس الجيش . فاستطاع عمرو بن العاص هذه المرة أن يقتحم أسوار المدينة عنوة ، ولذلك فقد نكل بالجيوش الرومانية التى نكثت بعهـدها معه ، اذ كان أحد بنـود الاتفاق أن لا يعودوا لغزو مصر ...

وفى هذه المرة هدم عمرو اسوار مدينة الاسكندرية الشرقية وسواها بالأرض حتى لا تعود للوقوف فى وجهه مرة ثانية .

اتخاذ الأساطيل الاسلامية :

وقد أثبت هذا الحادث فى غير خفاء ، ان لا معدى للمسلمين من اتخاذ الأساطيل فى البحر ، بعد أن خرجت دولتهم من الصحراء ، وأصبحت على ساحل البحر ، وكان عمر بن الخطاب شديد الخوف على المسـلمين من ركوب البحر حيث لم يكن لهم عهد به من قبل ولذلك فقد رفض ما أشار به عليه معاوية بن ابى سفيان من ضرورة اتخاذ الأساطيل فى البحر . ولكن عثمان بن عفان صرح لمعاوية بانشاء اسطول فى البحـر الأبيض .

٦٤٨ م ـ ٢٧ هجرية : فتح افريقية :

فتح عبد الله بن سعد أمير مصر افريقية « قرطاجنة القديمة » بعد معركة ضارية، ودارت مع من يسميه مؤرخو المسلمين جرجير ملك البربر « وهو جريجورى بطريق

افريقية » وكان قد استقل بها عن بيزنطة ، وكان جيشه يزيد على مائة الف ويجعله بعضهم مائتى ألف ، فكانت النصرة لجيوش المسلمين وفتح الطريق أمام المسلمين غربا حتى المحيط .

٦٤٩ م ــ ٢٨ هجرية : فتح قبرص :

تمكن معاوية بن ابى سفيان والى الشام من فتح جزيرة قبرص مستخدما لأول مرة سفنا صنعت فى الاسكندرية ومرافىء الشام فكانت هذه هى أول غزوة يشنها المسلمون بحرا .

٦٥١ م ــ ٣١ هـ . موت كسرى يزدجرد :

وأخيرا مات كسرى يزدجرد ، قتله آخر من بقى حوله من اتباع وبهذا انتهت الأسرة الساسانية التى رفعت من شأن الفرس كأعظم ماتحقق لهم فى يوم من الأيام ...

وبموت يزدجرد طويت صفحة فارس عابدة النار لتبدأ فارس الاسلامية صاحبة الصفحات المشرقة فى تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية ..

٦٥٢م ــ ٣١ هجرية : فتح بلاد النوبة :

غزا أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح بلاد النوبة حتى وصل الى دنقلا فطلب النوبيون الصلح فعقد لهم معاهدة على غرار المعاهدات التى اعتاد المسلمون أن يبرموها مع أهل الذمة ... غير ان الجزية التى كان عليهم يدفعوها هى تقديم عدد من العبيد سنويا .

٦٥٥م ــ ٣٤ هجرية : غزوة ذات الصوارى البحرية :

اعد قسطانز الثانى امبراطور بيزنطة اسطولا كبيرا يتراوح عدد سفنه مابين ٧٠٠ الى الف سفينة وذلك بقصد اعادة فتح مدينة الاسكندرية مرة اخرى .

غير ان امير مصر عبد الله بن ابى السرح كان قد ادرك بدوره اهمية الأسطول البحرى ، وصنع له الاسكندريون ، اسطولا يتألف من مائتى سفينة زودت بالبحارة السكندريين المتمرسين على القتال وبالرغم من ضآلة هذا العدد بالنسبة لحجم الأسطول البيزنطى ، وكون المسلمين قربى عهد بركوب البحر ، فقد تصدى عبد الله ابن ابى السرح بأسطوله الوليد ، للأسطول البيزنطى ، واقتربت السفن من بعضها وجرت معركة التحام بين المسلمين والبيزنطيين انتهت بما نسميه الكارثة بالنسبة

للبيزنطيين بحيث نجا الامبراطور قسطانز من الموت بشق النفس حيث هرب على ظهر احدى السفن السريعة .

وقد اخذت هذه المعركة فى التاريخ اسم معركة ذات الصوارى اشارة لكثرة صوارى السفن التى كانت محتشدة فيها .

والراى على ان هذه اضخم معركة بحرية شهدها البحر الأبيض بعد موقعة اكتيوم .

وليس هناك مايدل على مدى ماحققته هذه المعركة من اثر ، ان بيزنطة كفت بعدها عن كل نشاط يجرى ضد البلاد الاسلامية . ومن عجب ان المسلمين بدورهم لم يحرزوا فيما بعد معركة مماثلة من حيث الأهمية .

٦٥٥م ــ ٣٥ هجرية : ثورة المسلمين فى مصر على عثمان بن عفان :

خرج عبد الله بن ابى السرح أمير مصر متوجها الى المدينة للتشاور فيما يبدو مع سيدنا عثمان بن عفان فى هذه الأحداث التى بدأت تصدع العالم الاسلامى ، فقد ارتفعت الأصوات من كل جانب تتهم عثمان بن عفان بخروجه عن العدالة ومحاباة ذوى قرباه من الأمويين الذين كانوا آخر من دخل الاسلام ، وتاريخهم كله حرب على رسول الله ، وذلك كله فضلا عن انحرافه عن طريق صاحبيه من قبله ابو بكر وعمر بن الخطاب .

وقد بدأ النقد والملاحظات على تصرف عثمان بن عفان فى المدينة اولا ، من صحابة رسول الله واقطابهم ، وعلى رأسهم على بن ابى طالب ، وطلحة والزبير ، والسيدة عائشة ام المؤمنين ... باعتبارهم الامناء على دين الله ودستور الحكم الاسلامى ، وتسربت اقوالهم وانتقاداتهم الى الاقطار ، فارتفعت موجة النقد ضد تصرفات عثمان بن عفان .

وحدث ان اسلم يهودى من صنعاء ويدعى عبد الله بن سبأ وقيل انه لم يرد من اسلامه الا تخريب الدعوة الاسلامية من داخلها وسواء صح ذلك ، فان نشاطه قد ادى الى ذلك فقد راح يتنقل فى حواضر العالم الاسلامى منددا بتصرفات عثمان فى تولية اقاربه وعزل الاكفاء من الصحابة وراح يحمل على الطبقة الجديدة من الأغنياء ويغلو فى تقديس شخصية على بن ابى طالب باعتباره هو وحده الذى يمثل روح الاسلام وقد طرد عبد الله بن سبأ من كل بلد حل به فى البصره والكوفة والشام ، فوصل الى مصر اخيرا . فصادفت دعوته لخلع عثمان هوى فى النفوس فقد كان المصريون مسلمين واقباط على خلاف مع عثمان بن عفان لخلعه عمرو بن العاص عن امارة مصر ، وهو الذى لم يشهد المصريون مثل ماشهدوه فى عهده من امان لديتهم واموالهم .

وكان المسلمون المقيمون فى مصر ، ينقمون على عبد الله بن ابى السرح الذى عينه عثمان اميرا على مصر ، لانه ارتد عن الاسلام ايام الرسول صلوات الله عليه حتى لقد اهدر دمه ولم ينقذه الا عثمان يوم الفتح .

ونقم المصريون عليه اشتداده فى تحصيل الضرائب ، فحيث اقتصرت جباية عمرو بن العاص طول سنى امارته على ١٢ مليون دينار . كان ينفق الجزء الأكبر منها على اصلاح احوال مصر . . . فقد رفع عبد الله بن أبى السرح الجباية الى ٤ مليون دينار ، دون ان يخصص ما كان عمرو بن العاص يخصصة لاصلاح شئون البلاد . وذلك كله بالاضافة الى ان عبد الله بن أبى السرح كان مشغولا اكثر أيامه بالغزو والفتح فلم يخصص لشئون البلاد ماتحتاجه من عناية ورعاية .

لكل هذه الأسباب ، اشتعلت نيران الفتنة فى مصر ضد عثمان واميره على مصر . . فاستدعى عثمان : عبدالله بن ابى السرح ، او لعل عبد الله بن ابى السرح راى هوان بقصد الخليفة ليتباحث معه فى هذه الأزمة ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى وتوجه الى المدينة .

محمد بن أبى حذيفة يستولى على امارة مصر :

ولم يكد عبد الله بن ابى السرح يغادر مصر . حتى استغل الفرصة محمد ابن ابى حذيفة ، وهو احد زعماء الجند الاسلامى فى مصر من القرشيين فجمع حشدا من الجنود والساخطين ، وهاجم عقبة بن عامر وهزمه واخرجه من مدينة الفسطاط ودعا الناس الى خلع عثمان بن عفان من الخلافة .

ووصل الخبر الى عبد الله بن ابى السرح وهو فى الطريق نحو المدينة ، فكر راجعا الى مصر ، ولكن رجال محمد بن ابى حذيفة تصدوا له وحاولوا بينه وبين الدخول الى مصر وقاتلوه . فانسحب الى فلسطين . حيث لايعرف ماالذى انتهى اليه امره وان كان الراى على انه لم يلبث أن قتل فى مدينة الرملة . وانحازت شعية عثمان وعلى رأسهم معاوية بن خريج وخارجه بن حذافة ويسر بن ارطاه ومسلم بن مخلد الى مدينة خربتا .

مصرع خليفة المسلمين عثمان بن عفان :

فى الثامن عشر من شهر ذى الحجة من هذا العام « ٣٥ هجرية » قتل امير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بعد حصار دام حول بيته أربعين يوما ، وقام به جيش من ستمائة مقاتل وفد من مصر بعد امور وحوادث وقعت بينهم وبين الخليفة وجماعات اخرى وفدت من البصره الكوفة اجمعت كلها على خلع عثمان ، وكان يتزعم الثائرين محمد بن أبى بكر الصديق ووقف كبار رجال الصحابة بالمدينة وعلى رأسهم سيدنا على بن ابى طالب من هذا الحصار موقفا سلبيا ، وان كانوا قد ارسلوا اولادهم ليدافعوا عن عثمان ويحولوا دون دخول الثائرين اليه .

. وقد خشى الثائرون من طول الحصار ، ان يصل اليهم جيش من الشام قبل ان معاوية سيبعث به ، فراوا ان يحسموا الموقف بقتل عثمان الذى رفض بكبرياءواصرار ان يتنازل عن الخلافة واذ كان اقتحام مدخل البيت متعذرا ، فقد تسوروا سطح البيت من البيوت المجاورة ، ونفذوا الى داخل حجرات عثمان : ولم يحمه انه جلس يتلو فى كتاب الله ... فقد انقض عليه بعض الوافدين من مصر كما يقول المؤرخون ، فضربوه ، وطعنوه ، ولم يلبثوا ان قتلوه بالسيف ... بينما وقفت الى جواره زوجته نائلة تدفع عنه باستماته ، فقطعت اصابعها وسالت دماؤها الى جوار دم زوجها الشهيد عثمان بن عفان على المصحف .

وهكذا تمت هذه المأساة او الكارثة فى حياة الأمة الاسلامية فكانت بدء احداث مفجعة اغرقت الأمة الاسلامية خلال خمس سنوات فى طوفان من الدم ...

ولولا قوة الدين الاسلامى وعمق ما ينطوى عليه من حق وصدق لكانت هذه الفتنة كافية للقضاء عليه ، ولكنه خرج منها كما خرج من كل فتنة لحقت به ، وهو أشد قوة وحيوية ونضارة .

ولا يتسع المجال هنا لبحث الظروف والأسباب التى ادت الى هذه الفتنة ، ومحاولة توزيع اللوم على هذا الجانب او ذاك فلذلك كتبه المتخصصة لمن اراد المزيد من البحث .

اما الآن فحسبنا ان نقرر ان عثمان بن عفان كان من اول خمسة سبقوا الى الاسلام ، وانه تزوج رقية ابنة رسول الله فلما توفيت زوجة الرسول اختها ام كلثوم ومن هنا كان يسمى بذى النورين وفى ايامه اتسعت فتوحات المسلمين فوق اتساعها ، وركبوا البحر بعد ان كان عمر بن الخطاب يحظره عليهم . وهو صاحب الفضل الأول فى نسخ القرآن وتوزيعه على الامصار محققا بذلك معجزة القرآن من قيامه بنص واحد عبر ثلاثة عشر قرنا والى مايمتد من الزمان .

وكان يوم قتل شيخا نيف على الثمانين ، وكانت مدة خلافته اثنى عشر عاما الا اياما .

خلافة على بن ابى طالب :

اقبل الثائرون الوافدون من مصر والبصرة والكوفة عقب مقتل عثمان بمبايعة على بن ابى طالب ، ولكنه رفض بيعهم على أساس ان ذلك ليس لهم وانما الصحابة ممن حضروا بدرا ، وانفه منه ان يلى الخلافة بعد هذا الحادث المروع . فاختبأ عن اعين الناس فى بعض المنازل ولكنهم عرفوا مكانه فطرقوا الباب وولجوه عليه.وجاءوا هذه المرة بطلحة والزبير ، وقالوا له : ان هذا الأمر لايمكن بقاؤه بلا امير ، ولم يزالوا به حتى اجاب شريطه ان يتم ذلك فى المسجد . فبايعه عامة المسلمين ، وتخلف البعض عن بيعته ، وكان ذلك يوم السبت التاسع عشر من ذى الحجة وكان على بن ابى طالب يرى نفسه احق من يلى الخلافة ليس بعد مقتل عثمان بل وقبله توليه بل ورنا ببصره

اليها عقب وفاة رسول الله ، فهو زوج السيدة فاطمة بنت رسول الله ، ووالد السبطين الحسن والحسين قرة عين رسول الله ... ولكنه قبل ذلك كان ربيب رسول الله الذى تعهده بالرعاية منذ صباه المبكر ، وكان لهذا اول من اسلم من الصبيان ... وكان هو الذى افتدى رسول الله بنفسه ليلة الهجرة ، وآوى الى فراش الرسول ليوهم المشركين المتربصين لقتل الرسول انه لايزال نائما على فراشه معرضا بذلك نفسه للقتل .

وكان هو فارس المسلمين غير منازع والذى تحقق النصر فى اكثر من غزوة على يديه او بسبب شدة قتاله .

وهو بعد ذلك وقبل ذلك كله مستودع العلم الاسلامى وامامه ، وهو المستشار والمرجع لابى بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان

فلا يعتبر توليه الخلافة بعد هذا الظرف العصيب ، انتهازية ووصولا الى ماليس من حقه أو هو به غير جدير ...

ولكن شاءت المقادير ، ان تصل اليه الخلافة الا وقد حفت بها المكاره .

على يعزل كل ولاة عثمان :

وكان أول ما فعله سيدنا على بمجرد تسلمه الخلافة ان عزل جميع ولاة عثمان على الأمصار ، وذلك على عكس المشورة التى وجهت اليه وهو ان يبقيهم على اعمالهم حتى تتم البيعة له ، ثم يعزلهم بعد ذلك .

وقد رفض معاوية بن أبى سفيان : قرار عزله وأعلن توليه المطالبة بدم عثمان. واذ كان معاوية قد استقر على امارة الشام أيام عمربن الخطاب ، وطوال أيام عثمان ... فقد كان سلطانه قد تدعم فيها ، ولم يعد أهل الشام يعرفون لهم قائدا غيره .. وكان ذلك أول الفرقة والتصدع بين المسلمين .

٦٥٦ م — ٣٦ هجرية : واقعــة الجمل :

ولم يلبث الخلاف ان اخذ صورة القتال الدموى ، ذلك ان الزبير بن العوام وطلحة وقد كانا أول من بايع سيدنا عليا، أعلنا انهما قد بايعا مكرهين، وخرجا من المدينة قاصدين مكة : حيث التقيا فيها بعائشة أم المؤمنين التى روعها مقتل عثمان على الرغم من انها كانت تؤلب عليه ... وقرر الثلاثة ومن انضم اليهم ان يطالبوا بالقصاص من قتلة عثمان ، وساروا نحو العراق لهذا الغرض ، واخرجوا والى البصرة واعتدوا عليه فقصد اليهم على بن أبى طالب ، وعبثا حاول اقناع القوم بالكف عن الخلاف والشقاق ودارت بين الجانبين موقعة رهيبة اشتهرت فى التاريخ باسم موقعة الجمل نسبة الى الجمل الذى كانت تركبه السيدة عائشة أم المؤمنين والذى كان كالعلم

للجيش فاستمر القتال حوله الى أن عقر الجمل وخر الى الأرض . وكانت الغلبة فى النهاية لعلى بن أبى طالب واعاد السيدة عائشة الى المدينة معززة مكرمة بعد أن عاتبها على ما وقع منها .

ولكنه كان انتصارا مؤلما ، فقد مات فى الموقعة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهما من المبشرين بالجنة وقتل من المسلمين والصحابة مالم يقتلوا من قبل فى معركة من المعارك . . . ولكن هذه المرة بأيدى أخوانهم وأصحابهم فى الدين .

٦٥٧م ـ ٣٧ هجرة : امارة قيس بن سعد بن عبادة على مصر :

لم يقر على بن أبى طالب محمد بن أبى حذيفة الذى كان قد غصب امارة مصر كما رأينا ، فأرسل قيس بن سعد بن عبادة أميرا على مصر وذلك فى مستهل ربيع الاول من هذه السنة .

ولم يكد قيس يصل الى الفسطاط حتى صعد على المنبر فى الجامع الكبير وتلا على المصليين كتاب امير المؤمنين الى مسلمى مصر ، وهو خطاب بصدد احداث ذلك الزمان ولذلك نثبته بنصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ من عبد الله على بن أبى طالب أمير المؤمنين . الى من بلغه كتابى هذا من المسلمين والمؤمنين سلام الله عليكم ، اما بعد فانى أحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ، وأصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقد توفى رسول الله ، واستخلف بعده خليفتان صالحان عملا بالكتاب والسنة واحسنا السيرة ثم توفاهما الله تعالى ، ثم ولى بعدهما والى أحدث احداثا فوجدت عليه الامة مقالا فقالوا ، ثم نقموا عليه وغيروه ، ثم جائونى وبايعونى ، والله على العمل بكتابه وسنة رسوله ، والنصح للرعية ما بقيت والله المستعان .

وقد بعثت اليكم بقيس بن سعد بن عبادة أميرا فوازروه وعاشروه واعينوه على الحق ، وقد أمرته بالاحسان الى محسنكم ، والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم ، وهو ممن أرضى هديه ، وأرجو صلاحه ونصيحته ، وأسأل الله لنا ولكم عملا صالحا وثوابا جزيلا ورحمة واسعة .

والسلام عليكم . .

يقول تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة :

وبعد ان تلا قيس الخطاب قال : أيها الناس قد جاء الحق وزهق الباطل ، ما بايعنا الا من هو خير من نعلم بعد نبينا صلى الله عليه وسلم فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان نحن لم نعمل بها فلا بيعة لنا عليكم .

فقام الناس وبايعوا ـ واستقامت احوال مصر .

معـــاوية يوقع بين على وقيس :

واذ كان معاوية يعلم خطر مصر فى تدعيمها لجانب سيدنا على ، واذ كا يعلم من ناحية أخرى قوة مراس قيس بن سعد وأنه كفيل بتحويل مصر الى قاعدة قوية لمؤازرة على فقد استعمل دهاءه الايقاع بين على وقيس فاصطنع خطابات بينه وبين قيس توهم انه يتفاوض معه ، فنجحت خططه وأساليبه وعزل سيدنا على قيسا ابن سعد من مصر ، فلم تدم امارته الا أربعة أشهر وخمسة أيام .

امارة محمد بن أبى بكر الصديق :

جرى الخلاف فيمن ولى مصر بعد انصراف قيس بن سعد عنها، فقيل هو محمد ابن ابى بكر الصديق : وقيل بل هو الاشتر النخعى وجاءت ولاية محمد بن ابى بكر بعده ويرجح تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ، ان يكون محمد بن أبى بكر قد ولى الامور فى مصر على وجه من الوجوه عقب انصراف قيس بن سعد عنها ، فلما لم يحسن التصرف نظرا لحداثة سنه استبدله على بن ابى طالب بالاشتر النخعى عقب فراغه من موقعـــة صـــفين .

واقعـــة صـــفين :

فى شهر ذى الحجة من هذه السنة ، كانت موقعة صفين وهى التى تقابلت فيها جيوش الشام وعلى رأسها معاوية مطالبة بدم عثمان : بجيوش العراق وعلى رأسها على بن ابى طالب وذلك عند بلدة صفين على شاطىء نهر الفرات الغربى يقدرها البعض بالأسابيع ويقدرها البعض بالأشهر وقد تحاجز الفريقان عن بعضهما فترة طويلة دارت خلالها المفاوضات ، فلما انتهت المفاوضات الى غير نتيجة بدأ الصراع العنيف لبضعة أيام متتالية : بل لقد تواصل القتال بالليل فيما سمى ليلة الهرير . واوشكت الدائرة فى ختامها ان تدور على جيش الشام فأشار عمرو بن العاص على معاوية وقد كان نصيره فى هذه المعركة ، أن يلجأ الى خديعة جيش على وذلك برفع المصاحف بدعوى الاحتكام الى كتاب الله وحقن دماء المسلمين . وقد أدرك على بن ابى طالب ما فى هذا العمل من خدعة ومحاولة لشق صفوف جنده، فأبى الا المضى فى المعركة حتى نهايتها المظفرة ، ولكن الخدعة الذكية أحدثت أثرها وسط أصحاب على وقد كان اكثرهم من رجال الدين والتقوى فقالوا كيف يدعوننا لكتاب الله ونأبى عليهم . فقال على لهم كلمته المشـــهورة .

« انما هى كلمة حق أريد بها باطل » ولكن الاغلبية من رجاله اصروا على ايقاف القتال وبقبول التحكيم بالنزول على ما يقضى به القرآن .

وتم الاتفاق على ان يختار كل من الطرفين حكما يمثله . . . ومرة أخرى فرض اصحاب على عليه ان يختار ممثلا له فى التحكيم أبا موسى الاشعرى وكان قد ابدى خلافا مع سيدنا على ، وذلك فى الوقت الذى اختار فيه معاوية عمرو بن العاص .

وتم الاتفاق فى شهر صفر على أن يجتمع الحكمان فى دومة الجندل فى شهر رمضان من هذا العام ٣٧ هجرية .

وكان مجرد هذا الاتفاق على التحكيم أن قامت هدنة بين على ومعاوية وجيوش كل منهما ، وتم الاعتراف من الناحية الواقعية البحتة بقيام سلطتين ، أولاهما يمثلها سيدنا على فى العراق ، والثانية يمثلها معاوية فى الشام .

وقد اعتبر البعض مجرد قيام هذه الحالة ورضاء على بها اخلالا بالدين وحكم القرآن فاعلنوا تمردهم على سيدنا على وأطلق عليهم اسم الخوارج ، وهم الذين سيشقون الأمة الاسلامية عبر القرون التالية .

قرار التحكيم وعزل على :

واجتمع الحكمان كما تم الاتفاق فى دومة الجندل وجازت على أبى موسى الاشعرى هذه الخدعة المشهورة التى خدعه بها عمرو بن العاص ، عندما اتفق معه على ان يخلع كل منهما صاحبه ويدع للمسلمين اختيار من يريدون ، ثم قدم عمرو بن العاص أبا موسى لبعلن للناس ما اتفقا عليه ، فأعلن أبو موسى خلع على ومعاوية ، وتلاه عمرو بن العاص فوافق على خلع على وأقر معاونه ، فثار عليه أبو موسى معلنا انه قد خدعه ، ولم ينفع عليا بعد ذلك رفض نتيجة التحكيم فقد استشرت فتنة الخوارج من اصحابه بحيث كان مضطرا لمحاربتهم قبل ان يمضى لحرب معاوية .

امارة الاشتر النخعى على مصر :

ارسل على بن أبى طالب الاشتر النخعى احد رجاله الاقوياء ليلى امارة مصر بعد انصرافه من موقعة صفين ، وقد ادرك معاوية من جديد مغبة وصول الاشتر النخعى الى مصر فيقولون انه طلب من البعض أن يخلصوه من الاشتر فى مقابل مكافأة معلومة ، فدس له هذا البعض سما فى شراب من عسل قدمه له ، فمات وهو على أبواب مصر ولم يدخلها .

ويذكر عن عمرو بن العاص وكان يجالس معاوية عند وصول نبأ موت الاشتر بهذا الأسلوب قوله : أن الله جنودا من عسل .

٦٥٨ م — ٣٨ هجرية امارة عمرو بن العاص الثانية على مصر :

دخل عمرو بن العاص فى شهر ربيع الأول من هذه السنة على راس جيش من ستة آلاف مقاتل لانتزاع مصر من سلطان محمد بن أبى بكر الصديق حيث كان يحكمها باسم على . ولم يستطع محمد بن أبى بكر ان يتصدى لهذه الجيوش القوية وفر هاربا .

وعاد عمرو بن العاص الى الفسطاط ... وهى المدينة التى انشأها ونزل فى دار الامارة التى بناها . وقد كانت امارة مصر هى الثمن الذى اشترطه عمرو بن العاص على معاوية ليقف الى جواره فى صراعه ضد على. فلما ان انتهى التحكيم الى ما انتهى اليه على ما قدمنا ، وفى معاوية لعمرو بن العاص فسيره على رأس جيش الى مصر فدخل مصر على الصورة السابقة ..

ولم يلبث معاوية بن خريج أحد كبار الأمويين أن عثر على محمد بن أبى بكر الهارب فقتله شر قتلة ثم وضعه فى جلد حمار وحرقه ، وذلك كله بدعوى انه كان ممن شارك فى قتل سيدنا عثمان .

اختصاصات أمير مصر :

واذ عاد عمرو بن العاص الى امارة مصر على ان يكون حاكمها المطلق المتصرف فى كل شئونها ، فمن الخير ان نحدد اختصاصات الامارة وكيف أنها ستجتمع لبعض الولاة كما هو الشأن بالنسبة لعمرو بن العاص هذه المرة ، وكيف توزع أحيانا على اكثر من شخص .

اما هذه الاختصاصات فتتلخص على ما حددها الماوردى فى سبع مواد :

١ ـ النظر فى تدبير الجيوش ، وترتيب النواحى وتقدير الارزاق .
٢ ـ النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام .
٣ ـ جباية الخراج وقبض الصدقات وتعيين العمال فيها ، وتوزيع المستحق منها على مستحقيه .
٤ ـ حماية الدين والذود عن الحريم .
٥ ـ اقامة الحدود فى الله وحقوق الآدميين .
٦ ـ الامامة فى الجمع والجماعات ، ويقوم بها بنفسه أو يستخلف عليها .
٧ ـ تسيير الحجاج .

فاذا كان هذا الاقليم ثغرا متاخما للعدو اقترن بهذه المعالم مهمة ثامنة وهى جهاد من عليه من الأعداء .

وقد كانت هذه الاختصاصات كلها فى ولاية عمرو بن العاص الأولى فى السنوات الأولى من فتح مصر باعتباره صاحب الفضل فيه ومنفذه ، على أن عمر بن الخطاب لم يلبث ان فصل عملة الخراج عن اختصاصات عمرو بن العاص وعهد بها الى عبد الله بن أبى السرح ، ثم لم يلبث ان عين قاضيا للحكم بين الناس ، وهو اجراء سيلجأ اليه فيما بعد الخلفاء فيعينون القضاة بأمر منهم .

وقد كانت كل هذه الاختصاصات فيما عدا ما يختص منها بجمع الخراج يقع فى سلطان الأمير الذى يلى مصر على الصلاة : على اساس ان الحكم الاسلامى حكم

دينى ، ومن يلى الصلاة فهو أمير المسلمين ولذلك فسوف يصادفنا من الآن أن هذا الوالى أو ذلك ولى على الصلاة والخراج معا ، أو على أحدهما دون الآخر .

٦٦٠ م ــ ٤٠ هجرية : مقتل سيدنا على بن أبى طالب :

أشرنا الى هذا النفر الذين خرجوا على سيدنا على بن أبى طالب لقبوله التحكيم ، واعتبروا ذلك كفرا والحادا فى دين الله وطلبوا من سيدننا على أن يتوب ويستغفر والا حاربوه وقاتلوه .

وبدأوا يعيثون فى الأرض فسادا ويرتكبون من الجرائم ما يقشعر لسماعه الأبدان باسم الدين والتمسك بأحكام القرآن . فجرت لهم معارك مع سيدنا على هزمهم فيها هزيمة منكرة عند النهروان ودحرهم واوقع بهم مقتلة عظيمة .

فاتفق ثلاثة نفر منهم على أن يقتلوا عليا ومعاوية وعمرو بن العاص فى ليلة واحدة ليخلصوا المسلمين منهم .

وفشل من تصديا لقتل معاوية وعمرو بن العاص فى تحقيق هدفهم ... ولكن عبد الرحمن بن ملجم الذى أخذ على عاتقه قتل سيدنا على بن أبى طالب ، نجح فى مهمته اذ تربص له فى المسجد عند صلاة الفجر وطعنه فى المحراب بخنجر مسموم أعده لذلك وقيل بسيف .

ولم يلبث سيدنا على أن مات متأثرا بجراحه .

وكانت وفاته ليلة الأحد فى التاسع عشر من رمضان واختلف فى عمره ساعة وفاته فمن قائل أن عمره كان ثلاثة وستين عاما بينما يقول البعض بل كان ثمانية وخمسين عاما فقط .

وقد حكم على بن أبى طالب أربع سنوات وتسعة أشهر أمضاها كلها فى مشاق وآلام واحزان وصراع ، وليس هناك ما يعكس آلام سيدنا على سوى مطالعة كتاب نهج البلاغة الذى يعتبر احدى ذخائر المكتبة العربية الاسلامية فى كل عصورها .

وعلى بن ابى طالب أشهر من أن يتحدث عنه ، وهو الذى انفرد بتعظيمه جانب كبير من المسلمين الشيعة ، حتى ليغلو بعضهم فيجعله فوق البشر ، والمعتدل منهم لا يعترف بامامة غير امامته : ولا يفهم قيام مجتمع اسلامى لا يكون على راسه احد من ذرية على اماما .

ولقد لخص سعد بن ابى وقاص مكانة على فى الاسلام فى حديث جاء فى الصحيحين عندما سأله معاوية بن أبى سفيان ، لماذا يرفض سب أبى تراب (يكنى به عن سيدنا على) فرد عليه بقوله : ذكرت ثلاثا قالهن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لان تكون لى واحدة منهن أحب الى من حمر النعم . سمعت رسول الله يقول له : اما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبى بعدى . وسمعته يقول يوم خيبر « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » ، قال فتطاولت لها ، قال ادعونى عليا فأتى به وهو أرمد (أى مصاب برمد فى عينيه) فتفل فى عينيه ودفع اليه الراية ففتح الله عليه . ولما نزلت هذه الآية « .. فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ثم قال « اللهم هؤلاء أهلى » .

وبموت سيدنا على انتهوى عهد الاسلام الأول ، عهد الخلفاء الراشدين ، ليبدأ عهد الملكية الاسلامية .

٦٦١ م ــ ٤١ هـ : خلافة معاوية بن أبى سفيان :

لم يكد على بن أبى طالب يقتل حتى أقبل أهل الكوفة على ابنه الحسن فبايعوه ولكن الحسن كان لا يحب المضى فى القتال ويرغب فى اعادة الوحدة الى صفوف المسلمين .

وعلى الرغم من أنه اجتمع له من المقاتلة ما لم يجتمع لأبيه ... فقد آثر أن يصطلح مع معاوية على أمور شرطها بنفسه فأجابه معاوية الى ما طلب ، فتنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة وبايعه . وطلب من جنوده أن تبايع لمعاوية .

وهكذا تم الأمر لمعاوية ، وعادت الوحدة الى الجماعة ، ولذلك أطلق المؤرخون على عام ٤١ عام الجماعة .

٦٦٢ م ــ ٤٢ هجرية : وفاة الأنبا بنيامين :

فى الثالث من شهر يناير من هذا العام طويت حياة الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط المصريين لتسع وثلاثين سنة ، شهد فيها انسحاب الروم ودخول الفرس الى مصر ثم انسحابهم منها وعودة الروم ، ومقدم المسلمين وانسحاب الروم .

وبموته كانت آخر صفحة فى كتاب بطاركة مصر المسيحية الذين مثلوا شخصية مصر التى اسهمت فى ارساء قواعد الديانة المسيحية .

حيث بدأت شخصية مصر الاسلامية فى مسرح الأحداث السياسية والحضارية تحل بالتدريج محل مصر المسيحية .

٦٦٣ م – ٤٣ هجرية : وفاة عمرو بن العاص :

فى يوم عيد الفطر من هذه السنة مات عمرو بن العاص فاتح مصر وبرقة .

وكان عمره عندما مات قد أشرف على المائة وكانت امارته الثانية على مصر قرابة خمس سنوات ، ويتلجلج دائما فى النفس موقف عمرو بن العاص من سيدنا على ابن أبى طالب . وخدعته التى قام بها فى عماية التحكيم ، وهى التى ظلت تؤرق مضجعه حتى لحظة وفاته على ما يقول المؤرخون ولكن الحقيقة التى لا تجحد انه أحد بناة هذه الدولة الاسلامية العتيدة ، وواحد من هؤلاء الذين يذهلون المؤرخين والباحثين على مر العصور والدهور ، كيف استطاع رجل بدوى مثله لا عهد له من قبل بالحكم أو الادارة ، أن يصبح حاكما مثاليا لمصر حتى ليقترن اسمه بأسماء أعظم من حكموها من الملوك بشقه ترعة أمير المؤمنين ، ولكنها معجزة الاسلام التى لا تتمثل فى عمرو فحسب ، بل فى مئات من الحكام والقادة العسكريين الذين بهروا الدنيا كلها ولا يزالون يبهرونها بحنكتهم وحكمتهم وبراعتهم وشجاعتهم ، وقدراتهم الفائقة على حكم شعوب تخالفهم فى العقيدة واللغة ، ثم ينجحون .

امارة عتبة بن ابى سفيان :

ولى معاوية أخاه لأبيه عتبة بن أبى سفيان امارة مصر على الصلاة ، بينما يقول الطبرى فى أحداث عام ٤٣ أن معاوية ولى عبد الله بن عمرو بن العاص بعد موت أبيه فوليها فيما زعم له الواقدى نحوا من سنتين .

وقد حسم المقريزى هذه القضية بقوله ان عمرو بن العاص استخلف ابنه عبد الله قبل وفاته فولى صلاة مصر ، قبل أن يولى عليها معاوية أخاه عتبة ، وقد قصد عتبة بعد ذلك الى الاسكندرية ليقيم بها مرابطا واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى .

٦٦٤ م – هجرية : امارة عقبة بن عامر الجهنى :

مات عتبة بن أبى سفيان بعد أن لم تدم ولايته سوى ستة أشهر ، وأقر معاوية عقبة بن عامر على امارة مصر ، صلاتها ، وخراجها ، وكان عقبة أحد صحابة رسول الله وكان ممن شهد الفتح مع عمرو بن العاص وكان قارئا فقيها وشاعرا .

٦٦٧ م – ٤٧ هجرية : عقبة بن عامر يغزو رودس :

كان اهتمام معاوية بن ابى سفيان الأول موجها نحو سيادة المسلمين على البحر اتقاء لهجمات القسطنطينية وتمهيدا لغزو القسطنطينية نفسها فعهد الى عقبة بن عامر الجهنى ان يحتل جزيرة رودس بأسطول مصرى فأقدم عقبة على تحقيق المهمة التى نيطت به وخرج بأسطوله قاصدا صوب رودس ناشرا على السفن رايات المسلمين ، وقيل انه أول من فعل ذلك .

امارة مسلمة بن مخلد :

بعث معاوية بن ابى سفيان مسلمة بن مخلد ليكون أميرا على مصر ، ولكنه طلب منه أن يخفى نبأ توليه حتى يبارح عقبة بن عامر مصر بأسطوله .

وقد جمع معاوية لمسلمة بن مخلد صلاة مصر وخراجها .

والرأى على أن مسلمة بن مخلد من الصحابة فقد كان له من العمر عند وفاة الرسول عشر سنوات وقيل أربع عشرة سنة .

٦٧٠ م — ٥٠ هجرية : محاولة غزو القسطنطينية :

حرض مسلمة بن مخلد معاوية على غزو القسطنطينية ولابد انه هيأ لمعاويه الاسطول اللازم لهذه الغزوة ، فقد كانت مصر فى هذه الفترة القاعدة الرئيسية للاسطول الاسلامى وقرر معاوية أن يكون غزو القسطنطينية من البر والبحر معا ووضع الحملة تحت قيادة ابنه يزيد ، الذى لم يخف سريعا لتولى القيادة .

واستطاعت الجيوش البرية أن تتوغل فى آسيا الصغرى حتى وصلت الى مشارف القسطنطنية فى الوقت الذى حاصرت الأساطيل المدينة نفسها ، وقد دام الحصار الذى فرض على المدينة ست سنوات ، وهو أخطر حصار تعرضت له ، ولم ينجها منه الا توفيق البيزنطيين الى اكتشاف سلاح رهيب فى هذه الفترة وهو ما اشتهر باسم النار الاغريقية حيث كان يتعذر اطفاؤها فكان هذا السلاح المفاجىء حاسما فى تدمير السفن الاسلامية ، وفشل الغزوة بعد كل الجهود المضنية التى بذلت : واضطر معاوية فيما بعد الى ابرام معاهدة صلح مع بيزنطة مدتها ثلاثون سنة .

وفاة الحسن بن على بن ابى طالب :

وفى هذه السنة (٥٠ هـ) فى شهر ربيع الأول توفى الحسن بن على بن أبى طالب وينسب البعض الى يزيد بن معاوية أنه تسبب فى موته .

٦٧٣ م — ٥٣ هجرية : الروم يهاجمون مصر :

حاول البيزنطيون فى هذه السنة — وكان حصار المسلمين على القسطنطنية بالبر والبحر لا يزال مستمرا على أشده — ان يخففوا الضغط على مدينتهم ، فأغاروا على مصر ونزلوا فى مدينة البرلس ، ولكن مسلمة بن مخلد تصدى لهم وأجلاهم عن البلاد وقد مات فى هذه الواقعة وردان كاتب عمرو بن العاص .

٦٧٧ م — ٥٨ هجرية : انشاء مدينة القيروان :

كان مسلمة بن مخلد قد بعث عقبة بن نافع لاعادة فتح افريقية التى كانت قد انتقضت على الحكم الاسلامى ، فأعاد فتحها واسس مدينة القيروان .

وفاة عائشة أم المؤمنين :

وفى هذه السنة توفيت السيدة عائشة أم المؤمنين ابنة أبى بكر الصديق واحب زوجات رسول الله اليه وتلميذته . وقد روى عنها الكثيرون من أعلام الصحابة الأحاديث التى اتخذت أساسا للتشريع الاسلامى ، ولقد رأينا كيف بلغ بها الأمر أن فرضت زعامتها على كبار الصحابة عندما خرجت تطالب بدم عثمان بن عفان ووصل الأمر بها الى حد قيادة الجيش فى موقعة الجمل مما يدل على قوة شخصيتها . وهى تعتبر على رأس الداعين الى الاجتهاد فى استنباط الأحكام للاسلام كما تضمنها القرآن باستعمال العقل والمنطق على هدى المبادىء الأساسية .

٦٨٠ م — ٦٠ هجرية : وفاة معاوية بن ابى سفيان :

مات معاوية بن ابى سفيان بعد ان ولى الخلافة عشرين سنة ، سبقتها ولاية الشام لمدة عشرين سنة أخرى .

وكانت سنه عند وفاته سبعا وسبعين سنة .

وابوه سفيان بن حرب الذى تولى حرب رسول الله وظل على شركه حتى كان فتح مكة فدخل الاسلام مكرها . وقيل ان معاوية قد أسلم قبل فتح مكة وان كان قد أبقى اسلامه فى الخفاء خوفا من أبيه ، وينسب الى معاوية أنه كتب لرسول الله فى أخريات حياته .

وهو ينطوى على خلال مؤسسى الأسرات الحاكمة فى كل زمان ومكان عندما لا يتحرجون من شىء لبلوغ غرضهم ، وهم فى نفس الوقت منطوون على مهارات وقدرات فائقة وسعة صدر وحكمة ودهاء واستعداد للبطش من ناحية أخرى .

ولا يتردد مسلم واحد فى الانحياز بعواطفه الى جوار على بن أبى طالب فى أحقيته بالخلافة من معاوية ولا يتردد الانسان فى الحكم على معاوية أنه ظلم سيدنا عليا بتحميله دم عثمان .

ومع ذلك فان معاوية سيذهب فى تاريخ الدولة الاسلامية باعتباره أحد عمدها والمساهمين فى تأسيسها ... فقد أعاد اليها الوحدة والاستقرار فى خلافته ، حيث استأنفت الفتوحات الاسلامية طريقها فى البحر والبر شرقا وغربا ... فأما فى الشرق فقد تعدت بلاد الهند وافغانستان الى ما وراء نهر جيحون .

وفى الغرب وصل عقبة بن نافع الى ساحل المحيط الأطلسى بعد ان اسس مدينة القيروان .

وبلغ عدد سفن الأسطول الاسلامى فى أيامه ١٧٠٠ سفينة .

سقطة معاوية فى ولاية يزيد :

على أن سقطة معاوية الكبرى التى لا تحتمل دفاعا من أى نوع كان . هى فرض ولاية العهد من بعده لابنه يزيد الذى كان يعرف عدم صلاحيته لهذا المنصب من كافة النواحى فقد كان كل همه الصيد والشراب والمجون ... فدل ذلك على أنه قد حكم هواه فى نهايته كما فعل ملوك الفرس والرومان من قبله وكان معنى ذلك ، أنه حول منصب الخليفة الذى كان يمثل أروع ما ينطوى عليه عالم الاسلام ، من دين وورع وتقوى وصـــلاح وعدل ، وكفاءة ، الى منصب وراثى قد يتـــولاه البله أو المجانين أو المفسدين فى أكثر الأحوال .

خـــلافة يزيد بن معـــاوية :

ولى يزيد الخلافة بعد موت معاوية ، وامتنع عن بيعته الحسين بن على ، وعبد الله ابن الزبير ، وفرا الى مكة فكان ذلك اشارة لما سيكون منهما فى المستقبل .

٦٨١ م — ٦١ هجرية : مقتل الحسين بن على :

لم يكد يزيد يلى الخلافة حتى أرسل أهل الكوفة الى الحسين بن على يطلبـــون منه أن يفد عليهم ليبايعوه على الخلافة بدلا من يزيد باعتباره أحق من يلى خـــلافة المسلمين . فسار اليهم الحســـين بن على فى آل بيته وكان عددهم لا يتجاوز ثمانين ما بين رجال ونساء وأطفال .

فبعث عبيد الله بن زياد جيشا ليحول بين الحسين وبين الوصول الى الكوفة .

وحديث الحسين بن على وما أصيب به من نكبة عند مدينة كربلاء ، يدمى القلوب وهو ذروة ما يمكن أن يصل اليه الايمان العميق بالله وحب الاستشهاد فى سبيل الحق من ناحية الحسين وصحبه ، وذروة ما يمكن ان يصل اليه الفجور والتجبر والعنف والقسوة فى مجابهة الحق من جانب الجيش الذى تصدى له . وقد انتهى الأمر بمصرع الحسين وحمل رأسه الى عبيد الله بن زياد ، أمير العراق فوصل الأمر به الى حد أنه راح ينكت بقضيب فى يده بين ثنايا الحسين متهكما ساخرا .

وحملت الرأس الى يزيد بن معاوية ونساء بيت الحسين ومن بينهن الســـيدة زينب باعتبارهن سبايا .

وقد هلع المسلمون فى ذلك الزمان لهذا الحادث وقد كان الحسين هو الذى مكن لعبد الله بن الزبير للدعـــوة لنفسه وهو بصـــفة عامة نقطة البدء لتفويض عرش بنى امية ، وبدء العمل على اسقاطه ونقل الخلافة الى البيت العلوى فا[illegible] فى بلاد العراق وفارس .

ولا تزال الشيعة تحتفل حتى أيامنا هذه بذكرى استشـ[illegible] كربلاء فى شهر المحـــرم .

وستبقى قصة الحسين مصـــدر وحى والهام للمجاهدين فى ســبيل الله والحق فى كل زمان ومكان .

٦٨٢ م ــ ٦٢ هجرية : وفاة مسلمة بن مخلد أمير مصر :

مات مسلمة بن مخلد أمير مصر فى هذه السنة بعد أن ظل أميرا بها خمس عشرة سنة وأربعة أشهر ، وهو القائد المظفر فى البر والبحر

وقد أعاد بناء مسجد عمرو بن العاص بصورة أكمل وزاد فى مساحته ، وبنى له منارة على غرار منارة الاسكندرية الشــهيرة ، فكان بذلك أول من ابتدع نظام المآذن فى المساجد الاسلامية التى تعتبر تخليدا لمنارة الاسكندرية ، حيث كانت تقوم على قاعدة مربعة وأخرى مثمنة ، وثالثة مستديرة يعلوها بيت المصـــباح ، والناظر لمنارة اى مسجد سيرى فيها هذا التنسيق .

وتخليد مسلمة بن مخلد لمنارة الاســكندرية يكشف عن حبــه للبحــر بعــامة والاسكندرية بخاصة ولذلك فقد أقام فيها أخريات حياته ومات بها .

امارة سعيد بن يزيد على مصر :

بعث يزيد بن معاوية بسعيد بن يزيد الأزدى أميرا على مصر وقد كان شــابا من أهل فلسطين وقد أزور عنه المسلمون فى مصر منذ قدومه وظلوا متربصين به ، فلم يكد عبد الله بن الزبير يعلن خلعه ليزيد بن معاوية ويدعو لنفسه بالخلافة ، حتى كان المسلمون المصريون أسرع الناس استجابة له .

٦٨٣ ــ م ــ ٦٣ : خلافة عبد الله بن الزبير :

استغل عبد الله بن الزبير حالة السخط العامة التى شملت العالم الاسلامى لمصرع الحسين بن على ، فدعا الى خلع يزيد بن معاوية ، ومبايعته على الخلافة فاستجاب له أهل الحجاز ومصر والعراق ، ولكن يزيد سير لحرب عبد الله بن الزبير جيشا تحت قيادة مسلمة بن عقبة ، فجرت بينهما بالمدينة موقعة اشــتهرت فى التاريخ باســم موقعة الحرة ، وأحرى بها أن تســمى مذبحة الحرة حيث اســتشهد بها آلوف من المسلمين من بينهم أعلام المهاجرين والأنصار ، واستبيحت حرمة المدينة لثلاثة أيام ، أسرف فيها مسلمة وجيشه فى النهب والسلب والعدوان .

وقد خربت المدينة بعد هذه الواقعة وفقدت رونقها وان ظلت أحد المراكز العلمية وتابع مسلمة بن عقبة : عبد الله بن الزبير الى مكة ولكنه مات فى الطــريق . بعد أن أوصى بقيادة الجيش بعده للحصين بن نمير ، والذى لم يتهيب حرمة مكة فحاصرها وقذف الكعبة بالمنجنيق فاحترقت ، وكان ذلك فى الثالث من ربيــع الأول عام ٦٤ هجــرية .

٦٨٤م – ٦٤ هـ : موت يزيد بن معاوية :

مات يزيد بن معاوية بعد أن ولى الخلافة ثلاث سنوات وسبعة أشهر ، اغرق فيها الأمة الاسلامية بالمآسى والكوارث والدماء ، ولا يرتفع صوت واحد يقول كلمة خير فى يزيد الذى كان سكيرا عربيدا قليل الدين ، وليس هناك ما هو ابلغ فى تصوير مدى منزلته فى النفوس من أن عمر بن عبد العزيز قد انزل عقوبة القذف على احد جلسائه لمجرد تسميته يزيد بن معاوية بأنه أمير المؤمنين .

خلافة مروان بن الحكم :

ولى الخلافة بعد موت يزيد ابنه معاوية (الثانى) بعهد منه ولكن معاوية بن يزيد كان على خلاف أبيه تقيا ورعا ، وكان من ناحية أخرى ضعيفا ولذلك فقد تنازل عن الخلافة ودعا بنى أمية لاختيار من يولونه خليفة عليهم .

واستقر الرأى على خلافة مروان بن الحكم شيخ الأمويين فبويع خليفة ، وبذلك انتقل الحكم من أسرة معاوية الى أسرة مروان وان كانت الأموية تجمعهما .

امارة عبد الرحمن بن جحدم على مصر :

بايع المصريون عبد الله بن الزبير كما قدمنا بمجرد دعوته الى نفسه ، وبعثوا اليه ان يوفد اليهم أميرا من لدنه ، فأوفد اليهم عبد الرحمن بن جحدم على راس جماعة من الخوارج الذين ساندوا قضية عبد الله بن الزبير ، ولم يكادوا يصلون الى مصر حتى تسابق أهل مصر من المسلمين لتأييدهم ونزل عبد الرحمن بن جحدم ببيت الامارة فى الفسطاط وجعل عباس بن سعيد المرادى على شرطة مصر وقضاتها .

مروان بن الحكم يزحف على مصر :

ما كان لمروان بن الحكم أن تتحقق له الخلافة اذا بقيت مصر فى يد خصمه عبد الله بن الزبير ، ولذلك فقد كان أول ما فعله بمجرد أن ولى الخلافة أن زحف من الشام الى مصر على راس جيشه ، مصطحبا معه ابنه عبد العزيز ليجعله أميرا على مصر .

وقد استطاع مروان بن الحكم أن يهزم عبد الرحمن بن جحدم وان يستقر له الامر فى مصر فى ١٠ جمادى الأول سنة ٦٥ هجرية .

موت عبد الله بن عمرو بن العاص :

وفى النصف من جمادى الثانية من هذه السنة مات عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابى الجليل وواحد من اثنين كان يكتب أحاديث الرسول فى صحيفة أطلق عليها اسم الصادقة .

وهو مؤسس المدرسة الاسلامية فى مصر ، والجاعل من الفسطاط أحد مراكز العلم الاسلامى التى يحج اليها .

٦٨٤م – ٦٥ هجرية : امارة عبد العزيز بن مروان :

ولى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على صلاة مصر وخراجها وأمده بموسى بن نصير بمثابة وزير له .

وكان أول مافعله عبد العزيز بن مروان أن بنى فى مدينة الفسطاط دارا عظيمة ليسكن بها أطلق عليها اسم دار الذهب وذلك لقبتها المذهبة التى كانت اذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع الناظر أن يحدق فيها .

وكانت تعرف بالمدينة لفنها وعظمتها .

وفاة مروان بن الحكم :

لم يكد مروان بن الحكم يستتب له الأمر فى مصر والشام ، ويوجه همته نحو العراق الذى كان يحكمه مصعب بن الزبير بأسم أخيه عبد الله ، وينجح بالفعل فى هزيمة مصعب ، حتى واتته منيته . وقيل أن زوجته أم خالد « **أرملة يزيد** » هى التى قتلته خنقا بوضع الوسادة على وجهه .

وكانت سنه عندما مات أحدى وسبعين سنة وقيل أحدى وثمانين سنة ، ويقول الطبرى أنه لم يحكم سوى عشرة أشهر بينما يطيل البعض الآخر هذه المدة الى ستة عشر شهرا .

ومروان بن الحكم هو بن عم عثمان بن عفان وهو أحد أسباب الفتنة التى أودت بحياة عثمان اذ جعله كاتبه وأمين سره ، فزيف على عثمان هذا الخطاب الخاص بأهل مصر والذى كان السبب المباشر فى كارثة عثمان .

خلافة عبد الملك بن مروان :

ولى الخلافة بعد مروان بن الحكم ابنه عبد الملك بعهد من أبيه على أن يكون الخليفة من بعده أخاه عبد العزيز .

وقد أقر عبد الملك امارة أخيه على مصر ،واستوى فى مقر الخلافة فى دمشق ، ولكن العراق والحجاز كانا لا يزالان فى سلطان عبد الله بن الزبير .

٦٨٩ م – ٧٠ هجرية – الطاعون فى مصر :

انفجر وباء الطاعون فى مصر « الفسطاط » فغادرها عبد العزيز بن مروان ولاذ بدير يقع على شاطىء النيل بموقع مدينة حلوان « الحالية » فأعجبه المكان فاشتراه

من أصحابه الرهبان بعشرة آلاف دينار واتخذه مسكنا له ، واقام بحلوان الأعوان والحراس ، وبنى بها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وغرس نخلها وكرومها.

وقيل أن ابنه عمر بن عبد العزيز قد ولد فى مدينة حلوان ولكن الدكتور مصطفى الوكيل يستبعد هذا القول فى مؤلفه (عمر بن عبد العزيز) على أساس أن عمر بن عبدالعزيز قد ولد بين عامى ٦١ ، ٦٣ هـ حيث لم يكن أبوه قد وفد الى مصر بعد.

٦٩١م - ٧٢ هـ : بناء قبة الصخرة فى القدس :

كان عبد الملك بن مروان قد نجح فى هزيمة مصعب بن الزبير فى العراق ودخل الى الكوفة حيث بويع من اهلها فى العام السابق (٧١ هجرية) فلم يبق لعبد الله ابن الزبير سوى الحجاز .

واراد عبد الملك ان يجعل فى فلسطين حرما مقدسا يحج اليه الناس فبنى قبة الصخرة فى القدس والجامع الأقصى ، وكان المسلمون يطوفون حول الصخرة كما يطوفون من حول الكعبة وينحرون يوم العيد ضحاياهم .

عبد العزيز بن مروان يعرف فى مصر :

وكان عبد العزيز بن مروان من ناحيته يعرف فى مصر أى يقف بالناس فى المسجد الجامع يوم عرفة كما يقف الحجاج . وذلك لنفس الغرض الذى يسعى له أخوه وهو صرف المسلمين عن الحج ، حيث كان عبد الله بن الزبير مسيطرا على الحجاز .

٦٩٢م - ٧٣ هجرية : مقتل عبد الله بن الزبير :

ندب عبد الملك بن مروان لحرب عبد الله بن الزبير رجلا عرف بالصلابة والقسوة وهو الحجاج بن يوسف الثقفى والذى يعتبر بحق صاحب الفضل فى تثبيت العرش لعبد الملك واولاده من بعده .

وقد حاصر الحجاج مكة كما فعل الحصين بن النمير من قبل ، وقذف الكعبة بالمنجنيق وكان عبد الله بن الزبير قد أعاد بناءها بعد احتراقها . وظل يضيق الخناق على عبد الله بن الزبير حتى لم يبق معه احد من انصاره. وقصة عبد الله بن الزبير وامه اسماء بنت أبى بكر عندما ذهب يشكو اليها ما انتهى اليه أمره احدى درر التاريخ الاسلامى ، فقد دفعته للاستشهاد فى سبيل الله ، على أن لا يسلم نفسه أو يهادن ما يعتبره باطلا ، فكان أن قتل وعلقت جثته .

٦٩٣ م ـ ٧٤ هـ : امارة الحجاج بن يوسف على الحجاز :

ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف أميرا على الحجاز بعد انتصاره على عبد الله ابن الزبير فوطد به حكم بنى أمية باستخدام كل ضروب القسوة والتنكيل لا يعفى منها صحابة رسـول الله أنفسهم حتى طلب منه عبد الملك أن لا يتعرض لعبد الله ابن عمر ولا انس بن مالك .

وقد أعاد الحجاج بناء الكعبة على قواعدها الأولى كما كانت أيام الرسول ، بعد أن كان عبد الله بن الزبير قد أدخل فى بنائها حجر اسـماعيل .

٦٩٤ م ـ ٧٥ هجرية : ضرب الدنانير العربية :

أقدم عبدالملك بن مروان على ما يمكن أن يعتبر بتعبيراتنا الحديثة ثورة اقتصادية فى دنيا المال والتجارة فقد كان العرب منذ أقدم عصورهم يتعاملون بالدراهم الفارسية الفضية والدنانير البيزنطية ، وكانت الدنانير البيزنطية هى العملة الذهبية المعترف بها فى ذلك الزمان ... وقد ظل الحال على ذلك حتى بعد ظهور الاسلام ومقام الدولة الاسلامية الى ايام عبد الملك الذى أصدر أمره بصك الدنانير الاسلامية فلا يكون بها صورة امبراطور بيزنطة أو علامة الصليب .

وان يكتب على الدنانير باللغة العربية كلمات التوحيد .

وحظر عبد الملك التعامل فى الدولة الاسـلامية بغير هذه الدنانير .

وقد اعتبر جوستنيان الثانى امبراطور بيزنطة ، هذا الاجراء عدوانا على سلطانه وحقوقه فأعلن الحرب على عبد الملك ، ولكنه فشل فى حربه وهزم ، فاستقر التعامل بالدرهم والدينار الاسلاميين منذ ذلك التاريخ .

٦٩٩ م ـ ٦٠ هجرية : أسـطول مصرى يغزو قبرص :

خرج عبد الواحد بن أبى الكنود من الاسكندرية على رأس اسطول مصرى غزا سـفن الروم التى تعرضت له ووصل الى جزيرة قبرص .

٧٠٣ م ـ ٨٤ هـ : موسى بن نصير يلى امرة المغرب :

ولى عبد العزيز بن مروان بموافقة الخليفة عبد الملك موسى بن نصير امرة المغرب الذى كانت قد ساءت أحواله واضطربت نتيجة لثورات البربر بتحريض من الروم حتى لقد قتلوا عقبة بن نافع وسقطت القيروان فى أيديهم ولم يعدها الا جيش جديد بعث به عبد العزيز بن مروان من مصر بقيادة حسـن بن النعمانى الذى ابـترد

القيروان وقرطاجنة ولم تلبث الثورات أن تجددت بقيادة امراة أطلق عليها أسم الكاهنة ولم ينجح حسان بن النعمان فى قمعها الا بعد لأى .

فكان اختيار عبد العزيز لموسى بن نصير من أعظم الخدمات التى قدمت للاسلام، فان موسى بن نصير لم يكد يصل الى مدينة القيروان حتى بدأ صفحة جديدة للاسلام ليس فقط فى شمال افريقيا بل فى حياة الاسلام كله ، اذ أن نشاطه سينتهى الى فتح الأندلس .

وقد سير موسى بن نصير الجيوش تحت قيادة اولاده الأربعة لتضرب القوات المتمردة فى كل مكان فى آن واحد .

ثم عكف على سلاح البحرية يقويه باعتباره الأساس لتطهير البحر من البيزنطيين فاقام دارا كبرى لصناعة السفن فى مدينة قرطاجنة وتونس ، وامده عبد العزيز ابن مروان بصناعة السفن من مصر .

وكان كمال توفيق ، موسى بن نصير ودليل فراسته ان استعان بأحد أبناء البلاد من البربر وهو طارق بن زياد ، فعينه أميرا على مدينة طنجة فى مواجهة الشاطىء الاوربى .

٧٠٤ م ـ ٨٥ هجرية : وفاة عبد العزيز بن مروان :

مات فى هذه السنة عبد العزيز بن مروان بالطاعون وليس يعرف اذا كان هذا هو نفس الطاعون الذى حمله على سكن حلوان ، أم انه طاعون جديد انتشر فى البلاد. وقد حل موته مشكلة لاخيه عبد الملك الذى كان قد اراد منه التنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد بن عبد الملك فرفض عبد العزيز ذلك :

وكانت مدة امارته على مصر ٢١ سنة وهى أطول مدة حكمها فيها أمير . وكان يتمتع فيها بشبه استقلال مطلق .

امارة عبد الله بن عبد الملك على مصر :

ولى عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله بن عبد الملك اميرا على مصر صلاتها وخراجها عقب وفاة عبد العزيز بن مروان وكان عمره عندما وليها تسعا وعشرين سنة فلم يلبث ان ظهر نزقه وطيشه اذ استعمل الشدة مع الناس ، واتصفت أعماله بالجور ، واختلس من أموال الخراج وارتشى ، وتعرض للاقباط بالاضطهاد فحظر عليهم لبس البرانس العربية : ويقول لين بول انه فرض على الرهبان أن يرتدوا اشارات معينة والا عرضوا اديرتهم لشتى صنوف الجزاءات .

.... تعريب الدواوين :

وفى هذه السنة اقدم عبد الملك بعد مروان على خطوة من خطواته الاصلاحية الكبرى فاصدر امره بجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية التى تكتب بها الدواوين.

ونفذ ابنه عبد الله هذه التعليمات فى مصر ، حيث كانت الدواوين تكتب حتى هذا التاريخ باللغة القبطية فبدىء فى كتابتها باللغة العربية .

٧٠٥ م ــ ٨٦ هجرية : وفاة عبد الملك بن مروان :

مات عبد الملك بن مروان يوم الخميس للنصف من شهر شوال والأقوال فى عمره عند وفاته تتراوح بين ٥٨ و٦٣ سنة . حكم منها أحدى وعشرين سنة .

وليس يعيب عبد الملك بن مروان سوى ولاته القساة الغلاظ الطغاة ، وحسبه أن يكون الحجاج أحد رجاله الذى حكم بأسمه .

ومع ذلك فان المؤرخ يقف أمامه باعتباره من أعظم ملوك الاسلام الذين اعادوا للدولة وحدتها وجددوا شبابها وثبتوا أقدام الاسلام نهائيا فى شمال افريقيا وابرقوا شخصيتها الاسلامية بصك الدنانير وتعريب الدواوين الى العربية .

خلافة الوليد بن عبد الملك :

ولى الخلافة الوليد بن عبد الملك اذ لم يكد يفرغ من دفن أبيه حتى صعد الى منبر المسجد ودعا الى بيعته فلم يختلف عليه أحد .

٧٠٨ م ــ ٩٠ هجرية : امارة قرة بن شريك على مصر :

قاسى المصريون كما قدمنا أيام امارة عبد الله بن عبد الملك وحدث أن ترقت الأرض بسبب تخلف الفيضان عن المقدر المعتاد فعلت الأفواه وغلت الاسعار الى ما لا عهد للمصريين به ما قبل . فضجوا بالشكوى الى الوليد بن عبد الملك ، فعزل أخاه ، وولى قرة بن شريك على الصلاة والخراج . ومن سوء حظ المصريين ان قرة ابن شريك لم يكن بأحسن حال من سلفه فقد كان بدوره سيء التدبير ظالما غشوما فاسقا ، مغرقا فى الشهوات والملذات .

توسيع مسجد عمرو :

كان الوليد محبا للبناء والانشاء والتعمير ولذلك فلم يكد يلى الخلافة ، حتى شرع فى بناء الجامع الأموى فى دمشق . وكان أصله كنيسة ، ثم أصبح نصفه مسجدا ، وظل النصف الآخر على حاله كنيسة : فاشترى الوليد الكنيسة بأضعاف ثمنها ، ولم يقبل المسيحيون الا كارهين .

وفى نفس الوقت أصدر أمره لعمر بن عبد العزيز الذى كان قد ولاه على المدينة المنورة أن يضاعف فى مساحة مسجد الرسول ليكون مائتى ذراع فى مثلها وان يقوم القبلة .

وارسل الى واليه على مصر قرة بن شريك يطالب منه توسيع الجامع العتيق الذى انشأه عمرو بن العاص . يقول تغرى بردى أن قرة كان اذا انصرف العمال الذين يعملون فى بناء المسجد بالليل يدعو بالخمور والزمور والطبول ويظل يعربد فى المسجد طول الليل ويقول لنا الليل ولهم النهار .

٧١١ م ـ هجرية : فتح الأندلس :

اثمرت سياسة موسى بن نصير وحسن ادارته لشمال افريقيا وسيادته على غرب البحر الأبيض المتوسط بأسطوله الذى مكنه من الاستيلاء على جزيرة سردينية ثم جزيرتى مينورقة وميورقة . فاستطاع قائده طارق بن زياد أن يعبر مضيق هرقل الذى سمى منذ ذلك التاريخ باسم طارق فأصبح يعرف بمضيق طارق ، ودارت معركة فاصلة بينه وبين ملك القوط الغربيين رودريك ، الذى يسميه العرب « لذريق » فكان النصر لطارق بن زياد وبدأت بذلك عملية فتح الأندلس الذى سيكون بمثابة واجهة الحضارة الاسلامية فى قلب أوربا الغربية .

٧١٢ م ـ ٩٣ هجرية : مولد الليث بن سعد :

ولد فى هذه السنة بمصر الليث بن سعد الذى سيقدر لله أن يحمل راية العلم فى القرن الثانى وهى التى رفعها عبد الله بن عمرو بن العاص فى القرن الأول .

٧١٤ م ـ ٩٦ هجرية : وفاة قرة بن شريك والحجاج بن يوسف :

مات فى هذه السنة قرة بن شريك امير مصر فتنفس المصريون الصعداء لخلاصهم منه . ومن عجب انه مات فى نفس السنة الحجاج بن يوسف فتنفس المسلمون فى مشارق الدنيا ومغاربها الصعداء . وسيظل اسم الحجاج يدوى فى التاريخ الاسلامى كله كرمز على اقصى ما يصل اليه طغيان الحاكم ، وستظل قلوب المسلمين تنفر منه الى ابد الآبدين .

وقد وصف الدكتور على ابراهيم حسن الحجاج فى كتابه فى تاريخ مصر الاسلامية بأنه كان قبيح الوجه قمينا دقيق الساقين . اعور معروق الأصداغ ، وهى صورة تثير القشعريرة فى النفس .

ومع ذلك فان المؤرخين الغربيين يكيلون له الثناء والمديح فيقول لنا عنه ول دورانت : انه جفف المستنقعات واصلح الأراضى واعدها للزراعة ، وأعاد فتح ماطمر من قنوات الرى واصلحها . وكان هو الذى قمع فتنة الخوارج التى كادت تعصف بالدولة الاسلامية وذلك عن طريق قائده المهلب بن ابى صفرة وقد استؤنفت

الفتوح فى الشرق بقواده ثم لم يقنع بذلك فأحدث انقلابا كبيرا فى طريقـة الكتابة باستعماله حركات الاعراب والتنقيط .

امارة عبد الملك بن رفاعة على مصر :

ولى الوليد على مصر عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت المصرى ، وجعل له الصلاة دون الخراج . فكان على النقيض من سابقة اذ حسنت سيرته واشـتهر بالعفاف والتقوى والعدل فى الرعية . وكان تقيا أمينا فاضلا ، حتى أن فقيه مصر الليث بن سعد قد روى عنه ، وكان من بين ما رواه ما يعتبر بحق دستورا للحكام وهو : « اذا دخلت الهدية من الباب ، خرجت الأمانة من الطاق » .

وكان على خراج مصر اسامة بن زيد التنوخى .

٧١٥ م ــ هجرية : وفاة الوليد بن عبد الملك :

مات الوليد بن عبد الملك فى يوم السبت النصف من جمـادى الآخرة من عام ٩٦ هجرية وتتراوح الأقوال فى عمره عند وفاته ما بين اثنين وأربعين سنة وست وأربعين ، أما مدة خلافته فتسع سنوات . وثمانية اشهر ، وكان له تسعة عشر ابنا .

ويعتبر عهده ذروة ما وصلت اليه الدولة الأموية من استقرار وازدهار ومجد عسكرى وعمرانى ولمع فى عصره ثلاثة من قواد المسلمين الأعلام فكان قتيبة بن مسـلم الباهلى قائد الحجاج يواصل فتوحه فى الشرق حتى استولى على كغابل وكشغر على حدود الصين وذلك فى الوقت الذى كان محمد بن قاسـم بن محمد الثقفى صهر الحجاج يغزو الهند حتى يصل الى نهر السـند .

وفى الغرب كان من شأن موسى بن نصـير ومولاه طارق ما ذكرناه ، من فتح الأندلس واستيلائهما على طليطلة عاصمة البلاد وما وجداه بها من كنوز وفى نفس الوقت بنى وانشـأ المساجد الكبرى التى لا تزال مفخرة العـالم الاسـلامى حتى اليوم ، وانشأ المستشفيات للمرضى والملاجىء للعجزة ، وسـاق المياه الى مكـة والمدينة .

ومع ذلك فان المؤرخين المسلمين يأخذون عليه اقراره الحجاج على طغيانه فى العراق ، وعلى قرة بن شريك فى مصر ، مما يدل على أن المسلمين لا يعدلون بالعدل شيئا آخر .

خلافة سليمان بن عبد الملك :

ولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بعد أخيه الوليد بناء على العهد الذى كان أبوه قد أبرمه .

اقرار عبد الملك بن رفاعة على امارة مصر :

وقد أقر سليمان بن عبد الملك ، عبد الملك بن رفاعة على امارة مصر كما أقر أسامة ابن زيد التنوخى على خراجها .

بناء مقياس الروضة :

استصدر أسامة بن زيد عامل الخراج اذنا من الخليفة بالغاء مقياس النيل فى حلوان وهو الذى كان عبد العزيز بن مروان قد انشاه ، وكذلك بالغاء كافة مقاييس النيل : على أن ينشىء مقياسا جديدا يحل محلها فى جزيرة الروضة فأذن له . ولايزال هذا المقياس موجودا حتى الآن باعتباره من أجمل الآثار الاسلامية .

عملة اسامة بن زيد :

ولا يزال بين أيدينا من آثار أسامة بن زيد الأوزان الزجاجية التى كانت النقود المصرية تصلك على أساسها .

٧١٦ م — ٩٧ هجرية :

ولد فى هذه السنة وقيل فى التى قبلها عبد الله بن لهيعة أحد الثلاثة الذين بدأوا حياة العلم الاسلامى المسجل فى مصر .

٧١٨ م — ٩٩ هجرية : وفاة سليمان بن عبد الملك :

فى العشرين من صفر فى هذه السنة مات سليمان بن عبد الملك ، ولم تطل مدة خلافته لأكثر من سنتين وسبعة أشهر .. أو ثمانية على اختلافات يسيرة وقد أزال مظالم الحجاج وأطلق من فى السجون وأنصف المظلومين ، وحاول أن يفتح مدينة القسطنطينية بجيش برى وضعه تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك وأسطول بحرى مؤلف من ١٨٠٠ سفينة فأخفق ومن جديد فتكت النار الاغريقية بوحدات الاسطول فاضطر لرفع الحصار عن المدينة .

على ان أعظم أعمال سليمان بن عبد الملك هو استخلافه ابن عمه عمر بن عبد العزيز مقدما أياه على أخويه يزيد وهشام وذلك تقديرا منه لدينه وتقواه وورعه .

خلافة عمر بن عبد العزيز :

ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذى وصف بأنه خامس الخلفاء الراشدين ، اذ تبرأ من كل مظالم بنى أمية وعمل على انصاف كل من ظلموه وتعويض كل من حرموه معيدا بذلك سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب .

وكان آية حكمه الجديد ورغبته عن سفك الدماء ان بعث يستدعى الجيش المحاصر للقسطنطينية .

عزل اسامة بن زيد عن خراج مصر :

كما كان من أول ما قام به من اعمال وحتى قبل أن يدفن سليمان بن عبد الملك هو عزله أسامة بن زيد صاحب الخراج على مصر ، لما كان يبلغه عنه من إستنزافه موارد مصر لصالح الدولة الأموية ، وأمر بالقبض عليه وسجنه جزاء له على ما اقترفت يداه ، واصدر الخليفة أمره بأن يوقف تحصيل الخراج من المصريين لمدة عام على سبيل التخفيف والتعويض عن اهلها .

امارة أيوب بن شرحبيل على مصر :

أقر عمر بن عبد العزيز فى أول خلافته عبد الملك بن رفاعة على الصلاة ، ثم لم يلبث ان عزله وولى أيوب بن شرحبيل وكان رجلا صالحا وزع اختصاصاته الادارية على بضع نفر من الرجال الصالحين . فجعل الفتوى الى جعفر بن أبى ربيعة ويزيد ابن أبى حبيب (أستاذ ابن لهيعة والليث) وعبد الله بن أبى جعفر . وجعل على الشرطة الحسين بن يزيد الرعينى ، وزاد فى عطاء الناس ، ونفذ اوامر أمير المؤمنين فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأغلقت حانات الخمر وكسرت دنانها .

وقد كان من أثر عدل عمر بن عبد العزيز وسياسته ، أن دخل كثير من اقباط مصر فى الاسلام ، مما أثر على حصيلة الجزية والخراج ، فكتب أيوب بن شرحبيل يقترح على عمر بن عبد العزيز أن تؤخذ الجزية من الأقباط حتى فى حالة اسلامهم خوفا من أن تنقطع موارد الدولة .

فرد عليه عمر بن عبد العزيز رده المشهور :

« قبح الله رأيك ، ان الله قد بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا ، ضع الجزية عمن أسلم ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام على يديه » .

ومضى عمر بن عبد العزيز فى رغبته فى حمل الأقباط على اعتناق الاسلام ، فقيل انه أصدر امره ان لا يلى وظائف الدولة الا مسلما فأدى ذلك الى اسلام كثير من القبط الموظفين .

٧١٩ م — ١٠٠ هجرية : بدء دعوة بنى العباس :

وكان طبيعيا فى ظل هذا الامام العادل الرحيم ان تبدأ الدعوى الى بنى العباس فى مضاعفة نشاطها ، فوجه محمد بن على بن عبد الله بن عباس رسالة فى هذه السنة الى العراق وخراسان تدعو الى خلع بنى أمية وتوجيه الخلافة الى الهاشميين من آل بيت النبى واختيار اثنى عشر نقيبا ليحملوا لواء الدعوة .

٧١٩ م — ١٠١ هجرية : وفاة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز :

فى الخامس والعشرين من شهر رجب من هذه السنة توفى أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز وهو لما يتم الأربعين سنة من عمره بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين وخمسة شهور مرت على شعوب الدولة الاسلامية كما لو كانت حلما جميلا .

وكان أيراد عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة اربعين الف دينار اما ايراده بعد أن أصبح خليفة فلم يكد يتجاوز مائتى دينار . ولعل هذه المقارنة تغنى عن كل حديث آخر .

وحكم عمر بن بن عبد العزيز مدحضة للوهم والادعاء بأن اتساع رقعة الدولة الاسلامية وتغير ظروفها ، لم يعد يسمح بطراز حكم الخلفاء الراشدين . فسيظل ورع الحاكم وزهده وتقشفه وعدله أولا وقبل كل شئ هو أعظم ما يهفو له البشر فى كل زمان ومكان وفى ظل أى نظام .

خلافة يزيد بن عبد الملك :

ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وهو ثالث ابناء عبد الملك بن مروان ولم تكن سنة عندما ولى الخلافة تزيد عن تسع وعشرين سنة . وقد حاول فى مطلع حكمه أن يتابع عمر بن عبد العزيز على سيرته . ولكن جاريته حبابه التى كان مغرما بها الى حد الوله قد فتنته واقعدته عن تحقيق عــزمه ، فعاد الى الانهماك فى الملذات . بل ونقض ما كان عمر بن عبد العزيز قد سنه من رفع الجزية عمن اسلم .

امارة بشر بن صفوان على مصر :

مات أيوب بن شرحبيل أمير مصر ، فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صــفوان فدخلها فى السابع عشر من شهر رمضان .

وفى أيامه أغارت الروم على مدينة تنيس ثم جلت عنها .

٧٢١ م — ١٠٢ هجرية : امارة حنظلة بن صفوان :

ولى الخليفة يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أميرا على افريقيا فخرج اليها من مصر واستخلف أخاه حنظلة بن صفوان ، فأقره يزيد على امرة مصر .

٧٢٢ م — ١٠٣ هجرية : تحطيم الأصنام والتماثيل فى مصر :

خرج حنظلة بن صفوان الى الاسكندرية واستخلف على مصر عقبة بن مسلم النجيبى . ولم يلبث أن ورده كتاب من الخليفة يزيد بن عبد الملك يأمــره بكسر الأصنام والتماثيل فعمل جهده لتنفيذ هذا الأمر .

وقد أدى تنفيذ هذا الأمر الى نشوب أول تمرد بين أقباط مصر ضد الحكم الاسلامى ويقول لين بول فى حديثه عن هذه الثورة ، وعن تجددها انه ترتب على اعتقال البطريرك المصرى ان زحف جيش من النوبيين بلغت عدته مائة الف مقاتل غضبا لاعتقال البطريرك ولم يحملهم على العدول عن غزو مصر الا البطريرك نفسه بعد أن أفرج عنه .

المسلمون يغزون جنوب فرنسا :

وفى هذه السنة اجتاز مسلمو الأندلس جبال البرانس الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا واستولوا على مدينة ناربون فى جنوب فرنسا .

٧٢٣ م — ١٠٥ هجرية : خلافة هشام بن عبد الملك :

مات يزيد بن عبد الملك بعد أن ولى الحكم أربع سنوات وشهرا وكان عمره يوم وفاته ٣٣ سنة على الأرجح وقصة غرامه بجاريته حبابة هى أظهر ما يميز حياته .

وقد ولى الخلافة من بعده أخوه هشام بن عبد الملك وكان سنه يومئذ ٣٤ سنة .

امارة محمد بن عبد الملك على مصر :

لم يكد هشام يتولى الخلافة ، حتى صرف حنظلة بن صفوان عن ولاية مصر ، وولى عليها أخاه محمد بن عبد الملك . وكان ناسكا كثير العبادة حسن السيرة جوادا كريما لا يحب السلطان ، ولم يكد يصل الى مصر حتى وقع بها وباء ، فأقام محمد ابن عبد الملك فى الصعيد .. ثم لم يلبث أن انصرف عن مصر بعد شهر من وصوله اليها .

امارة الحر بن يوسف على مصر :

ولى هشام بعد انصراف أخيه عن مصر — الحر بن يوسف اميرا على الصلاة فقط وولى عبيد الله الحبحاب على الخراج . ولا تزال الأوزان الزجاجية لدراهم ودنانير الحبحاب وما كان عليها من كتابة باقية حتى الآن .

ثورة لأقباط مصر :

وفى عهد الحر بن يوسف ، وبسبب سياسة عبد الله بن الحبحاب المالية قام الأقباط على ما يروى الكندى بثورة على زيادة ضريبة الأرض ، فقد كتب ابن الحبحاب الخليفة هشام يقترح زيادة ضريبة الأرض قيراطا على كل دينار فانتفضت بعض كور مصر (كورة تنو ، وتمى ، وقربيط ، وطرابية) وعامة الحوف الشرقى ، فبعث

اليهم الحر بن يوسف بأهل الدواوين (أى الجند من العرب) فاخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين (تاريخ مصر الاسلامية ص ٨٨) .

هجرة قبيلة قيس الى مصر :

وقد سعى عبد الله بن الحبحاب عامل الخراج لكى يمكن لنفسه فى مصر ، فكتب الى هشام يطلب منه تهجير بعض قبائل قيس الى مصر ، فأجابه هشام الى طلبه ، فوفد الى مصر أربعمائة عائلة من بطون قيس المختلفة فنزلت بالحوف الشرقى حول مدينة بلبيس ثم توافدت جموع أخرى منهم بلغ عددها الف وخمسمائة عائلة .

وسرعان ما سوف تتحول هذه الوافدة الى بذرة خلاف وفتنة فلا تكاد تمضى فترة من الزمان ، حتى يكون للقيسيين من اهل الحوف الشرقى ملحمة من النهب والسلب أو خلق الفتن والاضطراب .

٧١٦ م ـ ١٠٨ هجرية : امارة حفص بن الوليد على مصر :

وقع الخلاف بين الحر بن يوسف وبين عبيد الله بن الحبحاب ، لتزايد سلطانه وغلبته على شئون البلاد ، ولكن هشام بن عبد الملك انحاز الى جانب عبد الله بن الحبحاب وعزل الحر بن يوسف ، وولى على صلاة مصر بدلا عنه حفص بن الوليد . وكان حفص بن الوليد هو القائم على شرطة مصر : كما ولى مصر باستخلاف الحر بن يوسف . على أن الخلاف سرعان ما نشب بين حفص بن الوليد وبين عبد الله بن الحبحاب فعزل هشام بن عبد الملك حفص بن الوليد .

٧٢٧ م ـ ١٠٩ هجرية : ولاية عبد الملك بن رفاعة الثانية على مصر :

ولى هشام بن عبد الملك ، عبد الملك بن رفاعة أميرا على مصر ، على الصلاة ، وقد كان ولى أمرة مصر من قبل عقب وفاة قرة بن شريك ، فأحسن السيرة ولكنه كان مريضا هذه المرة فأناب عنه أخاه الوليد بن رفاعة للصلاة بالناس : ولم يلبث بأن مات ، فأقر الخليفة أخاه الوليد بن رفاعة على ولاية مصر .

أمارة الوليد بن رفاعة على مصر :

ولى الوليد بن رفاعة الصلاة ، وجعل على شرطته عبد الله بن أبى سمير الفهمى، وكان على خراج مصر عبيد الله بن الحبحاب صاحب النفوذ الكبير فسعى الوليد ابن رفاعة عند الخليفة هشام على ما يقول تغرى بردى فأخرجه هشام من مصر واستعمله على افريقيا . ومن هنا طالت امارة الوليد بن رفاعة على مصر ، على خلاف كل من سبقه من الأمراء .

٧٢٨ م ـ ١١٠ هجرية : وفاة جرير والفرزدق :

مات فى هذه السنة بالشام شاعرا الاسلام الكبيران جرير والفرزدق ، ومن عجب أن الرجين قد عاشا فى تنافس طول حياتهما ... ثم ابى عليهما القدر الا أن يموتا فى سنة واحدة .

٧٣٢ م ـ ١١٤ هجرية : عبد الملك بن الحبحاب يلى امارة المغرب :

عين الخليفة هشام عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج اميرا على المغرب . فأنتقل من مصر الى عمله الجديد ، وكان أول ما قام به من عمل أن سعى لاحتلال جزيرة صقلية المواجهة للشاطىء الافريقى فدارت له معركة بحرية مع الروم انتصر فيها عليهم ، وظل يواصل غزواته فى البر والبحر بنجاح .

٧٣٥ م ـ ١١٧ هجرية : امارة عبد الرحمن بن خالد على مصر :

مات الوليد بن رفاعة بعد أن ظل أميرا على مصر ثمانى سنوات وأربعة أشهر وبضعة عشر يوما وكان قد استخلف قبل موته على الصلاة عبد الرحمن بن خالد الذى ولى له الشرطة عدة سنوات ، فلما مات الوليد اقر هشام امرة عبد الرحمن ابن خالد على صلاة مصر .

على أنه لم يلبث ان عزله ، وقيل أن سبب عزله هو فشله فى الحيلولة دون نزول الروم فى أحد بلاد الساحل المصرى ، حيث قتلوا ونهبوا وأسروا ، قبل أن يتصدى لهم عبد الرحمن بن خالد ويطردهم من البلاد .

وقيل ان السبب الحقيقى لعزله عن مصر ، هو ان دعاة بنى العباس الذين قوى شأنهم فى خراسان ارسلوا اليه يدعونه الى بنى العباس . فأكرم وفادة الرسل ووعدهم خيرا .

٧٣٧ م ـ ١١٩ هجرية : امارة حنظلة بن صفوان الثانية على مصر :

عزل هشام عبد الرحمن بن خالد ، وولى حنظلة بن صفوان الذى سبق أن ولى امرة مصر فقدمها فى الخامس من محرم من هذه السنة أميرا على الصلاة وجعل على الشرطة عياض بن خترمة .

٧٣٨ م ١٢٠ هجرية : ثورة الأقباط فى الصعيد :

ذكر المقريزى ان الأقباط فى الصعيد قاموا بانتفاضة -فحاربهم حنظلة وأسكن الفتنة ، ولم يذكر لذلك سببا .

٧٤١ م ١٢٤ هجرية : امارة صفى بن الوليد :

ولى هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان أميرا على افريقيا ، فاستخلف على الصلاة صفى بن الوليد فأقر الخليفة هشام هذه الامارة ، ولم يلبث أن ضم اليه ولاية الخراج كذلك .

موقعة نور بواتينيه فى فرنسا :

فى هذه السنة دارت المعركة الحاسمة بين المسلمين فى فرنسا وبين الفرنجة ، وكان على رأس جيش المسلمين عبد الرحمن الغافقى ، وعلى رأس الافرنج شارل مارتل واستمرت المعركة ثمانية أيام كاد النصر يتم فيها للعرب ، ولكن الدائرة لم تلبث أن دارت عليهم فانهزموا وقضى بذلك على آخر محاولاتهم — محاولات المسلمين فى الأندلس لفتح فرنسا — ولذلك يعتبر المؤرخون الأوربيون هذه الموقعة أحدى مواقع التاريخ الحاسمة .

٧٤٢ م — ١٢٥ هجرية : وفاة هشام بن عبد الملك :

فى يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الاول من هذه السنة مات هشام ابن عبد الملك وكان عمره يوم مات بضعا وخمسين سنة وقيل تجاوز الستين ، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر ، وهو الرابع من أولاد عبد الملك الذين ولوا الخلافة ، وكان هشام بن عبد الملك على ما يقول : « ابن كثير » فى كتابه البداية والنهاية حازم الرأى ، جامعا للأموال بخيلا فى صرفها ، وكان ذكيا مدبرا له بصر بالأمور جليلها وحقيرها وكان فبه حلم واناة .

وهو آخر ملوك بنى أمية العظام وبموته اقتربت نهاية الأسرة .

خلافة الوليد بن يزيد :

ولى الخلافة بعد موت هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد ، وكان فاسقا فاجرا تروى عنه أقاصيص من ضروب المبالغة والتهويل ، ولكنها تدل على نوع الحياة التى اشتهر بها ، فمن ذلك أنه كان يسبح فى بركة من الخمور ويعب منها وهو يسبح ، وتمزيق المصحف الشريف عن طريق التصويب عليه بالنشاب وذلك على سبيل

التحدى ، حتى روى عنه فى ذلك شعر ، وقيل أكثر من ذلك مما يستبعده تغرى بردى بعد ان يرويه وهو اعتداؤه على عفاف ابنته ، أما الطبرى فيقول لنا أنه كره تسجيل ما نسب اليه ولذلك فقد اجمع آل بيته على وجوب التخلص منه فقتلوه واخذوا رأسه فلم تزد مدة خلافته على سنة وثلاثة شهور ، واختلفوا فى سنة يوم مات ما بين ست وثلاثين سنة وست وأربعين .

٧٤٣ م ــ ١٢٦ هجرية : خلافة يزيد بن الوليد :

ولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد اشتهر باسم يزيد الناقص لأنه انقص الأعطيات التى كان الوليد قد قررها من قبله للجند ، وقيل ان سبب التسمية غير ذلك على أيامه لم تطل اذ مات فى شهر ذى الحجة من نفس السنة التى ولى فيها فلم تزد مدة خلافته عن ستة شهور .

٧٤٤ م ــ ١٢٧ هجرية : خلافة مروان بن محمد :

حاول ابراهيم بن الوليد ان يلى الخلافة بعد موت أخيه يزيد ، ولكن مروان ابن محمد الذى كان أميرا على اذربيجيان وأرمنية عندما بلغه نبأ موت يزيد جمع رؤساء جنده وانفق عليهم الأموال فبايعوه بالخلافة ، ولكن باقى رجال الأسرة الاموية رفضوا أن يبايعوه ، فسار بجيشه نحو الشام وانتصر فى المعارك التى اشتعلت فيها ضد مخالفيه واستقر فى دمشق خليفة .

ولكن بنى العباس انتهزوا فرصة هذا التفكك والتصدع الذى أصاب الأسرة الأموية فجدوا بدعوتهم وأعلنوا الحرب فى خراسان تحت قيادة أبى مسلم الخراسانى لاسقاط الأسرة الاموية ومبايعة الأسرة العباسية .

امارة حسان بن عتاهية على مصر :

كان صفى بن الوليد هو الأمير على مصر ابان خلافة الوليد (الثانى) ، وخلفه يزيد ، فلما ان ولى الخلافة مروان بن محمد استعفاه حفص فأعفاه وولى حسان ابن عتاهية .

فلما استقر حسان بن عتاهية على امرة مصر واسقط الأعطيات التى كان حفص ابن الوليد قد فرضها للناس والجند ، فثار عليه الجند وقاتلوه وتنادوا بخلع مروان ابن محمد من الخلافة ، وبيعة الخليفة من بنى العباسى وحاصروا حسان بن عتاهية فى داره وطلبوا منه أن يغادر مصر ، وكذلك فعلوا بعيسى بن أبى عطاء صاحب الخراج ، وكان حسان بن عتاهية قد سجن حفصا وأولاده فأخرجوهم من السجن ونادوا به أميرا عليهم . واضطر حسان بن عتاهية لمغادرة مصر حيث لم تزد مدة امارته على بضعة عشر يوما .

ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر :

أقام رؤســاء الجند حفص بن الوليد أميرا على مصر كرها عنه شــهرى رجب وشعبان . وقدم الى مصر حنظلة بن صــفوان من افريقية بعد ان اخــرجه أهلهــا فنزل بالجيزة . فقدم عليه كتاب الخليفــة مروان بن محمد بامارته على مصر ولكن المصريين رفضوا تنفيذ هذا الأمر ، ومنعوا حنظلة من الدخول الى الفسطاط واخرجوه الى الحوف الشرقى ، وتم أمر حفص على الامارة بقية الســنة وسكت مروان ابن محمد عنه .

٧٤٥ م ــ ١٢٨ هجرية : امارة حوثرة بن سهيل على مصر :

بعث مروان بن محمد بحوثرة بن سهيل ليكون أميرا على مصر وزوده بجيش من سبعة آلاف مقاتل ، ولم يشأ حفص بن الوليد أن يسمح لأتباعه بمقاومتــه وســلم نفســه لحوثرة فقتله وقتل الكثير ممن أيدوه .

٧٤٧ م ــ ١٣٠ هجرية : اســتيلاء أبى مسلم الخراســانى على خراســان :

استولى ابو مسلم الخراسانى صاحب الدعوة على مدينة مرو عاصــمة خراسان فاعتبر صاحب السلطان فى خراسان ، ولم يلبث أن وطد سلطانه بالفعل بالاستيلاء على أكثر مدنهــا .

٧٤٨ م ــ ١٣١ هـ : امارة المغيرة بن عبد الله على مصر :

بعث مروان بن محمد الى حوثرة أمير مصر ان يبادر بنجدة نائبــة بن هبيرة على العراق لمواجهة زحف أبى مسلم الخراسانى ، فســار حوثرة على رأس جيش من مصر ، وولى مروان بن محمد المغيرة بن عبد الله أميرا على الصلاة فقدمها فى شــهر رجب عام ١٣١ هـ وجعل على الشرطة ابنة عبد الله ، وكان لينا محببا للناس وخرج الى الاسكندرية واستخلف على الفسطاط ابا الجراح الحرشى ، ولم يلبث ان مات فكانت مدة ولايته عشرة اشهر .

٧٤٩ م ــ ١٣٢ هجرية : امارة عبد الملك بن مروان على مصر :

ولى مروان بن محمد بعد موت المغيرة عبد الملك بن مروان بن موسى على الصلاة والخراج فجعل اخاه معاوية على الشرطة . وأمر باتخاذ المنابر فى جوامع البلاد كلها

ولم يكن فى الجوامع المنتشرة فى البلاد منابر وانما كان ولاة البلاد يتكئون على عصيهم الى جانب القبلة .

٧٤٩ م ـ ١٣٢ هجرية : قيام الدولة العباسية :

فى الثالث من شهر ربيع الأول من هـذه السنة أستولى أبو مسلم الخرسانى على نيسابور وخطب رسميا لعبد الله السفاح اول خلفاء بنى العباس وهو عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس .

وقرر مروان بن محمد أن يخوض المعركة الفاصلة بينه وبين العباسيين ، فسار على رأس جيش من مائة ألف من جيوش الشام ، ولكن الخلاف بين هذه الجيوش كان قائما وعهد عبد الله السفاح الى عمه عبد الله بن على بمحاربة مروان وتم اللقاء على نهر الزاب حيث دارت الدائرة على مروان ، ففر الى مصر بعد أن لم يصبح له نصير فى بلاد الشام .

وصول مروان بن محمد الى مصر :

وصل مروان بن محمد الى مصر بعد هزيمته فى العراق والشام : وقد عقد العزم على أن يتخذ من مصر ومن جيوشه بها ومن مساعدة ولاته فى شمال افريقيا مركزا للمقاومة والوثوب بعد ذلك على العباسيين ولكنه لم يكد يصل الى مصر حتى كان نبأ هزيمته واندحاره قد سبقه اليها ، فانحاز أغلب ما بمصر من جند الى العباسيين ولبسوا السواد شعارهم .

كما انتهز الأقباط فى مدينة رشيد وما حولها هذه الفرصة ليعلنوا الثورة على الحكم الاسلامى ، على أن مروان استطاع أن يقمع هذه الحركات والفتن كلها ، ولكن العباسيين لم يمهلوه اذ بعثوا خلف مروان بجيش يطارده ، وكان على رأسه صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، ودارت آخر معركة بين مروان وبين العباسيين عند بلدة بوصير أبلى فيها ما وسعه الجهد حتى خر قتيلا وأخذ قاتلوه رأسه وبعثوا بها جريا على عادة ذلك الزمان الى الشام .

انتهاء دولة بنى أمية :

وهكذا مات مروان بن محمد بعد حكم دام ست سنوات وخمسة أشهر وبضعة عشر يوما أمضاها كلها فى حروب متصلة طاحنة ، حتى قيل أن ذلك هو سبب تسميته بالحمار لفرط ما عانى فى حياته من متاعب وما كابده من مشاق .

وقد أصدر عبد الله السفاح أمره بعد مـوت مروان بقتـل أمراء البيت الأموى حيثما وجدوا ، وأينما كانوا هم وكل من يلوذ بهم أو أقاربهم فنفذ ذلك الأمر بدقة وصرامة بحيث لم ينج من بنى أمية سوى أمير واحد وهو عبد الرحمن الأموى الذى هرب الى الأندلس ليؤلف بها أسرة حاكمة أموية .

ويعزو كثير من المؤرخين سبب سـقوط الدولة الأموية الى ما ارتكبـه بعض خلفائهم المتأخرين من ضروب الفسق والاستهتار والى ما وقع بين هـؤلاء الخلفاء المتأخرين من تعصب قبلى آثار النزاع القديم بين القبائل المصرية واليمنية .

ولكن الذى لاجدال فيه أن السـبب الرئيسى فى زوال الدولة الأموية هو تفريقها بين العرب والموالى من المسلمين وهى تفرقة يأباها وتنكرها روح الاسلام وتعاليمه .. فلما ان أخذ العباسيون جانب الموالى ، كان النصر حليفهم .

وكانت مدة خلافة الأمويين تسعين سنة .

الفصل التاسع

مصر فى عهد الخلفاء العباسيين

٧٥٠ م ــ ١٣٣ هجرية : امارة صالح بن على العباسى على مصر :

ولى الخليفة عبد الله السفاح امارة مصر لصالح بن على ، صلاتها وخراجها ، فعمل على تثبيت دعائم الحكم الجديد فى مصر فأمر للناس بأعطياتهم وقسم الصدقات على الأيتام والمساكين وأبناء السبيل ، وزاد فى المسجد زيادة كبيرة وجعل على شرطته ابنه هانى الكندى .

ثم ورد عليه كتاب السفاح يؤمره على فلسطين ويطلب منه أن يستخلف على مصر فأستخلف أبا عون عبد الملك على الصلاة والخراج معا ، وغادر مصر الى فلسطين .

امارة ابى عون الاولى على مصر :

كان أبو عون عبد الملك بن يزيد من أهل جرجان من رجال دولة بنى العباس وقد قدم الى مصر فى معية صالح بن على باعتباره أحد كبار القواد .

انشاء مدينة العسكر :

وقد نزل صالح بن على وأبو عون على رأس الجنود فى الصحراء الواقعة شمال الفسطاط عند جبل يشكر (جامع ابن طولون حاليا) وكانت هذه النقطة تسمى فى صدر الاسلام بالحمراء القصوى . فملأ الجنود الفضاء ، فأمرهم أبو عون أن يبنوا لهم دورا فبنوا . وكان ذلك هو منشأ مدينة العسكر ، التى لن تلبث أن تعمر لتصبح مقاما لأمراء مصر فى عهد بنى العباسى ، وقد بنيت بها فيها بعد دار للامارة ومسجد جامع عرف بجامع العسكر .

وسرعان ما اتسعت المدينة واتصل العمران بينها وبين مدينة الفسطاط .

٧٥٢ م ـ ١٣٥ هجرية : وفاة رابعة العدوية :

فى هذه السنة توفيت بمدينة البصرة رابعة العدوية الزاهدة العابدة ، والتى بلغ من روعها وتقواها وزهدها ان سفيان النورى أحد الأئمة الفقهاء كان يتأدب معها هو ورفاق له .

٧٥٣ م ـ ١٣٦ هجرية : خلافة أبى جعفر المنصور :

عهد عبد الله السفاح عند موته بالخلافة الى أخيه جعفر المنصور وكانت سنه عندما ولى الخلافة تجاوز الأربعين وهو يعد المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فى كمال قوتها وقد ساد فى عهده نظام الادارة المركزية . فقد ركز جميع السلطات فى يده ، لم يسمح طوال حكمه بظهور طبقة من الولاة والحكام من أمثال عمرو بن العاص أو الحجاج بن يوسف أو زياد بن أمية .

امارة صالح بن على الثانية على مصر :

كان عبد الله السفاح قبل موته قد ضم امارة مصر الى صالح بن على فوق امارته لفلسطين . فقدم الى مصر فى الخامس من ربيع الثانى من هذه السنة (١٣٦ هـ) وجعل على شرطة الفسطاط عكرمة بن عبد الله وجعل على شرطة العسكر يزيد بن هانى الكندى . وولى أبا عون المعزول عن أمرة مصر جيوش المغرب بعث به كطليعة له الى افريقية والتى لم تكن أمورها قد استتبت لبنى العباس ، فوصل أبو عون الى برقة فلما ولى أبو جعفر المنصور الخلافة ، اقر عمه على امارة مصر ، ولكنه طلب منه أن يوقف حملة ابى عون الى افريقيا لحاجته اليه فى فلسطين .

٧٥٤ م ـ ١٣٧ هجرية : مقتل ابى مسلم الخراسانى :

فى هذه السنة قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى صاحب الفضل الأكبر فى قيام الدولة العباسية ، وذلك لتخوف المنصور من قوة نفوذه ، من أن تحدثه نفسه بالاستقلال بخراسان ، وخاصة بعد ان رفض أبو مسلم امارة مصر التى عينه أبو جعفر المنصور أميرا عليها .

فاحتال عليه حتى استقدمه آمنا الى مدينة الانبار التى اتخذها العباسيون مقرا لهم وأعد له كمينا من الجند ، واتفق معهم اذا سمعوه يصفق ان ينقضوا على أبى مسلم ويقتلوه . وهكذا غدر بأبى مسلم وقتل شر قتلة ولا جدال ان الانسان يأبى أن يكون ذلك مصير الرجل الذى رفع قاتله الى العرش ، ولكن ابا مسلم من

ناحيته لم يتردد فى قتل عشرات الالوف على ما روى التاريخ بكل وسائل القتل تثبيتا لدعوته ، وتدعيما لسلطانه .

بل لقد كان عونا للمنصور على الغدر بابى مسلمة الخلال وزير العباسيين الاول ثم ابن عم المنصور عبد الله بن على .

ومثل هذا الطراز من الحياة والسلوك لا يمكن الا ان ينتهى بصاحبه كما انتهى امر أبو مسلم ، وهو أن يشرب من الكأس آلتى طالما أسقاها للآخرين . كأس الغدر والغيلة والظلم .

امارة أبى عون الثانية على مصر :

استدعى أبو جعفر المنصور عمه صالح بن على ليستعين به على غزو الروم ، فاستخلف صالح أبا عون على مصر صلاتها وخراجها ومضى الى فلسطين فأقر أبو جعفر امارة أبى عون .

٧٥٥ م — ١٣٨ هجرية : عبد الرحمن الداخلى يتملك الاندلس :

وصل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الى الاندلس وملكها ، وسمى عبد الرحمن الداخلى ووصف بأنه صقر قريش ، ومنذ ذلك الوقت استقلت نهائيا عن العباسيين .

٧٥٧ م — ١٤٠ هجرية : بناء مدينة بغداد :

وفى هذه السنة على ارجح الآراء شرع المنصور فى بناء مدينة بغداد ، وقد ذكر الذهبى وتابعه أمين باشا سامى على أن الشروع فى بنائها كان عام ١٤٥ م ، ولكنا نرجح التاريخ الذى أخذ به تغرى بردى ، ذلك انه ما دام من المتفق عليه أن المنصور قد سكن بغداد عام ١٤٦ هـ فليس من المعقول أن يكون عام واحد كافيا لجعل المدينة صالحة للسكنى بحيث ينتقل اليها المنصور .

بل أن هذا العام لا يكاد يكفى لبناء قصر المنصور وقبته الخضراء الشهيرة التى كان ارتفاعها يبلغ ثمانين ذراعا .

وقد بنيت مدينة بغداد لأول مرة فى التاريخ على شكل دائرة قطرها ميلان وكان يحيط بها سوران مبنيان بالحجر الضخم وكان لها أربعة أبواب ، بين الباب والآخر مائتا ذراع وكان الجامع والقصر هما أول ما بنى بها .

٧٥٨ م ـ ١٤١ هجرية : امارة موسى بن كعب على مصر :

عزل جعفر المنصور أبا عون عن امارته على مصر واستدعاه اليه فى فلسطين ، وولى على امرتها وصلاتها وخراجها موسى بن كعب احد نقباء بنى العباس فدخلها فى شهر ربيع الثانى وجعـل على شرطته عكرمة بن عبد الله وباشر حكم مصر « بحرمة وافرة » على ما يقول تغرى بردى .

امارة محمد الأشعث :

على ان جعفر المنصور لم يلبث أن عزل موسى بن كعب قبل أن يتم السـنة فى الامارة وولى بدلا منه محمد بن الأشعث على الصلاة والخراج ، ثم نزع منه الخراج وعهد به الى نوفل بن الفرات .

٧٦٠ م ـ ١٤٣ هجرية : امارة حميد بن قحطبة على مصر :

عزل المنصـور محمد بن الأشعث وولى على امارة مصر حميد بن قحطبة على صلاتها وخراجها . وأرسـله المنصور على رأس جيش من عشرين الفا ليعيد غزو افريقيا ثم بعث اليه بمدد آخر ، وطلب منه أن يمضى لانفاذ ما طلبه منه ، فسار بالجيش حتى مدينة برقة واستولى عليها ، وعاد الى مصر .

عهـد التدوين :

وفى هذه السنة شرع علماء المسلمين فى تدوين الكتب فى مختلف العلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير . ففى مكة صنف ابن جريح تصانيفه وفى البصرة صنف سعيد بن ابى عروبة وحماد بن مسلمة ، وفى الكـوفة صـنف ابو حنيفة فى الفقـه والرأى ، وصنف الاذراعى بالشام وصنف مالك الموطأ بالمدينة ، وصنف ابن اسحق فى المغازى ، وصنف معمر فى اليمن وصنف شعبان الندرى كتاب الجامع ، ثم بعد ذلك صنف هشام كتبه وفى مصر صنف الليث بن سعد وعبد الله بن لهيفة .. الخ .

وكثر تبويب العلم وتدوينه ، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، أما قبل هذا العصر فكان سـائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويرددون العلم عن صحف صحيحة ولكنها غير مرتبة .

وبعد أن بدأ عصر التدوين ، سهل تناول العلم .

٧٦١ م ــ ١٤٤ هـ : امارة يزيد بن حاتم على مصر :

عزل ابو جعفر المنصــور قحطبة عن امارة مصر وولى بدلا عنه يزيد بن حاتم فقدمها فى النصف من ذى القعدة فأقر على شرطتها عبد الله بن عبد الرحمن وعلى الخراج معاوية بن مروان ، وعلى القضاء أبا خزيمة ابراهيم بن يزيد .

وكان يزيد بن حاتم ممدوحا شجاعا وتوجد فى مجموعة الآثار الأوزان الزجاجية لنقوده وما نقش عليها من كلمات .

٧٦٣ م ــ ١٤٦ هجرية : اتخاذ بغــداد عاصمة للخلافة العباسية :

انتقل ابو جعفر المنصور فى هذه السنة من الانبار الى بغداد جاعلا منها عاصمة الدولة العباسية وتوافد عليها الخطباء والشعراء والعلماء من أرجاء المملكة مبتدئين بذلك عصر بغداد الذهبى حيث تتمثل الحضارة الاسلامية فى أزهى صورها .

٧٦٥ م ــ ١٤٨ هجريه : استتاب الملك لأبى جعفر المنصور :

وفى هذه السنة استتب الملك لأبى جعفر المنصور ولم يبق خارجا عن ســلطانه الا الأندلس فعظمت هيبته فى النفوس ودانت له الامصــار .

٧٦٧ م ــ ١٥٠ هجرية : قيام الأقباط بفتنة فى مدينة ســخا :

تعددت انتفاضات الأقباط فى مدينة سمنود ولكنها انتفاضات قليلة الأهمية ويقضى عليها فى يسر وسهولة ، ولكن فى هذه السنة قام الأقباط فى مدينة سخا بأكبر حركة تمرد من نوعها حيث انضمت اليهم البلاد المجاورة واســتطاعوا أن يدحروا كل القوات التى بعث بها يزيد بن حاتم لقمعهم .

ومن راى لين بول أن هذه الانتفاضات كانت فى طبيعتها من تدبير العرب المسلمين الذين بدأوا يسكنون فى المدن الريفية والقرى فكانوا يستثيرون أهل البلاد .

وفاة الامام أبى حنيفة النعمــان :

وفى هذه السنة مات أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الاسلامى الشهير .

ولا نحسب أننا فى حاجة للحديث عن مكانة أو شخصية أبى حنيفة النعمان . فهناك مئات المجلدات التى افردت لذلك . على أن أبا حنيفة سيبقى حتى فى عصرنا

الحديث بمقاييسه الحديثة فوق ذروة لايطاوله فيها انسان آخر اذ كان صاحب مذهب الاجتهاد في الشريعة بالرأى. فهيأ بذلك للفقه الاسلامى نظارة لا تبلى على مر الزمن .

٧٦٩ م ـ ١٥٢ هجرية : امارة عبد الله بن عبد الرحمن على مصر :

عزل المنصور يزيد بن حاتم وولى عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية على الصلاة يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الثانى ، ولم يول أحدا على الشرطة ، وباشر ذلك بنفسه ، حيث كان قد ولاها من قبل لأكثر من أمير ، وولى الخراج محمد بن سعيد .

٧٧١ م ـ ١٥٤ هجرية : تعيين عبد الله بن لهيعة قاضيا فى مصر :

أصدر الخليفة لأول مرة فى تاريخ الحكم الاسلامى أمره بتعيين عبد الله بن لهيعة قاضيا فى مصر فقد كان تعين القضاة قبل ذلك من اختصاص أمير مصر .

وابن لهيعة ممن حملوا لواء علم الحديث فى مصر فكان يدونه ويتحرى عن اسناده ، ويرحل فى طلبه . وقد نقل عنه الكندى الكثير من أخبار الفتح العربى لمصر . وهو تلميذ يزيد بن حبيب ، أما زميله فى التلمذة فهو الليث بن سعد ، وعلى يد هؤلاء الثلاثة أمكن تدوين تاريخ مصر الاسلامى .

٧٧٢ م ١٥٥ هجرية : امارة محمد بن عبد الرحمن بن معاوية على مصر :

مات عبد الله بن عبد الرحمن أمير مصر ، وكان قد استخلف قبل موته اخاه محمد بن عبد الرحمن على الصلاة ، فأقر جعفر المنصور هذا الاختيار وقد جعل على شرطته العباس بن عبد الرحمن وسار فى الناس سيرة مشكورة .

وفى أيامه خرجت عساكر مصر تحت قيادة يزيد بن حاتم لاقرار الأمن والنظام فى افريقيا ، فقام محمد بن عبد الرحمن بأمر هذه التجهيزات العسكرية ، فوصلت هذه الجيوش الى القيروان واحتلتها ، واصلحت سائر أحوال المغرب .

ومات محمد بن عبد الرحمن فى شوال من هذه السنة .

امارة موسى بن على على مصر :

استخلف محمد بن عبد الرحمن قبل وفاته موسى بن على الصلاة فأقره أبو جعفر المنصور عليها فجعل على شرطته أبا الصهباء محمد بن حسان الكلبى .

يقول تغرى بردى عن حكم موسى بن على :

وقد خرج عايه قبط مصر وتجمعوا ببعض البلاد فبعث موسى بعسكر فقاتلوا القبط وهزمهم ، فقتل قادتهم وعفا عن سوادهم ، ثم راح يمهد أمور مصر فأحسن تمهيدها ، وكان فيه رفق بالرعية وتواضع وكان يتوجه الى المسجد ماشيا وصاحب شرطته بين يديه يحمل الحربة ، وكان اذا قام صاحب الشرطة الحدود بين يديه يقول له :

أرحم أهل البلاد .

وكان يحدث الحديث فيكتب عنه الناس .

٧٧٥ م — ١٥٨ هجرية : وفاة الخليفة جعفر المنصور :

وفى ذى الحجة من هذه السنة مات أبو جعفر المنصور عن بضع وستين عاما على خلاف فى عدد السنين فوق الستين .

وقد حكم منها اثنين وعشرين سنة.ويروى عنه حاجبه الربيع بن يونس قوله :

الخلفاء الراشدون أربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والملوك بعدهم أربعة معاوية وعبد الملك وهشام وأنا .

كما يصف جلده على العمل بقوله : كان يصلى الفجر ثم يجاس وينظر فى مصالح الرعية الى أن يصلى الظهر ، ثم يعود الى ذلك الى أن يصلى العصر ثم يعود الى أن يصلى المغرب ، فيقرأ ما بين المغرب والعشاء ثم يصلى العشاء ويجاس مع سماره الى ثلث الليل الأول فينام الأوسط ثم يتنبه الى أن يصلى الفجر وهكذا .

وقيل على ما روى الطبرى أن ولاة البريد فى الآفاق كانوا يكتبون له فى كل يوم عن سعر القمح والحبوب والآدم وبسعر كل مأكول . ويكاد ما يقضى به القاضى فى نواحيهم وما يعمل به الوالى وبما يرد الى بيت المال وكل حدث وكانوا اذا وصلوا المغرب يكتبون اليه بما كان فى كل ليلة . فكان يطالع كل ما يكتبون ويراجع كل أمر .

ويستعلم ويستفسر عن سبب هذا أو ذاك .

وقد مات وفى بيت المال على ما يقول صاحبه الربيع مائة الف الف درهم .

والحكايات عن بخله وخاصة فى عطايا الشعراء كثيرة ومستفيضة ، وقد لقب بالدوانيقى لمحاسبته عماله وتابعيه على الدانق .

ويأخذ عليه الكثيرون غدره بأبى مسلم الخراسانى الا أن هذه كانت تغفر له باعتبارها من مصالح الدولة العليا . فان مالم يقبل منه هو تحالفه مع ملك الفرنجة ضد عبد الرحمن الداخل . فكان ذلك أول الوهن فى الصف الاسلامى والذى انتهى بازالة حكم الاسلام من الأندلس .

خلافة محمد المهدى :

ولى الخلافة محمد المهدى بن جعفر المنصور بعهد من أبيه وكان أول ما فعله أن فتح الخزائن وفرق ما بها من الأموال على الجند والناس وأطلق من فى الحبوس واعتق جاريته الخيزران وتزوجها وهى التى انجبت له ولديه الهادى والرشيد .

٧٧٧ م ــ ١٦١ هـ : امرة عيسى بن لقمان على مصر :

عزل الخليفة المهدى موسى بن على عن امارة مصر وولاها لعيسى بن لقمان على الصلاة والخراج فجعل على شرطته الحارث بن الحارث المجمحى ، وسكن مدينة العسكر . على ان امارته لم تطل او لم تدم اكثر من اربعة شهور .

٧٧٨ م ــ ١٦٢ هـ : امارة واضح المنصورى على مصر :

عزل المهدى عيسى بن لقمان ، وولى بدلا عنه واضح بن عبد الله المنصورى ، وجمع له الصلاة والخراج ، وقد جعل على شرطته موسى بن زريق ولكنه كان شديدا فى حكمه ، فاشتكى منه أهل مصر فعزله المهدى ، فلم تزد مدة ولايته على ثلاثة شهور على أنه بقى عاملا على بريد مصر .

امارة منصور بن يزيد :

ولى المهدى على امارة مصر ابن خاله منصور بن يزيد فجعل على شرطته هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن على أن المهدى لم يبقه سوى شهرين ونصف الشهر ثم عزله وولى يحيى بن داود .

امارة يحيى بن داود :

ولى مصر يحيى بن داود الشهير بابن ممدود الأمير أبو صالح الخرشى وجعل على شرطته عسامة بن عمرو .

وكان أبو صالح المذكور تركيا اشتهر بشدة البأس وقوة الجنان مع المعرفة والتدبير ، وقد هاله عندما قدم الى مصر ان وجد سبلها مخيفة لا يأمن السائر فيها على نفسه لكثرة المفسدين وقطاع الطرق . فأخذ على نفسه قمع المفسدين وابادتهم ، حتى قتل منهم جماعة كثيرة فعظمت حرمته وتزايدت هيبته فى قلوب الناس . حتى

تجاوز الحد ، فمنع الناس من غلق الدروب والأبواب أو غلق الحوانيت ، امعانا فى الأمان واستحالة السرقات وكان ينادى بمصر ويقول من ضاع له شيء فعلى اداؤه . فلم يحدث ان فقد انسان ايا من حوائجه .

قال صاحب اليقين : وهو أحد من مهد الديار المصرية وأباد أهل الحوف من قيس ويمنى وغيرهم من قطاع الطرق،وكان من أجل امراء مصر لولا شدة كانت فيه.

٧٨١ م ـ ١٦٤ هـ : امارة سالم بن سواده على مصر :

عزل الخليفة المهدى يحيى بن داود وولى سالم بن سواده التميمى أميرا على مصر . فجعل على شرطته الأخضر بن مروان ، وولى أبو قطيفة اسماعيل بن ابراهيم على الخراج .

هارون الرشـــيد يغزو الروم :

وفى هذه السنة غزا هارون الرشيد بن المهدى بلاد الروم حتى وصل الى خليج القسطنطينية ، واضطرت ملكة الروم أن تتصالح معه على أن تدفع للمسلمين جزية قدرها سبعون ألف دينار لمدة ثلاث سـنوات .

٧٨٢ م ـ ٦٥ هـ : امارة ابراهيم بن صالح على مصر :

عزل الخليفة المهدى سالم بن سواده، وولى علىمصر ابن عمه ابراهيم بنصالح، على الصلاة والخراج فدخل مصر يوم ١١ المحرم وجعل على شرطته عسامة بن عمرو.

ثورة أمير أموى بالصـعيد :

وفى ولاية ابراهيم بن صالح أعلن فى الصعيد أحد أحفاد عبد العزيز بن مروان واسمه دحية خلعه للمهدى من الخلافة ودعا الى فتنة وقد اهمل ابراهيم بن صالح شأنه ، فاستفحل امره وغلب على بعض مدن الصعيد .

٧٨٤ م ـ ١٧٦ هـ : موت بشـار بن برد :

توفى فى هذه السنة بشار بن برد الضرير الشاعر المشهور وقد ولد أعمى جاحظ العينين ، وكان ضخما عظيم الخلقة والوجه مجدرا طويلا ، وكان يرمى بالزندقة .

وهو صاحب البيت المشهور فى وصف الحرب الذى فاق به المبصرين :

كان مثـار النقع فوق رؤوسـنا وأسـيافنا ليـل تهـاوى كواكبه

ومن أشـعاره الخالدة التى تجرى مجرى الأمثلة :

ياقوم اذنى لبعض الحى عاشـقة والأذن تعشـق قبل العين أحيـانا

٧٨٤ م ـ ١٦٧ هـ : امارة موسى بن مصعب على مصر :

عزل المهدى ابن عمه ابراهيم بن صالح عن امارة مصر لفشله فى معالجة فتنة دحية الاموى وولى على مصر موسى بن مصعب فدخلها فى ٧ ذى الحجة وجعل على شرطته عسامة بن عمرو . وراح يتشدد فى جمع الخراج ، وضاعف فى قدره ، ولقى الناس منه شدة وعنفا ، وساءت سيرته وارتشى فى الاحكام .

وفرض الضرائب على اهل السوق والدواب ، فكرهه الجند وكرهته الرعية : ولذلك انتهزوا فرصة تصديه لحرب عرب الحوف فانهزموا عنه وخلوا بينه وبين محاربيه فسقط قتيلا : ولم يجد انسانا واحدا فى مصر يحرك من اجله أصبعا .

٧٨٥ م ـ ١٦٨ هـ : امارة عسامة بن عمرو على مصر :

كان موسى بن مصعب قبل توجهه لحرب دحية قد استخلف على الصلاة عسامة ابن عمرو : فأقره المهدى عليها .

٧٨٦ م ـ ١٩٦ هـ : وفاة الخليفة محمد المهدى :

توفى أمير المؤمنين محمد المهدى ثالث الخلفاء من بنى العباس وكان عمره حين مات اثنتين وأربعين سنة حكم منها نيف وعشر سنوات .

وكان الخليفة المهدى محبوبا من الشعب ومن العلماء والشعراء لكثرة ما أجزل للجميع من العطايا ، وقد كثر فى عهده البناء والتعمير والانشاء ، فوسع فى المسجد النبوى توسعة كبيرة ، وكسا الكعبة وبنى محطات ومنازل على جوانب الطريق التى سالكها الحجاج وأقام أحواضا لخزن المياه ليشربوا منها . ونظم البريد من بغداد الى مكة لأول مرة وهو أول من جعل طعام المسجونين على حساب الدولة بعد أن كان يرسل لهم من بيوتهم .

وقد بدأ فى عصره ظاهرة سماع الخليفة العباسى للغناء ، ومن الخليفة سرى التقليد الى بقية الكبراء : وبدأ تاريخ الدولة العباسية يتسم بسمة الابهة والترف .

خلافة موسى الهادى :

اعتلى الهادى عرش الخلافة بعهد من أبيه على أن الخلافة لم تستمر أكثر من سنة .

امارة الفضل بن صالح على مصر :

وكان المهدى قبل وفاته قد ولى على مصر الفضل بن صالح بن على الأمير العباسى وبعث معه باليوش للقضاء على فتنة دحية الاموى : وولاه على الصلاة والخراج

وجعل على شرطته عسامة بن عمرو الذى كان اميرا قبله ولم يكد يصل الى مصر ، حتى توفى المهدى فامره الهادى على امارته .

وقد استطاع ان يقضى على فتنة دحية وان يقضى عليه ويقتله فكان الفضل يتفاخر بهذا النجاح ويرى نفسه أحق الناس بالاستمرار فى امرة مصر ، وانشأ جامعا كبيرا فى مدينة العسكر . فكان ذلك مما أدى الى عزله خوفا من أن يطمع فى الاستقلال بمصر . وفى مجموعة الاثار توجد الاوراق والقوالب الزجاجية لنقود الفضل بن صالح التى صكها .

امارة على بن سليمان على مصر :

ولى الهادى بعد عزل الفضل بن صالح ... على بن سليمان على صلاة مصر وخراجها فجعل على شرطته عبد الرحمن بن موسى اللخمى ، ثم لم يلبث أن عزله وولى على الشرطة الحسين بن يزيد الكندى .

وكان على بن موسى عادلا وفيه رفق بالرعية .. وكان آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر .

٧٨٧ م — ١٧٠ هـ : وفاة الخليفة موسى الهادى :

مات الخليفة موسى الهادى وكانت سنه يوم وفاته خمسا وثلاثين سنة أما حكمه فلم يزد على سنة واحدة وشهرين .. وكان موته بسبب قرحة اصابته وقيل ان أمه الخيزران هى التى سعت الى موته عندما تحداها ومنع تدخلها فى الشئون العامة حتى لقد هددها بأنه سيضرب عنق أى أمير يقف ببابها ودعاها الى الاشتغال بمغزلها أو تلاوة المصحف .. ويستبعد الدكتور على ابراهيم حسن فى كتابه هذه الواقعة على أساس من حنان الام : مع أن التاريخ حافل كما رأينا بعشرات الامهات اللوتى ضحين بأولادهن من أجل النفوذ والسلطان .

على أن الدكتور على ابراهيم حسن يعود الى قبول الراوية على أساس أن الهادى فكر فى حرمان أخيه الرشيد من ولاية العهد : واذا كانت الخيزران تحب الرشيد فقد تكون بالفعل سعت الى موته .

خلافة هارون الرشيد :

ارتقى هارون الرشيد عرش الخلافة وهو الابن الثانى للمهدى وكان عمره يوم وليها خمسا وثلاثين سنة وهو ألمع الشخصيات فى الدولة العباسية وأكثرهم شهرة فى الغرب لما كان بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود وقد أصبحت بغداد فى أيامه حاضرة الدنيا الاولى وتحولت الى كعبة رجال العلم والادب ومركز التجارة العالمية .

١٨٨ م ـ ١٧١ : امارة موسى بن عيسى على مصر :

ولى هارون الرشيد امارة مصر لموسى بن عيسى احد امراء بنى العباس وذلك بعد أن عزل على بن سليمان .. أما سبب عزل على بن سليمان فهو تعلق مسلمى مصر بهلكثرة ما تصدق به : ولتخمسه للدين مما جعله يهدم الكنائس التى احدثها الأقباط فى مصر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وتجمع حوله من يزينون له صلاحيته للخلافة ، ووشى به عند الرشيد فعزله .

وقد جعل موسى بن عيسى على الشرطة أخاه اسماعيل ثم عزله وولى عسامة ابن عمرو وكان موسى بن عيسى جوادا كريما وكان رفيقا بالرعية محسنا اليها .

ولم يقف بره كسلفه عند حد المسلمين بل شمل الأقباط أيضا ولذلك فقد أذن لهم أن يعيدوا بناء الكنائس التى هدمها سلفه وقد اذن بذلك بناء على مشورة الليث ابن سعد امام مصر وحجتها وعبد الله بن لهيعة قاضيها ، على اساس ان هذه الكنائس قد بنيت فى الاسلام وفى زمن الصحابة والتابعين فلم يعد يجوز هدمها .

٧٨٨ م ١٧٢ هـ امارة مسلمة بن يحيى على مصر :

صرف الرشيد موسى بن عيسى عن امارة مصر خوفا كما يبدو من تطلعه للاستقلال بها وولى مسلمة بن يحيى بن قرة البجلى الخراسانى ، على الصلاة : فجعل على شرطته ابنه عبد الرحمن : وكان عمرو بن غبلان على الخراج .

٧٨٩ م ـ ١٧٣ هـ : امارة محمد بن زهير الازدى :

عمت الفتن فى أيام مسلمة بن يحيى فى أرجاء مصر فعزله هارون الرشيد وولى محمد بن زهير الأزدى على الصلاة والخراج : فاستعمل على الخراج عمرو بن غيلان وجعل على شرطته حنك بن العلاء ثم استبدله بحبيب بن ابان العجلى .

وقد اشتد عمرو بن غيلان على الناس وأهل الخراج فنفرت منه القلوب وثار عليه الجند وحاصروه فى داره فلم يدافع عنه محمد بن زهير فغضب هارون الرشيد لذلك عندما بلغه الخبر وعزل محمد بن زهير .

٧٩٠ م لا ١٧٤ هـ : امارة داود بن يزيد على مصر :

هو داود بن يزيد بن حاتم ولاه هارون الرشيد بعد عزل محمد بن زهير على الصلاة وولى ابراهيم بن صالح بن على العباسى على الخراج .

وفاة عبد الله بن لهيعة :

وفى هذه السنة مات عبد الله بن لهيعة الامام الحافظ عالم الديار المصرية وقاضيها ومحدثها .

٧٩١ م ـ ١٧٥ هـ : امارة موسى بن عيسى الثانية :

عزل هارون الرشيد داود بن يزيد وأعاد الى امارة مصر موسى بن عيسى وجمع له صلاة مصر وخراجها .

وفاة الليث بن سعد :

وفى هذه السنة مات فقيه مصر الليث بن سعد الذى استطاع بعلمه أن يصبح كبير الديار المصرية ورئيسها ، فكان القاضى والنائب تحت امره ومشورته حتى قال أحد الشعراء يحرض جعفر المنصور عليه :

أمير المؤمنين تلاف مصرا فان أميرها ليث بن سعد

ولكن ورع الليث بن سعد وعلمه حماه من هذه الوشايات، وكان الشافعى يقول عنه : الليث أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به .

وقد جرت بين الليث بن سعد والامام مالك مراسلات مسجلة فى كتب الفقه تشهد بعلو كعبه وتدينه .

٧٩٢ م ـ ١٧٦ هـ : امارة ابراهيم بن صالح الثانية :

طمع موسى بن عيسى أمير مصر فى الاستقلال بها فعزله الرشيد وولى بدلا عنه ابراهيم بن صالح الذى ولى على الصلاة قبل مقدمه الى مصر ، عسامة بن عمرو ، وولى نصر بن كلثوم على الخراج ثم ارسل روح بن روح بن زنباع على الصلاة والخراج حتى قدم بنفسه فى منتصف شهر جمادى الأول وكان على شرطته خالد بن يزيد وكان ابراهيم بن صالح من وجوه بنى العباس ، وكان خيرا ، دينا ، ممدوحا ، ولكن أيامه لم تطل فقد توفى فى شعبان .

بيعة الرشيد لولديه الأمين والمأمون :

فى هذه السنة عقد الرشيد البيعة من بعده لابنه محمد الامين ثم لعبد الله المأمون ، وكتب كتابا بهذا العهد علقه فى الكعبة . وكان المأمون أسن من الأمين بشهر واحد ، ولكن الأمين كانت أمه زبيده وهى هاشمية ، أما المأمون فأمه أم ولد فارسية وقد أقام هارون المأمون حاكما على الشرق .

وقد جدد هارون هذه البيعة فيما بعد أكثر من مره بعد أن ضم اليها ابنه الثالث القاسم ليكون خليفة بعد الاثنين .

امـارة عبد الله بن المسيب :

ولى الرشيد عبد الله بن المسيب أمارة مصر بعد وفاة ابراهيم بن صالح ، فقدم مصر فى ١٩ رمضان فى هذه السنة : ونزل بالمعسكر وجعل على شرطته ابا المكيس .

٧٩٣ م ـ ١٧٧ هـ : امارة اسحق بن سليمان :

عزل الرشيد عبد الله بن المسيب : وولى على مصر اسحق بن سليمان الهاشمى العباسى وجمع له الصلاة . والخراج ، فجعل على شرطته مسلم بن بكار العقيلى .

وقد زاد اسحق بن سليمان فى الضرائب المفروضة على المزارعين زيادة فاحشة فكرهته الناس وخرج عليه جماعة أهل الحوف من قيس وقضاعة فحاربهم ، ولكنهم استطاعوا ان يقتلوا عددا كبيرا من حاشيته وجنده ، فكتب بعلم الرشيد بما حدث فعـزله .

٧٩٤ م ـ ١٧٨ هـ : امارة هرثمة بن أيمن :

ولى الرشيد هرثمة بن أيمن على مصر صلاتها وخراجهـا ، وأوفد معه جيشـا كبيرا لاقرار الامن بها ، ولكى يتوجه بعد ذلك الى شمال افريقيا .

امـاره عبد الله بن صالح :

بعد ان انصرف هرثمة وجيوشه عن مصر قاصدا افريقيا ولى الرشيد على صلاة مصر وخراجها عبد الملك بن صالح ، فلم يقدم الى مصر واستخلف نيابة عنه عبد الله ابن المسيب الذى جعل على شرطته عماد بن مسلم .

٧٩٥ م ـ ١٧٩ هـ : امارة عبد الله بن المهدى :

ولى الرشيد أخا له وهو عبد الله بن المهدى فعهد اليه بصلاة مصر وخراجها فاستخلف عليها داود بن حباش وأرسله اليها ثم لحق به فى شعبان من هذه السنة وجعل على شرطته معاوية بن صدر . ثم عمار بن مسلم .

وفاة الامام مالك بن أنس :

توفى بالمدينة المنورة الامام مالك بن أنس شيخ الاسلام وامام دار الهجرة ومؤلف الموطأ وهو أول جمع منظم للأحاديث النبوية وصاحب المذهب المشهور .

قال الشافعى فى وصفه اذا ذكر العلماء فمالك هو النجم ، وما فى الارض كتاب أكثر صـوابا من الموطأ .

وكان مالك عظيم الجلال كبير الوقار غزير العلم متشددا فى دينه .
وكان رجلا طوالا جسيما عظيم الهامة أشقر اصلع عظيم اللحية عريضها (١) .

امارة موسى بن عيسى الثالثة :

عزل الرشيد أخاه عبد الله وولى موسى بن عيسى على الصلاة فقط فاستخلف ابنه يحيى ثم قدم مصر فى شهر ذى القعدة ، على أن الرشيد لم يلبث أن صرفه عن مصر وأعاد أخاه عبد الله بن المهدى للمرة الثانية .

٧٩٦ م ــ ١٨٠ هـ : أمارة عبد الله بن المهدى الثانية :

ولاه الرشيد على الصلاة ، فاستخلف داود بن حبشى على الصلاة الى ان قدم بنفسه الى مصر فى ٤ شعبان من هذه السنة .

هدم منـــارة الاسـكندرية :

فى هذه السنة وقع زلزال عظيم فى مدينة الاسـكندرية سقط بسـببها رأس منارة الاسكندرية الشهيرة فكان ذلك أول تصـدع أصـابها بعد اكثر من الف سنة على انشـــائها .

وفاة سيبويه امام النحو :

وفى هذه السنة توفى ببلاد فارس (٢) ، أبو بشر عمر بن عثمان البصرى امام النحاة المشهور على أثر مناقشة دارت فى بغـداد بينه وبين الكسـائى : وهو مؤلف كتاب النحو الذى لم يسبقه أو يلحقه كتاب فى النحو ، ومن عجب ان يكون أعظم مؤلف فى النحو فارســيا وأن يحقق هذا النبوغ فى ســن الثانية والثلاثين والذين يطيلون لا يتجاوزون به الاربعين .

٧٩٨ م ــ ١٨٢ هـ : امارة اسماعيل بن صالح :

عزل الرشيد أخاه عبــد الله بن المهـدى للمرة الثانيـة بعد ولاية لم تزد على سنة وثلاثة اشهر : وولى أميرا عباسـيا آخر وهو اسماعيل بن صالح على صلاة مصر فاستخلف عون بن وهب الخزاعى حتى حضر بنفسه فى ٢٥ رمضان وجعل على شرطته سليمان بن الصمة ثم صرفه بيزيد بن عبد العزيز الغسانى وأخذ فى اصلاح الديار المصرية وكان فصيحا عاقلا أديبا شجاعا .

(١) اقرأ كتاب الامام مالك لابى زهرة وللشيخ امين الخولى .

(٢) أعلام الثقافة العربية ــ سيبويه ص ١٦ .

٧٩٩ م ــ ١٨٢ هـ : امارة اسماعيل بن عيسى :

عزل الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل بن عيسى العباسى الهاشمى على الصلاة . فقدم مصر فى ١٦ جمادى الثانى على أنه لم يمكث بها الا ثلاثة شهور ثم عزله الرشيد .

امارة الليث بن فضل على مصر :

ولاه الرشيد بعد عزل اسماعيل بن عيسى على الصلاة والخراج ، فقدم مصر فى الخامس من شوال وجعل على شرطته أخاه على بن الفضل .

٨٠٢ م ــ ١٨٦ هـ : ثورة أهل الحوف على الليث :

ثار أهل الحوف على الليث بن الفضل وتعذر عليه جمع الخراج فطلب من الرشيد أن يبعث اليه جيشا لتحصيل الخراج ولكن محفوظ بن سليمان تعهد للرشيد أنه قادر على جمع الخراج بغير حاجة الى جيش ، فأرسله عاملا على الخراج : فتمكن بالفعل من جمع الخراج بغير حاجة لاستعمال العنف فكان سببا فى عزل الليث بن الفضل .

٨٠٣ م ــ ١٨٧ هـ : امارة أحمد بن اسماعيل :

هو أحمد بن اسماعيل الهاشمى العباسى ولاه الرشيد على صلاة مصر بعد عزل الليث بن الفضل ، فقدمها فى ٢٥ جمادى الثانى وجعل على شرطته معاوية بن جرد

نكبة البرامكة :

وفى هذه السنة نكب الرشيد البرامكة : نكبتهم المشهورة بعد أن ترك ليحيى ابن خالد البرمكى وأولاده شئون الحل والعقد فى الدولة ، وجعل من جعفر البرمكى خلا له وصديقا لا يستطيع مفارقته لحظة ، حتى اذا بلغ نفوذ البرامكة الاوج أصدر الرشيد امره بقتل جعفر البرمكى وسجن ابنه يحيى واخاه الفضل وايداع باقى الأسرة السجون ، ومصادرة أموالهم ، واضطهاد كل من يشيد بذكرهم .

وقد قيلت التاصيص كثيرة فى أسباب هذه النكبة ، ولكن من المحقق أنه نفس السبب الذى أدى الى مصرع أبى مسلم الخرسانى وهو خشية الحاكم عن نفوذه من الضياع من أعوانه الاقوياء .

٨٠٥ م ــ ١٨٨ هـ : امارة عبد الله بن محمد :

عزل الرشيد أحمد بن اسماعيل : وولى امارة مصر على الصلاة الامير العباسى

الهاشمى عبد الله بن محمد فقدم مصر يوم السبت ١٥ شوال وجعل على شرطته احمد بن موسى العلدى ثم عزله وولى محمد بن عسامة .

٨٠٦ م ـ ١٩٠ هـ : امارة الحسين بن جميل :

عزل الرشيد عبد الله بن محمد العباسى وولى الحسين بن جميل مولى أبى جعفر المنصور ، اميرا على مصر فولاه الصلاة فقدم اليها يوم الخميس ١٠ رمضان وسكن المعسكر وجعل على شرطته كاملا الضائى ثم معاوية بن حرد ، ثم جمع له الرشيد بين الصلاة والخراج ، فلما ولى الخراج شدد فيه فخرج عليه أهل الحوف بالشرق ، وامتنعوا عن أداء الخراج : فأرسل اليهم الرشيد جيشا ردهم الى الطاعة وادوا ما عليهم من الخراج .

مقدم الشاعر الحسن بن هانى (ابو نواس) الى مصر :

قدم الى مصر الحسن بن هانى (أبو النواس) شاعر العباسيين أملا فى نوال الخصيب ، وديوان ابى نواس ملىء بالقصائد حول هذا المعنى .

انت الخصيب وهذه مصر　　　فتدفقا فكلاكما بحر

وذكر السيوطى أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا للاجتماع بأبى نواس ومصاحبته وكتابة شعره .

٨٠٨ م ـ ١٩٢ هـ : امارة مالك بن دلهم :

عزل الرشيد الحسين بن جميل وولى مالك بن دلهم بن عيسى أميرا على مصر صلاتها وخراجها فقدمها يوم الخميس ٢٣ ربيع الأول وجعل على شرطته محمد ابن توبه بن آدم .

٨٠٩ م ـ ١٩٣ هـ : وفاة الخليفة هارون الرشيد :

توفى هارون الرشيد عن خمس واربعين سنة حكم فيها ثلاثة وعشرين سنة وشهرين . وهو اشهر خلفاء المسلمين بعد الخلفاء الراشدين لكثرة ورود اسمه فى الادب الشعبى كما هو ممثل فى حكايات الف ليلة وليلة ونوادر أبى نواس .

واذا كان عصر عبد الملك بن مروان يعتبر عصرا عربيا فان عصر الرشيد كان عصرا فارسيا من حيث نظام الحكم ومديريه وصفة الحياة الاجتماعية التى أصبح محببا فيها كل ما هو فارسى ، اما أمراء الجيش وقواده جميعا فقد كانوا من الفرس .

وحسبنا أن نشير الى ما وصل اليه البرامكة قبل نكبتهم .. وقد اتصف هارون الرشيد بالكرم والجود فكان يعطى الكثير من الهبات للشعراء الذين يمدحونه ، وكان يغدق العطايا والاموال على الناس فى المواسم . وعلى الرغم من ذلك فقد ترك وراءه خزائنه عامرة بالمال يقدر ما فيها بـ ٤٨ مليون دولار على ما يقول ول دورانت .. وليس وراء ذلك دليل على ما وصلت اليه الدولة فى عهده من غنى واستقرار وازدهار .

وقد امتلأ بلاط الرشيد فى بغداد بالعلماء والشعراء والادباء والمغنيين واقطاب الموسيقى : من أمثال ابى العتاهية وأبى نواس والعباس بن الاحنف والاصمعى والكسائى والواقدى .. يتوج هؤلاء أبو يوسف صاحب كتاب الخراج ، كما اشتهر من رجال الغناء ابراهيم الموصلى واسحق الموصلى .

الرشيد وشارلمان :

الرشيد هو أشهر ملوك الاسلام فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى للعلاقات الودية التى نشأت بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة وباعث الامبراطورية الرومانية المسيحية .

ومما يؤسف له أن هذه العلاقات الودية كانت على حساب العداء المشترك للدولة الاموية فى الاندلس .

وقد أفاضت المصادر الافرنجية فى وصف الهدايا التى كان الرشيد يبعث بها الى شارلمان ، وكيف كانت تبهر الافرنج حتى ليعدوها من صنع الجان كما هو الشأن فى موضوع الساعة المائية الدقاقة . ولم يقل تأثير الفيل الذى أهداه الرشيد لشارلمان عن أثر الساعة .

خلافة محمد الامين :

ولى محمد الامين الخلافة بعهد من أبيه هارون الرشيد ، غير انه لم يكد يليها حتى أقدم على فعل ما فعله خلفاء بنى أمية من قبله عندما كانوا يخلعون اخوانهم من ولاية العهد لحساب أبنائهم .. ولذلك فقد خلع الأمين أخاه من ولاية العهد وجعلها لابنه موسى من بعده .

فشب الخلاف بين المأمون الذى كان يقيم فى خراسان ويحكم فى الشرق ويمثل العنصر الفارسى الذى بدأ يطغى على الدولة الاسلامية وبين الامين الذى كان يقيم فى بغداد وتلوذ به العناصر العربية التى تحاول أن تتشبث بسابق نفوذها وسيادتها .

امارة الحسن بن البجباح على مصر :

كان الامير على مصر عند وفاة هارون الرشيد هو الحسن بن البجباح وكان قد وليها بعد عزل مالك بن دلهم « وقد ورد اسمه بهذا الضبط » (البجباح) فى كتاب أمين باشا سامى وفى النجوم الزاهرة ، ولكن فى كتاب القريزى وفى الكسندى الحسن بن التختاخ وهو ما اختاره لين بول » .

وقد ولى صلاة مصر وخراجها .. فلم يكد يصل الى مصر حتى جاء الخبر ينعى هارون الرشيد واستخلاف الامين فثار الجند على الحسن وقاتلوه فقاتلهم وجرت بين الاثنين مقتلة عظيمة .

٨١٠ م ــ ١٩٤ هـ : امارة حاتم بن هرثمة :

عزل الأمين حاتم بن هرثمة وولى عليها جابر بن الاشعب وجمع له الصلاة وخراجها فجعل على شرطتا ابنه ثم عزله بغيره بعد ذلك واستقر على امرة مصر ومهد أمورها وابتنى بها القبة المعروفة بقبة الهواء .

ميلاد البخــــارى :

وفى هذه السنة ولد أبو عبد الله محمــــد بن اسماعيل البخارى امام جامعى الاحاديث النبوية .

١٩٥ هـ ــ امارة جابر بن الاشعب على مصر :

عزل الامين حاتم بن هرثمة وولى عليها جابر بن الاشعب وجمع له الصــــلاة والخراج فقدم مصر يوم الاثنين ٢٥ جمادى الثانى واستخلف على الصلاة يحيى ابن يزيد المرادى .

معركة الرى بين الامين والمأمون :

وقعت معركه الرى بين الامين والمأمون وكان على جيش الامين عيسى بن ماهان فى عسكر كثيف : وعلى عسكر المأمون طاهر بن الحسين فى أقل من أربعة آلاف .

فتمت الغلبة للطاهر بن الحسين ، وبعث للمأمون يقول له :

كتابى الى أمير المؤمنين ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى اصبعى وجنده تحت امرتى والسلام .

ثورة السرى بن الحكم على والى الامين فى مصر :

أحدثت هذه رلهزيمة الساحقة اثرها فى مصر فوثب السرى بن الحكم ومعه جماعة من المصريين منادين بخلع الامين ومبايعة المأمون ، ولما حاول جابر أن يتصدى لهذه الحركة ، قاتله السرى بن الحكم وهزمه وأخرجه من مصر . وعقد بيعة الناس للمأمون .

١٩٦ هـ ـ امارة عباد بن محمد :

ولى المأمون على امارة مصر عباد بن محمد بن حباب البلخى وكان عباد يعمل قبل ذلك وكيلا على ضياع هرثمة فى مصر . فلما أن ولى الامارة جعل على شرطته هبيرة بن هاشم بن حديج .

وكتب الأمين من ناحيته الى ربيعة بن قيس رئيس قيس الحوف بمصر بولاية مصر ، فقام أهل الحوف بخلع المأمون ومبايعة الأمين من جديد ، وساروا لمحاربة عباد وأصحابه فانتصروا عليه ، وبعثوا به الى الأمين فأعدمه .

١٩٧ هـ ـ وفاة ورش شيخ القراء فى مصر :

مات فى هذه السنة أبو سعيد امام القراء وهو على أحدى الروايات عثمان بن سعيد بن عدى بن غزران بن داود بن سابق (القبطى المصرى) وشيخه نافع وهو الذى لقبه ورشا لشدة بياضه وانتهت اليه رياسة القراء بالديار المصرية .

٨١٣ م ـ ١٩٨ هـ : وفاة الخليفة محمد الأمين :

قتل الخليفة محمد الأمين فى مدينة بغداد بعد حصار عنيف للمدينة قام به قائد المأمون طاهر بن الحسين من ناحية وهرتمة بن عيسى من ناحية أخرى ولقد لاقت بغداد شدائد واهوالا من جراء هذا الحصار ووقف الشعب الى جانب محمد الأمين الذى باع كل مافى خزائنه من الأمتعة ليصرف على الجند وحول كل ما كان فى قصره من ذهب الى دنانير ، حتى اذا اسقط فى يده ، وأصبح صفر اليدين من كل شىء . نصح له الناصحون أن يتنازل عن الخلافة لأخيه ويسلم لهرثمة ولكن رجال طاهر بن الحسين أبو الا ان يقتلوه ويبعثوا برأسه الى المأمون الذى حزن اشد الحزن لقتل أخيه على هذه الصورة .

والصراع بين الأمين والمأمون هو آخر محاولة من العناصر العربية للاحتفاظ بمواضع السلطة والنفوذ ، ضد سلطان الفرس وبقية الأجناس الاسلامية الزاحفة ومن سوء حظ العناصر العربية ان ممثلها وهو الأمين كان أخا صيد ولهو وموسيقى وشراب حتى لقد ظل وسط الأزمات والمحن لا يكف عن ممارسة الوان مجنونه وعبثه حتى اعتبر مجنونا ، وكان سنه عندما قتل فى بعض الآراء عشرين سنة ، ولكن الطبرى يرجح أن يكون عمره ثمانى وعشرين سنة .

خلافة عبد الله المأمون :

وعلى النقيض من الأمين كان المأمون جادا وقورا شغوفا بالعلم منذ صباه متعمقا فى دراسة الفلسفة حتى لقد اعتبر من أساطين العلماء فى عصره بأكثر مما يعد فى دهاة السياسة .

وام المأمون فارسية وقد ولد عام ١٧٠ هـ قبل الأمين بشهر ، وقد ولاه الرشيد ابان حياته خراسان فاقام بها فاصبح أكثر ميلا للفرس منه للعرب ، حتى لقد فوض كل امره الى الفضل بن سهل الفارسي وعهد اليه برئاسة القلم والسيف مطلقا عليه اسم ذ والرئاستين .

ولم يشأ عند توليه الخلافة أن ينتقل من خراسان الى بغداد عاصمة الملك فظل فى مرو . تاركا للحسن بن سهل ادارة شئون الدولة .

امارة عبد المطلب بن عبد الله على مصر :

ولى المأمون عبد المطلب بن عبد الله بعد عزل عباد بن محمد على صلاة مصر وخراجها . فقدم الى مصر من مكة فى النصف من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وجعل على الشرطة هبيرة بن هاشم ، ثم راح يبدل ويغير رؤساء شرطته لكثرة ما وقع فى عهده من اضطرابات وفتن ، مما جعل المأمون يبادر بعزله قبل أن يتم سنة .

امارة العباس بن موسى على مصر :

ولى المأمون الأمير العباسى الهاشمى العباس بن موسى على الصلاة والخراج . فقدم ابنه عبد الله امامه فى ٢٨ شوال من هذه السنة .

وعندما وصل عبد الله الى مصر سجن المطلب أمير مصر المعزول وشدد النكير على أهل مصر فابغضوه وتآمروا مع الجند وأخرجوا المطلب من سجنه ونصبوه اميرا على مصر . فاقر المأمون تصرف الجند . ولعل ذلك هو الذى شجعهم على قتل عبد الله بن العباس . كما توفى العباس نفسه وفى رأى تغرى بردى أنه لم يدخل مصر اطلاقا ولم يحكمها وانما الذى دخلها وحكمها هو ابنه .

مقدم الامام الشافعى الى مصر :

وقد قدم الى مصر فى هذه السنة فى معية عبد الله بن العباس محمد بن أدريس الامام الشافعى . فكان قدومه نقطة تحول فى تاريخ مصر الاسلامى ، فبعد أن كان يتنازع اهلها من المسلمين المذهبان المالكى والحنفى ، جاء المذهب الشافعى ليعلو على المذهبين الآخرين . ويصبح فى خاتمة المطاف هو مذهب الأغلبية الساحقة من مسلمى مصر .

٨١٤ م — ١٩٩ هـ : امارة المطلب بن عبد الله الثانية :

ولى المطلب امارة مصر بعد اخراج الجند والأهالى له من السجن كما قدمنا ، فاصطنع الرفق بالرعية وأجزل لهم العطاء واحسن الى الكافة ، فالتفت حوله القلوب ، واستفحل امره وقويت شوكته ... ولعل هذا هو الذى جعل المأمون يسكت عنه الى حين .

دنانير المأمون مضروبة فى الفسطاط :

وفى مجموعة النقود الاسلامية توجد دنانير مضروبة فى الفسطاط هـذا العام باسم المأمون . (لين بول) .

٨١٥ م ــ ٢٠٠ هـ : امارة السرى بن الحكم :

عزل المأمون المطلب بن عبد الله عن ولاية مصر وولى عليها السرى بن الحكم بن يوسف ، على الصلاة والخراج ، فجعل على شرطته محمد بن عساقة ، ولكن الجند لم يلبثوا أن ثاروا عليه ، فعزله المأمون عن الامارة .

٨١٦ م ــ ٢٠١ هـ : امارة سليمان بن غالب على مصر :

ولى المأمون سليمان بن غالب على صلاة مصر وخراجها فجعل على شرطته اباذكر بن جناده فشدد على المصريين فعزله سليمان واستبدله بالعباس بن لهيعة .

على ان الجند لم يلبثوا أن ثاروا على سليمان بن غالب وقاتلوه ، مما أدى بالمأمون الى عزله عن امارة مصر ، وأعاد السرى بن الحكم الذى كان فى السجن .

امارة السرى بن الحكم الثانية :

ولى المأمون السرى بن الحكم امارة مصر وبعث اليه فيما يبدو بخلعة فأخرج من السجن ، وسار الى المعسكر فى موكب حافل وجعل على شرطته محمد بن عساقة ثم راح يستبدل رعيس شرطته بآخر كلما شكا الناس منه ... يقول تغرى بردى : وكان السرى أميرا جليلا معظما فى الدولة .

وقد ظل هذه المرة فى امارته حتى مات .

المأمون يعهد بولاية العهد الى على الرضى :

أقدم المأمون على الخطوة التى كانت تراوده منذ أمد طويل ، وهو أن يعيد الخلافة الى أحفاد على بن أبى طالب . فقد كان يؤمن بأنهم ظلموا وانهم احق بالملك من بنى العباس . فعزل أخاه القاسم من ولاية العهد وجعلها الى على الرضى بن موسى ابن كاظم بن جعفر الصادق العلوى ، باعتباره أتقى وأورع العلويين والعباسيين معا .. ولكن بنى العباس تمردوا على هذا القرار وثارت ثورتهم فى بغداد ، فخلعوا المأمون .

وبايعوا ابراهيم بن المهدى خليفة ، فاندلعت نيران الحرب الداخلية من جديد .

٨١٨ م ــ ٢٠٣ هـ : وفاة على الرضى ووصول المأمون الى بغداد :

مات على بن موسى الرضى العلوى الذى جعله المأمون ولى عهده فكان ذلك حلا للأزمة التى تعقدت بين المأمون وبين أسرة بنى العباس ، اذ بعث المأمون الى العباسيين فى بغداد يعلمهم بنبأ هذه الوفاة وانه عدل عن نقل الخلافة الى العلويين ، ولكن البغداديين ردوا عليه ردا خشنا وأعلنوا تمسكهم بابراهيم المهدى فسار المأمون على رأس جيشه قاصدا بغداد ، فلم يتصد لقتاله أحد ... ولم يكد يصل الى بغداد حتى اختفى ابراهيم المهدى وكرر المأمون اعلان عزمه على اقرار الأمور ببنى العباس . وعدل عن لبس الملابس الخضراء شعار العلويين . الى السواد شعار بنى العباس .

٨١٩ م ــ ٢٠٤ هـ : وفاة الامام الشافعى فى مصر :

مات الامام الشافعى .. وكان قد نزل ضيفا بمجرد وصوله الى مصر عند أسرة من اكرم الأسر وأغناها واعلمها فى الفسطاط وهى أسرة بنى عبد الحكم .. وقد قدمته هذه الأسرة للمجتمع المصرى ، فأحبه المصريون لعروبته وقرشيته وعلمه وفصاحته .

وكون الشافعى لنفسه حلقة فى المسجد الجامع (عمرو بن العاص) واقام فى مصر منذ عام ١٩٨ حتى هذه السنة فكثر تابعوه وتلامذته ... وبلغ نشاط الشافعى فى مصر الأوج اذ الف كتاب الأم الذى يعتبر بحق أساس علم أصول الفقه .

وكان الشافعى على ما يصف بن حجر يجلس فى حلقته اذا صلى الصبح فيحتويه أهل القرآن فيسألونه ، فاذا طلعت قاموا وجاء أهل الحديث يسألونه عن معانيه وتفسيره فاذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة فاذا ارتفع النهار تفرقوا جاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب نصف النهار فينصرف الى منزله .

وقد شرح مذهب الشافعى من بعده تلميذاه المزنى والبويطى .

وقد كتب الكثير وقيل الأكثر فى مناقب الشافعى كصاحبيه من قبله أبى حنيفة ومالك ، ولعل من أبسط ما قيل فيه : لو جمعت أمة لوسعهم عقل الشافعى .

٨٢٠ م ــ ٢٠٥ هـ : امارة محمد بن السرى على مصر :

ولى المأمون محمد بن السرى بن الحكم امرة مصر بعد وفاة أبيه ، وفى أيامه خرج الجروى عن الطاعة وغلب على مصر السفلى فجهز له محمد العساكر وخرج لقتاله ولكن الموت عاجله .

٨٢١ م ــ ٢٠٦ هـ : امارة عبيد الله بن السرى على مصر :

ولى المأمون عبيد الله بن السرى على صلاة مصر وخراجها بعد وفاة أخيه محمد ابن السرى ، فجعل على شرطته محمد بن عقبة ، وبدأ ولايته بالحرب ضد الجروى الخارجى .

واذ كانت ولاية مصر قد تعاقبت فى بيت السرى كما رأينا ، وأصبحت له مكانة فى نفوس المصريين ، فقد حدثت عبيد الله نفسه بالخروج على المأمون والاستقلال بمصر ، فبدأ بعد العدد ويحشد الجنود ، استعدادا لاعلانه خلع المأمون لولا أن تسرب خبره الى المأمون فأرسل عبد الله بن طاهر بجيش كبير لخلع عبيد الله بن السرى . ودارت المعارك بينهما ، انتهت بهزيمة عبيد الله الذى استسلم لعبد الله ابن طاهر .

٨٢٣ م ــ ٢٠٨ هـ : وفاة السيدة نفيسة :

فى هذه السنة توفيت السيدة نفيسة صاحبة الضريح المشهور باسمها فى قرافة القاهرة : وهى أبنة الحسن بن زيد بن الحسن بن أبى طالب : وقد وفدت السيدة نفيسة مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق من المدينة الى مصر عام ١٩٣ هـ فلم تلبث ان ذاعت شهرتها وتقواها وورعها وعلمها وأدبها .

ويتحدث تغرى بردى عنها بقوله : وهى صاحبة الكرامات والبرهان ومد ذكرها شرقا وغربا .

٨٢٦ م ــ ٢١١ هـ : امارة عبد الله بن طاهر على مصر :

هو عبد الله بن طاهر بن الحسن أمير خراسان ثم امير مصر ولاه المأمون عليها بعد عزل عبيد الله بن السرى .

وكان عظيم الهيبة حسن المذهب شجاعا مقداما يعدل بين الرعية وكان فوق ذلك جواد كريما بارعا فى الأدب ويقرض الشعر مما حببه الى قلوب الرعية .. وقيل انه خلف فى بيت المال فى خراسان وهى موطن ولايته الرئيسى أربعين الف الف درهم سوى ما فى بيت مال العامة وقد جعل على الشرطة ابان ولايته لمصر معاذ بن عزيز ثم عبد ربه .

وجعل على القضاء عيسى بن المنكدر واجرى له اربعة آلاف درهم كل شهر .
وقد استطاع فى مدة ولايته أن يرتب أحوال البلاد وان ينظمها وان يمهد طرقها وسبلها وأمنهــا وقد زاد فى مسجد عمرو بن العاص زيادة كبيرة وكان التاريخ يأبى الا أن يجعل لهذا الحاكم اثرا يتناقل عبر الاجيال فهو الذى زرع بمصر البطيخ

العبدلى وقد استنبته من نوعين مختلفين ، وهى الكلمة التى يرددها العامة باسم (العبد اللاوى) .

استيلاء المسلمين على جزيرة كريت :

كان قد نزل بالاسكندرية قبل مقدم عبد الله بن طاهر اليها طائفة من المغاربة الذين أبعدوا من الأندلس لثورتهم فى وجه الحكم بن هشام وكانت عدتهم تزيد على بضعة الوف ، فاستولوا على مدينة الاسكندرية . فلما قدم عبد الله بن طاهر الى مصر توجه الى حربهم ، فدارت بينه وبينهم معاوضات أن يمدهم بالمال والسلاح والسفن ويرحلوا الى جزيرة كريت البيزنطية فيستولوا عليها فجهزهم عبد الله بن طاهر بما طلبوا وخرج من الاسكندرية أسطول حربى بهذا الحشد من المجاهدين فهزموا الاسطول البيزنطى واستولوا على جزيرة كريت بالفعل ، فكان ذلك أول دخول للاسلام فى الجزيرة ويقول ارشيبالد لويس أنهم ظلوا فى جزيرة كريت لمدة قرن ونصف كانوا فيه مثار الفزع للعرش البيزنطى .

٨٢٧ م — ٢١٣ هـ : امارة عيسى بن يزيد على مصر :

بعد أن أقر عبد الله بن طاهر الامور فى مصر ، استخلف عليها عيسى بن يزيد الجلودى ، على صلاتها وخراجها فأقره المأمون وظل اميرا على مصر نيابة عن عبد الله ابن طاهر ، حتى صرف المأمون عبد الله عن امرة مصر وجعلها لأخيه المعتصم محمد بن هارون الرشيد فلما ان وليها المعتصم أقر عيسى بن يزيد على الصلاه فقط وجعل على خراج مصر صالح بن شيرزاده . فزاد صالح فى الخراج واشتد وظلم وعسف ، فانتفض عليه أهل الحوف واجتمعوا وعسكروا واجمعوا على قتاله .

فسانده عيسى بن يزيد ولكنه انهزم وقتل الكثير من جنده . فعظم ذلك على المعتصم وعزل عيسى بن يزيد وولى مكانه عمير بن الوليد التميمى .

وفاة ابن هشام كاتب السيرة النبوية :

وفى هذه السنة مات بمصر صاحب السيرة النبوية محمد بن عبد الملك بن هشام ، كاتب ابن اسحق ، ويرى تأثير مصر عليه فى كتابه اذ يروى أحيانا عن ابن لهيعة عالم مصر وقاضيها .

٨٢٩ م — ٢١٤ هـ : امارة عمير بن الوليد على مصر :

ولى المعتصم عمير بن الوليد على الصلاة فجعل على شرطته ابنه محمد ولكن القيسية واليمنية من أهل الحوف خرجوا عليه كما خرجوا على من سبقه فسار نحوهم بجنوده ودارت بينه وبينهم معارك سقط فيها صريعا .

امارة عيسى بن يزيد الجاودى على مصر ثانية :

اعاد المعتصم عيسى بن يزيد الجلودى الى ولاية الصلاة ، ولكن القيسيه واليمنية من أهل الحوف ، كان أمرهم قد استشرى وازدادوا ضراوة بما انضم اليهم من قطاع الطرق ، وما احرزوه من انتصارات فى معاركهم السابقة . فخرج عيسى بن يزيد على رأس جيش لقاتلتهم ، والتقى بهم عند المطرية (عين شمس) فانتهت المعركة بهزيمة عيسى بن يزيد وقتل الكثير من عسكره واضطر الى النجاة بنفسه والاحتماء بالفسطاط .

المعتصم فى مصر :

عندما وصل نبأ هذه الهزيمة الى المأمون طلب من اخيه المعتصم ان يسافر الى مصر ليباشر امارته بها ... **فقدم المعتصم من بغداد فى اربعة آلاف من جنوده الأتراك** وهاجم الحوف فى طريقه الى الفسطاط فهزمهم هزيمة ساحقة ووضع فى رقابهم السيف حتى اوشك ان يفنيهم .

ثم دخل الفسطاط وفى خدمته عيسى الجاودى وجميع اعيان مصر وسكن المعسكر واصلح أحوال مصر وولى عليها عبد ربه بن جبلة بعد ان عزل عيسى بن يزيد . ثم بارح مصر الى الشام .

المسلمون يفتحون صقلية :

وفى هذه السنة استولى المسلمون من افريقيا على جزيرة صقلية وخاضوا معارك برية داخل الجزيرة انتهت بالاستيلاء عليها واستقروا فى عاصمتها بارم (٨٣١ م) وسرعان ما اصبحت أعظم قاعدة بحرية اسلامية .. وبهذا انطوت صفحة بيزنطة من هذه الجزيرة ونجح مسلمو شمال افريقيا فى السيطرة على البحر الأبيض وهو ما عجز عن تحقيقه الأمويون .

٨٣٠ م ـــ ٢١٥ هـ : امارة عبد ربه بن جبلة على مصر :

ولاه المعتصم نيابة عنه على الصلاة ، فسكن المعسكر على عادة الأمراء وجعل على شرطته ابنه وعلى المظالم اسحق بن اسماعيل . ولم يلبث اهل الحوف من القيسية واليمنية ان عادوا للشغب ، فسار اليهم واستطاع ان يقمع حركتهم .

ويقول أمين باشا سامى (نقلا عن درر التيجان) ان الغلاء اشتد فى عهده بمصر واعمالها حتى اصبحت ويبة القمح تباع بدينار ذهب وحصل للناس ما يطول شرحه من سوء الحال وأمور تقشعر من سماعها الأبدان .

ولكننى لم أجد اشارة الى ذلك فى خطط المقريزى ... او النجوم الزاهرة .

٨٢١ م ـ ٢١٦ هـ ـ امارة عيسى بن منصور :

عزل المعتصم عبد ربه بن جبلة وولى على مصر عيسى بن منصور على الصلاة فقط فجعل على شرطته ابا المغيث يونس بن ابراهيم ولابد أن يكون قد اساء السيرة فقد ثار فى عهده الاقباط ثورة عارمة .

ثورة سكان الوجه البحرى :

انتفض عرب الوجه البحرى وانضم اليهم الاقباط فشدوا جموعا كبيرة زحفوا بها على العاصمة فتجهز لهم عيسى بما معه من قوات : ولكنه انهزم فتقهقر بمن معه، فدخلت الاقباط وأهل الضربية مصر (أى المعسكر) واخرجوا عيسى بن منصور على أقبح وجه لسوء سيره ، واخرجوا معه كذلك متولى خراج مصر وكانت هذه أعنف حركة قامت فى البلاد منذ الفتح الاسلامى، وقد استمرت قرابة ثمانية اشهر. ويرى الدكتور الشيال فى اتساع هذه الحركة ، نمو شخصية مصر الاسلامية وتطلعها الى الاستقلال .

٢١٧ هـ ـ قدوم المأمون الى مصر :

قرر المأمون ان يفد بنفسه الى مصر لبحث اسباب هذه الفتر المتوالية ويضع حدا لها ، فوصل الى مصر فى ٥ محرم من هذه السنة وأوقعت عساكره تحت قيادة قائدها الشركسى افشين بالمتمردين من العرب أهل الحوف وأقباط الوجه البحرى.

وقد اجمع المؤرخون على أن المأمون قسا على الاقباط الثائرين حتى لقد قتل الكثير من رجالهم وسبى النساء والاطفال .

وسجل التاريخ غضب المأمون على واليه بمصر والالفاظ التى عنفه بها اذ قال له : أن هذا الحدث العظيم لم يكن الا عن فعالك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتمونى الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد والاجماع منعقد على أن هذا الحادث كان آخر مظهر لبقايا مصر المسيحية ، فمنذ ذلك التاريخ وقد اصبحت الاغلبية فى مصر اسلامية وذلك لدخول الكثير من الاقباط فى دين الاسلام، ويقول المقريزى ومن بقى منهم على دينه كف عن المحاربة وعمد : الى المكاتب واستعمال الحيلة ، وعملوا كتابا للخراج فكانت لهم وللمسلمين اخبار كثيرة .

وهناك قول عن ان المأمون قد حاول فتح الاهرام . ولكن أحد من الكتاب لم يرو هذه القصة .

وقد ذكرها امين باشا سامى فى حوادث عام ١٩٩ هـ ، وليس ادل على وهن هذه القصة من ان المأمون فى هذا التاريخ كان لا يزال فى خراسان لم يفكر فى المجىء الى بغداد نفسها وليس الى مصر .

امارة كيدر على مصر :

هو نصر بن عبد الله وكلمة كيدر شهرة غلبت عليه ولاه المأمون على الصلاة فجعل على شرطته ابن سنديار ثم بعث المأمون برجل من العجم يسمى بسطانليكون واليا على الشرطة ، ولكن كيدر لم يلبث أن عزله لسوء سيرته ولرشوة ارتشاها ، وضربه بالسوط فى صحن الجامع وولى ابنه المظفر بدلا منه .

٨٣٣ م ــ ٢١٨ هـ : دعوة المأمون الى القول بخلق القرآن :

. ارتكب المأمون العظيم زلته الكبرى فى هذه السنة عندما حاول ان يحمل رجال الدين والفقهاء والقضاة بقوة السلطان على ان يقولوا بخلق القرآن وما بقيت القضية فى دائرة الرأى والخلاف الفكرى ، فقد كانت مظهرا على ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية من تطور فكرى على يد علماء المعتزلة ، حيث نادوا بسلطان العقل وخضوع الدين لاحكام العقل .

أما عندما انزلق المأمون الى فكرة فرض الفكر بقوة السلطان ، فهنا بدأ الزلل والشطط والذى ذكر بحماقات اباطرة القسطنطينية عندما راحوا يفرضون عقائد ونظريات دينية : وان كان المأمون لم يصل الى حد القتل والتعذيب مكتفيا بالتهديد والعزل عن ولاية المناصب .

احمد بن حنبل :

وقد كان الامام أحمد بن حنبل أحد الذين طلب منهم امير بغداد بناء على طلب المأمون أن يقر بان القرآن مخلوق فوقف أحمد بن حنبل عند القول بأن « القرآن كلام الله » لايزيد على ذلك أو ينقص وأن الخوض فى ذلك بدعة . فلما ابلغ المأمون ذلك ، طلب ان يرسل به اليه مقبوضا عليه الى مدينة طرسوس للبحث فى أمره ، ولكن قدر الخليفة المأمون أن يموت أن ان يواجه أحمد بن حنبل .

موت الخليفة عبد الله المأمون :

فى الثامن عشر من رجب من هذه السنة مات الخليفة المأمون وكانت مدة خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما ، وكانت سنة عندما مات ثمانى وأربعين سنة ، وقد وصف وليم لانجر فى موسوعة تاريخ لعالم عصر المأمون على الوجه التالى :

المأمون العظيم . لعل عصره أزهى عصر فى تاريخ الخلافة حظيت فيه الفنون والعلوم بفيض من سخائه وكرمه . جرى فى زمنه اقامة مرصدين احدهما قرب دمشق والآخر قرب بغداد . وأنشأ قرب مرصد بغداد دارا للعلم زودها بمكتبة زاخرة . وجدت فى عهده ترجمة كتب الادب والعلوم الفلسفة اليونانية والسريانية

اصطناع الترك :

وقد اختط المعتصم سياسة جديدة ، كان لها أكبر الاثر فيما أصاب الدولة العباسية من انحلال فيما بعد ، فقد قرر ان يجعل اعتماده فى الجيش وفى حرسه الخاص على الاتراك بدلا من الفرس او العرب . وربما كان مرجع ذلك الى ان امه تركية . فشرع فى استجلاب الرقيق التركى وكان يجاء به من بلاد ما وراء النهر (سيحون وجيحون) واتخذ منهم أجنادا وحراسا ، وبدأوا يشتهرون بجمال المنظر وحسن الهندام والشجاعة فضلا عن التمسك باهداب الاسلام وسرعان ما أصبح منهم قواد الجند وولاة الاقاليم . ولم يقف المعتصم عند حد الاستعانة بالاتراك .. لقد تجاوز ذلك الى اضطهاد العرب وخلعهم من أعمالهم مما اثار الفتنة فى صفوف جيشه وولاته ، فكان ذلك أول التصدع الذى أصاب الدولة العباسية والتى ظل يتزايد حتى انتهى سلطانها كما سنرى .

٨٣٤ م ـ ٢١٩ هـ : امارة المظفر بن كيدر على مصر :

ولى أمارة مصر المظفر بن كيدر بعد وفاة أبيه باستخلاف منه .. وكان ابوه قد تلقى كغيره من الولاة الامر باسقاط العرب من الديوان وقطع العطاء عنهم ، فخرج عليه يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من عرب لخم وجذام .. ولكن كيدر مات قبل أن يقع بينهما الاصطدام .

فلم يكد المظفر يباشر عمله ، حتى تصدى لحرب ابن الوزير فانتصر عليه بعد معركة حامية الوطيس .

امارة موسى بن العباس على مصر :

سن المعتصم تقليدا جديدا ، بأن جعل الولاية على قطر من الاقطار نوعا من الانعام ، فأنعم بأمرة مصر على أحد كبار قواده أبو جعفر اشناس ، على أن يظل الى جواره ينتدب من ناحيته من يدير مصر باسمه .

فأقر الوالى الجديد المظفر بن كيدر على امارة مصر لانشغاله بقتال ابن الوزير حتى اذا فرغت الحرب بعد اربعة شهور بانتصاره على ابن الوزير كما رأينا : عزاله من الامارة ، وولى موسى بن العباس على صلاة مصر وخراجها ، وذلك فى شهر رمضان من هذه السنة .

٨٣٥ م ـ ٢٢٠ هـ : بناء مدينة سر من رأى :

تذمر سكان بغداد من هذه الجائحة الجديدة التى تمثلت فى مماليك المعتصم من الاتراك وبدأ هؤلاء الجند من الأتراك يزعجون سكان بغداد ، فشكا الناس الى المعتصم ، وهددوه بأنه اذا لم يكف أذى جنده عنهم فانهم سيحاربونه ويخلعونه .

فبنى المعتصم مدينة سر من راى لتكون مستقرا جديدا له ولاجناده حتى اذا كمل بناؤها انتقل اليها ، فأصبحت سر من رأى وليست بغداد هى العاصمة الرسمية وأن ظلت بغداد بطبيعة الحال هى المدينة الاولى فى الدولة الاسلامية .

٨٣٩ م — ٢٢٤ هـ : امارة مالك بن كيدر على مصر :

عزل اشناس موسى بن العباس عن أمرة مصر وعهد بالامارة على الصلاة الى مالك بن كيدر فوفد الى مصر فى الثالث والعشرين من ربيع الثانى من هذه السنة . ويصف أبو المحاسن مالك بن كيدر بأنه كان أميرا عاقلا .. وقورا مدبرا ، ولى الجليل من الاعمال فأدارها بنجاح ، وكان من أكابر القواد والامراء .

٨٤١ م — ٢٢٦ هـ : امارة على بن يحيى الارمنى على مصر :

عزل اشناس التركى مالك بن كيدر عن أمرة مصر وولى عليها أبو الحسن على ابن يحيى الارمنى فوصل الى مصر فى السابع من شهر ربيع الثانى من هذه السنة فجعل همه الاول اصلاح احوال الديار المصرية .

وكان على امرة الخراج أبو الوليد بن خاله التختان وعلى القضاء محمد بن الليث الخوارزمى .

٨٤٢ م — ٢٢٧ هـ : وفاة الخليفة المعتصم :

توفى الخليفة المعتصم فى يوم الخميس التاسع والعشرين من ربيع الاول وكان عمره عند وفاته ثمانى وأربعين سنة تربع فيها على عرش الخلافة ثمانى سنوات وثمانيه أشهر وثمانية أيام . ولما كان ترتيبه من خلفاء بنى العباس هو الثامن فقد أطلقوا عليه وصف الثمانى ويعددون الكثير من المصادفات التى ملأت حياته برقم ثمانية .

ويقول عنه أبو المحاسن انه كان عاريا عن كل علم .. يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة ولكنه مع ذلك كان فصيحا اذا تكلم ، مهيبا عالى الهمة شجاعا مقداما ، حتى قيل أنه كان اهيب خلفاء بنى العباس .

وقد غلبت عليه صفة الجندية لكثرة ما خاض من معارك وحروب انتصر فيها كلها بنفسه : أو بوساطة قواده .

وقد كان نصره الاكبر عندما استجاب لاستغاثة المراة المسلمة التى صاحت « وامعتصماه » فآلى على نفسه أن ينتقم لها ، فكانت معركة امورية التى ضرب فيها

هذه المدينة الرومية وروع الروم .. وهى المعركة التى خلدها أبو تمام الشاعر فى قصيدته المشهورة .

السيف اصـــدق انباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

واستطاع أن يقضى على حركة الخرمية وان يقتل زعيمهم بابك الخرمى الذى اراد أن يغرق فارس فى الاباحية وعلى حـركة فريار الذى أريد بهـا اعادة فارس الى المجوسية .

وقضى على قائد جيوشه الكبير الافشين الذى تولى قمع الحركات السابقة ، عندما حدثته نفسه بالخروج على الدولة وهكذا أبقى على الدولة العباسية وحدتها وتماسكها وسيادة الخليفة الاسمية والفعلية على كل ارجائها .

وان كان فى نفس الوقت هو واضع البذرة لانفراط عقدها .. فقد مات مخلفا وراءه ثمانية عشر الف مملوك من الاتراك سرعان ما تحولوا الى نكبة على الخلافة والخلفـــاء .

خـلافة الواثق :

وبعد وفاة المعتصم بويع بالخلافة لابنه ابى جعفر هارون الواثق بالله وذلك فى ١٩ ربيع الأول وامه أم ولد رومية .. وكان ملكا مهيبا جليلا كريما اديبا يقرض الشعر ، وكان مولعا بالغناء والجوارى .

٨٤٣ م ـ ٢٢٩ هـ : امارة عيسى بن منصور الثانية على مصر :

ابتدع الواثق بدعة جديدة فعهد بالسلطة كلها الى اشناس التركى الذى ولى على مصر عيسى بن منصور على الصلاة والخراج معا .

ولكن اشناس لم يلبث ان توفى ، فعهد الخليفة الواثق بامرة مصر الى ايتاخ التركى الذى أقر عيسى بن منصور على امرة مصر . وقد عهد عيسى بن منصور الى ابنه بولاية الشرطة .

وكان عيسى بن منصور على ما ذكر معاصروه أميرا جليلا ذا معارف وتدبير وأنه مهـد أمـور مصر .

٨٤٥ م ـ ٢٣١ هـ : تجدد محنة القول بخلق القرآن :

شاءت ارادة الواثق ان يبعث محنة القول بخلق القرآن بعد ان كانت قد سكنت: فكتب من جديد للولاة على الامصار يطلب منهم امتحان العلماء القضاة وموظفى الدولة فى موضوع خلق القرآن وعزل كل من لايقول بهذا القول. ووصل الامن الى

حد انه عند افتكاك الاسرى المسلمين مع الروم ، فكان من لا يقول بخلق القرآن يبقى فى الاسر ولا تدفع فديته .. وغنى عن البيان كما يقول ابو المحاسن ان الجميع قد اعترفوا بخلق القرآن لكى ينفكوا من الاسر .

٨٤٦ م ــ ٢٣٢ هـ : موت الخليفة الواثق :

مات الخليفة الواثق فى الرابع والعشرين من ذى الحجة بعـــد حكم دام خمس سنوات ونصف ، وكانت سنه عند وفاته ستا وثلاثين ســنة على أرجح الأقوال وقد طلب منه وهو فى مرض الموت أن يوصى بالخلافة لابنه ولكنه رفض .

ويعتبر عهد الواثق هو نهاية الصدر الأول من الحكم العباسى حيث بدأ من بعده العصر الثانى عصر الاضمحلال السياسى وتمزق أوصال الدولة واستقلال مختلف ولاياتها ، وغلبة قواد الترك على خلفاء بنى العباسى .

خلافة المتوكل على الله :

بويع بعد موت الواثق لأخيه المتوكل على الله أبو الفضـــل جعفـــر بن الخليفـــة المعتصم . وكان عمره عندما ولى الخلافة يتراوح على حسب مختلف الأقوال بين الخامسة والعشرين والسابعة والعشرين .

ولما كان المتوكل قد استهل حكمه بوقف بدعة التحدث عن خلق القـــرآن فقد اغرقه المؤرخون القدامى بالثناء ، فيقول أبو المحاسن ويتابعه على قوله أمين باشـــا سامى : كانت به كل الخصال الحسنة : وقد افتتح خلافته باظهار السنة ورفع محنة خلق القرآن عن المسلمين .

ولكن الدكتور على ابراهيم حسن ، وصفه بأنه كان مدمنا على شرب الخمر تعلق بحب جاريته فأعتقها وتزوجها واطلق عليها من فرط جمالها حسنها اسم « قبيحة » على سبيل التضاد فى التسمية (ص ٤١٦) وهى التى أنجبت له ابنه أبو عبد الله المعتز

٨٤٧ م ــ ٢٣٣ هـ : امارة هرثمة بن نصر على مصر :

عزل الخليفة المتوكل على الله ، عيسى بن منصور عن امارة مصر بعد أخذ البيعة من المصريين .

فولى الأمير ايناخ التركى الذى كان هو الأمير الرسمى على مصر هرثمة بن نصر على الصلاة فقدم الى مصر يوم الأربعاء السادس من شهر رجب من هذه السنة وجعل على شرطته ابا قتيبة .

وفى أيام هرثمة ورد عليه كتاب الخليفة المتوكل يأمره بترك الجدال فى القـــرآن واتباع السنة ، وعدم القول بخلق القرآن .

٨٤٨ ـ ٢٣٤ : امارة حاتم بن هرثمة على مصر :

استخلف هرثمة بن نصر عندما حضرته الوفاة ابنه حاتم على الصلاة : فأقره الأمير ايتاخ على هذه الامرة ، فجعل على شرطته محمد بن سويد .

وعلى الرغم من أن حاتم بن هرثمة ، أقبل على تدبير شئون مصر فى معرفة ودراية . وكان جليلا نبيلا ، فيبدو انه لم يحسن تدبير اموره مع ايتاخ التركى ولذلك فقد صرفه عن الامارة .

امارة على بن يحيى الثانية على مصر :

أعاد الأمير ايتاخ التركى على بن يحيى على أمرة الصلاة فى مصر بعد عزل حاتم ابن هرثمة فسكن المعسكر جريا على عادة أمراء بنى العباس وجعل على شرطته معاوية بن نعيم .

ولم يلبث أن جاءه النبأ بالقبض على ايتاخ التركى وقتله ، وصدر اليه أمر الخليفة بالتحفظ على أموال ايتاخ واسقاط الدعاء له على المنابر .

٨٤٩ م ـ ٢٣٥ هـ : امارة اسحق بن يحيى على مصر :

قسم المتوكل سلطان الدولة بين أولاده الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد فوقعت مصر من نصيب المنتصر ، فعزل على بن يحيى وولى نيابة عنه على صلاة مصر وخراجها اسحق بن يحيى بن معاذ .

فجعل على شرطته الهياجى ، وعلى المظالم عيسى بن لهيعة الحضرمى . وكان اسحق على مايقول ابو المحاسن من اجل الأمراء جوادا كريما عاقلا سيوسا ممدوحا ، وكان فيه رفق بالرعية وعدل وانصاف . ومن ذلك أن المتوكل غضب على الشيعة لاتخاذهم من قبر سيدنا على بن أبى طالب مزارا يحجون اليه فبالغ فى حربهم واضطهادهم وأمر بطردهم من سائر الولايات وكتب بذلك الى اسحق بن يحيى فراح ينفذ الأمر فى رفق وفى غير افحاش بالنسبة للعلويين ، فلم يعجب المتوكل وعزله عن أمر مصر .

٨٥٠ م ٢٣٦ هـ : امارة عبد الواحد بن يحيى :

ولى المنتصر امارة مصر بعد عزل اسحق بن يحيى « عبد الواحد بن يحيى بن منصور » على صلاة مصر وخراجها ، فقدم اليها فى الحادى والعشرين من شهر ذى العقدة . فجعل على شرطته محمد بن سليمان البجلى .

ولكن المنتصر لم يلبث أن عزله عن الخراج وأبقاه على الصلاة فقط .

٨٥٢ م ــ ٢٣٨ هـ : امارة عنبسة بن اسحاق على مصر :

ولى المنتصر امرة مصر عنبسة بن اسحاق بعد ان عزل عبد الواحد فقدم مصر فى الخامس من ربيع الثانى من هذه السنة . وكانت امرته على الصلاة ــ اما الخراج فكان لأحمد بن خالد الصريفينى وجعل عنبسة على شرطته ابا أحمد محمد بن عبد الله القمى .

وكان عنبسة على مذهب الخوارج ، فامر عماله بمجرد وصوله أن يرودا المظالم ، وان ينصفوا الناس غاية الانصاف واظهر من الرفق والعدل بالرعية والاحسان اليهم ما لم يسمع فى زمانه . وكان يتوجه ماشيا الى المسجد الجامع بدار الامارة بالمعسكر .

ونحن نعجب ان يصف ابو المحاسن وامين باشا سامى رجلا هذا سلوكه فى الحكمة بأنه على مذهب الخوارج ، مع أن تاريخ الخوارج على الضد من هذه المكارم .

غارة الروم على دمياط :

وفى ايامه نزل الروم على ثغر دمياط فى ثلثمائة مركب فاستولوا عليها ونهبوا واحرقوا وسبوا .

وكانت دمياط لسوء الحظ خالية من الجند عندما دهمها الروم فقد كان الأمير عنبسة قد استدعاهم فى عيد الأضحى ليشهدوا احتفالا اقامه . ولكن اهالى دمياط اخرجوا من الجند مقدما يدعى ابو جعفر بن الاكشف وقلدوه زعامتهم ، وتصدوا لحرب الروم فدحروهم واجلوهم عن البلد ، فانصرف الروم عن المدينة مهزومين ، وقد حاولوا ان يغيرا على مدينة تنيس فلم يقدروا عليها فانسحبوا الى بلادهم .

وعندما وصل عنبسة وجيشه الى دمياط لم يجد مايفعله الا ان يعمل على اصلاح شان دمياط وازالة آثار ما اصابها قدر استطاعته .

٨٥٥ ــ م ــ ٢٤١ هـ : اهالى النوبة يعلنون العصيان :

امتنع اهالى النوبة عن دفع الجزية التى اعتادوا اداءها منذ أيام عبد الله بن ابى السرح ، والمؤلفة من العبيد والجوارى والحيوانات الوحشية واشياء أخرى .

فعهد الخليفة المتوكل الى محمد بن عبد الله القمى بتولى الشرطة وبحرب أهل الصعيد الأعلى أو البجة كما اطلق عليهم الطبرى ، فاستطاع القمى ان يؤدى المهمة وأن يقمع الفتنة ويرد سكان النوبة الى طاعة الخليفة .

وفاة الامام احمد بن حنبل :

وفى هذه السنة توفى الامام الجليل صاحب المذهب المشهور ، أحمد بن حنبل ، وهو كاصحابه الثلاثة الآخرين اصحاب المذاهب المشهورة الحنفية والمالكية والشافعية قد كتبت فى مناقبه المجلدات الكثيرة من اتباع مذاهبهم ، ولكن أحمد بن حنبل ينفرد من بين اصحابه بعنف المحنة التى تعرض لها وثبت .

ولقد زاد من ورعه أن المتوكل حاول بعد ان رفع عنه المحنة : وافرج عنـــه من السجن ان يتآلف قلبه بالمـــال والهـــدايا والعطايا ، فكان يعتـــذر عن قبـــول ذلك تحرزا لدينـــه .

وقد ألف احمد بن حنبل المسند فى أحاديث الرسول وقد بلغ من ضخامة هذا العمل ، أن اعتبره بعض معاصريه وتابعهم بعض أهل العلم ، انه من ائمة الحـــديث لا الفقه .

وكانت سن أحمد بن حنبل عندما مات سبعا وسبعين سنة .

٨٥٦ م ــ ٢٤٢ هـ : امارة يزيد بن عبد الله على مصر :

عزل المنتصر عن أمرة مصر عنبسة بن اسحق وولى على صلاتها يزيد بن عبد الله فوفد اليها فى ٢٠ رجب من هذه السنة .

ويقول عنه أبو المحاسن انه :

أقام الحرمة ومهد أمور الديار المصرية ، ومنع النداء على الجنائز وأبطال الرهان الذى كان لسباق الخيل ، ثم تتبع الروافض وأبادهم ، ثم التفت الى العاويين فجرت عليهم منه شدة وأخرجهم من مصر .

وفى هذه السنة زلزلت الأرض فى مصر .

٨٥٩ م ــ ٢٤٥ هـ : غارة الروم على دمياط :

عادت الروم للاغارة على دمياط ، ويدل تكرار هذه الغارات ، على غلبة الأسطول البيزنطى فى هذه الفترة على شرق البحر الأبيض .

على أن هذه الغارة الجديدة كسابقتها لم تزد على النهب والسلب والفرار .

زلازل :

ولأمر ما تكرر وقوع الزلزال فى شدة وعنف عبر مصر كلها ، ولكن يبدو أن مركزه كان فى مدينة بلبيس فقد قتل فيها عدد كبير بسببه .

٨٦١ م ــ ٢٤٧ هـ : بناء مقياس الروضـــة :

تهدم مقياس الروضة الذى اقامه اسامة بن زيد عام سبع وتسعين ، فأعيد بناؤه وترميمه أيام يزيد بن عبد الملك وفى عهد خلافة المتوكل وظل هو المقياس المعتمد للنيل لعدة قرون تالية .

وفاة الخليفة المتوكل :

فى الخامس من شوال من هذه السنة قتل الخليفة المتوكل على الله ابو الفضل جعفر بن المعتصم . وكان الذين قتلوه هم مماليك الأتراك بتحريض من ابنه المنتصر .

وكان المتوكل قد طلب من ابنه المنتصر أن يتنازل عن ولاية العهد لأخيه المعتز فابى المنتصر ان يفعل ذلك ، فعمد أبوه الى اساءة معاملته وتحقيره على رؤوس الاشهاد مما احفظ قلبه عليه فدبر مقتله .

وكانت خلافة المتوكل أربعة عشر عاما وعشرة اشهر وأيام وكانت سنه يوم قتل حوالى أربعين سنة .

وبقتله بهذا الأسلوب ، تدهورت هيبة الخلافة وما فتئت بعد ذلك تتدهور حتى اصبح الخلفاء العوبة فى يد الجند .

ام المتوكل :

وتقترن ايام حكم المتوكل ، باسم والدته التى كان يطلق عليها اسم السيدة اشتهرت بقوة شخصيتها وكثرة صدقاتها .

خلافة المنتصر بالله محمد :

ولى الخلافة بعد مصرع المتوكل ابنه محمد واطلق عليه اسم المنتصر بالله .. ويبدو ان شبح الجريمة التى أقدم عليها بالتحريض على قتل والده قد جثمت على ضميره فأرقته ، فلم يهنأ بالحياة ، ولم يلبث أن فارق الحياة بعد ستة اشهر فقط من خلافته بما وصف بأنه ذبحه فى الحلق .. وذكر الدكتور على ابراهيم حسن أن مماليكه الأتراك قد تآمروا عليه بالاتفاق مع طبيبه بن طيفور فدس له السم فمات مسموما .

ولم تزد سنه عند موته على خمس وعشرين سنة .

٨٦٢ م — ٢٤٨ هـ : خلافة المستعين بالله :

لم يشأ قادة الجند ورجال الحاشية الأتراك ان يولوا عليهم احد ابناء المتوكل حتى لا يطالبهم بدم أبيه وهو يرجح القول بأنه مات مقتولا ، فاختاروا للخلافة أحد ابناء المعتصم وهو أبو العباس احمد وأطلقوا عليه اسم المستعين بالله وكانت سنة يوم بويع ثمانى وعشرين سنة .

وكان أول ما فعله هو ان فرق ما كان فى بيت المال من أموال على الجنود والقواد وكان يقدر بألف الف دينار . ولكن ذلك لم يشفع عندما اراد أن يباشر السلطة ، فقد انقلبوا عليه ، ثم قتلوه بعد ذلك .

٨٦٦ م ـ ٢٥٢ هـ : خلافة المعتز بالله الزبير :

كان السبب فى مقتل المستعين بالله، انه خشى على نفسه من سلطان الترك فحاول ان يحد من سلطانهم فأمر بقتل باغر التركى الذى قتل المتوكل ، فاضطرب امراء الأتراك لذلك وبادروا بخلع المستعين بالله ، وسعوا الى المعتز بن المتوكل وكان محبوسا فى حجرة صغيرة هو وأخوه ابراهيم ، فأخرجوه من سجنه وبايعوه بالخلافة ، فهرب المستعين بالله ودارت بينهم وبينه معارك انتهت بهزيمته والقبض عليه ثم قتله .

وكان سن المعتز بالله عندما ولى الخلافة عشرين سنة فكان بذلك أصغر من ولى الخلافة حتى ذلك التاريخ .

٨٦٧ م ـ ٢٥٣ هـ : امارة مزاحم بن خاقان التركى على مصر :

عزل الخليفة المعتز يزيد بن عبد الله عن امرة مصر بعد ان وليها لعشر سنوات وثمانية أشهر وهى أطول مدة حكمها والى على مصر أيام الدولة العباسية التى كانت تكثر من تغيير الولاة ، وكأنها كانت ارتباطا بما ستؤول اليه مصر بعد قليل على يد أحمد بن طولون عندما استقل تماما عن الدولة العباسية الا من رباط اسمى .

وولى الخليفة على امرة مصر مزاحم بن خاقان التركى واقتصرت امرته على الصلاة فقط ، وجعل على شرطته ارخوز . وقد كثرت الاضطرابات فى عهد مزاحم بن خاقان فى مختلف ارجاء البلاد ، فكان عليه ان يخوض معارك ضد أهل الحوف ، ثم فى البحيرة ثم فى الفيوم وقد سقط فى هذه المعارك كثير من الضحايا .

وشغل مزاحم بعد ذلك بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر فأوعز الى ارخوز رئيس شرطته أنه بمنع النساء من الخروج من بيوتهن للتوجه الى الحمامات أو المقابر . ونهى عن شق الثياب على الميت وتشويه الوجه والصياح والندب .. وغير ذلك من الأمور الخاصة باحسان الصلاة فشق ذلك كثيرا على الناس ، لولا ان عاجله المرض ، فاستخلف ابنه مزاحم على امرة مصر ، ثم ادركته الوفاة .

٨٦٨ م ـ ٢٥٤ هـ : امرة احمد بن مزاحم على مصر :

اقر الخليفة المعتز امرة احمد بن مزاحم على مصر .. وقد جعل على شرطته ارخوز كما كان الشأن فى أيام أبيه .

امرة ارخوز بن اولوغ على مصر :

لما أن حضرت الوفاة أحمد بن مزاحم استخلف ارخوز بن اولوغ طرخان التركى صاحب الشرطة على امرة مصر ، فأقر الخليفة المعتز هذا الاختيار وولاه على صلاة مصر وخراجها كما كانت لمزاحم وأبيه من قبل ودام على امرة مصر الى أن صرف عنها بالأمير احمد بن طولون فى شهر رمضان من هذه السنة فكانت ولايته على مصر خمسة أشهر ونصف .

الفصل العاشر

الدولة الطولونية

٨٦٨ م ـ ٢٥٤ هـ : امارة احمد بن طولون على مصر :

ولى امرة مصر احد القادة الأتراك وهو الأمير باكباك ، فاناب عنه على صلاة مصر ابن زوجته أحمد بن طولون فوصل الى مصر يوم الأربعاء ٢٣ رمضان من هذه السنة.

وكانت سن احمد بن طولون التركي عندما جاء الى مصر اربعا وثلاثين سنة . وكان أبوه طولون احد موالى انوح بن سد عامل بخارى وخراسان ، فاهداه نوح الى الخليفة المأمون فرباه حتى أصبح من جملة الأمراء .. وولد له ابنه أحمد فى مدينة سرمن راى سنة ٢٢٠ هـ وكانت أم أحمد جارية تدعى قاسم .

وقد نشأ احمد بن طولون نشأة دينيــة فقد حفظ القرآن واتقنه وكان يرتله فى صوت جميل وذلك بالاضافة الى بقية علوم الدين الأخرى التى نهل منها الكثير وتفقه على مذهب الامام ابى حنيفة .

ولما مات طولون فوض الخليفة المتوكل لاحمد كل ماكان لابيه ، وراح يتدرج فى شتى الوظائف الى ان ولى امرة الثغور ، ثم امرة دمشق واخيرا ديار مصر .

وليس هناك ما يكشف عن شخصية احمد بن طولون وما تحلى به من كـريم الصفات التى اهلته الدور الذى لعبه فى حياة مصر والدولة العباسية ، من أن قواد الأتراك عندما خلعوا المستعين بالله وابعدوه الى واسط ، بعثوا معه أحمد بن طولون ليكون مرافقا له خلال منفاه ، فاحسن صحبة الخليفة ، ولم يضيق عليه واطلق له حرية الحركة والتنقل .

وعندما قرر قواد الأتراك قتل المستعين كتبوا لأحمد بن طولون أن يقتل المستعين وان يولوه مكافاة على ذلك امرة مدينة واسط،فرفض ابن طولون هذا العرض وكتب اليهم يقول . لا رآنى الله قتلت خليفة بايعت له ابدا .. فبعث الأتراك من ناحيتهم سعيد الحاجب فكان هو الذى تولى قتل المستعين .

٨٦٩ م – ٢٥٥ هـ قتل الخليفة المعتز :

طالب الجنود الأتراك الخليفة المعتز ببعض رواتبهم المتأخرة وكانت لا تزيد عن خمسين الف دينار ، فطلب هذا المبلغ من أمه قبيحة فادعت أنها لا تملك هذا القدر، واختفت من قصرها .

فما كان من الجند الا أن طلبوا من الخليفة المعتز أن يخلع نفسه بحجة عدم صلاحيته ، فأجابهم الى ما طلبوه منه ، ولكن ذلك لم يحل بينهم وبين تعذيبه بعد ذلك ثم قتله .. ومن عجب أن قادة الترك قبضوا بعد حين على أمه وصادروا أموالها ، فبلغ عدة ما صادروه ثلاثة ملايين دينار ، وهى التى أبت أن تشترى حياة ابنها بخمسين ألف دينار تقدمها له .. فدل ذلك على تسميتها بقبيحة كان رمزا لما انطوت عليه نفسيتها من قبح .

وكانت خلافة المعتز فى قول الطبرى أربع سنوات وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما . وكانت سنه يوم قتله أربعا وعشرين سنة .

وفاة الجاحظ أعظم كتاب العربية :

وفى هذا العام على ما يقول ابن كثير فى البداية والنهاية مات الجاحظ المتكلم المعتزلى ويمضى فى وصفه قائلا :

« وكان شنيع المنظر سىء المخبر ردىء الاعتقاد ينسب الى البدع والضلالات » على أنه لا يلبث أن يزيد على ذلك « وكان بارعا فاضلا قد اتقن علوما كثيرة وصنف كتبا جما تدل على قوة ذهنه وجودة تصرفه . ومن أجل كتبه كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين » .

وأشهد أن الجاحظ هو من بين كتاب العرب الأقدمين الذى اخذ يلبى قوة اسلوبه فى الكتابة ، ووضوح عبارته وحرارتها وتدفقها حتى لكأنه كان فحلا من كتاب العصر الحديث .

خلافة المهتدى بالله محمد :

فى الثانى من شعبان من هذه السنة بعد وفاة المعتز بويع عبد الله ابن الخليفة الواثق ولقب بالمهتدى وكان المهتدى من احسن خلفاء بنى العباس سيرة وورعا وأكثرهم تقوى وعبادة .. واتخذ من شخصية عمر بن عبد العزيز أماما ونبراسا وكان يقول انى لأستحيى أن يكون فى بنى أمية مثله ثم لا يكون من بنى العباس .. فكان يجلس لسماع مظالم الرعية وشكاويها ، ويحكم بالعدل والقسطاس المستقيم.

على ان العهد كان قد تغير وأصبحت السيادة الحقيقية للجنود الاتراك فبدأوا يتآمرون عليه ، فلما أن قبض على كبيرهم باكباك وقتله انقض عليه جنود الترك وحاربوه وحاربهم بمن وقف الى جواره من أجناس الجند الأخرى .. ولكن الدائرة لم تلبث أن دارت عليه فقبضوا عليه وحملوه على خلع نفسه ثم قتلوه بعد ذلك ، وكان قتله فى الثالث عشر من شهر رجب ، وكانت سنه يوم قتله اربعين سنة .

٨٧٠ م – ٢٥٦ هـ : خلافة المعتمد على الله :

فى يوم الثلاثاء الثالث عشر من شهر رجب بويع للمعتمد على الله أحمد بن المتوكل بالخلافة .. ولم يلبث أخوه الموفق أن غلبه على أمره فسلب منه السلطان الفعلى على الدولة بحيث لم يبق للخليفة سوى الاسم فقط .

وقد كان هذا الخلاف بين الأخوين هو الذى استغله أحمد بن طولون ليزيد من استقلاله وسلطانه فى ادارة شئون مصر والشام ، وذلك بأن وقف فى وجه أوامر الموفق بدعوى انه يدافع عن حقوق الخليفة الشرعى .

المسلمون يستولون على جزيرة مالطة :

استطاعت بحرية الاغالبة ملوك افريقيا (تونس والقيروان) ان يستولوا على جزيرة مالطة وبهذا تأكدت سيادة البحرية الاسلامية على المضايق الواقعة بين صقلية والشاطىء الافريقى .

وفاة الامام البخارى :

وفى ليلة عيد الفطر من هذه السنة مات فى قرية بالقرب من مدينة سمرقند الامام الحافظ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى صاحب الصحيح من أحاديث رسول الله ، وهو أشهر من أن يعرف وحسبه أن كتابه الجامع للاحاديث قد اجمع علماء الأمة الاسلامية على أنه أصح كتاب بعد القرآن الكريم .

٨٧٣ م – ٢٥٨ هـ : أحمد بن طولون يوطد سلطانه فى مصر :

فى الوقت الذى كان فيه الخلفاء يتهاوون واحدا أثر الآخر عن عرش الخلافة كان احمد بن طولون يوطد حكمه فى مصر ،وكانت الحوادث كلها تعمل على تدعيم حكمه ، فاذا كان باكباك الذى ولاه امرة مصر قد قتل ، فان أمير مصر ياركوج التركى الذى حل محله كان والد زوجه أحمد بن طولون فلا عجب اذا هو اطلق يد أحمد بن طولون اكثر مما كان عليه ، وضم اليه بعض المناطق التى كانت لا تزال خارجة عن سلطانه كمدينة الاسكندرية ، فأسرع لاستلامها وان كان لفرط حكمته قد ابقى واليها القديم ليحكمها باسمه ونيابة عنه .. وعكف على دور صناعة السفن فأعادها الى سابق نشاطها وزودها بكل ما يمكنها من بناء عدد كبير من السفن لتكون اسطولا لأحمد بن طولون يعتمد عليه فيما اعتزمه لنفسه من الدفاع عن سلطانه فى مصر .

وقد ظل احمد بن طولون حياته معنيا بالأسطول وتدعيمه حتى بلغ عدد وحدات هذا الأسطول عند وفاة أحمد بن طولون على ماروى الكيكوى كاتب سيرته ، مائة مركب كبيرة ومائة مركب حربية سوى الصلابيات والحمائم والقاربات والصنادل .

ولاية الخراج والثغور :

وحدث أن ارسل اليه الخليفة المعتمد يستحثه على جمع الأموال المقررة على مصر ، فرد عليه احمد بن طولون معتذرا عن عدم قدرته على تنفيذ هذا الأمر لأن

ولاية الخراج كانت بيد احمد بن المدبر صاحب السطوة والنفوذ في مصر منذ أمدبعيد فما كان من الخليفة المعتمد الا أن ولى أحمد بن طولون على خراج مصر، وزاد على ذلك فولاه على ثغور الشـــام . وهكذا تكاملت بين يدى أحمد بن طولون عناصر السلطة والموارد المالية ، فشرع يعمل على تحقيق ما كان يدور في نفسه من آمال عريضة في الاستقلال بشئون مصر، وذلك لا يكون الا بانشاء جيش قوى يدين له شخصيا بالولاء.

بنـــاء الجيش :

وكان احمد بن طولون قد استطاع منذ وفد الى مصر أن يرفع من هيبته في البلاد بما أظهر من شجاعة وعزم ومضاء في القضاء على الفتن التى اشعل نارها من يسمى بغا الصغير والذى دعا الى نفسه باعتباره من نسل العاويين أو تلك التى نشبت في الصعيد وقتل رؤوس الفتنة . ولكن فرصته الكبرى لانشاء الجيش قد واتته عندما استنجد به الخليفة المعتمد ضد عامله على فلسطين ، والذى توقف عن بيعة الخليفة واستولى على خراج مصر وهو في طريقه الى بغداد .

فطلب أحمد بن طولون من الخليفة أن يأذن له في تكوين جيش للقيام بهذه المهمة فلم يقف الخليفة عند حد الاذن له ، بل وأصدر أوامره الى عامل الخراج أحمد بن المدبر قبل عزله بأن يضع الأموال اللازمة تحت تصرف أحمد بن طولون . وشرع أحمد بن طولون في تكوين جيشه ولكنه لم يجعله وقفا على جنس واحد . بل الفــه من السودانيين والعرب الى جوار الأتراك بل وألفه من المصريين انفسهم .

بناء مدينة القطـائع :

وكان لا بد لكى تظهر شخصية احمد بن طولون ، أن يؤسس لنفسه دار حكم جديدة ، بل مدينة جديدة غير الفسطاط والعسكر ، لتكون تعبيرا عن العهد الجديد.

فاختار المنطقة التى تقع عند سفح جبل المقطم ، حيث يوجد ميدان صلاح الدين في الوقت الحاضر (بالقلعة) وانشأ قصرا والحق به حديقة بلغ من ضخامتها واتساع رقعتها ان أطلق عليها اسم الميدان .. ولم يلبث هذا القصر أن أصبح نواة لما عرف في التاريخ باسم مدينة القطائع والتى كانت تشغل المسافة بين قلعة الجبل الى موقع جامع ابن طولون الحالى ، كما كانت تمتد من اول الرملة الى الموضع الذى يعرف الآن بزين العابدين وقد أطلق عليها اسم القطائع ، نظرا لاسم الحارات والسكك التى أعطيت لمختلف أجناس الجند ليقيموا ويبنوا فيها .

فثمة قطيعة للسودان واخرى للروم وهكذا ، ولم تلبث القطائع ان غصت بالمبانى الجديدة وعمرت بالسكك والأزقة، وامتلأت بالمساجد والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع ، ولم تلبث عمارتها أن امتدت حتى اتصلت بالفسطاط .

الدينـار الطولونى :

كان احمد بن طولون ككل مؤسسى الدول الذين مروا علينا يعرف ان لا سبيل لبناء دولة قوية الا باعتماد على مالية وفيرة وهو مالا يتحقق الا بالاقتصاد القوى الذى لا يعنى شيئا سوى وفرة الانتاج. ولا ازدهار للانتاج الا في ظل الأمن والثقة والعدل.

فأما الأمن وتوطيده فقد كان عمله الأول منذ جاء الى مصر .. وأما الثقة فهى التى سعى الى تحقيقها بمجرد أن جمع أزمة السلطة فى يده فأصدر أمره بصك دينار طولونى جديد ، كان يمتاز بثقل وزنه وخلوه من الفن والنساء ، فاستعاد الثقة بعملة البلاد .

ثم عمد الى الضرائب الباهظة التى كان احمد بن المدبر قد اثقل بها عاتق المصريين ، مما اثار سخطهم وشجع على اندلاع الفتن التى واجهته بمجرد حضوره، فاصدر أمره بالغاء هذه الضرائب فتنفست البلاد الصعداء .

ثم انتقل بعد ذلك الى مختلف ميادين الانتاج ليزيل العوائق ويشجع على الازدهار والنمو .

فى الزراعة :

فأما فى الزراعة فقد راح يعمر من جديد قرى مصر ويصلح جسورها وقناطرها ويحفر خلجانها ويطهر ترعها فأحدث ذلك أثره المتوقع فى تحسين الرى وزيادة الانتاج بالتالى .

وعمد من ناحية الى زراعة كل الأراضى البور والتى لم يكن لها صاحب وذلك لحسابه وعلى نفقته فكان من اثر هذه الاصلاحات المتعددة فى دنيا الزراعة ، أن عم الرخاء وكثر محصول القمح ، حتى أن كتب التاريخ تتحدث كلها عن هذا الرخاء ، وكيف وصل سعر العشرة أرادب من القمح بدينار .

فى الصناعة :

وازدهرت الصناعة فى مصر على أثر ازدهار الزراعة فعادت صناعة النسيج التى اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور الى سابق مجدها ، واشتهرت من جديد مدن تنيس والاسكندرية والبهنسا واشمونين ودمياط بالأنسجة الفاخرة التى تنتجها مصانع الدولة من ناحية والمصانع الخاصة من ناحية أخرى ، وعادت صناعة الزجاج والخزف والأخشاب الى نشاطها ورواجها كما أن انشاء الجيش الكبير قد استدعى قيام مصانع الأسلحة .

كما عادت للظهور صناعات الترف والتى ستتجلى آثارها فى جهاز قطر الندى فيما بعد .

التجارة :

واذا كانت البحرية الاسلامية قد اصبحت مسيطرة على جنوب البحر الأبيض ، فقد انتقلت التجارة بين الشرق والغرب الى يد تجار المسلمين من المغاربة وأهل الذمة من اليهود ، وكان طبيعيا أن تصبح مصر كما كانت فى عصورها القديمة هى المعبر لهذه التجارة الآتية من الشرق وابن خروادبة على ما نقلت عنه الدكتورة سيدة

اسماعيل كاشف يعطينا صورة صادقة لذلك النشاط التجارى العظيم الذى شهدته مصر في العصر الطولونى ـ خصوصا ذلك النشاط الذى يقوم به الوسطاء اليهود الرهدانية ، الذين يتقنون كل لغات الأرض ـ العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاسبانية. وكان هؤلاء يبحرون من غرب أوربا ومعهم الخدم والجوارى والغلمان والديباج والخمر والفراء والسمور والسيوف ، حتى اذا نزلوا عند الفرما نقلت متاجرهم بالقوافل حتى مدينة القلزم ، ثم استقلوا السفن فى البحر مارين بموانى بلاد العرب ، ومنتهين الى اسواق الهند والصين ، ثم يعودون من أسواق الصين بالمسك والعود والكافور والتوابل سالكين نفس الطريق فيرسون عند القلزم (السويس) ومنها الى الفرما . ثم ينتقلون بالسفن الى القسطنطينية أو الى أسواق غرب أوربا .

وهكذا تضافر الازدهار الزراعى والصناعى والتجارى لاعادة بناء الرخاء المصرى ، وتمكين أحمد بن طولون من انشاء الدولة التى يرجوها لنفسه .

٨٧٥ م ـ ٢٦١ هـ : وفاة الامام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح :

فى هذه السنة مات الامام مسلم الحسن القشيرى النيسابورى صاحب الصحيح الذى يلى صحيح البخارى عند أكثر العلماء ، ولكن بعض العلماء وخاصة من المغاربة يقدمون صحيح مسلم على صحيح البخارى ، ونحسب أن هذه الاشارة تغنى عن الكثير فى الاشادة بمسلم أو التعريف به .

٨٧٧ م ـ ٢٦٤ هـ : بناء مسجد ابن طولون :

فى هذه السنة اتم ابن طولون مسجده الكبير الذى قل أن يوجد له نظير فى اتساعه فى أرجاء العالم الاسلامى كله (باستثناء الحرم المكى وخاصة بعد التوسيعات الحديثة) وهو منفرد بين مساجد الدنيا كلها فى أنه لم يستعمل الأعمدة الرخامية والجرانيتية فى بنائه ، وانما استعمل الآجر فى بناء أعمدة وأكتاف تحمل فوق رؤوسها العقود التى ترفع سقف المسجد . وقيل أن السبب فى ذلك ان المهندس الذى صممه وأشرف على تنفيذه وهو سعيد بن كاتب الطرغانى ، وكان قبطيا خشى ان يهدم ابن طولون كنائس مصر ليستخلص منها الأعمدة اللازمة لبناء هذا المسجد ، فابتكر هذا الأسلوب الفريد لاقامة الجامع بغير حاجة الى الأعمدة التقليدية . وقد قبل ابن طولون الاقتراح وعهد الى المهندس القبطى باقامة المسجد فجاء على هذا النحو الفريد فى الضخامة والمساحة ، والمئذنة التى تدور سلالمها حولها من الخارج على خلاف المألوف فى كل المآذن التى انشئت فى مصر من قبل أو بعد .

ولم يستطع المعاصرون لأحمد بن طولون ان يدركوا كيف استطاع أن يدبر الأموال اللازمة لبناء هذا الصرح الضخم فقالوا انه عثر على كنز به مليون دينار ، ولو قالوا

لنا أنه عثر على بعض الكنوز الفرعونية أو الرومانية ، لما كان فى الخبر كبير غرابة ، أما ان يكون الذى حصل عليه هو دنانير ذهبية فهذا هو الذى يجعل الأمر محل شك. على أن الذى اثبته المؤرخون هو أنه انفق على بناء الجامع مائة الف دينار ، وأنه نفح المهندس القبطى بجائزة قدرها عشرة آلاف دينار مكافأة له على عمله العظيم .

مؤسسة اجتماعية وثقافية :

ولم يكن جامع ابن طولون كما اراده صاحبه ومنشئه مجرد مكان للعبادة ؛ وانما ليكون فوق ذلك دار علم وبر وعلاج فى آن واحد ، فقد رتب له جماعة من العلماء والفقهاء وأجرى عليهم الرواتب ، لالقاء الدروس فى شتى فروع العلم فى المسجد . وكان للعاملين فى المسجد راتب يومى من الطعام والخبز والحلوى والفاكهة.

وكان يصرف على المسجد من الرواتب العاملين فيه والصدقات للمترددين عليه كل يوم الفا ومائتى دينار على ما روى ابن اياس .

البيمارستان :

كما الحق بالمسجد بيمارستان (مستشفى) لمعالجة المرضى وايواء العاجزين ، وشرط أن لا يعالج به جندى أو مملوك حتى يكون خالصا لعامة الشعب .

وقد حفظ التاريخ لنا اسم كبير اطباء هذا البيمارستان وهو سعيد بن توفيل القبطى ، كما كان من أشهر اطبائه الحسن بن زيرك .

ولا يزال المسجد قائما حتى اليوم فى شموخ ينطق بما وصلت اليه مصر فى عهد انشائه من استقرار سياسى واجتماعى واقتصادى (١) .

٨٧٨ م ــ ٢٦٥ هـ : ابن طولون يتوجه الى الشـام :

كان الأمير ماجور التركى أمير الشام يقف سدا منيعا فى وجه ما يطمح اليه ابن طولون من توسيع رقعة سلطانه فلم يكد يموت حتى اسرع ابن طولون زاحفا الى الشام بجيوشه غير آبه لابن ماجور الذى عينه الخليفة مكان أبيه على ما يقول ستانلى لين بول ، وان كان من رأى الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف انه لم يقدم على هذه الخطوة الا بعد أن حصل من الخليفة على موافقة بتوليته امارة الشام .

وكيفما كان الأمر ، فقد وصل ابن طولون بجيوشه الى الشام فتلقاه الجميع بالترحاب بما فى ذلك ابن ماجور الوالى السابق الذى أقره ابن طولون على امرة بلده الرملة ، كما دخل الى دمشق فتلقاه ولاتها بالطاعة والخضوع ، وواصل تقدمه عبر بلاد الشام شمالا حتى وصل الى طرسوس ، وليس الا سيما الطويل فى مدينة

(١) من عجب أن يكون مسجد ابن طولون هو احد مراكز ثورة الشعب عام ١٩١٩ .

انطاكية من حاول ان يقاومه ، ولكن ابن طولون تغلب عليه وصرعه واستولى على المدينة فى سبتمبر من هذه السنة ، ثم استولى على ثغرى المصيصة واضنة .

واصبح سلطان ابن طولون يمتد من الفرات غربا والحدود والثغور المتاخمة لبيزنطة شمالا ومدينة أسوان فى الجنوب وبرقة فى الغرب .

وقد كان باستطاعة احمد بن طولون أن يواصل فى حملته هذه زحفه الموفق نحو الشرق فيدخل الى بغداد ويضع الخليفة تحت رعايته ، او أن يحمله معه الى مصر ، وربما كان هذا فى عزمه بالفعل . لولا انه فوجىء باعلان ابنه العباس ، الذى خلفه وراءه فى مصر ، الثورة والتمرد عليه فاضطر الى ان يعود ادراجه الى مصر .

٨٧٩ م ــ ٢٦٥ هـ : ثورة العباس على أبيه ابن طولون :

انتهز العباس بن احمد بن طولون فرصة استخلافه على مصر وغياب أبيه ، فأعلن خلعه لطاعته والتفت حوله بعض عناصر الجيش والحاشية .

ولكن احمد بن طولون كر راجعا صوب مصر فخارت اعصاب العباس ، وقرر الفرار بمن معه من انصار وجنود بلغت عدتهم عشرة آلاف جندى سودانى وثمانمائة فارسى ، الى الاسكندرية وبرقة ليكون لنفسه ملكا فى هذا الجانب ، ولم يدع مصر الا بعد أن أخذ معه كل ما فى بيت المال من اموال وما فى مخازن الحرب من اسلحة على انه ماكان لمثل هذه الحركة الغادرة ان تنجح ، ولذلك فقد انهزم العباس ومن معه فى خاتمة المطاف . . وجىء به ومن معه من القواد اسرى ، فقتل ابن طولون الكثير من القواد الذين ثبت انهم حرضوا ابنه عليه . اما العباس نفسه فقد قال بعض المؤرخين انه جلد مائة سوط ولكن الأمر المحقق انه زج به الى السجن .

٨٨١ م ــ ٢٦٨ هـ : النزاع بين ابن طولون والأمير الموفق :

كان اخو الخليفة الأمير ابو احمد الموفق والذى كان يحكم الجزء الشرقى من الدولة العباسية ، ولكنه خول لنفسه سلطة حكم القسم الغربى كذلك ، جامعا فى يده سلطة الخليفة الفعلية ينظر الى استقرار احمد بن طولون فى مصر وتزايد سلطانه بعين الازدراء بل والسخط ، وكان من المحقق ان الأمر لابد صائر بينهما نحو الاصطدام . وبدأ الصدام الفعلى عندما ارسل الموفق يطالب احمد بن طولون بارسال اموال الخراج ليستعين بها فى حربه ضد ثورة صاحب الزنج فبعث اليه احمد ابن طالون بمليون ومائتى الف دينار فاستقل الموفق هذا المبلغ وبعث اليه بكتاب اظهر له فيه الجفاء ، فاستاء منه احمد بن طولون وبعث الى الموفق برد حفظته كتب التاريخ وهو من اروع الوثائق التى تكشف عن شخصية احمد بن طولون وحرصه على كرامته واستقلاله ، حتى ليشتد على الموفق ويهدده من طرف خفى فى الوقت

الذى يظهر فيه الطاعة والامتثال . فما كان من الموفق الا ان استصدر امرا من الخليفة بعزل احمد بن طولون وتولية غيره من الأمراء ، ولكن احدا من هؤلاء لم يجرؤ على الاقتراب من مصر فباءت هذه المحاولة الجديدة بالفشل ، فجمد النزاع مؤقتا

ولكن مايغل يد الموفق عن متابعة الهجوم على احمد بن طولون هو اشتغاله بثورة الزنوج التى كانت لا تزال مشتعلة الأوار .

على ان النزاع لم يلبث ان تجدد عندما تمرد احمد بن طولون عامه على الرقة وشمال سوريا (حلب وقنسرين وديار مضر وحمص) فانضم الى الموفق وسلم اليه مليون دينار كانت تحت يده .

وخطا احمد بن طالون خطوة جديدة تأكيدا لاستقلاله وسلطانه فجعل من نفسه مدافعا عن حقوق الخلافة بالسيف وقوة السلاح ، فأعلن على الملأ أن الموفق يسيء معاملة اخيه الشرعى ويستبد بالملك دونه وكتب الى الخليفة يستقدمه اليه ، وهذا الخطاب وثيقة اخرى تكشف عن سياسة احمد بن طولون ورغبته فى تحويل الخلافة الى مصر لتكون تحت سلطانه واليك بعض ما جاء فى هذا الخطاب .

« قد منعنى الطعام والشراب خوفى على أمير المؤمنين — اطال الله بقاءه . من مكر يلحقه . وقد اجتمع عندى مائة الف عنان مؤلفة قلوبهم ، ومجتمعه آراؤهم ، شديد بأسهم . وانا أرى سيدى امير المؤمنين — أدام الله عزه بالنصر والتمكين — الانحداب الى مصر ، فان أمره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ، ولا يكن ما يخافه فى كل لحظة منه اليه » .

وقد رحب الخليفة بهذه الدعوة واستجاب لها ، وتوجه بالفعل نحو الرقة متظاهرا بالصيد ليقابل احمد بن طولون الذى كان قد سار على رأس جيشه الى الشام ، ولكن اخاه الموفق علم بما اعتزمه الخليفة المعتمد فأرسل الى ابن كنداج أمير الموصل يأمره برد الخليفة الى سامرا ، ونفذ ابن كنداج الأمر حتى لقد قبض على الخليفة ومن معه واعادهم مقبوضا عليهم .

ابن طولون يخلع الموفق :

ورد ابن طولون على هذا الاجراء العنيف ضد الخليفة باجراء لا يقل عنفا ، فعقد مؤتمرا من الفقهاء والقضاة فى دمشق واستصدر من المجتمعين قرارا بخلع الموفق من ولاية العهد لأنه نقض البيعة بعدوانه على الخليفة وبعث بهذا القرار الى كل المدن والعواصم التابعة له ليتلى على المنابر كما أمر باسقاط اسمه من الخطب ومحو اسمه من الطرز .

بكاربن قتيبه قاضي مصر :

وسجل التاريخ لقاضي مصر بكاربن قتيبة شجاعته الأدبية في هذا الموقف التاريخي فعلى الرغم من انه كان من اقرب المقربين الى ابن طولون وكان يجرى عليه ألف دينار شهريا على ما يقول ابن خلكان ، فقد كان هو الوحيد الذى رفض ان ينصاع الى ابن طولون في خلع الموفق على أساس انه لم يشهد الوقائع المنسوبة الى الموفق ، كما انه لايرى من حقوق ابن طولون استصدار مثل هذا القرار .

ولم يثنه الزج به في السجن عن رأيه .

الموفق يأمر بلعن ابن طولون :

وقد رد الموفق على قرار خلعه ، بأن امر عماله وولاته بلعن احمد بن طولون على المنابر وكانت صيغة اللعنة : « اللهم العنه لعنا يفل من حده ويتعس جده واجعله مثلا للغابرين انك لاتصلح عمل المفسدين » .

صلح الموفق مع ابن طولون :

ولكن هذه الاجراءات لم تفد الموفق شيئا في زعزعة مركز ابن طولون داخل مصر وان اثرت عليه في بعض الاطراف فهزم له جيش في مكة . . ورأى الموفق ان من حسن السياسة ان يساير ابن طولون ، فبدأ بأطلاق سراح الخليفة المعتمد الذى كان مسجونا ، ووسط بعض من يكاتب ابن طولون للتقريب بينهما . واذا كان ابن طولون من ناحيته لا يحرص على شيء حرصه على الوفاق ، فقد التقت رغبة الطرفين في التصالح . وهكذا خرج ابن طولون من هذا الصراع منتصرا في تأكيد سلطانه الفعلي وان ظل يعترف بالتبعية الروحية للخلافة ، وهو ما لم يكن يفكر في انكاره أى انسان في ذلك الوقت مهما عظم سلطانه .

٨٨٣ م ٢٦٩ هـ : ابن طولون ينتصر على الروم :

وبلغت قوة ابن طولون ذروتها ، عندما انتصر عامله على مدينة طرسوس على جيوش الروم انتصارا باهرا حتى لقد قيل ان عدد قتلى الروم بلغ ستين الفا وبلغت غنائم الذهب والفضة والأحجار الثمينة قدرا لايقوم . وذلك كله بالاضافة الى خمسة عشر الف حصان ، وقد ذكر هذا الانتصار الساحق بمعارك الاسلام الكبرى في صدر الاسلام . على ان بعض حركات التمرد التى قادها يازمان الخادم حملت ابن طولون على يذهب بنفسه لقمع هذا التمرد واعادة سلطانه على مدينة طرسوس وثغور الشام ، واذا كان الوقت شتاء والبرد قارصا فقد مرض ابن طولون ، وان لم يقعده المرض عن متابعة المعركة حتى كسر شوكة المتمردين ، بل وارهب المتربصين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨٨٤ م ـ ٢٧٠ هـ : وفاة احمد بن طولون :

عاد أحمد بن طولون الى مصر مريضا ، وعجز كبار الأطباء وعلى رأسهم الحسن ابن زيرك عن علاجه ويقص علينا صاحب السيرة الطولونية عن هذه الفترة من حياة مصر ـ فيقول :

فاضطرت أحوال مصر بسبب مرضه وخرج الناس عن بكرة ابيهم الى الصحراء وفعلوا مثل مابفعلون فى صلاة الاستسقاء ، فكان المسلمون يسيرون حفاة الأقدام وعلى رؤوسهم المصاحف ، والنصارى على رؤوسهم الأناجيل واليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، وخرج الاطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم الالواح وخرج سائر العلماء والصلحاء يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء ، ولكن اذا كان لكل أجل كتاب ، فقد وافى الاجل فى يوم الاثنين الثامن عشر من ذى القعدة من هذه السنة . ولم يمت احمد بن طولون الا بعد ان اكد استقلاله بشئون مصر ، فأمر ان يبايع ابنه ابو الحسن خمارويه بالملك من بعده .

وكانت سن احمد بن طولون عند موته خمسين سنة لمن قال ان مولده كان عام ٢٢٠ هـ وكانت مدة امارته على مصر منها ست عشرة سنة ، ولكن ابن اياس يجعل هذه المدة اثنتى عشرة سنة فقط .

واذا كانت الارقام هى خير مايفصح عن الدلالات ، فان كتب التاريخ تسجل ارقاما لبعض ما خلف ابن طولون وراءه من ثروات ، تكشف عن مدى ما وصل اليه من غنى . فيقول ابن وصيف شاه وغيره ان احمد بن طولون ترك وراءه :

١٠٫٠٠٠٫٠٠٠	دينار
٧٫٠٠٠	مملوك ابيض وقدرهم البعض الآخر بعشرة آلاف
٢٤٫٠٠٠	من الارقاء السود الذين كانوا يؤلفون حرسه الخاص
٧٫٠٠٠	فرس
٢٫٧٠٠	جمل وقدرها البعض الآخر بعشرة آلاف
٦٫٠٠٠	بغل وحمار
١٫٠٠٠	سفينة بحرية وحربية وشوالى

وخلف من اللؤلؤ والجواهر واليواقيت مائة صندوق ومالا يحصى من التحف والفرش .

وبلغ خراج مصر فى ايامه اربعة ملايين وثلاثمائة الف دينار مع وجود الرخاء وانخفاض اسعار الغلال وعدم التجائه للقسوة فى جمع الضرائب .

ويستوقفنا هذا الرقم الاخير المقدر للخراج وقدره اربعة ملايين من الدينارات باعتباره مظهرا على ازدهار مصر ايام ابن طولون بالنسبة الى ماسبقها من احوال طوال القرن الماضى .

ومع ذلك فان الانسان لايملك نفسه من المقارنة بين هذا المبلغ وما كان عمرو ابن العاص يجمعه من خراج والذى قدر باثنى عشر مليون دينار .

ويلخص لنا ابن اياس حكم ابن طولون وشخصيته فى العبارات التالية :

« وكان الامير احمد ملكا عادلا فى الرعية كريما سخيا منقادا الى الشريعة ، يحب العلماء والصلحاء وكان يصلى على من يموت فى البلد فقيرا كان او غنيا بنفسه ، ويحضر دفنهم ويحب فعل الخير ـ كثير البر والصدقات . وكان له اشتغال بالعلم وطلب الحديث . وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة ، حكم فى ايام ولايته من مصر الى الفرات ومن مصر الى بلاد المغرب وعم العدل منه سائر الجهات ، حتى خيروه على خلفاء بغداد وكانت افعاله جميلة ». وعلى عادة هؤلاء المؤرخين القدماء الذين يرصون العبارات المتناقضة احيانا دون محاولة لتمحيصها فانه بعد هذا الثناء العريض على ابن طولون ، يضيف قائلا :

« ولكنه سفاكا للدماء شديد الغضب ، سيء الخلق قيل مات فى حبسه ثمانية عشر الف انسان » .

ويستعمل ابو المحاسن نفس هذه العبارة فى كتابه النجوم الزاهرة ، ويصحح المشرفون على طبع الكتاب هذه العبارة بما يخفف من وطأتها فيقولون ان صحتها انه « مات وفى حبسه ثمانية الف انسان » .

امارة خمارويه على مصر والشام :

فى العاشر من ذى القعدة من هذه السنة ، ولى امرة مصر والشام وبرقة الابن الثانى لأحمد بن طولون وهو ابو الحسن خمارويه بناء على بيعة ابيه له وبدون انتظار لاذن الخليفة . ويقول ستانلى لين بول ان سن خمارويه عندما ولى الحكم عشرين سنة ، لكن صاحب النجوم الزاهرة يجعل مولده عام ٢٥٥ هـ ويكون معنى ذلك أن عمره كان خمس عشرة سنة فقط عند امارته ، وكيفما كان الامر فقد ولى الحكم وهو شاب صغير .

واذا كان اخوه ابو العباس قد تمرد من قبل على ابيه فلا عجب اذا رفض مبايعة خمارويه على الرغم من انه كان لايزال فى السجن . ولذلك فقد اسرع خمارويه بالتخلص منه فأمر بقتله .

٨٨٥ م ـ ٢٧٢ هـ : تثبيت سلطان خمارويه على الشام :

انتهز الامير ابو احمد الموفق فرصة وفاة احمد بن طولون ، لكى يستعيد سلطان الخلافة او بالاحرى سلطانه على مصر والشام وبرقة ، خاصة وانه كان قد فرغ نهائيا من أمر الزنج واستقامت له الأمور .

فأعلن أن ولاية خمارويه على مصر ومن ولاية أبيه نفسه غير شرعية . وان الوالى الشرعى هو اسحق بن كنداج الذى عين من قبل اميرا على مصر ولم يستطع أن يدخلها . وجعل الموفق اسحق بن كنداج على رأس جيش للاستيلاء على الشام ومصر وسار معه حليفه محمد بن ابى الساج .

كما ارسل الموفق ابنه ابو العباس على راس جيش آخر لاحتلال الشام كذلك . فلما علم خماروية بمسير هذه القوات الى الشام الف جيشا بقيادة كاتب ابيه عبد الله احمد الواسطى وعززه بأسطول قوى من البحر ، ولكن الواسطى على مايقول المقريزى سرعان ماخان سيده وانضم الى الموفق ، وعلى ذلك فقد سقطت الرقة وقنسرين وبقية مدن الشام الكبرى فى يد قواته المختلفة .

فسار خماروية على راس جيش جديد الى الشام لمحاربة القوى المتألبة عليه . واذا كانت هذه فيما يبدو أول مرة يشهد فيها قتالا ، فقد انهزم هزيمة منكرة وفر يصحبه الجزء الاكبر من جيشه الى مصر . على ان احد قواده وكان يدعى سعد الايسر ويسميه البعض سعد الاعسر لم يعلم بنبأ هزيمة خمارويه وانقض من ناحيته على جيش الموفق المنتصر والذى كان مشتغلا بجمع الاسلاب ، فهزمه واضطره للفرار ودخل سعد الايسر الى دمشق وبعث بالنبأ لخماروية .

وكان لهذا الحادث فعل السحر فى شخصية خماروية فقد اعاد اليه رباطة جاشه ووجدناه يعود الى الشام من جديد على راس جيشه ، ويخوض سلسلة من المعارك الناجحة فى بسالة وشجاعة فهزم الجيوش المتحالفة تحت قيادة ابن كنداج وراح يتعقب الجيوش المندحرة حتى جاوز حدود الشام ودخل العراق ، ووصلت طلائع جيوشه الى مدينة سر من راى نفسها .

وقد كان هذا نصرا مؤزرا على جيوش الموفق التى كانت قدفرغت لتوها من حروب الزنج بالانتصار الرائع ، فأذهل هذا النجاح الذى احرزه خماروية معاصربه من الاعداء قبل الاصدقاء وكان أول ما استسلم لسلطانه ابن كنداج نفسه فرضى ان يعمل تحت امرة خماروية وان يدعو له على المنابر .

٨٨٦ م ٢٧٣ هـ : خمارويه أمير على مصر والشام ثلاثين سنة :

ومن جديد لم ير الموفق من سبيل الا التصالح مع خمارويه ، وكانت هذه رغبة الخليفة المعتمد . وعلى ذلك فقد تم الصلح على أساس الاعتراف لخمارويه وأولاده من بعده بامارة مصر والشام لمدة ثلاثين عاما مقابل ان يدفع مائتى الف دينار سنويا عن المدة السابقة وثلاثمائة ألف دينار سنويا عن مقبل الايام .

٨٨٨ م ـ ٢٧٥ هـ : خمارويه يصبح أميرا على الموصل :

شجع خمارويه ما أحرزه من نجاح عسكرى لكى يمد سلطانه الى بلاد الموصل ، فأستولى بجيوشه على مدينة البرقة ، وأسرع الخليفة المعتمد بالاعتراف بأمارته على الموصل فدعا له على منابرها ، وعين خمارويه أميرا من قبله على الموصل احد خصومه القدماء ابن أبى ساج ، الذى لم يلبث أن تمرد على خمارويه وجدد محاولة الاستيلاء على الشام ، فما كان من خمارويه الا أن سار من جديد على رأس جيش لتاديب ابن أبى ساج . وفى معركة طاحنة بالقرب من دمشق ، اثبتت خمارويه من جديد قدرته العسكرية ، فانتصر انتصارا ساحقا على جيوش ابن ابى ساج ، فراح يطارده حتى وصل الى نهر دجلة فى بعض الروايات وفى روايات اخرى نهر الفرات. وهناك بنى لنفسه على ما تقول مختلف الروايات عرشا جلس عليه ليشهد احتفالات النصر ، مما يذكرنا بفعل بعض الفراعنة من قبل .

٨٩٠ م ـ ٢٧٧ هـ : الدعاء لخمارويه فى مدينة طرسوس :

أحدث هذا النصر العسكرى الباهر اثره فى يازمان الخادم حاكم مدينة طرسوس الذى اعلن التمرد فى ختام عهد ابن طولون ، أن يعلن ولاءه لخمارويه وراح يدعو له على منابر طرسوس وأرسل اليه خمسين الف دينار تمثل الخراج المستحق عليه . واذ كان يازمان يمثل قوة الاسلام التى تواجه الروم فقد وجد فى خمارويه القوة الحقيقة التى تستطيع أن تدعمه فى قتاله ضد الروم . ولم يخب خمارويه ظنه فقد راح يمده بالمال والرجال والاساطيل لمواصلة الحرب ضد الروم ـ فأستطاعت الجيوش الاسلامية ان تتوغل من جديد فى بلاد الروم ، كما لم تفعل منذ سنوات وسنوات .

٨٩١ م ـ ٢٧٨ هـ : ظهور القرامطة :

فى هذه السنة بدأ ظهور احدى الحركات الهدامة فى تاريخ الدولة الاسلامية والتى اشتهرت باسم القرامطة نسبة الى قرمط بن الاشعث ، وهم وان اظهروا الاسلام الا انهم فى حقيقتهم ، على ما يقول مؤرخوا الاسلام القدامى ، احدى فرق الزنادقة والملاحدة من الفرس الذين يدينون بدين زرداشت وكانوا يبيحون المحرمات . وكانت المنطقة التى بدأوا منها نشاطهم هى منطقة هجر والبحرين ، ولكنهم لم يلبثوا ان اغاروا على مكة والشام ، وكانوا احد العوامل التى تؤدى الى سقوط الدولة العلوانية

٨٩٢ م ٢٧٩ هـ : وفاة الخليفة المعتمد :

فى ليلة الاثنين التاسع عشر من شهر رجب مات الخليفة المعتمد على الله أبو العباس احمد بن المتوكل ، كانت سنه يوم وفاته خمسين سنة حكم منها ثلاث وعشرين سنة ، وان كان حكما كما رأينا اسميا ، ذلك أنه كان أخا لهو وانهماك فى الملذات : فولى أخاه الموفق أمور الحكم فلم يلبث أن استبد بها . وكانت وفاة المعتمد فجأة حتى قيل انه قتل بالسم وقيل انه خنق .

خلافة المعتضد ابن الموفق :

كان أبو احمد الموفق أخو المعتمد قد مات قبل اخيه وكان الخليفة المعتمد قد جعل ولاية العهد لابن اخيه المعتضد بعد ان خلع ابنه منها : وفوض للمعتضد كل ما كان لابيه من الامر والنهى .

تثبيت خمارويه فى حكم مصر والشام وبرقة :

استهل المعتضد سلطانه بأن جدد عهد خمارويه على امرة مصر والشام وبرقة لمدة ثلاثين عاما له ولاولاده من بعده وأن يكون له كل السلطان من صلاة وخراج وقضاء وسائر الاعمال . له جدال فى أن الهدايا التى بعث بها خمارويه الخليفة الجديد ، والعروض المالية التى عرضها عليه كانت هى الحافز لتجديد هذا العهد .

وكان على رأس عروض خمارويه الخليفة أن يزوج ابنته قطر الندى من ولى عهد الخليفة ، فقبل الخليفة العرض على أن يكون الزواج لنفسه بدلا من ابنه . وكان معنى هذا الزواج ان خمارويه قد أصبح ندا الخليفة ، وصهرا له .

٨٤٥ م ـ ٢٨٢ هـ : زفاف قطر الندى :

فى الثامن من محرم من هذه السنة وصلت قطر الندى ابنة خمارويه الى بغداد لتزف الى الخليفة المعتضد فى صحبة ابى عبد الله الخصاص . وقصة زواج قطر الندى بالخليفه المعتضد وما انفق على جهازها اشبه ما يكون بالاساطير لكثرة ما حوت من مبالغات ولكن من المحقق أن الخليفة قد اشترط فى جهاز قطر الندى شروطا محددة ، ويذهب بعض المؤرخين الى أن المعتضد قصد الى افقار خمارويه بالذات تمهيدا للقضاء عليه .

ومما يقال عن هذا الجهاز انه كان يحتوى على مائة هون من الذهب وبالغ الذهبى فقال بل الف هون وكان من بين الجهاز دكة (مقعد) يتألف من اربع قطع من الذهب وعليه قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق به حبة من جوهر لا يعرف له قيمة .

وكان من بين ملابسها الداخلية الف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار .

ويقول المقريزى انه لم يبق تحفة من كل لون الا جعلت فى جهاز ابنة خمارويه .

ويلخص البعض أمر المهر فى هــذا الزواج وما انفق على الجهاز فى أن المهر كان مليون درهم ونفقات الجهاز مليون دينار ، ولم يكتف خمارويه بذلك بل أعطى ابنته مائة الف دينار لتشترى من العراق ما قد تحتاج اليه مما يتعــذر وجوده فى البلاد المصرية (١) .

قصور على الطريق :

ولم يقف الانفاق على هذا العرس عند حد الجهاز ، بل أن خمارويه قد انشأ على طول الطريق من مصر الى بغداد قصرا على راس كل مرحلة سيتوقف عندها ركب ابنته ، حتى اذا نزلت الى القصر وجدت فيه كل ما اعتادت أن تجده فى قصر أبيها من وسائل الترف .

حفلة الزفاف :

ولقد أقيم لقطر الندى عند وصولها الى بغداد حفلة زفاف تتناسب وما احاطها ابوها من دوى ، فكانت حفلة على ما يقول المؤرخون لم تشــهد لها بغــداد مثيلا من قبل .

وقد فرح الخليفة بعروسه فرحا منقطع النظير واحبها حبا شديدا لجمال صورتها ووفرة أدبها . وان كان سنها عندما دخل بها لم يكن يزيد على اثنى عشرة سنة .

أحــــــلام خمــارويه :

ولا شك أن خمارويه كان يخطط بهذا الزواج لمشروعات سياسية واسعة المدى ولكن سر هذه المشروعات قد طوى فى نفسه فلن يلبث ان يموت .

٨٩٤ م ٢٨١ هـ : خمارويه يستانف الجهاد ويغزو الروم :

وليس أدل على طموح مشروعات خمارويه أنه لم يكد يسمع نبأ استشهاد بازمان الخادم فى أحد معاركه مع الروم ، حتى أرسل بدلا عنه طفج بن جف ، وكلفه بمواصلة غزو الروم فى عقر ديارهم ، فتوجه الى طرسوس وقصــد منها الى مدينة طرابزون ، فى الوقت الذى سير فيه خمارويه اسطوله البحرى ليشد ازر الجيش المهاجم . فأستطاع طفج بن جف أن يفتح مدينة ملورية ، وقد كان لهذه الانتصارات اثرها على الروم اذ حملتهم على طلب الصلح ، ولكن كان مقدرا لخماوريه أن لايعيش حتى يرى ثمرة جهاده .

---

(١) السيوطى : « حسن المحاضرة » . محمد جمال سرور : « الدولة الفاطمية فى مصر » .

٨٩٥ م - ٢٨٢ هـ : مصرع خمارويه :

ذبح خمارويه على فراشه فى قصره الذى انشأه فى دمشق بسفح جبل قاسيون وذلك فى منتصف شهر ذى الحجة من هـذه السـنة ، وقيل بل فى الثالث من ذى الحجة ، أما سبب ذبحه فقد ترددت فيه شتى الاقاويل ، واظهر الروايات ان بعض خدمه أولع بجارية له فهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع عشيقها على قتله ، فتعاون مع بقية الخدم على فعلتـه .

وكان الامير طفج بن جف مع خمارويه (١) فى هذه الليلة : فلما بلغه الخبر قبض على خدم القصر وكانوا نيفا وعشرين فذبحهم وصلبهم وحمل خمارويه فى تابوت الى مصر . فكان لدخوله يوم عظيم اذ استقبله الجوارى والغلمان بالصراخ والنحيب وشقوا عليه الثياب ، على ما يروى المعاصرون . وكانت مدة ملكه على مصر والشام اثنتى عشرة سنة وأيام .

من صفات وأعمال خمارويه :

وكان خمارويه على الرغم من صغر سنه كما يصفه المؤرخون طويل القامة اذا ركب جوادا بدا كما لو كان قطعة جبل ، وكان مهيبا ذا سطوة محبا للصيد فكان يخرج لصيد السباع واتخذ لها فى حديقة قصره حظائر خاصة ، ولم تكن الحديقة قاصرة على السباع ، بل ضمت شتى صنوف الحيوانات والطيور ، وانواع النباتات النادرة التى استجلبت من شتى بقاع الارض .

ولن تكمل صورة حياة خمارويه ، وما هيأ له المجتمع المصرى من أسباب الترف، الا اذا نقلنا بعضا مما أفاض فيه المؤرخون فى وصف قصر خمارويه وحديقته وبركة الزئبق الخالدة .

بسـتان خمارويه :

يقول أبو المحـاسن :

لما ملك خمارويه الديار المصرية بعد موت أبيه أقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه محاسن كثيرة ، واخذ الميدان الذى كان لابيه المجاور للجامع فجعله كله بسـتان وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم وانواع الورود ، وزرع ، فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء

(١) هو والد الامير محمد بن طغج الذى سيشتهر باسم الاخشيد .

بتدبير معين ، فكان الماء يخرج من تضاعيف قائم النخل على شكل عيون ، فينحدر الى مساك معموله ، ويفيض الماء منها الى مجار تسقى سائر البستان ، وغرس أرض البستان من الريحان المزروع على صورة نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة لئلا تشكل قراءتها على القارىء .

وكان له فى هذا البستان مجلس سماه دار الذهب ، اذ طليت حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف ، صور بارزه من خشب معمول على صورته (أى صورة خمارويه) ، وصور حظاياه والمغنيات اللاتى تغنينه فى أحسن تصوير وأبهج تزويق (١) ، وجعل على رؤوسهن الاكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفى آذانها الاقراط الثقال .. ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الاصباغ العجيبة فكان هذا القصر من اعجب ما بنى فى الدنيا .

بركة الزئبق :

وجعل بين يدى هذا القصر فسقية ملأها زئبقا وكان طولها خمسون ذراعا وعرضها كذلك . وملئت بالزئبق وقد انفق على ذلك أموالا عظيمة . وكان الاطباء هم الذين أشاروا عليه بعملها حتى يتغلب على الارق الذى كان يعيبه فكان ينام على حشية تملأ بالهواء وتوضع على الزئبق فتظل تتأرجح وهو فوقها فى هوادة ولين حتى يدركه النوم .

وكان لبركة الزئبق فى الليالى المقمرة منظر عجيب وقد ظل الناس يستخرجون الزئبق كلما حفروا فى الارض بعد خراب هذه البركة بزمن طويل .

قمة الازدهار :

وهكذا يعتبر عهد خمارويه ذروة ما وصلت اليه الدولة الطولونية من القوة والسيادة فى شتى الميادين ، سواء ميادين الفتح والغزو ، أو اتساع رقعة الحكم والنفوذ ، أو فرط الغنى والأسراف ومظاهر الترف .

وحسبه انه فاق أباه فى علاقته بالخليفة ، فحيث كان أبوه ينظر للخليفة نظرة التقديس ، فقد نظر خمارويه الى الخليفة نظرته الى زوج ابنته .

غير أن خمارويه لم يلحق أباه فى التقوى والورع والاهتمام بالعلم والادب ، ولاشك ان نقطة الضعف فى سيرته هى حياته الشخصية التى ادت الى نهايته المفجعة .

امارة أبو العساكر جيش :

فى السابع عشر من ذى القعدة من هذه السنة حكم مصر ابن العساكر جيش بن خمارويه ولم يكن عمره يوم ولى لحكم اكثر من اربعة عشر عاما ، فأقام بدمشق أياما

---

(١) استوحى خمارويه هذا اللون من الرسوم التسجيلية من آثار الملوك الفراعنة ممن سبقوه فى حكم مصر .

ثم عاد الى مصر ، وأقبل على الشراب واللهو ومخالطة بعض من وصفهم المؤرخون القدامى « بالعامة والاوباش من يحملون الحجارة الثقال والعمد الحديد ويعانون الصراع » (١) ، فحسنوا له قتل عمه فقبض عليه وأودعه السجن ، فكان طبيعيا أن ينقم عليه الناس فانفض كبار القواد من حوله ، وهاجر بعضهم الى بغداد أما قواد الشام فقد خلعوا طاعته .

٨٩٦ م — ٢٨٣ هـ : مصرع أبى العساكر جيش :

طالب الساخطون من رجال الجيش الطولونى أبا العساكر باعتزال الحكم ليولوا عمه نصرا بدلا منه فما كان من أبى العساكر الا أن دخل السجن حيث كان يوجدعمه نصر وأمر بقطع رقبته ، وبقتل عم آخر كان له وقذف برأسيهما الى المتمردين قائلا لهم هذا هو أميركم .

فأهاج هذا الصنيع الجند فهجموا على أبى العساكر وقتلوه وقتلوا أمه معه ونهبوا داره وأحرقوها .

وقد تعددت الروايات فى كيفية خلعه وموته ولكنها كلها تدور حول هذه الوقائع. وكانت مدة حكمه قرابة ستة شهور .

امـــارة هارون بن خمارويه :

فى العاشر من جمادى الثانى ولى حكم مصر هارون بن خماريه بعد مقتل أخيه ، وقد بايعه الجند بالرغم من أنه كان أصغر من اخيه ، وفى غير مقابل ، أى بدون ان يقبضوا الرواتب المعلومة عند كل تولية أمير جديد ، ويعلق أبو المحاسن على ذلك انه من الغرائب وقد بايعه الجنود جماعات جماعات لم يتخلف منهم أحد ، وعينوا من بينهم أبا جعفر بن أبى ليكون وزيرا له ومدبرا لاموره . وقد أشرك أبو جعفر ثلاثة من زملائه القواد فأصبح الحكم شركة بينهم .

وقد حاول ربيعة بن أحمد بن طولون عم هارون أن يخلع بيعته وأن ينادى بنفسه اميرا على مصر وشجعه على ذلك فريق من النـــاس ، ولكن رجال الجيش كانوا يؤثرون صبيا صغيرا فى الحكم ليظل النفوذ والسلطان بأيديهم ولذلك فقد تصدوا لربيعة : وتغلبوا عليه وقيل انهم قتلوه ضربا بالسـياط .

٨٩٩ م — ٢٨٦ هـ : تثبيت هارون بن خمارويه فى امارة مصر :

طلب هارون بن خمارويه من الخليفة المعتضد أن يجدد له الولاية على مصر

---

(١) من الواضح ان المقصـود بهذا التعبير هم من نسميهم فى العصر الحديث الرباعين « حمـلة الحديد والمصارعين » .

والشام فى مقابل أن يدفع المعتضد ٤٥٠ ألف دينار كل عام ، فأجابه الخليفة الى طلبه ، وبعث اليه تقليدا بذلك .

ومجرد التقدم بهذا العرض يدل على تدهور الاحوال فى مصر ، وفقدانها استقلالها فقد كانت الثلاثون عاما التى تم الاشتراط عليها أيام خمارويه لم تنته بعد .

ويظهر تدهور الأحوال بالاكثر فى أن حكم هارون بن خمارويه على الشام لم يكن الا اسما فقط ، فان طفج بن جف حاكم الشام بدأ يحكمه حكما مستقلا كل الاستقلال عن مصر ، حيث يتجه فى التماس التوجيه صوب بغداد لا القطائع .

٩٠٢ م — ٢٨٩ هـ : وفاة الخليفة المعتضد :

فى الثانى والعشرين من ربيع الثانى مات الخليفة المعتضد عن سبع واربعين سنة . وكانت مدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وايام . وقد وصف المعتضد بأنه كان شجاعا مهيبا أسمر نحيفا معتدل الخلق ظاهر الجبروت حتى قيل انه كان يتقدم على الاسد وحده . وتعتبر أيامه بمثابة صحوة فى خلافة بنى العباس فقد استعاد الخليفة نفوذه وسلطانه الفعلى فراح يباشر السلطات الادارية والعسكرية بنفسه ، ولم يمنعه من تفويض آخر ظل لاستقلال الطولونيين الا محافظته على العهد الذى قطعه على نفسه لخمارويه ، وحرصه على ارضاء زوجته قطر الندى التى ماتت قبل موته بفترة قصيرة .

خلافة المكتفى بالله :

فى جمادى من هذه السنة ولى الخلافة أبو محمد على المكتفى بالله ابن المعتضد بعهد من أبيه . وكانت سنه يوم ولى الخلافة احدى وثلاثين سنة . وكان يضرب بحسنه المثل فى زمانه ، اذ كان على ما يقول معاصروه معتدل القامة وردى اللون أسود الشعر حسن اللحية جميل الصورة ، وامه ام ولد تسمى خاضع .

٩٠٣ م — ٢٩٠ هـ : القرامطة يحاصرون دمشق :

كان خطر القرامطة الذين أشرنا الى مبدأ ظهورهم قد استشرى فى عهد زعيمهم الجديد ابو سعيد القرمطى الذى ضم اليه الأعراب المحيطين بالبحرين ، وراح يقتل سكان القرى المجاورة ، ممن لا يؤمنون بايمانه ولا يخضعون لطاعته ، ولكى يعطى لدعوته قوة ادعى لنفسه نسبا علويا وانه حقيق بالخلافة . ولكى يحيط نفسه بجماهير من الناس ، نزع منزعا اجتماعيا واقتصاديا اقرب ما يكون الى صورة المذاهب الفوضوية الحديثة التى تدعو الى شيوع الأموال والنساء .

وفى هذه السنة قصد سعيد القرمطى بجيشه الى بلاد الشام ، فروع سكانه ، وأستولى على بعض مدنه ، ولم يستطع طغج بن جف أمير الشام أن يرد عاديتهم بل لقد وصلوا الى حد محاصرته فى دمشق نفسها . فأرسل طغج بن جف أمير الشام يستعين بهارون بن خمارويه فاستجمع هارون بن خمارويه أو بالاحرى قواده آخر ما عندهم من موارد وقوى وبعثوا اليه بجيش على رأسه بدر الحمامى لقتال القرامطة ، ولكن القرامطة تغلبوا على هذا الجيش ودحروه .

الخليفة المكتفى يتولى حرب القرامطة :

كان طبيعيا وقد فشل الطولونيون فى صد القرامطة عن الشام . أن يسقطهم الخليفة من حسابه وأن يعتمد على جيوشه . فعهد الى محمد بن سليمان الكاتب ان يتصدى لحرب القرامطة ، وأن يتولى امرة الشام وكل ما كان بيد الطولونيين من أعمال .

وانتصر محمد بن سليمان انتصارا رائعا على القرامطة وساق عددا كبيرا من أسراهم الى بغداد حيث قتلوا فيها .

وقد شجع هذا النصر الخليفة المكتفى فعهد الى محمد بن سليمان ان يمضى الى مصر ليكون أميرا عليها وأن يسقط الطولونيين . ولم يكن محمد بن سليمان هذا الا احد رجال احمد بن طولون .

٩٠٥ م ـ ٢٩٢ هـ : سقوط الدولة الطولونية :

تضافرت الظروف كلها لانهاء الدولة الطولونية ، فهذا العجزعن رد غارة القرامطة عن الشام ، وما أدى اليه الخلاف بين أبناء الأسرة الواحدة من انفضاض قواد الجند من حولهم والتجائهم الى بغداد للتعاون معها . فقد ابى هارون بن خماروية الا أن يعجل بالنهاية عندما توقف عن دفع ما تعهد بدفعه سنويا لدار الخلافة وهو ٤٥٠,٠٠٠ دينار ـ فكان هذا القرار بعزل هارون بن خمارويه عن امرة مصر وتولية محمد بن سليمان عليها ، وتكليفه بالزحف بجيشه الى مصر .

وقد بعث محمد بن سليمان بانذار الى هارون يطلب منه التنازل عن الامارة ، والذهاب الى بغداد لبضع نفسه تحت تصرف الخليفة .

ولكن هارون بن خماروية ، أو بالأحرى حاشيته وبطانته من القواد والجند وأفراد الاسرة ، قرروا الدفاع عن حقهم . فجمع هارون ما لديه من قوات برية وسار بهم حتى بلدة العباسة على أطراف الحدود الشرقية استعدادا لمواجهة طليعة جيوش الخليفة الزاحفة والتى كانت قد تخطت مدينة الفرما . وفى ذات الوقت أبحر الأسطول الطولونى فى النيل تحت قيادة وصيف القطرميز ، ليواجه أسطول الخلافة البحرى الذى كان يرأسه دمبان البحرى .

وجرى الصدام البحرى قبل البرى ، فقد التقى الاسطولان عند مدينة تنيس فانهزم الأسطول المصرى وسقطت المدينة . وحاول الاسطول المصرى أن يقف مرة أخرى عند دمياط ولكنه انهزم مرة أخرى ، واستولى اسطول الخلافة على مراكب المصريين وأسر من فيها من الرجال والمقاتلة ، كما سقطت مدينة دمياط فى أيديهم . وزحف الأسطول العباسى حتى وصل مقابل الجيزة وجزيرة الروضة ، ولكنها وقفت عاجزة عن أن تفعل شيئا فى انتظار مقدم الجيش البرى .

مصرع هارون بن خمارويه :

واذا كان القدر قرر مصير الدولة الطولونية ، فقد كانت هذه اللحظة الخطيرة هى التى اختارها شيبان بن أحمد بن طولون ، ليستولى على الملك من ابن أخيه هاروون ، فتآمر مع بعض خدم هارون فأدخلوه عليه وهو يغط فى نومه فى خيمته وسط جيشه الذى اعده لملاقاة جيش الخليفة ، فذبحه سيبان فى فراشه .

ونادى بنفسه ملكا على مصر ، وانسحب بالجيش من العباسة متراجعا نحو الفسطاط والعسكر والقطائع ليعد وسائل المقاومة .

وكانت مدة حكم هارون بن خمارويه ثمانى سنوات وثمانية اشهرو وأيام .

امارة شيبان بن احمد بن طولون :

عجل هذا الاجراء الذى أقدم عليه شيبان بنهاية الدولة الطولونية ، فقد انحاق القواد الطولونية بعد مصرع هارون الى جيش محمد بن سليمان الزاحف فزاده قوة على قوة . كما انضم اليه الحسين بن أحمد المازراتى العارف بأحوال البلاد المالية . وما هى الا أيام قليلة حتى كان جيش محمد بن سليمان يضرب الحصار على الفسطاط والقطائع من البر والبحر .

ولأمر ما قررت الجيوش الطولونية الباقية أن لا تستسلم وأن تدافع حتى النهاية ، ولكن الخور دب الى نفس شيبان ومن بقى معه من آل بيته وخاصته فبعث الى محمد بن سليمان يعلن استعداده لتسليم نفسه مقابل المحافظة على حياته وحياة من معه ، فأجابه ابن سليمان الى طلبه . فخرج شيبان سرا وسلم نفسه ومن معه منهيا بذلك حكمه الذى بداه بالجريمة والذى لم يدم سوى بضعة أيام ، وكانت جيوشه لا تعرف بما حدث ، وظلت على تعبئتها للقتال . وعندما عرف الخبر ، فان الفرسان بادروا بالتسليم ، ولكن الجيوش البرية من المشاة وكثرتهم الغالبة من السودانيين ، أبوا الا أن يثبتوا ويواصلوا الحرب والقتال : ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله جنود لا قائد لهم . ولذلك فسرعان ما انكسروا . وبدأت الفرسان تقبض عليهم ويقودونهم بين يدى محمد بن سليمان لكى يذبحوا كما تذبح الشاة .

ودخل محمد بن سليمان الفسطاط من غير أن يمنعه مانع أو يعترضه معترض فى يوم الخميس آخر صفر .

خراب القطائع ونهاية الدولة الطولونية :

وبدأ محمد بن سليمان صفحة من أسود صفحات التاريخ الاسلامى فى مصر ، اذ يقول لنا أبو المحاسن « ان جيش محمد بن سليمان هجم على دور الناس فنهبوها ، وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم ، وفتكوا فى الرعية وافتضوا الأبكار وأسروا المماليك بل والأحرار من النساء والرجال ، وفعلوا فى مصر ما لا يحله الله من ارتكاب المآثم . ثم تعدوا الى أرباب الدولة فأخرجوهم من دورهم وسكنوها كرها وفعلوا فى المصريين ما لا يفعلونه فى الكفرة .

وأصدر محمد بن سليمان أحكامه فى الكثيرين من أهل مصر بضرب اعناقهم وقطع أيديهم وارجلهم وتمزيق ظهورهم بالسياط وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال .

وأمر فى خاتمة المطاف بحرق القطائع التى كانت حول الميدان ، ولم يعف الا الجامع وهكذا تحولت هذه المدينة المزدهرة الى خراب ويباب كأن لم تكن بالامس ، وزالت دولة بنى طولون وكأن لم تكن » .

ويرثى أبو المحاسن الدولة الطولونية فيصفها بأنها كانت من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام .

كما رثاها عشرات الشعراء الذين تغص كتب التاريخ بمختارات من أشعارهم . وقد استمرت الأسرة الطولونية ٣٧ سنة وأربعة شهور واستعادت فيها مصر أهميتها القديمة ووصلت عاصمتها الى درجة من الازدهار والثروة والترف لم تعرفها منذ الفتح الاسلامى .

مؤرخو الدولة الطولونية :

وكان طبيعيا وقد كان عصر الدولة الطولونية هو عصر ازدهار أن يخلد لنا بعض مؤرخيها المعاصرين ذكراها . وعلى رأس هؤلاء أبو جعفر أحمد بن يوسف الشهير باسم ابن الداية ، والذى قربه اليه أحمد بن طولون وخمارويه من بعده ، فأشبه أن يكون المؤرخ الرسمى للدولة . وقد بقى من كتبه لحسن الحظ « سيرة أحمد بن طولون » وكتاب المكافأة . والمطالع لهذين الكتابين يدرك أن ابن الداية لم يكن مجرد مؤرخ فحسب بل كان عالما دارسا للهندسة والفلك ، وكان فوق ذلك ذا نظر ثاقب يغوص فى صميم المجتمع المصرى ويعرض لجوانبه بعين الناقد الفاحص . كما يكشف كتاباه عن شيوع فلسفة افلاطون والمعارف الاغريقية بين المثقفين فى عصره .

اما المؤرخ الثانى فهو أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى المشهور باسم « اكيكوى » وقد حفظ لنا بين مؤلفاته « سيرة أحمد بن طولون » وهو أكثر الكتب تفصيلا عن هذه الحقبة من تاريخ مصر . وهو يلقى ضوءا على صناعة الطب ، فيحدثنا كيف كان للأطباء ازياؤهم الخاصة وكان لكل طبيب أعوانه ومساعدوه من الشاكرية

ومهمتهم دق العقاقير وعجن الادوية ونفخ النار . وكانت للأطباء وسائلهم فى الفحص والعلاج فيجسون النبض أو يفحصون الفضلات . وكانوا يحددون للمريض أنواع الأطعمة التى يأكلها ، وكان بعضهم يمارس علم النفس فى علاج مرضاه (١) .

مصر اسلامية لحما ودما :

واذا كانت مصر قد اعتبرت جزءا من الدولة الاسلامية منذ الفتح . واذا كانت الصبغة الاسلامية قد بدات تنفذ اليها بالتدريج كما رأينا ، فان الاتفاق على أن العهد الطولونى لم يكد يظل البلاد حتى كانت أغلبية سكان مصر قد أصبحت تدين بالاسلام ، بكل ما ترتب على ذلك من تغير فى العلاقات الاجتماعية وخاصة ما اتصل منها بالروابط العائلية .

المسيحية المحترمة :

على أن تحول مصر الى مجتمع اسلامى ، لم يعن أن الأقلية المسيحية قد شقيت فى ظل هذا المجتمع ، فقد ظل المسيحيون يشكلون جانبا محترما من المجتمع ، وليس أدل على ذلك من أن الدولة ظلت تشترك على أوسع نطاق فى الاحتفالات والاعياد المسيحية . كيوم أحد التسعانين وخميس العهد ــ ويوم الغطاس ــ وعيد الشهداء .

وبدأ الأقباط من ناحيتهم يتحدثون اللغة العربية ، وبدأت معاملاتهم تجرى بها ولدينا من هذا العصر عقود زواج تمت بين الأقباط باللغة العربية (٢) .

٩٠٥ م ــ ٢٩٣ هـ : انتفاضة طولونية :

لم يكد محمد بن سليمان يغادر مصر ويبعث الخليفة المكتفى بأبى موسى عيسى بن محمد النوشرى ليكون أميرا على مصر ، حتى انفصل عن جيش محمد بن سليمان اثناء عودته الى العراق قائد سابق فى الجيش الطولونى يسمى محمد بن على الخلنجى ، وعزم على احياء الدولة الطولونية ، فيمم شطر مدينة الرملة فى فلسطين وهزم واليها وأمر بالدعوة على منابرها للخليفة ومن بعده ، لابراهيم بن خمارويه بوصفه أميرا للبلاد ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائبا عن ابراهيم بن خمارويه ، وسرعان ما لقيت دعوته ترحيبا وحماسة وخاصة فى مصر فقد عز على أهل البلاد أن يعودوا من جديد ليحكموا من خارج الحدود لحساب ولاة وأمراء لم يطأوا أرض مصر .. وكان يضاعف فى مرارتهم ضد الحكم العباسى . ما ارتكبه محمد بن سليمان من فظائع وما صبه على أهل مصر من ويلات .

ولذلك فقد تسارع الكثيرون الى تأييد دعوة الخلنجى ، مما جعله يزحف بمن التف حوله نحو مصر . وعندما تصدى له عيسى بن النوشرى بجيشه عند غزة دارت

---

(١) كتاب الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ص ٢٣ .

(٢) كتاب الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ص ١٠٤ .

الدائرة على عيسى ، وانهزم عيسى وجيشه هزيمة منكرة عندما حاول من جديد أن يتصدى لجيش الخلنجي الزاحف والذى استولى على مدينتي الفرما والعريش ، وجلا عيسى النوشرى عن الفسطاط تحت ضغط أهلها فيما يبدو فدخلها محمد الخلنجي فى السادس والعشرين من ذى القعدة وسط الترحيب والأفراح .

ولكن قلة الاموال فى يد الخلنجي جعلته يتشدد فى جمعها من الاعيان والقادرين ، مما أحفظهم عليه — ويقول أبو المحاسن بصدد حركة الخلنجي : وأمر محمد هذا من اعجب العجائب ، فقد اراد أن يأخذ بثأر بنى طولون والانتصار لهم على ما وقع من محمد بن سليمان فوقع منه أضعاف ما وقع من محمد بن سليمان . ولذلك فعندما بعث الخليفة المكتفى بجيش جديد جمعت عساكره من العراق وسوريا وفلسطين ، فقد انفضت عساكر الخلنجي عنه اذ أيقنوا بقرب هزيمته . وانتهى أمره بأن قبض عليه . بعد أن دام ما وصف بأنه عصيان وتمرد سبعة أشهر واثنين وعشرين يوما .

٩٠٥ م — ٢٩٣ هـ : امارة عيسى النوشرى الثانية على مصر :

فى الخامس من رجب عاد عيسى النوشرى الذى كان طوال المدة السابقة مرابطا فى الصعيد ، ببعض جنوده وبصحبته الحسين المزدوانى ، فدخل الفسطاط مبتدئا بذلك أمارته الثانية على الصلاة ، والمازردانى على الخراج . وكانت أحوال مصر خلال هذه المدة قد ساءت وتدهورت نتيجة ما أصابها على يد محمد بن سليمان من حرق لمدينة القطائع وقتل وتشريد ، وما أعقب ذلك من حركة الخلنجي

٩٠٧ م — ٢٩٥ هـ : وفاة الخليفة المكتفى :

فى شهر ذى القعدة من هذه السنة مات الخليفة المكتفى بالله أبو محمد على بن المعتضد ، وكانت سنه عندما مات احدى وثلاثين سنة ، حكم منها ست سنوات ونصف . وقد خلف وراءه فى بيت المال خمسة عشر مليون دينار ، وهذا الرقم ان دل على شيء فانما يدل على أنه تابع الصحوة التى بدات فى عهد ابيه .

الخليفة جعفر المقتدر :

بويع بالخلافة بعد موت المكتفى أخوه جعفر المقتدر ولم تكن سنه يوم بويع بالخلافة تزيد على ثلاثة عشر عاما فكان بذلك أصغر من ولى الخلافة منذ تأسست .

٩٠٩ م — ٢٩٦ هـ : عزل الخليفة المقتدر وعودته ثانية :

لم يرض بعض القواد عن صغر سن الخليفة ، وما ظهر على الفور من تسلط أمه على شئون الحكم فقر قرارهم على خلعه وتولية عبد الله بن المعتز شاعر بنى العباس

المشهور ، فوافقهم على ذلك شريطة أن يتم الامر بغير انقلاب أو سفك دماء وعن رضا واجتماع حكمة ، فأجابوه الى شرطه وبايعوه .

ولكن نونا الخادم أحد القادة ، لم يوافق على خلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز ولذلك فقد قبض عليه هو ومن ساعده على تولى الخلافة وقتله في نفس اليوم ، فكانت مدة خلافته على ما يقول الطبرى يوما بل نصف يوم ، وهى أقصر مدة حكمها خليفة أو ملك ــ وأعيد الخليفة المقتدر لمباشرة سلطانه الاسمى .

٩١٠ م ــ ٢٩٧ هـ : امارة بن عبد الله على مصر :

مات فى هذه السنة عيسى النوشرى أمير مصر فولى الخليفة المقتدر تكين بن عبد الله الحربى الصلاة فى مصر ، فدخلها فى الثانى من ذى الحجة من هذه السنة .

وكانت مهمته الاولى بمجرد وصوله الى مصر أن يعمل على اتقاء هذا الخطر الجديد الذى بدأ يهدد مصر من الغرب ، ونعنى به خطر الفاطميين .

ظهور الدولة الفاطمية :

خرج عبيد الله المهدى الفاطمى متخفيا من بلاد الشام ، مضمرا فى نفسه أن يدعو وأن يخلع حكم العباسيين فوفد الى مصر فى بادىء الأمر واستقر بها يدعو لنفسه فوصل نبأه الى الخليفة العباسى ، فبعث الى أمير مصر أن يقبض عليه ، ولكن عبيد الله أستطاع أن ينجو بنفسه ، وسار الى برقة وشمال أفريقيا حيث كان عبد الله الشيعى يدعو له ويمهد الطريق لقيام حكم شيعى . وقد استطاع عبد الله الشيعى أن يقهر آخر ملوك الاغالبية فى القيروان ويستولى عليها ، عام ٢٩٦ هـ . وجاء عبيد الله المهدى من سلجماسه من المغرب الاقصى ونزل فى القيروان ، ونادى بنفسه خليفة للمسلمين وتلقب بالمهدى وهكذا قامت الخلافة الفاطمية .

ولم يكد عبيد الله المهدى يستقر فى القيروان حتى شرع يضع الخطط لغزو مصر . ورأى تكين أمير مصر أن يبادر المهدى فبعث اليه من برقة التى كانت تابعة لمصر بجيش تحت قيادة أبو اليمن لمحاربته والقضاء عليه ، ولكن حباسة بن يوسف قائد المهدى هزم أبا اليمن واستولى على برقة وبذلك أصبح على حدود مصر .

٩١٤ م ــ ٣٠٢ هـ : هجوم الفاطميين الاول على مصر :

واصل حباسة بن يوسف الزحف على مصر بجيشه الذى انتصر به ، فوصل الى مدينة الاسكندرية على رأس مائة الف مقاتل . فبعث تكين بجيش جديد ليحارب الجيش الزاحف .. ولكن الجيوش الفاطمية انتصرت مرة أخرى ، فدخلت جيوش المهدى الى مدينة الاسكندرية فى الاول من محرم من هذه السنة .

ووصل مدد من الخليفة المقتدر الى تكين ، فسار على راس الجيش وحارب حباسة بن يوسف فهزمه واجلاه عن الاسكندرية وبرقة كلها . وعاد حباسة ومن بقى من عساكره مهزوما فى اسوأ حال الى المهدى ، فقتله المهدى عقابا على هزيمته .

٩١٥ م ـ ٣٠٣ هـ : امارة ذكا الرومى على مصر :

كان مؤنس الخادم قد وفد على مصر على سبيل النجدة لتكين ، ولكنه لم يكد يصل الى مصر ، حتى كان تكين قد احرز نصره المؤزر على الفاطميين ، ولم يعدفى حاجة لعون مؤنس الخادم . ويبدو ان توشا الخادم نعص على تكين ما حصل عليه من نصر ، او كانه تخوف من ان يثير هذا النصر فى نفس تكين الاطماع ، فاقترح على الخليفة عزل تكين عن امرة مصر ، فاجابه الى طلبه وعزل تكين ـ وعين بدلا منه ذكاالرومى ، فوصل الى مصر فى الثانى من شهر صفر من هذه السنة اميرا على الصلاة . أما الوالى على الخراج فقد ظل هو ابو الحسين بر احمد المازرانى المعروف بأبى زنبور وهو الذى نكث بيعته للطولونيين وانضم الى محمد بن سليمان . وكان أهم ما عنى به ذكا هو الكشف عن عيون الفاطميين فى مصر ومن يكاتبونهم من سكانها ، فقبض على الكثير منهم وفعل بآخرين بأن قطع ايديهم وأرجلهم باعتبارهم مفسدين فى الأرض .

كما عنى باعادة تحصين مدينة الاسكندرية ، بعد أن اظهرت التجربة السابقة سهولة استيلاء الفاطميين عليها .

بناء مدينة المهدية :

على ان الفاطميين انفسهم كانوا يزدادون قوة وسلطانا ، وانتقلت اليهم السيادة على جزيرة صقلية وسائر الجزر التى تفصلها عن الساحل الافريقى ، ولذلك فقد اقدموا وهم مطمئنون على بناء عاصمة ملكهم المهدية على شاطىء البحر مباشرة والتى اصبحت تحميها اساطيلهم .

وفاة الامام النسائى صاحب السنن :

ومات فى هذه السنة الامام عبد الرحمن النسائى صاحب السنن والذى تعد سننه داخل كتب الحديث الخمسة صاحبة الاعتبار والتى تبدأ بالبخارى كما قدمنا ويظهر ان النسائى اقام بمصر مدة طويلة حتى اصبح ينسب اليها فالدار قطنى على ما روى ابن كثير فى البداية والنهاية يقول عنه انه دفن مشايخ مصر فى عصره . وقد بارح مصر عام ٣٠٢ هـ وقام بالرملة فى فلسطين حيث مات بها ، ولكنه دفن فى بيت المقدس (ابن كثير) .

۱۹۱۹ م ـ ۳۰۷ هـ : امارة تكين الثانية على مصر :

مات ذكا الرومى امير مصر بعد ان كانت العلاقات قد ساءت بينه وبين الرعية فقد أوثر عنه أنه يسب الصحابة ، ويسب السلطان وعاود الفاطميون غاراتهم على مصر اذ بعث الخليفة عبيد الله المهدى بجيش جديد تحت قيادة أبنه ابى القاسم لاحتلال مصر . فنجح فعلا فى احتلال الاسكندرية اذ دخلها فى الثامن من شهر صفر من هذه السنة ، فاصيب الناس بالهلع ، ولكن الخليفة اعاد تكين اميرا على مصر ، فاطمأنت الخواطر .

ودارت معركة طاحنة بين تكين وقواته وبين جيش الفاطميين تحت قيادة أبى القاسم : فانتصر تكين ، ولكن فلول الفاطميين لاذت بالصعيد وتمكنت من احتلال الفيوم .

۹۲۱ م ـ ۳۰۹ هـ : امارة أبو قابوس محمود على مصر :

أوفد الخليفه مؤنس الخادم على رأس جيش الى مصر لمحاربة الفاطميين : واستطاع تكين بهذا المدد الجديد ، ان ينجح فى طرد فلول الفاطميين بعد عديد من المعارك من الاراضى المصرية ، وانسحب ابو القاسم محمد بن المهدى بعساكره من برقة .

وعلى الرغم من هذا النجاح ، فقد عاود مؤنس الخادم عدم اطمئنانه لتكين ، او غيرته منه : فعزله للمرة الثانية عن امرة مصر وعين عليها ابا قابوس محمود فى يوم الاحد العاشر من ربيع الاول .

فاستاء المصريون من هذا التصرف : وحذر قواد الجند مؤنس الخادم من مغبة هذا الامر ، فأسرع الى عزل قابوس من الامارة واعاد لها تكين ، فلم تزد امارة ابو قابوس عن ثلاثة أيام .

امارة تكين الثالثة على مصر :

عاد تكين للامارة للمرة الثالثة ، ولكن مؤنس الخادم لم يعده الا على مضض ، ولكى يكسب وقتا يدبر فيه عملية اخراج تكين من مصر كلها ــ ولذلك فلم يكد يحكم تدبيره باتفاق مع قادة الجند ، حتى عزل تكين للمرة الثالثة لم يكن مضى على امرته الجديدة سوى أربعة أيام . وبعث به صحبة اربعة آلاف جندى الى بغداد ، وكتب الى الخليفة يبلغه بما اتخذه من اجراءات ، ولم يكن الخليفة يملك الا الموافقة فبعث الى مصر أميرا جديدا هو هلال بن بدر .

امارة هلال بن بدر على مصر :

ولى الخليفة المقتدر الامير أبو الحسن هلال بن بدر على مصر ، فدخلها فى يوم الاثنين السادس من ربيع الثانى من هذه السنة ، وكانت امرته على الصلاة : وجعل

على شرطته ابن طاهر . وقد حمل هلال بن بدر معه كتابا من الخليفة الى مؤنس الخادم يدعوه فيها الى العودة الى بغداد ، فغادر مصر بعد أيام من وصول ابن بدر .

٩٢٢ م — ٣١٠ هـ : وفاة أبى جرير الطبرى :

مات فى هذه السنة العالم المشهور صاحب التاريخ الخالد ، والتفسير الجامع محمد بن جرير أبو جعفر الطبرى ، وكانت سنه يوم مات ستا وثمانين سنة .

وقد وصفه أبو المحاسن أنه كان أحد ائمة العلم : يحكم بقوله ويرجع الى رأيه ، وكان متفننا فى علوم كثيرة ، وكان واحد عصره ، قال عنه أبو بكر الخطيب : جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظا لكتاب الله ، بصيرا بالمعانى : فقيها فى أحكام القرآن ، عالما بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ، بصيرا بأيام الناس واخبارهم — له الكتاب المشهور فى تاريخ الامم وكتاب التفسير وله فى الاصول والفروع كتب كثيرة .

ذلك ما قاله عنه الاقدمون ، ومن ناحيتى فطالما اعتبرت الطبرى آية من آيات الشموخ الانسانى ، وحسب الانسان فقط ان ينظر الى تاريخه ليسائل نفسه كيف وجد من الوقت والقدرة ليخطه بيمينه : فكيف والكتاب هو بعض ما ألف .. هو ليس مجرد كتابة ، وانما هو موسوعة علم التاريخ فى عصره .

٩٢٣ م — ٣١١ هـ : امارة أحمد بن كيلغ الأولى على مصر :

لم تستقر الاحوال فى مصر خلال امارة هلال بن بدر . فقد كان المصريون فيما يبدو يتعلقون بتكين .. وبدأوا يأنفون من تبديل الولاة وتغيرهم بهذه السرعة فأعلن فريق منهم التمرد على هلال بن بدر ، وانضم اليهم فريق من الجند واجمعوا على قتاله ، فدارت رحى معارك فى أرجاء البلاد بين خصومه ومؤازريه ، وكانت هذه المعارك على حساب أهل البلاد ، اذ كثر النهب والسلب من هذا الجانب وذاك ، ونشأ الفساد وقطع الطريق ، فضج المصريون بالشكوى من هلال بن بدر ، وانصاع الخليفة الى شكاتهم فعزله وبعث اليهم بأحمد بن كيلغ أميرا على الصلاة . ومحمد ابن الحسين المازرانى عاملا على الخراج .

ولكن أحمد بن كيلغ لم يكن بأوفر حظا من سابقه ، فقد ثار الجند فى وجهه ، واضطر الى الهرب من الفسطاط والاقامة فى مدينة فاقوس ، وظل مقيما بها حتى عزل من امرته هذه المرة .

ولم يجد الخليفة المقتدر بدأ فى خاتمة المطاف من ان يعيد الى مصر الرجل الوحيد الذى يرضى به المصريون والذى نشأت الفتن بسبب عزله وهو الامير تكين .

٩٢٤ م ـ ٣١٢ هـ : امارة تكين الرابعة على مصر :

وصل تكين الى مصر يوم عاشوراء من هذه السنة ولم تلبث أن ظهرت مقدرته ومهارته فى ادارة دفة الامور ، فبدأت احوال البلاد تستقر من جديد ، ويعود اليها الامن والنظام . وتدل سلسلة التغييرات التى اجراها تكين فى متولى الشرطة ، على مدى حساسيته من ناحية الادارة ووضع الرجل الصالح فى المكان الصالح ، حيث لم يتردد فى عزل ابنه فراتكين بعد أن كان قد ولاه هذا المنصب عندما وجده غير قادر على شغله كما عزل من قبله ومن بعده كل من لم يجده صالحا .

٩٢٩ م ـ ٣١٧ هـ : خلع الخليفة المقتدر للمرة الثانية وعودته للخلافة :

انقلب مؤنس الخادم على سيده المقتدر فى الخامس عشر من المحرم من هذه السنة فخلعه من الخلافة ، وجيء بمحمد بن الخليفة المعتضد فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالقاهر . ووقع النهب فى دار الخلافة ، واختبأ المقتدر عند أمه . على أن الخليفة الجديد عجز عن تدبير الاموال اللازمة للجند فى مثل هذه الظروف ، فثاروا عليه وخلعوه ولم يحكم سوى ثلاثة أيام ، واعادوا المقتدر للمرة الثالثة : وليس هذا بأغرب على ما يقول أبو المحاسن من خلعه فى المرة الأولى عندما عزل نصف نهار .

فتنة أبو طاهر القرمطى فى مكة :

وفى ذى الحجة من هذه السنة وقع هذا الحادث المؤسف فى تاريخ الدولة الاسلامية ، وكم فيها من الحوادث المؤسفة ، عندما قصد أبو طاهر القرمطى الى مكة فى موسم الحج فقتل الحجاج فى يوم الدينونة وملأ بجثثهم مكة وساحة الحرم المكى نفسه ، وقتل ابن محارب امير مكة : وعرى الكعبة من استارها كما قلع باب الكعبة ، وزاد على ذلك كله فاقتلع الحجر الاسود من مكانه وسلبه ، وطرح القتلى فى بئر زمزم ليردمها بالجثث ـ وعاد بعد ان خضب ارض البلد الحرام فى الشهر الحرام بدماء المسلمين ، الى مقر حكمه فى هجر مصطحبا معه الحجر الاسود ، حيث ظل فى منفاه : الى ان رد الى مكانه فى خلافة المطيع كما سيأتى .

ويعتبر هذا الاعتداء هو منتهى ما وصل اليه أبو طاهر من سلطان لم ينله أبوه او جده من قبل .

ولقد جرت بينه وبين عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى المراسلات ، فبدا أبو طاهر يدعو لعبيد الله ليضفى على نفسه وعلى اعماله صفة شرعية .

٩٣٢ م ـ ٣٢٠ هـ : مصرع المقتدر :

كان لابد للصراع بين مؤنس الخادم وبين الخليفة المقتدر ان ينتهى بموت احدهما ، ولكن الغلبة كانت لمؤنس الخادم ، اذ تغلب على الخليفة فى المعركة التى

دارت بينهما فى بغداد وقتل الخليفة وقطعت رأسه وحملت على رمح للتشهير بها .

وكانت سنه يوم قتل ثمانية وثلاثين سنة وشهرا وأياما حكم منها خمسا وعشرين سنة ، وان لم يكن له فى أكثرها من الحكم سوى الاسم اذ كان اغلب التصرف هو لمؤنس الخـادم كما رأينا .

ويوصف عهد المقتدر فى التاريخ بأنه العهد الذى غلبت عليه النسـاء . فقد كانت أمه « شـغب » صاحبة سلطان وصل الى حد أن عينت احـدى قهرماناتها للجلوس للناس مجلس القضاء لتنظر فى المظالم وتقضى فيها . وكان دخلها من املاكها على ما يقول ابن كثير مليون دينار فى العام ، فكانت تتصدق بالجزء الأكبر منه ـ ويصفها بأنها كانت فى غاية الحشمة والرياسة ونفوذ الكلمة .

وتفيض كتب التاريخ الأوربية بالاشارة الى المقتدر والى مدينة بغداد فى عصره وما كانت عليه من عظمة وغنى وازدهار اقتصادى وعلمى ـ ذلك أن سفارة بيزنطة وفدت الى بغداد فى عهد المقتدر فاستقبلت اسـتقبالا حافلا ، حرص فيه الخليفة على التأثير فى البيزنطيين باظهارهم على مدى قوة المسلمين وغناهم ، فكان هذا الاسـتقبال الذى تسهب عشرات من صفحات الكتب الأوربية فى وصفه .

الخليفة القاهر بالله :

بويع محمد بن المعتضد بالخـلافة بعد مصرع المقتدر فى الـثامن والعشرين من شوال وهو ابن خمس وثلاثين سنة . ولم يكن عليه يوم أحضر للبيعة الا قميصان ورداء ، فطلب أن يلبس من الثياب التى تناسب الجلوس للعامة وسيف ومنطقة ـ فلم يوجد عنده ما يصلح لذلك ، فنزع بعض الحاضرين ملابسه ليرتديها الخليفة .

٩٣٣ م ـ ٣٢١ هـ : امارة محمد بن طفج الأولى على مصر :

مات تكين فى ربيع الأول من هذه السنة بعد أن ظل أميرا على مصر هـذه المـرة تسع سنوات وأربعة أشهر . ولابد أن يكون المصريون قد حزنوا عليه ، فقد كان على ما يصفه معاصروه أميرا شجاعا على دراية بالحرب وفى نفس الوقت صاحب سياسة وكياسة ورفق بالرعية . وقد عهد قبل موته بامارة الصلاة لابنـه محمد بن تكين . ولما مات تكين حمل فى تابوت الى بيت المقدس فدفن فيه . وكان العامل على الخراج فى هذه الفترة أبو بكر محمد بن على المزرانى ، وكان قد بلغ من السلطة والنفوذ الى الحد الذى جعله يقوم على ادارة البلاد كلها تقريبا ، فشغب عليه الجند واحرقوا داره ودور أهله ، ولكن أبو بكـر كان قـد بلغ من قـوة السـلطان ما جعـله بالرغم من ذلك يطالب من محمد بن تكين أن يبارح مصر ، وان ينصاع محمد بن تكين لطلبه فينسحب الى دمشق .

وعين الخليفة فى هذه الأثناء على أمرة مصر محمد بن طفج بن جف ، فورد الخبر بذلك الى مصر فى السابع من رمضان من هذه السنة فدعى له على منابرها ، ولكن اضطراب الاحوال فى مصر لم يتح له فرصة دخولها ، فعزل بعد أثنين وثلاثين يوما .

امارة محمد بن كيغلغ الثانية على مصر :

اعاد الخليفه القاهر احمد بن كيعلغ على امرة الصلاة فى مصر ، فوصل رسوله بهذا الأمر فى التاسع من شهر شوال واستخلف أبا الفتح بن عيسى النوشرى على مصر نيابة عنه ولكن الجند شغبوا عليه فى طلب ارزاقهم واشتدوا فى طلبهم على المازرانى صاحب خراج مصر فاستتر منهم ، فأحرقوا داره للمرة الثانية ودور أهله ، ووقعت فى البلد فتنة عظيمة ومعارك قتل فيها جماعة كثيرة من المصريين .

٩٣٤ م ــ ٣٢٢ هـ : محمد بن تكين يحاول الاستيلاء على السلطة :

انتهز محمد بن تكين فرصة هذه الأحداث الجارية فى البلاد لكى يكون أميرا على مصر ، فوفد عليها من فلسطين فى الثالث عشر من جمادى الأولى ، ولكن المازرانى صاحب خراج مصر والذى كان مختفيا ، سرعان ما ظهر وتصدى لمحمد بن تكين منكرا عليه امرته غير الشرعية على مصر فانقسم المصريون الى حزبين ، حزب يدعو لمحمد بن تكين ، وحزب يدعو لأحمد بن كيغلغ ، واستمر القتال بين الحزبين حتى وصل الى مصر أحمد بن كيغلغ فى الثالث من شهر رجب ، فقوى الحزب المناصر له ، وانفض الكثيرون من حول محمد بن تكين . وفى هذا الوقت جاء الخبر بخلع الخليفة القاهر ومبايعة أبو العباس الراضى ، فعاد محمد بن تكين للظهور واعلن أن الخليفة الراضى قد ولاه مصر ، فنشب القتال من جديد بينه وبين احمد بن كيغلغ ودارت الدائرة على محمد بن تكين ، فقبض عليه ، وجيء به الى احمد بن كيغلغ الذى نفاه الى الصعيد .

خلع الخليفة القاهر بالله :

فى الثالث من جمادى الأولى من هذه السنة ، خلع الخليفة القاهر بالله بعد ان سملت عيناه حتى سالتا على خديه ، وكان السبب فى خلعه وسمل عينيه هو خوف قادة الجند منه ، فعلى قصر المدة التى ولى فيها الخلافة ، فقد قتل الكثيرين ممن رفعوه الى العرش وعلى راسهم مؤنس الخادم الذى كان قد شارف التسعين عند قتله . فخافه كل من حوله ، وراح الوزير ابن مقلة يحرض الكافة على التخلص منه . فكان أن هاجمه الجند وقبضوا عليه وفعلوا به ما أشرنا اليه .

يقول الصولى : كان القاهر أحمق سفاكا للدماء محبا للمال قبيح السيرة كثير التلون والاستحالة مدمنا على شرب الخمر فاذا شربها تغيرت أحواله وذهب عقله .

خلافة الراضى بن المقتدر :

بويع بالخلافة بعد خلع القاهر ابن اخيه الراضى بالله أبو اسحق محمد بن الخليفة المقتدر . وقد استدعى فور توليه الخلافة ابن مقلة فولاه الوزارة ، ثم ولى الراضى ابنيه على المشرق والمغرب ، على أن يكون ابن مقلة وزيرها فعظم شأنه حتى استقل بتدبير الدولة .

وفاة الخليفة الفاطمى عبيد الله المهـدى :

وفى هذه السنة مات مؤسس الدولة الفاطمية أبو محمد عبيد الله المهدى ــ فقام بأمر الخلافة من بعده ولده أبو القاسم ولقب بالخليفة القائم بأمر الله .

وقد اختلف فى نسب المهدى ، نتيجة العداء بين السنة والشيعة : وبين العباسيين والفاطميين ، فالعباسيون ومن كتبوا لهم يصفونه بالتزوير والادعاء ، حتى ليجعلوا اباه يهوديا كان يشتغل بحرفة الصياغة . اما دعاة الفاطميين فهو عندهم عبيد الله بن الحسين محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب .

انقســـام الشـــيعة :

وقد كانت الشيعة على اتفاق فيمن يلى الخلافة من أبناء على بن أبى طالب جيلا بعد جيل ، فكان الحسن ثم الحسين ، ثم على زين العابدين تم محمد الباقر ، ثم جعفر الصـــادق .

وبوفاة جعفر الصادق انقسمت الشيعة الى فرق كثيرة ولكن كان أهمها واكبرها فــرقتين :

فرقة جعلت الامامة فى ابنه موسى الكاظمى ثم فى الائمة من بنيه الى الامام الثانى عشر الحسن العسكرى وهذه الفرقة تعــرف بالامامية الاثنى عشر ومعظم اتباعها الآن فى ايران والعراق . والفرقة الثانية جعلت الامامة بعد وفاة جعفر الصادق فى ابنه اسماعيل ثم فى ابنه محمد بن اسماعيل ثم ابنه جعفر الصادق ثم ابنه محمد الحبيب : والى هذا الاخير ينسب عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية ، ولذلك سموا بالاسماعيلية نسبة الى راس فرعهم اسماعيل بن جعفر الصادق .

الفصل الحادى عشر

الدولة الأخشيدية

٩٣٥ م – ٣٢٣ هـ : امارة محمد بن طغج الثانية على مصر :

دخل محمد بن طغج الى مصر فى الرابع والعشرين من رمضان من هذه السنة ليكون أميراً على مصر . ولم يكن أمر توليه الامارة هينا . أو عملا روتينيا . فقد تصدى له محمد أبو بكر المازرانى الذى كان حاكما فعليا على مصر من خلال توليه أمر الخراج . وحرض محمد بن كيغلغ على ان يحول بين محمد بن طغج ودخول مصر . وهذا العمل يكشف عن مدى نمو الروح الاستقلالية فى أمراء مصر ، وضعف الخلافة .

وقد سار أحمد بن كيغلغ بجيشه حتى وصل مدينة الفرما ولكن محمد بن طغج استطاع أن يهزم هذا الجيش ويحمله على التراجع ، فى الوقت الذى كان محمد بن طغج قد سير أسطولا بحريا فى نهر النيل كما فعل محمد بن سليمان من قبل فوصل الى الفسطاط . وهكذا وصل محمد بن طغج بجيشه البرى والبحرى معا الى الفسطاط فاستسلم أحمد بن كيغلغ واعتذر عن موقفه بحجة ان الجنود غلبته على أمره . واختفى أبو بكر محمد بن المازرانى صاحب الخراج من وجه محمد بن طغج فى الوقت الذى اظهر فيه ابنه الحسين بن محمد المازرانى خضوعه لمحمد بن طغج . وهذا العمل يكشف عما وصلت اليه أسرة المازرانيين سواء فى مصر أو بغداد نفسها من دهاء ومكر ليظلوا مشاركين فى الأحداث مهما تغيرت الظروف والأحوال .

محمد بن طغج يوطد دعائم حكمه :

كان دخول محمد بن طغج بهذا الأسلوب على رأس جيش برى وبحرى . ايذانا بانه يدخلها دخول الفاتح . لا الامير التابع وشرع منذ اللحظة الأولى يعمل على توطيد سلطانه مستخدما حسن السياسة والتدبير ، وكان له من قدرته الحربية وشخصيته القوية ، ما غرس مهابته فى قلوب المحيطين به ، مما جعله يصبح الحاكم الفرد والمرجع النهائى فى كل ما يتصل بمصر .

٩٣٦ م ــ ٣٢٤ هـ : غارة جديدة للفاطميين على مصر :

لجأ فريق ممن هربوا من مصر عقب انتصار محمد بن طغج الى الخليفة الفاطمى وزينوا له فتح مصر ، فبعث معهم بجيش لفتحها فوصل الجيش الى الاسكندرية ، ولكن محمد بن طغج بادر بارسال جيش تحت قيادة أخيه الحسن بن طغج لصدهم . وقد تلاقى الجيشان عند قرية من قرى البحيرة فدارت الدائرة على الفاطميين ، وفرت فلولهم عائدة الى برقة .

وغير الخليفة الفاطمى من أسلوبه مع الاخشيد بعد ان رأى شدة بأسه ويقظته ، فاصطنع معه سياسة الود والصداقة ، فكتب اليه يحسن له الانسلاخ من الخليفة العباسى والدعوة له .

وقابل محمد بن طغج هذا العرض بما فى طبعه من دهاء ، فهو وان ظل شديد الرغبة فى أن يقطع علاقاته مع بغداد ، فقد كان حريصا كذلك على مداراة هذه القوة الفاطمية الصاعدة . ولذلك فقد رد على الود بود مثله حتى لقد عرض على الخليفة الفاطمى أن يزوج ولى عهده من ابنته .

٩٣٨ م ــ ٣٢٧ هـ : لقب الأخشيد :

كان لانتصار محمد طغج على الفاطميين وردهم عن مصر دويا بالغا فى بغداد ، وقد كان له فيها حليفا ونصيرا وصهرا وهو الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات . فرأى الخليفة تحت تحريضه ان يعترف لمحمد بن طغج بمركزه الممتاز الذى أحرزه ، فأرسل الخليفة الراضى مع ابنه الفرات الى محمد بن طفح بالخلع السنية اظهارا لفضله ، مع الاذن له بأن يتسمى باسم الأخشيد وهو لقب باللغة الفرغانية التى ينتسب اليها اجداد ابن طغج وتعنى كلمة الملك كما تعنى كلمة كسرى فى الفارسية وقيصر فى الرومية وفرعون فى المصرية .

منشأ الأسرة الاخشيدية :

كان جف التركى جد محمد الأخشيد ممن استجلب للمعتصم من المماليك الأتراك ، فجعله من بين قواده ، ولما مات جف اتصل ابنه طغج بالأمير احمد بن طولون فكان من اكابر قواده ، وقد ولاه امرة الشام . فلما قتل خمارويه سار طغج الى الخليفة المكتفى ، فأكرمه فى بادىء الأمر ، ولكنه لم يلبث ان انقلب عليه فأودعه السجن هو وابنه محمد ، فلما مات طغج خرج محمد من السجن فاتصل عمله بنكين القائد التركى ووفد معه الى مصر وولى له بعض الأعمال ، وابلى الى جواره بلاء حسنا فى مدافعة الفاطميين عن البلاد ، وظل يتدرج فى المناصب حتى اصبح اميرا على الشام ثم اضيفت له امرة مصر .

بناء جيش مصرى :

ولما كان الأخشيد قد اتخذ من ابن طولون الذى كان معجبا به نبراسا ، فانه احتذى خطاه فى تكوين جيش يكون ولاؤه له ، ويبالغ المؤرخون فيجعلون عدة هذا الجيش أربعمائة الف مقاتل . وهو رقم يدل على اية حال على أن الأخشيد قد بنى لنفسه جيشا قويا كبير العدد والعدة .

ومضى الأخشيد بعد ذلك يحيط نفسه بمظاهر الملك فى مجلسه وملبسه ومركبه وموكبه .

وبنى لنفسه قصرا سرعان ما أصبح بلاطا كبلاط الخليفة يغص بالكبراء والشعراء والعلماء والأدباء والأطباء .

٩٣٩ م ـ ٣٢٨ هـ : اصطدام الأخشيد بابن رائق أمير الأمراء :

كان الخليفة الراضى قد رفع محمد بن رائق الى مرتبة امير الأمراء ، فتطلع ابن رائق الى وضع يده على دمشق التى كانت فى سلطان الأخشيد ، فوقع الصدام بين الرجلين وجرت بينهما معارك لم تكن حاسمة . وقد قتل فى احد هذه المعارك الحسين بن طغج أخ الأخشيد فانتهز ابو رائق هذه الفرصة لكى يحسن علاقاته مع الأخشيد فكفن الحسين بن طغج وجهزه احسن جهاز وبعثه مع ابنه الى الأخشيد معبرا له عن عظيم اسفه لمصرع اخيه ، ويعرض عليه دم ابنه ليكون فداء للامير المقتول ، فرد الأخشيد على هذه التحية بأحسن منها ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين . وانتهت بتقسيم الشام بين ابن رائق والأخشيد ، فيكون لابن رائق القسم الشمالى ويحتفظ الأخشيد بالجزء الجنوبى بما فى ذلك دمشق على ان يدفع الأخشيد مائة واربعين الف دينار سنويا لابن رائق . ولتوطيد دعائم هذا الصلح ارتبط الطرفان برباط المصاهرة فتزوج مزاحم بن محمد بن رائق من فاطمة بنت الأخشيد .

٩٤١ م ـ ٣٢٩ هـ : وفاة الخليفة الراضى :

فى الخامس عشر من ربيع الأول توفى الخليفة الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ، وكان عمره يوم مات احدى وثلاثين سنة وعشرة أشهر حكم منها ست سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام . وكان أسمر رقيق السمرة اسود الشعر قصير القامة نحيف الجسم . وكان فصيحا بليغا جوادا ممدوحا . وقد اعتبر آخر الخلفاء الذين انفردوا بتدبير الجيوش والأموال . وآخر من خطب من الخلفاء على المنابر يوم الجمعة وآخر خليفة له شعر وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل اليه الندماء وكانت نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته ومخازنه ومطابخه وخدمه وأصحابه وأموره كلها تجرى على ترتيب المتقدمين من الخلفاء .

خلافة المتقى بالله :

لما أن مات الراضي جمع الأمير بجكم امير الأمراء الفضـــــاة والأعيان في دارة وتشاوروا فيمن يولون عليهم ، فاتفق رأيهم على المتقى ، فأحضروه في دار الخلافة وأرادوا مبايعته فصلى ركعتين صلاة الاستخارة وهو على الأرض ثم صعد على الكرسى بعد الصلاة وبايعه الناس يوم الأربعاء ٢٠ ربيع الأول وكان المتقى كلقبه كثير الصيام والتعبد . وقال بمجرد ان ولى الخلافة : « لااريد جليسا ولا مسامرا حسبى المصحف نديما » فانقطع عنه الجلساء والسمار والشعراء والوزراء والتفوا على الأمير بجكم .

٩٤٢ م ٣٣٠ هـ : احتلال الأخشـيد للشـام :

انتهز الأخشيد قتل محمد بن رائق أمير الأمراء وتولى بجكم امير للامراء ، لكى يسترد الشام فزحف عليه بجيوشه فلم يعترضه معترض وأسرع ولاة المدن باظهار الطاعة له وهو ما يدل على مدى ما كان الأخشيد قد وصل اليه من القوة .

٩٤٣ م ـ ٣٣١ هـ : مبايعة أبى القاسم انوجور وليا على عهد مصر :

ومضى الأخشيد في ممارسة مظاهر الاستقلال الفعلى وان ظل كابن طولون من قبله متمسكا بالرباط الرسمى مع الخلافة في بغداد . فدعا الى ولاية العهد لابنه أبو القاسم انوجور من بعده على مصر والشام بدون ان يرجع في ذلك الى الخليفة .

٩٤٤ م ـ ٣٣٢ هـ : الأخشيد والخليفة يلتقيان على نهر الفرات :

كان الخليفة المتقى قد عين توزون التركى اميرا للامراء في بغداد بعد بجكم الذى كان قد مات عام ٣٣٠م . ولم تلبث العلاقات ان ساءت بين المتقى وتوزون . فبعث المتقى بالله يستنجد بالأخشيد ويعلمه انه سائر للالتقاء معه في مدينة الرقة . فخرج الأخشيد على راس جيش للاقاه الخليفة . وقد التقى الرجلان على نهر الفرات ، ولكن الأخشيد الحذر أوعز الى الخليفة أن يكون هو الذى يعبر النهر اليه . ولم يكد الخليفة يقدم على هذه الخطوة . حتى حرص الأخشيد من ناحيته على اظهار منتهى الخضوع للخليفة . في الوقت الذى غمره فيه بالأموال والهدايا النفيسة من الجواهر والطيب والمنسوجات والدواب ، مما سر خاطر الخليفة وجعله يقرر استمرار ولاية

الاخشيد على مصر لمدة ثلاثين عاما ، مع اعطائه الحق فى استخلاف ابنه انوجور . ولم يكن ذلك فى الواقع الا اعترافا من الخليفة بالأمر الواقع .

ويذكرنا ذلك بالعهد الذى منح لخمارويه بمثل هذه المدة .

وطلب الاخشيد من المتقى أن يسير معه الى مصر ليحظى بالأمان والسلام والنفوذ ، ولكن المتقى بالله لأمر ما رفض هذا العرض ، مع انه كان هو الساعى اليه وفضل أن يعود الى بغداد ، ولعله تصور أنه بهذا اللقاء الحافل مع الأخشيد قد عزز جانبه فى الصراع بينه وبين توزون .

المسعودى فى مصر :

وفى هذه السنة وصل الى مصر الشيخ الجغرافى والمؤرخ العلامه أبو الحسن المسعودى مؤلف كتاب مروج الذهب . وقد ظل مقيما فى مصر لعدة سنوات ، وعلى الرغم من أنه شغف أثناء مقامه فى مصر بالاهرامات وآثارات مصر فلم يخل كتابه من لمحات تصور لنا حياة مصر فى هذه الفترة ومن ذلك وصفه أحد احتفالات عيد الغطاس حيث يقول :

« ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند اهلها لا ينام الناس فيها ، وهى ليلة احدى عشرة تمضى من طوبة وسنة من كانون الثانى . وقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والأخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفه بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل مطيف بها وقد امر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر بالنيل فى تلك الليلة مئات آلاف من الناس المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون ، ويحضرون كل ما يمكنهم احضاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والطرف والقصف . وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ، ولا تغلق فيها الدروب ويغطس اكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك من المرض ومبرىء من الداء »

٩٤٤ م — ٣٣٣ هـ : خلع الخليفة المتقى بالله :

عاد المتقى الى بغداد ، وكان قبل عودته اليها قد كتب الى توزون التركى مستامنا منه فامنه وجدد له المواثيق والعهود بالطاعة والخضوع . يقول المسعودى : فلما وصل الخليفة المتقى الى مشارف بغداد استقبله توزون مترجلا وقبل الأرض بين يديه ، فأمره المتقى بالركوب فلم يفعل ومشى بين يديه الى المخيم الذى ضرب له . على أن الخليفة لم يكد يترجل عن فرسه حتى قبض عليه توزون (واكحله) أى

سمل عينيه . وادخل المتقى الى بغداد مخلوعا من الخلافة مسمول العينين . وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وخمسة اشهر وقيل بل عشرة اشـــهر .

وعندما سمع القاهر بالله المخاوع من قبل والذى كان اول من سملت عيناه وكان لا يزال عائشا بما جرى على المتقى قال : صرنا اثنين ونحتاج الى ثالث يعرض فى ذلك بالمستكفى الذى بويع للخـلافة .

خلافة المســتكفى بالله :

استدعى توزون التركى عبد الله بن الخليفة المستكفى بالله وبايعه بالخلافة واطلق عليه لقب المستكفى بالله وكان عمر المستكفى يوم بويع واحد واربعين ســنة ، وقد جيء بالمتقى بين يديه فبايعه وســـلمه البردة والقضيب . وكان من أول أعمـــال المستكفى اقرار الأخشيد على أمرة مصر تسليما بالأمر الواقع .

٩٤٥ م ـ ٣٣٤ هـ : الحرب بين الأخشيد وسيف الدولة :

كان بنو حمدان أمراء الموصل قد بداوا يرنون بأبصارهم الى امتلاك الشـــام ، فارسل ناصر الدولة الحمدانى اخاه سيف الدولة الحمدانى الى الشام لامتلاكه .
وقد استطاع سيف الدولة أن يستولى بالفعل على مدينة حلب وقنسرين وحمص وانطاكية وبقية الثغور الشامية وأقام الدعوة للمستكفى الخليفة واخيه ناصر الدولة الحمدانى ثم لنفسه من بعدهما .

فكتب الأخشيد الى المستكفى شاكيا سيف الدولة ، ولكن الخليفة لم يفعل شيئا وقيل أنه قال لهما أن الشام لمن يستطيع ان يأخذها منهما بحد سيفه ، وعلى هذا الأساس وقع الصدام بين الأخشيد وسيف الدولة ، فكان النصر فى المرحلة الأولى لسيف الدولة الذى استطاع ان يدخل دمشق فسار الأخشيد بنفسه على راس جيشه ، فاستطاع أن يخرج سيف الدولة من دمشق ثم حمص وقنسرين . وعند هذه المدينة الأخيرة نشبت بين الطرفين موقعة كبيرة ولكنها لم تكن حاسمة . وبدأت مفاوضـــات الصــلح بين الطرفين ، فأخذ الأخشـــيد كعادته جانب اللين والتسامح فتم الاتفاق على أن يكون لسيف الدولة حلب وانطاكية وحمص وماوالاها، وأن يكون باقى الشام بما فيها دمشق فى سلطان الأخشيد ، على أن يدفع مبلغا ســـنويا لسيف الدولة .

وتدعيما للصلح لجأ الأخشيد الى أسلوبه المفضل اسلوب المصاهرة فزوج فاطمة ابنة أخيه عبيد الله بن طغج لســـيف الدولة .

وفى رأى الدكتور حسن أحمد محمود أن الأخشيد ، رضى بهذا الصلح ورحب به ليجعل من الحمدانيين قوة حاضرة بينه وبين البيزنطيين (١) .

القبض على الخليفة المستكفى بالله وخلعه وظهور دولة بنى بويه :

فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة خلع معز الدولة بن بويه الديلمى الذى كان الخليفة قد جعله أمير الامراء ولقبه بمعز الدولة ولقب اخاه أبا الحسن بعماد الدولة واخاه الثالث بركن الدولة ، وامر بكتابة القابهم على الدراهم والدنانير . وكان ذلك هو مبدأ ظهور دولة بنى بويه الديلمية فى بغداد بعد ظهورها .

ورأى المعز أن يؤكد سلطانه الجديد بخلع المستكفى وتنصيب خليفة من صنعه.

خلافة المطيع لله :

احضر معز الدولة بن بويه : أبا القاسم الفضل بن المقتدر الذى كان متخفيا من وجه المستكفى فبايعه بالخلافة وأطلق عليه لقب المطيع لله . وبايعه الأمراء والأعيان والعامة وكان أمر الخلافة قد وصل الى الحضيض فلم يعد للخليفة أمر أو نهى أو وزير . وأصبح امر الدولة كلها يرجع الى معز الدولة . وسمح للخليفة بأن يكون له كاتب ينظر فى شئون اقطاعه الخاص .

وفاة الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله :

وفى هذه السنة توفى بالمهدية فى المغرب الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله ابو القاسم بن محمد بن عبد الله المهدى وولى الخلافة بعده المنصور اسماعيل .

وفاة الأخشيد محمد بن طغج أمير مصر :

وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى الحجة ، مات الأخشيد . فى مدينة دمشق بعد مرض ألم به ، وكانت سنه يوم مات ستا وستين سنة ومدة حكمه على مصر والشام أحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومان ونقل من دمشق ودفن فى بيت المقدس .

شخصية الأخشيد وأعماله :

وشخصية الأخشيد ككل الشخصيات القوية تجمع المتناقضات فبينما يصفه البعض بالشجاعة ، يصفه بعض آخر بالافراط فى الجبن . وحيث كان متصفا بالهدوء والاتزان ، فأن الغضب كان يستبد به أحيانا فيثور ثورة لا حد لها .

ولكن الذى اتفق عليه هو وصفه بالبخل ولذلك لم يكن محبوبا من الرعية . وقد استن سنة جمع الأموال عن طريقة مصادرة أموال الأثرياء وكبار الموظفين ، وان كان

(١) قارن ذلك بحرص احمد بن طولون ومن بعده خمارويه على مجاهدة البيزنطيين بالفعل .

حريصا فى ذات الوقت على ان لا يغضب من مصادر امواله ، وكثيرا ما كان يعطف عليهم بعد ذلك ويقربهم اليه .

وكان الاخشيد بصفة عامة ميكيافيليا لايسمح لعقبة من اى نوع ان تقف فى سبيل وصوله الى اطماعه وكان يعرف باللين ويتراجع اذا لزم الامر حتى لاينكسر ونضيع مهابته وكان شديد الاعجاب بابن طولون حريصا على التشبه به فى بلاطه ومواكبه . وقد قرب اليه الكثيرين من الطولونيين وجعل اكثر صلاته فى جامع بن طولون .

وكان قصره يغص بالجوارى والفتيات ، وكانت بعضهن تشترك فى الشئون العامة .

اما بلاطه فكان مجمعا للعلماء والادباء .

وكان تقيا يحب الصالحين ويتركب اليهم ويتبرك بحديثهم وقد امر فى وقت من الاوقات بهدم المواخير ودور القمار والقبض على من كان بها .

وقد امتد سلطان الاخشيد الى الحجاز واليمن اذ خطب له هناك حسبما اشار الاخشيد الى ذلك فى خطابه الى امبراطور بيزنطة عام ٣٢٥ وان كان هذا السلطان اسميا على الارجح .

النقود الأخشــــدية :

وتشهد النقود المضروبة على عهد الاخشيد بتطور العلاقات بين مصر فى عهده وبين الخلافة . فالدنانير المضروبة باسم الراضى فى سنة ٣٢٣ ــ ٣٢٨ هـ وبعض الدنانير المضروبة باسم المتقى (٣٢٩) تشهد بأن الاخشيد يدين بالطاعة المطلقة للخليفة العباسى ، او على الاقل يتظاهر بذلك فقد كان اسم الخليفة هو وحده الذى ينقش على السكة اما ابتداء من عام ٣٢٩ فان اسم الاخشيد كان ينقش على النقود مع اسم الخليفة . بل لقد وصل الينا دينار من سنة ٣٢٩ هـ وليس عليه الا اسم محمد بن طغج وحده (1) .

وقد تكون نفسه حدثته بقطع الصله مع خلافة بغداد فى هذه السنة ثم عدل عن هذه الفكرة .

ولاجدال فى رأينا ان الذى جعل الاخشيد يتمسك بروابطة مع خلفاء بغداد هو ظهور قوة الفاطميين فى الغرب وطمعهم فى امتلاك مصر . ولابد ان الاخشيد كان يؤثر ان تكون علاقتــه مع خليفة ضعيف مغلوب على امره ، من ان تكون مع هذه الدولة الجديدة القوية الطموحة .

ويقول الدكتور حسن احمد محمود ان المراجع التاريخية لاتتحــدث اطلاقا عن مقدار الخراج الذى كان يحمل من مصر الى بغداد (ص ١٥٨) ومع ذلك فان المقريزى قد ذكر فى خططه ان خراج مصر فى عهد الاخشيد كان مليوني دينار (ص ١٦٠ خطط جزء ١) .

---

(1) الطولونيون ـ ص ١٥٢ .

امارة ابو القاسم انوجور :

فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى الحجـه ولى امرة مصر بعهد من ابيـه ابو القاسم انوجور بن الاخشيد وانوجور معناها باللغة محمود . ولما كانت سن انوجور عندما ولى الامارة خمسة عشر عاما فان عمه الحسن بن طغج طمع فى ان يكون هو الأمير لابن اخيه الصغير ، ولكن ابا بكر محمد بن على المـازرانى صاحب النفوذ الكبير فى البلاط اخـذ جانب الامير الصغير ، فانتهى الامر بانصياع الامير الحسن بن طغج لراى الجماعة فبايع لابن اخيه وسار فى ركابه عنـد ذهابه للصلاة اول مرة فى الجامع العتيق (عمرو بن العاص) .

وصاية كافور الاخشيدى على انوجور :

وكان للاخشيد عبد خصى حبشى الاصل ، انس اليه ورباه لما لاحظه عليه من فطنه واخلاص ، فجعل منه فى نهاية الامر مربيـا لولديه انوجور وعلى ويبدو انه خاف من اخيه الحسن اذا جعله وصيا على ابنيه ، فجعل الوصاية لكافور .

ولكن كافور سرعان ماجمع خيوط السلطة كلها فى يده وكف عنها انوجور مخصصا له اربعمائة الف دينار فى كل عام لينفق منها ويلهو ويمرح متصرفا هو بعد ذلك فى باقى ماليـة الدولة .

الخليفة المطيع يقر انوجور على امرته :

وقد اقر الخليفة المطيع لله ،انوجور فى ولايته على مصر والشام وكل ماكان لابيه من اعمال بما فى ذلك امرة الحرمين .

٩٤٨ م ــ ٣٣٦ هـ : انوجور يحارب سيف الدولة :

انتهز سيف الدولة مغادرة كافور الاخشيدى الشام الى مصر ليولى مهام الدولة لكى يستولى على دمشق ويبسط سلطانه عليها .

ولكن انوجور ، او بالاحرى كافور سار على راس الجيش الاخشيدى من مصر واشتبك مع جيش سيف الدولة فى مدينة الرملة ، فانهزم سيف الدولة وانسحب الى الشام فطاردته الجيوش المصرية فتركها الى حلب والجنود المصرية فى اثره فتركها الى مدينة الرقة فى الموصل ، حيث بدات مفاوضات الصلح بين الطرفين لعودة الحال الى ماكانت عليه ايام الاخشيد فيختص سيف الدولة بحلب وما والاها حتى مدينة حمص . على ان تكون دمشق وما بقى من الشـام تحت امرة مصر ، على ان يبطل ماكانت مصر تدفعه كل عام من اموال لسيف الدولة .

وتظهر هذه المعاهدة ذكاء الدبلوماسية الكافورية الاخشيدية فعلى الرغم من ان جيوش مصر قد انتصرت انتصارا باهرا على سيف الدولة ، فقد رئى ان المصلحة تستوجب عودة سيف الدولة الى حلب لاقرار السلام بين مصر والحمدانيين من ناحية ، ولتظل دولة سيف الدولة حاجزا بين مصر وبين الروم وقد ساد السلام بالفعل بين الحمدانيين والاخشيديين منذ هذا التاريخ ٣٣٦ هـ .

ثورة غلبون :

انتهز والى منطقة الاشمونين المعروف باسم غلبون فرصة وجود الجيوش الاخشيدية فى الشام لمحاربة الحمدانيين ، فأعلن التمرد واستولى على السلطة فى دائرة عمله وما يجاورها . وعندما بعثت اليه الحكومة بجيش لمحاربته استطاع ان يضلل الجيش فلا يقابله ، وسار من طريق آخر فوصل بقواته الى الفسطاط واستولى عليها وراح يدير امور الدولة منها .

على ان انوجور لم يكد يعود من الشام حتى اخمدت هذه الحركة وقبض على غلبون واعدم .

٩٤٩ م ـ ٣٣٧ هـ : ولاية ابو المظفر الحسن بن طفج على دمشق :

فى هذه السنة عين انوجور عمه ابا المظفر الحسن بن طفج اميرا على الشام . ولابد ان كافور اشار على انوجور بهذه الخطوة ، استرضاء للحسن من ناحية وابعادا له عن مركز السلطة فى مصر من ناحية اخرى .

٩٥١ م ـ ٣٣٩ هـ : رد الحجر الأسود الى الكعبة :

فى هذه السنة رد الحجر الأسود الى مكانه من الكعبة بعد ان دفع فيه للقرامطة خمسين ألف دينار ، وهكذا عاد الحجر الأسود بعد سرقته اثنين وعشرين سنة ، وهو حادث فريد فى حياة الكعبة .

وفاة ابو نصر الفارابى :

وفى هذه السنة مات بدمشق كبير الفلاسفة من المسلمين ابو نصر الفارابى التركى الفيلسوف ، والذى قيل انه اذا كان ارسطو هو المعلم الاول فان الفارابى هو المعلم الثانى . وقد كانت كتبه هى التى تعلم منها ابن سينا . وقد كان من اعلم الناس بالموسيقى والف فيها . وحكى عنه انه كان اذا عزف ان شاء ابكى السامعين او اضحكهم او انامهم .

٩٥٢ م ـ ٣٤١ هـ : الدعوة لكافور على المنابر :

قوى شأن كافور الذى كان قد اصبح يطلق عليه اسم الأستاذ فاصدر امره ان يدعى له يوم الجمعة على المنابر بعد الدعاء للخليفة وانوجور باعتباره مدير الدولة

٩٥٣ م ـ ٣٤١ هـ : وفاة الخليفة الفاطمى الثالث :

فى آخر شوال من هذه السنة توفى المنصور أبو طاهر اسماعيل ابن القائم بأمر الله ـ فخلفه ابنه وولى عهده أبو تميم سعد الملقب بالمعز لدين الله والذى سيكون على يديه دخول الفاطميين الى مصر .

٩٥٤ م ـ ٣٤٢ هـ : وفاة الأمير الحسن بن طغج :

مات فى هذه السنة الامير حسن بن طغج الاخشيد امير الشام ودفن بالقدس ، وقد كان أميرا شجاعا مقداما جليلا . وبوفاته صفى الجو نهائيا لكافور ليزداد استئثارا بالسلطة ممأادى الى قيام النزاع بينه وبين انوجور .

٩٥٤ م ـ ٣٤٣ هـ : النزاع بين انوجور وكافور :

بلغ انوجور فى هذه السنة سن الرشد فطمح الى ان يستولى على السلطة الفعلية، وراحت بطانته تحرضه على الخلاف مع كافور الذى استولى على الاموال وانفرد بتدبير الجيوش وكان انوجور معه مقهورا مغلوبا على امره . فدبر انوجور أن يسير الى بلدة الرملة فى فلسطين ثم يعلن خلع كافور وراح يتظاهر بالتفرغ للهو والصيد لينفذ خطته . ولكن ام انوجور التى كانت تعرف قدرة كافور وان ابنها ليس ندا له ابلغت الامر الى كافور ، وتدخلت للصلح بينهما وقد تم الصلح بينهما على أن تستمر الاحوال على ماهى عليه . ولكن هذا الخلاف قد ترك اثره فى صفوف الجند الذين انقسموا الى طائفتين الكافوريون ويناصرون كافور واغلبهم من السودان والأخشيديون ويناصرون انوجور .

٩٥٥ م ـ ٣٤٤ هـ : غارة ملك النوبة على اسوان :

اغار ملك النوبة فى شهر ذى الحجة من هذه السنة على مدينة اسوان وقتل جمعا

من سكانها فخرج أليه الجيش وعلى رأسه محمد بن عبد الله الخازن فاستطاع ان يهزم النوبيين وأن يرسل اسراهم الى الفسطاط فضربت اعناقهم . ومضى الجيش بعد ذلك فى مطاردة النوبيين فافتتح مدينة بريم وعاد الى مصر فى منتصف جمادى الأولى من السنة التالية ومعه كثير من الاسرى .

٩٥٦ م ــ ٣٤٥ هـ : وفاة ابو بكر محمد المازرانى :

توفى فى هذه السنة ابو بكر محمد المازرانى فى الثامنة والثمانين من عمره فانطوت ذلك صفحة المازرانيين الذين احتكروا ادارة شئون مصر المالية سبعين سنة وكانوا فى اكثر من مرة حكام مصر الفعليين وقد بلغ من شأن هذه الاسرة ان خصهم ابن زولاق المؤرخ العصرى بكتاب خاص .

وكانت لهم الضياع الواسعة ، ويتخذون الحجاب تشبها بالامراء وكانوا يجرون الارزاق على المحتاجين الذين قدر عددهم بستين الفا .

وكثيرا ما صادر الأخشيد اموالهم ، وحرق العامة والجند دورهم ولكنهم كانوا ينهضون من جديد الى سابق مكانتهم وثروتهم .

وفاة المسعودى :

وفى هذه السنة مات كذلك العلامة ابو الحسن المسعودى صاحب مروج الذهب وكتاب ذخائر العلوم ، وكتاب المقالات فى اصول الديانات . وهو احد من يعتز بهم التاريخ الاسلامى .

٩٥٧ م ــ ٣٤٧ هـ : المتنبى فى مصر :

وليس هناك مايكشف عما وصل اليه كافور الاخشيدى من قوة ونفوذ فى هذه السنوات ، اكثر من التجاء المتنبى اليه عندما خرج من حلب مغاضبا لسيف الدولة فكانت اولى قصائده لدى مقدمه الى مصر .

قواصد كافور توارك غيره ومن ورد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلت بياضا خلفها ومآقيا

وقد اقام المتنبى مدة طويلة فى بلاط كافور وهو يغرقه بالهدايا والاعطيات وقد افرد له دارا كبيرة ليقيم فيها بالفسطاط ولكن المتنبى كان يريد ماهو اكثر من ذلك وهو ان يوليه كافور بعض الولايات كما يقطع بذلك البيت التالى :

اذا لم تنط بى ضيعة او ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

فلما طال المدى بالمتنبى دون ان ينال مبتغاه اظهر نفـاد صبره فى قصيدته التى جـاء فيها :

وفى النفس حاجات وفيك فطـانة سكوتى بيان عندها وخطـاب

وما انا بالبـاغى على الحب رشـوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب

وما شـئت الا ان ادل عـواذلى على ان رايى فى هـواك صـواب

واعـلم قومـا خالفونى فشرقـوا وغربت انى قد ظـفرت وخـابوا

على ان الوقت الذى اخفق فيه المتنبى عن تحقيق امنيته لم يلبث ان جاء فغادر مصر خائب الامل ، فقال قصيدته التى مطلعها :

عيـد بأية حـال عـدت ياعيـد بامر مضى ام لامر فيك تجـديد

واسرع فى هجو كافور فأفحش وكان من قوله :

فـلا تـرج الخير عنـد امرىء مـرت يد النخـاس فى راسـه

٩٦٠ م ـ ٣٤٩ هـ : وفاة ابو القاسم انوجور :

فى يوم السبت سابع او ثامن من ذى القعدة مات ابو القاسم انوجور بعد ان حكم اسميا اربع‌عشرة سنة وعشرة ايام . وكان عمره يوم وفاته خمسا وعشرين سنة على التقريب .

والمؤرخون على اتفاق انه لايمكن الحكم على ابى القاسم انوجور فى فترة حكمه فلم تكن لديه فرصة لاظهار شخصيته فقد كان الحل والعقد كله بيد كافور . على ان هذه الحقيقة كافية للحكم عليه بضعف الشخصية ، والا فقد كان باستطاعته وخاصـة بعد ان بلغ سن الرشد . ان يوقف كافور عند حده ، وقيل ان وفاته لم تكن طبيعية وان كافور دس له السم للتخلص منه .

وقد نقل جثمانه الى بيت المقدس ليدفن الى جوار ابيه .

٩٦٠ م ـ ٣٤٩ هـ : امارة على بن الاخشيد :

فى يوم السبت عشرين من ذى القعدة من هذه السنة اقام كافور الاخشيدى ابن سيده على بن الاخشيد على ملك مصر بالاتفـاق مع رجال الحاشية والجند . واقر الخليفة المطيع ذلك . وكانت سنه يوم جلس على الامارة ثلاثا واربعين سـنة اذا كان ميلاده كما يقول ابو المحاسن عام ٣٠٦ هـ فان سنه يكون يوم ولى ثلاثا واربعين سنة ، وتابعه على هذا القول امين سامى .

وكيف يتفق هذا مع تولية إنوجور قبله والذى لم يكن سنه يتجاوز الخامسة عشرة ، فلابد ان يكون فى تاريخ الميلاد خطأ من ناحية ما ، ويقول لين بول ويتابعه الدكتور حسن ان سنه يوم ولى الحكم كانت ثلاثا وعشرين سنة . وهو غير مقبول باعتباره اصغر من أخيه الذى مات وعنده خمس وعشرون سنة ولذلك قال لين بول ويتابعه الدكتور حسن . يقولون ان سنه يوم ولى كانت ثلاثا عشرين وهو القول الاصح ، ولابد أن يكون حكاية ولادته عام ٤٠٦ خطأ . وقد جمع له الخليفة كل ما كان لأبيه وأخيه من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين . على أن حظه من الامارة كان كأخيه من قبله لا يعد مجرد التسمية . فقد كان كافور هو المتولى تدبير المملكة والمتصرف فيها : وقد زادت قوته بعد موت أنوجور . على أنه قد ترك لعلى الإخشيد هذه الاربعمائة الف دينار التى كان يدفعها سنويا لاخيه من قبله .

وفاة صاحب الاندلس الناصر لدين الله ـ أمير المؤمنين :

وفى هذه السنة مات أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن الاموى ، ملك الاندلس والذى وصلت الحضارة الاسلامية على يديه فى الاندلس ذروتها ، بحيث أصبحت قرطبة ومدينة الزهراء التى بناها أعظم مراكز الحضارة فى اوربا والتى لم تلبث ان تنساب منها اشعة لتضىء ظلمات عصور اوربا الوسطى .

وقد حكم خمسين سنة وستة اشهر وكان له من العمر يوم توفى ثلاث وسبعون سنة .

وقد تلقب بأمير المؤمنين بعد بدئه بثلاث وعشرين سنة بعد أن رأى الخليفة الفاطمى ان يطلق على نفسه هذا اللقب . وهكذا اصبح فى العالم الاسلامى ثلاثة امراء للمؤمنين الخليفة العباسى والخليفة الفاطمى والخليفة الاندلسى .

أما قبل ذلك فقد كانت امارة المؤمنين لواحد فقط فى كل العالم الاسلامى

٩٦١ م ـ ٣٥٠ هـ : وفاة الامير فاتك الاخشيدى :

توفى الامير فاتك الأخشيدى المجنون ابو شجاع الذى كان يمثل المنافس الوحيد لكافور وكان يعمل له ألف حساب . وقد كان رفيقا لكافور ، فلما صار كافور مدير مملكة أولاد الاخشيد : انف فاتك من المقام بمصر كيلا يكون كافور أعلى منه مرتبة فانتقل الى اقطاعية بالفيوم واقام بها ، يمثل الإقطاع فى اعلى مظاهرة وهو الأمير المتحكم على الأرض والناس فى اقطاعه . وكان كافور يداريه بحسن السياسة والكياسة ويجزل له العطاء ليأمن جانبه وعندما وفد المتنبى الى مصر ، وصله فاتك بالاعطيات ، فطلب المتنبى من كافور أن يأذن له بمدح فاتك فأذن له فمدحه بقصيدته التى استهلها بقوله :

لا خيل عندك تهديها ولا مال . فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

وفاة الكندى (مؤلف الولاة والقضاة) :

ومات فى هذه السنة ابو عمر محمد بن يوسف الكندى الذى يمثل مرحلة النضوج فى المدرسة التاريخية المصرية فى العصر الاسلامى الأول . وقد ألف فى الخطط وقد اعتمد المقريزى عليه فى كتابه الشهير ، على أن معظم كتب الكندى قد فقدت ولكن من حسن الحظ ان وصل الينا احسنها واهمها على الاطلاق وهو كتاب « الولاة والقضاة » والذى يؤرخ فيه لولاة مصر وقضاتها من أيام عمرو بن العاص الى انوجور بن الاخشيد .

سقوط جزيرة كريت فى ايدى الروم :

وفى هذه السنة نجح البيزنطيون نتيجة تفوقهم الساحق فى الاسطول أن يستولوا على جزيرة كريت ، وعلى معقلها الحصين فى مدينة كندية .

٩٦٢ م ــ ٣٥١ هـ : سوء العلاقة بين كافور والاخشيد :

فى هذه السنة حاول على الاخشيد فيما يبدو ان يقاوم سلطان كافور ، خاصة وقد بدات احوال مصر المعاشية تسوء وتضطرب لنقصان فيضان النيل مما سبب غلاء الاسعار وارتفاع شكوى الرعايا . ولكن ضعف شخصية على الأخشيد وقلة انصاره جعلت الغلبة لكافور ، بحيث اصدر أمره بمنع اجتماع الناس بعلى بن الاخشيد ولم يسمح له الا بأن ينكب على ملذاته وشهواته ، وان كان يعدل عنها من حين لآخر ليتفرغ للعبادة وتلاوة القرآن .

٩٦٢ م ــ ٣٥٢ هـ : غارات القرامطة على الشام والنوبيون على الصعيد :

وتحالف مع القحط والغلاء الذى بدأ يسود مصر هجوم القرامطة على بلاد الشام حتى لقد استولوا على قافلة الحجاج وكانت تتألف من عشرين ألف جمل .

كما اغار ملك النوبة على الصعيد حتى وصل الى مدينة اخميم ونهب وسلب واحرق .

وتوج هذه الأحداث زلزال عرم خرب ١٧٠٠ بيت فى مدينة الفسطاط وحدها .

كما واصل البيزانطيون هجومهم البحرى فاستولوا على جزيرة قبرص بعد ان قضوا على آخر ظل للاسطول المصرى (١) .

---

(١) القوى البحرية والتجارية ص ٢٩٦ .

فلا عجب اذا صرخ الناس بالشكوى ، ويبدو أن ذلك هو الذى جعل صوت على الاخشيد يرتفع كما اشرنا ولكن كافور كان مسيطرا على البلاد سيطرة كاملة : فلا نسمع عن قيام فتنة أو اضطراب فى اى جزء من اجزاء البلاد وهو ما يثير دهشة ابن بول .

٩٦٥ م ــ ٣٥٤ هـ : وفاة المتنبى :

وفى هذه السنة قتل المتنبى نجم الشعر العربى الاسلامى ممثلا فى شخص المتنبى وهو اشهر من ان يعرف فمئات الكتب قد ألفت عليه (١) ويقول عنه أبو المحاسن انه ولد سنة ثلاث وثلثمائة وأكثر المقام بالبادية لاقتباس اللفظ فى فنون الادب وتعاطى قول الشعر فى صغره حتى بلغ الغاية ، وفاق اهل زمانه ، وسار شعره فى الدنيا ومدح سيف الدولة بن حمدان وكافور الاخشيد . وأشعاره سرى مسرى الحكم والامثال منذ شدا بها كقوله :

أنا الغريق فما خوفى من البلل ــ وقوله : وربما صحت الاجسام بالعلل

ومن اشعاره :

واذا كانت النفوس كبارا	تعبت فى مرادها الاجسام
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى	عدوا له ما من صداقته بد
واذا غامرت فى شرف مروم	فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى امر حقير	كطعم الموت فى امر عظيم

وله فى الوصف والتشبيب :

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها	فى ليلة فأرت ليالى أربعا
واستقبلت قمر الزمان بوجهها	فأرتنى القمرين فى وقت معا

ويقول يفتخر بنفسه وشعره :

ما نال أهل الجاهلية كلهم	شعرى ولا سمعت بسحرى بابل
واذا أتتك مذمتى من ناقص	فهى الشهادة لى بأنى كامل

٩٦٦ م ــ ٣٥٥ هـ : وفاة على الاخشيد :

فى الحادى عشر من شهر المحرم مات على الاخشيد وقيل ان كافور دس له السم كما فعل بأخيه من قبل . ومما لا شك فيه أن المؤرخ حتى بعد هذا الزمن الطويل من وفاة ولدى الاخشيد لا يسعه الا أن يقف طويلا متشككا أمام هذه الظاهرة التى جعلت ولدى الاخشيد كلاهما يموتان فى شرخ الشباب .

وقد حمل جثمانه من مصر الى بيت المقدس حيث دفن الى جوار ابيه واخيه .

---

(١) اقرأ مع المتنبى لطه حسين .

امارة كافور الاخشيد على مصر :

وفى السادس والعشرين من شهر المحرم أى بعد خمسة عشر يوما فقط (١) ورد الى مصر كتاب الخليفة المطيع بتولية كافور الاخشيد أمرة مصر والشام والحرمين على الصلاة والخراج والحرب وكل ما كان للاخشيد من قبل . وهكذا تحقق لكافور العبد الخصى الحبشى ما ظل طول حياته يعمل لتحقيقه ، مما يقطع بقوة الارادة الانسانية التى تستطيع دائما أن تحقق له ما يبدو من المستحيلات .

فقد تجمعت من الاسباب الطبيعية والخلقية والاجتماعية ما يجعل تسنم كافور اى منصب من المناصب مهما كان صغيرا وتافها من الأمور المستعصية : فكيف به يصبح ملكا على مصر فالمؤرخون يقولون عنه :

كان كافور عبدا أسود خصيا قبيح الشكل بطيئا معتل البدن ، قبيح القدمين ، مثقوب الشفة السفلى . جلب الى مصر من الحبشة وسط صفقة من العبيد وبيع لتاجر من تجار الزيت واشتراه سيده ابو بكر محمد الاخشيد بثمانية عشر دينارا .

من هذه البداية المتواضعة المسرفة فى التواضع بالنسبة لأى انسان بدأ كافور ارتقاء السلم ، ولابد أنه قد أظهر من الخضوع والاخلاص والذكاء لسيده ما لفت اليه نظره ، حتى انه بدأ يعلمه ويربيه . ولا بد أن ملكة الحفظ والفهم كانت قوية عنده الى درجة جعلته يتفوق فيما يلقن من علوم : حتى ليصبح بعد حين مربيا لأولاد الأخشيد ومعلما . حتى ليطلق عليه اسم الأستاذ بينما كانت مواهبه العسكرية فيما يبدو لا تقل عن مواهبه العقلية اذ تراه بعد قليل فى مقدمة قواد الجيش .

وتصل ثقه سيده به الى الحد الذى يجعله وصيا على أولاده بعد موته .

وليس هناك ما يكشف عن مواهب كافور الاخشيد من استطاعته وقد وصل الى مركز السلطة أن يستديم ذلك بضعا وعشرين سنة ، وسط مجتمع عسكرى تركى وشعب عربى وخلافة عباسية فى الشرق وفاطمية فى الغرب .

ويكشف لنا المتنبى عن قدرة كافور السياسية عندما يقول لنا أن بحسب الانسان أن يتأمل كافور فى بعض جلساته ليكون استاذا فى السياسة والكياسة .

اذا منعت عنك السياسة نفسها فقف وقفة أمامه تتعلم

وحيث اشتهر سيده الاخشيد بالبخل فقد اشتهر كافور بالكرم والجودوحسن معاملة الناس مما تحفل به كتب التاريخ .

---

(١) يدل ذلك الوقت القصير فى وصول خبر موت الاخشيد الى بغداد وورود كتاب الخليفة الى الفسطاط بتأمير كافور ، على سرعة المواصلات بين الفسطاط وبغداد وانتظام عملية البريد بحيث لا يحتاج الامر لغير اقل من اسبوع .

٩٦٧ م ـ ٣٥٦ هـ : وفاة أبو الفرج الأصبهانى صاحب الاغانى :

وفى يوم الاربعاء الرابع عشر من ذى الحجة من هذه السنة مات العلامة أبو الفرج الاصبهانى مؤلف كتاب الاغانى الذى يعتبر اول موسوعة للادب والشعر والاغانى والاساطير والقصص والخرافات العربية ولا يزال حتى اليوم هو المرجع المحيط لكل ما يتصل بحياة المسلمين وخاصة امراؤهم وشعراؤهم وأدباؤهم وجواريهم الخاصة . ولا جدال انه يحوى الكثير من الدش والخلط ولكنه يبقى احدى وثائق تاريخ المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع وما سبقه .

وفاة سيف الدولة الحمدانى :

كما مات فى هذه السنة فى حلب سيف الدولة الحمدانى . وامراء بنو حمدان يمثلون صفحة زاهية من صفحات التاريخ العربى الاسلامى ، فى فترة بدأ التصدع السياسى يصيب الخلافة الاسلامية . وكان بلاطه يضم الشعراء والنحاة والفلاسفة والأطباء . وحسبه أن لمعت فيه أسماء المتنبى وابو فراس والفارابى فيلسوف المسلمين الاول وصاحب الموسيقى .

٩٦٨ م ـ ٣٥٧ هـ : وفاة كافور الاخشيد :

فى يوم الثلاثاء عشرين من جمادى الأولى مات أبو المسك كافور الاخشيد وكان عمره يوم مات بضعا وستين سنة كان حاكم مصر والشام الفعلى منها اثنتين وعشرين سنة ، ومنها سنتان وأربعة أشهر كان فيها الحاكم الفعلى والرسمى معا . وقد خطب له على منابر مصر والشام والحجاز والثغور مثل طرسوس والمصيصة وغيرهما وحمل تابوته الى القدس ليدفن الى جوار سيده وابناء سيده . أما ابن اياس فيقول أنه دفن بالقرافة الصغرى بمصر .

بلاط كافور وحبه للعلم والادب :

يقول الذهبى : وكان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم . وكانت تقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الدولة الاموية والعباسية وكان له نظر فى العربية والادب والعلم . وكان قويا شديد الساعد لا يكاد احد يمد قوسه له شهرة فى القتال اشار اليها الشعراء فى مدائحهم حتى لقد فخر الفاطميون فيما بعد باحتفاظهم بسيفه فى خزائنهم .

وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ويتهجد ويمرغ وجهه ساجدا ويقول اللهم لا تسلط على مخلوقا . وكان عظيم الحرمة وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف بحيث زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد . وكان كريما كثير الخلع والهبات خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد الفعل داهيته .

وكان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه . وفى نفس الوقت يدين بالطاعة لبنى العباس ، ويخدع هؤلاء وهؤلاء . وبقى لاكمال صورة الحياة فى عهد كافور ان نضيف ما قاله شمس الدين الذهبى من أن راتب مطبخه كان على الوجه التالى :

الفا رطل من اللحم البقرى ، وسبعمائة رطل من لحم الضأن ومائة طير أوز وخمسمائة طير دجاج وألف طائر حمام ، وعشرون فرخ سمك كبار وخمسون خروفا رميسا ومائة جدى سمين .

أما الحاوى فقد كان له خمسمائة صحن فى كل صحن عشرون رطلا ، ومائتان وخمسون طبق فاكهة وألف كور تفاح ، ومائة قربة من السكر ، والف كماجة ، وخمسة انواع من القيسولات وعشرة أفراد من النقل وكان يحضر على سماطه الخاص والعام .

وكان يوجد فى بلاطه ألف وسبعون من الغلمان الترك والفان من الغلمان الروم ، وغلمان آخرون من السود .

وخلف فى خزائنه بعد وفاته ما قيمته مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعة . وكان يرسل كل عام المال والطعام والثياب الى الحجاز لتوزع على الاشراف من سلالة رسول الله فى موسم الحج .

تولى احمد بن الاخشيد على مصر :

أجمع قواد الجند ورجال البلاط على تولية أحمد بن الاخشيد اميرا على مصر قبل أن يدفن كافور . واتفق على أن يكون الحسن بن عبيد الله بن طغج ابن عم أبيه والذى كان أميرا على الرملة ، ولى العهد من بعده ، وأن يكون أبو الفضل جعفر بن الفرات وزيرا له وأن يشترك معهما فى تدبر أمور الدولة شمول الاخشيدى مدير العسكر .

٩٦٩ م ــ ٣٥٨ هـ : دخول الفاطميين الى مصر :

لم تدم هذه الترتيبات من تولية أحمد بن الاخشيد الا بضعة أسابيع ريثما يصل خبر موت كافور الى الخليفة الفاطمى ، ويعد الجنود لدخول مصر ، فقد رأينا كيف أن استيلاء الفاطميين على مصر كان أحد أهدافهم الثانية ــ بعد ان اسسوا ملكهم فى شمال افريقيا ، وانهم فشلوا فى تحقيق ذلك أكثر من مرة . . . فلم يكد كافور يموت، حتى كان كل شىء مهيأ لتحقيق حلمهم ، وقيل ان يعقوب بن كلس الوزير اليهودى المصرى الذى أسلم هرب من مصر بعد أن أساء اليه الفضل جعفر بن الفرات والتجأ الى بلاط المعز لدين الله الفاطمى وحسن له احتلال مصر .

ويقول ابن اياس : لما مات الأمير كافور اضطربت احوال الديار المصرية غاية الاضطراب ، وطمع اهل القرى فى الجند ، وامتنعوا عن دفع الخراج ، فعند ذلك كتب أعيان مصر الى المعز الفاطمى ــ وكان ببلاد المغرب ــ بأن يحضر الى الديار المصرية

ويتسلم المدينة ويتولى عليها . وفى شهر شعبان من هذه السنة على اختلاف طفيف فى اليوم وصل جوهر الصقلى قائد الجيوش الفاطمية واستولى على مصر فانتهت بذلك الدولة الاخشيدية وكانت مدة حكمها أربعا وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

وبانتهاء الدولة الاخشيدية وابتداء الدولة الفاطمية فان تبعية مصر للدولة العباسية التى استمرت خمسا وعشرين ومائتى سنة والتبعية للدولة الاسلامية بعامة حيث تنقل مركز الحكم فيها بين ثلاث عواصم المدينة فدمشق فبغداد والتى استمرت تسعا وثلاثين وثلثمائة سنة . تكون قد انتهت . لتبدأ مصر صفحة جديدة فى ظل الحكم الفاطمى تتحول فيه مصر الى مركز الدائرة ومحور الحياة الاسلامية النشيطة .

الفصل الثانى عشر

الدولة الفاطمية

٩٦٩ م – ٣٥٨ هـ : امارة جوهر القائد الرومى (الصقلى) المعزى على مصر :

٣٥٨ هـ فى يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، بدأ سير حملة جوهر الصقلى من المهدية عاصمة الدولة الفاطمية للاستيلاء على مصر ، وكان سيده المعز لدين الله الفاطمى قد أعد الأهبة لهذه الحملة منذ سنوات طويلة ، فعبد الطرق التى ستجتازها فى شمال افريقيا ، وحفر الأبار ليتمكن الجيش الزاحف من الحصول على الماء اللازم له ، وكانت عدة الجيش الذى سار مع جوهر يبلغ المائة ألف ، أغلبهم من قبيلة كتامة البربرية وقد وصل جوهر بالجيش الى الاسكندرية دون أن يعترضه معترض ، بل ودخل المدينة نفسها فى سلام ، وقد نجح جوهر فى أن يعصم جنوده من الاعتداء على أحد من السكان أو نهب شىء من متاعه ، باعتباره قد جاء صديقا ومخلصا ، لا فاتحا أو غازيا ، ثم نزل بجيوشه فى طريقه الى القاهرة عند قرية تروجه وارسل الى أهل مصر يعلمهم بقدومه ، وانه ما جاء الى مصر الا للاصلاح وعمل ما فيه خير المسلمين . فجرت مفاوضات بينه وبين المصريين انتهت الى وثيقة فذة لم يسبق مثلها فى التاريخ يجب اعتبارها أول دستور مفصل للحكم وعقد بين الحاكم والمحكومين على التزام وجوه الاصلاح واجراء العدل ، واليك فقرة مما جاء فى هذا العهد التاريخى :

« ولكم على أمان الله التام العام ، الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام ، وكر الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ، ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى انكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ، ويمنع منكم ، فلا يتعرض الى اذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولا فى الاستطالة على قويكم ، فضلا عن ضعيفكم وعلى أن لا ازال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل اليكم خيره .

ولكم اسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرتضى صلوات الله عليها باثباتها ، وأن اجيزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، واضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وان تقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاء . وان أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم وأدرها عليهم ، ولا اقطعها عنهم – ولا أوقعها الا من بيت المال لا باحالة على من يقبض منهم » .

عدم التعرض لمذهب المصريين :

« وبالنسبة لأمور التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فأذكرها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن لذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متعبـة وهى اقامتكم على مذاهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم فيه من أداء الفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وقيامكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعون بعدهم . وفقهاء الأمصار الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه وسلم فى سنته » (نظم الحكم ص ٣٩٦) .

رفض الاخشيديين للعهد :

واذا كان الشعب المصرى ، قد وجد فى هذه الوثيقة ما يرضيه فى الحكم الجديد ، فان رجال الأسرة الاخشيدية ، اختلفوا فى قبوله ، ولم تلبث أن اجتمعت كلمتهم على وجوب قتال جوهر .

وجرى القتال بين الاخشيديين والفاطميين فى الجيزة فى الحادى عشر من شعبان من هذه السنة ، ولكن الدائرة دارت على الاخشيديين فارسلوا يطلبون الأمان من جوهر فلم يتردد جوهر فى تأمينهم وحضر رسوله ومعه رايات الأمان فطاف فى مدينة الفسطاط ومنع النهب فسكن الناس وفتحت الأسواق ، ودخل جوهر من الغد الى الفسطاط فى طبوله وبنوده ، ونزل بالمناخ (١) وهو موضع القاهرة اليوم وكان مكان القاهرة قبل تأسيسها صحراء مغطاة بالرمل يمر بها الناس اثناء مسيرهم من الفسطاط الى عين شمس ، ولم يكن بها عند نزول جوهر سوى بستان الاخشيد المعروف بالبستان الكافورى ، ودير النصارى يعرف بدير العظام ، وبناء يعرف بقصر الشوك ، وبات المصريون فى أمان ، فلما أصبحوا وحضروا لتهنئة جوهر اذا بهم يفاجأون بأنه حفر أساس القصر الكبير الذى سينزل فيه الائمة الفاطميون بالليل .

انشاء مدينة القاهرة :

ولم يكن أساس القصر الذى بدأ جوهر بوضعه عشية وصوله الا الخطوة الأولى نحو تأسيس مدينة القاهرة التى أريد بها أن تكون بمثابة حصن للجيش الجديد الوافد ، وبناء مقر جديد لسكنى الخليفة الفاطمى . ولذلك فبعد أن خطط أساس القصر الشرقى الكبير لنزول المعز لدين الله حتى شرع فى تخطيط الأحياء لنزول فرق الجيش المختلفة التى كانت معه ، وأحاط القصر والأحياء الجديدة بسور كبير الدفاع عنها . وقد أطلق على هذه المدينة فى بادىء الأمر اسم المدينة المنصورية ، وظلت تعرف بهذا الاسم حتى جاء المعز لدين الله فسماها القاهرة . وهناك قصة طريفة تدور حول السبب فى تسمية المدينة بالقاهرة ، والدكتور جمال الدين الشيال لا يرضى عن هذه

---

(١) كانت كلمة المناخ لا تزال اسما على الشارع المتفرع من ميدان الأوبرا والمسمى اليوم بشارع ثروت .

القصة ويعتبرها أسطورة ، وعندنا أن التاريخ لا يعد تاريخا اذا خلا من الأساطير ، فهى جزء لا يتجزأ منه لأنها تمثل اعتقادات الناس فى أمر من الامور ، وليس فى القصة التى تروى عن سبب تسمية القاهرة بهذا الاسم شىء يخرج عن المألوف أو ينكره العقل . وفحوى هذه القصة أن جوهر لما قصد اقامة السور وبناء القاهرة جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس ، وطالعا لرمى حجارته ، فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ووصلوا بينها بحبال علقت فيها الأجراس ، ليرمى البناءون ما فى أيديهم من اللبن والحجارة ساعة أن تدق الأجراس فحدث أن غرابا وقف على خشبة من هذه الخشبات فتحركت الأجراس فظن الموكلون بالبناء ان المنجمين حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة فى الأساس فصاح المنجمون .. لا .. لا .. القاهرة فى الطالع (والقاهرة هو المريخ) ولم يتفاءلوا بهذا الطالع ، ولكن المعز عندما سمع هذه القصة عند حضورة الى مصر فهم منها ما لم يفهموه ، واطلق على المدينة الجديدة اسم القاهرة .

وكانت القاهرة وقت انشائها تحد من الشمال بموقع باب النصر . ومن الجنوب بموقع باب زويلة ، ومن الشرق بما يعرف فى أيامنا بالدراسة ومن الغرب بباب سعادة وما يليه حتى النيل .

وكان لها عند انشائها اربعة ابواب ، وهى باب النصر وباب الفتوح ، وبابان فى الناحية القبلية هما بابا زويلة . ويقدر على مبارك فى كتابه الخطط ان كل جانب من جوانب القاهرة عند اول تأسيسها لم يكن يزيد على الف ومائتى متر وان مساحتها كانت ٣٤٠ فدانا يشغل منها القصر خمس هذه المساحة اى سبعين فدانا وبستان كافور يشغل عشر المساحة ٣٤ فدانا والميدان المعد لعرض الجند يشمل ٣٥ فدانا اما الباقى وقدره قرابة مائتى فدان فقد خصص لنزول فرق الجيش المختلفة .

وقد تضمن كتاب الخطط للمقريزى تفصيل اسماء الحارات والدروب التى كانت تتكون منها القاهرة يوم تأسيسها .

اتخاذ مصر مقرا للخلافة الفاطمية :

استطاع جوهر ان يكسب قلوب سواد الشعب المصرى ليس فقط باسلوب اللين الذى اتبعه فى تصرفاته ، بل باسعاف الناس من ضيق المجاعة التى اضرت بهم فى اخريات عهد الحكم الاخشيدى ، وذلك عن طريق السفن التى جاء بها من المغرب محملة بالقمح والتى اغرق بها السوق بمجرد وصوله : فلما لم تفلح هذه الحركة فى تخفيض الأسعار كلف جوهر المحتسبين ان يضربوا بشدة على أيدى التجار ، فظهرت الاقوات المخبأة ، وبدأت الاحوال العامة فى التحسن .

ولم يضع جوهر وقتا فى اصلاح شئون ما اضطرب من أحوال البلاد وخاصة فى الناحية العمرانية ، فأصلح ما فسد من جسور النيل وطهر قنواته واعادة بناء قناطره ، واعاد فى الدرجة الاولى تطهير ترعة امير المؤمنين التى تربط النيل بالبحر الاحمر لاعادة سير التجارة بها .

وعمد الى اصلاح العملة بسك نقود جديدة باسم الخليفة المعز لدين الله .

ثم منع لبس السواد باعتباره شعار العباسيين وأحل محله لبس البياض شعار الفاطميين وأصبح نص الدعاء الذى يتلى على المنابر : اللهم صل على محمد المصطفى وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، صلى الله على الائمة الطاهرين آباء امير المؤمنين المعز لدين الله . وهكذا مهد الطريق لتحقيق حلم خلفاء الفاطميين وهو تحويل مركز الخلافة الى مصر باعتبارها قلب العالم الاسلامى الخفاق لموقعها من ناحية ، ولثروتها من ناحية اخرى .

الدعاء للمعز فى مكة والمدينة :

ولما كان المعز لدين الله قد اتبع قبل وصول جيشه الى مصر سياسة ناجحة مع ولاة الحرمين ، حيث كان يغدق عليهم الاموال ويواليهم بالهدايا : فلم تكد جيوشه تصل الى مصر ويستقر جوهر بها حتى بادر حسن بن جعفر الحسنى شريف الحرمين بالدعاء للمعز فى مكة والمدينة .

الدعاء للمعز فى حلب :

كما سارع الامير الحمدانى فى حلب بالاعتراف بسلطان المعز عليه ، فدعا له فى المساجد بدلا من الخليفة العباسى .

٩٧٠ م ــ ٣٥٩ هـ : فتح دمشق :

على أنه اذا كانت امارة حلب تحقيقا لمصالحها قد رات أن تعترف بالخلافة الفاطمية ، فان فلسطين وسوريا الجنوبية بما فيها دمشق ، ظلت ترفض الاعتراف بالحكم الفاطمى فى مصر ، ذلك ان الامير عليها كان هو الحسن بن عبيد الله الاخشيدى والذى اتخذ من مدينة الرملة معقلا يقاوم فيه زحف الفاطميين على الشام .

ولكن جوهر الصقلى ، ارسل أحد كبار معاونيه وقادة الجيش وهو الامير جعفر ابن الفلاح على رأس قوة لفتح الشام . وقد استطاع جعفر بن الفلاح بالفعل ان يهزم الحسن الأخشيد وأن يقبض عليه هو ومن بقى على قيد الحياة من اسرته ، وبعث بهم الى جوهر القائد الذى ارسلهم بدوره الى المعز لدين الله ، حيث ساد الغموض الطريقة التى أنتهت بها حياتهم .

٩٧١ م ــ ٣٦٠ هـ : استيلاء القرامطة على دمشق :

كان القرامطة قد فرضوا على الاخشيديين دفع ثلثمائة الف دينار سنويا مقابل بقائهم فى دمشق ، فلما استولى جعفر بن الفلاح على دمشق ، منع عنهم ارسال

ما أعتادوا أن يأخذوه ، فأغضبهم ذلك : ولم يحل اتفاق القرامطة مع الفاطميين فى المذهب كما كانوا يدعون ان يشنوا الحرب على جعفر بن انفلاح وجيشه ، فسقط جعفر قتيلا وانهزم الجيش ، واستولى القرامطة على دمشق ، ووضعوا على رأسها أحد رجالهم . ولكن القرمطى لم يكد يرجع الى هجر حتى ثاروا عليه وطردوه من دمشق شر طرده .

القرامطة يدخلون الى مصر :

عاد القرامطة بقوة أكبر فأعادوا احتلال دمشق ، ثم قرروا أن يهاجموا مصر نفسها ، فوصلوا الى عين شمس فى أكتوبر من هذه السنة الميلادية ٩٧١ وضربوا الحصار على القاهرة ، حيث كان جوهر يتربص بهم داخلها ، وواصل القرامطة الحصار على القاهرة شهرين ، وفى النهاية استطاعوا أن يقتحموا خندقها وسورها ، فاذا بجوهر المتربص بهم والذى كان قد اعد الشعب للقتال ، يهزمهم شر هزيمة ، ففر القرامطة مذعورين ولم ينجهم من خطر الابادة الا حلول الليل ، وهكذا تحولت المغامرة القرمطية التى كادت تنهى الحكم الفاطمى فى مصر ، الى نصر كبير ثبت اركانه نهائيا اذ استقرت بهذا النصر أحوال البلاد الداخلية نهائيا ، وقطع دابر الفتنة .

٩٧٢ م ـ ٣٦١ هـ : بناء الجامع الازهر :

فى رمضان من هذه السنة أكمل جوهر بناء الجامع الازهر ليكون مقرا الشعائر على المذهب الشيعى الفاطمى ، حتى لا يتعرض للمصريين فى المساجد القائمة بتغيير فى الشعائر .

وقد اقيمت فى السابع عشر من رمضان أول صلاة ، وكان يطلق على الجامع فى بادىء الأمر اسم جامع القاهرة ثم اصبح يطلق عليه اسم الازهر لازدهار العلوم به كما يرى البعض أو نسبة الى فاطمة الزهراء فى قول آخر وهو ما نرجحه ، ثم غلب اسم الجامع الأزهر فى خاتمة المطاف . وكان الجامع الأزهر عند أنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية الجديدة .

٩٧٣ م ـ ٣٦٢ هـ : وصول المعز لدين الله الفاطمى الى مصر :

فى شعبان من هذه السنة (مايو) وصل المعز لدين الله الفاطمى الى مدينة الاسكندرية ، منتقلا الى مصر نهائيا ومتخذا منها عاصمة لملكه ولذلك فلم تأت جيوشه وكل اقاربه الاحياء فحسب ، بل لقد جاء برفات آبائه واجداده الموتى .

كما حمل معه كل ما كان يملك من اموال وذخائر وتحف وكنوز مما أوفى على ما يقولون خمسمائة بعير . وما اعتبر النواة لكنوز الفاطميين الشهيرة التى استرعت

الانتباه، وشغلت أذهان من عاصروا الدولة الفاطمية، وستظل تشغل المفكرين والكتاب والمؤرخين ما بقى فكر وكتابة وتاريخ . وقد أستقبل جمهور الناس من الاعيان والعامة المعز لدين الله فى الاسكندرية أحسن استقبال، ولم يضع المعز وقتا للحصول على محبة الشعب الذى وفد عليه، فقد قام فى الناس خطيبا عند منارة الاسكندرية الشهيرة، والقى خطابا يقول عنه المؤرخون انه ابكى السامعين، وقد أكد من جديد ما جاء فى وثيقة جوهر من قبل من انه لم يدخل الى مصر طمعا فى ملك جريا وراء زيادة فى الملك، وانما كل الذى يهدف اليه هو اقامة الحق والعدل والجهاد فى سبيل الله وأن يختم حياته بالاعمال الصالحة، طبقا لما أمر به الله وحب رسول الله ... ومضى يعظ السامعين . ولم يفته بعد ذلك أن خلع على الكثيرين، واحسن الى الاكثر عددا ثم سار المعز بجيوشه وكنوزه قاصدا القاهرة، فوصل فى ٥ رمضان (١٣ يونيو) الى الجيزة، وعندما حل المعز بالقصر الكبير الذى بناه له جوهر، خر ساجدا لله، ثم نهض وصلى ركعتين، فاقتدى به كل من حضر .

نسب المعز :

ولقد اشرنا من قبل الى ما اثير من جدل حول نسب الفاطميين وكيف لم يجد العباسيون ما يحاربون به الفاطميين الا ان يطعنوا فى نسبهم، ويعتبرونهم مدعين . ولقد ظلت مسألة النسب هذه تثور فى وجه الفاطميين منذ أسسوا ملكهم فى شمال افريقيا، وازدادت القضية الحاحا بعد ان استقروا فى مصر . فيحدثنا ابن خلكان، أن المعز لما قرب من البلد وخرج الناس للقائه : اجتمع به بعض الاشراف فسأله واحد منهم : الى من ينتسب مولانا، فقال له المعز سنعقد لكم مجلسا ونسرد عليكم نسبنا، فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس فى مجلس عام وجلس لهم ثم قال : هل بقى من رؤسائكم احد، فقالوا لم يبق معتبر لم يحضر، فسل المعز عندئذ سيفه وقال هذا نسبى، ثم نثر عليهم ذهبا كثيرا وقال : وهذا حسبى، فقالوا جميعا سمعنا واطعنا (١) .

ويعلق أبو المحاسن على هذه القصة فيقول : وفى نسب المعز أقوال كثيرة أضربت عن ذكرها خوف الاطالة، والظاهر أنه ليس بشريف وانه مدع والله أعلم ونحن نشك فى هذه القصة والتى نعتبرها من تقولات العباسيين واهل السنة على المعز : ولو انهم قالوا ان المعز ذكر نسبه المدعى ثم عزز ذلك الوعد والوعيد لاستقامت القصة بعض الشيء، اما أن يبدأ المعز حياته فى مصر بانكار أن يكون له نسب أو حسب الا السيف والمال، فهذا ما لا يقبله المنطق بسهولة .

ورحم الله المقريزى الذى تصدى لمناقشة قضية نسب الفاطميين فى تمحيص علمى وخلص من بحثه الى النتيجة التالية :

وهذه الاقوال، أن انصفت تبين لك أنها موضوعة، فان بنى على بن أبى طالب

---

(١) انبنى على هذه القصة الحكمة الشائعة : سيف المعز وذهبه .

رضى الله عنه قد كانوا اذ ذاك على غاية من وفرة العدد وجلالة القدر عند الشيعة ، فما الذى يحمل الشيعة على أن يعرضوا عنهم ويدعوا لابن مجوسى أو ابن يهودى ، فهذا مما لا يفعله احد ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف ، وانما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بنى العباس عندما عجزوا عن مقاومتهم ، فلاذوا بتنفير الكافة عنهم باشاعة الطعن فى نسبهم ، حتى اشتهر ذلك فى بغداد ، وشهد الشاهدون على السماع ، فنقل الاخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه وردده حسب ما تلقوه من غير تدبر الحق من وراء ذلك .

مواكب الفاطميين فى مصر :

وبدخول المعز لدين الله القاهرة واقامته بها ، بدأت دنيا المواكب والاحتفالات الدينية التى تميز بها العصر الفاطمى ، حيث كان الخليفة يشق مدينة القاهرة فى ذهابه الى الجامع الأزهر ، او الى أبعد من ذلك فى مسجد عمرو بن العاص ، وهو مسبوق ومحاط بفرق جيشه ، وامراء دولته وكبار الموظفين ، على تفصيل وترتيب سجلته كتب التاريخ بكل دقة (١) .

وفاة ابن هانى الشاعر الاندلسى :

وفى هذه السنة مات الشاعر الاندلسى محمد بن هانى الذى استصحبه المعز من بلاد القيروان الى مصر ، وكان يمثل على ما يقول ابو المحاسن فى بلاد المغرب ما مثله المتنبى فى المشرق .

وقد خلف لنا عديدا من القصائد التى تصف حملة جوهر على مصر ودخول المعز، وقد الف عديدا من القصائد فى مدح المعز لدين الله وبلغ فى مدائحه له الى الحد الذى وصمه عند الكثيرين بالكفر والالحاد وخاصة فى بيته المشهور :

ماشئت لا ما شاءت الاقدار   فاحكم فانت الواحد القهار

٩٧٤ م ـ ٣٦٣ هـ : تجدد الخطر القرمطى على مصر :

كان اول ما واجهه المعز بمجرد وصوله الى مصر هو تجدد خطر القرامطة الذين لم يكتفوا هذه المرة بسيطرتهم على الشام ، بل قرروا ان يجددوا غزو مصر نفسها ، وان يصفوا حسابهم مع الفاطميين . وقد اراد القرمطى ان يسبغ على غزوه لمصر صفة شرعية ، فطلب من الخليفة العباس (المطيع) ان يوليه مصر والشام ليقضى على المعز ويعيد مصر الى طاعته ، ولكن الخليفة العباسى على ما يقول المؤرخون رفض هذا الطلب : فليس عنده القرمطى بخير من الفاطمى ، ولكن القرمطى وجد التشجيع عند البويهى اذ زوده بالمال ، فسار القرمطى الى الشام ناشرا الرايات السود شعار

(١) ارجع الى كتاب الخطط للمقريزى ، والنجوم الزاهرة لابى المحاسن وصبح الاعشى للقلقشندى .

العباسيين وهو يعلن ان الخليفة ولاه الشام ومصر ، ودخل دمشق مرة أخرى واعاد الخطبة فيها للخليفة العباسي ولعن المعز على المنابر .

ثم واصل زحفه نحو مصر ، فاجتاز الحدود بغير مقاومة حتى وصل الى مشتول ، وحصلت بينه وبين المعز مناوشات تقهقر المعز على اثرها وانحاز الى القاهرة .

يقول ابو المحاسن : وظل المعز محصورا بالقاهرة الى ان ارضى القرمطى بمال وخدعه وعاد الى الشام فمات بالرملة فى شهر رجب وأراح المسلمين وصفا الوقت للمعز . ولكن لين يقول غير ذلك : ان المعز لم ينجح فى ابعاد خطر القرامطة الا بعد أن اشترى شيخ قبيلة بن طى حليف القرامطة فدفع له مائة الف دينار ، صنعت خصيصا له فانسحب بقواته ، فضعف مركز حسن رئيس القرامطة وفر هاربا ونهب معسكره وقتل الف وخمسمائة من رجاله ، وارسل المعز جيشا قوامه عشرة آلاف جندى لمطاردة القرامطة الى الشام ، حيث كان الخلاف قد دب بين صفوفهم وراح بعضهم يوقع بالبعض الآخر ، حتى وصل الأمر الى أن وضع أحد قادتهم هو وابنه فى قفص وارسلوا الى القاهرة .

وهكذا فشلت محاولة القرامطة الثانية لغزو مصر والسيطرة على الشام . وبهذا استتب الأمر نهائيا للمعز لدين الله ، وللفاطميين بصفة عامة .

اول تدريس فى الازهر :

فى صفر من هذه السنة ، جلس على بن النعمان القاضى بالازهر واملى مختصر ابيه فى الفقه عن اهل البيت وكان جمعا عظيما ، واثبت اسماء الحاضرين . فكانت هذه اول حلقة للتدريس فى الجامع الازهر ، ثم تتابعت حلقات بن النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الشيعى .

٩٧٦ م ــ ٣٦٥ هـ : وفاة المعز لدين الله :

فى يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول من هذه السنة ، توفى المعز لدين الله الفاطمى وله من العمل ست وأربعون سنة ، حكم منها ثلاثا وعشرين سنة وبضعة شهور .

اما مدة حكمه فى مصر فكانت ثلاث سنوات .

واذا كان حكم الخلفاء الفاطميين فى المغرب الذين سبقوا المعز قد اتصف بالخشونة والقسوة وضروب من البربرية ، فبمقدم المعز الى مصر ، دخل الحكم الفاطمى فى مرحلة جديدة . ذلك أن المعز قد ولد سياسيا بالفطرة ، قادرا على استغلال فرص النجاح التى تهيأ له . وكان الى جوار ذلك قادرا على التعلم والتثقف ، بحيث لم يكن يكتب اللغة العربية ويتذوق الادب فحسب ، بل كان ينظم الشعر ، وكان فوق ذلك يتقن اللغة البربرية لغة قبائل المغرب وكان يدرس اللغة الاغريقية ، بل وقيل انه توفر على دراسة اللغة السلافية ليتفاهم مع عبيده من شرق أوربا .

والى جوار قدرة المعز كسياسى ، وتفوقه الفكرى والعلمى ، فقد أضاف فضيلة الكرم مع حب شديد للعدالة ، فلا عجب وهذا شأنه أن يمتد سلطانه الرسمى والفعلى على رقعة الأرض من الشام والحجاز حتى المحيط الأطلسى ، وتذكر كتب التاريخ ان جوهر القائد قبل وصوله الى مصر كان قد نجح فى ازالة كل عقبة فى طريق سلطان المعز الى المحيط ، حتى لقد اصطاد له سمكا ووضعه فى أوعية مليئة بالماء ليظل حيا حتى يصل به الى المعز .

وكانت جزيرة صقلية تحت حكمه المباشر ، وتحقق له كما رأينا عن طريق السياسة والكياسة والدعاية ، مالم يتحقق لغيره بقوة الجيوش اذ دخل مصر ، ودعى له على منابر الحجاز بغير حاجة الى استعمال العنف أو القوة .

وقد تضمنت كتب التاريخ من سيرة المعز ، ونصائحه (١) لقواده ودعوته اياهم للتعلم والتثقف والتقشف والقصد فى رضاء الشهوات والاقتصار على الزواج بامرأة واحدة ، والتسامح والبعد عن التعصب ، مالا نظن أنه قد سبق اليه ، وما يضعه فى صف أعظم الملوك والحكام وقادة الدول والشعوب .

خلافة العزيز نزار على مصر :

ولى الخلافة بعد موت المعز ابنه نزار أبو منصور والذى لقب بالعزيز بالله ، وكانت سنه يوم ولى الخلافة اثنتان وعشرون سنة .

ويلخص أبو المحاسن عهد العزيز بالله فى العبارات الشاملة التالية : وملك مصر وخطب له بالشام والمغرب والحجاز وحسنت أيامه وكان العزيز كريما شجاعا سيوسا وفيه رفق بالرعية ، ثم ينقل عن المسبحى المؤرخ المعاصر قوله فى وصف شخصيته : وكان أسمر أصهب (٢) الشعر أعين اشهل بعيد مابين المنكبين ، حسن الخلق ، قريبا من الناس ، لا يحب سفك الدماء ، وكان يهوى الصيد ، وكان أديبا فاضلا .

وفى أيامه بنى قصر البحر بالقاهرة (والذى أطلق عليه اسم القصر الغربى مقابل القصر الشرقى) ولم يكن لهذا القصر الذى بناه العزيز مثال فى الشرق أو فى الغرب .

عهد الوزراء من المسيحيين واليهود :

وقد اتسم طابع حكم العزيز بالله منذ اليوم الأول بالاعتماد الكلى فى ادارة البلاد على الوزراء من اليهود أو المسيحيين والذين أسلموا أو الذين ظلوا على دينهم . وقد كان التسامح الدينى بصفة عامة هو شعار الحكم الفاطمى منذ جاء الى مصر ، ليس فقط مع المسلمين من أهل السنة الذين تركت لهم مساجدهم وشعائر مذاهبهم التى الفوها بل مع أهل الذمة من اليهود والمسيحيين على أن هذا التسامح اخذ طابعا غير مألوف فى هذه الأزمان عندما أخذ العزيز جانب أهل الذمة ويفسر لين بول ذلك

---

(١) راجع الخطبة بكمالها فى خطط المقريزى .
(٢) اى اخمره .

الى تأثره بزوجته المسيحية من أصل روسى ، واستدل على وجهة نظره بأن العزيز عين اخوى هده السيدة بطريركيين ملكانيين احدهما فى الاسكندرية والثانى فى بيت المقدس .

كما استطاع بطريرك الأقباط ان يحصل منه على اذن باعادة بناء كنيسة ابى سيفين خارج مدينة الفسطاط وبتشجيع من العزيز دخل ساويرس اسقف الاشمونين فى منافشة حول العقائد مع قاضى القضاة ابى نعمان الشهير الذى يعتبر أحد دعائم الحكم الفاطمى .

٩٧٧ م ـ ٣٦٦ هـ : تولية يعقوب بن كلس الوزارة :

وقد بدأ العزيز هذه السلطة من الوزراء ، بتولية يعقوب بن كلس الوزارة فى هذه السنة ، على أن يعقوب وان كان يهودى الاصل ولكنه دخل فى الاسلام ، ولكنا سنرى ، كيف أن العزيز لن يلبث بعد موت ابن كلس ان يعين مكانه عيسى بن نسطوروس المسيحى فى الوقت الذى كان يقوم فيه على مالية الشام منشة اليهودى ومن المحقق أن العزيز لم يعتمد على هؤلاء المعاونين الا لما اظهروه من كفاءة فنية فى أعمالهم ، وقدرة على ادارة الأعمال وجمع الأموال ، وربما كان العزيز فى اتخاذه هذا الطراز من الوزراء بعيد النظر ، فلم يحدث ان واحدا من هؤلاء حدثته نفسه أن يستبد بالسلطان كما فعل الوزراء من بعد عندما أصبحوا يختارون من طبقة قادة الجيش وكبرائه .

على أية حال ، فقد أحفظ اعتماد العزيز على أهل الذمة الناس فى عهده ، وقد كان الدين يؤلف محور حياتهم ، ولذلك فان كتب التاريخ تحفظ لنا ان امراة كتبت اليه تقول :

" بالذى أعز اليهود بمنشة والنصارى بابن نسطورس واذل المسلمين بك هلا نظرت فى أمرى .

فكان لهذا التقريع اثره فى نفس العزيز ، حتى لقد قبض على اليهودى والنصرانى ، وصادر أموالهما . وان كان قد أعاد ابن نسطورس الى الوزارة فيما بعد .

٨٩٠ م ـ ٣٦٩ هـ : الوزير يعقوب بن كلس يدرس فى الأزهر :

على أن عهد الوزراء من غير المسلمين قد جاء فى أخريات عهد العزيز ، أما فى هذه الفترة الأولى فقد كان الوزير لايزال مسلما وان كان من أصل يهودى ولم يكن يعقوب ابن كلس مجرد مسلم ، بل كان متفقها فى الفقه الشيعى على مذهب الاسماعيلية ولذلك فقد شرع فى رمضان من هذه السنة فى القاء دروسه فى الأزهر فكان يحضر دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة ... كما هو الشأن بالنسبة لابن نعمان .

٩٨٢ م / ٣٧٢ هـ نفوذ العزيز يصل الى داخل بغداد :

وبلغ نفوذ العزيز ، الى بغداد نفسها حيث استنجد به عضد الدولة البويهى صاحب السلطان على فارس والعراق ، ليعاونه على حرب الروم ، ويثبت أبو المحاسن رد العزيز على عضد الدولة وجواب عضد الدولة على هذا الرد .

حيث سجل فيه اعترافه بفضل أهل البيت ويقر للعزيز أنه من أهل تلك النبعة الطاهرة ، وانه فى طاعته يخاطبه بالحضرة الشريفة .

ويبدى أبو المحاسن دهشته من أن يكتب عضد الدولة مثل هذا الخطاب للعزيز ، خصوصا وانه لا يمكن أن يكون قد كتبه الا بعد « أن قرأه فى حضرة الخليفة الطائع ، وأرسله بعلمه . وهذا من اعجب العجب » .

ومع أنه ليس هناك ما يدعو لهذا العجب ، فالبويهيون كما هو معروف كانوا شيعة . وكان الخليفة العباسى معهم لا سلطان له . وقد كان الموقف موقف استعانة بجيوش مصر لدفع خطر الروم على العراق .

٩٨٥ م / ٣٧٥ هـ كتاب المهلبى فى الطرق والمسالك :

فى هذه السنة الف المهلبى كتابا فى الطرق والمسالك أهداه للعزيز ، وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفا دقيقا حيث كان علماء الجغرافيا لا يعرفون من أخبار السودان الا قليلا (حضارة الاسلام فى القرن الرابع) .

٩٨٦ م / ٣٧٦ هـ وفاة المستنصر صاحب الأندلس :

فى هذه السنة مات الحكم بن عبد الرحمن الخليفة الأندلسى ولقبه المستنصر ، وكان العزيز بالله على ما يقول بعض المؤرخين قد مد بعينيه صوب الأندلس ، فأرسل كتابا الى المستنصر يهدده فيه ويسبه ويهجوه ، فبعث المستنصر الى العزيز برد بليغ استهله على ما يقول ابن اياس بأبيات من الشعر جاء فيها :

السنا بنى مروان كيف تقلبت ... بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
اذا ولد المولود منا تهللت ... له الأرض واهتزت اليه المنابر

ثم قال العزيز : وبعد فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لهجوناك والسلام .
يعرض بذلك بنسب الفاطميين . يقول ابن اياس فأسكت العزيز ولم يعد لها .

٩٨٧ م / ٣٧٧ هـ ــ العزيز يدعى له فى جامع القسطنطينية :

دارت رحى المعارك بين جيوش العزيز فى شمال سوريا وبين جيوش الروم ،

وكانت جيوش العـزيز تحت قيـادة متجوتكين ، وقد انتصر متجوتكين على جيوش الروم . ثم قرر العزيز أن يعد العدة على أوسع نطاق لغزو الروم ، فشرع يجهز مراكب الأسطول ويهيىء الجيوش للغزو ، ويبدو ان أخبار هذا الاستعداد قدوصلت الى مسامع الروم ، وأفزعهم الحديث عن الشوانى (المراكب الحربية الكبيرة) ذات القلاع والأبراج التى توشك أن تهاجم القسطنطينية فى البحر ، حيث تغزوهم الجيوش من البر ، فأرسلوا وفدا الى العزيز يلتمس الصـلح ، وحمل الوفد معه الكثير من الهـدايا والنفائس . وقد قبل العزيز ابرام هدنة لمدة سبع سنوات يسود فيها السـلام بين البلدين ، على أن لا يبقى الروم فى دولتهم أسيرا مسلما واحدا وان يقسموا على ذلك . وأن يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة . وأن يحصل الروم للعزيز فى كل سنة قدرا معينا من أمتعة الروم وقد استجاب الروم الى هذه الشروط كلها ، وهكذا تم الصلح بين العزيز والروم .

٩٨٨ م / ٣٧٨ هـ ـ اتخاذ الأزهر مدرسة للعلم :

ذكرنا فيما سبق أن القاضى النعمـان ، والوزير يعقوب بن كلس ، قد اتخذا من الأزهر مكانا لالقاء دروسهما فى الفقه الشيعى ، ولكن فى هذه السنة اسـتأذن الوزير يعقوب بن كلس الخليفة العزيز ، فى أن يحول الأزهر الى معهـد للدراسة المنظمة ، فجرى تعيين خمس وثلاثين فقيها أجريت عليهم الأرزاق الشهرية ، وبنى لهم مسكنا خصص لهم بجوار الجامع الأزهر (١) ، وعهد اليهم بالدرس والقراءة فى أوقات منظمة مستمرة على أن تعقد حلقاتهم فى الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر . وكانت هذه هى النواة التى ستزدهر طوال الحكم الفاطمى ، فيزيد طلابه وأساتذته ، وتكثر أروقته وحلقات التعليم فيه فتنمو به الدراسة وتزدهر بحيث تجتذب الطلاب والعلماء من الخارج ، وهكذا بعثت فى العهد الاسلامى ، ما اشتهرت به مصر فى عهد البطالسـة والرومان من علم يتمثل فى جامعـة الاسكندرية . ومن سـبقه ذلك من شهرتها فى العالم ممثلا فى جامعة عين شمس .

٩٩٠ م / ٣٨٠ هـ ـ وفاة يعقوب بن كلس :

توفى أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس رجل الدولة الأول فى حكم العزيز ، وقد كان فى الأصل يهوديا من أهل بغداد ثم انتقل الى الرملة فى فلسطين وعمل سمسـارا فانكسر عليه مال فهرب الى مصر ، وتاجر لكافور الاخشيدى ، فرأى منه فطنة فقال : لو أسلم لصلح للوزارة . فأسلم . وكان الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات يحسده ويعاديه ، فلما مات كافور قبض على يعقوب بن كلس فلم يزل يتوسل ويبذل الأموال حتى أفرج عنه . فلما خرج من الاعتقال فر الى بلاد المغرب لجأ الى المعز لدين الله

(١) ظل هذا هو النظام المعمول به حتى عصرنا الحاضر « نظام الاروقة » .

الفاطمى . وكان ممن عملوا على خدمته لانجـاح مشروع فتح مصر ، وظل يترقى فى المناصب الى أن أصبح وزيرا للعزيز فاستقامت أمور العزيز بتدبيره . ويذكر لين بول أن العزيز غضب عليـه أكثر من مرة وأودعه السجن ، ولكنـه كان لا يلبث أن يحس بالفراغ فى غيابه فيفرج عنه ويعيده أكثر قوة ونفوذا .

ولما أشرف على الموت عاده العزيز وحزن من أجله حزنا شديدا وقال له : وددت انك تباع فأشتريك بملكى أو تفتدى فأفديك بولدى فهل من حاجة توصى بها . فبكى ابن كلس وقبل يده وجعلها على عينيه ثم أوصى العزيز بوصايا ومات . فصلى عليه العزيز والحده فى قبره بيديه فى قبة كان العزيز قد بناها لنفسه وأغلق الدواوين عدة أيام حدادا عليه .

يقول أبو المحاسن : وقيل انه حسن اسلامه وقرأ القـرآن والنحو وكان يجمع العلماء والفضلاء ، وقيل انه كفن وحنط بما قيمته عشرة آلف دينار ورثاه عند موته مائة شاعر .

وقد وجد فى تركته من الجواهر ما قيمته ٤٠٠,٠٠٠ دينار ومن الملبوس والركوب ما قيمته ٥٠٠,٠٠٠ دينار ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلف غلام . وسكنه بالمنطقة التى عرفت باسم الوزيرية ، حيث لم يكن يقيم بها سواه ومماليكه وحاشيته .

٩٩١ م / ٣٨١ هـ ــ الشروع فى بناء مسجد الحاكم :

فى هذه السنة شرع العزيز فى بناء الجامع الذى سيتمه ابنه الحـاكم من بعـده فيطلق عليه اسمه ، والذى سيكون دارا للعلم والحكمة ويرمز ارقى العلوم فى عهـد الفاطميين .

وفاة جوهر القائد :

فى العشرين من ذى القعدة من هـذه السـنة مات جوهر الصـقلى مؤسس حكم الفاطميين فى مصر ومنشىء القاهرة والجامع الازهر . وقد فقد سلطانه الفعلى بعـد وصول المعز لدين الله الفاطمى الى مصر ، وان ظل محاطا بأعلى درجات التكريم فكان يعد اميرا للأمراء ، وظل ذلك حاله أيام العزيز ، وان كانت سلطة الوزارة والتدبير قد أصبحت ليعقوب بن كلس .

وينتهز المؤرخون القدامى ذكر وفاة جوهر لكى يسرفوا فى ذكر مدى ما خلف من اموال والتى يدرك المطالع لأول وهلة أن لابد أن قد اعتورها خطأ فى الاملاء أو فى النقل فهم يقولون انه خلف من الذهب العين ستمائة الف الف دينار ولابد أن تكون هنا ألف زائدة ، فلو خلف ستمائة الف دينـار فقط الى جوار ما ترك فان هذا يكون شـيئا جسيما ــ كما يقولون انه خلف من الدراهم أربعة آلف ألف درهم ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت اربعة صناديق ومن القصب الزمرد ألف قصبة ومن الثيـاب والديبـاج

سبعون الف قطعة . ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهى مرصعة بالذهب والياقوت تقوم ما بها من الجواهر باثنى عشر الف دينار . ووجد فى داره مائة مسمار من الذهب على كل مسمار منها عمامة ذات لون خاص ، ووجد عنده من الملاعق الذهب والفضة ثلاثة آلاف ملعقة ، ووجد عنده عشرة آلاف زبدية صينى وبللور وفضة ... الى ان يقولوا وهذا كله خارج عن البغال والجمال والخيل والعبيد والجوارى والفرش والاملاك والضياع وغير ذلك .

ولقد نقلنا هذه الرواية بهذا التفصيل ، لأنها تصور مدى البذخ والغنى الذى كان عليه الأمراء والكبراء فى العصر الفاطمى .

٩٩٥ م ـ تخريب دار صناعة السفن :

فى هذه السنة وقع حادث غريب فى مصر اذ شب حريق فى دار الصناعة التى كانت تبنى مراكب الأسطول على ضفاف النيل عند المقس ، وقد عزى حرق دار الصناعة الى مؤامرات بيزنطة فقبض على مائة من التجار اليونانيين واعدموا .

يقول ارشيبالد . ر . اويس فى كتابه القوى البحرية والتجارية : وليس هناك ما ينطق بتفوق الفاطميين وقدرتهم البحرية من هذه الحقيقة الهامة وهى انهم انزلوا للماء بعد ثلاثة شهور فقط منذ الحريق سفنا من خير انواع السفن وظهر فى المياه الشرقية للبحر المتوسط اسطول جديد اقوى من كل ما سبقه ترفرف عليه راية خلافة القاهرة .

لن يلبث أن يهزم الأسطول البيزنطى بعد ثلاث سنوات . أى (٩٩٨ م) .

٩٩٦ م / ٣٨٦ هـ ـ وفاة العزيز بالله :

وفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان من هذه السنة طويت صفحة العزيز أبو منصور نزار بن المعز خامس الخلفاء الفاطميين ، وكانت سنه يوم مات اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر حكم منها احدى وعشرين سنة .

ويروى لنا المختار المسبحى المؤرخ المعاصر ان الحاكم ابن العزيز قال له : استدعانى والدى قبل موته وهو عارى الجسم وعليه الخرق والضماد (أى أنه كان فى الحمام) فاستدعانى وقبلنى وضمنى اليه وقال : والهفى عليك ياحبيب قلبى ودمعت عيناه ، ثم قال امض ياسيدى فالعب فأنا فى عافية ، قال الحاكم فمضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب الى ان نقل الله تعالى العزيز اليه . وأبو المحاسن الذى نقلنا عنه القصة السابقة يعتبر العزيز احسن الخلفاء الفاطميين بالنسبة لأبيه المعز ولابنه الحاكم . واذا صح تفضيل العزيز على ابنه الحاكم ، فلسنا نعرف علام يفضله أبو المحاسن على ابيه المعز،الا أن يكون من حيث طول مدة الحكم واتساع

رقعة سلطانه فوق رقعة سلطان أبيه حيث دعى له على منابر اليمن ، وفى جامع القسطنطينية على ما ذكرنا ، فوق ما دعى فيه لأبيه من الحرمين حتى الأطلس .

على أن المتفق عليه أن عهده كان عهد بناء وانشاء وتعمير فبنيت في عهده المساجد، ودور الصناعة لانشاء الأسطول الذى وصل فى عهده الى الذروة ، كما وصل ما بداه أبوه من العناية باصلاح الريف المصرى ليدر الخيرات فازدهرت الزراعة والصناعة فى عهده .

وكان العزيز أول من خصص المرتبات الشهرية للموظفين والاتباع ، وخصص لكل منهم ملابس خاصة به .

اعتماد العزيز على الأتراك :

على أن العزيز بدأ هذه الخطوة ، التى ستكون بعد حين الصخرة التى يفقد فيها الفاطميون سلطانهم الفعلى ولا يبقى لهم سوى الاسم ، ثم تنتهى بزوال دولتهم من أساسها ، وتلك هى الاعتماد على الجند والقواد من الاتراك ، بدلا من قبائل كتامة التى قامت على أكتافها الدولة . ولا شك أن العزيز قد قصد بذلك كسر شوكة القبائل ، واحداث توازن فى القوى العسكرية .

صور من الحياة فى عهد العزيز

ولعله ليس هناك ما يصور لنا طبيعة الحياة فى ذلك الزمان ، من أن نشير الى ما يسمى دار الفطرة التى انشأها العزيز ، وهى مطبخ ضخم لصنع الحلوى طوال شهر رمضان لتوزع على الناس على قدر مراتبهم الكبير والصغير والقوى والضعيف وكان التوزيع يبدأ من أول رجب حتى آخر رمضان . وقد تضمنت كتب التاريخ تفاصيل المواد الأولية التى كانت تستهلك فى هذا المصنع الضخم لعمل الحلوى .

ولم يكن هذا المصنع الا نموذجا لما كان الخليفة الفاطمى يوزعه على الناس من الأطعمة والحلوى والاكسية والنقود فى شتى المناسبات .

خزائن القصر :

وقد حفظ لنا المقريزى وصفا مفصلا لما كان يحتوى عليه قصر الخليفة من خزائن كان بعضها فى الحقيقة أشبه ما يكون بالمصانع ، ويضيق بنا المجال عن تعداد هذه الخزائن ومحتويات كل منها ، وحسبنا أن نذكر أسماءها ليرجع الى المراجع من يريد الاستزادة من تفصيل ما كان يوجد بكل منها .

فقد كانت هناك :

- خزانة الكسوة .
- خزانة الجوهر والطيب والطرائف .
- خزائن السلاح .

- خزائن الفرش والاقنعة .
- خزانة السروج .
- خزانة الشراب .
- خزانة الطعام .
- خزانة الخيام .
- خزانة البنود والاعلام .

خزانة الكتب :

على أن ما يعنينا من هذه الخزائن كلها ، هو خزانة الكتب فقد اقترنت باسم العزيز كثيرا . حيث يحدثنا المسبحى أن كتاب العين للخليل بن أحمد ذكر فى حضرة العزيز فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من الكتاب احداها بخط الخليل بن أحمد نفسه . وحمل اليه رجل نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزينة ما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى أحداها بخطه وهكذا ما ذكر الا وكان فى خزائنه عدة كتب .

وكان يوجد بالقصر أربعون خزانة وكان فى احدى الخزانات ثمانية عشر الف كتاب من العلوم القديمة .

مجالس العلم والأدب فى الفسطاط :

واذا كان الخلفاء الفاطميون قد عنوا بتدريس مذهبهم فى الازهر ، وجعل القاهرة هى مركز العلم ، فان الفسطاط التى تمثل قلب الشعب الخفاق ، كانت بدورها فى أوج نشاطها العلمى والادبى ، وقد حفظ لنا المقدسى الذى زار مصر فى هذه الحقبة من أخريات القرن الرابع ، صورة لما كان عليه النشاط العلمى والأدبى فى الفسطاط بجامع عمرو حيث يقول :

« وبين العشاءين (١) جامعهم يغص بحلقات الفقهاء وائمة القراء وأهل الأدب والحكمة . وحلقة مع جماعة من القاوسة ، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين :

ودوروا وجوهكم الى المجلس ، فنظر فاذا نحن بين مجلسين ، وعددنا فيه مائة وعشرة مجالس وعلى هذا جميع المساجد فاذا صلوا العشاء اقام البعض الى ثلث . ولا نرى أجمل من مجالس القراء به (٢) .

شعر فى وصف مصر :

وكتاب الخطط للمقريزى يحوى أشعارا ممتعة فى وصف مصر فى هذه الفترة ، تشير الى مباهج العصر .

ومناطق اللهو والنزهة ، لابراهيم بن القاسم الملقب بالرشيد عند ما غادر مصر عام ٣٨٦ هـ .

---

(١) العشاءين : المغرب والعشاء .

(٢) تاريخ مصر الاسلامية ــ جمال الشيال ــ ص ١٣٧ .

٩٩٦ م ـ ٣٨٦ هـ : خلافة الحاكم بأمر الله :

فى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر رمضان ولى أبو على منصور ابن العزيز بالله الملقب بالحاكم . وكان أبوه قد عهد اليه بالخلافة من بعده قبل موته بثلاث سنوات (عام ٣٨٣ هـ) وجعل من الأمير أبو الفتوح بن برجوان قائد الجيوش التركية وصيا عليه ومدبرا لأموره . وكانت سنه يوم ولى الخلافة أحدى عشرة سنة ونصف . والحاكم بأمر الله هو ذلك الحاكم الذى أصبح يضرب به المثل فى طول العالم الاسلامى وعرضه فى التحكم والاستبداد والشذوذ الذى يؤدى اليه الحكم المطلق والسلطان غير المقيد . فقد راح الحاكم يتأرجح بين أقسى ضروب الظلم وأرحب صور العدل ، بحيث أصبحت حياته صورة فذة من التناقض الذى ينبعث من انقسام الشخصية التى كشف عنها العلم الحديث (١) .

يقول صاحب مرآة الزمان على ما نقله عنه أبو المحاسن :

وكانت خلافته متضادة بين شجاعة واقدام ، وجبن واحجام ومحبة للعلم ، وانتقام من العلماء ، وميل الى الصلاح وقتل الصلحاء . وكان الغالب عليه السخاء، ومع ذلك فقد يبخل بما لم يبخل به أحد قط . واقام يلبس الصوف سبع سنين (أى متصوف) وامتنع عن دخول الحمام ، وأقام سنين يجلس (فى ضوء) الشمع ليلا ونهارا ، ثم عن له أن يجلس فى الظلمة فجلس فيها مدة . وقتل من العلماء والكتاب والأماثل ما لا يحصى . وكتب على الجوامع سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص رضى الله عنهم فى سنة٣٩٥م ، وأمر بقتل الكلاب وبيع الفقاع ثم نهى عن ذلك . ورفع الضرائب عن البلاد وعما يباع فيها . ونهى عن النجوم وكان ينظر فيها . ونفى المنجمين وكان برصدها ، ويخدم زحل وطالعه المريخ ولذلك كان يسفك الدماء ، وبنى جامع القاهرة (وهو الجامع الذى شرع فيه ابوه) وجامع راشدة على النيل ومساجد كثيرة ، ونقل اليها المصاحف المفضضة والستور الحرير وقناديل الذهب والفضة، ومنع من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها، وقطع الكروم ومنع بيع العنب، ولم يبق فى امارته كرما . واراق خمسة آلاف جرة من العسل فى البحر مخافة أن تصنع نبيذا . ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها، وألبس اليهود العمائم السود، وأمر الا يركبوا مع المؤمنين فى سفينة والا يستخدموا غلاما مسلما، ولا يركبوا حمار مسلم ولا يدخلوا مع المسلمين حماما، وجعل لهم حمامات على حدة، ولم يبق فى ولايته ديرا ولاكنيسة الا هدمها . وابطل الصلاة عليه فى الخطب والمكاتبات ، وجعل مكان الصلاة عليه : السلام على أمير المؤمنين ثم رجع عن ذلك وأسلم فى أيامه خلق كثير من أهل الذمة خوفا منه ، ثم ارتدوا وعادوا الى دينهم وأعاد الكنائس على حالها » .

(١) لعل قصة دكتور جيكل ومستر هايد ، هى خير تقريب لشخصية الحاكم الى الأذهان .

وقد اخترنا لك هذا التلخيص ليصور حياة الحاكم ، وليس أدل على صدقها من أنها ذكرت حسناته الى جوار سيئاته مما يدل على أن المؤرخين قد رصدوا أعماله بدقة ..

على أن تفسير أمر الحاكم يهون اذا نذكرنا أنه كان صبيا صغيرا عندما تقلد الحكم ، وقد أبى بعد حين الا أن يباشر السلطة بنفسه ، فزاولها شابا فى عنفوان الشباب ونحن نعلم ماذاتفعل المراهقة فى الشباب حتى اتصل بهم الى حد الجنون . وسمة الشباب بصفة عامة عدم الاستقرار على حال .

٩٩٧ م / ٣٨٧ هـ : عزل ابن نسطورس من الوزارة وتولية ابن عمار :

أشرنا من قبل الى تضرر المسلمين من وزارة ابن نسطورس المسيحى ولذلك فلم تكد الأمور تستقر للحاكم ، حتى تقدم الكتاميون وهم عصب الخلافة الى الحاكم وطلبوا منه عزل الوزير ابن نسطورس ، وتولية زعيم الكتاميين أبو محمد الحسن ابن عمار ، فأجابهم الحاكم الى ما طلبوا وتقلد ابن عمار الدولة بعد ان أطلق عليه لأول مرة اسم أمين الدولة . وكان هذا أول تلقيب للوزراء ، وستظل هذه الألقاب تتصاعد كما سنرى الى أن يلقب الوزير بالملك .

وكان طبيعيا أن لا يرضى برجوان الوصى على هذا التصرف فراح يؤلب زعماء الجند من الأتراك على ابن عمار ، وانتهى الأمر بأن ضيق الأتراك على ابن عمار فلم يسعه الا أن يهرب مع جماعة من أتباعه . وهكذا خلا الجو لبرجون فانفرد بالسلطة .

وفاة الحسن بن زولاق المؤرخ المصرى :

وفى أواخر ذى القعدة من هذه السنة توفى الحسن بن زولاق ، وهو أبو محمد المصرى الحافظ الذى صنف كتابا فى قضاة مصر ذيل به كتاب الكندى ووصل به الى عام ٣٨٦ هـ وهى أيام محمد بن النعمان قاضى الفاطميين .

وقد عاصر بن زولاق الدولة الأخشيدية ، وأدرك صدرا من الدولة الفاطمية ، والف عددا كبيرا من الكتب فى هذا الفن منها سيرة الأخشيد وسيرة كافور وسيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وسيرة الماذرائيين وزراء الأخشيد كما الف سيرة خاصة لصديقه وزميله فى الدراسة سيبويه المصرى — وهو عالم نحوى عاش فى الفسطاط فى أواخر العصر الأخشيد وجرت له مساجلات مع المتنبى عند زيارته لمصر . وهذا الكتاب الأخير هو وحده الذى وصل الينا وقد فقدت كتبه الأخرى ، ولكن المؤرخين اللاحقين عليه وخاصة المقريزى قد نقلوا عنها الكثير .

١٠٠٠ م / ٣٩٠ هـ : مقتل الأمير برجوان الوصى :

لم يعجب الحاكم تصرف برجوان فى طرد ابن عمار والاستئثار بالسلطة ، حتى

لقد أصبح الحاكم محجورا عليه . وقد كان رغم صغر ســنه تواقا الى ممارســة السلطة . وقد زاد في حنقه على برجوان أن هذا الأخير قد منعه من الاتصال المباشر برجال الدولة . ولذلك فقد كاد له الحاكم بأمر الله ودبر له من قام بقتله ورفع الى الوزارة حسين بن جوهر الصقلي ، ولقبه بقائد القوات .

وتصول كتب التاريخ القديمة وتجول فيما خلفه برجوان وراءه من ثروة يقولون عنها انها فاقت ما خلفه جوهر الصقلى نفســه .

الحاكم يزاول مظاهر الســلطة :

ولم يكد الحاكم يتخلص من برجوان ، حتى بدأ يشرف بنفسه على حكم البلاد وادارتها ، فكون مجلسا يضم كبار الموظفين لبحث شــئون الحكم كما حرص على التجول ليلا فى المدينة للوقوف على أحوال الناس ، ولكى يتيسر له تحقيق هذه الغاية أمر الناس بتعليق مصابيح على جميع الحوانيت والمحال المختلفة فى جميع الطرقات القاهرة والفسطاط . فترتب على ذلك تغيير كبير فى نظام الحيــاة المصرية ، حيث أصبحت الأعمال والمعاملات تجرى ليــلا .. فكان ذلك أول ما أعتبر من شــــذوذ الحاكم ..

وبدأ المصريون يطلقون نكاتهم التقليــدية والتى أخــذت طريقهــا الى بطون كتب التاريخ .

١٠٠٥ م ٣٩٥ هـ ــ انقلاب الحاكم ضد الذميين :

انقضت السنوات العشر الأولى من حكم الحاكم فى سياسة التسامح التى اتبعها ابوه وجده من قبله مع اهل الذمة من سكان البــــلاد ، حيث كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية ويشاركون فى الحياة العامة بكل سبيل ، فلما كانت هذه اســـــنة ، انقلب الحاكم على اهل الذمة فحتم على اليهود ان يحملوا فى اعناقهم قرامى الخشب على صورة العجل حيث تزن القرمة خمسة ارطال مصرية وان يلبسوا العمائم السود وان يعلق النصارى الصلبان فى اعناقهم على ان يكون طول الصليب ذراعا وزنته خمسة ارطال مصرية . ولايكتروا بهيمة مسلم ، وان يدخلوا الحمام بالصــلبان . وامر النصارى بعدم الاحتفال بعيد النيروز على شواطىء النيل لابطال ماكان يقترن بها من ملاهى باذخة .

ثم زاد على ذلك فأصدر أمره بهدم جميع الكنائس والاديرة فى القطر المصرى ومصادرة الأوقاف المرصودة عليها وضمها الى الديوان .

وقد ادت هذه السياسة الى دخول الكثيرين من اهل الذمة الى الاســلام ، كما هاجر البعض الآخر الى دولة الروم والحبشة والنوبة ، بعد أن سمح لهم الحاكم بهذه الهجرة واباح لهم حمل أموالهم .

اضطهاد المسلمين :

ولم يكن اضطهاد الحاكم لاهل الذمة منبعثا من تعصب دينى بقدر ماكان منبعثا من امتهانة للانسانية فى مجموعها ، وليس ادل على ذلك من أنه فى هذه السنة نفسها اصدر امره بسب الصحابة وان تنقش الفاظ السب على جدران المساجدوفى الاسواق والشوارع والدروب ـ كما اصدر امره بتعميم المذهب الشيعى والغاء المذهب السنى وما يترتب على ذلك من حظر صلاة الضحى والتراويح فى رمضان واضافة حى على خير العمل فى الاذان وغير ذلك . مخالفا نص العهد الذى قطعه جوهر للمصريين ، وسار عليه العمل فى ايام المعز والعزيز وهو ان لايتعرض للمصريين فى مذهبهم . وفى هذه السنة ايضا على مايقول المقريزى كان حظر الحاكم على المصريين اكل الملوخية والجرجير وذبح الابقار السليمة ومنع بيع الفقاع ـ ولايباع شىء من السمك بغير قشر .

١٠٠٧ م ـ ٣٩٧ هـ : ثورة ابى ركوة والقضاء عليها :

كان طبيعيا وقد بدات تصرفات الحاكم تثير الاضطراب ، ان ينتهز اعداء الخلافة الفاطمية الفرصة لمحاولة تقويض سلطانها . وكانت ثمة خلافتان تقومان على شرق الخلافة الفاطمية وغربها . فأما أولاهما فهى الخلافة العباسية فى بغداد ، والثانية هى الخلافة الاموية فى الاندلس .. وكانت الخلافة الفاطمية شجا فى حلق الخلافة الأندلسية ، حيث كانت تحتل الشاطىء الافريقى المقابل . فحركت الخلافة الاموية احد رجالها فى برقة والصحراء الغربية وكان يدعى ابو ركوة فادعى الانتساب الى بنى امية ، ونادى بالخروج على الحاكم وحربه فانضمت اليه قبائل الكتامية المغربية ، التى اوترها الحاكم بطرد زعيمها ابن عمار . واستطاع ابو ركوة بجيشه وحلفائه ان يستولى على برقة وأن يهاجم حدود مصر الغربية ، فأرسل الحاكم جيشا لمقاتلته ، ولكن هذا الجيش قد اندحر ، ولما ارسل اليه جيش ثان ، هزم بدوره .

ولكن الحاكم وفق اخيرا الى قائد لجيوشه وهو الفضل بن صالح فاستطاع ان يهزم ابا ركوة وان يوقع مذبحة فى جنوده وقبض على ابى ركوة نفسه وسيق الى القاهرة ، حيث شهر به ثم اعدم وصلب جسده للعبرة .

١٠٠٨ م ـ ٣٩٨ هـ : هدم كنيسة القيامة :

ذكرنا من قبل ان الحاكم اصدر امره بهدم جميع الكنائس والاديره فى مصر ... وفى هذه السنة ذهب الى ابعد من ذلك فأصدر امره بهدم كنيسة القيامة فى بيت المقدس غير ملق بالا لقداستها عند مسيحى الدنيا كلهم ، واباح للعامة نهب ما فيها من اموال وذخائر نفيسة وامتعة .

ويقول الدكتور سرور ان هذا الحادث يعتبر بمثابة البذرة الاولى لايقاد نار الحرب الصليبية التى لن يلبث ان يدعو لها بابا روما .

ومن عجب ان وزير الحاكم الذى اشرف بنفسه على تنفيذ هذا التصرف الخطير كان مسيحيا وهو ابن عبدون . وقد دفع جزاء ذلك ، ان قتله الحاكم فى العام التالى. وكان الحاكم قد اعتاد على ان يقتل وزراءه احسنوا ام أساءوا ، اصابوا أم أخطأوا.

١٠١٠ م ـ ٤٠٠ هـ : الحاكم يعالج اخطاءه ويكفر عنها :

وانتابت الحاكم موجة صحو فيما يبدو ، واحس بموجة السخط التى عمت البلاد فراح يلغى كل ما أصدره من اوامر صدمت مشاعر الناس ، فأوقف سب الصحابة الذى كان قد أمر به ، وأمر بمحو النقوش والكتابات الخاصة بسبب أبو بكر وعمر وعثمان . واعاد التصريح بصلاة الضحى والتراويح وغير الاذان وجعل مكان حى على خير العمل ـ الصلاة خير من النوم (التى لاتزال يؤذن بها حتى الآن) .

وركب بنفسه الى جامع عمرو بن العاص وصلى به الضحى واظهر الميل الى مذهب الامام مالك ـ وأهدى المسجد العتيق الكثير من الهدايا النقدية والعينية من التحف والثريات التى تصفها لناكتب التاريخ بدقة .

وفعل ماهو اكثر من ذلك فأظهر التقشف والنسك ، وحيث كان ابوه وجده لا يسيرون الا فى مواكب ترتج لها القاهرة فقد أصبح لا يركب سوى الحمار ويسير فى غير صخب او حاشية ومنع من ان يخاطب بمولانا ، او ان يقبل الارض بين يديه .

وقرر دفع الرواتب لمن يأوى الى المساجد من الفقراء والغرباء ابناء السبيل واجرى لهم الارزاق .

وفعل مالم يفعله احد من قبله ، حيث راح يحمل الطيب والبخور والشموع بنفسه الى المساجد .

ومضت سنوات وهو على هذا المسلك الحميد .

انشاء دار الحكمة :

على ان اعظم ما قام به الحاكم فى هذه الفترة المشرقة من حياته هو انشاء دار الحكمة أو دار العلم ، اذا جهزها بالفرش اللازم ثم نقل اليها امهات الكتب العظيمة واختار لها شيخين من كبار علماء أهل السنة يعرف أحدهما بأبى بكر الانطاكى وترك لهما اختيار باقى الفقهاء والمحدثين بالمعهد الذى لم يقف التدريس فيه عند حد تدريس الفقة والشريعة ، بل تجاوزه الى تدريس علوم اللغة والأدب والشعر والفلك والطب ، بحيث اشبه المعهد ان يكون جامعة عصرية بكل ماتحويه الجامعات الحديثة من علوم .

١٠١١ م ـ ٤٠١ هـ : الدعاء الحاكم فى مساجد الموصل والانبار والمدائن :

استطاع الحاكم عن طريق المكاتبات والهدايا والاعطيات ان يمد نفوذه فى الشرق الى ما وراء الحرمين ، والشام ، اذ حمل امير الموصل معتمد الدولة مزواش بن مقلد ان يدعو له فى صلاة الجمعة على منابر الموصل وتوابعها كالانبار والمدائن ، وان يثنى عليه وعلى آله المكرمين الثناء الجم .

ولقد حفظت لنا كتب المشارقة ، نص اول خطبة القيت بهذه المناسبة .

وقد انزعج القادر الخليفة العباسى لهذا الانقلاب ، واصدر امره باعداد الجيوش لمحاربة معتمد الدولة ، ولكن هذا الأخير لم يكد يسمع بذلك حتى اعتذر عن فعلته واوقف الخطابة للحاكم واعادها للخليفة العباسى .

١٠١٢ م ـ ٤٠٢ هـ : طعن العباسيين فى نسب الفاطميين :

كان طبيعيا ان يثير هذا الحادث ثائرة الخليفة العباسى ضد الحاكم ، واذ كان اضعف من ان يسير اليه جيشا يردعه فقد لجأ الى سلاح الدعاية ، فجمع عددا من علماء بغداد وقضاتها وعلى راسهم الشريف الرضى (١) ، واخوه المرتضى ومن الفقهاء أبو حامد الاسفرايينى وأبو عبد الله البيضاوى وكتبوا محضرا طعنوا فيه فى النسب الفاطمى واعلنوا فيه أن الحاكم وأسلافه : ادعياء خوارج لا نسب لهم فى أولاد على بن أبى طالب ، وانما هم كفار فسقه فجار ، ملحدون زنادقة ، معطلون للاسلام جاحدون ولمذهب المجوسية والثنوية معتقدون ، وقد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، واحلوا الخمر ، وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية .

وليس هناك مايظهر زيف هذه الدعاوى ، الا مامر بنا من سيرة المعز وابنه العزيز من أهل مصر حيث ازدهر بها الاسلام ، اما ماوقع فيه الحاكم من انحرافات ، فهى اخطاء شخصية قد ترى فى مثلها كثير من الحكام فى مختلف العصور على ما مر بنا .

١٠١٣ م ـ ٤٠٤ هـ : الحاكم يعتق الارقاء ويحرر العبيد :

وانتابت الحاكم صحوة من صحواته المحيرة فاذا به يصدر امرا بعتق كل ما كان يملكه من الرقيق بالقاهرة ومصر فى سائر ارجاء الدولة ، وان يصبح كل عبيده وامائه احرارا ، على ان يصبح ملكا خاصا كل ماكان تحت ايديهم من اموال وهم فى حالة الرق .

---

(١) جامع كتاب نهج البلاغة والشاعر المشهور .

الحاكم يغير نظام الوراثة الاسماعيلى ويعين ولى عهده :

وفى هذه السنة أقدم الحاكم على اجراء من شأنه ان يقوض نظام الوراثة كما هو فى العقيدة الاسماعيلية . فالمذهب الاسماعيلى يقوم على ان الخلافة ، او كما يعبرون عنها بالأمانة لايمكن ان تكون الا فى نسل على بن أبى طالب ، وان تنتقل بالوراثة كما تنقل باقى الصفات الأخرى الخلقية .. وبدلا من أن يعهد الحاكم بالخلافة من بعده الى ابنه على ، اذا به يتجاوزه الى تعيين ابن عمه عبد الرحيم بن الياس وليا للعهد ، وامر ان يخطب له على المساجد ، وان يضرب اسمه على النقود وينقش على البنود والطراز ، كما أمر أن ينوب عنه فى الخطبة والصلاة والنظر فى المظالم وان يسايره فى المواكب . وقد أحدث هذا التصرف فى البيت الحاكم بلبلة ، لن تلبث ان تؤدى الى مصرع الحاكم كما سوف نرى .

١٠١٤ م ـ ٤٠٥ هـ : منع النساء من الخروج فى مصر :

كانت هذه هى السنة التى اقدم فيها الحاكم على احد تصرفاته الشاذة فأصدر امره على مايروى ابن كثير بمنع النساء من الخروج من منازلهن ، او ان يطلعن على اسطح المنازل ، او ينظرون من النوافذ ومنع صانعى الاحذية من صنع الاحذية لهن ، ومنعهن من الخروج الى الحمامات ، وقتل بعض النساء لمخالفتهن هذه الاوامر،وهدم بعض الحمامات على من فيها من النساء .وجهز مايمكن اعتباره اول جهاز للمخابرات فى العالم الاسلامى فاعد حشدا من النساء العجائز وكلفهن بالاستعلام عن أحوال النساء من منهن تعشق ومن هم عشاقهن وان يبلغنه بأسماء هؤلاء وهؤلاء . ليوقع بهم . وراح بنفسه يكثر من الدوران ليل نهار بحثا وراء ذلك واغرق عددا من الرجال والنساء والصبيان ممن اطلع على فسقهم .. وضاق الحال واشتد على النساء والفساق ولم يتمكن احد منهن ان يصل الى احد الا نادرا ،ويبدى ابن كثير ارتياحه لهذا التصرف من الحاكم .

وقد استغل الحاكم جهاز مخابراته الذى راح يطلعه على مايجرى فى البيوت وما يقع من احداث .. لكى يتظاهر امام رجال دولته بأنه يعرف الغيب ويطلع على الاسرار .

١٠١٤ م ـ ٤٠٥ هـ : ثورة الجماهير على الحاكم :

كان طبيعيا ان ترتفع موجة السخط ضد الحاكم ، وراحت جماهير المصريين تعبر عنها بأسلوب المصريين التقليدى ، وهو السخرية والتنكيت ، وارسال الرقاع التى تختم بالدعاء عليه والسب له ولاسلافه اليه . ثم وصل الامر بهم الى حد ان اصطنعوا تمثالا من الورق على هيئة امرأة ، ونصبوها فى أحد الطرق التى اعتاد الحاكم ان يمر

منها ، ووضعوا فى يدها المدوده رقعة ورق باعتبارها ظلامة ترفعها للحاكم . وبالفعل اقترب منها الحاكم اثناء جولاته واخذ من يدها العريضة ، فلما شرع فى مطالعتها ، استعظم ماجاء فيها ولابد انه كان سبا ولعنا ، فطلب ممن حوله ان يتقصوا شأن المراة ، فاذا بهم يكتشفون انها ورق ، وانها صنعت للسخرية من الحاكم .

وكانت هذه مناسبة ليتجلى جنون الحاكم فى اعنف صورة اذ عاد على التو الى القاهرة ، واستدعى القواد وعرفاء الجيش الى قصره وامرهم ان يسيروا الى الفسطاط ، وان يقتلوا من ظفروا به من اهلها ، وينهبوا ماشاءوا ان ينهبوا من أموال سكانها .

وهب الشعب يدافع عن نفسه بقوة السلاح ، وخف الاتراك والكتاميون الى نجدة الشعب ووقفوا الى جواره . ودارت الحرب بين الشعب وحلفائه وجنود الحاكم ثلاثة أيام دمر فيها عن طريق الحريق ما يقرب من ثلث الفسطاط .. ولكن قوى الشعب بدأت تتغلب على جنود الحاكم ، واوشكت الدائرة ان تدور عليهم ، فأسرع الحاكم الى الفسطاط ووقف بين المتنازعين ليفرق بينهم ، وهو يقسم انه برىء مما فعله عبيده .

١٠١٨ م ــ ٤٠٩ هـ : الجهر بتأليه الحاكم :

كان قد وفد الى مصر بعض دعاة الشيعة من بلاد الفرس واعتنقوا المذهب الفاطمى ، ولكنهم تطرفوا فى معتقداتهم ، وخرجوا على تعاليم المعتدلين من الاسماعيلية وكان على رأس هؤلاء الدعاة تأثيرا فى اخريات عصر الحاكم ــ حمزة بن على الزوزونى وحسن بن حيدرة المعروف بالأخرم ومحمد بن اسماعيل البخارى الدرزى .

وقد بدأ هؤلاء الثلاثة يبشرون بالدعوة لتأليه الحاكم سرا ثم لم يلبث حمزة بن على الزوزونى أن جهر بتأليه الحاكم ، وتابعه الأخرم الذى جهر بالدعوة فى جامع عمرو بن العاص نفسه ، فما كان من جماهير الشعب السنيين الا ان تعقبوه وقتلوه. ولكن محمد بن اسماعيل الدرزى حل محله ، ووضع رسالة فى تأليه الحاكم رفعها اليه ، مبينا بها ادلة مذهبه واصوله ، وكان ممن يقولون بالتناسخ ففرح الحاكم بهذه الرسالة ، وقرب الدرزى اليه واجزل له العطاء وعهد اليه بالاشراف على شئون الدولة بحيث أصبح الوزراء والقواد اصحاب الحاجات يقفون على بابه حيث لم يكن يقضى عمل الا على يديه .

وتمادى الدرزى فأعلن دعوته فى الجامع الأزهر .

ومن جديد اهاج هذا التصرف المصريين من اهل السنة ،بل ومعتدلى المذهب الشيعى ، فراحوا يتعقبونه لقتله كما قتلوا صاحبه من قبل ولكن الدرزى لجأ الى قصر الحاكم فذهب الجموع وعلى راسها فرق من الجيش واحاطت بقصر الحاكم وراحت تطالب بتسليمه . ونفى الحاكم للجند والشعب ان يكون الدرزى فى قصره

وراح يدبر لتهريب الدرزى من مصر ، على أن يذهب الى الشام وينشر دعوته بين الجبال وزوده بالاموال اللازمة وقد نجح الدرزى بالفعل فى الوصول الى بلاد الشام واستطاع أن يجمع حوله العديد من الانصار الذين أصبحوا يعرفون منذ هذا التاريخ باسم الطائفة الدرزية .

١٠٢٠ م ــ ٤١١ هـ : الحاكم ينتقم من الشعب :

على أن الحاكم أبى الا ان يأخذ بثأره من جماهير الشعب التى أحاطت بقصره غاضبة مهددة ، فقد أطلق جنوده من السودانيين على أهل الفسطاط من جديد ، لكى ينهبوا ويقتلوا ويخربوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ويعيد الحرية الدينية لاهل الذمة :

وكأنه أراد أن يقيم شيئا من التوازن فى سياسته حتى يضم اليه بعض عناصر الشعب ، فقد أطلق فى هذه الفترة نفسها حرية ممارسة الشعائر الدينية للنصارى واليهود ورد ما أخذ منهم من أوقاف الكنائس والاديرة ، وسمح للمسيحيين أن يجددوا بناء كنائسهم واديرتهم . وذلك كله فى مرسوم ، احتفظ بنصه حتى بن سعيد الانطاكى فى تاريخه .

ست الملك أخت الحاكم تنقذ البلاد منه :

ورأت ست الملك اخت الحاكم ، أن تضع حدا لتصرفات الحاكم المجنونة والتى شقيت منها البلاد والعباد بقتله . وقد فصل المؤرخون الكيفية التى انتهت بها حياة الحاكم وقد استعرض ابو المحاسن هذه الاقوال : وقد اخترنا منها قول ابن الصابىء لوضوحها وتكاملها ، يقول :

لما بدت من الحاكم هذه الأمور الشنيعة ، استوحش منه الناس ــ وكانت له اخت يقال لها ست الملك من أعقل الناس وأحزمهن ، فكانت تنهاه وتقول له ياأخى : احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك : فكان يسمعها غليظ القول ويتهددها بالقتل وبعث اليها يقول :رفع الى أصحاب الاخبار أنك تدخلين الرجال اليك وتمكينهم من نفسك ، وعمل على انفاذ القوافل لاستبرائها ، فعلمت انها هالكة معه .

فاتفقت مع سيف الدولة بن رواش شيخ كتامة على قتله . وكان قتل الحاكم من أيسر الأمور ، ذلك أنه دأب على أن يذهب الى المقطم كل ليلة (١) راكبا حمارا غير مصطحب كبير حرس . ولذلك فقد تربص به نفر من العبيد الذين أعدهم ابن رواش ، وقتلوا الحاكم ، وحملوا جثته لسيدهم .

فلما طال غياب الحاكم عن العودة ، بحث عنه أرباب الدولة فوجدوا حماره

(١) كان الحاكم قد انشأ فوق جبل المقطم مرصدا لرصد النجوم .

مقتولا : ووجدوا آثار أقدام فتتبعوها حتى وصلوا الى بركة حلوان فوجدوا فيها ثيابه وبها اثر ضرب السكاكين فتيقنوا من قتله .

وتمضى القصة بعد ذلك ، فتحدثنا عن دهاء ست الملك وكيف استطاعت ان تتخلص بعد ذلك من ابن دواس وكل من كانت له يد فى قتل الحاكم ، حتى يظل سرها مدفونا .

وبهذا انطوت صفحة هذا الحاكم العجيب الذى جمع المتناقضات والذى يعتبر صبر المصريين على احكامه الشاذه احدى خصائصهم التى امتازوا بها وهى قوة الاحتمال والصبر .

ويقول الدكتور سرور ان يحيى بن سعيد الانطاقى الذى بدأ فى كتابة تاريخه سنة ٤٠٥ هـ تحدث عن مصرع الحاكم دون ان يذكر شيئا عن صلة اخته بهذا الحادث وان المقريزى قال ان اتهام ست الملك بقتل اخيها جاء من كلام مشارقة المؤرخين ، وزاد على ذلك فروى رواية تتلخص فى ان رجلا من احد بلاد الصعيد ظهر عام ٤١٥ هـ ، أى بعد اختفاء الحاكم بأربع سنوات وادعى أنه قتل الحاكم ، وكون سعيد الانطاقى لم يذكر شيئا عن علاقة ست الملك بمقتل الحاكم ، فتفسير ذلك واضح من القصة نفسها وهو ان الامر قد تم سرا ، وأن ست الملك قد احكمت خطتها فقضت على كل من اشتركوا فيها . ومثل هذه الامور بطبيعتها لا تعرف وتشاع الا بعد مدة طويلة ، حيث تتسرب الحقائق بالتدريج . واما القول بأن انسانا ما ادعى بأنه قاتل الحاكم ، فهذا ليس بشىء .

وانما الذى يقطع بأن نهاية الحاكم قد تمت على الصورة التى تواترت بها اقوال المؤرخين كما قدمناها ، هو الدور الكبير الذى لعبته ست الملك بعد مقتل الحاكم ، وهى تنزع من ولاية العهد عبد الرحيم بن الياس ، وتحمل القواد والجند على مبايعة ابن الحاكم ، وتوليها الوصاية عليه وتدبير ملكه . فليس ما يفسر اضطلاعها بهذا الدور الخطير ، الا ان تكون هى التى وضعت حدا لحياة الحاكم ، فأصبح من حقها وفى قدرتها تنظيم الحكم من بعده .

وكانت وفاة الحاكم فى يوم الاثنين ليلة السابع والعشرين وكان عمره يوم قتل ستا وثلاثين سنة وسبعة اشهر حكم منها خمسا وعشرين سنة .

يقال الذهبى على ما نقله عنه ابن اياس : ولما قتل الحاكم صار جماعة من الجهال المغتلين من وادى التيم من نواحى الشام يعتقدون حياة الحاكم الى الآن ، ويقولون لابد ان يظهر فى آخر الزمان ويعود الى الخلافة ، وانه هو المهدى لا محالة . ويحلفون الى الآن بغيبة الحاكم .

اما ستانلى لين بول فيقول لنا : وحتى اليوم يعبد الدروز فى لبنان « الحكمة الالهية » كما تمثلت فى شخصية الحاكم الشاذة غير الجديرة بالاعتبار ، ويعتقدون انه فى يوم من الايام سيعود فى جلال ليظهر الحقيقة ويحكم بالعدل .

عبد الرحمن بن يونس :

ولن يكمل تاريخ عصر الحاكم دون أن نشير الى شخصيتين ترمزان الى انه وسط حياة الحاكم العاصفة ، فقد شجع بعض العلماء وعلى راس هؤلاء عبد الرحمن ابن يونس أعظم فالكى ظهر فى تاريخ مصر الاسلامية . وقد كان العزيز هو أول من قدر شأنه فبنى له مرصدا خاصا جنوب الفسطاط ليقوم برصد الكواكب واجراء بحوثه . وقد سجل عبد الرحمن بن يونس بحوثه فيما أشتهر باسم الزيج الحاكى والذى بدأه فى عهد العزيز وأتمه فى عهد الحاكم . ويقول الاستاذ حافظ قدرى طوفان ان ابن يونس قد سبق غاليلبو بستة قرون فى أختراع بندول الساعة .

الحسن بن الهيثم :

كما وفد على مصر فى عهد الحاكم (الحسن بن الهيثم) المهندس والعالم الاسلامى الرياضى الكبير . وقد نقل عنه مرة قوله : لو كنت بمصر لعمت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . ووصل الى علم الحاكم هذا القول ، وكان يغرم بهذا اللون من الابحاث العلمية فأرسل لحسن بن الهيتم مالا ورغبه فى الحضور الى مصر . وعند وصوله خرج الحاكم بنفسه للقائه خارج القاهرة وزوده بما طاب من مال وعمال ومساعدين . وتنقل ابن الهيثم فى مصر حتى وصل الى جنادل أسوآن (١) .

ولا نعرف ماذا فعل ابن الهيثم بعد ذلك أو قال ، ويبدو انه لم يوفق لتنفيذ مشروعه فخشى بأس الحاكم ، فتظاهر ابن الهيثم بأنه أصيب بالجنون . فحجز فى منزله وظل على ذلك الى أن قتل الحاكم فأظهر العقل ثانية وخرج من داره .

١٠٢٠ م ــ ٤١١ هـ : خلافة الظاهر لاعزاز دين الله :

قدمنا القول أن ست الملك تجاهلت ولى العهد الذى كانت ولايته تعتبر خروجا على المذهب الاسماعيلى واستطاعت ان تجمع القواد والامراء حول تولية أبى الحسن على بن الحاكم ولقب الظاهر لاعزاز دين الله وكانت سنه يوم ولى الخلافة ست عشرة سنة وثمانية اشهر . واختلف فى يوم توليته فقيل انه ولى فى السابع والعشرين من شوال وقيل بل كانت توليته يوم النحر ، لأن رجال الحاشية وقواد الجند ظلوا يترقبون ظهور الحاكم فترة من الزمان ، حتى تحقق لهم موته .

وقد امتد سلطان الظاهر على المنطقة من الفرات حتى المحيط الأطلسى ، وضربت باسمه الدنانير التى لا يزال بعضها موجوداً حتى الآن فى مدن مصر والاسكندرية والمنصورة والمهدية وزويلة وفلسطين وعكا وصقلية .

---

(١) مجرد توقف ابن الهيثم عند اسوان ، يدل على انه أدرك بحاسته الفنية أن مشروعات النيل يجب أن تكون عندها .

ست الملك تحسن تدبير الملك :

وقد قامت عمة الظاهر ست الملك بتدبير المملكة أحسن تدبير فبذلت العطاء للجند وساست الناس احسن سياسة . ووجهت الظاهر الى الغاء كل ما كان الحاكم قد اصدره من اوامر وقيود واجراءات شاذة . واصدر امانا لاهل الذمة اعلن فيه حريتهم فى عقائدهم وشعائرهم وانه لا اكراه فى الدين ، وان من احب منهم أن يدخل الاسلام اختيارا وهداية من الله فليفعل مقبولا مبرورا ، ومن أثر البقاء على دينه فله ذمته . وأعاد للاقباط احتفالاتهم الدينية وخاصة الاحتفال الكبير بليلة الغطاس التى كان المعز قد أمر بابطالها لما كان يجرى فيها من منكرات . وقيل أن الظاهر قد سمح بعودتها ليتفرج على ما كان يجرى فيها .

١٠٢٣ م — ٤١٤ هـ : الظاهر يبرأ من دعوة الالوهية :

كان قد وقع فى موسم الحج لعام ٤١٣ هـ حادث كان له صدى عميق فى العالم الاسلامى ، حيث اعتدى رجل من اتباع الحاكم من اهل البصرة — وكان فى ركب الحجاج المصريين — على الحجر الاسود بأن ضربه بدبوس ثلاث ضربات متواليات فطايرت منه بعض الشظايا وهو يقول الى متى نعبد هذا الحجر واضاف على ما يقول ابن كثير :

ولا محمد ولا على بمنعنى مما أفعله ، فأنى اهدم اليوم هذا البيت . فتكاثر الناس عليه وقتلوه وقتلوا كل من كان ضالعا معه من الحجاج المصريين . وكادت أن تقع فتنة كبيرة لولا تدخل العقلاء واستطاعوا تهدئتها فى الوقت المناسب .

وعندما وصلت هذه الاخبار الى الظاهر : أصدر بيانا تبرأ فيه من هذا الحادث ، وانتهز الفرصة ليندد بالذين غالوا فى تأليه على بن ابى طالب ، ووصفهم بأن شأنهم فى ذلك شأن النصارى الذين الهوا المسيح ثم قال : ونجمت من هؤلاء الكفرة فرق سخيفة العقول ، ضالة يجهلها عن سواء السبيل ، تغلو فينا غلوا كبيرا وقالوا فى اجدادنا وآبائنا منكرا من القول وزورا ، نسبونا بغلوهم الاشنع وحبهم المستفظع ، الى ما لا يليق بنا ذكره ، وانا نتبرأ الى الله تعالى من هؤلاء الكفرة الفجرة .

ثم يمضى البيان معددا الاجراءات التى اتخذت للضرب على أيدى هذا النفر وتشريدهم .

١٠٢٤ م — ٤١٥ هـ : وفاة ست الملك :

ماتت الاميرة الجليلة ست الملك بعد أن ساست الدولة احسن سياسة ، ووطدت أركان الحكم لابن أخيها . وقد ذكر ابا اياس انها خلفت وراءها ، كيفاة أميرات البيت الفاطمى موجودات عظيمة من المال والجواهر والقماش والتحف مما لا يحصى لكثرته . وكان من بين ما تركته اربعة آلاف جارية بيضاء وسوداء مولدات وغير ذلك .

تولى على بن احمد الجرجانى الوزارة :

استوزر الظاهر بعد وفاة عمته نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائى : وكان الحاكم بأمر الله قد قطع يدى هذا الوزير من المرفقين ، ولذلك فقد كان يكتب عنه العلامة القاضى أبو عبد الله القضاعى .

أمن الامانة والتقى　　　　قطعت يداك من المرافق

١٠٢٦ م ــ ٤١٧ هـ : وقوع مجاعة فى مصر :

يقول ستانلى لين بول ، أن النيل قد قصر فى هذه السنة عن أن يبلغ ارتفاعه المعتاد لرخاء البلاد ، فقلت الارزاق وعزت الاقوات ، وارتفعت بالتالى الاسعار : ولم يستطع عامة الشعب أن يحصلوا على أقواتهم الا ببيع ما لديهم من اثاث ، ولكنهم لم يجدوا مشترين ، فحاق بهم المرض ومات الكثيرون منهم . بينما تحول الاقوياء الى قاطعى طريق ينهبون كل ما تمتد اليه ايديهم : ولم يعفوا حتى قوافل الحجاج . واجتمعت الجماهير حول قصر الظاهر وهم يصيحون « الجوع الجوع يا امير المؤمنين ، لقد جرى ما لم يقع فى عهد أبيك وجدك » .

ومن ناحية أخرى لم يقبض الجنود مرتباتهم فتحولوا الى جماعات وعصابات تنهب المواطنين ، فهب المواطنون ، وتسلحوا للدفاع عن انفسهم . واذن لهم الحاكم فى قتل الجنود المعتدين .

ووقف الوزير الجرجرائى عاجزا ، فحبس نفسه فى بيته . ولم ينقذ الموقف الا أن الحول كان قد حال وعاد النيل بسخائه : فاختفت المجاعة وباختفائها عاد الامن الى الاستتباب .

المحافظة على الثروة الحيوانية :

وكان يمكن أثناء القحط السابق أن تفنى الثروة الحيوانية من البلاد ، لولا أن الظاهر اصدر امرا بمنع ذبح البقر الخالى من العيوب والصالح للحرث وكان مما جاء فى هذا الامر الذى قرىء على الناس ليعملوا به :

« ان الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته ، خلق ضروب الانعام ، وعمل منها منافع للناس ، فوجب أن نحمى البقر المخصوصة بعمارة الارض : المذللة لمصالح الخلق ، فان ذبحها غاية فى الفساد واضرار للعباد والبلاد » .

١٠٢٧ م ــ ٤١٨ هـ : معاهدة مع بيزنطة لاعادة بناء كنيسة القيامة :

وفى هذه السنة مضى الظاهر فى اصلاح ما أفسده أبوه ، فأبرم معاهدة مع

امبراطور بيزنطة لاعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس . فى مقابل أن يدعى للظاهر في جميع المساجد القائمة فى املاك الدولة البيزنطية وخاصة فى مسجد القسطنطينية .

١٠٢٩ م ـ ٤٢٠ هـ : ثورة صالح بن مرداس فى الشام :

خرج اسد الدولة صالح بن مرداس وحسان بن الفرج بن الجراح فى الشام على سلطان الظاهر ، وجمعا الجموع واستوليا على مدن الشام وانتهيا الى مدينة غزة فجهز الظاهر لحربهما جيشا وضعه تحت امرة أمير الجيوش التركى المعروف بالوزيرى فانتصر عليهم ودخل دمشق ، وبعث الى الظاهر يهنئه بالنصر مع راس ابن مرداس ، ويصف له الملحمة التى خاضها .

١٠٣٦ م ـ ٤٢٧ هـ : وفاة الظاهر :

فى يوم الاحد النصف من شعبان توفى الظاهر وكان عمره يوم مات احدى وثلاثين سنة ، وكانت ولايته على مصر ست عشرة سنة وتسعة شهور .

يقول ابو الحسن «كان الظاهر جوادا ممدحا سمحا حليما محببا للرعية ولا بأس به بالنسبة لارائه وهو الذى بنى قصر اللؤلؤة عند باب القنطرة وهو من القصور المعدودة فى القاهرة .

ويزيد المقريزى على قول أبى المحاسن ان الظاهر كان شغوفا باللهو محبا للغناء فتالق الناس فى أيامه فى مصر واتخذوا المغنيات والراقصات وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما . وقد علم مماليكه انواع العلوم وسائر فنون الحرب . واتخذ خزانة البنود واقام فيها ثلاثة آلالف صانع وراسل الملوك واستكثر من شراء الجواهر وكانت مملكته بافريقيا ومصر والشام والحجاز .

خلافة المستنصر بالله :

بويع للخلافة بعد موت الظاهر ابنه أبو تميم معد الملقب بالمستنصر . وكانت سنه لا تتجاوز سبع سنوات وسبعة اشهر ، وكان مقدرا لهذا الخليفة الذى ولى الحكم بهذا الصغر ان يكون هو اطول من حكم من الملوك فى تاريخ الاسلام كله ، حيث جلس ستين سنة .

واذا كان النصف الثانى من حكمه الطويل ، قد شابته الفوضى بسبب القحط الذى عم البلاد سنوات متوالية واستبداد الوزراء بالامر ، فان النصف الاول من حكمه الطويل يمثل ذروة ما وصل اليه الحكم الفاطمى من الغنى والسلطان وانتشار النفوذ .

وكانت أم المستنصر جارية سوداء مملوكة لأبى سعد التسترى اليهودى ، قبل أن تؤول الى الخليفة الظاهر ، فلما أن أصبح ابنها خليفة ، استعانت بسيدها القديم أبى سعد التسترى فاتخذت منه وزيرا لها يساعدها على مزاولة السلطان الذى هيأة لها صغر سن ابنها . كما استعانت من ناحية أخرى ببنى جنسها من عساكر السودان فاستكثرت منهم واعتزت بهم ، وتقوت بعصبتهم لها . على أن نفوذها الحقيقى فى ادارة الدولة لم يبدأ الا بعد وفاة الوزير الجرجرائى أبو القاسم على بن أحمد .

١٠٣٧ م ــ ٤٢٨ هـ : وفاة عالم الاسلام وفيلسوفه ابن سينا :

فى هذه السنة مات عالم الاسلام وفيلسوفه وطبيبه الحسن بن عبد الله بن سينا الملقب بالرئيس ، يقول ابن كثير كان بارعا فى الطب فى زمانه ، وأبوه من أهل بلخ وانتقل الى بخارى واشتغل بها مفسرا للقرآن واتقنه وهو ابن عشر سنين ، واتقن الحساب والجبر والمقابلة واقليدس والمجسطى ثم اشتغل على أبى عبد الله الناتلى الحكيم اى الطبيب : فبرع فيه وفاق أهل زمانه فى ذلك وتردد الناس اليه واشتغلوا عليه وهو ابن ست عشرة سنة وعالج بعض الملوك السامانية وهو الأمير نوح بن نصر ، فمنحه جائزة سنية ، وحكمه فى خزانة كتبه .. وهكذا بدأ فيض علمه ــ قال ابن خلكان : له نحو من مائة مصنف منها القانون والشفا والنجاة والاشارات .

وقد نقلت كتبه الى اللغة اللاتينية ، تقول دائرة المعارف البريطانية أن كتب ابن سينا ظلت تدرس فى الجامعات الأوربية عدة قرون وقد ترجم كتابه القانون (فى الطب) لأول مرة فى القرن الثانى عشر وكان مترجمه هو جيرار وقد طبعت هذه الترجمة خمس عشرة مرة قبل عام ١٥٠٠ م ثم اعيدت ترجمة الكتاب عام ١٥٢٧ م وتتابعت بعد ذلك الطبعات من هذه الترجمة الجديدة .

ولقد قدر لى شخصيا أن أطالع كتاب القانون فى الطب فاشهد لقد بهرنى وأرانى الفارق بين طبيب اليوم وطبيب الأمس . فطبيب اليوم لا يستطيع ان يشخص مرضا الا بعد سلسلة من التحليلات والرسوم تقوم بها الآلات .. أما الطبيب ابن سينا ومن سار على مدرسته فكان عليه هو أن يعرف من خلال جس النبض ، وجس الحرارة ، ومتابعة الأنفاس ورؤية البول وباقى الفضلات ، أن يشخص المرض .. وأن الانسان ليذهل عندما يرى كيف يقسم ابن سينا النبض على سبيل المثال الى عشرات من الحالات .

وسيظل ابن سينا واحدا من العمالقة الذين أثروا فى تكوين العلم الأوربى الحديث .

١٠٤٤ م ــ ٤٣٦ هـ : وزارة الفلاحى :

ولى الوزارة بعد موت الجرجرائى تاج الرئاسة أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى وقد كان يهوديا وأسلم . وقد تم ترشيحه للوزارة بناء على اقتراح أبى سعد التسترى

اليهودى وزير ام المستنصر . ولكن الفلاحى لم يحفظ الجميل لصاحب النعمة عليه بل ضاق بسلطانه ومحاولته التسلط على الحكم من خلاله ، فتخلص منه جريا على قاعدة هذا الزمان بأن حرض عليه جنود الأتراك فقتلوه .

١٠٤٨ م ـ ٤٤٠ هـ : مقتل الفلاحى :

وغضبت ام المستنصر لقتل وزيرها وسيدها القديم وراحت تدبر للانتقام من قاتله .. واذا كان جنود الأتراك هم الذين قتلوا التسترى ، فان جنودها السودانيين يستطيعون ان يقتلوا الفلاحى وقد تم لها ما أرادت .. وهكذا وقف الجنود السودانيون فى مواجهة الجنود الأتراك ، كل ينحاز الى الجانب الذى يراه يزيد فى سلطته .

ومضت ام المستنصر فى خطتها من الاستكثار من جند السودان .

١٠٤٩ م ـ ٤٤١ هـ : رحلة ناصر خسرو الى مصر :

استقر الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى مصر وتعلق قلبه بحبها كما لم يتعلق بأى من البلاد التى زارها فى الشرق أو الغرب . وقد وجد ناصر خسرو مصر فى هذه الفترة فى رخاء لا مثيل له فى كل البلاد التى زارها حتى لقد تصور ان مرجع ذلك لابد وأن يكون هو اخذها بالمذهب الاسماعيلى ، ولذلك فقد اعتنق المذهب الاسماعيلى ابان وجوده فى مصر ، ولابد ان علاقته بالخليفة المستنصر كانت على أتم ما يرام .

واهمية ناصر خسرو بالنسبة لنا ، انه ترك لنا وصفا شائقا لأحوال مصر فى هذه الفترة ابتداء من مدينة تنيس فى اقصى الشمال حتى مدينة اسوان فى اقصى الجنوب ولا يكاد وصف ريف مصر فى هذه الايام البعيدة يختلف كثيرا عن حالة القرى حتى فى عصرنا الحديث .. ولكن ما ذكره عن القاهرة وقصورها والفسطاط وتجارتها وموكب الخليفة جدير ان يشار اليه لاعطاء صورة حية عن هذا العصر الفاطمى وقد بلغ ذروته .

« ويوجد بالقاهرة ما لا يقل عن عشرين الف دكان كلها ملك للسلطان ، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير فى الشهر . وكان فيها من الخانات والحمامات ما لا يمكن حصره وهى كلها ملك للسلطان . وقد روى لى أن بالقاهرة والفسطاط عشرين الف منزل يملكها الخليفة ويؤجرها مشاهرة .

قصر السلطان :

اما قصر السلطان نفسه فقد كان وسط القاهرة ، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها . وكان يحرسه فى الليل خمسمائة حارس من الفرسان وخمسمائة حارس من الرجالة ، وكانت اسواره عالية ، فلا يستطيع احد رؤيته من داخل المدينة

بينما يبدو من خارجها كالجبل . وقد قدر المهندسون سعته بقدر مدينة ميافارقين كلها . وقيل لى أن عدد من يفيمون بالقصر ٣٠ الفا من بينهم ١٢ الف خادم .

وللقصر عشر بوابات فوق الأرض ، وباب يقود الى ممر تحت الأرض يعبره الخليفة راكبا لكى يصل الى قصره الآخر .

ابواب القاهرة :

وللقاهرة خمسة أبواب ، وهى باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وباب القنطرة وباب الخليج . وليس للمدينة سور محصن (يبدو أن السور الذى بناه جوهر كان قد تهدم) ولكن أبنيتها كانت أعلى من الأسوار المحصنة وفى كل منها خمس أو ست طبقات فكأنها القلاع الضخمة . وكانت البيوت فى المدينة مبنية بناء نظيفا محكما ، وكانت مفصولة عن بعضها بالحدائق التى ترويها مياه الآبار .

وايام اقامتى بالقاهرة كان اجر المنزل العادى ذى الاربع طبقات أحد عشر دينارا بالشهر . والمنزل الذى أقمت به كانت فيه ثلاث طبقات مأهولة ، فطلب منى صاحبه خمسة دنانير فى الشهر أجرة الطابق الرابع .

وماء الشرب يؤخذ من النيل ويحمله السقاؤون على جمال يبلغ عددها ٥٢ الفا ويحمل الرجال القرب حيث يتعذر على الجمال الدخول .

وانتقل ناصر خسرو الى الفسطاط .

الفسطاط :

فى الفسطاط بيوت من أربعة عشر دورا وبعضها من سبع طبقات ، وقد سمعت ممن يوثق به ، أن ثمة رجلا أنشأ حديقة على سطح بيت ذى سبعة ادوار . وفى مصر دور كبيرة للتأجير تتسع الواحدة منها لثلثمائة وخمسين شخصا ، وبعض اسواق مصر وشوارعها تضاء بها المصابيح باستمرار لأنها مسقوفة فلا يصل اليها ضوء الشمس .

الأسواق والحركة التجارية والأعياد :

ويسهب ناصر خسرو فى وصف الحركة التجارية الواسعة النطاق فى الفسطاط ، ومدى الازدحام بها ، وبهجة الأعياد فيها ويعلق على ذلك كله بقوله : لو وصفت هذه الأعياد لما صدقنى كثير من الناس ولرمونى بالمبالغة والاغراق .

فان حوانيت القصارين (الملابس) والصياغ والحوانيت الأخرى مفعمة بالذهب والحلى والبضائع والأقمشة من الحرير والقصب لدرجة أن لا يجد فيها المشترى محلا يجلس فيه .

البيع باسعار محددة :

ومما لفت نظرى ان التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة وان الذى يغش كانوا يركبونه جملا ويضعون فى يده جرسا عليه أن يدقه بنفسه ويطوفون به البلد ، وهو يصيح بأعلى صوته : لقد كذبت وها أنذا القى عقابى ، جزى الله الكاذبين .

ركوب الحمير :

وكان التجار يركبون الحمير التى توجد فى كل مكان لتأجيرها وكان عدد الحمير فى الفسطاط يبلغ خمسين ألفا .

الصـــــناعة :

وتحدث ناصر خسرو عن صناعة القيشانى ، وصناعة الزجاج وصناعة الزيوت والنسيج .

حفلة قطع الخليج :

وقد شاهد ناصر خسرو الخليفة المستنصر فى احـد مواكبه وهو يركب لحفلة قطع الخليج فقال لنا عنه : انه شاب صغير لطيف المحيا حليق الذقن يرتدى فى بساطة قفطانا أبيض وعمامة وعلى رأسه مظلة مرصعة بالجواهر الثمينة واللآلىء يحملها كبار الموظفـين ويتبعه ٣٠٠ جنـدى من الفرس الديلم مترجلين وهم مسلحون بالبلط ، والخصيان على الجانبين يطلقون البخور من مجامر فى أيديهم .

وكان القاضى يسير وراء الخليفة هو وحشد من الأطباء وكبار الموظفين .

وبعد ذلك تجىء فرق الجيش وأولهـا كتامة البربرية وعـددهم عشرون الف جندى . ثم جيش قبيلة باتله وهم مغاربة استوطنوا مصر قبل قدوم المعز وعددهم خمسة عشر الفا .

وتأتى بعد ذلك المصامدة وهم جنود السودان وعددهم عشرون الفا . ثم المشارقة وهم جنود الترك والفرس وعددهم عشرة آلاف هيئة فخمة .

ثم يأتى بعد ذلك عبيد الشراء وهم الرقيق المشترى فى السـوق ويقدر عددهم بثلاثين ألفا .

ويذكر ناصر خسرو فرقا أخرى يقـدر عـددها بعشرات الألوف ، ولا شك أن الذى كان يمر فى الموكب هو قطاعات من هذه الفرق وليست كلها ، كمـا يحدث فى العصر الحديث ، وان هذه الأرقام انما تتحدث عن مجموع قوة الجيش بفرقة المتعددة.

السفراء والزوار الأجانب :

ويضيف ناصر خسرو انه كان يسير فى موكب الخليفـة أمراء وضيوف وزوار من المغرب واليمن والنوبة والحبشة ـ والروم ومن سلافونيا وجورجيا ومن التتـار الذين جاءوا من التركستان وأولاد ملك دلهى .

يخشى ان لا يصدقه احد :

ويختم ناصر خسرو وصفه لمـا شاهده فى مصر من ثروات واموال غزيرة ، انه يخشى أن لا يصدقه أحد من بلاد العجم اذا هو حاول وصفها .

١٠٥٠ م ـ ٤٤٢ هـ : وزارة البازورى :

فى هذه السنة تقلد الوزارة قاضى القضاة أبو محمد البازورى ، ولقب بسيد الوزراء خطير الملك وهكذا بدات القاب الوزراء تتفاقم ، وان ظلت الظاهرة التى تسودها أنها وقف على أهل القلم لا السيف . وأنها وزارات تنفيذ ، حيث كان مرجع السلطة كلها هو الخليفة-.

وقد اشتهر البازورى بأنه كان يأخذ بمذهب الشورى فيشاور ثقاته وأصفياءه فى شتى الأمور .

الدعوة للمستنصر فى اليمن :

وفى هذه السنة (على خلاف بين المؤرخين) دعا على بن محمد المصيلحى فى اليمن للخليفة المستنصر وبعث اليه بالاموال والهدايا الثمينة ، فبعث له المستنصر بالرايات وعقد له الولاية على اليمن ، فطوى البلاد طيا وفتح الحصون والتهائم ، ولم تخرج سنة ٤٥٥ حتى كان قد فتح مكة نفسها .

١٠٥١ م ـ ٤٤٣ هـ : المعز بن باديس الصنهاجى يستقل بالمغرب :

على أن هذا النجاح فى المشرق ، قابله تدهور فى المغرب حيث رغب المعز بن باديس الصنهاجى فى الاستقلال عن مصر . فقطع الخطبة عن المستنصر ودعا للقائم بأمر الله العباسى واعتنق المذهب السنى .

وقد ارسل المستنصر قبائل بنى هلال لمحاربة المعز بن باديس ، فاحتلت برقة وطرابلس ، واستقرت بها منتصرة على ابن باديس فى أكثر من معركة ، ولكنه ظل صامدا فى مدينة المهدية سادا بذلك الطريق على الفاطميين والوصول الى الغرب ، متيحا بذلك الفرصة لسقوط جزيرة صقلية بعد حين .

١٠٥٢ م ـ ٤٤٤ هـ : بغداد تعود الى حرب الدعاية والتشهير :

ومرة أخرى لم تجد بغداد ما ترد به على اعتراف اليمن بسلطة الخليفة الفاطمى الروحية ، الا أن تعود للتشهير بنسب الفاطميين ، فجمع الخليفة القضاة والفقهاء والأشراف ، وكتبوا محضرا أنكروا فيه نسبة الفاطميين الى على بن أبى طالب ، وبعثوا بهذا المحضر الى الآفاق .

١٠٥٤ م ـ ٤٤٧ هـ : قصور فيضان النيل :

قصر النيل فى هذه السنة لرابع مرة عن بلوغ الغاية ، فلا عجب اذا اكفهر جو مصر وانتشرت بها المجاعة ويبدو أن هذا الجفاف والقحط كان عاما فى منطقة الشرق

الاوسط ، اذ يقول لنا أبو المحاسن ، عم الوباء مصر وبغداد والشام والدنيا كلها ، وكان الناس يأكلون الميتة وبلغ سعر الرمانة والسفرجلة دينارا وكذا الخيار وانقطع ماء النيل بمصر وكان يموت بها كل يوم عشرة آلاف .

على أن ذلك لم يكن الا ارهاصا لما ستعانيه مصر بعد قليل مما سيطلق عليه اسم الشـــدة العظمى .

١٠٥٧ م ـ ٤٤٩ هـ : وفاة أبو العلاء المعرى :

فى يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع الأول مات الشاعر الكفيف المشهور صاحب اللزوميات أبو العلاء المعرى فى بلدته المعرة فى شمال الشـــام . ولم يثر شاعر عربى ما أثاره أبو العلاء من الجدل ، فثمة قوم يغلون فى حبه واعزازه حتى ليجعلــون منه شاعر العربية الأكبر والأوحد (١) .

وهنـــاك من لا يرون فى المعـــرى الا كافرا زنديقا ، ويقولون أنه حـــاول فى كتابه « الفصول والغايات » أن يتحدى القرآن ومعارضته بالسور والآيات .

وينقل ابن كثير بعض أشعاره تدليلا على كفره ننقل منها بدورنا :

اذا كان لا يحظى برزقك عـــاقل ... وترزق مجنـــونا وترزق أحمقــــا
فلا ذنب يارب السماء على امرىء ... رأى منك مـــا لا يشـــتهى فتزندقا

أو قـــوله :

فلا تحسب مقال الرســـل حقـــا ... ولكـــن قـــول زور ســـطروه
فكان النـــــاس فى عيش رغيـــد ... فجـــــاءوا بالمحـــــــال فكـــــدروه

على أن أعداء أبى العلاء ومحبيه ، يتفقون على زهده وتقشفه وكيف عاش خمسا وأربعين سنة لا يأكل اللبن أو البيض ولا يتقوت الا بالنبات . كما يجمعون على ذكائه المفرط . ولأبى العلاء مكانة خاصة عند الأوربين وقد كتبت بعض الرسائل فى أن دانتى فى كتابه الشهير « الجحيم » ـ انما تأثر برسالة الغفران التى ألفها أبو العلاء (٢) .

ولا جدال عندنا فى أن أبا العلاء يرمز لما كان المجتمع الاسلامى قد وصل اليه من تطور وتعقيد ، بعد امتزاج الحضارات الاغريقية والمسيحية والهندية واليهودية وغيرها فى بوتقة الحضارة الاسلامية .

---

(١) كان على رأس هؤلاء من اخواننا المعاصرين الاستاذ كامل الكيلانى ، ويعتبر الدكتور طه حسين ـ لظروفه الخاصة ـ أول من أثار الاهتمام فى العصر الحديث بأبى العلاء المعرى .

(٢) عبد الرحمن بدوى ـ دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى (المستشرق الاسبانى اسين بلاثيوس) .

١٠٥٨ م ــ ٤٥٠ هـ : الخطبة للمستنصر فى بغداد والعراق :

دخل ارسلان التركى المشهور باسم البساسيرى بغداد فى يوم الأحد الثامن من ذى القعدة وهو يحمل الرايات البيض المصرية وعلى راسه اعلام مكتوب عليها اسم المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين ، فاستولى على بغداد وأذن للصلاة بحى على خير العمل وخطب فى المساجد على المنابر للخليفة المستنصر وضرب السكة الذهب والفضة باسمه .

وهكذا تكللت ثورة البساسيرى التى كان قد أعلنها على الخليفة العباسى وسلاطين آل بويه منذ عام سابق الى ذروتها .

ويجمع المؤرخون على أن البساسيرى سار فى حكمه مسيرة حسنة أرضى بها الشيعيين والسنة .

وقد ارسل البساسيرى الى الخليفة المستنصر ثياب الخليفة العباسى القائم وعمامته وغير ذلك من الاموال والتحف . فارتجت مصر لهذا الحدث ، واقيمت الاحتفالات العامة فى أرجاء البلاد احتفالا بهذا النصر .

وقد غنت للمستنصر احدى جواريه بمناسبة هذا النصر فقالت له :

يا بنى العباس صدوا ... مالك الأمر معد
ملككم كان معارا ... والعوارى تسترد

فطرب المستنصر لهذا الشعر والغناء ، حتى لقد وهبها أرضا بمصر على سبيل الجائزة ، وكانت هذه الارض تعرف حتى زمن أبى المحاسن بأرض الطبالة ، وكانت على ما يقول بالقرب من بركة الرطلى .

وقد واصل البساسيرى انتصاراته ، فخطب باسم المستنصر فى المدصل والبصرة وواسط وغيرها من بلاد العراق .

ولكن المستنصر الذى فرح بالنصر فى بادىء الأمر ، ثم وقف منه بعد ذلك موقفا يحير المؤرخين ، فقد قبض يده عن البساسيرى ولم يمده بالجيوش أو الأموال .

طغرلبك السلجوقى يقضى على البساسيرى :

استنجاث الخليفة العباسى بالسلطان طغربلك التركى السلجوقى الذى كان قد ملك على بلاد فارس وإيران ، مبتدئا بذلك عهد السلاجقة المزدهر . فخف طغرلك الى نجدة الخليفة ودخل بغداد ولم يستطيع البساسيرى مقاومته فقضى عليه وبذلك انتهى هذا الانتصار الفاطمى الذى لم يزد على عشرة شهور .

وقد أعاد طغرلبك السلجوقى الخلفة العباسى الى العرش والى ما كان عليه مجردا من كل سلطة فعلية ، وان كان السلاجقة على خلاف البويهيين أحاطوا شخص الخليفة بكثير من التكريم .

مقتل البازورى الوزير المصرى :

وفى هذه السنة قبض على الوزير وقاضى القضاة البازورى وقتل بمدينة تنيس بعد ان كان قد استقر فى الوزارة لمدة ثمانى سنوات ، قام فيها بالكثير من الاصلاحات لتحسين احوال البلاد الاقتصادية .

وكان محبا للعلم والفنون ، على أن لين بول يتهمه بأنه لم يكن محبا للنصارى وانه اضطهدهم وحبس البطريرك وكثيرا من القساوسة وفرض عليهم مبلغا كبيرا من المال . وباختفاء شخصية البازورى لم يستقر منصب الوزارة لأحد ، وبدأ عديد من الأشخاص يتداولون المنصب ويعفون منه ثم يعودون اليه ، بعد أن رئى ان لا لزوم لقتلهم .

١٠٦٣ ـ ٤٥٧ هـ : بدء الشـدة الكبرى فى مصر :

بدأ انخفاض النيل فى هذه السنة انخفاضا شـديدا على خلاف المعتاد ، وظـل انخفاضه يتوالى طوال سبع سنوات ذكر المصريين بما ذكره القرآن عن السبع السنوات العجاف أيام يوسف الصديق . فقد تضافر القحط مع اختلال الأمن الذى نشأ من عراك أجناس الجيش المختلفة .

فقد أجلى نصر بن حمدان رئيس الجيش بمساعدة العناصر التركية ، الجنـود السودانية الذين كان عددهم قد بلغ الخمسين الفا وطردهم من القاهرة والفسـطاط فالتجأوا الى الصعيد وراحوا يعيثون فيه فسادا ويمنعون وصول الغلات الى مصر.

ولم تكد العناصر العسكرية تتخلص من السودانيين حتى استبد ناصر الدولة بن حمدان بالأمر ، واستخدام سلطانه الجديد فى سلب الخزانة العامة ، واغداقها على الجنود الأتراك ، فارتفعت مرتباتهم من ٢٨ الف دينار فى الشـهر الى أربعمائة الف دينار فى الشـهر .

واستطال ابن حمدان على بقية زملائه ، فحرضوا الخليفة على عزله واسـتطاع الخليفة المستنصر بالفعل فى حركة شجاعة أن يطرد ابن حمـدان من القاهـرة ، فانسحب الى الاسكندرية حيث تزوج من عرب لواته وعقد معهم معاهدة ، فأصبح له جيش من أربعين الف مقاتل ، سطر بهم على الوجه البحرى ، ومنعوا بدورهم الأرزاق والغلات عن الوصول الى القاهرة والفسطاط ، وهكذا أحكم عليها الحصار من الشـمال والجنـوب .

١٠٧٠ م ـ ٤٦٢ هـ : ذروة الشـدة :

واتفق مع قيام هذا الحصار ، أن مضى القحط بصفة عامة يفترس البلاد ، فكانت هذه المجاعة المخيفة التى عمت سكان القاهرة والفسطاط .

يقول أبو المحاسن : وقد جلا عن مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد ، والجوع الذى لم يعهد مثله فى الدنيا . فمات أكثر أهل مصر واكل بعضهم بعضا وظهر على بعض الطباخين انه ذبح عـدة من الصبيان والنسـاء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها ، واكلت الدواب بأسرها ، بحيث لم يبق للخليفة المستنصر سوى ثلاث افراس بعد ان كانت عشرة آلاف . وبيع الكلب بخمسة دنانير والسنور بثلاثة دنانير .

ونزل الوزير أبو المكارم وزير المستنصر على باب القصرين على بغلته وليس معه الا غلام واحد ، فجاء ثلاثة واخذوا البغلة منه ولم يقـدر الغـلام على منعهم لفرط جوعه ، فذبحوا البغلة واكلوها . فقبض عليهم وصـلبوا فاصـبح الناس لم يروا الا عظامهم اذ أكل الناس فى تلك الليلة لحومهم .

وباع رجل داره وكان قد اشتراها بتسـعمائة دينار فى مقابل عشرين رطلا من الدقيق ، وبيعت البيضة بدينار واردب القمح بمائة دينار فى بدء الازمة ثم عدم القمح جملة وكان السودانيون يقفون فى الازمة يخطفون النساء بالكلاليب ويشرحون لحومهن ويأكلونهـا .

وغير ذلك من حكايات وقصص لا تخلو من المبالغات كما هى العادة ، ولكنها تدل على مدى الشدة التى لم تشهد مصر مثيلا لها من قبل .

كنوز الفاطميين تنهب وتباع :

وكان من آثار هذه الشدة ان نهب القواد ورؤساء الجند كنوز الفاطميين التى كانت مودعة بالقصر كما باع الخليفـة ما بقى منها ليستطيع أن يبقى على حيـاته وسـلطانه .

وقد سجل انا المقريزى وابن ميسر محتويات القصر التى نهبت أو بيعت — وفى عصرنا الحديث نشر الدكتور زكى حسن مجلدا فخما أطلق عليه اسم كنوز الفاطميين مما يضيق المجال عن نشر ملخص له وحسبنا أن نذكر أن من بين ماقيل أن احـد الدلالين الذين اشرفوا على بيع هذه التحف ذكر ان مابيع خـلال اسبوعين بأبخس الاثمان ، اذ تقاضاه القواد والجنود كبعض مستحقاتهم كان يساوى ٣٠ مليون دينار من التحف والجواهر والذخائر والملابس .

تبـدد المكتبة :

ولكن كارثة العلم تتجلى فيما صارت اليه مكتبة القصر التى كانت مجلداتها تزيد على مائة الف ، حيث عملت من جلودها أحذية فى بعض الأحيان ، وذهب أكثرها طعمة للنيران للتدفئة .

قطع الخطبة عن المستنصر فى الحجاز :

وكان طبيعيا وهذا مدى ما كانت تعانيه مصر من مجاعة أن تعجز عن ارسـال ما اعتادت على ارسـاله كل عام من اموال وارزاق الى مكة والمدينة ، ولذلك فقد اسقطت الخطبة عن المستنصر ودعى للخليفة العباسى بدلا عنه .

١٠٧١ م ـ ٤٦٣ هـ : استيلاء النورمان على صقلية :

وبدأت الشدة الطاحنة التى الت بالخليفة الفاطمى يظهر أثرها فى سائر ارجاء الدولة ... فقطعت الخطبة للمستنصر فى شمال افريقيا كله ، واذا كانت هذه البلاد لم يخسرها الاسلام ، اذ استبدلت اسم الخليفة الفاطمى بالخليفة العباسى . فان جزيرة صقلية خرجت نهائيا عن الدولة الاسلامية باستيلاء النورمان عليها فى هذه السنة .

ويقول أبو المحاسن أن سبب استيلاء النورمان على صقلية ان المستنصر بعث يطالب الوالى على الجزيرة بالمال المستحق عليه وكان عاجزا عما طلب منه فبعث الى الافرنج وفتح لهم باب البلد فدخلوه وقتلوا الوالى وملكوا الجزيرة .

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت جزيرة صقلية دولة نصرانية . ولكنه لم يحدث فيها ما حدث فى الأندلس حيث أبيد المسلمون أو حملوا على مغادرة البلاد . فقد ظل المسلمون يعيشون فى ظل حكامهم الجدد والاجماع على ان جزيرة صقلية كانت أحد المعابر الهامة التى انتقلت منها الحضارة الاسلامية العربية الى أوربا .

ولقد مر الرحالة بين جبير بصقلية سنة ٥٨٠ هـ أى بعد ست وتسعين سنة من انتهاء الحكم الاسلامى الفاطمى من صقلية فتحدث عن اعتماد الأمير النورمندى (غليام) جيوم على العناصر فقال : « انه عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين وانه كثير الثقة بهم . وساكن اليهم فى احواله والمهم من اشغاله ، وله الأطباء والمنجمون منهم وهو شديد الحرص عليهم » .

سنرى فيما هو آت كيف ان ملوكهم ظلوا يحسنون اللغة العربية (١)

انتصار السلاجقة على الروم فى معركة ملاذكرد :

وبينما كان ملك الفاطميين يتهاوى على هذه الصورة كانت قوة الأتراك السلاجقة السنيين ، تتصاعد حتى وصلت ذروتها فى هذه السنة بانتصار السلجوقيين انتصارا ساحقا على البيزنطيين فيما يسميه مؤرخو العرب معركة الزهدة ويسميه الأوربيون وقعة ملاذكرد أو مانزيكرت .

وكان رومانوس امبراطور الروم قد زحف بجيش قوامه اكثر من مائة الف مقاتل صوب أرمينيا لاحتلالها ، فتصدى له السلطان الب ارسلان بن طغرلبك ، ولم يكن جيشه يزيد على عشرين الفا ومع ذلك فقد انتصر على الجيش البيزنطى ووقع رومانوس نفسه اسيرا ، ولكن ألب ارسلان أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة وعامله باحترام وتوقير ولكنه لم يكد يرجع الى القسطنطينية حتى وجد مواطنيه قد خلعوه ثم لم يلبث أن قتل .

وقد فتح النصر الذى أحرزه السلاجقة فى موقعة ملاذكرد طريق آسيا الصغرى لهم ، فاجتاحتها جيوشهم حتى وصلت الى بحر مرمرة ، والفوا فى آسيا الصغرى (الأناضــول) دولة اسـلامية جديدة جعلوا عاصـمتها مدينـة قونية . وأصبحت القسطنطينية مرة أخرى تحت رحمتهم مما اضـطر الامبراطور البيزنطى ان يدفع لهم الجـزية .

ولكنه من ناحية اخرى، أرسل يستغيث ببابا روما جريجورى السابع ، ليساعده فى ايقاف هذه الموجة الجديدة من الزحف الاسلامى. ولن يلبث المد الاوربى ان يجىء فى صورة الحروب الصليبية بعد حين .

١٠٧٣ م ــ ٤٦٥ هـ : ناصر الدولة يدخل القاهرة والفسطاط :

لم يجد المستنصر ومن معــه سـبيلا او ضع حد للمجاعة التى أوشكت أن تفنى سكان القاهرة والفسطاط الا أن يتصالح مع ناصر الدولة نصر بن حمدان الذى كان يسيطر على الوجه البحرى . وليس هناك ما يصور مدى ما كان المستنصر قد وصل اليه من البؤس ، من أن جنود ناصر الدولة عندما دخلوا الى قصر الخليفة وجدوه يجلس فى قصره الخاوى على عروشه على حصيرة وحوله ثلاث جوارى . وكانت أحدى السيدات المحسنات ترسل له رغيفين كل يوم ليعيش عليهما .

زوال الشــدة :

على أن فيضان النيل عاد فى هذه السنة الى سابق عهده ومع الفيضــان جـاء الخصب والثمار والرخاء .. فانتهت تلقائيا المجاعة التى أوشكت ان تفنى الشعب المصرى .

قتل ناصر الدولة :

على أن النجاح الذى احرزه ناصر الدولة لم يدم طويلا .. فقد خشى زملاؤه من قادة الأتراك على انفسهم ، خاصة وأنه كان يراسل الخليفة العباسى للاستيلاء على مصر ، وقيل انه دعا له على المنابر فى مساجد الاسكندرية والوجه البحرى . ولذلك فقد دبرت له مؤامرة قتل فيها .

١٠٧٤ م ــ ٤٦٦ هـ : تولية بدر الجمالى وزارة مصر :

لم يكن لمقتل ناصر الدولة بن حمدان ، وانتقال السلطة الى قاتله الدكز التركى اى اثر فى تحسن الأحوال العامة أو احوال المستنصر الخاصة .

فراى المستنصر ان يلجأ الى الرجل الذى كان قد اظهر شجاعة وبراعة فى التدبر فى بلاد الشام وهو الامير بدر الجمالى والى عكا ، فارسل اليه يستدعيه الى مصر

ليستعين به فى أعمال الوزارة ، فلبى بدر الجمالى الدعوة وجاء الى مصر على ظهر اسطول فى زمن الشتاء على خلاف نصيحة رجاله ، ووصل الى الاسكندرية فكان مجرد وصوله بهذا الأسلوب مظهرا على قوته وصلابته .

وزراء التفويض :

وكان أمر تعيين بدر الجمالى فى الوزارة ، يتضمن صيغة لم يسبق لها مثيل ، حيث فوض اليه المستنصر كل سلطانه ليباشره نيابة عنه فيقول له بعد ان خلع عليه لقب أمير الجيوش :

« وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ، ومصلحا لفساد ، ومدمرا لاهل العناد » .

وبدأ العهد الجديد من الوزراء الذين أصبحوا هم مستودع السلطان ، ولم يبق معهم للخليفة سوى الاسم (١) .

الاستكثار من الجنود الارمن :

وقد جاء بدر الجمالى الى مصر وفى معيته عدد كبير من جنود الارمن ، ومنهم من كان لا يزال على نصرانيته . وبدأ بدر الجمالى يستكثر من الارمن ، ليكونوا سندا له ضد جيوش الترك والسودان والمغاربة . وهكذا دخل الميدان عنصر جديد ليزيد من وهن الدولة ، ولكن شخصية بدر الجمالى قد حجبت ذلك ما بقى حيا .. بل أن عهده سرعان ما يتحول الى عهد ازدهار .

اعادة الامن والنظام :

كان هم بدر الجمالى بطبيعة الحال هو اقرار الامن والنظام فى الدرجة الاولى ، ولذا فقد بدأ بالضرب بشدة على قبائل لواته المغربية التى كانت تسيطر على الاسكندرية والوجه البحرى . ثم توجه الى الصعيد ليستخلصه من يد السودانيين واحلافهم الاعراب .. واعاد سلطان الخليفة واقر الامن حتى اسوان

أما فى القاهرة فقد قتل كل من يتصور انه عقبة فى سبيل الاستقرار مبتدئا بالدكز التركى وغيره من رءوس الفتنة .

وكان مظهر نجاحه الاول ، هو استطاعته ان يسترد الكثير من منهوبات القصر .

تحسن احوال الفلاحين :

ومع عودة فيضان النيل واستتباب الامن ، عاد الرخاء الى بلاد الريف فأحس الفلاحون فى ظل قيادة بدر الجمالى العادلة الحازمة المصلحة ، بما افتقدوه خلال

---

(١) يشبه ذلك مع الفارق ما يجرى فى المجتمعات الملكية الديمقراطية ، حيث يملك الملك ولا يحكم ، ويكون الحكم الفعلى بيد رئيس الوزراء المختار من الشعب .

عشرات السنين السابقة ، فأقبلوا على اعمالهم بجد وتفاؤل وامل ، وسرعان ماأظهرت هذه البلاد احدى خصائصها .. اذ تغلبت على الازمة التى أوشكت ان تطحنها .. وظهر اثر ذلك فى ايرادات الدولة ، فحيث لم يكن دخل مصر يزيد على ٢ مليون دينار فى العام .. فاذا عم الرخاء كان الايراد ٠٠٠ر٨٠٠ر٢ دينار على الاكثر فقد وصل الايراد بطريقة عادية الى ٠٠٠ر١٠٠ر٣ دينار

١٠٨٧ م — ٤٨٠ هـ : بناء سور القاهرة :

ليس هناك ما يكشف عن تحسن الاحوال الاقتصادية فى أى من العصور الماضية ، اكثر من أن تتابع منشآته ولذلك فباستطاعتنا بعد تسعة قرون ان ندرك ان بدر الجمالى استطاع أن ينقذ مصر من الفوضى والفقر والمجاعة ، وان يردها من جديد الى الازدهار ، من خلال المبانى التى انشئت فى عهده .. فمسجد العطارين القائم الآن بالاسكندرية وهو من بنائه وانشائه (١) . ولم يكن ذلك الا ابداية .. ففى هذه السنة التى نتحدث عنها اعاد بدر الجمالى بناء أسوار القاهرة وهدم أبواب النصر والفتوح وزويلة وأعاد انشاءها على الصورة الرائعة التى لا تزال توجد عليها حتى الآن كتحفة من أعظم التحف الاسلامية . ويشير لين بول الى ان بعض المهندسين البيزنطيين هم الذين صمموا هذه الابواب ولذلك فان الطراز البيزنطى يتجلى فيها: ولكننا لم نعثر على ذلك فى مصادرنا العربية .

١٠٩٠ م — ٤٨٢ هـ : جيوش مصر تستعيد ثغور الشام من السلاجقة :

كان للشدة العظمى التى انتابت مصر من ناحية ، وازدياد قوة السلاجقة النامية من ناحية اخرى ، اثره على زعزعة سلطان الفاطميين فى الشام وفلسطين . وكان ملكشاه اول سلاطين السلاجقة فى بغداد قد ارسل جيوشه عام ٤٦٢ هـ فتمكنت من فتح مدينتى الرملة وبيت المقدس . ولكنها عجزت عن فتح دمشق فى ذلك الوقت ، على أن الجيوش السلجوقية لم تلبث ان عادت لها عام ٤٦٧ هـ فنجحت فى الاستيلاء عليها ، وحذف الدعاء للمستنصر من مساجدها واعادت اسم الخليفة العباسى المهتدى . وحاولت جيوش السلاجقة أن تتجه صوب مصر نفسها ، ولكن بدر الجمالى استطاع أن يوقف زحفها وان يردها على اعقابها .

ولم يكد بدر الجمالى يوطد الامور داخل مصر على الصورة التى رأيناها ، حتى بدأ يمد بصره الى الشام ، لاستعادة سلطان مصر على ثغورها ، لحاجة الاسطول اليها من ناحية ، ولتفوق مصر على السلاجقة بقوة الاسطول .

---

(١) يرى الدكتور جمال الشيال ان بدر الجمالى لم ينشىء هذا المسجد وانما جدده ويستند فى ذلك الى اللوحة التذكارية الموجودة على جدران المسجد حيث تشير الى انه كان خرابا فعمره .

وبالفعل استطاع ان يستولى على موانى صــور وصيدا وعكا وبعلبك واعيدت الخطبة للمستنصر فى هذه البلاد .

١٠٩٤ م ـ ٤٨٧ هـ : وفاة بدر الجمالى :

فى ربيع الثانى او جمادى الاولى على ما يقول المقريزى : وفى شهر ذى القعدة من هذه السنة على ما يقول امين سامى مات امير الجيوش بدر الجمالى ، والارجح هو ما يقوله المقريزى ، لانه من المتفق عليه ان المستنصر مات فى نفس السنة ، وانه قد انقضت شهور بين الرجلين وكانت سن الجمالى عند موته تناهز الثمانين .

وقد سمى بالجمالى لانه كان مملوكا ارمنيا للامير جمال الدولة بن عمار ، ثم اخذ يترقى فى المناصب لما أظهره من كفاية خلال الحروب التى قامت فى بلاد الشام ، حتى ولى امارة دمشق من قبل المستصر عام ٤٥٦ هـ واخذ يحارب الاتراك فى تلك البلاد ، واثبت أنه من أقوى قواد الفاطميين ثم تقلد نيابة عكا عام ٤٦٠ هـ حتى استدعاه منها المستنصر كما ذكرنا .

ويقول عنه المقريزى : انه حكم مصر حكم الملوك خلال احدى وعشرين ســنة لم يكن للمستنصر معه أمر ، واستبد بالامور فضبطها احسن ضبط ، وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة ، وقد عمر البلاد واصلحها بعد فسادها وخرابها باتلاف المفسدين من اهلها .

وكانت له محاسن منها انه اباح الارض للمزارعين ثلاث ســنوات حتى ترفهت أحوال الفلاحين واستغنوا فى ايامه ، ومنها حضور التجار الى مصر لكثرة عدله بعد نزوحهم منها أيام الشدة ومنها وفرة كرمه . وهــو اول وزراء الســيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر .

وقد بايع قبل موته لابنه ابو القاســم ليكون مدبرا للمملكة واطلق عليــه لقب الافضل شاهنشاه ، ولم يكن باستطاعة المستنصر الا أن يقر هذا التعيين ففوض اليه كل ما كان لأبيه من ســلطان .

موت الخليفة المستنصر :

وعلى الرغم من انه حكم ستين سنة وهو ما لم يسبقه اليه ملك فى الاسلام(١)، فان سنه عند وفاته لم يتجاوز سبعا وستين سنة الا بضعة شهور ، فقد ولى الخلافة طفلا كما قدمنا .

(١) راجع حكم رمسيس .

والمؤرخون يقسمون حكمه الى فترتين : الثلاثين سنة الاولى من حكمه وقد بلغت فيها الدولة الفاطمية ذروة نفوذها السياسى . اما نصفها الثانى فقد كان عهد تدهور النفوذ الفاطمى فى كل مكان كما رأينا . الا انه من المحقق ان احوال مصر الداخلية ، وخاصة بعد ايام الشدة العظمى قد تحسنت تحسنا كبيراً على يد بدر الجمالى كما رأينا كذلك .

خلافة المستعلى بالله :

فى الثامن عشر من ذى الحجة بويع بالخلافة لابن المستنصر واسمه أحمد وكنيته أبو القاسم ولقب بالمستعلى بالله . وكانت سنه يوم ولى الخلافة أربت على العشرين سنة وقد أدت تولية المستعلى الخلافة الى أحداث أول وأكبر انشقاق فى صفوف الاسماعيليين . ذلك ان أحمد لم يكن هو أكبر ابناء المستنصر ، وانما كان الابن الاكبر هو نزار . وكان المستنصر قد نص على خلافة نزار من بعده ، وهو الشرط الاساسى للخلافة عند الاسماعيلية ولكن الافضل شاهنشاه راى ان يخرق هذه القاعدة ، وأن يختار بنفسه الخليفة من أبناء المستنصر ليكون ذلك أكثر ضمانا لسلطانه ، واستطاع ان يحمل كبار القواد والامراء على مبايعة المستعلى .

طائفة النزارية :

لم يرتض نزار صاحب الحق الشرعى بهذا الاجراء ، وفر هاربا الى الاسكندرية يحيط به من يشايعه من الامراء والقواد ونودى بنزار فى الاسكندرية خليفة . ودارت المعارك بين مؤيديه وجيوش الافضل ، وانتهت المعارك بانتصار الافضل ، ولكن انصار نزار لم يعترفوا بذلك، وانقسمت الاسماعيلية منذ ذلك الحادث الى مستعلية ونزارية ولم يلبث ان يصبح على راس الاسماعيلية النزارية حسن الصباح الفقيه والداعية الاسماعيلى الشهير ، الذى سيؤسس للنزارية ملكا فى قلعة الموت ثم فى الشام ، وسيظل اتباعه شجا فى حلق الدولة الفاطمية حتى نهايتها ثم فى حياة صلاح الدين والدولة الايوبية من بعدها .

١٠٩٥ م — ٤٨٩ هـ : استعادة المصريين القدس :

لم يكد السلطان ملكشاه الذى وصل فى عهده السلجوقيون وعلى يديه الى ذروة قوتهم ، يموت حتى اختلف أبناؤه الاربعة ، وقسموا عليهم الدولة ثم راحوا يتقاتلون فيما بينهم على السلطان ، فادى ذلك الى ما يؤدى اليه دائما وهو انهيار ملكهم فى منطقة النزاع وما حولها وقد كانت هذه المنطقة هى الشام الامر الذى مهد لانتصار الصليبيين كما سنرى . وقد استغل الفاطميون من ناحيتهم تدهور مركز السلاجقة فى بلاد الشام وفلسطين فاستطاعوا ان يستردوا مدينة القدس ويعيدوها الى سلطانهم ولكن ذلك تم بعد فوات الاوان ، اذ كانت موجة المد الصليبى بدات تغمر العالم الاسلامى .

قيام الحروب الصليبية [1]

١٠٩٦ م – ٤٩٠ هـ :

استقر بيت المقدس فى ايدى المسلمين قرابة خمسة قرون ، نعم فيها المسيحيون بالامن والاستقرار والتسامح ، وعندما آل حكم الشام الى الفاطميين وهم على ما ذكرناه من التسامح الدينى ، ازداد ازدهار المسيحيين فى بيت المقدس ، باستثناء الفترة المؤقتة الشاذة لخلافة الحاكم ، وقد راينا كيف اعيد بناء كنيسة القيامة كخير مما كانت .

ثم جاءت موجة السلجوقيين العاتية فأوشكت ان تجتز الامبراطورية البيزنطية من اساسها فاستغاث اليكسى الامبراطور البيزنطى ببابا روما اربان الثانى الذى وجد فى هذه الاستغاثة فرصته لبسط سيادته الروحية على الكنيسة الشرقية،وعلى اوربا كلها . وقد تصادف أن كان من المقرر فى هذه الفترة عقد مجمع كليرمونت الدينى ، فذهب اليه اربان الثانى وقد كان من اصل فرنسى ، وراح يخطب فى المجتمعين بحماسة الهبت السامعين ، واشاد بامجاد فرنسا الحربية ، وشنع على المسلمين الذين وصفهم بأنهم كفار ، وبحث تخليص بيت المقدس من أيديهم ، واشار اشارات صريحة الى فرص الربح والنجاح المادى فى تكوين الامارات والممالك . فهتف الحاضرون « هذا ما أراده الله » وقد اصبحت هذا الصيحة هى شعار الصليبيين . وقام اربان الثانى بعد خطبته فوزع الصلبان على الحاضرين .

حملة بطرس الناسك الصليبية :

وعلى الرغم من ان اشعال الحروب الصليبية يجب ان يعزى الى البابا اربان الثانى فان الرجل الذى ذهب فى التاريخ باعتباره موقد نارها الحقيقى هو بطرس الناسك ، وهو راهب مسيحى كان قد عاد لتوه من حج بيت المقدس ابان الحركة التى قامت فى فرنسا تدعو المسيحيين الى الحج الى بيت المقدس .

وقد ساء بطرس الناسك ما وجده فى بيت المقدس من خشونة السلجوقيين ضد

---

(١) نشر الدكتور عمر كمال توفيق استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية آداب جامعة الاسكندرية كتابا جعل موضوعه مقدمات العدوان الصليبى وهو موضوع رسالته ، والمطالع للكتاب لا يرى فيه الا محاولة من احد اباطرة بيزنطة وهو يوحنا تزيمسكس ، أن يسترد بعض املاك بيزنطة من الدول الاسلامية . وهو ما لا علاقة له بالحروب الصليبية التى وصفت بهذا الاسم ، والتى تؤلف زحف غرب اوربا لأول مرة فى التاريخ على بلاد الشرق .

الحجاج . فراح عند عودته يندب حظ المسيحيين فى الشرق من اضطهاد المسلمين الذين أطلق عليهم اسم الكفار . وراح يدعو لاستخلاص بيت المقدس من الكفار .

وهكذا توافقت دعوة البابا الرسمية للامراء والفرنسان مع دعوة بطرس لابناء الشعب ، وكان الشعب أسرع استجابة لقائده فرسم على صدورهم الصليب وساروا خلف بطرس الناسك سيرا على الاقدام لتخليص بيت المقدس من الكفار .

وكان عدد الزاحفين يتزايد اثناء سيرهم عبر أوربا الشرقية حتى اربى عددهم على عشرين الفا ، ساروا فى غير نظام أو تدريب ، أو تموين . فسرعان ما انقلب امرهم الى فوضى ، اذا راحوا يقتلون اليهود وينهبون القرى فتصدت الشعوب لحماية نفسها منهم ، فأفنت عددا كبيرا . ولما وصلت هذه الجموع فى خاتمة المطاف الى القسطنطينية ، خاف منهم الامبراطور البيزنطى على شعبه ودولته ، فأسرع بنقلهم بحرا الى الاناضول حيث كانت تقوم الدولة السلجوقية . فما كان من الب ارسلان سلطان قونية الا أن فاجأ هذه المجموع غير المدربة ولا المستعدة على حين غرة . فأوشك أن يبيدهم عن بكرة ابيهم ، ولم يكن حظ الذين فروا احسن حالا فقد غرق الكثير منهم فى البحر .

ونجا بطرس الناسك بما يشبه الاعجوبة حيث التقطته سفينة بعث بها اليكسى من الشاطىء ، وهكذا طويت أول صفحات الحروب الصليبية بهذا الفشل الذريع .

جيوش الامراء والفرسان الصليبية :

على ان الحملة الشعبية اذا كان قد قضى عليها بهذا الاسلوب ، فان حظ الحملة العسكرية التى تألفت من الأمراء الفرسان بناء على دعوة البابا اربان الثانى لم يكن كذلك . وكان قوام هذه الحملة العسكرية خمسة جيوش أولها من اللورين فى فرنسا تحت قيادة جودفرى دى بولون بلدوين ، والثانى من بلجيكا تحت قيادة الأمير فلاندر ، وجيش ثالث رأسه ريمون دى سانتجيل وجيش رابع من الطليان والنورمان تحت قيادة بوهمند ، وجيش خامس من وسط وغرب فرنسا بقيادة روبير امير نورمانديا . وكان يرأس هذه الجيوش الخمسة من الناحية الروحية نائب البابا ادى مار دى مونتل ، على انه بحكمته وشخصيته سرعان ما تحول الى رأس الحملة المفكر .

وقد تجمعت هذه الجيوش الخمسة خلال الاشهر الاخيرة من عامى ١٠٩٦ ميلادية ومطلع سنة ١٠٩٧ حول القسطنطينية واوجس منهم امبراطور بيزنطة خيفة ، بالرغم انه كان هو الذى استغاث بهم . وطلب منهم ان يقسموا له يمين الولاء وان يتعهدوا بتسليم المقاطعات التى سيستولون عليها من السلاجقة اليه .

وقد كان تخوف الامبراطور فى محله .. فقد كانت الافكار التى تراود رءوس الامراء ، غير تلك التى تراود الامبراطور .. ومع ذلك فنظرا لحاجتهم الى مساعدة الامبراطور ، فقد اقسم له البعض اليمين الذى طلبه منهم فى تردد ، بينما امتنع البعض الآخر .

وكانت مدينة نيقيه أول ما استولوا عليه .

١٠٩٧ م ـ ٤٩١ هـ : الاستيلاء على مدينة انطاكية :

كان أول نصر أحرزه الصليبيون هو استيلاؤهم على مدينة انطاكية .. ولم يكن استيلاؤهم عليها امرا سهلا فقد ظلوا على حصارها ثمانية أشهر ، وهى صامدة لا تستسلم ، ولولا الخلافات بين امراء السلاجقة وبينهم وبين الفاطميين فى مصر ، لأمكن الاطباق على الصليبيين الذين كانوا مختلفين فيما بينهم . ولكن هذه النجدة لم تصل فى الوقت المناسب .

وفى هذه الاثناء كان احد سكان المدينة ويدعى فيروز ، وقد كان أرمنيا مسيحيا ثم اسلم وكان يتولى حراسة أحد الابراج : فاتصل بأحد الامراء الصليبيين واتفق معه على ان يمكنه من الدخول من أحد النوافذ الى البرج الذى يقوم بحراسته . ودخل الصليبيون فى نفر قليل الى داخل البرج ، وصاحوا صيحتهم المألوفة : هذا ما أراده الله ..

ولكى يتم قضاء الله ، دب الفزع والهلع فى قلب أمير المدينة ، وتصور أن المدينة كلها احتلت بالصليبيين . مع أنه كان من أيسر الامور ان يحاصر هذه القلة التى نفذت الى البرج وبيبدهم ، فاذا به يخرج هالعا من المدينة : مقوضا بذلك نظام الدفاع عنها .. ففتحت ابواب المدينة ودخلها الصليبيون ، ويقول مؤرخو الحملة الصليبية من الافرنج أنهم قتلوا من النساء والأطفال فى انطاكية ما لا يدركه حصر .

امراء المسلمين يحاصرون انطاكية :

كان طبيعيا أن يحدث سقوط انطاكية رد فعل فى صفوف أمراء المسلمين من آل سلجوق وغيرهم ، فقد أنهوا خلافاتهم وأسرعوا بجيوشهم الى مدينة أنطاكية وتحول الصليبيون الذين كانوا يحاصرون المدينة الى محاصرين فيها . وقد اشتد الحصار على الصليبيين حتى ساءت أحوالهم واوشكوا على الاستسلام : لولا ان عاد اليهم الايمان والحماسة بخدعة قام بها احد الرهبان ، اذ أوهمهم ان المسيح قد زاره فى المنام ودله على مكان الرمح الذى طعن به وانه متى صار الى أيديهم فسوف ينتصرون به . وكان الراهب قبل ان يفشى حلمه (المزعوم) قد خبأ رمحا قديما فى مكان معين ، وهو الذى زعم أن المسيح حدده له فى الرؤيا .. فلما ان عثروا على الرمح بالفعل ، ثارت حميتهم ، وجاش ايمانهم ، فخرجوا من المدينة : وباغتوا الجيوش المحاصرة والتى كانت أكثر عددا وأقوى عدة فهزموهم شر هزيمة .

١٠٩٩ م ٤٩٢ هـ : الاستيلاء على بيت المقدس :

سار الصليبيون بعد هذا النصر الاخير من انطاكية قاصدين الاستيلاء على بيت المقدس وقد اشتد عزمهم بما فتحوه من مدن اثناء زحفهم . وقد اتخذ الصليبيون فى زحفهم طريق الساحل ليكونوا على صلة مستمرة بأساطيلهم . ويقول المؤرخون العرب أن عدد الجيوش الصليبية كان الف الف مقاتل منهم خمسمائة الف فارس

ومن المحقق أن هذه الأرقام قد ذكرت لتبرير الهزيمة التى حاقت بالمسلمين، فالمصادر الافرنجية تحدد جيوش الصليبيين الوافدين من أوربا بثلاثين الفا : ولاشك ان هذا العدد قد تزايد بما أضافه اليه البيزنطيون : ولكن من المحقق ان العدد كان محددا لا يتجاوز المائة ألف بحال .

وكانت مدينة القدس فى هذه الفترة فى حوزة الفاطميين بعد أن استولوا عليها عام ٤٨٩ هـ ـ ١٠٩٥ م كما قدمنا ولكن بعض المؤرخين يجعل استرداد الفاطميين للمدينة عام ١٠٨٩ م أى بعد بدء الحروب الصليبية .

واستمر حصار القدس أربعين يوما لم تصل فيها النجدات من مصر ولا من بغداد ، فسقطت المدينة فى خاتمة المطاف ، ولا جدال أن الخلاف بين العباسيين والفاطميين ، أو بالأحرى بين السنيين والشيعة ، كان من أكبر العناصر التى أدت الى سقوط المدينة المقدسة .

فظائع الصليبيين :

وبينما يوجز المؤرخون المسلمون فيما حل بسكان المدينة فى العبارات التالية :

وهرب الناس الى الصخرة والأقصى واجتمعوا بهما ، فهجموا عليهم وقتلوا فى الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم ، وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء وأخذوا من الأموال ما لا يحصى .

وهذه العبارة بنصها كثيرا ما تتكرر عند ذكر سقوط مدن أخرى .

ولذلك فان مراجع الصليبيين فى هذه الناحية هى التى تصور لنا طرفا مما حدث .

يقول فنك برنتانو المؤرخ الفرنسى فى كتابه « الحروب الصليبية » : « حين سقطت المدينة اخذ المسلمون يفرون من الشوارع الضيقة ، ولجأت طائفة كبيرة منهم الى هيكل سليمان وهو المكان الذى اتفقوا فيه مع طنكرد (أحد قواد الصليبيين) أن يلجأوا اليه ، فوعدهم بالدفاع عنهم وسلمهم رايته ليركزوها هناك دلالة على حمايته لهم . وغص المكان بألوف اللاجئين حتى ضاق بهم فصعد الكثيرون منهم على السطح . وحين احتل الصليبيون المدينة انقضوا على المسلمين واخذوا يذبحونهم ذبح الشاء غير ملقين بالا الى راية طنكرد ، فسالت الدماء فى المعبد وملأته حتى بلغت ما يوازى ارتفاع اليد . وقد ذبح أيضا المسلمون الملتجئون الى السطح ثم رموا الى أسفل البناء ، فكانت جماجمهم تنفلق وعظامهم تنكسر .

والجأ المسلمون الى جامع عمر بن الخطاب رجالا ونساء وأطفالا وهم بحالة جزع وفزع من الدماء التى ملأت المسجد وارتفعت حتى ركبتى الفارس الصليبى على ما أكده الكثير من الصليبيين . وبقطع النظر عن استثناءات نادرة ، فان المدينة نظفت

من سكانها المسلمين رجالها ونساءها واطفالهـا وكانت الشوارع تعج بجماجم الموتى واذرعهم وارجاهم المقطعة ، وكان الصليبيون يتفننون فى تعذيب واماتة هؤلاء المساكين.

وبعد الانتهاء من قتل المسلمين وأحراقهم ونهب بيوتهم تنبه القوم الى انهم جاءوا لاداء واجب دينى فهرعوا الى كنيسة القيامة واخذوا يتعبدون وعيونهم تفيض بالدمع فرحا واستبشارا بما كسبت أيديهم لاعلاء كلمة الفادى المخلص يسوع المسيح اله الحب والرحمة ورمز السلام » (١) .

الأفضل شاهنشاه يصل بعد فوات الوقت :

وكما وصل امراء السلاجقة بعد فوات الوقت لانقاذ انطاكية ، فقد وصل الأفضل شاهنشاه بجيشه المؤلف من عشرين ألف مقاتل بعد سقوط القدس . وكان طبيعيا ان يتصدى له الصليبيون الذين كانوا سكرى بنشوة النصر ، وان يهزموا جيشه عند مدينة عسقلان وينفتح بذلك لهم الطريق للاستيلاء على مدن الساحل ، ولكن مدينة عكا استطاعت أن تقاوم هجماتهم .. فانصرفوا عنها وعادوا الى بيت المقدس لتنظيم ملكهم .

دولة الصليبيين الاقطاعية فى الشرق :

انتخب جود فرى دى بولون ملكا واتخذ لنفسه لقب حامى القبر المقدس . والف الامراء الصليبيون حكومة ملكية اقطاعية وليست دينية يهيمن عليها البابا . يقول وليم لانجر صاحب موسوعة تاريخ العالم : كانت مملكة بيت المقدس اقطاعية بكل ما لهذا اللفظ من معنى ، فقد كان الملك سيدا اقطاعيا لا ملكا ، فى الوقت الذى سيطر كبار الاقطاعيين على المملكة سيطرة تامة . وأسس بلدوين فى مدينة الرها كونتية تعتبر من الناحية التاريخية أولى الممالك الصليبية تأسيسا . وأسس بوهمند امارة فى انطاكية ، وأسس ريموند دى تولوز (كونتية طرابلس) فيما بعد ، واصبحت هذه الاقطاعيات تابعة لمملكة بيت المقدس .

١١٠١ م ــ ٤٩٥ هـ : وفاة الخليفة المستعلى بالله :

فى يوم الثلاثاء تاسع صفر من هذه السنة مات المستعلى بالله وكان عمره يوم وفاته سبعا وعشرين سنة حكم منها سبع سنوات وشهرين وأياما .

يقول أبو المحاسن الذى لا يخفى كراهيته للفاطميين وتسميتهم بالروافض : وكان المستعلى بالله حسن الطريقة فى الرعية جميل السيرة ملازما للقصر كعادة ابيه مكتفيا بوزيره الأفضل شاهنشاه فى كل ما يريد ، ومع تقاعده عن الجهاد وتهاونه فى اخذ البلاد ، متغاليا فى الرفض والتشيع وكان يقع منه الامور الشنيعة فى مأتم عاشوراء

---

(١) ارجع الى كتاب الحروب الصليبية للأستاذ رفيق التميمى ــ وتاريخ الانسانية للمؤلف .

حيث يبالغ فى النوح والمأتم ويأمر الناس بلبس المسوح وغلق الحوانيت واللطم والبكاء زيادة عما كان يفعل آباؤه .

خلافة الآمر بأحكام الله على مصر :

ولى الخلافة بعد موت المستعلى ابنه منصور أبو على وكان عمره يوم ولى الخلافة خمس سنوات ولقب بالآمر بأحكام الله . وزاد بذلك سلطان الأفضل شاهنشاه حيث لم يكن الخليفة الا غلاما .

١١٠٣ م ٤٩٧ هـ : سقوط عكا فى يد الصليبيين :

جدد الصليبيون محاولتهم لافتتاح عكا فهاجموها برا وبحرا بأسطول مؤلف من تسعين مركبا ، وهكذا حاصروها من جميع الجهات ، ولم يخف الأسطول أو الجيش الفاطمى لنجدتها فسقطت فى شهر رمضان واستولى عليها الصليبيون .

وحاول الصليبيون فى هذه السنة أن يستولوا على آخر مدينة كبرى على الساحل فى شمال الشام وهى مدينة طرابلس ولكن المدينة لم تصمد لحصارهم فحسب ، بل خرج جنود المدينة وعلى رأسهم فخر الدين محمد بن عمار ، فشتت شمل الجيوش المحاصرة وانتصر عليهم فابتعدوا عن المدينة .

١١٠٩ م ــ ٥٠٣ هـ : سقوط مدينة طرابلس :

على ان الصليبيين ظلوا فى حرب متصلة مع مدينة طرابلس ، هذه الحرب التى استغرقت عشر سنوات . وقرروا فى نهاية الأمر أن يطبقوا عليها بكل قوتهم .

ومرة أخرى لعب الخلاف بين بغداد والقاهرة دوره فى وقوع المأساة . فقد لجأ امير المدينة ابن عمار الى بغداد ليستنجد بها فأرسل الفاطميون الى المدينة حاكما من قبلهم ، لم يستطيعوا اغاثته بالأسطول والمدد فى الوقت المناسب . فانتهى الأمر بسقوط طرابلس يوم الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة . وفعل الصليبيون بالمدينة ما اعتادوا فعله من قتل الرجال وسبى النساء والأطفال ، ونهب الأموال،ثم استولوا على مدينة جبلة بعد طرابلس بعشرة أيام ، ثم استولوا على مدينة بيروت ، ووصل الأسطول الفاطمى بعد فوات الوقت . فالتجأ الى مدينة صيدا وافرغ حمولته . فمكن المدينة من مقاومة الصليبيين فى بسالة . فظل ذلك هو الموقع الوحيد فى الشمال (١) كما ظلت عسقلان فى الجنوب .

١١١٢ م ــ ٥٠٥ هـ : وفاة الغزالى :

فى هذه السنة مات أحد اعلام الاسلام فى زمنه وفى كل زمان وهو الامام أبو حامد الغزالى مؤلف كتاب الاحياء وعشرات الكتب .

---

(١) ذكر امين سامى ان مدينة صيدا فى سقطت فى يد الصليبيين عام ٥٠٤ هـ ولكن المراجع الاخرى لم تذكر ذلك .

يقول ابن كثير : برع فى علوم كثيرة وله مصنفات منتشرة فى فنون متعددة ، فكان من آذكياء العالم فى كل ما يتكلم فيه . وساد فى شبيبته حتى انه درس بالنظامية ببغداد ولم يكن سنه يتجاوز أربعا وثلاثين سنة فحضر عنده رءوس العلماء فعجبوا من فصاحته واطلاعه ، ثم خرج عن الدنيا بالكلية وأقبل على العبادة وأعمال الآخرة، وكان يرتزق من النسخ ورحل الى الشام فأقام بدمشق وبيت المقدس مدة حيث صنف كتابه « احياء علوم الدين » .

والامام الغزالى ككل الأعلام تفترق حوله الآراء .. فحيث يعتبره الكثيرون حجة الاسلام يجرحه الكثيرون بسبب ما ورد فى كتابه الاحياء من أحاديث غير صحيحة . وتبقى الحقيقة من أنه من أكبر فحول العالم الاسلامى . وفى مكتبتى مجلدات ضخمة من البحوث حول الامام الغزالى بمناسبة مهرجانه ، أو حول الكتب التى ألفها ، والأثر الذى أحدثه لا فى العالم الاسلامى فحسب بل فى العالم الأوربى نفسه (١)

وممن حمل على الغزالى من زاويته الخاصة الأستاذ رفيق التميمى فى كتابه الحروب الصليبية حيث يقول : انه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره فى اعداد الخطب وتحبير الرسائل لحث أهل أوربا على امتلاك اقطار المسلمين ، كان الغزالى وهو المدعو بحجة الاسلام غارقا فى خلوته منكبا على أوراده الصوفية لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة الى الجهاد والدفاع عن بلاد الاسلام المقدسة . والأنكى من هذا كله والأدهى والأمر ان حجة الاسلام سكت سكوتا مطبقا عن هذه الحرب الطاحنة التى شنها الغرب على الشرق ولم يذكر عنها شيئا فى كتبه (٢) .

١١١٥ م ـ ٥٠٩ هـ : الوزير الأفضل يصالح بلدوين ملك الصليبيين :

عندما ادرك الأفضل شاهنشاه مدبر المملكة المصرية انه عاجز عن مناواة بلدوين ملك القدس والذى يسميه مؤرخو العرب بردويل ، ابرم معه عقد صلح ، يعتبر أول اتصال سياسى بين مصر والصليبيين واعتراف بهم وذلك على اثر مهاجمة بلدوين لقافلة من قوافل الحجاج .

١١١٧ م ـ ٥١١ هـ : بلدوين يحاول مهاجمة مصر :

على ان هذا الصلح لم يكن الا مؤقتا ريثما يستعد بلدوين لغزو مصر ، ولذلك فلم يمض عامان حتى قصد مصر فى جيش كبير فدخل مدينة الفرما واحرق مساجدها ، وليس الا المرض ما حال بينه وبين مواصلة السير ، ولم يلبث أن مات ، فما كان من اصحابه ـ على ما يقول أبو المحاسن ـ الا ان شقوا بطنه لكى يصبروه

---

(١) اقرأ لعبد الرحمن بدوى « دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى » .

(٢) لم يتسع لنا البحث لتمحيص هذه النقطة فنتركها للمختصين .

(اى يحنطوه) ورموا أحشاءه فى السبخة الموجودة هناك ، فأصبح يطلق عليها اسم سبخة بردويل (١) واعتاد الناس أن يرجموها الى ايام أبى المحاسن .

وهكذا نجت مصر من أول غارة مباشرة عليها .

١١٢١ م ــ ٥١٥ هـ : مقتل الأفضل ساهنشاه :

فى الثالث والعشرين من شهر رمضان قتل أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى بناء على ايعاز من الآمر بأحكام الله الذى كان قد بلغ أشده فى هذه الفترة . وكان الأفضل يضيق على الآمر فى حياته الخاصة ويحول بينه وبين الانكباب على شهواته وملذاته . ولا جدال فى أن الهزائم التى منيت بها مصر فى الشام وفلسطين ، قد ساعدت على اضعاف مركز الأفضل، فوقع الخلاف بين الرجلين وراح كل منهما يعمل على الخلاص من الآخر . وقيل ان الأفضل حاول ان يقتل الآمر بالسم ولكنه فشل ، ونجحت مؤامرة الآمر على الأفضل ، اذ تربص له نفر من المتآمرين وانتهزوا فرصة ركوبه فى غير موكب فوثبوا عليه وقتلوه .

ويقول أبو المحاسن أن الأفضل خلف من الأموال والنقود والقماش والمواشى ، ما يستحى من ذكره لكثرته .

وكانت سنه يوم قتل سبعا وخمسين سنة ، ومدة وزارته ٢٨ سنة ونصفا .

وهناك اجماع على أنه بالرغم من حدوث كارثة الصليبيين فى أيامه ، وسقوط فلسطين بأيديهم ، فان مصر قد نعمت فى مدة وزارته بالأمن والاستقرار . وحسن الادارة ، وأنه كان حاكما عادلا حسن السيرة ، وقد بنى وانشأ وعمر عدة عمائر منها الفرج والسبع وجوه وعدة مناظر بالروضة وبظاهر مصر واليه تنسب قيسرية أمير الجيوش (مرجوش) .

تعيين المأمون البطائحى وزيرا :

فوض الآمر بالله شئون الوزارة بعد مقتل الأفضل ، أبا عبد الله بن فاتك البطائحى ولقب بالمأمون . وزادت الألقاب والصفات التى أصبح يوصف بها درجات فهو : « السيد الأجل تاج الخليفة وجيه الملك فخر الصنائع أمير الجيوش ، ناصر الامام وسيف الاسلام كافل قضاة الدين هادى دعاة المؤمنين نظام الوجود خالصة أمير المؤمنين أعانه الله على مصالح المسلمين ووفقه لخدمة أمير المؤمنين وعضده بسموه ثقة الدنيا والدين ادام قدرته وأعلى كلمته » .

ولكن ذلك كله لم يجد نفعا فى أن يجعل من البطائحى وزيرا مرموقا ، فقد كان على الضد من سلفه .. فأساء التدبير وظلم .

مسجد ابى بكر الطرطوشى :

وفى أيامه الف أبو بكر الطرطوشى كتاب سراج الملوك واهداه للمأمون فاكرمه وخلع عليه . وعرض الطرطوشى على المأمون عزمه على بناء مسجد فى الاسكندرية بظاهر

---

(١) تقع هذه السبخة شرق بور سعيد ، وهى تعرف اليوم باسم بحيرة بردويل .

الثغر على البحر ، فرأى المأمون ان تكون نفقات هذا المسجد من مال ديوانه . وقد ذكر المقريزى هذا الحادث فى كتابه اتعاظ الخلفاء على ما نقله عنه الدكتور جمال الشـيال ، وجعل تاريخها عام ٥١٠ هـ مع ان المأمون لم يصـبح وزيرا الا فى عام ٥١٥ هـ كما راينا .

وعلى أية حال فان الدكتور الشـيال يقول لنا ان هذا المسجد من المسـاجد التى زالت وعفت آثارها .

مسـجد المؤتمن اخى المأمون البطائحى :

وفى سنة ٥١١ هـ على ما يقول المقريزى ايضا ، بنى المؤتمن أخو الوزير المأمون البطائحى مسجدا آخر عندما عين واليا على الاسـكندرية والأعمال البحرية .

١١٢٤ م ــ ٥١٨ هـ : سـقوط مدينة صـور :

فى هذه السنة سلم اهل مدينة صور مدينتهم بالأمان للصليبيين ، بعد أن عجز الصليبيون عن اخذها عنوة خلال ما يقرب من ربع قرن ، وقد جلا عن المدينة من أراد الجلاء عنها ، وبقى من اختار البقاء تحت حكم الصليبيين. وهذا يعطينا صورة واضحة عن مدى ما وصل اليه أمراء المسلمين فى ذلك الزمان ــ وبخاصـة حكام مصر ــ من ضعف وهوان .

١١٢٥ م ــ ٥١٩ هـ : مقتل الوزير المأمون البطائحى :

فى هذه السنة قتل الآمر بأحكام الله وزيره أبا عبد الله البطائحى ، هو واخوته وصلبهم واستولى على كل أموالهم ، كما استولى على أموال الأفضل من قبلهم .

١١٣٠ م ــ ٥٢٤ هـ : النزارية يقتلون الآمر بأحكام الله :

فى يوم الثلاثاء ثالث ذى القعدة ، قصد الخليفة الآمر جزيرة الروضة وكان قد أقام بها قصرا لملذاته واسكن به عشيقة له أخذت بلبه ، فانقض عليه جمـاعة من الاسماعيليين النزارية وهو يعبر الجسر المؤدى الى الروضة ، وضربوه بسيوفهم ، ولكن حرس الآمر تكاثروا عليهم وقتلوهم ، وعاد الآمر مثخنا بالجروح ، ولكنه لم يلبث أن مات متأثرا بجراحه .

ويجمع المؤرخون على ان الآمر بأحكام الله كان قبيح السيرة ظلم الناس واخذ اموالهم ، وسفك الدماء وارتكب المحظورات واستحسن القبائح ، ولذلك فقد ابتهج الناس بقتله . ويندد به أبو المحاسن لتقاعده عن الجهاد حتى استولى الصليبيون

(الفرنجة) على غالب السواحل والحصون فى أيامه . وكانت سنه يوم قتل خمسا وثلاثين سنة . حكم منها ثلاثين ســـنة .

خلافة الحافظ لدين الله على مصر :

بويع بالخلافة من الخاصة بعد وفاة الآمر بأحكام الله : الحافظ لدين‌الله أبوالميمون عبد المجيد . أما لماذا كانت بيعته من الناحية الشكلية ، فذلك أنه ليس ابنا للآمر بأحكام الله وانما هو ابن عمه ، وقد أشرنا من قبل أن الامامة لا تكون الا لابن الامام من صلبه وأن يعهد اليه على سبيل التخصيص. وقد حال دون ذلك وفاة الآمر دون ان يترك وراءه عقبا ، وانما ترك احدى نسائه حاملا ، ومن هنا اختار قواد الجيش عبد المجيد ابن عم الآمر ليلى السلطة من الناحية الشكلية ريثما يجىء المولود فان كان ذكرا ، أصبح هو الخليفة ، وكان عبد المجيد ابن عمه كفيلا له . كما عين قادة الجيش الأمير أبو على أحمد بن الأفضل شاهنشاه ليكون أميرا للجيوش ووزيرا .

والرأى الغالب بين المؤرخين ، ان المولود الذى جاء كان انثى ومن هنا استمر الحافظ خليفة شـــكلا وعملا .

على ان ابن ميسر مؤلف كتاب تاريخ مصر قال ان الآمر قبل وفاته بشهور كان قد ولد له ابن سماه الطيب واحتفـــل بمولده احتفالا علنيا ، واعلنه وليا لعهـــده وأرسلت السجلات بتولية الطيب ولاية العهد الى اليمن . والمقريزى على هذا الراى، ويتابعهما عليه الدكتور جمال الشيال .

وزارة أمير الجيوش احمد بن الافضـــل :

لم يكد احمد بن الافضل يستقر يوم الخميس السادس عشر من ذى القعدة فى منصب الوزارة ، حتى كان اول ما قام به من عمل أن أحاط بالحافظ وســـجنه فى احدى خزانات القصر فيما بين الايوان وباب العين ، ثم استولى على جميع مافى القصر من اموال وذخائر بدعوى انها اموال أبيه .

ولم يكن الوزير أبو على اسماعيلى المذهب، وقال عنه أبو المحاسن وبعض المؤرخين انه كان ســـنيا كأبيه ، اما المقريزى فيقول عنه انه كان اماميا متشـــددا (الفرع الآخر من الشيعة) فالتفت عليه الامامية ولعبوا به حتى اظهر المذهب الامامى .

واذا كان الخـــلاف يدور حول مذهبـــه فان الاتفاق قد تم على تصرفه ، وهو اسقاطه أسماء حلفاء بنى عبيد الفاطميين والدعاء لهم من الخطبة ، واسقط بصفة خاصة اسم اسماعيل بن جعفر الصادق الذى ينتسب اليه الاسماعيلية ، وجعل الخطبة والدعاء للمهدى المنتظر ، وصك النقود باسم المهدى المنتظر ونقش عليهـــا « الله الصمد ــ الامام محمد » ، كما أبطل من الأذان « حى على خير العمل » . وامر بأن يدعى له على المنابر باعتباره « ناصر الحق وهادى العصاة الى اتباع الحق ، مولى الأمم ، ومالك فضيلتى السيف والقلم » .

١١٣١ م ـ ٥٢٥ هـ : تعيين أربعة قضاة فى مصر :

عين الوزير فى هذه السنة لأول مرة فى تاريخ البلاد أربعة قضاة رئيسيين جعل اثنين منهم من الشيعة احدهما امامى والآخر اسماعيلى ، والاثنين الآخرين من السنيين أحدهما شافعى والآخر مالكى وترك لكل منهم اصدار الأحكام وفق مذهبه.

١١٣٢ م ـ ٥٢٦ هـ : مقتل الوزير أحمد بن الأفضل :

ثارت الطبقة الحاكمة من الاسماعيلية على أمير الجيوش أحمد بن الأفضل فكمنوا له فى العشرين من المحرم من هذه السنة . فى ملعب الكرة الذى اعتاد أن يذهب اليه ويلعب بالكرة . وحمل عليه احد مماليك الحافظ فطعنه بالخنجر وقتله ثم قطعوا رأسه .

واسرعوا باخراج الحافظ من خزانة القصر حيث كان أشبه بالسجين وجددوا بيعته .

الحافظ يعلن نفسه خليفة :

اعتبر الحافظ يوم نجاته من سجنه وتوليه السلطة ، عيدا أطلق عليه اسم عيد النصر وصار يعمل به فى كل سنة . والنصر لم يكن له فحسب بل للدولة الاسماعيلية كلها ، فلو ظل أحمد بن الأفضل طويلا لقضى عليها .

على أن المشكلة الشرعية المذهبية كانت لا تزال قائمة بالنسبة له وهو أنه ليس ابنا للامام السابق ولذلك فقد ظل رجال الدولة وشيوخ المذهب يعاملونه على أنه كفيل للطفل المختفى .

يقول المقريزى : فاجتمع الناس واخذ له العهد على انه ولى عهد كفيل لم يذكر اسمه . وقد عثر على عملة ضربت فى الاسكندرية فى سنة ٥٢٦ هـ كتب عليها : ابو الميمون عبد المجيد ولى عهد المسلمين .

على أن الدكتور محمد جمال الدين سرور ، يعود فينقل لنا روايته المفصلة من ابن ميسر وهو أن الحافظ أمعن فى البحث عن ولد الآمر فلما اهتدى الى محل اقامته ـ بعد شهرين من عودته وليا للعهد ـ أسرع الى القبض عليه وقتله ثم أعلن نفسه خليفة ، وقرىء سجل بامامته فى ٣ ربيع الآخر من هذه السنة . وأمر الحافظ أن يدعى له على المنابر بهذه العبارة : اللهم صل على الذى شيدت به الدين بعد ان رام الأعداء دثوره ، وأقررت به الاسلام بأن جعلت طاوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر بباطن البصيرة ، مولانا وسيدنا وامام عصرنا وزماننا عبد المجيد ابى ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة الى يوم الدين .

انقســام الاسماعيلية الى حافظية وطيبية :

وكيفما كان الأمر وهل كان للطيب وجود حقيقى أم لا ، فان الاسماعيلية أنقسمت من جديد الى اسماعيايين حافظية واسماعيليين طيبية .. وقد وجد الأخيرون فى اليمن ، بل وفى الهند نفســها .

وزارة الأمير يانس الأرمنى :

كان على رأس المتآمرين لقتل أحمد بن الأفضل،الأمير يانس الأرمنى ولذلك فقد رفع الى منصب الوزارة ، ولكن مدته فى الوزارة لم تطل اذ أنه مات بعد تسعة أشهر وقيل أنه قتــل بالســم .

الحافظ يباشر الســلطة بنفســه :

وعلى أثر تخلص الحافظ من يانس الأرمنى ، قرر أن يباشر أعمال الدولة بنفسه فلا يفوض أمرها الى وزير ، واتخذ من ابنه وولى عهده سليمان معاونا له لمباشرة الأعمال التى اعتاد الوزراء ان يقوموا بها . الا أن سليمان ولى العهد لم يلبث أن مات بعد شهرين من تعيينه وليا للعهد.وكان الحافظ لا يرتاح لابنه الثانى الحسن ولذلك فقد تجاوز أبوه فى ولاية العهد وقلدها لابنه الأصغر منه والمسمى حيدر . فأغضب هذا التصرف الحسن بن الحافظ وشرع يتآمر على ابيه علنا ويجمع حوله بعض امراء الجيش وقواده لخلع ابيه،وانقسم الجيش تبعا لهذه الفتنة ، فكانت هذه الواقعة كما يقول المقريزى « أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها. وقد حاول الحافظ انيخمد الفتنة باسترضاء ابنه فكتب سجلا بتوليته العهد وأرسله اليه فقرىء على الناس،ولكن ذلك لم يزد الحسن الا جراة على ابيه وافسادا له » .

على أن هذه الثورة انتهت بالاخفاق ، ولجأ الحسن الى قصر أبيه الذى كان على استعداد أن يسامحه ، لولا أن الجيش احاط بقصر الخليفة وطلب منه تسليم الحسن لقتله وهددوه ان لم يفعل أن يقتلوه هو نفســه .

وتقول القصة ان الحافظ خرج من هذا الحرج ، بأن حمل أحد الأطباء على دس السم لابنه ، وهكذا مات الحسن ولم يطمئن الجنود الى موته الا بعد أن أرسلوا مندوبين من قبلهم للتأكد من هذه الحقيقة .

وقد رج هذا الحادث الدولة رجا فأسرع بتصدعها .

١١٣٤ م — ٥٢٩ هـ : وزارة بهرام الأرمنى :

ما كان للفتن اذا اشتعلت الا أن تظل مشتعلة ، ولذلك فقد استطاع بهرام الأرمنى والى الغربية أن يأتى بجنوده فى جمادى الثانى من هذه السنة وأن يحاصر بها القاهرة ويطلب من الحافظ أن ينصبه وزيرا الدولة . ولم يستطيع الحافظ الا أن يرضخ للطلب ، فعين بهرام وزيرا على الرغم من أنه كان نصرانيا وظل على نصرانيته .

وتعصب بهرام لبنى جنسه ووفق بين الأرمن والمسيحيين فحشدهم فى جميع المناصب الرئيسية حتى بلغ عدد الأرمن فى جيشه ٣٠ ألفا . وأكثر من بناء الكنائس والأديرة ، حتى صار لكل أمير من الأرمن كنيسة خاصة به .

وجار الناس بالشكوى فاستغاثوا بمن حل محله فى ولاية الغربية وهو رضوان ابن ولخشى فاستجاب للدعوة وجاء بجنوده وانضم اليه الجند المسلمون فى جيش بهرام ، ونجا بهرام بجلده ففر من القاهرة ، ويقول لنا لين بول نقلا عن أبى صالح ان بهرام قد اختفى فى احد الأديرة وأصبح راهبا .

رضوان يتولى الوزارة ويلقب بالملك :

دخل رضوان القاهرة وتولى الوزارة ، وزاد فى القابه نغمة جديدة وهى التسمى بالملك ، فأصبح يلقب بالسيد الأجل والملك الأفضل . وأصبحت تسمية الوزير بالملك سنة من بعده .

ولجأ رضوان الى اضطهاد الارمن والمسيحيين من ناحية ، كما لجا الى النكاية بالخليفة الحافظ من ناحية اخرى ، حتى هم بخلعه بدعوى انه ليس اماما وانما هو كفيل عن امام لم يوجد .

وتحول الخلاف بين الرجلين الى معارك ، امتدت لبضع سنوات بين مد وجزر لصالح الحافظ تارة ولصالح رضوان تارة أخرى . وانتهى الامر بمقتل رضوان .

١١٣٩ م — ٥٣٢ هـ : ميلاد صلاح الدين :

ووسط هذه الفتن والخلافات ، والظلام الذى ران على العالم الاسلامى فى هذه الفترة بسيطرة الصليبيين على بيت المقدس وفلسطين . ولد الرجل الذى سيكون مقدرا له ان يسترد بيت المقدس من الصليبيين وأن يعيد الأمن والنظام الى مصر ويوحد بينها وبين بلاد الشام . ذلكم هو يوسف صلاح الدين بن نجم الدين أيوب . وكان مولده فى قلعة تكريت من أعمال الموصل .

١١٤٤ م — ٥٣٩ هـ : عماد الدين زنكى يستولى على مدينة الرها :

لم يكن مولد هذا الطفل يوسف صلاح الدين ، الا رصيدا لمواصلة موجة المد التى بدأ العالم الاسلامى يجيش بها ، ففى هذه السنة سنة ٥٣٩ هـ كان الاتابك عماد الدين زنكى أمير الموصل يقوض أول دولة صليبية انشاها الصليبيون فى الشرق الاسلامى وهى دولة الرها وذلك بالاستيلاء على هذه المدينة المحصنة بعد عديد من المعارك التى شنها على الأفرنج وانتصر فيها كلها .

وعلى خلاف مافعله الصليبيون بالمدن الاسلامية التى احتلوها فان عماد الدين زنكى كتب الى النصارى أمانا وأحسن اليهم .

١١٤٧ م ـ ٥٤٢ هـ ـ الحملة الصليبية الثانية :

احدث سقوط مدينة الرها وامارتها بيد عماد الدين زنكى ، وماعقب ذلك من ضغطه بشدة على امارة انطاكية ، ان استحوذ على الصليبيين الذعر والهلع ، فأمطروا البابا وسائر ملوك اوربا بسيل من الاستغاثات يطلبون النجدات بأسرع مايمكن .

واراد البابا يوجين الثالث ان يجعل من نفسه اربان الثانى ، فراح يضرم من جديد نار الدعاية فى ارجاء أوربا للقضاء على الاسلام والمسلمين . وكأن التاريخ يعيد نفسه فحيث اعتمد اربان الثانى على بطرس الناسك ليكون لسانا متحركا يلهب الجماهير . فقد وجد يوجين الثالث فى شخص برنار الراهب مايؤدى دور بطرس الناسك وقد استجاب للدعوة هذه المرة كونراد الثالث امبراطور الدولة الغربية ولويس السابع ملك فرنسا .

وعلى الرغم من اجماع المؤرخين على أن هـذه الحملة كانت أكثر نظاما واحسن قيادة من الحملة الأولى ، حيث كانت كلها تتألف من البارونات الفرسان ، فقد أخفقت اخفاقا ذريعا وذلك بسبب الخلافات التى دبت بين الملكين من ناحية ، وبينهما وبين امبراطور بيزنطة من ناحية أخرى . ولذلك فقد استطاعت جيوش السلاجقة ان نفنى الكثير من قوة هذه الجيوش أثناء اجتيازها الأناضول .

١١٤٨ م ـ ٥٤٣ هـ ـ محاولة استيلاء الصليبيين على دمشق :

لخصت الجيوش التى وصلت الى فلسطين مهمتها فى الاستيلاء على مدينة دمشق ، على الرغم من ان مجير الدين أمير دمشق كان فى تحالف مع الصليبيين ، ضد القوتين الاسلاميتين فى المنطقة بغداد فى الشرق ، والقاهرة فى الجنوب . فكانت هذه على مايقول المؤرخون الأوربيون اكبر غلطة ارتكبتها الحملة الصليبية الثانية . وعبثا حاول مجير الدين أن يذكر الصليبيين بأنه حليفهم ، وان قضاءهم عليه فيه اضعاف لمركزهم ، فلما أصموا آذانهم .. التجأ الى هذا النجم الصاعد فى سماء المنطقة وهو نور الدين زنكى .

من هو نور الدين زنكى :

قدمنا ان امير الموصل وحلب عماد الدين زنكى ، وهو الذى اخذ على عاتقه محاربة الصليبيين وراح ينتصر عليهم وينتزع حصونهم ومواقعهم الواحد تلو الآخر . ثم شاءت سخرية التاريخ ان يقتل هذا القائد الذى تعلقت به آمال المسلمين فى حادث غامض على يد بعض غلمانه ، لم يستطع التاريخ ان يستجلى غوامض هذا الحادث .

غير أن عماد الدين زنكى لم يفارق الحياة الا وكان قـد ترك للدنيا أبنا له يدعى نور الدين وعلى الرغم من انه ترك أبناء آخرون ، فان نور الدين هو الذى ورث عزم ابيه فى محاربة الصليبيين والقضاء عليهم . وشاءت الاقدار ان يكون اكثر من ابيه

صلاحية للمضى فى هذا الطريق ، فحيث لم يعرف عن أبيه الا انه عسكرى جسور قوى الشكيمة فان ابنه نور الدين كان يضم الى ذلك ورعا وتقى وزهدا وكانت نفسه تفيض بالاحساس بالعدل ، والاحسان الى النـاس ولذلك ، فقد واصـل الانتصار على الصليبيين فى عديد من المعارك ، التى جعلت شهرته تطبق الآفاق . فلما أن أسقط فى يد مجير الدين .. استنجد بنور الدين زنكى .. ولم يكن نور الدين ينتظر الا هذه الفرصة الذهبية فشرع فى الزحف بجيوشه على دمشق فلم يكد الصليبيون يسمعون بزحفه ، حتى أسرعوا بالانسحاب رافعين الحصار عن المدينة .. ولم يجد الصليبيون الذين جاءوا من أوربا الغربية ما يفعلونه بعد ذلك فعادوا أدراجهم « بخفى حنين » على ما يقول لين بول . أما وليم لانجر فيلخص الحملة الصليبية الثانية بأنها لم تفعل شيئا يذكر ، وشنعت سمعتها فى أرجاء أوربا .

١١٤٩ م – ٥٤٤ هـ – وفاة الحافظ لدين الله :

مات الحافظ لدين الله فى جمادى الثانى من هذه السنة بعد أن مرض وكانت سنه يوم مات خمسا وسبعين سنة ومدة حكمه تسع عشرة سنة ولم يكن سلطانه يوم وفاته يتجاوز أسوار قصره . وبموته اندلعت من جديد نيران الفتن بين مختلف فرق الجيش الأرمنية والسودانية والتركية .. حتى أصبحت شوارع القاهرة غير آمنة ، وعاش من فيها فى رعب وفزع مما يحل بأرواحهم وأموالهم فى أى لحظة .

خلافة الظافر بأمر الله :

وفى نفس الشهر بويع لابن الحافظ أبو منصور اسماعيل ولقب بالظافر بأمر الله ، وكان عمره سبع عشرة سـنة وأشـهر وكانت أمه جارية « أم ولد » تدعى ست الوفاء وقيل ست المنى – وكان الوزير الذى تولى تدبير المملكة هو الأمير نجم الدين ابن مصال المغربى ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش .

١١٥٠ م – ٥٤٥ هـ – تولى ابن سلار الوزارة :

لم يرض ابن سلار والى الاسكندرية والبحيرة عن تولى نجم الدين بن مصـال الوزارة . وتابعه على عدم رضائه ربيبه (١) عباس بن باديس الصنهاجى والى الغربية فلما ترامى الى سمع ابن مصال نبأ اتفاق الرجلين عليه ، وأحس بأن الخليفة الظافر يقف منه موقفا سلبيا ، آثر أن يغـادر القاهرة ، ولما يمض عليه فى الوزارة شـهران وترك المنصب شاغرا وقصد الى الصعيد .

فوصل ابن سلار الى القاهرة ودخلها وتقلد وزارتها وتلقب باسم العادل ، وبعث بربيبه عباس الصنهاجى على رأس جيش لمحـاربة ابن مصال فى الصعيد فظفر به وقتله ، وهكذا استقر الأمر لابن سلار فى الوزارة وتدبير الملك .

---

(١) كان ابن سلار قد تزوج أم عباس فأصبح بذلك ربيبا له .

١١٥١ م ــ ٥٤٦ هـ ــ انشاء مدرسة للشافعية فى الاسكندرية :

كانت احدى الظواهر التى تدل على قرب تداعى الدولة الشيعية ، اتجاه الوزراء من حين لآخر الى المذهب السنى وتعزيزه . فقد أنشأ ابن سلار فى هذه السنة وقد كان سنيا مدرسة للمذهب الشافعى فى الاسكندرية ، وعهد بادارتها الى الحافظ السلفى الفقيه الشافعى تمهيدا لاعادة المذهب السنى الى مصر .

١١٥٣ م ــ ٥٤٨ هـ ــ مقتل ابن سلار وتولى عباس الصنهاجى الوزارة :

فى السادس من المحرم قتل ابن سلار ، وكان قاتله هو نصر ابن ربيبه عباس الصنهاجى وذلك بايعاز من الخليفة الظافر الذى ضاق بسلطان ابن سلار والذى بدأ يوجهه لاعادة المذهب السنى .

وتولى الوزارة والد نصر عباس الصنهاجى ولقب بالمظفر والأفضل أمير الجيوش .

سقوط مدينة عسقلان :

قدمنا أن مدينة عسقلان ظلت هى الموقع الأمامى الوحيد فى فلسطين بيد مصر . وكان طبيعيا وهذا مدى الاحداث التى كانت تجرى فى مصر ، أن يسقط هذا الحصن فى خاتمة المطاف بيد الصليبيين ، وان يكون سكان المدينة هم الذين يسلمونها بالامان للصليبيين بعد أن يئسوا من نجدة مصر لهم ونجدة بقية امراء المسلمين . ذلك ان نور الدين زنكى وهو الأمير الوحيد الذى كان مستعدا لنجدتهم ، وتوجه بالفعل اليهم قد حال بينه وبين الوصول اليهم خلاف مجير الدين صاحب دمشق عليه التى رغم ما تعرضت له من الصليبيين ، فقد ظل صاحبها مجير الدين يخشى على نفسه من نور الدين ويستقل بشئونه عنه ويحبط ما استطاع من توسعاته وانتصاراته .

وعلى ذلك فقد دخل الصليبيون الى مدينة عسقلان واستولوا على كل ما كان بها من ذخائر وحولوا مسجدها الكبير الى كنيسة تحمل اسم القديس بولس .

فرنجة من صقلية ينهبون مدينة تنيس :

وكان طبيعيا وقد سقطت عسقلان ، أن يتجرأ الصليبيون على مصر نفسها . فجاءت مراكب حربية من جزيرة صقلية محملة بالأفرنج فنهبوا مدينة تنيس وخربوها .

١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ ــ مقتل الخليفة الظافر :

فى ليلة الخميس آخر المحرم من السنة الهجرية قتل الخليفة الظافر على يد صاحبه وخدنه وخليله نصر بن عباس الذى كان أداته فى قتل ابن سلار . وكانت العلاقة بين الخليفة الظافر ونصر بن عباس قد وصلت الى حد أن أصبح الظافر مستقلا

بها عن أى علاقة أخرى ، فانتشرت الاشاعات والأقاويل عن هذه العلاقة التى أشبهت أن تكون زواجا . وخاف عباس أبو نصر على نفسه من ابنه أن يقتله بتحريض الخليفة كما قتل ابن سلار ، فراح يحرض ابنه على قتل الظافر حتى يبرىء نفسه من الشبهات التى ثارت حوله ، وانصاع نصر لتحريض أبيه فتربص بالظافر عند حضوره اليه كعادته كل ليلة ولم يكن معه الا خادمان ، فقتله وقتل أحد الخادمين بينما فر الآخر ، والقى بجثتيهما فى بئر وسد عليهما .

وكانت سن الظافر عند قتله واحدا وعشرين عاما وتسعة اشهر امضى منها فى الخلافة اربع سنوات وثمانية أشهر امضاها كلها فى اللهو واللعب .

وان كان الأمر لم يخل من انشائه كعادة هذا الزمان على ما يقول ابو المحاسن الجامع الظافرى المعروف بجامع الفاكهيين .

الوزير عباس يتهم أخوى الظافر بقتله :

ذهب الوزير عباس الى دار الخلافة صبيحة مقتل الظافر ووجه الى اخوى الخليفة يوسف وجبريل تهمة قتل الظافر ، وقتلهما على الفور ظلما وعدوانا لتغطية جريمة ابنه ثم استحضر ابن الظافر وكان طفلا لا يتجاوز عمره خمس سنوات وكان يدعى عيسى ونادى به خليفة مكان أبيه واطلق عليه اسم الفائز بنصر الله .

استيلاء نور الدين على دمشق :

على انه فى الوقت الذى كان فيه ملك الفاطميين يتهاوى فى الداخل والخارج ، كانت موجة المد فى نقاهة العالم الاسلامى كما أصبح يمثلها نور الدين زنكى تواصل ارتفاعها ، ففى ابريل من السنة الميلادية ١١٥٤ كان نور الدين يستولى على مدينة دمشق بناء على طلب أهلها ، الذين ضاقوا بأميرهم مجير الدين حليف الافرنج ، والعقبة فى سبيل تجميع المسلمين .. فكاتبوا نور الدين ليقدم الى المدينة ووعدوه أن يسلموها اليه . وعلى الرغم من أن مجير الدين قد تحصن فى القلعة ، فقد انتهى الامر باستيلاء نور الدين على دمشق ، ولم يشأ أن يعامل مجير الدين فى عنف بما جنت يداه .. بل اكرمه وعينه واليا على احدى البلاد فى سلطانه ، على انه لم يلبث أن آثر الالتجاء الى خليفة بغداد .

وبدخول دمشق فى سلطان نور الدين انفتح الطريق نحو فلسطين ومصر لادخالهما فى نطاق التجمع ضد الصليبيين .

خلافة الفائز بنصر الله على مصر :

ذكرنا من قبل أن عباس قد ولى أبا القاسم عيسى بن الظافر الذى لم يكن سنه يتجاوز الخامسة خليفة على مصر ولقبه بالفائز بنصر الله . ويقول الحافظ الذهبى أنه بعد أن قتل عباس الوزير اخوى الظافر ، دخل الى الحريم وجاء بالطفل الصغير وحمله على كتفه ووقف فى صحن الدار متظاهرا بالحزن والكآبة وأمر أن يدخل الامراء

فقال لهم هذا ولد مولاكم وقد قتل عماه مولاكم ، وقد قتلناهما كما ترون وأشار الى جثتى القتيلين ، والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل ، فقالوا كلهم سمعنا وأطعنا وضجوا ضجة واحدة بذلك ففزع الطفل ومال على كتف عباس من شدة الفزع ، وسموه الفائز ثم سيروه الى أمه وقد اختل عقله من تلك الضجة فيما قبل . فصار يتحرك فى بعض الأوقات ويصاب بالصرع ، وقال آخرون بل كان اختلال عقله نتيجة رؤيته المقتولين غارقين فى الدماء .

ويضيف أبو المحاسن معلنا : وعلى كل الاقوال اختل عقل الفائز .

هرب عباس الصنهاجى وابنه نصر :

ثارت الجماهير الغاضبة على عباس الصنهاجى وما ارتكبه من جرائم بشعة حتى قيل أن النساء رحن يقذفن عليه الاحجار من البيوت ، فانفض الكثير من الاتباع من حوله . ومن ناحية أخرى فقد كاتب سكان القصر من النساء والجوارى طلائع بن زريك الأرمنى وكان واليا على منية بن خصيب وارسلوا اليه شعورهم اشارة الى استصراخهم به . فلبى طلائع بن زريك هذا الاستنجاد وتحرك بما معه من قوات عسكرية طلبا لثأر الخليفة الظافر . وهكذا وجد عباس نفسه معزولا عن الجماهير وغالبية الجند ، فجمع كل ما قدر عليه من اموال وسار بجميع أفراد عائلته قاصدا الشام .

مقتل عباس وابنه :

يقول أبو المحاسن ان أخت الظافر التى آلت على نفسها ان تثأر لأخيها كاتبت الصليبيين الذين كانوا يحتلون عسقلان وأرشدتهم الى مسير عباس وما يحمل من اموال ، وحرضتهم على قتله مقابل مكافأة كبيرة حددتها لهم فوق ما سيغنمونه من امواله . واستطاع الصليبيون بالفعل أن يقبضوا على عباس ومن معه وأن يقتلوه ويغنموا كل ثروته . وأرسلوا ابنه نصر فى قفص من حديد لأخت الظافر ليتاقضوا ما وعدتهم به .

ويحدثنا المؤرخون بعد ذلك عن تفاصيل الميتة البشعة التى قتل بها نصر بن عباس ..

الملك الصالح طلائع بن زريك فى الوزارة :

دخل الملك الصالح طلائع بن زريك القاهرة وهو يرتدى السواد حدادا على من ماتوا ، فكان ذلك ارهاصا بما اصبح وشيك الوقوع من العودة الى السواد شعار العباسيين .

وكان أول ما فعله بعد ان استقر فى قصر الوزارة أن قصد الى بيت نصر الدين الذى قتل فيه الخليفة وأخرج جثته وشيعت فى جنازة اشترك فيها الشعب كله ثم راح بعد ذلك يتعقب المجرمين ويقتص من القواد والجند الذين روعوا القاهرة خلال السنوات السابقة باذلا جهده لاعادة حكم القانون واستتباب الأمن والنظام .

١١٥٨ م / ٥٥٣ هـ ـ ابن زريك والصليبيين :

على أن اعظم ما يسجل لابن زريك ، هو أن جيوشه تحت قيادة ضرغام استطاعت أن تحرز أول انتصارات للجيوش المصرية على الصليبيين بالقرب من غزة .

واسرع ابن زريك عقب هذا النصر فدخل فى مراسلات مع نور الدين يطلب منه توحيد حدود الدولتين للقيام بعمل مشترك ضد الصليبيين .

وقد سجل لنا اسامة بن منقذ هذه الرسائل التى تم تبادلها على يديه اذ كان يتردد على الملكين .

غير ان نور الدين الذى كان يتصرف بحذر من ناحية ، وكان من ناحية أخرى يكره الشيعة ، جعل رده على ابن زريك فى عبارات غامضة مطاطة لا يقطع فيها ولا يوصل . ولكن بن زريك لم يكف عن مواصلة مساعيه حتى لقد أوفد سفارة الى نور الدين فى دمشق وحملها الكثير من الهدايا والتحف ، وعرض على نور الدين سبعين ألف جنيه لتمويل الحملة المشتركة ضد الصليبيين .

١١٦٠ م / ٥٥٥ هـ ـ وفاة الخليفة الفائز :

فى الحادى والعشرين من شهر المحرم . مات الخليفة الفائز على ما يقول ابن خلكان أما أبو المحاسن فيجعل هذه الوفاة فى رجب وكانت مدة حكمه الاسمية ست سنوات وستة اشهر وأيام ، وعمره يوم وفاته أحدى عشرة سنة وشهور . ومات دون ان يكون له ولى عهد متفق عليه .

خلافة القاصد لدين الله :

فى الثامن من رجب بويع بالخلافة أبو محمد ولقب بالقاصد وهو ابن الأمير يوسف بن الخليفة الحافظ بالله الذى قتله عباس الصنهاجى بتهمة قتل أخيه الظافر .

وكانت سنه يوم بويع له أحدى عشرة سنة وشهور وكان الملك الصالح بن زريك هو الذى اختاره واليا ينباب الخلافة وبايعه فتابعه بقية الناس .

وقد عمد ابن زريك الى تزويج ابنته من القاصد أملا فى أن يرزق منها بولد : لتجتمع الخلافة والملك لبنى زريك .

ويقول ابن كثير انه جهز ابنته بجهاز عظيم يجل عن الوصف وقد عمرت ابنة الملك الصالح بعد وفاة زوجها العاضد ورأت زوال دولة الفاطميين .

١١٦١ م / ٥٥٦ هـ ـ وفاة الملك الصالح طلائع بن زريك :

فى يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رمضان ، قتل الملك الصالح طلائع بن زريك بمؤامرة دبرت له فى القصر .

وقد اشتهر الملك الصالح بأنه كان أديبا محبا للادباء وكان يعقد مجالس الأدب وقد قصده أهل العلم من سائر البلاد فلم يخيب رجاء قاصد منهم .

وكان هو نفسه يقرض الشعر الجيد الذى يتناقله الناس .

وان كان بعض المؤرخين يقولون أن أشعار ابن زريك هى من شعر ابن الزبير القاضى المهذب .

وقد انشأ الجامع المنسوب اليه والمشهور باسم جامع الصالح ليكون مقرا لرأس الحسين الشهيد الذى نقلت فى أيامه من عسقلان خوفا عليها من الصليبيين . ولكن الخليفة اعترض على ذلك وبنى المشهد الحالى المعروف .

وقد استعرض الجيش فى أيامه فكانت عدة عساكر القاهرة خمسين ألفا من مختلف الاجناس . وكان يحمل فى كل عام لأهل الحرمين سائر ما يحتاجونه من المؤونة والكسوة وغيرها حتى كان يحمل لهم الواح الصبيان التى يكتب فيها والأقلام والمداد وآلات البناء . وكانت آخر كلماته قبل موته ابداء الأسف على انه لم يستعد بيت المقدس ويطهره من الفرنجة .

ثم نصح ابنه ان لا يتعرض لشاور حاكم الصعيد العربى بالعزل وعليه أن يبقيه فى منصبه .

وكان ابن زريك شأن وزراء هذا الزمان قد استبد بالأمور كلها . ثم أصيب على — ما يقول البعض — بالشرة فى جمع الأموال ، حتى وصل به الأمر الى بيع الولايات للأمراء وجعل لكل ولاية سعرا محددا ، كما كانت مدة الولاية لا تزيد على ستة شهور ، مما أثار الناس عليه .

١١٦٣ م — ٥٥٨ هـ : تولى العادل زريك الوزارة ثم شاور :

تولى زريك بن الصالح الوزارة بعد مقتل أبيه ولقب بمجد الاسلام ، وسار على سيرة أبيه فى الاستئثار بالسلطة ، فلم يعجب ذلك الخليفة العاضد فعمد الى التخلص من العادل باثارة أطماع شاور حاكم الصعيد بتولى الوزارة اذا هو خلصه من العادل زريك .

يقول ابو المحاسن فتحرك شاور بن مجيد السعدى من بلاد الصعيد وجمع أوباش الصعيد من العبيد والأوغاد وقدم الى القاهرة لمحاربة زريك ، فانهزم زريك ودخل شاور القاهرة وملكها وأخرب دور الوزارة ودور بنى زريك وقد نجح الوزير زريك فى الاختفاء فى بادىء الأمر ولكن شاور لم يلبث أن ظفر به وقتله .

ضرغام يسقط شـاور :

ولى العاضد شاور الوزارة ، ولكنه لم يلبث بعد قليل أن أحس بالندم ، فاذا كان زريك وأبوه من قبله يضيقان عليه ، فعلى الأقـل فقد كانا يحسـنان تدبير المملكة .

أما شاور ففوق اساءته للرغية ، واساءته التدبير ، فقـد راح يعامل الخليفة أسـوأ معاملة واقبحها .

ولذلك فقد حرض احد قواد الجيش وهو ضرغام ضـد شاور فجمع ضرغام قوة من الجيش واستطاع أن يخرج بها شاور من القاهرة . على أن ضرغام بدوره لم يلبث أن أساء السيرة وراح يقتل الكثيرين من الأمراء لتخلو له البلاد .

١١٦٤ م ـ ٥٥٩ هـ ـ شاور يحرض نور الدين على فتح مصر :

لجأ شاور بعد هربه من مصر الى نور الدين زنكى فى الشام واسـتنجد به وراح يهون له فتح مصر على أن يتولى شاور حكمها نيابة عنه ، وان يقدم ثلث خراجها .

ولما كانت خطة نور الدين تقوم على توحيد القوى الاسلامية لمواجهة الصليبين ، وكان أخشى ما يخشاه من ناحية أخرى أن يؤدى التدهور المستمر فى احوال مصر الداخلية الى سقوطها فى يد الصليبيين ، فقد استجاب لنداء شاور وأرسل معه جيشا راسه أسد الدين شيركوه عم صـلاح الدين الذى جاء فى معيته ، وكان ذلك أول دخول لصلاح الدين الى مصر .

شخصية صـلاح الدين :

وهناك عديد من الكتب القديمة والحديثة التى كتبت فى شخصية صلاح الدين ، وهى لا تقدم لنا الكثير عنه فى أيامه الأولى وشبابه ، الا أنه تمرس فى عمليات القتال فى المعارك التى خاضها فى الجيش النورى ، كما تمرس بأعمال الادارة عندما تولى ادارة الشحنة فى دمشق .

على أن الخط الحقيقى لشخصية صلاح الدين يبدو منذ حضر الى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه ، حيث يقول المؤرخون أن شخصيته كانت فى ذلك الوقت قـد نضجت وشجاعته قد اشتهرت ، بحيث كان أسد الدين شيركوه لا يبرم أمرا الا بعد استشارة صلاح الدين رغم حداثة سنه .

مقتل ضرغام وعودة شاور الى الوزارة :

خرج ضرغام على رأس جيش لمقابلة اسد الدين شـيركوه ، ولكن الدائرة دارت عليه وسقط قتيلا فى المعركة ، وهكذا عاد شيركوه لتولى منصب الوزارة .

شاور ينكث بالعهد مع نور الدين :

ولكن شاور لم يكد يتربع فى دست الوزارة ، ويجمع رجاله القدامى حوله ، حتى راى ان من صالحه أن يكون مع الخليفة العاضد المغلوب على امره من ان يكون تابعا لنور الدين القوى ، ولذلك فقد اصطلح مع العاضد . وقلب ظهر المجن لأسد الدين شيركوه فبعث اليه يطلب منه مغادرة مصر الى الشام بعد أن تمت مهمته .

واستبان صلاح الدين من شاور عين الغدر فأشار على عمه بالانسحاب بجيشهم الى مدينة بلبيس ، فأصاخ شيركوه لهذه النصيحة ، ولم يكادوا يتجاوزون الى بلبيس حتى ظهر غدر شاور الذى كان قد راسل الصليبيين فى هذه الاثناء ، وطلب منهم الحضور الى مصر لمقاومة جيش نور الدين .

واسرع الصليبيون لانتهاز الفرصة ، وجاء جيشهم الى مصر وانضم الى جيش شاور ، وحاصر الجيشان جيش أسد الدين شيركوه . الذى قاوم الحصار ببسالة ولم يستطيعوا أن ينالوا منه منالا رغم طول الحصار الذى استمر ثلاثة أشهر . وخف نور الدين الى مساعدة جيشه فى مصر بالهجوم على الامارات الصليبية ، فخاف الصليبيون على بلادهم وقرروا الانسحاب من مصر فدخلوا فى مفاوضات مع أسد الدين شيركوه ، لكى يجلو جيش نور الدين كما يجلو جيش الصليبيين من مصر فى آن واحد .

وقد تحقق هذا الاتفاق ، ولكن بعد أن كان الطرفان نور الدين من ناحية والصليبيون من ناحية اخرى قد ادركا مدى ما أصبحت عليه مصر من عجز للدفاع عن نفسها . ومدى ما يفيده المسيطر عليها من القوة .

١١٦٧ م ـ ٥٦٢ هـ ـ الخليفة العاضد يستنجد بنور الدين :

استبد شاور بالخليفة العاضد بعد أن خيل اليه أن الأمور قد استقرت له ، وراح يسرف فى قتل من يتصور أنه يمكن ان يقاوم سلطانه ، فاستنجد الخليفة العاضد هذه المرة بنور الدين ليخلصه من شاور . وكان نور الدين ينكر على شاور غدره السابق ونكثه العهد وادخاله الصليبيين الى مصر ، ولذلك فقد لبى نداء العاضد وبعث بجيش جديد الى مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه على أن عدة هذا الجيش لم تكن تتجاوز الألفين .. ومرة أخرى دخل صلاح الدين الى مصر فى معية عمه أسد الدين شيركوه .

شاور يستنجد بالصليبيين :

واسرع شاور يستنجد بالصليبيين فأوفدوا له قوة تزيد أضعافا مضاعفة على جيش نور الدين وبينما كان جيش أسد الدين يقف قبالة الجيزة على الضفة الغربية للنيل . كان الصليبيون قد وصلوا فى مواجهته الى الضفة الشرقية ولم يستطع أى من الطرفين أن يعبر النيل ليواجه الآخر .

ولم يلبث شيركوه أن انحدر الى الصعيد .. وكذلك الصليبيون .

وعند بلدة البابين على بعد عشرة أميال جنوبى المنيا الحالية فى ١٨ أبريل من هذه السنة الميلادية ، جرت احدى المواقع الفاصلة التى أظهرت مواهب صلاح الدين وشجاعته وحسن تدبير عمه لتكتيك المعارك (١) .

فعلى الرغم من ضآلة جيش شيركوه بالنسبة للجيشين المتحالفين (الصليبى والشاورى). فقد انتصر شيركوه وعاد الصليبيون الى القاهرة مهزومين .

اتجه شيركوه بعد انتصاراته شمالا حتى وصل مدينة الاسكندرية فدخل برضاء أهلها وعين صلاح الدين واليا عليها . وعاد أدراجه الى الصعيد ليوطد سلطانه هناك واسرع الصليبيون يهاجمون الاسكندرية برا وبحرا .

ولاقى صلاح الدين الأمرين فى هذه الحرب التى عاناها من الصليبيين ، حتى ليذكرها فيما بعد كسبب يجعله يكره العودة الى مصر .

ومن جديد دارت المفاوضات بين شيركوه والصليبيين على أن يجلو الطرفان عن مصر وكان ذلك أعظم ما يمكن لشيركوه أن يحققه بجيشه الصغير ، ولذلك فقد قبل الاتفاق وأسرع بتنفيذه .

أما الصليبيون فقد تلكأوا فى التنفيذ الا بعد أن يبرموا مع شاور معاهدة كان من أهم شروطها أن يكون لهم بالقاهرة شحنة (أى قوة بوليس) صليبية . وأن تكون أبواب القاهرة بيد فرسانهم حتى يمتنع نور الدين عن انفاذ عسكر اليها وعلى ان تدفع مصر للصليبيين مائة ألف دينار سنويا .

وكان معنى هذه الاتفاقية هى بلغة العصر الحديث اعلان الصليبيين الحماية على مصر ضد نور الدين .

وصف لقصر الخليفة الفاطمى :

وقد كان ابرام هذه المعاهدة ، ورغبة الصليبيين فى التأكد من موافقة الخليفة العاضد عليها . فرصة لكى يحفظ لنا التاريخ وصف المراسم التى كانت تتبع عند مقابلة السفراء الأجانب للخليفة ، والأثر الذى كانت تتركه فخامة القصر وحدائقه فى نفس الأوربيين .

يقول غليوم رئيس اساقفة صور الذى ينقل عنه هذا الوصف :

« سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه الى قصر له رونق وبهجة عظيمان ، وفيه زخارف أنيقة نضيرة وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثر دون أن يتطرق الى نفوسهم أى خوف أو رهبة .

---

(١) انظر كتاب التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين .

ووجدوا فى هذا القصر حراسا عديدين ، وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة ، وقد قادوا الفرنج فى ممرات طويلة ، وضيقة واقبية حالكة الظلام لا يستطيع الانسان ان يتبين منها شيئا . وربما كان المقصود من ذلك بعث الهيبة الى قلوبهم ، وزيادة التأثير فيهم ، فلما خرجوا الى الفور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة ، كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام ، ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الالوان وفيها تذهيب خارق للعادة بنضارته وبهائه ، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة .

وكان فى وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى انابيب من الذهب والفضة الى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، وكانت ترفرف فى الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الأوان المفرطة فى الندرة مجلوبة من شتى انحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة اعجابا بها . وهنا استأذن فى الرجوع الحراس الذين كانوا يسيرون فى معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت ، وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء القربين الى الخليفة .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الافرنجيين فى أقبية جديدة أشد جمالا وابداعا ، ثم الى حديقة لطيفة غناء ، لم تكن الحديقة الأولى شيئا بجانبها ، زاد فيها من أنواع الحيوانات ، ما يتهم المرء بالكذب اذا وصفها ، فان الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات .

وبعد ان عبروا أبوابا عديدة أخرى وساروا فى بقاع كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة واعجابا .

وصل الفرنج الى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة ، وفاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك ، وكانت أقبيته تفيض بالمحاربين المسلمين مقلدين أسلحتهم وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز .

وأدخل المبعوثون فى قاعة واسعة ، تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الالوان ، وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية ، وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة ولم يكن فى هذه القاعة أحد . ولكن شاور خر راكعا كعادته فور دخوله ، ثم نهض واقفا ، ثم قبل الأرض ثانية وخلع السيف الذى كان يلبسه فى عنقه ثم خر ساجدا مرة ثالثة فى ذلة وخشوع كأنه يسجد لله . وارتفعت فجأة الحبال وانكشفت الستارة الحريرية المذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة ، وظهر الخليفة الطفل « القاصد » لأعين الفرنج المبعوثين ، وكان على وجه هذا الامير حجاب يخفيه تماما ، وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة (١) .

---

(١) « كنوز الفاطميين زكي محمد حسن ... »

١١٦٩ م ٥٦٤ هـ : الصليبيون يجددون المحاولة للاستيلاء على مصر :

كانت كل الدلائل تدل على أن الصليبيين قد اعتزموا احتلال مصر ، ولابد ان جنودهم الذين خلفوهم وراءهم فى مصر ، وحراس ابواب القاهرة ، لم يكن لهم عمل الا تحقيق هذا الاستيلاء .

ولذلك فقد أعد أملريك (أمورى) ملك القدس حملة كبيرة فى هذه السنة للاستيلاء على مصر ..

واستطاع ان يجتاز الحدود وأن يقترب من القاهرة دون أن يجد مقاومة من أى نوع كان ..

وعاد شاور الى لعبته القديمة وهى الاستغاثة بنور الدين ، وكان العاضد هو الذى قام بهذه الاستغاثة ، ولكى يزيد فى تأثيرها ، فقد أرسل شعور نسائه الى نور الدين مع تعهد بالنزول عن ثلث دخل البلاد المصرية . وعلى ان يقيم أسد الدين شيركوه هو وجيشه فى مصر على سبيل الدوام وان تكون مرتبات هذا الجيش خارج ثلث الخراج الذى خصص لنور الدين .

شاور يحرق مدينة الفسطاط :

وريثما تصل هذه الاستغاثة الى نور الدين ، لم يجد شاور ما يعطل به زحف الصليبيين الا أن يحرق الجسور القائمة على النيل ، ويحرق مدينة الفسطاط حتى لا ينتفع الصليبيون بما فيها من اقوات وارزاق واموال فأمر اهل المدينة باخلالها على عجل ، فحملوا أقصى ما يمكن أن يحملوه من طعام ومتاع ، ثم اشعل شاور النيران فى هذه المدينة العظيمة ، وليس أدل على عظمتها من ان النار ظلت مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما دون أن تأتى عليها .. ولا تزال آثار هذه الحرائق ظاهرة حتى عصرنا الحديث فى الخراب الباقية من الفسطاط (١) .

ويصف المقريزى الناس عندما امرهم شاور باخلاء المدينة وقد هاجوا وماجوا كأنما خرجوا من قبورهم الى المحشر لا يعبأ والد بولده ، ولا يلتفت أخ الى اخيه . اشتد بهم أمر النقلة الى القاهرة ، حتى بلغ كراء الدابة بضعة عشر دينارا ، وكراء الجمل الى ثلاثين دينارا ، ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها وعلى طرقاتها مطروحين بنسائهم وأطفالهم فى انتظار ما سيفعله العدو معهم بعد ان عاموا بمسالكه مع بلبيس واهلها . فرق شاور على المدينة عشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار لاحراقها وخرج العبيد ورجال الأسطول الى منازلها فنهبوا وأمعنوا فى طلب الخبايا »

---

(١) يذكر هذا التفكير العجيب باقدام الروس على حرق مدينة موسكو لتعجيز نابليون عن احتلال بلادهم ولكن شتان بين الموقفين .

نور الدين ينجد مصر بشيركوه وصلاح الدين :

أسرع نور الدين الى انجاد مصر ، وبعث جيشا هذه المرة من خاصة حرسه التركمانى وكان عدده يناهز الستة آلاف : وجعل أسد الدين شيركوه قائدا الجيش ، وضم اليه هذه المرة عددا كبيرا من الامراء ، ويجمع المؤرخون نقلا عن صلاح الدين انه كره هذه المرة السير الى مصر ، لولا أن الح عليه عمه وأمره نور الدين بحزم ان يسير مع عمه .

ولم يكد جيش نور الدين يدخل البلاد حتى آثر الصليبيون أن ينسحبوا من مصر بغير قتال . ونزل شيركوه بالمقس خارج القاهرة فى السابع من ربيع الثانى من هذه السنة (٨ يناير) .

مقتل شاور :

استقبل العاضد وامراء الدولة وجماهير الشعب : جيش نور الدين واسد الدين شيركوه ، استقبال المنقذين بالفرح والترحاب والتهليل والتكبير ، وخلع الخليفة العاضد على شيركوه واحاطه بكل مظاهر التكريم ، فتخوف شاور من عواقب ذلك على نفسه فراح يتراسل من جديد مع الصليبيين واقترح عليهم ان يكون مجيئهم هذه المرة بحرا عن طريق دمياط .

وتسرب نبأ هذه الخيانة الجديدة الى رجال شاور ، فهاجوا عليه وكان أشد المهتاجين ابنه الذى هدده . وانتهى الامر بأن قبض صلاح الدين على شاور عندما جاء لزيارة شيركوه .. وعندما أعلموا الخليفة العاضد بالقبض عليه أرسل يطالب شيركوه براسه ، وهكذا اسدل الستار على حياة هذا الرجل العاصفة .

اسد الدين شيركوه يصبح وزيرا :

فرح الخليفة العاضد بمقتل شاور ، وأرسل على الفور منشورا لتولية اسد الدين شيركوه الوزارة كان مما جاء فيه :

هذا عهد لم يعهد الى وزير بمثله ، فتقلد ما اراك الله اهلا بحمله وخذ كتاب امير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الافتخار بخدمتك بيت النبوة ، والزم حق الامامة تجد الى الفوز سبيلا ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا .

ولقب أسد الدين شيركوه بالملك المنصور :

على انه لم يمض سوى شهرين فقط على تولى اسد الدين شيركوه الوزارة حتى ادركته المنية ليحقق الله قدره فى بزوغ نجم صلاح الدين ، فقد أوصى أسد الدين شيركوه بالوزارة من بعده الى ابن اخيه صلاح الدين .

وكانت وفاة اسد الدين شيركوه فى يوم السبت ١٢ جمادى الثانى ..

الملك الناصر صلاح الدين يلي وزارة مصر :

أقر العاضد وصية أسد الدين شيركوه فى تولية صلاح الدين الوزارة ، فقد تصور أن فى هذا التعيين فائدة له . ذلك ان صلاح الدين كان أضعف من فى الجيش الشامى من أمراء ، وقدر أن بقية الامراء ستختلف مع صلاح الدين فيكون هو المرجع ولقد كان هذا ما جعل صلاح الدين نفسه يتخوف من عاقبة توليه الوزارة ، فكره توليها لولا أن العاضد الح عليه . وهكذا كان صلاح الدين يساق الى قدره الموعود وهو كاره : فقد كره أن يدخل مصر هذه المرة ، حتى ضغط عليه ، وكره أن يلى الوزارة حتى ضغط عليه .

وتقلد يوسف صلاح الدين الوزارة فى العشرين من جمادى الثانى من هذه السنة ولقب بالملك الناصر .

وقد صح ما توقعه اذ أزور عنه امراء الجند الذين جاءوا معه من الشام ، بما فى ذلك بعض أقاربه الذين كانوا يرون أنفسهم أكبر سنا واقدم خدمة واولى منه بالوزارة .

وبدأت مهارة صلاح الدين تتجلى فى معالجة القلوب ، فقد راح يستميل كل أمير على حدة ، ويحسن فى المعاملة ويتواضع للجميع ، حتى ظفر برضاء الاغلبية من قواد الجند . .

ولكن أقلية رفضت التعاون معه ، فعادت الى نور الدين ، حيث بدأت تدس عنده لصلاح الدين .

وكانت الخطبة فى مصر للخليفة العاضد ومن بعده للملك نور الدين ثم للملك الناصر صلاح الدين .

يقول معاصرو صلاح الدين : « وقوى شأنه ، وزادت محبة الناس له . . » .

رجال القصر يتآمرون :

كان صلاح الدين يمثل نور الدين فى مصر ، وكان نور الدين ملكا سنيا ضد المذهب الشيعى ، ولابد أن طموح صلاح الدين جعله يشرع فى جميع مقاليد السلطة كلها فى يده . ومن هنا فكان الاصطدام بينه وبين القصر الفاطمى لابد واقع . ولكنه من ناحيته سار بحذر ودهاء فلم يتعرض للخليفة او لشئون القصر ورجاله ، ولكن رجال الخليفة كانوا هم البادئين فى اشعال نار الاصطدام ، فقد بدأ احد كبار رجال القصر وهو نجاح مقدم جند السودانيين وكان يطلق عليه اسم مؤتمن الخلافة ، شرع يراسل الصليبيين للاستعانة بهم ضد صلاح الدين . ولكن رسول مؤتمن الخلافة الى اموری ملك الصليبيين وقع فى يد صلاح الدين فشدد الرقابة على مؤتمن الخلافة ، ولم يلبث أن بعث اليه من اغتاله .

معركة السودانيين :

وكان مقتل مؤتمن الخلافة بمثابة المفجر للاصطدام المحتم ، فثار الجنود

السودانيون وكان عددهم يناهز الخمسين الف جندى ضد صلاح الدين وجنوده من الاتراك والاكراد .

وقامت معركة طاحنه فى منطقة ما بين القصرين .. أبلى صلاح الدين وأخوه توران شاه بلاء عظيما . وكان الخليفة العاضد يشجع السودانيين . فأصدر صلاح الدين أمره باحراق المكان الذى كان يجلس فيه .. فخاف على نفسه ، وأعلن انكاره لفعل السودانيين .. فكان لهذا الفعل أثره فى انخذالهم . واشعلت النيران فى حيهم ، فجلا السودانيون عن القاهرة ولاذوا بالصعيد كما فعلوا من قبل .

وهكذا فقد الخليفة العاضد آخر سند كان يستند اليه فى مقاومة سلطان صلاح الدين ، الذى أصبح بعد هذا النصر أقوى قوة فى البلاد .

١١٦٩ م ــ ٥٦٥ هـ : الصليبيون وبيزنطة يحاولون غزو مصر :

على أن صلاح الدين لم يكد يفرغ من هذا الخطر الداخلى حتى كان يجابه خطرا خارجيا أشد عنفا ، فقد كان الصليبيون قد تحالفوا مع البيزنطيين ليمدوهم بأسطول قوى يفتحون به مصر ، وقد استطاعت هذه القوة الغازية أن تنزل الى أرض مصر عند مدينة دمياط يوم الجمعة ٣ صفر من هذه السنة (أكتوبر) وان تحاصرها حصارا شديدا وكان صلاح الدين يبعث الى المدينة قبل وصول الحملة وبعد وصولها بالامدادات ، ولكنه ظل مرابطا بنفسه فى مدينة القاهرة خوفا من ان يعود السوادنيون لاحتلالها . فأرسل يستنجد بنور الدين ويبين له خطورة استيلاء الصليبيين والبيزنطيين على مصر ، ولم يكن نور الدين فى حاجة الى من يظهر له هذا الخطر ، ولذلك فقد أسرع لنجدة صلاح الدين بارسال الجنود اليه من ناحية وبالهجوم على حصون الصليبيين فى فلسطين من ناحية ثانية .

ووقف العاضد الى جوار صلاح الدين يمده بالاموال ، مما جعل صلاح الدين يثنى عليه .

وحاربت الطبيعة الجيوش الغازية .. اذ هطلت الامطار تباعا حتى اغرقت معسكر الصليبيين .

واخيرا وبعد حصار دام خمسة وخمسين يوما انسحب الصليبيون والبيزنطيون بعد أن فقدوا ثلثمائة مركب اغرقتها العواصف البحرية ، ويقول ابن الاثير فى وصف هذه الحملة أنها كالنعامة خرجت تطلب قرنين بلا اذنين (١) .

صلاح الدين يوطد سلطانه :

كان لنجاح صلاح الدين فى دفع الغزو الصليبى عن مصر أعظم أثر فى توطيد

---

(١) انظر سعداوى : التاريخ الحربى المصرى .

سلطانه نهائيا فى مصر ، ولذلك فقد ارسل الى نور الدين يطلب منه أن يبعث اليه بأبيه وآل بيته ، ولم يتردد نور الدين فى أرسالهم اليه بعد ان شرط عليهم طاعته والقيام فى امره ومساعدته ، فوصلوا فى جمادى الثانى من هذه السنة ، فازداد صلاح الدين بهم قوة ، واسند اليهم المناصب الهامة ، واقطع اخوته الأراضى ، وجعل اباه قيما على بيت المال .

٥٦٦ هـ ــ انشاء مدرسة شافعية فى الفسطاط :

وكان أول مظهر لشعور صلاح الدين بسلطانه فى مصر ان اقدم فى هذه السنة على انشاء مدرسته الناصرية فى مدينة الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى تمهيدا بذلك لتقويض المذهب الشيعى .

١١٧٢ م ــ ٥٦٧ هـ ــ قطع الخطبة عن العاضد ووفاته :

كتب نور الدين فى أول هذه السنة الهجرية الى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة من العاضد وبنى عبيد وان يخطب لبنى العباس .

وهنا يتجلى حرص صلاح الدين فقد خشى ان تكون هذه الخطوة سابقة لاوانها وان تؤلب عليه المصرين وتثير فتنة ، فكتب الى نور الدين يلح فى ارجاء الاقدام على هذه الخطوة ، واحس نور الدين فى هذا التصرف من جانب صلاح الدين ببدور الرغبة فى الاستقلال ، ولذلك فقد اشتد عليه القول والزمه بوجوب تنفيذ أمره .

وحدث ان مرض العاضد فجمع صلاح الدين الامراء والكبراء واستشارهم فى امر قطع الخطبة عن العاضد والدعاء لبنى العباس . فمنهم من وافق ومنهم من عارض فأعاد صلاح الدين الكتابة الى نور الدين ، الذى عاد اشد حزما والزاما ، بحيث لم يبق أمام صلاح الدين الا ان ينفذ الامر أو يصبح متمردا على سيده ، واذ كان صلاح الدين لم يزل يتردد فى تحديد موقفه من نور الدين ، فقد انصاع الى تنفيذ الامر ، وخطب لبنى العباس فى أول المحرم .

واخفى أهل العاضد النبأ عنه ، وقيل ان النبأ بلغه وارسل العاضد الى صلاح الدين ليوصيه فخاف صلاح الدين ان يكون فى الامر خدعة وامر يدبر له ، فلم يلب النداء .

ولكن العاضد لم يلبث ان مات بالفعل فى يوم الاثنين العاشر من المحرم .

وقد حزن عليه كل من كان فى مصر من الشيعة ، فقد كانوا يدركون أن المذهب الشيعى قد قضى عليه بوفاته وكذلك الحكم الفاطمى من اساسه .

وكانت سن العاضد عند موته احدى وعشرين سنة حكم منها عشر سنوات ونيفا .

انتهاء الدولة الفاطمية :

وبموت العاضد انتهت الدولة الفاطمية التى حكمت مصر مائتين وثمانى سنوات ولكن مدة الحكم الفاطمى فى مجموعه تناهز ٢٨٠ سنة .

ويشيع المؤرخون من أهل السنة الدولة الفاطمية فرحين مهللين ، وهم يصمونها بأسوأ الوصمات . فيقول ابن كثير :

انهم كانوا أجبر الخلفاء واظلمهم ، وانجس الملوك سيرة واخبثهم سريرة ظهرت فى دولتهم البدع والمنكرات ، وكثر أهل الفساد ، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد ، وكثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله ، حتى أخذوا القدس ، ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان والكرك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وانطاكية » .

واما أن الحكام فى العصر الفاطمى الاخير يتحملون مسئوليتهم عن انتصار الصليبيين فى أيامهم والاستيلاء على ما استولوا عليه من بلاد العرب والمسلمين ، فمسئولية لا يستطيع أى انسان ايا كان مذهبه وفكره أن يحلهم منها . ولعل ذلك ما يفسر البغض الذى اعتاد المؤرخون فى العهد الثانى أن يظهروه نحو الفاطمين ، ولكن من التجنى أن يخص الفاطميون بالمسئولية عن الهزيمة فى الحروب الصليبية . فقد كان الشام فى هذه الفترة قد أصبح فى حكم السلاجقة الذين كانوا يقفون للفاطميين بالمرصاد ، ولقد كان السلاجقة هم الذين احدثوا الظروف التى أدت الى الحروب الصليبية .

حتى اذا بدات الغارة ، كان الخلاف قد دب بينهم الى الحد الذى أدى الى ما حدث .

أما ما وصف به ابن كثير احوال مصر والشام فى عهد الفاطميين من حيث الفساد وانتشار البدع والفتن .. الى آخر ما قاله .. فقد كانت الاحوال فى بغداد والعراق اشد سوءا .

عناية الفاطميين بالعلم والفن :

وايا ما يقال عن العهد الفاطمى فى مصر ، فانه يتسم بثلاث سمات لا يجحدها اكثر الناس تعصبا ضد الفاطميين .

فأما السمة الاولى فهى عناية الفاطميين الكبيرة بالعلم طوال عهدهم . فهذا ابن كثير نفسه الذى يقول فى الفاطميين ما يقول : ووجد للفاطميين خزانة كتب ليس لها فى مدائن الاسلام نظير ، نشتمل على ألفى ألف مجلد .

ونحن من ناحيتنا نرى فى هذا الرقم مبالغة ، وربما كان أدق منه ما قاله العماد الكاتب من أن عدد الكتب كان مائة وعشرين ألف مجلد . وقد تجمع هذا العدد بعد فناء المكتبة الأولى الكبير فى حكم المستنصر ايام الشدة العظمى .

الاحتفالات والمهرجانات الشعبية :

وثمة طابع ثان للحياة الفاطمية ، وهو كثرة الاحتفالات الدينية والمهرجانات الشعبية : وربما كانت هذه الاحتفالات بعض ما يأخذه البعض على الفاطميين ويعتبرونه من نوع البدع والمنكرات ..

ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الاحتفالات والمهرجانات كانت فرصة الشعب لا ليفرح ويلهو ويتسلى فحسب ، بل ولينال الكثير من بر الخليفة والامراء مما كانوا يفيضونه على الشعب فى هذه المناسبات .

فقد كانت الموائد « الاسمطة » تمد على أوسع نطاق . وكانت هذه الاحتفالات تقام فى أبهة عظيمة ويشارك فيها الخليفة بموكبه ، وكانت تقام فى عيد الفطر وعيد الاضحى ورأس السنة الهجرية ومولد النبى صلوات الله عليه ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء ، ويوم عاشوراء وذلك الى مواسم أخرى كليلة أول رجب ، وليلة نصفه وليلة أول شعبان ونصفه ، وكانت هذه الليلة الاخيرة تعرف بأسم ليالى الوقوف ، وكانت تضاء فيها جميع المساجد بعد غروب الشمس وتبدو القاهرة فى حلل بديعة من الانوار ، ويخرج الناس الى الازهر الذى تضاء جوانبه بالمشاعل ويعقد فى صحنه مجالس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة .

وكان شهر رمضان من أهم المواسم الدينية التى عنى الفاطميون باحيائها ، فيحتفل بأول رمضان بخروج الخليفة فى موكبه الرائع وكذلك فى الجمع الثلاث الاخيرة الى جوامع الحاكم بأمر الله والازهر وعمرو بن العاص .

ولقد أشرنا من قبل الى الاحتفال بوفاء النيل .
وفى كل هذه الاحتفالات كان الخليفة الفاطمى :

— يوزع الكساوى والنقود على المقربين والمحتاجين .

— ويمد أسمطة ضخمة يبلغ طولها ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع وتقدم فيها كل صنوف الفطائر والحلوى الشهية وتفتح أبواب القصر على مصاريعها ليهرع الناس من جميع الطبقات الى السماط الخليفى .

— وكان الخليفة يوزع طوال سير موكبه نقودا على الطريق الذى كان يجتازه .

:هــار الاقتصـــادى :

وباستثناء السنوات التى كان النيل فيها يقصر عن بلوغ الغاية من الفيضـــان .وات متتالية ، فان المؤرخين يجمعون على ان مصر كانت فى حالة ازدهار اقتصادى ـسبة لكل ما حولها من البلاد .

وقد اعتنى الفاطميون بالزراعة فى مصر باعتبارها اهم مصادر الثروة ، كما فعل الملوك المصلحين من قبلهم .

ولا تزال قناطر ابو المنجا أرثا خالدا لهذا الخليج الذى أشرف على حفره ابو المنجا لى ديوان جهات الدلتا فى عهد وزارة الافضـــل بدر الجمالى ، حيث كان الخليج ـج من النيل ليروى الاراضى الواقعة شرق فرع دمياط .

وقد انفرد الفاطميون بمعاملة الفلاحين معاملة تنطوى على الرعاية فلم ينزعوا ال مدة حكمهم أرضا من أصحابها .

كما ازدهرت فى ايامهم مرة أخرى الصناعات التى اشتهرت بها مصر من اقدم صور وهى صناعة النسيج بأنواعه الكتانية والصوفية والحريرية وتفوقت صناعة ـجاج والخزف . ولا تزال المشكاة الزجاجية المصنوعة فى مصر من ذلك العهد أعظم ـحف التى تعتز بها متاحف الدنيا كلها .

وبلغ من انتشار صناعة الخزف أن البقالين كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من خزف بدلا من الورق .

واتسع شأن التجارة الخارجية فى عهد الفاطميين مع البلاد الآسيوية والأوروبية قامت بين مصر والمدن الايطالية وبخاصة جنوة والبندقية علاقات تجارية .

وعلى الرغم من المنازعات العسكرية والسياسية بين مصر وبيزنطة فان العلاقات تجارية بينهما لم تنقطع فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع بيس ودمياط .

على ان عظمة الحركة التجارية التى بلغتها مصر مع الأوربيـــين فى هذه الفترة تتجلى فى امر مثل تجليها فى سماح الحكومة الفاطمية للاوربيين بانشـــاء الفنـــادق لخاصة بهم ، فكان لكل جالية أجنبية فى الاسكندرية فندق يقيم فيه التجار ويحفظون ضائعهم .

كما اقيمت للتجار القادمين من العراق والشـــام الوكالات التى لا تزال آثارها قائمة حتى الآن .

وذلك بالاضافة الى الأبنية التى اطلق عليها اسم القياسر جمع قيســـارية وهى مجموعة من المبانى العامة وبها حوانيت .. ومصانع ومخازن ومساكن .

الفصل الثالث عشر

الدولة الأيوبية

١١٧٢ م ــ ٥٦٧ هـ : عودة الخلافة العباسية الاسمية الى مصر :

انتهت الدولة الفاطمية بوفاة العاضد رسميا وعمليا ، اذ أعيدت الخطبة للخليفة العباسى المستضىء بالله الذى بعث الى صلاح الدين بخلعة الوزارة ، باعتباره أحد اتباع السلطان نور الدين .

وقد استولى صلاح الدين على قصر الخليفة الفاطمى ، ومرة اخرى تتهيأ الفرصة للمؤرخين ليحدثونا عن كنوز الفاطميين ، والتى ظل يبيع فيها عشر سنوات كاملة ، بعد أن ارسل جزءا كبيرا منها الى متبوعه السلطان نور الدين ، وأرسل جزءا آخر الى الخليفة العباسى ، ثم وزع الجزء الأكبر على الأمراء والجنود والأتباع غير مبق لنفسه منها شيئا . وقد ظل هذا دأب صلاح الدين طوال حياته : أن يوزع كل ما يصل الى يديه على امرائه وجنوده ورعاياه غير مستبق لنفسه شيئا .

الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين :

وقد تحدث ابن الأثير المؤرخ المعاصر والشديد التعلق بنور الدين عن قيام وحشة فى هذه الفترة بين السلطان نور الدين وصلاح الدين ، ولا يرضى المرحوم جمال الدين الشيال عن هذا القول ، ويعزوه الى كراهية ابن الأثير لصلاح الدين ، ويروح يفند الأدلة التى ساقها ابن الأثير على قيام هذه الوحشة .

وعندنا أن قيام الوحشة ــ أو فلنسمها البرود فى العلاقات ــ بين صلاح الدين والسلطان نور الدين فى هذه المرحلة هى أمر طبيعى جدا . فلقد علا نجم صلاح الدين واصبحت كل تصرفاته تتجه نحو توطيد سلطانه الشخصى فى مصر وتأكيد استقلاله ؛ وغنى عن البيان أن السلطان نور الدين لا يمكن أن يكون سعيدا بذلك وعندنا أنه لم يحل دون اصطدام الرجلين ، الا فرط حذر كل منهما من أن ينتفع العدو المشترك بأى خلاف يقع بينهما ، ولذلك فقد دارى كل من الرجلين الآخر ما وسعه الجهد ، فاكتفى نور الدين من صلاح الدين بمظاهر الخضوع الشكلى الذى كان يبديه له صلاح الدين ، واعتذاراته عن الاجراءات التى لم تعجب نور الدين . كما أن صلاح الدين من ناحيته لم ير سببا يدعوه لمخاصمة نور الدين سيده القديم وسلطانه ، ما دام انه مطلق التصرف بالفعل فى مصر يعمل فيها كل ما يريد فى توطيد سلطانه .

١١٧٣ م ـ ٥٦٨ هـ ـ توران شاه أخو صلاح الدين يفتح النوبة :

تجمع السودانيون الذين فروا من مصر بعد ثورة مؤتمن الخلافة فى جنوب الصعيد وزحفوا شمالا ، لاستعادة سلطانهم ، والانتقام لأنفسهم من صلاح الدين واعادة الدولة الفاطمية ، فعهد صلاح الدين الى أخيه شمس الدولة توران شاه بمحاربتهم وجهزه بجيش كبير ، وزحف به على بلاد النوبة نفسها وفتح قلعة بريم بعد ثلاثة أيام من حصاره لها وغنم جميع ما كان فيها . وبهذا الانتصار أمن صلاح الدين حدوده الجنوبية بعد تأمينه حدوده الشمالية .

على ان توران شاه قدم تقريرا لصلاح الدين عن بلاد النوبة يحيطه بفقر هذه المنطقة وانها لا تستحق كبير عناء .

موت نجم الدين أيوب :

وفى هذه السنة مات نجم الدين أيوب والد صلاح الدين واكبر أمراء السلطان نور الدين وصاحب الحظوة لديه .

وقد ذكر مؤرخو صلاح الدين أنه عرض على أبيه عندما وفد عليه فى مصر أن ينزل له عن سلطان مصر ، فقال له أبوه :

انت أولى .

ولقد مات نجم الدين أيوب أثناء اشتغال صلاح الدين بالحملة التى شنها على حصن الكرك الصليبى المنيع ، فحزن صلاح الدين لوفاة أبيه وعدم تمكنه من حضور جنازته .

وقد حاول بعض المؤرخين أن يردوا نسب نجم الدين أيوب الى العرب وليس الأكراد ، ولكن صلاح الدين انكر هذا القول عندما ذكر أمامه .

١١٧٤ م ـ ٥٦٩ هـ : فتح بلاد اليمن :

كان اليمنيون شيعة على مذهب الفاطميين ، ولم يكفوا عن محاولتهم لاعادة ملك الفاطميين ، وخشى صلاح ان يهاجموا مصر من الجنوب بمساعدة النوبيين ، فاستأذن السلطان نور الدين فى أن يبعث بجيوشه الى اليمن للاستيلاء عليها فأذن له : وهو ما يدحض قول القائلين بأن صلاح الدين فكر فى الاستيلاء على اليمن لتكون ملجأ له اذا فكر نور الدين فى عزله عن مصر ومرة أخرى استعان صلاح الدين بأخيه الكبير توران شاه ليقوم بهذا العمل ، فكرر نجاحه فى بلاد النوبة اذ فتح مدينة زبيد حيث كان يقيم بها عبد النبى بن مهدى رجل الفاطميين وحاكم اليمن وأن يفتح صنعاء وبقية مدن اليمن فى أقصر مدة .

وأن يعيد الخطبة على المنابر للخليفة العباسى المستضىء . وهكذا أقام الحكم الأيوبى فى اليمن وقد دام أكثر من خمسين سنة .

اخفاق المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين :

انتهزت العناصر التى خسرت بزوال الدولة الفاطمية ، فرصة انشغال الجزء الأكبر من قوات صلاح الدين فى اليمن ، لكى تقوم بحركة لانهاء حكم صلاح الدين . بل لقد قيل ان مشروع فتح اليمن كان من تخطيط وتدبير رؤساء هذه الحركة ، اذ كانوا الذين خوفوا صلاح الدين مما يجرى فى اليمن ، وأوعزوا اليه وحرضوه على ارسال هذه الحملة اليه ، لكى يخلو لهم الجو فى مصر ويضربوا ضربتهم .

واتصل المتآمرون بالصليبيين فى بيت المقدس والافرنج فى صقلية لكى يزحفوا على مصر بجيوشهم وأساطيلهم فى الوقت الذى يقومون فيه بثورتهم ، كما اتصلوا من ناحية أخرى بالاسماعيلية الحشيشية فى الشام ، ليشتركوا بفدائييهم فى الحركة للقضاء على صلاح الدين .

ولعب القدر دوره لانقاذ صلاح الدين من هذه المؤامرة المحكمة فتسرب خبرها قبل الشروع فيها اليه ، فقبض على قادة المؤامرة وكان رئيسهم الشاعر عمّارة اليمنى ، واستفتى العلماء فيما يكون عليه جزاؤهم فأفتوه بالقتل فقتلهم .

وهكذا قضى على القسم الداخلى من المؤامرة .

وعندما وصل الى علم الصليبيين فى بيت المقدس ، نبأ القبض على المتآمرين وفشل المؤامرة ، توقفوا عن القيام بدورهم فى الخطة .

وليس سوى افرنج صقلية الذين لم يسمعوا بما حدث وقاموا بدورهم المرسوم فى الخطة فوصلوا الى الاسكندرية فى شهر يوليو من هذه السنة فى أسطول ضخم ، ونزلوا بالفعل على البر خارج أسوار الاسكندرية وشرعوا يهاجمونها ، ولكن الاسكندرية وقفت فى وجههم وردتهم عن الأسوار مدحورين ، وانتظر الأفرنج اندلاع الثورة الموعودة أو مقدم صليبيى بيت المقدس ، فلم يتحقق شىء من ذلك ووصلت الأنباء بأن صلاح الدين فى طريقه الى الاسكندرية على رأس جيش عظيم ، فارتفعت معنوية المحاصرين داخل الأسوار فى الوقت الذى ضعفت فيه معنوية الافرنج فآثروا الانسحاب الى سفنهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة فى الرجال والعتاد والسفن ، وهكذا نجا صلاح الدين من أعظم خطر تعرض لهفى مطلع حكمه الجديد كسلطان لمصر .

وفاة السلطان نور الدين زنكى :

فى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال من هذه السنة ، توفى السلطان العادل نور الدين زنكى عن ثمانية وخمسين عاما .

ونمتلىء صفحات التاريخ بالحديث عن عظمة السلطان نور الدين وفضائله ، ونقواه . وشـجاعته ، وكرمه ، بحيث يقول أبو الفدا المؤرخ : ان كتابه المختصر لا يحتمل ذكر فضائله ، وهذا الكتاب المختصر الذى لا يتسع لذكر فضائل نور الدين مؤلف من الف صفحة .

أما ابن الأثير الذى كان مخلصا ومحبا للبيت الزنكى فهو يقول لنا :

أنه لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مىل الملك نور الدين تحريا للعدل والانصاف نم يخصص صفحات كنيره لذكر وقائع عن عدله وأخرى عن زهده ، وشجاعته وعلمه ، ومبانيه ، وأهمها المارستان ، الذى بدمشق وليس له فى البلاد نظير ومن شرطه أنه وقف على الفقراء والمساكين ، ولا يمنع عنه الأغنياء اذا عز وجود الأدوية الا فيه .

وأبو المحاسن الذى ألف كتابه فى أثنى عشر مجلدا يقول : ان المجال يضيق عن ذكر فضائله وهى أشـهر من ان تذكر .

وقد رأينا أن نختار مما يروى عنه بعض ما يذكرنا بعمر بن الخطاب فليس الاهو فى كل تاريخ الاسلام من كان ينصرف بهذا الأسـلوب وحسب نور الدين أن يقرن اسـمه الى عمر بن الخطاب .

فقد كان نور الدين على ما أثبته أمين باشا سامى لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا من خالص ملكه الذى اشتراه من سهمه من الغنيمة ، فشكت زوجته ذات مرة من الضائقة فأعطاها ثلاثة دكاكين فى حمص كانت له وكانت تدر عشرين دينارا فى السنة ، فلما استقلتها زوجته قال لها : ليس الا هذا ، وجميع ما فى يدى أنا فيه خازن المسلمين ، ولا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك .

وهكذا تلالأ هذا الحكم من جديد فى سـماء الاسلام ليعيد اليه بهـاءه ومجده الروحى ، وليس صلاح الدين فى الحق الواقع الا نبت من غرس نور الدين ، واستمرار لعمله ومنهاجه .

وقد أكرم الله المسلمين للامر الذى يريده ، فجعل وفاة نور الدين فى نفس السنة التى يكاد المؤرخون يجمعون على أنه كان قد قرر فيها أن يدخل مصر ، وهو لو قد فعل لاصطدم حتما مع صلاح الدين وربما تغير التاريخ الذى نعرف .

١١٧٥ م — ٥٦٠ هـ : صلاح الدين يسـتولى على دمشـق :

بموت نور الدين انهار آخر السدود والقيود التى كانت تحول بين صلاح الدين وبين تدفق نشـاطه نحو الشـمال .. نحو بلاد الشـام .

وكان امراء البيت النورى قد ولوا عقب وفاة نور الدين ، ابنه الملك الصـالح

وكان صبيا صغيرا لا قدرة له على مباشرة الحكم . فأصبح العوبة فى يد من حوله من الأقارب والقواد .

فأسرع صلاح الدين وأعلن أنه أحق الجميع أن يكون وصيا على الملك الصغير وان يكون مدبر أمور مملكته المسئول عن رعايته وحمايته وتربيته معا . فلما أن نقل الأمراء الملك الصغير الى حلب ليكون تحت سلطانهم ، انتهز صلاح الدين هذه الفرصة لكى يزحف على الشام فدخل دمشق فى أمن وسلام فى ربيع الثانى من هذه السنة بعد أن سلمها اليه نائبها شمس الدين بن مقدم واستولى على قلعتها ، فاجتمع اليه الناس فرحين مستبشرين ، فأحسن اليهم ، ورفع عنهم الضرائب والمكوس التى قررت عليهم بعد وفاة نور الدين .

ومن دمشق توجه قاصدا مدينة حلب فاستولى فى أثناء سيره اليها على مدينة حمص « دون قلعتها » وكان ذلك فى جمادى الأول .

ثم تسلم مدينة حماة من صاحبها عز الدين بن جبريل ، وطلب منه صلاح الدين أن يكون له سفيرا لدى الحلبيين . ولكن الحلبيين رفضوا التفاهم مع صلاح الدين وابوا الا أن يحاربوه ، فزحف عليها فى آخر جمادى الثانية .

وانزعج الأمراء النوريون من صلاح الدين فحشدوا جيوشهم لمقاومته فأرسل سيف الدين غازى صاحب الموصل جيشا الى ابن عمه الملك الصالح واتجهوا صوب صلاح الدين للاصطدام به ، ومرة أخرى حاول صلاح الدين أن يتفادى الحرب والقتال وطلب أن يفاوضوه فرفضوا وأصروا على القتال رغبة منهم فى أن يتخلصوا منه نهائيا .

ودارت رحى القتال عند قرون حماة فى التاسع عشر من رمضان ، فدارت الدائرة على جيش الحلبيين والموصليين وانتصر صلاح الدين ولكنه لم يشأ أن يتعقب الفارين وطلب التصالح فأجيب اليه هذه المرة ، على أساس أن يترك حلب وما حولها للملك الصالح اسماعيل ، على أن تكون المنطقة جنوب حلب ملكا لصلاح الدين فأصبحت المعرة وكفر طاب ، وماردين فضلا عن حماة وحمص ودمشق وأعمالها فى سلطان صلاح الدين .

الخليفة العباسى يولى صلاح الدين مصر والشام :

وأسرع الخليفة العباسى باقرار صلاح الدين سلطانا على مصر والشام فبعث اليه بالتقليد والتشريفات المعتادة والخلع والأعلام السود .

١١٧٦ م – ٥٧٢ هـ : عودة صلاح الدين لحصار حلب :

لم يكن رضاء أمراء البيت النورى بالاتفاق السابق الا رضاء مؤقتا ريثما يعدوا أمرهم للتخلص من صلاح الدين ، فدخلوا فى مراسلات مع الصليبيين فى بيت المقدس

ليكونوا عونا لهم على صـــلاح الدين كما اتصلوا بالاسماعيليين ودبروا معهم اغتيال صـــلاح الدين .

فلما ترامى ذلك الى علم صلاح الدين عاد بجيشه الى الشام للاستيلاء على حلب. وبدأ لاضعاف المدينة يستولى على الحصون والقلاع المحيطة بها . وفى هذه الفترة قام الاسماعيليه بتنفيذ مؤامرتهم فانتفض بعض فدائييهم على صلاح الدين لقتله ، وكان من الممكن أن يصرع صلاح الدين فى هذا الحادث لولا أن حمته الدروع التى كان يلبسها ، فلم يصب الا بخدش .. وقتل الفدائيون . ولم يتحرك الصليبيون لانجاد حلفائهم فسعى الحلبيون للصلح مع صلاح الدين عن تجديد الصلح الســابق وهو أن تظل حلب وأعمالها بيد الملك الصالح اسماعيل وما عدا ذلك من بلاد الشام ومصر فتظل بيد صلاح الدين . واستجاب صلاح الدين للصلح توفيرا للجهود .

واستناب على دمشق والشام أخاه توران شاه الذى كان قد عاد من اليمن بعد انتصـــاره بها .

صلاح الدين يتزوج أرملة نور الدين :

رأى صلاح الدين أن يتقرب الى اسرة نور الدين ، وان يزيد فى مكانته الأدبية فتزوج أرملة الســلطان نور الدين السيدة خاتون عصمة الدين .

صلاح الدين يقتص من الحشـــاشين :

وقبل أن يعود صلاح الدين الى مصر ،رأى أن ينتزع من جنبه شوكة الاسماعيلية وان يقتص منهم لمحاولتهم المتكررة قتله . فاتجه بجيشه الى حصونهم وقلاعهم ، فهدم الكثير من هذه القلاع وقتل الكثيرين منهم ،حتى أوشك أن يجهز عليهم لولا ان وسط الاسماعيليون خال صلاح الدين الأمير شهاب الدين فشفع لهم وتعهد عنهم بحسن الســير والســلوك .

انشــاءات صلاح الدين الكبرى فى مصر :

عاد صلاح الدين الى القاهرة بعد ان استتب سلطانه على سوريا . وبدأ يضع الخطط لتحقيق حلمه الكبير وهو اجلاء الصليبيين عن الشرق . وادرك ان ذلك لن يتحقق الا بقوة القاعدة لهذا الجهاد وهى مصر ، ولا قوة للقاعدة الا باحكام شئونها العسكرية والاقتصادية ، وهو ما أخذ صلاح الدين على نفسه تحقيقه فى مصر .

ســـور القـــاهرة :

كان من أهم ما عنى به صلاح الدين منذ وطأت أقدامه أرض مصر ، أن يحيط القاهرة الفاطمية والفسطاط القديمة بســور واحد حصين فعهد ببنائه الى رجله الأكبر بهاء الدين قراقوش الخصى فشرع فى هذا العمل منذ عام ٥٦٦ هـ . فلما رجع صلاح الدين من الشام هذه المرة استحثه لاتمام هذا العمل ففرغ منه فى هذه السنة، وكان السور مبنيا كله من الحجارة . وكان شماله يبدأ عند قلعة المقس المطلة على النيل ، ويظل يطوف بالقاهرة والفســطاط حتى ينتهى عند النيل ايضـــا جنوب الفسطاط ويقول المؤرخون ان محيط السور كان ٢٩٣٠٢ ذراع .

قلعة الجبـــل :

ومن ناحية أخرى رأى صلاح الدين على ضوء تجاربه فى الشام والموصل أن يزود القاهرة بقلعة تكون سكنا الحكام ، وملجأ للشعب فى ساعة الضرورة وتقوم بالدفاع عن العاصمة ضد الغزو الأجنبى كما هو الشأن فى قلاع حلب ودمشق والموصل .

فأصدر أمره بالشروع فى انشاء قلعة الجبل فى موقعها الحالى فوق جبل المقطم وقد كان يوجد محلها ما أطلق عليه قبة الهواء. وجعلت تصمد أسوارها أمام القذائف المعروفة فى ذلك الوقت بحيث يقوى الموجودين فيها على مقاومة الحصار .

ولـــا كان الماء هو أهم ما يحتاجه المحاصرون فقد حفر فى أســـاس القلعة بئرا لامدادها بالمـــاء ، ولا يزال هذا البئر موجودا حتى الآن ويسميه العامة بئر سيدنا يوسف ، وهو فى حقيقته بئر يوسف صلاح الدين .

الاهتمام بالاســـكندرية ودمياط والأســـطول :

وســـارع صلاح الدين الى مدينة الاسكندرية ودمياط ، يقوى دفاعهما وبرمم اسوارهما وقلاعهما ويحشد فيهما الجنود .

ولما كان الأسطول المصرى قد تهدم وضرب ، فقد نفخ فيه الحياة من جديد ، وانشأ ديوانا اسمه ديوان الأسطول ووضع تحت يد القائم على الديوان كل الامكانيات اللازمة لاعادة انشـــاء الأســـطول . واعداده للغزو والقتال .

الاصلاحات الدينية ــ المدرســـة الناصرية :

فى الوقت الذى كانت المهمة تبذل لتقوية دفاع مصر وجيشها وأســـطولها كان

العمل كذلك يجرى على قدم وساق على اعادة البلاد الى المذهب السنى. ولما كانت العقائد لا تغير بالمراسيم والقوانين وانما بالعلم والاقناع فقد قرر صلاح الدين اقامة مدرسة جديدة ضخمة لتدريس المذهب الشافعى الذى كان صلاح الدين يدين به ، وقد سميت بالمدرسة الناصرية . ورتب صلاح الدين للمدرسة شيخا لتدريس الفقه وجعل فيها مساعدين للاستاذ الكبير وعددا من طلبة العلم يتوفرون على تحصيله ورتب للجميع الرواتب الشهرية وأوقف على المدرسة الاوقاف الكثيرة للانفاق عليها .

ويقول المؤرخون انه بانشاء هذه المدرسة حدث تطور جديد فى نظام التعليم ، فالى ما قبل هذه المدرسة كان التعليم يجرى فى المساجد ، أما اقامة المدارس خصيصا لتدريس الفقه والعلوم الشرعية ، فنظام بدأ على يد صلاح الدين .

وهذا القول يخالف الواقع فقد مر بنا أن الحاكم قد انشأ دار الحكمة التى كانت جامعة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من جامعة فى عصرنا الحديث بحيث لم يقتصر التدريس فيها على العلوم الفقهية والدينية بعامة وانما تتناول الى جوار ذلك علوم الطب والفلك والرياضيات .

البيمارستان :

وأمر صلاح الدين باتخاذ دار فى القصر الفاطمى لتكون بيمارستانا (١) للمرضى أى مستشفى .

العناية بالرى والزراعة :

ولم يكن اهتمام صلاح الدين بتحسين أحوال البلاد من حيث الرى والزراعة بأقل من اهتمامه بالمناشط الأخرى ، فعهد الى رجل الدولة الأول القاضى الفاضل والعلماء والكتاب بالاشراف على تطهير الترع القديمة وتقوية الجسور وانشاء القناطر واصلاح النظام الضرائبى بما يشجع الفلاحين على العمل والانتاج .

حتى اذا تصور صلاح الدين أنه أحسن تنظيم الأمور .. بدأ يخطو نحو هدفه الأعظم وهو محاربة الصليبيين والقضاء عليهم ..

١١٧٧ م — ٥٧٣ هـ : اصطدام صلاح الدين بالصليبيين وهزيمته فى الرملة :

خرج صلاح الدين بجيش مصر قاصدا الساحل الصليبى وكان كله بيد الصليبيين ، وبدأ حربه بمدينة عسقلان فحارب وانتصر وتفرق أفراد الجيش من حوله يجمعون الأسلاب والغنائم ، فانتهز الصليبيون هذه الفرصة وانقضوا بجموعهم

---

(١) كلمة فارسية مؤلفة من : بيمار ومعناها مريض ، ستان ومعناها مكان .

على صلاح الدين وكان مع قلة من الرجال ، فأوشكوا أن يقضوا عليه ومن معه ولم ينج منهم الا باعجوبة ، ثم انقضوا على أفراد الجيش المبعثرين فكادوا ان يفنوهم .

وكانت هذه أقسى هزيمة لقيها صلاح الدين فى حياته كلها .

يقول ابن الأثير انه طالع كتابا بخط صلاح الدين يقول فيه لأخيه توران شاه امير دمشق يصف له هذه الواقعة بقوله :

« لقد اشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الا الله لأمر يريده سبحانه وتعالى » .

١١٧٩ م — ٥٧٥ هـ : صلاح الدين يسترد قوته ويهزم الصليبيين :

على ان صلاح الدين لم يستكن للهزيمة،بل سرعان ما استعاد قوته ونظم صفوفه، وقصد الى بلاد الشام واتخذ من دمشق قاعدة قرب الصليبيين الذين طمعوا فيه فزحفوا اليه بجموعهم حول حصن قوى أطلقوا عليه اسم « مخاضة الأحزان » ولقيهم صلاح الدين بجيشه فى مرج عيون ، فانتصر عليهم انتصارا حاسما وأسر عددا كبيرا من أمرائهم وقادة جندهم ، ثم فتح حصن الاحزان نفسه وأسر كل من كان فيه من المقاتلين ، ثم حرقه وعفى على آثاره وهكذا استعاد صلاح الدين هيبته، ومسح آثار هزيمة الرملة .

ومضى يعد لخطوته الثانية ، ولكن كان عليه قبل ذلك أن يعود الى مصر ليكمل استعداده للمرحلة الثانية .

١١٨١ م — ٥٧٧ هـ : صلاح الدين فى الاسكندرية :

نرى صلاح الدين فى هذه السنه وقد عاد الى مدينتى دمياط والاسكندرية ليشرف على ما تم انجازه من تحصين أسوارهما ، ومدى ما بلغه الأسطول من قوة وفاعلية ، فقد كان صلاح الدين يدرك أنه لا يكاد يصطدم بالصليبيين على أوسع نطاق ، حتى تكون الاسكندرية ودمياط هدفا للعدوان .

صلاح الدين يتلقى دروسا فى الفقه :

وينتهز صلاح الدين فرصة اقامته فى مدينة الاسكندرية ، لكى يستزيد من العلم فى الفقه فيقول لنا العماد الكاتب الذى كان مصاحبا لصلاح الدين :

وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (٥٧٧ هـ) الى الاسكندرية عن طريق البحيرة ، وخيم عند السوارى ، وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهدها ، وأمر بالاهتمام والاتمام ثم قال لنا :

نغتنم حياة الشيخ الامام ابى طاهر بن عوف ، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضى الله عنه ــ بروايته عن الطرطوشى ــ فى العشر الأخيرة من شوال ، وتم له ولأولاده ولنا به السمع » .

ولا تفوت هذه المناسبة القاضى الفاضل ، فبعث الى صلاح الدين مهنئا بهذا العمل الجليل .

وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين :

وفى هذه الأثناء كان الملك الصالح بن نور الدين قد مات ، فانفتحت بموته المنافسة على ملك حلب بين امراء الأسرة النورية وبعضهم من ناحية ، وبينهم وبين صلاح الدين من ناحية أخرى .

وكان الامر قد استقر بين اسرة نور الدين أن يكون حكم الموصل والجزيرة بيد الأمير عز الدين مسعود وان تعطى حلب لعماد الدين .

وراى صلاح الدين ان يضع حدا لهذا الصراع على السلطة لما فيه من ضرر على القضية العامة ، فقرر الاستيلاء على حلب والموصل .

١١٨٣ م ــ ٥٧٩ هـ : استيلاء صلاح الدين على حلب والموصل :

توجه صلاح الدين من دمشق الى مدينة الموصل ، واذا كانت المدينة من أحصن المدن ، فقد رأى ان يبدأ بالاستيلاء على القلاع المحيطة بها لاضعافها فاستولى على سنجار وآمد وتل خالد وعينتاب ثم استولى على مدينة حلب بالاتفاق مع صاحبها عماد الدين زنكى فى مقابل ان يعطيه سنجار ويكون تابعا له فيها . ومضى فى قتاله ولكنه لم يستطيع الاستيلاء على مدينة الموصل هذه المرة .

اسطول صليبى يحاول غزو الحجاز :

استغل البرنس ارناط صاحب حصن الكرك فرصة انشغال صلاح الدين بحصار مدينة الموصل لكى يضرب المسلمين ضربة لم يفكر فيها صليبى من قبل وهى الاستيلاء على مكة والمدينة وتخريب قبر الرسول .

ونجح القسم الأول من خطته التى وضعها لتحقيق هذا الهدف ، اذا استولى على مدينة ايلة (١) على خليج العقبة ، ومنها ارسل اسطوله الذى اعده لهذا الفرض للاستيلاء على مكة والمدينة .

---

(١) هى ايلات الاسرائيلية .

وسار هذا الأسطول الصليبى بمحاذاة الشاطىء المصرى للبحر الأحمر وفاجأ المسلمين مفاجأة شديدة ، فلم يسبق لهم ان توقعوا اساطيل معادية فى هذا الجزء من البحر ، ولذلك نجح الصليبيون فى تخريب وتدمير ما قصدوا تدميره ومن ذلك ميناء عيذاب المصرى واستولوا على كل ماوجدوه فى طريقهم من سفن الحجاج . ثم تحولوا الى الشاطىء الشرقى للبحر شاطىء الحجاز فأغاروا على ميناء رابغ واغرقوا احدى سفن الحجاج فى مياهها .

حسام الدين لؤلؤ يسحق الصليبيين :

وكانت مصر فى هذا الوقت تحت اداره الملك العادل سيف الدين اخى صلاح الدين فانتدب الأمير حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصرى ، فاستعاد حسام الدين مدينة ايلة ، ثم وصل بالأسطول المصرى الى ثغرة الحوراء بالقرب من ينبع حيث كان الأسطول الصليبى مرابطا فحطمه عن آخره وقبض على كل من كان فيه من بحارة ومقاتلة فقتلهم عن بكرة ابيهم ، وقيل انه بعث ببعض هؤلاء المعتدين ليذبحوا فى منى ارهابا للصليبيين وعقابا لهم على هذا التفكير الأثيم .

وكان من شأن هذا الحادث ، ان شحذ صلاح الدين عزيمته لانقاذ العالم الاسلامى من خطر الصليبيين المعلق على رؤوسهم ..

وآلى على نفسه ان ينتقم من البرنس ارناط لهذه الفعلة الأثيمة وان يقتله بنفسه اذا مكنه الله منه ، وقد بر بقسمه كما سوف ترى .

١١٨٣ م — ٥٧٨ هـ : رحلة ابن جبير الى مصر :

وصل ابن جبير الى الاسكندرية قادما من غرناطة فى أول ذى الحجة وترك لنا صورة حية من حياة مصر فى هذه الفترة الدقيقة من حياتها فيقول :

أول ماشاهدناه فى الاسكندرية طلوع أمناء من قبل السلطان (صلاح الدين) الى المراكب لتقييد جميع ماجلب فيها فاستحضر جميع من كان فى المركب من المسلمين واحدا واحدا وكتب اسماءهم وصفاتهم واسماء بلادهم وسأل كل واحد عما لديه من سلع ليؤدى زكاة ذلك واستدعى احدنا احمد بن حسان ليسأل عن انباء المغرب وعما تحتويه المركب من سلع ، فطيف به على عدد من اهل الديوان وحاشية السلطان وفى كل مرة يستفهم منه ويقيد قوله ثم يخلى سبيله . وأمر المسلمون بتنزيل اسبابهم وما فضل من ازودتهم ، وعلى ساحل البحر اعوان يتوكلون بهم . وحمل جميع ما انزلوه الى الديوان ثم استدعوا واحدا واحدا واحضر ما لكل واحد من الاسباب والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب مادق منها وما جل . واختلط بعضهم ببعض وادخلت الأيدى الى أوساطهم بحثا

عما عسى أن يكون فيها ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . ثم اطلقوا بعد موقف الذل والخزى العظيم ، وهذه لا محالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ، اذ لو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وايثار الرفق لازال ذلك » .

ونحسب ان أدق « ريبورتاج » تحقيق صحفى فى العصر الحديث لن يصور لنا مضايقات الكشف عن جوازات السفر وتفتيش حوائج المسافرين فى الجمرك بأبلغ من هذا الذى سجله ابن جبير فى القرن السادس الهجرى .

وغنى عن البيان ان ما تعرض له هؤلاء القادمون على مصر كان بسبب مجيئهم على احدى مراكب الافرنج وقد كانوا فى حالة حرب مع مصر ، وكان لابد من الحذر من الجواسيس والمؤامرات .

ثم يصف لنا ابن جبير احوال الاسكندرية فيقول :

ومن الغريب من احوال هذا البلد ان الناس تتصرف فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع احوالهم . وهو من أكثر بلاد الله مساجد ، حتى ليقول البعض ان بها اثنى عشر ألف مسجد والمقل يجعلها ثمانية آلاف . وبالجملة فهى كثيرة جدا تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع واحد ولكل منها ائمة مرتبين من قبل السلطان يتقاضى الامام منهم خمسة دنانير فى الشهر .

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة الى سلطانه ، المدارس المقامة لأهل الطب والتعبد .. فيفدون من الاقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم اطباء يتفقدون احوالهم ، وتحت ايديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب ايضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون الى الأطباء احوالهم ليتكلفوا بمعالجتهم ، ومن أعظم الأعمال فى هذه الناحية ايضا أن عين السلطان لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل انسان مهما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم انسانا امينا من قبله فقد ينتهى الى الف خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة .

وعلى هذا الغرار يمضى ابن جبير فى رحلته ، يصف لنا مدينة القاهرة والفسطاط وما استوقفه منها ، والطريق من قوص الى عيذاب مما لا يتسع المجال الا لمجرد الاشارة اليه .

العلاقات بين المسلمين والصليبيين فى الأرض المحتلة :

على اننا لانستطيع الا ان ننقل عن ابن جبير صورة أخرى حية عن نوع الحياة

التي كان يحياها سكان البلاد الذين وقعوا تحت حكم الصليبيين ، وكيف كانت تسير الحياة اليومية ونوع العلاقات بين المسلمين والصليبيين فيقول :

ومن اعجب ما يحدث ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقى الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا ذلك فى جمادى الأولى (٥٧٩) عندما خرج صلاح الدين يجمع عساكره لمنازلة حصن الكرك وهو من أكبر حصون النصارى ، والمعترض فى طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم وهو عظيم الاتساع متصل العمارة حتى ليشمل أربعمائة قرية ، فنازله السلطان صلاح الدين وضيق عليه وطال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك . وتجار النصارى لا يمتنع احد منهم بغير حق ، وللنصارى على المسلمين جزية يؤدونها فى بلادهم . وتجار النصارى يؤدون فى بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم الاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس فى عافية والدنيا لمن غلب .

هذه سيرة اهل هذه البلاد فى حربهم وفى الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار .. فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلما او حربا . وشأن هذه البلاد فى ذلك اعجب من أن يستوفى الحديث عنه .

١١٨٥ م ــ ٥٨١ هـ ــ دخول الموصل فى سلطان صلاح الدين :

اعاد صلاح الدين فى هذه السنة الحصار على مدينة الموصل للاستيلاء عليها وضاق عز الدين مسعود صاحب الموصل بهذا الحصار فعرض على صلاح الدين أن يبايعه ويصبح تابعا له ويدعو له على المنابر ويضرب السكة باسمه ، وينزل لصلاح الدين عن كل ما وراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة ، وان يكون تحت أمره وجنوده ، اذا ندبه لقتال الصليبيين .

وقيل ان صلاح الدين قد رفض هذا الصلح فى بادىء الأمر بناء على مشورة قواده ، الذين ابوا الا ان يكون التسليم بدون قيد أو شرط ، ولكن صلاح الدين لم يكن يرى فى هذه الحروب الداخلية الا سبيلا لجمع الكلمة لمواجهة المهمة المقدسة ، وقبل الصلح وابرمه .

توحيد الجبهة الاسلامية :

وهكذا تحقق على يدى صلاح الدين ، ما سعى الى تحقيقه عماد الدين زنكى وابنه نور الدين من بعد ، وهو توحيد الجبهة الاسلامية لمواجهة قوى العدوان الصليبية .

مرض صلاح الدين :

لم يكد صلح الموصل يحقق وحدة الدولة الاسلامية تحت لواء صلاح الدين ، حتى أصيب بمرض أوشك أن يودى بحياته ، ويقول المؤرخون الذين كانوا يحيطون بصلاح الدين فى هذه الفترة انه نذر الى الله ، لئن شفاه الله من مرضه ، أن يجعل كل همه قتال الافرنج ولا يقاتل مسلما أبدا وأن يجعل مهمته المقدسة هى فتح بيت المقدس ولو صرف فى سبيل ذلك جميع ما يملكه من أموال وذخائر .

واستجاب الله الدعاء فبرىء صلاح الدين من مرضه ، وأصبح عليه أن يفى بنذره .

١١٨٧ م – ٥٨٣ هـ : البرنس أرناط ينقض الهدنة ويشعل نار الحرب :

كان يحول دون انقضاض صلاح الدين على الصليبيين ، ابرامه هدنة بينه وبينهم مدتها أربع سنوات ، وكان صلاح الدين ممن يحترمون العهود والمواثيق .

وشاء القدر أن يهيىء لصلاح الدين فرصته ، دون أن يكون هو الناكث بالعهد فقد تحرك البرنس أرناط صاحب مشروع غزو مكة والمدينة ، تحرك فى حماقة تجعل كل مؤرخى الصليبيين يندون به ويحملون عليه ، اذ كان هو مشعل نار الحرب التى انتهت بهزيمة الصليبيين الساحقة .

فقد انقض ارناط على قافلة تجارية مسلمة كانت فى طريقها من مصر الى الشام (١) . وقد رأينا كيف أشاد ابن جبير بحالة الأمن التى كان يتمتع بها التجار حتى فى أثناء الحرب ، فكيف وقد كانت هناك هدنة بين المسلمين والصليبيين .

لم يأبه أرناط لذلك كله ، واستولى على القافلة وكل من فيها وراح يقول لضحاياه الذى اختار أن يقتلهم : أين محمدكم .. أين رسولكم ، دعوه يأتى لنصركم .

وغضب صلاح الدين لهذه الفعلة ، وكانت كافية لكى تحله من عهده مع الصليبيين ، ولكنه لم يشأ أن يتسرع الا بعد أن ينذر ويقدر فكتب الى ارناط يعنفه على هذا التصرف ، ويطلب منه الافراج عن الأسرى ، ورد الأموال المنهوبة ، وتعويض القتلى ولكن ارناط أصم أذنيه عن سماع صوت العقل ومضى فى تحديه فلم يبق سبيل غير الحرب .

---

(١) قال بعض مؤرخى الصليبيين ، أن أخت صلاح الدين كانت فى هذه القافلة ، ولكن هذه الواقعة لم يشر اليها أى من معاصرى صلاح الدين وملازميه .

موقعة حطين :

جمع صلاح الدين جيوشه من مختلف أطراف المملكة وزحف بهم في أوائل هذه السنة نحو مدينة طبرية ليستولي عليها ليضطر الصليبيين للمجيء للدفاع عنها ، فيستدرجهم بذلك الى المكان الذي اختاره للدخول معهم عليه في المعركة ، والاجماع منعقد بين مؤرخي الصليبيين على اطراء قدرة صلاح الدين ومهارته العسكرية في اختيار مكان موقعة حطين ونجاحه في استدراج الصليبيين اليها .

واستولى صلاح الدين على مدينة طبرية « دون قلعتها » كما تقضي خطته وبدأ يحصن الموقع الذي اختاره لتدور الموقعة فيه فجعل طبرية الى ظهره ، ثم اتجه نحو الغرب فأفسد كل مياه الآبار في هذه المنطقة ، حتى يعاني الصليبيون الظمأ اذا فكروا في الانتقال اليه .

وكان الصليبيون عندما سمعوا بحشد صلاح الدين لجيوشه ، قد حشدوا قواتهم بدورهم عند مدينة صفوريه تحت قيادة ارناط صاحب الكرك وجي ملك بيت المقدس وريموند صاحب طرابلس .

وقد حملوا معهم صليب الصلبوت المقدس ليكون عدتهم وسلاحهم في المعركة الفاصلة التي قرروا أن يخوضوها مع صلاح الدين .

وعندما وصل اليهم نبأ استيلاء صلاح الدين على طبرية ، انقسموا الى رأيين فكان رأي البعض أن يظلوا حيث هم في صفورية حتى يكون صلاح الدين هو البادىء بالهجوم عليهم فيقطع المسافة بين طبرية وصفورية وهي صحراء جرداء فتصل قواته منهوكة متعبة ، ولكن أرناط المتحمس ، وفرسان الداوية والاسبتالرية أبوا الا أن يكونوا هم المهاجمين ، وأن يباغتوا صلاح الدين عند طبرية ، قبل أن يستكمل استعداده وتصل اليه الامدادات التي كانت تترى عليه .

وبدأت الجيوش الصليبية مسيرتها من صفوريه قاطعة ستة عشر ميلا وكان الوقت صيفا (شهر يوليو) وقد عز الماء لدى الصليبيين ، فلما وصلوا الى تل حطين بالقرب من طبرية كان السير قد أنهكهم ونال الظمأ منهم فأسرعوا الى الآبار الموجودة في غرب المنطقة فوجدوها كلها مخربة ولا ماء فيها فحاولوا الاقتراب من بحيرة طبرية بالليل فصدتهم الجيوش الاسلامية .

وبدأت المعركة صبيحة اليوم التالي ٢٥ ربيع الثاني (٥ يوليو) وقد بلغ الجهد بالصليبيين مبلغه اذ اجتمع عليهم الانهاك والظمأ والقلق وأحرق صلاح الدين الحشائش الجافة التي تحيط بمعسكرهم فأحاطت بهم النيران وزادت من خطورة موقفهم ، فانحازوا الى تل حطين ، ولكن جيوش صلاح الدين لاحقتهم عند التل فأوقعت بهم مذبحة عظيمة ، بحيث لم ينج منهم أحد الا بالوقوع في الأسر ، بحيث يقول ابن الأثير ان من كان يرى القتلى كان يتصور أنه لم يكن هناك أسرى ، ومن يرى الأسرى يتصور أنه لم يكن هناك قتلى .

ووقع كل رؤساء الصليبيين وقادتهم فى الأسر ، لم ينج منهم سوى ريموند ملك طرابلس ، والذى هيأ له المسلمون فى بادىء المعركة فرصة الخروج من الحصار فأسرع الى مدينته تاركا أصحابه وزملاءه يصلون حر المعركة ، ومما يرمز لهزيمة الصليبيين الساحقة ، سقوط صليب الصلبوت فى أيدى المسلمين وكان ممن وقعوا فى الأسر الملك جى صاحب بيت المقدس ، وارناط صاحب الكرك ، وجىء بالرجلين أمام صلاح الدين ، فراح صلاح الدين يذكر ارناط بأفعاله الأثيمة ، وسخريته بمحمد وقال له ها أنذا أنتصر وأنذره انه قد أقسم اذا أمكنه الله منه ان يقتله بيده ..

وها هى الفرصة جاءت ، ولكنه يستطيع أن ينجو بنفسه اذا هو آمن برسالة محمد ، ولكن ارناط رد عليه فى صلف وتعال ، فقتله صلاح بيده .

ويقول المؤرخون المعاصرون ان الملك جى ارتعدت فرائصه وظن أن دوره قادم ، ولكن صلاح الدين هدأ روعه ، وأفهمه أن ارناط قد تجاوز كل عهد وحد ، أما هو فليس له عند صلاح الدين الا كل اكرام .

الاستيلاء على مدن الساحل :

وأسرع صلاح الدين يستغل هذا الانتصار الساحق الذى حصل عليه قبل أن يفيق الصليبيون من الضربة المذهلة ، فأسرع الى مدن الساحل ليستولى عليها قبل أن تخف اليها الامدادات ، فاستولى على عكا فى شهر جمادى الأول وبقية مدن الساحل من يافا جنوبا حتى بيروت شمالا ، وكان من شدة حرص صلاح الدين على الاستيلاء على المدن فى سرعة أنه كان يجيب من فيها الى شرطهم الوحيد للتسليم ويسمح لهم بالتوجه الى مدينة صور ، وهكذا تجمع الصليبيون الناجون من معركة حطين ، والذين جلوا عن المدن الصليبية الأخرى ، فتكون منهم جيش كبير بحيث لم يستطع صلاح الدين أن يستولى عليها عندما اقترب منها ، وآثر أن لا يضيع الوقت أمامها ، فتركها واتجه جنوبا فاستولى على مدينة عسقلان . وهنا يقف ابن الأثير ليندد بصلاح الدين وتركه لمدينة صور ، وسماحه للصليبيين بالتجمع فيها بدلا من ابادتهم ، فلم تلبث صور أن تصبح رأس الجسر الذي يثب منه الصليبيون من جديد .

وبعد أن فرغ صلاح الدين من مدن الساحل ما عدا صور ، انتقل للداخل فراح يستولى على قلاع الداوية والاسبتارية . وقد ساعد صلاح الدين فى الاستيلاء على هذه المدن وهذه القلاع ، انه كان يستولى عليها بغير قتال فى مقابل الافراج عن ملوك الصليبيين ورؤسائهم من الأسر ، وكان صلاح الدين يأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يعودوا لحربه فيقسمون بأغلظ الايمان ، ولكنهم لا يكادون يعودون الى الحرية ، حتى يسرعوا الى مدينة صور متأهبين للحرب والقتال من جديد ضد صلاح الدين .

استعادة بيت المقدس :

وفى أواخر جمادى الثانى من السنة « ٥٨٣ هـ » اتجه صلاح الدين بجيوشه نحو هدفه الأكبر وهو بيت المقدس . بعد أن قطع على المدينة طريق النجدات التى تاتى من مدن الساحل أو من وراء البحار ، ولاتقاء هذا الخطر الأخير أصدر صلاح الدين اوامره لقائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ أن يتولى حراسة الشواطىء ومنع اية سفن من الاقتراب منه .

ولم يحتج حصار القدس واضطرار المدافعين عنها للتسليم كبير وقت فقد كانت معنوياتهم فى الحضيض ، ويئسوا من وصول اى نجدات لانقاذهم فتم الاتفاق بينهم وبين صلاح الدين على تسليم المدينة بالشروط التالية :

ـــ ان يدفع الفرنج عشرة دنانير عن كل رجل وخمسة عن كل امراة ودينارين عن كل طفل فى خلال اربعين يوما ، فمن دفعها خرج آمنا بنفسه وماله ، ويتجه فى سلام وامان الى مدينة صور . اما من يبقى فى المدينة بعد ذلك فانه يؤسر .

ـــ يستثنى من هذا الشرط مسيحيو البلاد الأصليون ، فلهم حق البقاء كرعايا للدولة . وفى ليلة الاسراء والمعراج السابع والعشرين من شهر رجب وكان يوم جمعة دخل صلاح الدين وجيشه الى بيت المقدس وهم يتلون آيات القرآن « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

واكرم صلاح الدين رجال الدين ، حتى لقد سمح للبطريرك ان يخرج من المدينة مصطحبا معه كل أموال الكنيسة وذخائرها ، فلما حاول الحراس أن يمنعوه ، أبى صلاح الدين الا أن ينفذ شرطه ، وخرج البطريرك بهذه الكنوز دون أن يدفع الا عشرة دنانير كأى صليبى آخر فقير .

وكذلك فعل بالنسبة للملكة القدس فسمح لها أن تصحب كل أموالها بالرغم من أن زوجها الذى كان قد لحق بصور نكث بعهده وراح يؤلب على صلاح الدين .

بل ان زوجة ارناط نفسها قد عوملت هذه المعاملة السمحة .

ولقد كان هذا الأسلوب الذى اتبعه صلاح الدين ، مثار سخط معاصريه الذين كانوا يريدون ان يكيلوا للصليبيين بالكيل الذى كالوه للمسلمين عندما فتحوا بيت المقدس ، ونسوا أن صلاح الدين كان بهذه الروح العظيمة يطلع الصليبيين على روح الحضارة الاسلامية ، هادما بذلك كل المزاعم التى كانوا يشيعونها ضد المسلمين لتأليب الأوربيين عليهم ...

وصلاح الدين كان يتأسى فى ذلك ، بسيدنا محمد صلوات الله عليه عند فتحه مكة التي عذبته واشقته ، عندما عفا عن أهلها وقال لهم كلمته الخالدة :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » ...

ولندع الآن رانسمان أحد مؤرخي الحروب الصليبية من الانجليز يصف لنا هذا الموقف :

« كان المنتصرون معقولين وانسانيين ، فبينما خاض الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاما في دماء ضحاياهم نجد في هذه المرة أنه ما من بناء نهب ، وما من انسان أصابه أذى .

وتنفيذا لأوامر صلاح الدين ، انبث الحراس يخفرون الطرق والأبواب ويمنعون أى اعتداء قد يصيب المسيحيين .

وتقدم نساء الفرنج اللائي افتدين أنفسهن الى صلاح الدين والدموع تملأ عيونهن ويسألنه في استرحام ، أين يستطعن الذهاب بعد قتل أزواجهن أو آبائهن أو وقوعهم في الأسر ، فأطلق صلاح الدين كل من كان من أزواجهن في الأسر ، أما الأرامل واليتامى فقد منحهن منحا تتناسب مع مكانتهن من أمواله : لقد كان عفوه ولطفه يتباين تباينا واضحا مع أفعال المسيحيين الغزاة في الحملة الصليبية الأولى .

وأعاد صلاح الدين الى مدينة القدس طابعها الاسلامى وأصدر أوامره بترميم ما تصدع من مؤسساتها الاسلامية ، وخاصة بيت المقدس ، وحمل الى المسجد العظيم محرابا كان السلطان نور الدين قد أعده ليضعه بنفسه في المسجد الاقصى ، وانشأ بالمدينة المدارس الدينية ، كما انشأ بها بيمارستانا لعلاج المرضى .

حتى اذا فرغ مما يجب عمله لاحياء المدينة المقدسة كأحد مراكز الاشعاع الاسلامى ، عاد يستأنف تحرير البلاد من بقايا الصليبيين

تطهير عدد من البلاد :

استولى صلاح الدين بمجرد استئنافه لنشاطه العسكرى على مدن جبلة ، واللاذقية ، وصهيون ، وحصن كوكب ، وحصن الكرك العتيد ، وكل ما جاوره من قلاع ، كما استولى على قلعة صفد بحيث لم يبق للصليبيين سوى موقع واحد هو مدينة صور وكان من الممكن أن يسقط بدوره ان عاجلا أو آجلا لولا أن أوروبا الغربية (الصليبية) جاءت تخف لنجدة صليبيى الشرق .

١١٩١ م - ٥٨٧ هـ : الحملة الصليبية الثالثة :

احدث سقوط بيت المقدس دويا في أوربا المسيحية وتحمس القوم حماسا شديدا لضرورة استرداد بيت المقدس بأى ثمن ، وفرض ملوك أوروبا على رعاياهم ضريبة اشتهرت باسم ضريبة صلاح الدين ، أى لتجهيز حملة ضد صلاح الدين .

وتألفت الحملة فى نهـاية الأمر ، على أن المؤرخين يقرون أن عاملا سـياسيا قد اشترك فى تأليفها فوق العامل الدينى ، اذ وجد فيها كل ملوك أوربا فرصة لتحقيق أهداف سياسية خاصة .

وقد اشترك فى هذه الحملة الصليبية الثالثة ، ثلاثة من أعظم ملوك أوربا فى هذه الفترة وهم : فردريك بربروسا ملك ألمانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وقد انفرد كل من هؤلاء الملوك الثلاثة بالعمل ، مما أضعف فاعلية هذه الحملة على قوتها وضخامتها وخطرها على الاسلام .

ـــ فردريك بربروسا ، امبراطور الدولة الرومانية المسيحية وتسميه المراجع العربية « ملك الألمان » وقد اشترك فى الحرب بصفته امبراطورا وزعيما تقليديا للعالم المسيحى فى الحرب :

وقد تحرك الامبراطور فردريك بربروسا على رأس جيش ضخم منظم أحسن تنظيم ومسلح أقوى تسليح ، والمراجع الأوربية تقدر قوة هذا الجيش بمائة ألف مقاتل ، ولكن المراجع العربية ، تقدر هذا الجيش بمليون ، والتقدير الأول هو الأصح بطبيعة الحال وليست كثرة العدد التى تنسبها المراجع العربية للجيش الألمانى ، الا احدى صور الفزع والهلع الذى استولى على المسلمين فى ذلك الوقت عندما تسامعوا بزحف هذا الجيش .

بل ان امبراطور بيزنطة كان أشد وجلا من المسلمين أنفسهم من جراء هذا الجيش حتى لقد وجد من مصلحته أن يحالف صلاح الدين ضده فكتب له يتبرأ من أن يكون ضالعا مع هذا الجيش ، واكد أنه سوف يحول بينه وبين المرور داخل بلاده .

واظهارا للود والتحالف بين الطرفين ، اتفق على ان يسلم صلاح الدين كنيسة القيامة فى بيت المقدس لرجال الكنيسة الأرثوذكية البيزنطية ، فى مقابل أن يصبح لصلاح الدين حق الأشراف على الجالية الاسـلامية فى القسطنطينية وعلى جامعها ولذلك فقد بادر بارسال خطيب ومؤذن للمسجد فكان دخولهما القسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام .

فشل حملة بربروسا :

على ان المقادير شاءت ان يخذل فردريك بربروسا فلا يصل الى أرض المعركة اذ مات وهو يحاول عبور احد انهار آسيا الوسطى ، فأدى موته الى تبدد جيشه فلم يصل منه الى ارض فلسطين الا اعداد لايؤبه بها ...

وهكذا تولى الله عن المسلمين تصفية هذا الجيش الضخم الذى توجسوا منه .. بحيث لم يكن سوى صلاح الدين الذى احتفظ بهدوئه وبيقينه ابان هذه الأزمة .

جيش فيلب اغسطس :

أما باقى ملوك أوربا الذين اشتركو فى هـذه الحملة فهم فيلب اغسطس ملك

فرنسا ، وكانت المنافسة بينه وبين ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا فى ذروتها بعد أن زاد في حدتها تلاقيهما فى جزيرة صقلية ، مما حدا بملك فرنسا أن يسبق ريتشارد الى الشرق فوصل الى مدينة عكا فى مرحلة حاسمة قلبت ميزان الحوادث والحرب .

كان الصليبيون كما ذكرنا قد انحازوا جميعا وتجمعوا في مدينة صور ، وعندما وصل اليهم جى ملك القدس بعد أن اطلق سراحه قادهم الى استرداد مدينة عكا ولكن المدينة الحصينة وقفت فى وجههم وجاء صلاح الدين ففرض حصارا على الجيش الصليبى المحاصر للمدينة فأصبح الصليبيون محصورين بين نارين نار المدافعين عن المدينة من الداخل ، وجيش صلاح الدين من الخارج .

واستمر الوضع على هذا الحال طوال عامين ، أوشك فيهما الصليبيون على التداعى والانهيار ، فجاء مقدم لويس أغسطس بمثابة نجدة جديدة قوت من عزائمهم وشدت أزرهم .

ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا :

وتسمية الكتب العربية الانكثير او الانكثار ، أو الانكلتير . وقد أدت منافسته لفيليب اغسطس لأن يتخلف عنه ثم سار فى أسطول انجليزى بحرى قاصدا مدينة عكا فى فصل الربيع من هذه السنة وقد استولى فى الطريق اليها على جزيرة قبرص ، ولم يلبث أن باعها الملك القدس السابق جى دي لوزنيان ، فأصبحت مركز دولة القدس الصليبية وظلت منذ ذلك التاريخ تلعب دورا فى الحروب الصليبية حتى بعد ان انتهت فى فلسطين والشام .

سقوط مدينة عكا من جديد بيد الصليبيين :

فى السابع عشر من جمادى الثانية من هذه السنة « ١٢ يوليو سنة ١١٩١ » سقطت مدينة عكا بيد الصليبيين ، بعد أن وصل اليها ريتشارد بأسطوله الضخم الذي أحكم الحصار على المدينة من ناحية البحر فى وجه الأسطول الاسلامى .

وتغص كتب التاريخ بتفصيل ملحمة القتال التى دارت حول مدينة عكا خلال حصارها الطويل وكيف أبدي الطرفان من ضروب الشجاعة والفدائية ما لم يسمع بمثله .

وكان من بين هذه المواقف البطولية ، ان أرسل صلاح الدين فى أحد المراكب ستمائة وخمسين رجلا على احدى المراكب ليكونوا أمدادا للمقاتلين فى المدينة مع كمية ضخمة من الأسلحة والدخائر والمؤن ، فأحاطت بهم مراكب الأسطول الانجليزى فلما أيقن القوم أنه لم يعد أمامهم مناص من التسليم آثروا ، أن يثقبوا سفينتهم وأن يغرقوها بكل ما فيها ومن فيها وهكذا ذهب الى قاع البحر هذا العدد الكبير من الشهداء حتى لايقعوا فى يد العدو وليحرموه مما في السفينة من أسلحة ومؤن .

كما احتفظ التاريخ بأسماء أبطال من الشعب مثل « عيسى العوام » والذي كان يخترق حصار الأساطيل الانجليزية وينفذ الى المدينة المحاصرة ويخرج منها حاملا منها واليها الرسائل والأنباء .

واستسلمت المدينة في خاتمة المطاف بعد ان عجز صلاح الدين عن فك الحصار عنها وخاصة بعد وصول جيوش فرنسا وانجلترا .

١١٩٢ م ــ ٥٨٨ هـ صلح الرملة :

استمرت الحرب بعد سقوط عكا قاسية عنيفة ، وكانت سجالا بين الطرفين ينتصر الصليبيون فيها حينا وصلاح الدين حينا آخر ، ولم يلبث الخلاف بين فيليب اغسطس وريتشارد أن احدث أثره في تفكيك الجبهة الصليبية فانسحب فيليب اغسطس الى فرنسا معتبرا انه انهى مهمته بالاستيلاء على عكا .

وبقى ريتشارد قلب الأسد زعيما للقوى الصليبية المحاربة . وتغص انباء هذه الفترة بأحاديث المفاوضات والمناورات والملاحظات بين صلاح الدين وريكاردوس ، حيث كانا يتهاديان ويسأل كل منهما عن صحة الآخر ، حتى ليبعث صلاح الدين بطبيب لعلاج ريكاردوس كما أرسل له فواكه على سبيل الهدية .

على أن قمة الدبلوماسية فى هذه المرحلة لاتتجلى فى أمر قدر مااقترحه ريتشادر لسوية النزاع بطريقة سليمة ، وملخص هذا الاقتراح أن يتزوج العادل اخو صلاح الدين الأميرة جوانا أخت ريتشارد وأرملة ملك صقلية ، على أن يقوم الزوجان بحكم دولة فلسطين بما فيها بيت المقدس والمدن الساحلية .

ومن عجب أن هذا الاقتراح الجرىء قد حظى بموافقة العادل وصلاح الدين نفسه وكان يمكن ان يتحقق لولا أن الأميرة جوانا رفضت تحت ضغط وارهاب رجال الدين الذين خوفوها بعذاب جهنم وبئس المصير اذا هى تزوجت بمسلم كافر .

ولعل مجرد صدور هذا الاقتراح من ملك انجلترا ، يدل على الشوط الكبير الذى قطعه التقارب بين الغرب المسيحى والشرق الاسلامى وأن الفضل فى ذلك انمايرجع فى الدرجة الأولى لشخصية صلاح الدين وروحه السمحة التى عامل بها اعداءه .

وكانت هذه المحاولات الدبلوماسية والمفاوضات والمناورات تتخلل الجهود المستمرة التى يبذلها الطرفان فى المعارك التى لم تتوقف ، استطاع صلاح الدين خلالها أن يستولى على مدينة يافا بعد حروب لم تدم سوى ثلاثة أيام مما أذهل الصليبيين على انهم لم يلبثوا أن استردوها .

وفى معركة عند مدينة أرسوف كاد صلاح الدين نفسه أن يهلك حيث تفرق عنه اغلبية جيشه وبقي في قلة من أصحابه فأدى ثباته الى عودة الجيش وانتصاره .

كما اضطر صلاح الدين لتخريب أسوار عسقلان وتدمير المدن حتى لا تقع في يد الصليبيين كما قلت من ناحية اخرى كل المحاولات التى بذلها ريتشارد للاستيلاء على بيت المقدس .

وطالت غيبة رينشارد عن بلاده ، ووصلته الأنباء من انجلترا عن تآمر أخيه عليه ، فأرسل الى صلاح الدين يحثه على وجوب التوصل الى صلح وكانت الجيوش الاسلامية من ناحيتها قد تعبت من استمرار القتال بلا انقطاع ، وهكذا تلاقت ارادة الطرفين فى الصلح وعلى ذلك تم عقد صلح الرملة فى يوم الثلاثاء ٢١ شعبان من هذه السنة ٥٨٨ هـ — ٢١ سبتمبر سنة ١١٩٢ على الشروط الآتية :

— يحتفظ الفرنج بمنطقة الساحل من عكا الى يافا .

— يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس .

— تكون عسقلان بعد تخريبها وما يليها جنوبا بيد صلاح الدين .

الموقف بعد صلح الرملة :

يلخص لين بول الموقف بعد صلح الرملة على الوجه التالى :

لقد استمرت الحرب المقدسة خمس سنوات ، وقبل المعركة الحاسمة فى حطين « يوليو سنة ١١٨٧ » لم تكن هناك بوصة واحدة من أرض فلسطين غرب نهر الأردن فى يد المسلمين ، أما بعد صلح الرملة فكل فلسطين اصبحت اسلامية ماعدا شريط ضيق على الساحل من صور الى يافا ، ولاسترداد هذا الشريط الساحلى قامت اوروبا كلها تحمل السلاح ، وسقط مئات الألوف من الصليبيين والنتيجة لاتساوى الثمن الذى دفع منها .

أما صلاح الدين فقد خرج من الناحية الأخرى وقد تأكد سلطانه الذى لم يتزعزع وكانت الامبراطورية التى يتربع فوقها والمؤلفة من أمراء واتباع ورعايا من الاكراد والتركمان والسوريين . والعرب والمصريين الذين اندمجوا كلهم فى جيوشه يقفون خلفه ويدعمونه فى اخلاص ووفاء ويترقبون أصغر اشارة منه لكى يندفعوا لتنفيذها

وعندما انتهت الحرب كان صلاح الدين يحكم بغير منازع من جبال كردستان حتى الصحراء الليبية ، ووراء هذه الحدود كان ملوك جورجيا وكاثوليك أرمنيا ، وسلطان قونيا ، وحتى امبراطور بيزنطة شديدى الحرص على محالفته .

لقد عاش حتى رأى انتصاراته وحلم حياته وهو طرد الصليبيين من المدينة المقدسة واعادة الوحدة الى الاسلام .

١١٩٣ م — ٥٨٩ هـ : نهاية بطل :

فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر صفر (٤ مارس) بعد صلاة الصبح لفظ صلاح الدين انفاسه الأخيرة .

يقول ابن شداد : وكان يوم موته يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين « رضى الله عنهم ». وغشى القلعة والدنيا كلها وحشية لايعلمها الا الله تعالى . ولقد كنت اسمع من الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم . وكنت اتوهم ان هذا على ضرب من التجوز والترخص حتى ذلك اليوم ، فقد علمت من نفسى ومن غيرى انه لو قبل الفداء لفديناه بأنفسنا .

ويمضى ابن شداد ليقول :

وقد مات صـــلاح الدين ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرية ، ودرهما واحدا ذهبيا ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقاراً ولا بستانا ولا قرية مزروعة .

وصية صلاح الدين لابنه :

ولست أحسب ان هناك مايصـــور لنا شخصية صلاح الدين وداخلية نفسه ودستوره فى الحكم ، وأعجب من ذلك كله كراهيته للعنف وهو الرجل الذى عاش طول عمره فى الجهاد والحرب من وصيته لابنه كما سجلها ابن شداد :

« أوصـــيك بتقوى الله فانها راس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك . واحذر من الدماء والدخول فيها والتعلق بها فانّ الدم لا ينام وأوصـــيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم فأنت أمينى وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وارباب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس ولاتحقد على احد فان الموت لا يبقى على احد ، وحذار ما بينك وبين الناس ، فانه لا يغفر الا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره بتوبتك اليه فانه كريم » .

حلمه وعفوه :

ولا محل للحديث عن تدينه وصومه وصلاته وورعه ونقواه فحياته كلها حديث عن ذلك وانما الذى يقف الانسان امامه مذهولا مدى مايصور به المصورون حلمه وعفوه فيقول لنـــا معاصروه أن الناس كانت تتزاحم عليه فى بعض المناسبات لتعرض عليه شكاتها فكانوا يدوسون على اطراف ثيابه ، والمرتبة التى يجلس عليها بأقدامهم دون أن يتأثر من ذلك .

ووصل الأمر الى حد ان احد رجاله داس على يده وهو يقدم له عريضة ويطلب منه ان يوقع له عليها فيرد صلاح الدين عليه بقوله :

وكيف أستطيع ان اوقع لك وانت تدوس على يدى ..

ملك العالم الاسلامى لايستطيع أن يحج :

وبقى لكى تكمل صورة صلاح الدين ان نذكر هذه الواقعة التاريخية المحققة وهى أن الجهاد شغل صلاح الدين طول حياته عن ان يحج فلما أن عقد صلح الرملة بدأ يتجهز لكى يحقق حلمه فى الحج ، ولكن خزانته كانت فارغة من المال اللازم لكى يحج بما يليق بمثله و ما يتوقعه الناس من احساناته فى هذه المناسبه ، فأرجأ ذلك الى العام التالى ولكن لم يكن هناك عام تال فقد حم القضاء .

وبعـــد :

فان الحديث عن صلاح الدين ذا سعة ، وما قاله خصومه الذين حاربهم من الصليبيين فى فضائله ومزاياه يفوق ماقاله المسلمون . ذلك أن الرجل العظيم تحاك حوله الأقاصيص والأساطير .

ولقد كتبت عن سيرة صلاح الدين عشرات من الكتب ليس اقلها كتاب أخي الشهيد الدكتور مصطفى الوكيل فليرجع اليها من اراد المزيد اما الآن فحسبنا أن نسجل ماعندنا من أن صلاح الدين مات عن سبع وخمسين سنة ، ملك مصر فيها أربعا وعشرين سنة ، وملك الشام مع مصر تسعة عشر عاما .

وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة وكان اكبر اولاده الذكور الملك الأفضل نور الدين والذى يليه العزيز عثمان القائد الظاهر .

١١٩٣ م ــ ٥٨٩ هـ الموقف بعد صلاح الدين :

مات صلاح الدين فى مدينة دمشق ودفن بها وكان ابنه الاكبر الأفضل نور الدين ملكا على دمشق ، وهو الذى اشرف على تجهيز جنازة والده ، وجلس يتقبل العزاء فى ابيه وحوله كبار أمراء الدولة .

على أن اخاه الثانى الملك العزيز عثمان ، كان يتربع على عرش مصر نيابة عن ابيه ، ومن حوله جمهور العسكر الصلاحية والاسدية والاكراد وفى حلب وما يحيط بها الملك الظاهر غياث الدين الابن الثالث لصلاح الدين .

وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية اخو صلاح الدين الملك العادل سيف الدين .

وباقى اجزاء الدولة ولايات صغيرة او ممالك كما كانت تسمى يحكمها أفراد من مختلف فروع الأسرة وكان أهمها مملكة حمص وكان يليها افراد من أسرة أسد الدين شيركوه ، ومملكة حماه ويليها أفراد من أسرة تقى الدين عمر بن شاهنشاه .
وكان اشد مايهدد العالم الاسلامى ان تقع الفرقة بين افراد الاسرة الواحدة ، وتضيع مع الخلافات مصالح الدولة .

وكتب التاريخ تتحدث كثيرا عن حكمة القاضي الفاضل وزير صلاح الدين في مصر ، وعن اخلاصه وافتدائه . وليس هناك مايكشف عن شخصية القاضي الفاضل وانه كان نعم المستشار لصلاح الدين ، من أنه عندما مات صلاح الدين بعث الى ابنه الملك العزيز عثمان في مصر خطابا صور له هول الفاجعة التي المت بالمسلمين بوفاة صلاح الدين .. ثم ختم خطابه بالعبارة الثمينة التالية :

« واما لائح الأمر فانه ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائب المقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم » .

دب الخلاف بين أولاد صلاح الدين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين عمهم العادل ، وأوشكت الدولة الاسلامية الموحدة أن تتمزق وتتفرق،ولم يحل دون وقوع الكارثة الا أن هيبة صلاح الدين بعد موته وعظمة شخصيته ظلت تفرض نوعا من التوجيه على امرائه ورجاله وأبنائه .

فقد كان من حسن المقادير أن عقد صلح الرملة قبل وفاته مباشرة وانصرف ريتشارد قلب الأسد عائدا الى بلاده انجلترا ، فوقع أسيرا في الطريق ، وكان الصليبيون الذين ظلوا في الشريط الساحلي من الضعف والهوان ، بحيث لم يكن باستطاعتهم أن يستفيدوا من الاضطراب الذي ساد الموقف بعد موت صلاح الدين واختلاف أبنائه ..

ومن حسن المقادير أيضا ، ان كان هناك الملك العادل اخو صلاح الدين ، حيث تدخل لانقاذ الموقف ، عندما بدأت الأحوال تبلغ اشد درجات السوء وتهدد بانحلال الدولة .

وسوف نرى كيف توصل العادل الى ذلك من خلال الدهاء والصبر واستعمال الحيل والمناورات السياسية ، واقصى ما يمكن أن توصل اليه الدبلوماسية .

سلطنة العزيز على مصر :

كان العزيز عثمان سلطانا على مصر في حياة أبيه بالنيابة ، فلم يكد صلاح الدين ينعى،حتى بادر أمراء مصر وقضاتها وأعيان الدولة بمبايعة العزيز عثمان خلفا لأبيه. وكان عمره وقتذاك اثنين وعشرين عاما .

وكان هناك اجماع على أن مصر هي الدولة الأم ولذلك فقد اعتزت سائر الأطراف بهذه السلطنة على الأقل من الناحية الشكلية وأصدرت دمشق عملة في هذه السنة ٥٨٩ هـ وعليها اسم العزيز عثمان كسلطان للدولة كلها .

على أن الملك الأفضل كان يعتبر نفسه الملك الفعلي لدمشق والشام .

وقد حدث بمجرد المناداة بالعزيز عثمان سلطانا على مصر أن أغار الصليبيون على بلدة جبلة واحتلوها .

فخرج العزيز عثمان بجيشه من مصر بحجة التصدى لحرب الصليبيين ، ولكن هدفه الحقيقى كان هو الاستيلاء على دمشق وضمها الى ملكه وتعيين نائب عليها من طرفه. وحاصر العزيز عثمان دمشق بجيشه بالفعل وكاد الاصطدام يقع بين العزيز عثمان وأخيه الأفضل الذى استغاث بعمه وبقية اخوته ..

ونجح الملك العادل فى الصلح بين الأخوين .

واعاد العزيز عثمان بجيشه الى مصر ، بعد أن زوجه ابنته .

يقول أبو الفدا فى تاريخه : واقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغانى والأوتار ليلا ونهارا .

١١٩٥ م ــ ٥٩١ هـ : الملك العادل يصبح وزيرا للعزيز فى مصر :

لم يتم الصلح بين الأخوين الا على دخل ، فقد كانت حاشية كل من الأخوين تحرضه على أخيه تحقيقا لمآربها ، وبذلك فقد زحف العزيز عثمان مرة أخرى على دمشق فى هذه السنة بجيوشه ، ومرة أخرى استنجد الملك الأفضل بعمه ، ومرة أخرى تدخل الملك العادل بمناوراته ، فاستطاع أن يوقع الفرقة فى جيش العزيز عثمان ، فانخذلت عنه الفرق الأسدية (نسبة الى أسد الدين شيركوه) فاضطر العزيز عثمان أن يعود منخذلا الى مصر .

فسار وراءه الملك الأفضل بجيشه حتى وصل مصر واستطاع أن يستولى على مدينة بلبيس . ولكن العادل أقنع الملك الأفضل أن يصطلح مع أخيه واقترح أن يتم الصلح على يدى القاضى الفاضل الذى كان قد اعتزل الحياة العامة لعدم رضائه عن الخلافات التى وقعت بين أبناء صلاح الدين .

وخرج القاضى الفاضل من عزلته واستطاع أن يتوصل الى حل يحقن به الدماء ويرأب الصدع ، وهو أن يعود الملك الأفضل بجيشه الى دمشق ملكا عليها وأن يكون ملك مصر العزيزعثمان على أن يدير شئونه الملك العادل باعتباره وزيرا للعزيز عثمان.

وهكذا سار الملك العادل خطوة جديدة نحو تحقيق أهدافه .

١١٩٦ م ــ ٥٩٢ هـ : استيلاء الملك العزيز على دمشق :

بعد أن أصبح مرد الأمور كلها الى الملك العادل ، فقد بدأ يحرض العزيز عثمان على أخيه الأفضل ، لما تواتر عنه فى تهاونه فى شئون الدولة واقباله على اللهو تاركا الحكم لوزيره ضياء الدين بن الأثير الذى أساء السيرة فى الناس .

ولم يكن للملك الأفضل قبل بمقاومة العزيز عثمان بعد ان أصبح العادل يشد أزره ، ففتحت لهما أبواب دمشق في يوم الأربعاء ٢٦ رجب . وسلم العزيز عثمان دمشق لعمه الملك العادل ليكون نائبا للسلطان عليها وعاد هو الى مصر فى الرابع والعشرين من شعبان .

١١٩٨ م ــ ٥٩٤ هـ : الملك العادل يعيد فتح يافا :

حاول الصليبيون أن يستغلوا عوامل الخلاف بين خلفاء صلاح الدين فجاءت جموع منهم الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت .

ولكن الملك العادل تصدى لحربهم ، ووافته النجدات من مصر فهجم على مدينة يافا فاستطاع أن ينتزعها من يد الصليبيين وأن يستولى عليها وكان هذا هو ثالث فتح لمدينة يافا .

ورد الصليبيون بالهجوم على مدينة نيفين بعد أن توافرت لديهم النجدات ، فسار العزيز عثمان من مصر على رأس جيشه لنجدة عمه ، فلما أن علم الصليبيون بمقدمه انسحبوا خائبين الى قاعدتهم مدينة صور ، فترك العزيز عثمان قيادة الجيش الى عمه ، وفوض اليه أمر الصلح والقتال مع الافرنج ، وعاد هو الى مصر . حيث استقبله الشعب بالاحتفالات والمهرجانات .

وآثر الصليبيون الصلح على الحرب فعقدوا هدنة لمدة ثلاث سنوات عاد على اثرها الملك العادل الى دمشق ، وقد ازداد سلطانا وعزة .

١١٩٩ م ــ ٥٩٥ هـ : وفاة السلطان العزيز عثمان :

فى السابع والعشرين من المحرم ، مات العزيز عثمان ، وكان عمره يوم مات سبعا وعشرين سنة وأشهرا،ومدة ملكه ست سنوات الا شهرا.وقد انفرد ابن اياس من بين المؤرخين بالحملة على العزيز عثمان ومدة حكمه . فقال عنه أنه : أعاد المكوس الذى كان أبوه قد أبطلها وزاد فى شناعتها ، وجاهر بالمعاصى واقام الضرائب الثقيلة على الحشيش والمسكرات ، ووقع فى أيامه غلاء بسبب توقف النيل . واضطربت احوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى .

ولكن سائر المؤرخين يقولون عكس ذلك ، فهذا ابن واصل يقول عنه ، كان فى غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والاحسان اليهم ، فكان الرعية يحبونه محبة شديدة ، وفجعوا بموته فجيعة عظيمة ، وعندما هزمه عمه واخوه الفاضل ، واشرف ملكه على الزوال بذلت له الرعية أموالها ليذب عن نفسه فامتنع مع شدة حاجته الى المال .

ويقرر هذا القول ابو المحاسن ، ويقرر أن امور مصر استقامت فى ايامه وعدل فى الرعية وعف عن اموالها .

وقال مثــل ذلك ابن خلكان .

تولى المنصور محمد بن العزيز عثمان ملك مصر :

اتفقت كلمة الأمراء بموافقة القاضى الفاضــل على اعمال وصية العزيز عثمان بتولية ابنه محمد عرش مصر ، على الرغم من أن سنه لم تكد تزيد على تسع سنين الا بضعة اشهر ، ولقب بالملك المنصــور .

كما تم الاتفاق على أن يكون عمه الملك الأفضل مدبرا للملك (اتابك) وكان يقيم فى مدينة صرخد فبعثوا اليه فوصل الى مصر وتولى ادارة المملكة .

وكان الملك العادل فى ذلك الوقت يحاصر مدينة ماردين . فاقترح الملك الظاهر أخ الملك الأفضل وكان يحكم مدينة حلب كما قدمنا ، ان ينتهز فرصة غياب الملك العادل عن دمشق ويزحف ويستولى عليها ووعده بالمســاعدة .

واستجاب الأفضل الى تحريض اخيه الظاهر فقصد دمشق بالجيش المصرى ولكن العادل كان أسرع منه للوصول الى دمشق فدخلها قبل وصول الأفضل واغلق أبوابها فلم يبق أمام الأفضل الا ان يحاصرها ، ثم خف الملك الكامل ابن الملك العادل لنجدة أبيه واســتطاع العادل ان يوقع بين الأخوين (الأفضل والظاهر) ففشــل الحصار وانسحب الأفضل الى مصر .

ولكن الملك العادل وقد تقوى بجيوش ابنه ، اسرع فى اعقاب الملك الأفضل الذى تفرقت عنه الجيوش بمجرد مقدم عمه . وتم الاتفاق على أن يدخل الملك العادل الى مصر ، وأن ينسحب منها الأفضل فى مقابل أن يلى حكم بعض البلاد فى شمال الشام (ميافارقيه وسمسياط) وفى الحادى والعشرين من ربيع الآخر ، دخل الملك العادل الى القاهرة اتابكا ومدبرا لشئون الملك الصغير على مصر والشــام .

وفاة القاضى الفاضــل :

وفى ذات الليلة التى كان العادل يدخل فيها الى القاهرة ، كانت جنازة القاضى الفاضل تسير به نحو لحده .. وكان ذلك استجابة لدعاء دعا به الى الله ان لا يدعه تحت رحمة العادل ، فقد كان العادل قد اضمر به شرا عندما اقترح أن يكون الأفضل هو مدبر شــئون الملك المنصــور .

والقاضى الفاضل هو ابو على محيى الدين عبد الرحيم من مواليد مدينة عسقلان عام ٥٢٩ هـ ارسله أبواه الى ديوان الانشاء بالقاهرة فى اواخر العهد الفاطمى فاشتغل بالأدب وحفظ القرآن ، ووصــل بنبوغه الى حد ان اصبح متولى ديوان الجيش الفاطمى على عهد الخليفة العاضد، ثم نقل الى ديوان المكاتبات فلما تولى اسد الدين شيركوه الوزارة الفاطمية واحتاج الى كاتب ارسل اليه القاضى الفاضل . وعندما

تولى صلاح الدين الملك عهد اليه بديوان الانشاء فأخلص فى تعليم صلاح الدين أسرار الحكمة وقواعد الادارة ، وقدم اليه أجل الخدمات . فاتخذ منه صلاح الدين وزيرا له وناصحا ومستشارا ، فأخلص العمل واصدقه .

وتعتبر كتاباته التى تملأ مئات المجلدات (على ما قيل) أو بالأخرى ما بقى منها من اكبر مصادر تاريخ هذه الفترة من حياة مصر والشرق العربى .

خلع المنصــور وتســلطن العادل :

خطا الملك العادل خطوته الأخيرة التى عمل لها جاهدا منذ وفاة أخيه صلاح الدين وهو أن يكون وريثه ، فجمع الأمراء والقضاة والفقهاء وقال لهم انه : قبيح به أن يكون اتابكا لصبى صغير مع شيخوخته وتقدمه والملك ليس بالارث ، وانما هو لمن غلب .

ولقد كان يجب ان يكون هو السلطان بعد وفاة أخيه صلاح الدين . ولكنه ترك ذلك اكراما لأخيه ورعاية لحقه . فأما وقد حصل ما حصل من خلافات تهدد بخروج الملك كلية من أسرة صلاح الدين فلم يبق الا أن يقوم هو بالحكم وينهض بأعبائه . فأقره المجتمعون على قوله .. وفى الحادى والعشرين من شوال من هذه السنة قطع العادل الخطبة عن المنصور بن العزيز ، خالعا اياه من الملك الذى لم يدم الا سنة وتسعة أشهر وداعيا لنفسه .

١٢٠٠ م ٥٩٧ هـ : مجــاعة وقحط فى مصر :

على ان الأقدار عبست فى وجه الســـلطان العادل ، فقد اســـتهل انفراده بالحكم بفترة من المجاعة والقحط وتحالف معها الزلزال الذى أصاب البلاد فانتهى ذلك الى كارثة مخيفة يفيض المؤرخون على عادتهم فى وصف أهوالها فيقول لنا المقريزى إن العادل وحده كفن فى مدة يسيرة مائتين وعشرين الفا من الموتى .

عبد اللطيف البغدادى :

واذ كان عبد اللطيف البغدادى الرحالة الثقة قد عاش فى مصر فى هذه الفترة فقد رأينا أن ننقل بعض ما قاله لتصوير نوع ما كانت تتعرض له البلاد فى هذه الحقبة من التاريخ ، اذ تخلف النيل عن الفيضان بعض سنوات متعاقبة ، فكادت البلاد تخرب ليس فقط نتيجة من يموتون بل نتيجة من يهاجرون منها بالجملة ويدعونها خرابا . يقول عبد اللطيف البغدادى :

« كانت القرية تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنه (أى خراب) وربما وجد فيها أحد وربما لم يوجد . أما مصر فخلا معظمها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة والمقس وماتاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلا ، بعد

ما كان كل قصر منها قدر مدينة مزدحمة بالناس . وحتى الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة اصبح اكثرها خاليا وخرابا . وأن ربعا في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية سوى أربعة بيوت أسكنت بمن يحرس الموقع .

ولا يفوت عبد اللطيف البغدادي أن يحدثنا عن الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية الخالدة وهي أن مصائب قوم عند قوم فوائد فيقول :

وبما يقص به العجب ان جماعة من الذين مازالوا مجددين سعدوا في دنياهم في هذه السنة ، فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح . ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ، ومنهم من حسنت أحواله لغير سبب معروف ، فتبارى من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته بسط .

من حوادث الجوع :

ثم يروح عبد اللطيف البغدادي يصور لنا بعض الحوادث المتكررة التي رآها بعيني رأسه :

ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظهر معها (طفل) صغير مشوى تأكل منه ، واهل السوق ذاهلون عنها ويقبلون على شئونهم وليس فيهم من يعجب لذلك او ينكره . فعاد تعجبي اشد وماذلك إلا لكثرة تكراره على أحاسيسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه .

اختلال الأمن :

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ، ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية . وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الأجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم واقتسموا أسلابهم .

وظفر الوالي منهم بجماعة فمثل بهم واقر بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذي خصه دون رفاقه ستة آلاف دينار .

جثث الموتى في الطرقات :

اما عن موت الفقراء هزالا وجوعا فأمر لا يحيط بعلمه الا الله سبحانه وتعالى . والذي شاهدناه بمصر (أي الفسطاط) والقاهرة ، ان الماشي ابن كان لايزال يقع قدمه او بصره على ميت — ويرفع من القاهرة خاصة الى الميضأة كل يوم ما بين مائة الى خمسمائة .

واما مصر (الفسطاط) فليس لموتاها عدد ، ويرمون ولا يواريون . وفي الآخر عجز عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين . بحيث قد يوجد الميت . والى جانبه الشواء والخباز ونحوه .

وهــذه الصورة التى برسمها لنا عبد اللطيف البغدادى على بشاعتها تتسم بالدقة ، كما يبدو من سياقها ، اما غيره من المؤرخين فيعممون الكلام ويرسلونه ارسالا ، ويسردون من الوقائع ما يقف الانسان أمامه حائرا لا يعرف كيف تستمر الحياة بعد هذا الذى يقولونه : من ان الرجل كان يذبح ولده الصغير وأمه تساعده فى طبخه وشيه .

أو أن الرجل كان يدعو أعز الناس لديه ثم يذبحه ويأكله : وان ذلك ــ كان عاما وشائعا .

وفاة بهــاء الدين قراقوش :

وفى هذه السنة توفى بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الاسدى الخام الخصى وهو الذى بنى قلعة الجبل والسور على مصر والقـــاهرة والقنطرة التى عنــد الاهرام وغير ذلك .

وكان صلاح الدين يثق به ويعول عليه ، ولمــا فتح عكا سلمها اليه ، ثم لمــا استولوا عليها وأخذوه أسيرا فاداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار ، وقيل ستين الف دينار .

يقول ابن خلكان : والناس ينسبون اليه أحكاما عجيبة : ابان توليه نيابة مصر عن صلاح الدين : حتى ان أسعد بن مماتى الشاعر الف عليه كتابا لطيفا سماه « الفاشوش فى أحكام قراقوش » وفيه أشياء يستبعد وقوعها منه : والظاهر أنها موضوعة ، فان صـــــلاح الدين كان يعتمد فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه .

وفاة العماد الكاتب :

كما مات فى هذه السنة بمدينة دمشق عماد الدين الكاتب محمد بن عبد الله ابن حامد الاصفهانى الذى كتب لنور الدين ومن بعده لصلاح الدين ولازمه فى السلم والحرب وحضر معه معركة حطين واستعرض الاسرى واحدا واحدا ، وكتب البشارة بالفتح الى سائر الجهات .

وقد لزم داره بدمشق بعد وفاة صلاح الدين وعكف على التأليف .. فألف خمسة مؤلفات تاريخية أشهرها « الفتح القسى فى الفتح القدسى » وخصصه لسيرة صلاح الدين منذ عام ٥٨٣ هـ حتى انتهى به فى عام ٥٨٩ هـ عند وفاته كما ألف كتابا فى الادب أسماه خريدة العصر صور فيها أعمال صلاح الدين وحروبه تصويرا أدبيا رائعـــا .

١٢٠١ م ــ ٥٩٨ هـ ــ خروج العادل الى الشام لحرب ابناء صلاح الدين :

لم يرض ابناء صلاح الدين ، الملكان الأفضل والظاهر استئثار عمهما العــادل بملك مصر والشام : فاتفقا على أن يخلعاه عن ملك الشام بالاستيلاء على دمشق فقصدا المدينة وحاصراها ، وأوشكا أن يستوليا عليها ، ولكن العادل استطاع كما

هو دابه ، أن يوقع من جديد بين الاخوين ، فارتدا عنها قبل وصول الملك العادل نفسه الى دمشق : وعاد الملك الافضل الى صرخد ، بينما عاد الملك الظاهر الى دولته فى حلب .

ومع ذلك فقد قصد السلطان العادل الى دمشق فدخلها واستقر بها ثم توجه نحو حلب لحرب الملك الظاهر بها ، حتى اذا وصل الى حماه ، تدخل الوسطاء فعقد الصلح بين السلطان العادل وابنى صلاح الدين .

غارات الصليبيين :

ولكن هذه المنازعات شجعت الصليبيين على شن سلسلة من الهجمات على القواعد الاسلامية فى الشام ومصر ، فأغار أسطول صليبى على مصر ودخل فرع النيل برشيد حتى وصل الى مدينة فوه فنهبوها وقتلوا من قدروا عليه من سكانها ، وظلوا مرابطين فى المدينة خمسة أيام : حتى اذا ــ سمعوا باقتراب الجيش منهم انسحبوا من المدينة .

وفعلوا مثل ذلك بأكثر من بلد من بلاد الشام وفلسطين ، فجنح السلطان العادل الى مصالحتهم وعقد هدنة معهم ، وتمت الهدنة بالفعل (٦٠١ هـ) على أساس أن يتنزل العادل للصليبيين عن مدينة يافا التى فتحها ونصف مدينتى اللد والرملة .

وبعد أن أبرم العادل هذا الاتفاق عاد الى مصر .

١٢٠٤ م ــ ٦٠١ هـ ــ الحرب الصليبية الرابعة :

انتهت الحرب الصليبية الثالثة كما رأينا بصلح الرملة الذى اعتبره المؤرخون الاوربيون انتصارا ساحقا لصلاح الدين وفشلا ذريعا للحملة الصليبية الثالثة ، ولذلك فقد عمل البابا انوسنت الثالث على أن يشعل نار حرب صليبيه رابعة ، ليستعيد سيطرة البابا على الحركة الصليبية أملا منه فى توحيد الكنيستين البيزنطية (الارثوذكسية) واللاتينية (الكاثوليكية) ولكن انوسنت الثالث لم يلق أذنا صاغية هذه المرة من الملوك فقد كان الذى كل منهم ما يشغله ، فالنزاع بين فيليب الثانى ملك فرنسا ، وحنا الثانى ملك انجلترا ، كان يستنفد كل جهودهما .. وكانت الحالة السياسية فى المانيا شديدة الاضطراب . وملوك اسبانيا المسيحيين كانوا فى شغل بحربهم مع مسلمى الاندلس .

وهكذا لم يستجب للبابا سوى الاقطاعية الفرنسية ممثلة فى بعض الامراء .

مفاوضات مع البندقية وانحراف الحملة :

وكانت تجارب الحملات الصليبية السابقة قد دلت الاوربيين على أن مصر هى العقبة فى سبيل استيلائهم على بيت المقدس ، فأصبح هدفهم الاول هو الاستيلاء على مصر ، ولما كان الوصول الى مصر لا يتم الا بحرا ، فقد دخل قادة هذه

الحملة فى مفاوضات مع جمهورية البندقية لتقدم مساعدتها البحرية مقابل ٨٥ ألف مارك ذهبى ، فضلا عن النزول لها عن نصف الغنائم المنتظرة .

ولكن قادة الحملة عجزوا عن تقديم المبلغ الذى تعهدوا به ، فرضيت أن تقوم بتعهدها فى نقل الحملة الى مصر ، اذا استولت على مدينة زارا الخارجة عليها والتى أصبحت تحت حماية ملك المجر . فاستجاب قادة الصليبيين لهذا الطلب واستولوا على مدينة زارا وخربوها .

وقد أهاج هذا العمل الشائن غضب البابا انوسنت الثالث فأصدر قرار حرمان على الحملة الصليبية الرابعة مخرجا اياها من رحمة الكنيسة .

استيلاء الحملة على القسطنطينية :

تصادف أن قام نزاع فى هذه الفترة بين أفراد الاسرة الحاكمة على عرش بيزنطة ووصل أحد الأفراد المتنازعين على العرش الى البندقية بحثا عن أى قوة ترفعه الى العرش ، فاستغل دوج البندقية (داندولو) هذه الفرصة وقد كان بينه وبين بيزنطة منافسات تجارية وسياسية عنيفة ، فأقنع قادة الحملة الصليبية أن يغيروا وجهتهم للاستيلاء على القسطنطينية بدلا من مصر .

واستطاعت الحملة الصليبية الرابعة بالفعل أن تستولى على القسطنطينية وهو أول استيلاء عليها فى التاريخ ، وارتكبوا من الفظائع واعمال التخريب والتدمير والنهب والقتل : ما تغص به كتب التاريخ .

وانشأ الصليبيون امبراطورية لاتينية فى الشرق ، حلت محل الامبراطورية البيزنطية ، واستمرت قرابة خمسين عاما (١٢٠٤ - ١٢٦١ م) وكان بلدوين دى فلاندرز هو أول امبراطور لهذه الدولة . وحل بطريك لاتينى من البندقية محل البطريرك البيزنطى وانتهى بذلك الانفصال الكنسى من الناحية النظرية ، ولكن البيزنطيين أفسدوا جميع المحاولات للتوحيد بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية .

وكان للبندقية ثلاثة اثمان القسطنطينية : فضلا عن مدن أدرنة وغاليبولن وجزيرة كريت والجزر الايونية كلها .

وقد روعت هذه الحوادث أوربا كلها : وانزعج البابا انوسنت الذى كان السبب فى قيامه هذه الحملة الصليبية الرابعة ، فاذا بها تنحرف هذا الانحراف العجيب ، وتصبح نقمة على المسيحيين وليس على المسلمين .

وقد اهتز مركز البابوية وتلطخت سمعة الحركة الصليبية كلها .
وكان لذلك كله الأثر الأكبر : فى النجاح الذى لن يلبث أن يحرزه الاتراك فى زحفهم غربا .

هل كان للعادل اثر فى هذا التحول ؟

ويقول بعض المؤرخين ان سياسة العادل كان لها دور فى تحويل هـذه الحملة الرابعة عن مصر والشام ، فقد أرسل خلال هذه المدة سـفارة الى البندقية تحمل بعض الهدايا ووعد بأن تمنح القاهرة البندقيـة مزايا اسـتثنائية اذا بذل الدوج نفوذه لابعاد الحملة عن مصر . وشك مؤرخون آخـرون فى هـذه الرواية ، ولكن الدكتور الشيال يرجح صـحتها . خاصـة وان العادل يعقد بالفعـل عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) معاهدة مع البندقية يمنحها فيها كثيرا من المزايا التجارية فى الاسكندرية مقابل التعهد بمنع أى حملة صليبية من التوجه الى مصر .

١٢٠٧ م ـ ٦٠٤ هـ ـ الملك العادل يعيد الوحدة الصلاحية :

فى هذه السنة بعث الخليفة العباسى التقليد بولاية مصر والشـام والموصل وخلاط للسلطان العادل ، وخوطب السلطان العادل بشاهنشاه ملك الملوك خليـل أمير المؤمنين .

وقد اقيمت بهذه المناسبة احتفالات لم يسبق لها مثيل فى دمشق ، وصـفها لنا بتفصيل ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب .

اتمام بناء قلعة الجبل واستقرار الكامل بها :

وفى هذه السنة اتم الملك الكامل ابن السلطان العادل والذى كان متولى حكم مصر نيابة عن أبيه : بناء قلعة الجبل التى بدىء بانشائها فى عهد صـلاح الدين وانشا بها مقرا لاقامته وتحول اليها من دار الوزارة بالقاهرة ، فكان أول من سكنها من ملوك مصر .

١٢١٢ م ـ ٦٠٩ هـ ـ حملة الأطفال الصليبيين :

يقف المؤرخ اى مؤرخ مبهـوتا أمام الحادث العجيب فى حيـاة اوربا والذى يعكس ويصور مدى ما كانت عليه ، من جهل وتعصـب وايمان بالخـرافات ، فقد ادعى فى فرنسا صبى من الرعاة يدعى استيفن الفندومى ، أن المسيح أمره بقيادة حملة من الاطفال لانقاذ بيت المقدس فاستجاب له الاطفال والصبيان الذين فروا من امهاتهم وآبائهم : وتجمع حوله ثلاثون الف طفـل خليط من الأولاد والبنـات اللواتى لبسن لباس الاولاد وكان عمـر الاكثرين منهم فى الثـانية عشـرة أو ما يقرب منها .

ووصل هذا الحشد الى مرسيليا فى طلب سفن توصلهم الى الشرق فغرر بهم التجار واصحاب السفن من اهل مارسيليا وحملوهم الى الثغور الاسلامية وخاصة الاسكندرية حيث بيعوا فيها بيع الرقيق .

أما الأحسن حظا من هؤلاء فقد غرقت بهم السفن واستقروا فى أعماق البحر حيث أقيم نصب لتخليد ذكراهم فى احدى الجزر الغربية من الشاطىء الفرنسى .

ويقال انه بينما كان ذلك يجرى فى فرنسا ، فان حركة مماثلة تماما قامت فى المانيا حيث حشد صبى آخر يدعى نيقولا الكولدنى جيشا من الأطفال ووصل بهم الى الشواطىء الايطالية ، ولكن هؤلاء كانوا أسعد حظا من زملائهم الفرنسيين ، فقد طردهم الايطاليون واعادوهم الى بلادهم وأسرهم .

١٢١٧ م — ٦١٤ هـ — الحملة الصليبية الخامسة :

دعا البابا انوسنت الثالث الى الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة فى المجمع البابوى الرابع ، وذلك لابقاء الفكرة الصليبية حية ، فاستجابت لندائه جموع كثيرة تحت قيادة ملك المجر ، وعند مرورهم بجزيرة قبرص ، اصطحبوا معهم ملكها الذى كان يعتبر نفسه ملكا للقدس ونزلوا على مدينة عكا ، ومن هناك زحفوا بقيادة ملكى المجر واورشليم على بلاد الشام .

فأسرع الملك العادل الى الشام لمواجهتهم ، ولكنه آثر التريث كما هو دابه ريثما تصل اليه نجدات ملوكه وأمرائه ، ولذلك فقد بدأ خطته بالانسحاب من أمام الصليبيين الذين لم يجدوا أمامهم اى مقاومة ، فانساحوا فى بلاد الشام يقتلون وينهبون ويسرقون ويسبون ..

فزع المسلمون وراحوا يستغيثون بالعادل ، فكان يسكن روعهم بقوله : ان الخلاف سيقع قريبا فى جيش الصليبيين ، وليس هذا الجيش سوى سحابة ستنقشع بأقل ريح تهب عليها .

وصدقت تقديرات الملك العادل جزئيا ، فعندما حل فصل الشتاء تضرر الصليبيون ، ولم ينته الشتاء الا وكان القسم الأكبر من جيشهم حيث كان ملك المجر قد يئس من الوصول الى نصر حاسم فعاد الى بلاده بعد أن أقام فى فلسطين ثلاثة أشهر ، أما ملك قبرص لوزينا فقد مرض ولم يلبث أن مات .

وهكذا كان يمكن أن يؤدى ذلك الى انتهاء الحملة الصليبية الخامسة دون أن تحقق أشياء ولكن الجيوش ما فتئت تنهال من وراء البحار حتى تجمع للصليبيين فى عكا جيش ضخم جديد سرعان ما سوف يتجه اتجاها جديدا .

١٢١٨ م — ٦١٥ هـ — تحول الحملة الصليبية الى مصر :

يقول ابن واصل فى كتابه مفرج الكروب ، شارحا هذا الاتجاه الجديد للحروب الصليبية :

لما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشاورة فيما يبدءون بقصده فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولا وقالوا : ان الملك الناصر صلاح الدين انما استولى على المماليك وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويه برجالها ، فالمصلحة أن نقصد مصر أولا ونملكها ، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد .

واستقر الرأى على أن يكون الاستيلاء على مصر هو هدف الحملة ، فركبوا البحر وقصدوا بحمولهم الديار المصرية فوصلوا فى شهر صفر من هذه السنة ونزلوا على الضفة الغربية للنيل وكانت تسمى (ضيرة دمياط) فأصبح بينهم وبين مدينة دمياط نهر النيل . وكان يقوم على النيل برج منيع وفيه سلاسل من حديد غليظ كان يمد على النيل فيمنع المراكب الواصلة من البحر الابيض للدخول الى الديار المصرية .

ويقول المؤرخون المسلمون ان عدة من نزل من الصليبيين الى شاطىء النيل الغربى سبعون الف فارس وأربعمائة الف راجل .

وعندما وصل نبأ نزول الصليبيين مقابل دمياط الى الملك الكامل نائب السلطان ، أسرع بجيشه من القاهرة متجها نحو الشمال ، فى الوقت الذى ارسل فيه الأساطيل الى دمياط ، ونزل ببلدة العادلية قرب دمياط وعسكر بها . وذلك فى الوقت الذى بدأ ابوه مده بالنجدات والامدادات من عسكر الشام فبدأت تصله بالتتابع .

وبعد حرب دامت اربعة أشهر استطاع الصليبيون أن يستولوا على البرج الخامس لمدخل النيل ، فاستطاعوا بعد ذلك أن يدخلوا أسطولهم من البحر الى النيل ، وعلى الرغم من عظم هذا النصر العسكرى باستيلائهم على البرج . فقد ظلت مدينة دمياط مستعصية يحميها جيشها من الداخل ، وجيش الملك الكامل من الخارج .

وقد عالج الملك الكامل سقوط البرج ونزع السلسلة ، باغراق عدة سفن فى مجرى النيل لتحول دون نفوذ الأسطول الصليبى الى داخل البلاد .

وفاة الملك العادل فى الشام :

حزن السلطان العادل حزنا شديدا عندما سمع بسقوط البرج فى يد الصليبيين وادى به الحزن الى المرض ، ولم يلبث أن أدركته المنية فى السابع من جمادى الثانى من هذه السنة فى بلدة عالقين .

وكان عمر العادل يوم مات خمسا وسبعين سنة ، وكان الحاكم الأوحد لكل مملكة صلاح الدين من برقة الى مصر بلاد النوبة واليمن حتى الموصل شمالا لمدة تسع عشرة سنة .

وكان الملك العادل قد قسم البلاد قبل وفاته بين أولاده ، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية ، والملك المعظم عيسى البلاد الشامية ، وأعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية ، والملك الأوحد مدينة خلاط وقد توفى فى حياة والده .

ويعتبر حكم العادل استمرارا لحكم صلاح الدين وسياسته ، فقد كان العادل زميل صلاح الدين طوال حياته وناصحه ومستشاره .

تولى السلطان الكامل ملك مصر وسقوط دمياط :

بويع السلطان الكامل بالملك على مصر بعد وفاة أبيه ولكن عماد الدين احمد بن المشطوب أحد رؤساء الجند أراد أن يستغل الموقف الدقيق الذى تجتازه البلاد ليستأثر بالنفوذ فتآمر مع بعض زملائه القواد وأمراء الجند على خلع الكامل وتولية أخيه الملك الفائز ابراهيم . وعلم الكامل بنبأ المؤامرة ، فخشى على نفسه وهجر معسكره بالعادلية فى الليل وانسحب جنوبا الى أشموم طناح .

فلما أصبح الجند وجدوا أنفسهم بغير سلطان ، فتفرقوا منهزمين تاركين أثقالهم وخيامهم وأسلحتهم وأموالهم .

١٢١٩ م - ٦١٦ هـ - سقوط دمياط :

انفتح الطريق أمام الصليبيين ليعبروا الى الشاطىء الشرقى دون أن تصادفهم أى مقاومة ، فتم ذلك فى يوم الثلاثاء السادس من ذى القعدة ، ووقعت فى أيديهم هذه الغنيمة التى لم يكونوا يحلمون بها ، وهى معسكر الجيش المصرى باكمله وبكل ثروته وقد كان شيئا يجل عن الوصف على ما يقول المؤرخون المعاصرون .

ثم شرعوا يحاصرون دمياط .

ولكن أهل المدينة وحماتها استبسلوا فى الدفاع عنها بحيث ظلوا يقاومون الحصار طوال ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . دون أن يستطيع الكامل أن يمد يدا لانقاذهم ، فقد كان الصليبيون قد انشأوا حول جيشهم المحاصر الخنادق والحصون التى تحول دون الاقتراب منهم ، وكان البحر مفتوحا أمامهم ترد منه عليهم الامدادات والتموين .

وانتشرت المجاعة داخل دمياط ، حتى غصت شوارعها بالموتى ولم يبق أمامهم الا التسليم على أن يتعهد الصليبيون بحماية ارواحهم .

وفى الخامس والعشرين من شعبان من هذه السنة دخل الصليبيون المدينة فنكثوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم بحماية الأرواح ، ووضعوا السيف فيمن وجدوه فى المدينة ، وباتوا ليلتهم الأولى يفجرون فى مسجد المدينة بالنساء ويغتصبون الفتيات ، وأخذوا المنبر والمصاحف ورءوس القتلى وبعثوا بها الى بلادهم ، وحولوا الجامع الى كنيسة .

السلطان الكامل يعيد بناء قواته :

لم يتقدم الصليبيون الى داخلية البلاد عقب استيلائهم على دمياط ، فقد تريثوا ريثما تصلهم نجدات جديدة ، وبالفعل وصل اليهم جيش المانى .

حتى اذا استكملوا عدتهم بدأوا فى زحفهم ، وقد تضاعفت روحهم المعنوية بما أحرزوه من نصر فى دمياط .

وكان هذا التلكؤ الذى وقع فيه الصليبيون هو فرصة الكامل لكى يقضى على المؤامرة التى دبرت له ، ولكى يعيد تنظيم جيشه وكان قد اتخذ له موقعا قرب مدينة طلخا عند مخرج بحر اشمون طناح (البحر الصغير) وأمر بانشاء الدور والفنادق والحمامات والأسواق فى هذا الموقع الذى تحول الى مدينة ، لن تلبث أن يطلق عليها اسم المنصورة ، لما أحرزه عندها الكامل من نصر .

وكان اخوة الكامل ملوك الشام ، قد تمكنوا من الوصول بجيوشهم لانجاده ، حتى بلغ عدة فرسانه اربعين الفا ، مما قوى معنوية المسلمين ، وزاد فى حماسة افراد الشعب الذين لم يدخروا وسعا فى تقديم العون والخدمات لهذا الجيش .

مفاوضات الكامل من أجل الصلح :

وبدأ الكامل سلسلة من المفاوضات مع الصليبيين فى مقابل الجلاء عن مصر ، فعرض عليهم أن يعيد لهم البلاد التى فتحها صلاح الدين وهى القدس وطبرية واللاذقية وجبلة ، وجميع بلاد الساحل ولم يستثن سوى حصنى الكرك والشوبك . فانقسم الصليبيون ازاء هذا العرض ، فالملك يوحنا دى برايانا ملك القدس رأى أن يقبل هذا العرض ، ولكن وكيل البابا عارض فى قبوله وكان يؤيده فرسان المعبد (الداوية) والاستبالية وكان لكل مصلحته فى الرفض والقبول .

فملك القدس سيعود الى عاصمة ملكه . أما مندوب البابا يؤيده العناصر الايطالية فقد كانوا يطمعون فى ثروة مصر وتجارتها ، وأما فرسان الداوية والاسبتالية فكانوا لا يرغبون النزول عن قلعتى الكرك والشوبك ومن هنا فقد رفضوا العرض .

ورضى أخيرا السلطان الكامل أن ينزل لهم عن الكرك والشوبك ، فأبى الصليبيون الا أن يدفع لهم فوق ذلك ثلثمائة ألف دينار كتعويض عن تخريب أسوار القدس ، حيث كان الملك المعظم أخو السلطان الكامل قد خربها فى هذه الفترة خوفا من أن تقع فى يد الصليبيين .

وعند هذه النقطة تعثرت المفاوضات .

ولن نستطيع أن نفهم عروض الكامل السخية الا فى ضوء الظروف التى كانت تحيط به فى ذلك الوقت . فقد كان الشقاق بينه وبين بقية أفراد البيت الأيوبى قد بلغ ذروته وأصبح كل ما يهم السلطان سلامة أراضى مصر .

ولكن الدكتور نظير سعداوى فى كتابه القيم : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، يحاول أن يعطى تفسيرا لتصرف الكامل فى هذا الموقف وفى مواقفه المقبلة كلها ، وهو تقدير السلطان الكامل للخطر المغولى الذى سنتحدث عنه والذى أصبح يهدد الكيان الاسلامى بأكثر مما يهدده الصليبيون .

انتصار المنصورة :

لم يبق امام الكامل الا الحرب والقتال ، فاستغل تفوق المصريين فى معرفة طبيعة بلادهم ، وأرسل أسطولا من السفن المصرية تحت قيادة بدر الدين حسون ، عن طريق بحر المحلة وهو أحد فروع النيل الذى كان يخرج منه قرب مدينة بنها ليتصل به ثانيا شمال المنصورة ، فوصلت هذه السفن الى النيل شمال موقع الصليبيين : وترصدت لسفن الصليبيين التى ترد عليهم بالمؤونة واستطاعت ان تنتصر عليها وتفرق بعضها وتأسر بعضها ، بينما أرتد الباقى الى دمياط من حيث جاءوا ، وهكذا ضاق الخناق على الصليبيين .

ومن ناحية أخرى أطلق المصريون ماء النيل وكان فى أيام الفيضان فغمرت الأراضى المحيطة بمعسكر الصليبيين ، بحيث لم يبق ما يصلهم بدمياط سوى شريط ضيق من الأرض .. وحاصر المصريون هذا الشريط من الأرض فحالوا بين الصليبيين وبين الارتداد الى دمياط .. وانهالت عليهم السهام وناوشهم الاعراب وسكان البلاد ، فى الوقت الذى قلت فيه أقواتهم ، وهكذا تحرج موقفهم وانقلب رأسا على عقب .

١٢٢١ م ٦١٨ هـ : عقد الصلح وانسحاب الصليبيين من دمياط :

وبعد أن كان الصليبيون يرفضون عروض الصلح ، بدأوا هم الذين يقدمون العروض ، فعرضوا ان ينسحبوا من مصر كلها ومن دمياط فى غير مقابل وان تعقد بين الطرفين هدنة لمدة ثمانى سنوات .

واختلفت الآراء فى معسكر السلطان الكامل ، فكان من رأى البعض أن لا صلح معهم بعد أن أصبحت أبادتهم مسألة زمن . واذا كان ولابد من عقد الصلح فيجب ان ينزلوا عن الشريط الساحلى الذى لازال بأيديهم فى أرض فلسطين .

ولكن خوف السلطان الكامل ، من أن تصل الى الصليبيين نجدات جديدة فتغير الموقف ، جعله يبادر بقبول هذا العرض .

وانسحب الصليبيون من دمياط فى التاسع عشر من شهر رجب سنة ٦١٨ هـ — التاسع من سبتمبر ١٢٢١ م . وتسلمها السلطان الكامل الذى دخل الى دمياط فى يوم مشهود وحوله اخوانه الملوك وقواده وعساكره ، والشعب يضج بالتهليل والتكبير .. وتبارى الشعراء فى أزجاء الثناء على الكامل وأخوته .

وكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط حتى انسحابهم منها ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما .

ظهور التتار وجنكيزخان :

وفى الوقت الذى اصيب فيه المسلمون بهذه الكارثة كانت الانباء ترد من الشرق البعيد بوفود خطر أكثر وحشية وعنفا : وان بدا فى ذلك الوقت انه لا يزال فى بلاد بعيدة .

يقول ابن الاثير فى حوادث هذه السنة (٦١٧ هـ) :

لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة إستعظاما لها كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأؤخر اخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

ان قوما خرجوا من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاد سايجون ، ثم منها الى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما سوف نذكره ، ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ، ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلاد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ، ثم يقصدون بلاد اذربيجان وأرمينية فيخربونها ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج منهم إلا الشريد القادر ، وذلك كله فى أقل من سنة وهو ما لم يسمع بمثله .

ولم يلبث أحد من البلاد التى لم يطرقوها الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم اليه ، ثم انهم لا يحتاجون الى مزة ومددا يأتيهم فان معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحمها .

واما دوابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل من عروق النبات ولا تعرف الشعير ، فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون لشىء من خارجها .

ولقد حكى عنهم حكايات يكاد يسمعها السامع فيكذب بها وذلك من الخوف الذى القاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس ، حتى قيل أن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه الجمع الكثير من الناس فلا يزال يقتلون واحدا واحدا لا يتجاسر أحد أن يمد يده الى هذا الفارس .

ولقد بلغنى ان انسانا منهم اخذ رجلا ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، فقال له ضع راسك على الارض ولا تبرح مكانك ، فوضع راسه على الارض ومضى التترى فأحضر سيفا فقتله به .

ونحن نعرف اليوم أن هؤلاء الاقوام هم المغول الذين استطاعوا تحت قيادة جنكيزخان ، أن يستولوا على الصين شرقا ، ثم يزحفوا غربا ليستولوا على كل هذه البلاد التى عددها ابن الاثير .. وكان اعظم الملوك الاسلاميين الذين يواجهونهم هو الملك محمد خوارزم شاه الذى قوض ملك السلاجقة فى المشرق وأقام دولة تركية

خوارزمية محلهم فى بلاد فارس وخراسان ، فهزموه هزيمة شنعاء واستولوا على بلاده .

وهكذا يعتبر عام ٦١٧ هـ من أسوأ الاعوام التى مرت على مسلمى ذلك الزمان ، فحيث الصليبيون يهددون مصر فى الغرب وقد استولوا على دمياط ، كان المغول قد بدأوا يطحنونهم من الشرق .

١٢٢٥ م – ٦٢٢ هـ : انشـاء المدرسـة الكاملية :

اصبح من حق الكامل ، وقد انتصر على الخطر الصليبى أن يفرغ لشئون مصر الداخلية ، وكان من اكبر ما اتصف به الكامل هو شغفه بالعلم والعلماء ، وعالم هذا الزمان كان هو فى الدرجة الاولى علوم الدين ، ولذلك أنشأ مدرسة لتكون خاصة بعلم الحديث : فبنى لها دارا عظيمة أوقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ومن بعدهم على فقهاء الشافعية .

١٢٢٧ م – ٦٢٤ هـ – وقوع الخلاف بين الكامل والظاهر :

فى هذه السنة تفاقم النزاع بين الملك الكامل وأخيه الملك الظاهر ملك دمشق ، فقطع الظاهر الخطبة عن اخيه الكامل ، واتصل بالسلطان جلال الدين بن الملك محمد خوارزم شاه الذى خلف أباه على بلاد فارس وخراسان بعد موته ، وكان قد استعاد هذا الملك من التتار بعد عودة جنكيزخان الى بلاد الصين وطلب الملك الظاهر من جلال الدين أن يكون حليفا له ضد اخيه الكامل اذا حاول ان يتعرض له فى مقابل ان يخطب له على المنابر ويدعو له .

فاتصل السلطان الكامل من ناحيته بالامبراطور فردريك الثانى امبراطور المانيا وايطاليا وصقلية عارضا عليه نوعا من التحالف والتعاون ، وترددت السفارات بين سلطان مصر وامبراطور المانيا وهما يتبادلان الهدايا .

واوشك الاصطدام أن يقع بين الكامل والظاهر ، بكل ما يستتبع ذلك من تصدع فى الجبهة الاسلامية ، لولا ان عاجلت المنية الملك الظاهر فتولى من بعده ابنه الملك الناصر داود ، فتم الاتفاق بينه وبين عمه على تسوية حالت دون وقوع الصدام فى أحرج الاوقات .

١٢٢٧ م – ٦٢٤ هـ – وفاة جنكيزخان :

وفى هذه السنة توفى الملك جنكيزخان طاغية التتار وملكهم الأول ، بعد ان خرب البلاد والعباد ، ولم يكن للتتار ذكر من قبله ومن عجب أن جنكيزخان لم يكن مجرد

سفاح ، يقدر ما كان رجل دولة ، فقد كان هو الذى وضع دستور الحكم للمغـول اطالق عليه اسم الياساق ، وهو باللغة المغولية سى يسا ، والتى تحولت الى كلمة سياسية .

١٢٢٨ م ـ ٦٢٥ هـ ـ الحـرب الصليبية السادسة :

لم يكن للبابوات عمل فى هذه الحقبة من التاريخ الا أزكاء روح الحرب الصليبية كلما خبت ، فلاتكاد احدى الحملات تبوء بالفشل، حتى يتربص البابوات بعض الوقت ريثما ينسى الملوك والشعوب حديث فشلها ويدعون الى القيام بحملة جديدة .

ولكن كان من المحقق أن روح الحماس الدينى الطاغى الذى صاحب قيام الحرب الصليبية قد انتهى : وحل محلها جشـع مادى استعمارى ، يدل على ذلك تحول الحملات الصليبية عن بيت المقدس الى مصر ، وقد أشرنا من قبل الى أن الملك المعظم اخ الملك الكامل قد خرب أسوار مدينة القدس ، فأصبحت مدينة مفتوحة : ومـع ذلك فلم يتقدم جيش صليبى لاحتلالها .

وبدأ البابا يستحث فردريك الثانى امبراطور المانيا على ان يقوم بحملة صليبية جديدة يسترد بها بيت المقدس ، وخاصة بعد أن أصبح فردريك وارثا للملكة ايزابيلا التى كانت تعتبر الملكة الاسمية لمملكة القدس .

ومع شديد رغبة فردريك الثانى أن يسترد بيت المقدس لما فى ذلك من تدعيم لسلطانه وهيبته : فان السفارات التى كان يبعث بها السلطان الكامل اليه ، قد جعلته يؤثر أن يحصل بالدبلوماسية على ما لم تحصـل عليه الحملات الصليبية السابقة بالقوة فتقاعس عن تجهيز حملة عسكرية مما أحنق البابا عليه فأصدر ضده قرار حرمان ومن عجب أن فردريك الثانى قد استطاع ان يسترد للصليبيين بيت المقدس دون أن تراق نقطة دم واحدة .

الكامل وفردريك :

ولن نستطيع أن ندرك كيف تم ذلك الا اذا استحضرنا شخصية هذين الرجلين الكامل وفردريك الثانى وكيف كان كل منهما يمثل شخصية الحاكم الادارى ــ المثقف الذى يعنى بالاصلاح ونشر العلم . وانشاء المدارس والمعاهد ويؤمن بحـرية الفكر والتسامح الدينى بأكثر من ايمانه بالحرب .

ويقول لنا كانتوروفتر مؤرخ فردريك الثانى واصفا السلطان الكامل ، كان الملك الكامل صورة شرقية من الامبراطور ، أن لم يكن أقرب الى الصـحة أن نقول ان الامبراطور فردريك كان صورة غربية من السلطان الكامل .

وكان الامبراطور فردريك باعتباره ملكا لجزيرة صقلية : أصبح أمينا على تراث الجزيرة الاسلامى الذى احتفظ به ملوك النورمان .

وكان كأسلافه يجيد اللغة العربية ، ويكرم علماء المسلمين ، وكان لديه فرق إسلامية انشأ لافرادها جامعا يؤدون فيه صلواتهم . ضاربا بذلك مثلا أعلى في التسامح ولكن ذلك كله كان سابقا لاوانه في أوربا التي كانت غارقة حتى اذناها في التعصب الديني .

ولكن هذه الاخبار التي كان ينقلها سفراء الكامل بعد عودتهم من سفاراتهم لدى فردريك الثاني : كان لها أثرها في نفس السلطان الكامل ، حتى لقد عرض عليه على يد الأمير فخر الدين ، وهو يفاوضه ليكسب صداقته ويحقن الدماء ويتخذ منه حليفا يعاونه في منازعاته ضد أخيه أن يعطيه بيت المقدس صلحا على أن يظل المسجد الاقصى بيد المسلمين تقوم به الشعائر الاسلامية .

وجاء فردريك الثاني الى مدينة عكا فيما اطلق عليه اسم الحملة الصليبية السادسة ، ولكن فردريك الثاني لم يصطحب معه سوى ستمائة فارس : مما يدل على أن الأمر قد سوى بينه وبين السلطان الكامل بالفعل . وتم توقيع معاهدة بين الرجلين على الشروط التالية :

— يسلم بيت المقدس للامبراطور باعتبارها قد آلت اليه بحكم الوراثة باعتباره ملك بيت المقدس شريطة أن لا يقيم الصليبيون بها حصونا أو قلاعا وان تكون مدينة منزوعة السلاح : وتبقى منطقة المسجد الأقصى بيد المسلمين يمارسون شعائرهم الدينية بالمسجد شريطة أن لا يحملوا سلاحا .

— يأخذ الامبرطوار مدينة بيت لحم والناصرة وطريق الحج من بيت المقدس حتى يافا على الساحل .

— يطلق السلطان الكامل من يده من أسرى المسيحيين .

— يتعهد فردريك الثاني بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتى لو كانوا مسيحيين صليبيين .

— يضمن الامبراطور عدم وصول امدادات صليبية الى الامارتين الصليبيتين الاخريين انطاكية وطرابلس .

— تسرى هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات .

١٢٢٩ م — ٦٢٦ هـ — دخول فردريك الى القدس :

في الثامن من ربيع الأول من هذه السنة نودى في مدينة القدس بخروج المسلمين من المدينة (ماعدا منطقة المسجد الاقصى) وتسليمها للافرنج . يقول المقريزى في الخطط : فكان أمرا مهولا من شدة البكاء والصريخ ، وخرجوا بأجمعهم فساروا الى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير موعد الاذان ، فزجرهم الكامل وأشتد عليهم .

وعظم الامر على المسلمين وكثر الانكار على الكامل وشنعت المقالة فيه .

وكانت هذه فرصة الملك الناصر ملك داود للتشنيع على عمه فأستغل الحادث اكبر استغلال : وحرض المؤرخ الشهير والواعظ الكبير الشيخ سبط بن الجوزى على استنكار تصرف الكامل : فخطب فى المسجد الاموى فى فضائل بيت المقدس وراح يعدد ما حل بالمسلمين من المصائب بسبب تسليم المدينة المقدسة للصليبيين ، فارتفع بكاء الناس وعلا الضجيج .

ولم يكن الحال فى الجانب الآخر ، جانب فردريك والعالم المسيحى بأحسن حالا من موقف الكامل — فقد غضب البابا على فردريك الثانى بسبب هذه المعاهدة : وأصدر قرار حرمان على مدينة القدس نفسها حتى لا يصل اليها مسيحى . ولذلك فعندما دخلها فردريك الثانى لم يجد قسيسا واحدا يقبل أن يتوجه ملكا على بيت المقدس : فأضطر أن يضع التاج بنفسه على رأسه .

وكان المؤنسون الوحيدون للملك فردريك هم سفراء المسلمين الذين عينهم الملك الكامل لمصاحبة فردريك فى المدينة والسهر على راحته .

وتعيض كتب التاريخ فى تفاصيل هذه الراحة والتى وصلت الى حد أن طلب من المسلمين فى بيت المقدس ان لا يؤذنوا للصلوات حتى لا يعكروا مزاج الامبراطور ، فلما علم الامبراطور بذلك اظهر اسفه ، وقال أنه كان من أكبر أمانيه أن يسمع اذان المسلمين فى المسجد الاقصى .

دفاع عن الكامل :

ومرة أخرى وجد الكامل من يدافع عن تصرفه بسبب الخطر المغولى فقد اتجهت الدبلوماسية الصليبية كلها ، وتلخصت جهود بابا روما فى عمل اتصال مع المغول لوضع خطة موحدة للهجوم على العالم الاسلامى وسحقه من المغول من الشرق والصليبيين من الغرب .. فأفسد السلطان الكامل هذه السياسة بتصالحه مع الصليبيين .

الملك الكامل يستولى على دمشق :

هيأت المعاهدة مع الصليبيين ، لكى يتفرغ السلطان لتصفية الخلافات الداخلية فزحف على دمشق وكان أخوه الملك الاشرف يحاصرها ، فأستولى عليها وسلمها الى أخيه الملك الاشرف ليكون نائبه عليها واخرج منها ابن أخيه الملك الناصر ، وأعطاه حصون الكرك والشوبك والقلعاء والسلط والاغوار على سبيل التعويض ، على ان هذه الحروب بين افراد الاسرة ، لم تنقطع طوال سنوات حكم الكامل ، فكان يبارح مصر من حين لآخر ليخوض حربا هنا أو هناك ، ضد هذا الامير ، أو للاستيلاء على هذا الحصن الذى تمرد عليه .

١٢٣٠ م — ٦٢٨ هـ — معاودة التتار الهجوم ووفاة السلطان جلال الدين :

استأنف التتار فى هذه السنة زحفهم غربا للاستيلاء على دول المسلمين ، وكان السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه الذى تصدى لمقاومتهم قد اضطربت احواله ، وبدلا من أن يتحالف مع خليفة بغداد وسلطان مصر ، كان ينتهز فرصة سكوت التتار عنه ويغير على أرض الخليفة العباسى ، فينهب ويقتل ويسلب ، وقد اصطدم حول مدينة خلاط بالملك الأشرف أخ السلطان الكامل ، فلما استأنف المغول هجومهم الساحق ، عجز جلال الدين عن مواجهتهم وفر وحيدا الى احدى القرى الكردية فقتل بها وحيدا طريدا شريدا .

وهكذا لم يبق ما يحول بين المغول وبين الهجوم على العراق .

١٢٣١ م ٦٢٩ هـ — الكامل يتوجه الى الموصل لمحاربة التتار :

لم يكد التتار يستولون على كل بلاد فارس بعد مصرع جلال الدين بن خوارزم شاه الا وبداوا يطوقون الموصل والجزيرة ووهران فقتلوا وسلبوا ، فخرج السلطان الكامل من مصر لحربهم ، وانضم اليه أخوه الملك الأشرف موسى صاحب دمشق وتداعى اليه ملوك الايوبيين وأمراؤهم ، وقصدوا الى ديار بكر ، ولكن التتار كانوا قد تراجعوا الى بلادهم قبل وصول السلطان الكامل ، وهكذا تأخر هذا الصدام الحتمى بين قوة التتار الزاحفة ، والقوة الوحيدة التى لاتزال قادرة على التصدى لهم ، قوة مصر .

على ان السلطان الكامل انتهز فرصة وجوده فى هذه النواحى ، فانتزع مدينة آمد وما حولها من صاحبها الملك مسعود لاساءته السيرة فى حكمه ، ومنحه اقطاعا فى مصر تعويضا له .

وجعل ابنه الصالح نجم الدين أيوب ملكا على آمد وما حولها ليقف فى وجه التتار اذا حدثتهم انفسهم بالهجوم مرة ثانية .

١٢٣٤ م ٦٣٢ هـ — وفاة القاضى بهاء الدين بن شداد :

مات فى صفر من هذه السنة مؤلف أحد مراجعنا الرئيسية لتاريخ صلاح الدين ، وهو القاضى بهاء الدين شداد وكان قد بلغ من العمر ثلاثا وتسعين سنة ، اى انه عاش بعد موت صلاح الدين اربعين سنة ، وترجع أهمية كتبه كمصدر أساسى لتاريخ صلاح الدين انه كان قاضى عسكر صلاح الدين ، فصحبه بهذه الصفة فى كل معاركه .

١٢٣٧ م ـ ٦٣٥ هـ ـ وفاة الكامل فى دمشق :

فى الحادى والعشرين من شهر رجب من هذه السنة مات الملك الكامل فى مدينة دمشق ، وكان قد خرج اليها بعد وفاة أخيه الملك الأشرف ليسلمها لمن يشاء من الامراء فتعرض له عمه الصالح اسماعيل ، ولكنه سرعان ما هزم ، وتسلم السلطان الكامل المدينة ، ولكنه لم يكد يستقر بها حتى مرض ثم لم يلبث أن مات ، وكان عمره يوم مات ستين سنة . ملك مصر منها أربعين سنة ، منها عشرين سنة فى حياة أبيه ، وعشرين سنة بعد وفاة أبيه ، فأشبه ذلك على ما يقول ابو الفدا موقف معاوية بن أبى سفيان من حكم الشام ، حيث كان نائبا عليها عشرين سنة ، ثم خليفة عشرين سنة أخرى .

يقول ابن خلكان : واتسعت مملكة السـلطان الكامل ، وقد حكى لى من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنه لما وصل الخطيب الى الدعاء للسلطان الكامل قال : سلطان مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ورب العلامتين وخـادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل امير المؤمنين .

ويقول عنه المقريزى : كان ملكا مهابا حازما سديد الرأى حسن التدبير عفيفا عن الدماء . وكان يباشر أمور مملكتـه بنفسـه من غير اعتماد على وزير أو غيره ، ولم يستوزر بعد الصاحب صفى الدين بن شكر احدا ، وانما كان يندب من يختاره لتدبير الأشغال وقد عمرت أرض مصر على أيامه عمارة جيدة ، وكان يخرج من زكاة الاموال التى تجبى من الناس سهمى الفقراء والمساكين ويعين مصرف ذلك لمستحقيه ويعزز منه معالم الفقهاء والصلحاء . وكان يجلس كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم يجتمعون عنده للمناظرة .

ومن أعماله انه أقام على كل الطرق خفراء لحفظ المسافرين .

البهاء زهير :

وفى عهد السلطان الكامل نبغ فى مصر الشاعر الكبير البهاء زهير والذى لا يلبث أن يصبح من أكبر رجالات الدولة فى عهد ابن الصالح نجم الدين ايوب .

سلطنة الملك العادل ابو بكر على مصر :

لما مات السلطان الكامل بدمشق كان ابنه العادل نائبا على مصر فاتفق الأمراء على تولية العادل أبى بكر ليكون سلطانا على مصر وأقاموا الجواد يونس ابن عمه ، نائبـا عن السلطنة فى دمشق . على أن يبقى أخوه الملك الصالح نجم الدين ايوب على ممالك الشرق كما هو .

وكان عمر العادل لا يتجاوز يوم ولى السلطنة ثمانية عشر عاما فى الوقت الذى كان فيه اخوه الصالح نجم الدين أيوب يكبره فى العمر ، فلما وصل اليه النبأ لم يرض به ، وسعى لأن يكون هو السلطان .

١٢٣٩ م ـ ٦٣٧ هـ ـ سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر :

لم يستطع الملك الصالح أيوب أن يحقق ارادته فى أن يكون سلطان مصر عندما أعلن رغبته فى ذلك ؛ بل لقد تنكب به حظه ، حتى أوشك أن يفقد حياته ، ثم اعتقله الملك الناصر داود فى حصن الكرك .. ولكن المقادير لم تلبث أن هيأت له السبيل لتحقيق هدفه ، فدخل الى مصر يوم الاثنين ٢٥ من ذى الحجة ، وخلع أخاه العادل واعتقله وحمل بقية الأمراء وقادة الجند على مبايعته سلطانا ، وهكذا لم تزد مدة سلطنة أخيه على عام واحد وشهرين وبضعة أيام .

١٢٤٠ م ـ ٦٣٨ هـ ـ انشاء قلعة الروضة ونظام المماليك :

بوصول السلطان الصالح نجم الدين أيوب الى الحكم فى مصر ، كان الخلاف والتنافس بين أمراء الأسرة الأيوبية قد وصل ذروته ، وبدأ يعمل عمله فى انحلال هذه الأسرة . ولذلك فقد فكر الصالح نجم الدين أيوب أن يتخذ لنفسه جندا من نوع جديد عليهم ويكونوا محل ثقته ، ليحلوا محل الاكراد والعناصر التى قامت عليها الدولة الأيوبية .

فاقدم على شراء المماليك من الترك وبعض القبائل المغولية ، ممن كانوا يسمون فى ذلك الوقت (الخطائية) نسبة الى مملكة الخطا .

واتخذ من هؤلاء المماليك جندا وأمراء بعد عتقهم . وبنى لهم قلعة خاصة بهم فى جزيرة الروضة . وكانت جزيرة الروضة قبل ذلك بستانا ومنتزها للملوك ، فحولها الى دار حكم واقام بها بعد ان انتقل من قلعة الجبل .

وسرعان ما تحولت قلعة الروضة ـ على ما يقول المقريزى ـ الى مدينة صغيرة اقيمت فيها الدور والقصور ، وكان يحيط بها ستون برجا .

وكانت عدة المماليك الذين بدأ بهم الصالح جيشه الخاص ، ألف مملوك أطلق عليهم اسم المماليك البحرية ، وذلك بسبب انهم أصبحوا يسكنون فى جزيرة وسط النيل ، ولكن الدكتور جمال الدين الشيال يعترض على أن يكون هذا هو الأصل فى التسمية ، وعنده انهم انما سموا كذلك لأنهم كانوا يجلبون عن طريق البحر ، ولكن الراى الاول هو الأشهر والمتعارف عليه ، وفى أمور التاريخ يصبح الأشهر هو المعول عليه .

وكان الصالح نجم الدين يشترى الأرقاء المجلوبين من وراء النهر (سيجون وجيحون) من العناصر التركية ، ويتعهدون بالتربية الدينية والعسكرية من نعومة اظافرهم فمن يبدى منهم استعدادا ونباهة يحرره سيده ويعهد اليه بوظيفة من

وظائف الحاشية ، وكلما أبدى استعدادا للتقدم والتطور ، رفع سيده مكانته الى مقدم عشرة أى أن يتبعه عشرة جنود ثم مقدم مائة أى يكون فى خدمته مائة جندى ، وفى هذه الحالة يقود مثل هذا الأمير ألف جندى فى حالة الحرب .

وهذا الأمير الجديد ، يشرع بدوره فى تكوين أتباعه الخاصين به فيشترى الرقيق من ماله ، ويتبع معهم نفس الأسلوب الذى اتبع معه .

واصبح قدر أى امير من أمراء المماليك يقاس بقوته وشجاعته الشخصية ومدى ما يملكه من أتباع يحرسونه بعناية ويذودون عنه .

وبدات قوة هؤلاء المماليك ، من أنهم يتربون من صغرهم ، وهم لا يعرفون ولاء الا لأسيادهم وزملائهم ، ولا عمل لهم الا التدريب على الحرب وحمل السلاح والقتل والفتك .

ولن يلبثوا وهذا شأنهم أن يتحولوا الى القوة الحاكمة الحقيقية فى البلاد كما حدث دائما فى التاريخ على ما فصلناه فيما سبق وآخر ما مر بنا من ذلك فى العهد العباسى عندما شرع المعتصم فى تكوين جيش منهم .

الأيوبيون فى الشام يخرجون عن الطاعة ويستعينون بالصليبيين :

رفض أمراء الأيوبية فى الشام أن يكون الصالح نجم الدين ايوب سلطان عليهم . وكان على دمشق الملك الصالح ، فاتفق مع الناصر داود صاحب الكرك أن يكونوا حلفا ضد نجم الدين ، واتصلوا بالصليبيين وتحالفوا معهم ضد الصالح ايوب ، فى مقابل أن ينزلوا للصليبيين عن مدينتى العسقلان وطبرية ، فاستولى عليهما الصليبيون ، وأعادوا تعمير قلعتيهما كما سلموا اليهم كذلك منطقة المسجد الأقصى ، التى كان مقررا بموجب المعاهدة مع الكامل أن تظل للمسلمين .

ويحدثنا ابن واصل ، أنه مر بالقدس فى ذلك الوقت متوجها الى مصر فرأى القساوسة وقد وضعوا على الصخرة زجاجات الخمر على سبيل القربان .. وقد علا نجم الشيخ عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء فى هذه الفترة ، حيث انكر على ملك دمشق الصالح اسماعيل تحالفه مع الصليبيين ضد المسلمين فقبض عليه وأعتقل ولكن ذلك لم يجعله يغير موقفه .

١٢٤٤ م — ٦٤٢ هـ : الصالح نجم الدين يدحر الصليبيين ويسترد بيت المقدس :

تصدى السلطان الصالح ايوب لهذا الحلف غير المقدس بين الأمراء من آل ايوب والصليبيين .

وكان السلطان الصالح منذ اقامته فى الشرق فى مدينة آمد وحصن كيفا ، قد استمال قلوب الجنود الخوارزمية الذين فروا من وجه التتار بعد مقتل ملكهم جلال

الدين الخوارزمى ، وحبب اليهم أن يعملوا معه ولحسابه ، وظلت هذه الصلة قائمة بينه وبينهم بعد وصوله الى عرش مصر ، فما ان خرج امراء الشام عن طاعته ، وتحالفوا مع الصليبيين أرسل الصالح أيوب الى جيش الخوارزمية أن يزحفوا على الشام فى الوقت الذى بعث من مصر بقوة يرأسها ركن الدين بيبرس البندقدارى (وهو غير الظاهر بيبرس) .

وكان الصليبيون من ناحيتهم قد تجمعوا تحت زعامة ملك النافار ودوق برجندى وكونت سيمون دى منتفرات ، يشد أزرهم أمير دمشق وأمير حمص .

معركة غزة او حطين الصغرى :

وعند مدينة غزة تم اللقاء بين القوى الصليبية ومحالفيها من أمراء المسلمين وبين جيش الصالح أيوب ، فهزم الصليبيون ومحالفوهم من أمراء المسلمين هزيمة منكرة ، واذا كان الامراء من الصليبيين وخلفائهم المسلمين نجوا بأنفسهم ، فان الجنود الصليبيين قد وقعوا جميعا قتلى أو أسرى بحيث أطلق على هذه المعركة اسم حطين الصغرى .. وقد استولى جيش الملك الصالح أيوب على أثرها على مدينة غزة والساحل ، ومدينة القدس وأرسلت البشارة بالفتح فى الخامس عشر من جمادى الاول (٦٤٢ هـ) فأمر بتزيين القاهرة وقلعتى الجبل والروضة ، وبالغ المصريون في الزينة .

ثم جاءت رؤوس القتلى وجماعات الاسرى لتزيد الى بهجة الاحتفال .

١٢٤٥ م — ٦٤٣ هـ : استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق .

ولم يكن من الطبيعى أن تبقى دمشق بعد الذى حدث من تعاون الصالح اسماعيل مع الصليبيين وهزيمته معهم . تحت سلطانه فقد دخلت عساكر الملك الصالح أيوب تحت قيادة معين الدين بن الشيخ وتسلمها من يد الصالح اسماعيل الذى كان محصورا بها مع الأمير ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص . بعد أن تم الاتفاق على أن يسلما بدل بلديهما بلادا أخرى . .

القضاء على الخوارزمية :

تصور الخوارزمية بعد ان اسهموا فى الحصول على النصر ضد الصليبيين والأمراء الخوارج والاستيلاء على دمشق : أن أراضى الدولة ستقسم عليهم ، فلما لم يتحقق ذلك ، أعلنوا ثورتهم وتمردهم على الصالح أيوب ، وأعلنوا عزمهم على الاستيلاء على البلاد لحسابهم .

فأدى هذا الخطر الى عودة التعاون والاتحاد بين امراء البيت الأيوبى فوقفوا صفا واحدا ضد الخوارزمية واستطاعوا أن يدحروهم وأن يبددوا شملهم ، فقتل منهم من قتل وفر الى الشرق ومن فر ليعمل فى خدمة التتار، بينما تفرق عدد منهم على شكل أفراد ، توزعوا فى انحاء البلاد وعاشوا مع الناس وذابوا فيهم .

١٢٤٨ م ـ ٦٤٦ هـ : الحملة الصليبية السابعة :

أحدث سقوط مدينة القدس مرة أخرى فى أيدى المسلمين رد فعل فى أوروبا ، لا يقل عن رد فعل سقوطها المرة الأولى بيد صلاح الدين ومن جديد دعا البابا انوسنت الرابع الى حرب صليبية جديدة .

وجمع مجلسا روحيا فى مدينة ليون ١٢٤٥ م تقرر فيه أن يؤلف لويس التاسع ملك فرنسا ، حملة سابعة لتخليص القدس .

الملك القديس :

وقد كان الملك لويس التاسع مخلصا لدينه متقشفا متواضعا ، يخالط الفقراء ويعطف عليهم ، وكان محبوبا من رعيته وسائر المسيحيين .

وعندما شرع فى تجهيز الحملة الجديدة ، أقام مهرجانا دينيا كبيرا فى دير سان دنيس ، اشترك فيه الألوف من الفرسان والعامة ورجال الدين وفى هذا المهرجان تسلم لويس علم الدير المقدس ، ثم ارتدى ملابس الحجاج السوداء ، فاقتدى به سائر فرسان الحملة ومشاتها .

وأبحر لويس التاسع من مياه فرنسا على رأس أسطول ضخم يقولون ان عدة سفنه بلغت ١٨٠٠ سفينة تحمل ثمانين الف مقاتل ومعهم عدتهم ومؤونتهم وخيولهم .

مصر هدف الحملة :

وكانت مصر هذه المرة هدف الحملة بعد ان زاد اقتناع أوروبا الصليبية أن لا سبيل للاستيلاء على بيت المقدس الا بعد هزيمة مصر أولا أو هكذا كانوا يقولون : ولكن الحقيقة ، أن الاطماع المادية هى التى أصبحت تسير الحملات الصليبية لا المبادىء الروحية ، فقد أصبح غنى مصر وثروتها هو المطمع وليس فلسطين الفقيرة ، بما فيها القدس . ووصلت الحملة فى هذه السنة الى جزيرة قبرص قاعدة الهجوم على مصر لتمضية أشهر الشتاء بها .

فكان ذلك على ما يقول المؤرخون اول اخطاء هذه الحملة ، فلو انها بادرت الى دمياط لأتيح لها أن تفاجىء الجيش المصرى قبل أن يستعد،ولكن الحوادث ستكشف أن مصر لم تستفد من هذا التأخير .

لويس التاسع يدعو التتار للتعاون على القضاء على المسلمين :

استغل لويس التاسع اقامته فى جزيرة قبرص لكى يدخل فى مفاوضات مع المغول فى الشرق لكى يهاجموا المسلمين من الشرق فى نفس الوقت الذى سيهاجمهم فيه الصليبيون من الغرب،وقد تضمن كتاب الدكتور نظير سعداوي « الحرب والسلام

زمن العدوان الصليبى » تفاصيل السفارات المختلفة التى تبودلت بين لويس التاسع والتتار ، ولكن ارادة الله شاءت أن لا تصل هذه المباحثات الى اتفاق .

الصالح أيوب يعود الى مصر من الشـــام :

تلقى الســـلطان الصـــالح نجم الدين أيوب نبأ الحملة الصليبية الجديدة قبل وصولها ، اذ انبأه بها الامبراطور فردريك الثانى طبقا للمعاهدة المبرمة بينه وبين السلطان الكامل والد الصالح أيوب وكان السلطان الصالح نجم الدين فى الشام عندما تلقى هذا الخبر ، وكان مريضا بمرض خطير يعوقه عن ركوب فرسه . فأمر أن يحمل فى محفة وعاد مسرعا الى مصر ، ونزل عند قرية الشـــموم طناح .

وبدأ يتخذ الاستعدادات العسكرية لملاقاة الصليبيين ، فأصدر أوامره أن تشحن دمياط بالأسلحة والجنود ومواد التموين التى تمكنها من الصبر على حصار طويل . كما ارسل قائد الجيش الأمير فخر الدين على رأس جيش كبير ليعسكر على الشاطىء الغربى للنيل ليحول بين الصليبيين وبين النزول الى البر .

١٢٤٩ م ــ ٦٤٧ هـ : وصول الفرنسيين الى مصر واستيلائهم على دمياط :

على الرغم من استعداد المصريين الكامل لملاقاة الصليبيين فقد نزل الصليبيون الى البر ، وان كانوا نزلوا فى مكان يقـــع الى الغرب من موقـــع الجيش المصرى . ثم وقعت بعض المناوشات بين طلائع الجيشين، دون ان يقع اصطدام على نطاق واسع . وحدث أن الأمير فخر الدين على ما تقول بعض الروايات اطلق الحمام الزاجل الى الســـلطان الصـــالح نجم الدين ليبلغه بنزول الصليبيين الى البر وحدوث بعض المناوشات ، ولكنه لم يتلق ردا على رسائله ، ولما كان فخر الدين يعلم بمرض السلطان فقد تصور أن لابد أن يكون السلطان قد مات . ولذلك فقد انتظر حتى وافى الليل ، فانسحب بجيشه من الشـــاطىء الغربى الى الشاطىء الشرقى ، وأعمته اللهفة على اتمام الانسحاب فلم يدمر الجسر الواصل بين شاطئى النيل فتركه قائما وأسرع يغذ الســـير جنوبا تاركا دمياط وراءه .

وكان لهذا الانسحاب غير المتوقع أثره النفسى فى حامية دمياط نفسها فتخلوا عن الدفاع عن المدينة وتركوا مواقعهم : وأسرعوا بدورهم يفرون فلم يبق أمام الاهالى وقد رأوا تخلى الجيش عنهم الا أن يفروا بدورهم مذعورين هالعين ، تاركين بيوتهم وأموالهم وأسلحتهم ومدينتهم .

وفوجىء الصليبيون عندما أصبح الصباح بالطريق المفتوح امامهم الى دمياط وتصوروا ان فى الامر خدعة ، فتربثوا بضع ســاعات : حتى اســتبان لهم حقيقة الموقف ، فعبروا الجسر المقام على النيل ، ودخلـوا الى دمياط المفتوحة الأبواب ، وأذهلهم ما عثروا عليه فى المدينة من ثروات وأسلحة واغذية ، وكل ما يحتاجون اليه

لفتح مصر . واعتبروا أن ذلك كله نصر من الله وتوفيق اذ سلمهم المدينة التى أنفقت أسلافهم ستة عشرا شهرا ، فى يوم واحد وبدون أن يضربوا ضربة واحدة .

ونستطيع أن نتصور غضب السلطان الصالح أيوب على فخر الدين قائد جيشه وعلى قواد حامية دمياط الذين تخلوا عن واجبهم المقدس فى الدفاع عن المدينة ،حتى قيل انه شنق خمسين من هؤلاء القادة ولم ينقذ فخر الدين من هذا المصير الا قوة نفوذه وحروجة الموقف وحاجة الصالح اليه .

لويس التاسع يفقد فرصته :

ومرة أخرى يقول المؤرخون أن لويس التاسع قد فقد فرصته الذهبية فى الحصول على النصر ، فلو انه بمجرد سقوط دمياط تابع زحفه لاستغل الحالة السيئة التى سادت الجيش المصرى وهو يتراجع بغير انتظام والسلطان يشنق قادته ، والشعب فى حالة فزع لسقوط دمياط .

ولكن مفاجأة الاستيلاء على دمياط بهذه السهولة أذهلت الصليبيين انفسهم وشغلتهم عن كل شيء الا التمتع بالكنز الذى حصلوا عليه فى سهولة ، فضلا عن أن الريح كانت قد فصلت سبعمائة سفينة من أسطول لويس التاسع ، فلم تصل مع بقية الأسطول وقرر لويس أن لا يتقدم حتى تصل هذه السفن ، فلما وصلت متأخرة بضعة شهور بدأ من جديد الزحف .

والأجماع بين المؤرخين ، على أن الفرنسيين لم يستفيدوا شيئا من حملتهم الصليبية السابقة والتى فشلت فشلا ذريعا ، وذلك فى الوقت الذى كان المصريين قد تعلموا منها كل شيء ، ففى الوقت الذى كرر فيه الفرنسيون كل اخطائهم الماضية ، كان المصريون يستغلو نالعوامل التى أدت الى انتصارهم فى المرة السابقة . ولذلك فلم يكد لويس التاسع يبدأ فى زحفه ، حتى تراجع السلطان الصالح بجيشه الى مدينة المنصورة ، حيث جرت الموقعة الأولى التى انتهت بالنصر .

موت الصالح نجم الدين أيوب :

فى ليلة الاثنين وكانت ليلة النصف من شهر شعبان من هذه السنة ٦٤٧ هـ (٢٢ نوفمبر ١٢٤٩) مات السلطان نجم الدين أيوب .

وكان موته فى هذه الظروف يؤلب ضربة ساحقة للمصريين والمسلمين وقد رأينا كيف سقطت دمياط بدون قتال لمجرد الوهم بأنه مات ، فكيف وقد مات حقا ، ولكن هنا حدثت معجزة من معجزات التاريخ . ولم تكن هذه المعجزة الا شجرة الدر زوجة الصالح أيوب ، والتى قررت بحكمتها عدم اعلان وفاة السلطان على الجيش والبلاد فى حالة المعركة ولما كانت هى الوحيدة التى تمت الوفاة بحضرتها ، فقد تكتمت الخبر ولم تعلنه ، وأمرت بأن يحمل فى محفة سرا ، ويوضع فى احدى السفن فتسير به الى قلعة الروضة . وعهدت الى الامأ فخر الدين بقيادة الجيش ، وكان كل الذى أصبح يملك عليه حياته هو أن يكفر عن خطئه الذى أدى الى ضياع دمياط .

ورتبت الأطباء بحيث يدخلون كالعادة الى حجرة السلطان وكأنهم يعودونه ، كما كانت الأوامر الرسمية تدخل الى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بتوقيع السلطان وعلامته ، وكانت شجرة الدر قد حذقت تقليد الخط والعلامة وان كانت هناك روايات اخرى تقول أن الذى كان يقلد الخط هو خادم يسمى سهيل .

وارسلت شجرة الدر رسلها الى الملك المعظم توران شاه ابن السلطان نجم الدين ايوب ، وكان مقيما فى حصن كيفا (بالموصل) تستدعيه الى مصر ليجلس على عرش ابيه ويقود المعركة .

بهذا الأسلوب الحكيم الملهم ، حالت شجرة الدر دون تدهور الموقف وحفظت للجيش وقيادته سلامته ووحدته وتماسكه وروحه المعنوية بوجود سلطانه على رأسه.
وكان عمر السلطان الصالح نجم الدين عندما مات أربعا وأربعين سنة وكانت مدة سلطنته على مصر تسع سنين وسبعة أشهر وعشرين يوما . ولم يكن له عقب يخلفه سوى ابنه توران شاه .

ويصور المؤرخون صورة قاتمة للملك الصالح من حيث بطشه وجبروته وان معظم الناس لم يحزن عند سماع نبأ موته .

ويعلق ابو المحاسن على أقوال المؤرخين بهذا الصدد بالعبارات التالية التى نوافق عليها .

وعندى انه من أعظم ملوك بنى أيوب وأجلهم رأيا وتدبيرا ومهابة وشجاعة وسؤددا بعد صلاح الدين ولو لم يكن من محاسنه الا تجلدا على مقابلة العدو بالمنصورة وهو بتلك الأمراض المزمنة المذكورة وموته على الجهاد والذب عن المسلمين ــ الله يرحمه ما كان أصبره وأغزر مروءته .

رثاء البهاء زهير :

وكان من حظ الصالح أيوب أن يحفظ لنا تاريخ الأدب مرثية البهاء زهير الرائعة له والتى جاء فيها .

ولقد سعيت الى العلا بعزيمة ... فقضى لسعيى انه لا يحقق
وسريت فى ليل كان نجومه ... من فرط غيرتها الى تحدق
حتى وصلت سرادق الملك الذى ... تقف الملوك ببابه تسترزق
ووقفت من ملك الزمان بموقف ... الفيت قلب الدهر فيه يخفق
فاليك يانجم السماء فاننى ... قد لاح نجم الدين لى متألق
الصالح الملك الذى لزمانه ... حسن يتيه به الزمان ورونق
ملك تحدث عن أبيه وجده ... نسب لعمرى فى العلا لا يلحق
سجدت له حتى العيون مهابة ... أو ما تراها حين يقبل تطرق

كوبرى الملك الصـــالح :

ولا يزال سكان القاهرة حتى فى عصرنا الحديث يعبرون جسر الملك الصالح الذى كان هو أول من انشأه لبربط جزيرة الروضة بالفسطاط آية على ان الرجال الكبار لابد وان يظل اسمهم يتردد عبر السنين والقرون ويجرى على كل الألسنة .

١٢٥٠ م – ٦٤٨ هـ : هزيمة الصليبيين الســاحقة :

تسرب نبأ وفاة الملك الصالح الى الصليبيين فوجدوا فى ذلك فرصتهم لاستئناف زحفهم نحو الجنوب ، ناسين أن جيش المماليك وجموع الشعب قد اصبحت تقف لهم بالمرصاد . فراحوا – يناوشونهم ويتخطفونهم .

وكان الجيش المصرى فى هذه الحقبة من التاريخ قد أصبح يحذق استعمال النار الاغريقية التى طالما صلى بحرها والتى رأينا كيف كان لها الفضل فى دحر الأساطيل الاســلامية .

وبدأ الصليبيون يتجرعون حر هذه النار ولهيبها .

وقد ترك لنا مؤرخ فرنسى وهو أحد الأمراء الصليبيين الذى كان يصاحب الملك لويس باعتباره أمير بلاطه وكبير أمنائه وهو جوانفيل،وصفا لأثر هذه النار فى صفوف الفرنسيين ، وكأنه يصف غارة جوية فى عصرنا الحديث فيقول :

كانت النار ترسل فى انطلاقها الأضواء الباهرة التى تملأ رحاب المعسكر فيبدو وكأنه فى وضح النهار ، ولقد صوب العدو النار نحونا هذه الليلة ثلاث مرات ، كما أطلقوها من قيسهم أربع مرات وكان الملك القديس ، كلما سـمع أن النار الأفريقية قد صوبت نحونا ، انتصب واقفا على سريره ورفع يديه الى السماء وبدأ فى الصلاة وعيونه مخضلة بالدموع وهو يقول : ايها الآله الطيب احفظ لى شعبى .

وقد خاض الفرنسيون بعض المعارك التى انتصروا فيها . والتى قتلوا فى احداها قائد الجيش الأمير فخر الدين ، وكان حتفهم فى هذا النصر اذ أن القائد الفرنسى المنتصر وهو الكونت أرتوا قد هزه النصر فاندفع الى مدينة المنصورة قبل أن يدركه باقى الجيش ، وسار داخل شوارعها حتى وصل الى مقر الملك ، حيث كان المملوك ركن الدين بيبرس (الظاهر) يقف لحراسته فاستطاع أن يصد هجمة الفرنسيين وان يتحول من الدفاع الى الهجوم فيطاردهم فى شـــوارع المدينة التى كان الأهالى قد سدوها فى وجههم بالمتاريس فاشتبك فرسان المماليك مع فرسان الفرنسيين ، بينما كان أهالى المدينة يلقون من النوافذ والأسطحة الحجارة على الفرنسيين : فلم ينته النهار الا وفرقة الفرسان التى اقتحمت المدينة قد أبيدت عن بكرة أبيها بما فى ذلك قائدها نفســه الكونت أرتوا .

فكان لهـذه الهزيمة الساحقة اثرها البعيـد المدى فى نفس الملك لويس التاسع وجيش الصليبيين .

توران شاه يشرف على المعركة :

وفى هذه الأثناء كان توران شاه قد وصل الى مصر واستقر فى قصر الملك بالمنصورة يوم الثلاثاء التاسع عشر من ذى القعدة .

واشرف على توجيه المعركة ، فأعاد خطة جده الكامل فى ـ انزال اسطول مصرى شمال مواقع الفرنسيين لتقطع عليهم الامدادات وخط الرجعة .. واستطاع هذا الأسطول ان يستولى على مراكب الصليبيين التىجاءت تحمل لهم المؤونةوالمدد،وكان عددها ٥٢ مركبا سقطت كلها فى يد المسلمين ، فأسـقط فى يد الفرنسيين ، وقرروا التراجع الى دمياط حتى لايضربهم الحصار .

ولكن الجيش المتراجع لم يكد يصل الى مدينة فارسكور حتى لحقت به الجيوش المصرية واحاطت به واوقعت بالجيش الصليبى هزيمة لم يسبق لها مثيل ،حتى قيل ان عـدد من مات من فرسـان الجيش عشرة آلاف ، وان عـدد من اسر من باقى الجيش مائة الف . وقد يكون الرقم الاخير فيه شىء من المبالغـة ولكن اهم من ذلك كله ان الملك لويس نفسه ومعه كل أمرائه وقواده وقساوسته قد وقعوا جميعا فى ذل الأسر وسيقوا الى مدينة المنصورة ، حيث أودع الملك لويس سجينا فى دار ابن لقمان التى لاتزال بقاياها قائمة حتى اليوم ، ووكل بحراسته الطواشى صبيح .

وقد حفظ التاريخ وصفا دقيقا لوقائع هـذا الحـدث العظيم اذ كتب الملك المعظم توران شاه لنائب السلطنة على دمشق جمال الدين بن يغمور رسالة يعلن فيها بشارة النصر ويصف ماحدث .

« الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عنـد الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، واما بنعمة ربك فحدث ،وأن تعدو نعمة الله لاتحصوها .

فبشر المجلس السامى الجمالى ، بل فبشر الاسـلام كافة بما من الله به على المسلمين ، من الظفر بعدو الدين : فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ويئس العباد من البلاء ، والاهل والأولاد فنودوا « ولاتيأسوا من روح الله » الآية . ولما كان يوم الاربعاء مستهل السنة المباركة تم الله على الاسلام بركتها فتحنا الخزائن ،وبذلنا الأموال وفرقنا السـلاح ، وجمعنا العربان المطوعة واجتمع خلق لايحصيهم الا الله تعالى ، فجاء من كل فج عميق ومن كل مكان بعيد سحيق . ولما راى العدو ذلك ارسل يطلب الصلح على ماوقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك العادل ابى بكر فأبينا ، ولما كان الليل تركوا خيامهم واثقالهم واموالهم وقصدوا دميـاط هاربين ،فسرنا فى آثرها وطالبين ، ومازال السيف يعمل فيهم عامة الليل،ويدخل عليهم الخزى والذل والويل ، فلما أصبحنا نهار الأربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين الفا غير من ألقى بنفسه فى

اللجيج ، وأما عن الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيون الى المينة وطلب ((ملكهم) الآمان فأمناه ، واخذناه واكرمناه ، وتسلمنا دمياط (١) بعونه وقوته وجلاله وعظمته)) .

وقد خلد التاريخ قصيدة جمال الدين بن مطروح والتى انشدها بمناسبة هذا النصر وهى وان كانت لاتعتبر من عيون الشعر الا انها اصبحت تؤلف احدى الوثائق التاريخية (٢) .

قـــل للفرنسيس اذا جئتــــه ... مقـــال صدق عن قؤول نصيح
أجـــرك الله على ما جـــرى ... من قبـل عباد يســوع المسيح
أتيت مصـــر تبغى ملـــكا ... تحسب أن الزمر ياطبـل ريح
فســــاقك الحين الى ادهـــم ... ضـاق به عندنا طربك المسيح
وكـــل أصـــحابك اودعتهـــم ... بحســـن تدبيرك بطن الضريـــح
خمســـون الفـــا لا ترى منهم ... الا قتيـــلا أو اسيرا أو جريـح
وفقـــك الله لأمثالهـــا ... لعـــلى عيسى منـكم يستريـح
ان كـان بابـكم بذاراضـيا ... فـــرب تحسن أتر من يصيـح
وقل لهـــم ان ظهـــروا عودة ... لأخذ ثأر أو لعقـــد صـــحيح
دار ابن لقمـــان على حالهـــا ... والقيـــد باق والطواشى صبيح

مقتل الملك المعظم توران شاه :

ادار هذا النصر الكبير عقل توران شاه ، ففقد توازنه ، وبدلا من ان يحفظ لشجرة الدر جميلها اذا انقذت الموقف وحافظت له على العرش ، راح يهددها ويطالبها بمالديها من اموال ابيه ويتوعدها بأشر انواع العقوبات .

وبدلا من ان يكرم مماليك أبيه ، وعلى رأســـهم ركن الدين بيبرس الذين كان لبسالتهم اعظم الآثر فى تحويل معركة المنصورة من هزيمة الى نصر ، اذ به يهـــددهم ويتوعدهم لغير سبب ، وكان اذا شرب وسكر راح يقطع بسيفه الشموع المضيئة من حـــوله وهو يقول هكذا سوف افعل بمماليك ابى ويروح يسمى اسماءهم وكان يفعل ذلك تحت تحريض حاشيته التى جاء بهـــا معـــه من حصن كيفا والتى كانت تعمل بدورها على الاستئثار بالسلطه فى ظله وقد بادر فقلدهم اكبر الوظائف .

فأدى ذلك كله الى تآمر شجرة الدر والمماليك عليه ، فهجموا عليه فى التاسـع والعشرين من شهر المحرم من هذه لسنة (٦٤٨ هـ) وضربوه بسيوفهم وكان الضارب له بيبرس البندقدارى فلم تقتله الضربات وانكانت قطعت اصابعه ، وهرب منهم

(١) لسنا نعرف اذا كان هذا مزيدا من توران شـــاه ، أم من كاتب الرســـالة فان دمـــياط لم يتم تسليمها الا بعد وفاة توران شاه .

(٢) اعتاد المؤلف فى شـــبابه ، كلمـــا وقف ليخطب متحدثا عن تاريخ مصر وامجادها ان يكرر هذه الأبيات : حتى لقد حفظها عشرات الالوف من الشباب .

والتجا الى برج اقيم فى فار سكور ليحتفل فيه بالنصر ، فأضرموا النار ، ففر بنفسه من البرج الى ماء النيل فطاردوه حتى غرق ، ويقول المقريزى .. وهكذا قتلوه سيفا وحرقا وغرقا .

ولم تزد مدة حكمه على ثلاثة شهور .

وبقتل توران شاه على هذا الاسلوب ، كان طابع الدولة الجديدة التى لن تلبث ان تقوم ونعنى بها دولة المماليك البحرية يتقرر ويتحدد ، وهو أسلوب الفتك بالسلاطين . واتخاذ الغدر وعمليات القتل كأساس ونظام متبع للوصول الى الملك ، وبعد الوصول اليه للاحتفاظ بالسلطان .

شجرة الدر تنقذ الموقف :

وكان يمكن ان يتحول مقتل توران شاه فى الظروف التى كانت تجتازها البلاد الى كارثة فلم يكن هناك وريث للعرش متفق عليه ، وكان يمكن ان يقع الخلاف بين امراء المماليك فيمن يكون جديرا بالسلطنة ، فتقع حرب اهلية يستفيد منها فلول الصليبيين الذين كانوا لايزالون يلوذون بمدينة دمياط : وهنا برزت من جديد شخصية شجرة الدر لانقاذ الموقف فقد كان لها فيما يبدو من التأثير والمهابة بين المماليك الى الحد الذى جعلهم يقدمون على خطوة لاسابقة لها فى الاسلام وهو ان يرفعوا الى مرتبة السلطنة امرأة تكون لها الولاية العامة على المسلمين جميعا رجالا ونساء ، وان كانوا قد اتفقوا فى نفس الوقت ان يكون عز الدين ايبك التركمانى مدبرا للمملكة معها .

سلطنة الملكة شجرة الدر أم خليل على مصر :

يقول عنها ابو المحاسن : هى الملكة شجرة الدر بنت عبدالله جارية السلطان الصالح نجم الدين الذى اعتقها وتزوجها فانجبت له ولدا اسمه خليل ، وهى من أصل تركى ، وكان الصالح يحبها حبا شديدا ، وكانت فى صحبته وهو ببلاد المشرق فى حياة ابيه ، ثم سارت معه لما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك . وقاست معه الاهوال والمحن ، ثم قدمت معه مصر لما تسلطن ، وعاش ابنها خليل بعد ذلك وتوفى صغيرا .

وكان اليها لفرط عظمتها غالب تدبير الديار المصرية فى حياة سيدها الملك الصالح وفى مرضه وبعد موته وهى تدبر الأمور على اكمل وجه . ويضيف الصفدى فى اوصافها انها كانت بديعة الجمال .

وهكذا بويعت شجرة الدر وخطب لها على المنابر ، وكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة : واللهم احفظ الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ام خليل المستعصمة صاحبة السلطان الملك الصالح . ونقش اسمها على النقود ، وكانت صيغة النقش على النقود : المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل .

وقد استهلت سلطانها بمكافأة امراء المماليك البحرية فخلعت عليهم الخلع السنية ووزعت عليهم الاموال الوفيرة ، وهكذا استقر بها الحال واستطاعت ان تخطو الخطوة العظيمة التالية .

استعادة دمياط واجلاء الفرنسيين عن مصر :

واستطاع هذا الاجراء السريع بتولية شجرة الدر ان يمكن المصريين من جنى ثمار النصر الذى احرزته الجيوش المصرية على الصليبيين فقد استعيدت دمياط بعد ان ظلت فى ايدى الافرنج احد عشر شهرا وتسعة ايام .

واطلق سراح ملك فرنسا بعد ان دفع الدية التى تم الاتفاق عليها والتى تتأرجع قيمتها فى كتب التاريخ بين اربعمائة ألف دينار ومائة ألف دينار والراجح انها تقرب من الرقم الأخير وهو مايساوى بالعملة الفرنسية وقتئذ العشرة ملايين فرنك .

ويرى ستانلى لين بول فى تأريخه ، انه ماكان باستطاعة الفرنسيين ان يجلوا فى سلام عن دمياط ، الا بفضل حكمة شجرة الدر وحسن تصرفها فقد كان امراء المماليك وقد سكروا بخمر النصر يرغبون فى عدم الأخذ بالاتفاق الذى جرى بين توران شاه وبين الفرنسيين ، ويميلون الى ابادة الفرنسيين عن بكرة ابيهم حتى لاتحدثهم انفسهم بالعودة الى مصر ولكن شجرة الدر هى التى قدرت عواقب ذلك الوخيمة وتمسكت بوجوب تنفيذ المعاهدة ، واطلاق سراح لويس التاسع بمجرد دفع زوجته الفدية عنه .. وقد أقسم لويس التاسع قبل اطلاق سراحه واعطى على نفسه العهد والميثاق ان لايتصدى لحرب مصر مرة اخرى أو يؤلب عليها .

لويس التاسع يعمل على استرداد القدس ويفاوض التتار :

ولكن لويس جريا على عادة الصليبيين فى هذه الفترة لم يكونوا يأخذون مواثيقهم مع المسلمين (الكفرة) مأخذ الجد . ولذلك فانه لم يكد يطلق سراحه ويعود الى عكا ويشهد النزاع بين الأمراء والأيوبيين والحكام الجدد فى مصر ، حتى بدا يحاول الاستفادة من هذا النزاع باسترداد بيت المقدس .

واستأنف مفاوضاته القديمة مع المغول للهجوم على العالم الاسلامى وهو لايلبث ان يتحقق .

تخلى الملكة شجرة الدر عن السلطنة :

أدركت شجرة الدر بحكمتها ان روح العصر لاتتقبل ان تلى امرأة السلطنة وان وقوع الاختيار عليها لم يكن الا لانقاذ الموقف .

ويحدثنا ابن اياس ان الخليفة العباسى عندما بلغه نبأ سلطنه شجرة الدر ارسل الى امراء مصر يقول لهم : اعلمونا ان كان مابقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة حتى نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم انه قال : لاأفلح قوم ولوا امرهم امراة ، وانكر عليهم اشد الأنكار وهددهم وأمرهم بالرجوع عن ذلك .

ولكن هذه الرواية لم يوردها المقريزى ولا ابو المحاسن بهذا التفصيل وان كانت مراجع اخرى تشير الى انكار الخليفة على المصريين سلطنة شجرة الدر .

كيفما كان الأمر فقد خلعت شجرة الدر نفسها لصالح عز الدين ايبك بعد ان تزوجها وكان ذلك فى التاسع عشر من شهر ربيع الثانى على مايذكر المقريزى. فكانت مدة ملكها ثمانين يوما ، ولكنها ثمانون يوما حاسمة فى تاريخ مصر .

ويتولى عز الدين ايبك زوج شجرة الدر السلطنة انتهى حكم الدولة الايوبية من مصر بعد ان ستمر حكمها احدى وثمانين سنة ، ويصر المؤرخون على انها انتهت بمقتل توران شاه على اساس انه آخر سلالة هذه الأسرة فى مصر ولكن الحق انه يجب اعتبار سلطنة شجرة الدر ، استمرارا للحكم الأيوبى ، فقد رشحها للسلطنة كونها زوجة الصالح ايوب .

ومن الحق ان يقال ان حكم الدولة الأيوبية قد ظل فى الشام لعدة سنوات اخرى. لم يلبثوا أن قدموا الى العرش أحد ابناء الأسرة الأيوبية ولذلك فلم يبعد عن الحق كثير من يقولون أن دولة المماليك تبدأ بدايتها الحقيقية مع سلطنة الظاهر بيبرس .

على أن التقليد التاريخى ان دولة المماليك البحرية ، قد قامت بسطنة عز الدين ايبك على مصر .

تقدير الدولة الايوبية :

ولن نجد ونحن نودع الدولة الأيوبية تقديرا لدورها فى تاريخ مصر ادق من هذا الذى قدرها به ستانلى لين بول حيث يقول :

كانت مصر ابان حكم الدولة الأيوبية مزدهرة من الناحية الاقتصادية بصفة عامة وملوكهم الثلاثة الأول الذين شمل حكمهم ٥٩ سنة ، كانوا اذكياء اداريين أكفاء ، فقد قدروا قيمة الثروة الزراعية للبلاد ، واهمية استتباب الأمن والنظام وسيادة العدالة ، ومن هنا لم نسمع طوال تاريخ الدولة الأيوبية عن ثورة قام بها الشعب ضد الحكام .

واما عن علو الثقافة ورفاهية الحكام الثلاثة العادل والكامل والصالح نجم الدين فلدينا عنها شهادة المعاصرين من امثال ابن خلكان وابن الأثير والبهاء زهير ، وان مجتمعا يضم امثال هؤلاء ويجمعهم هم وعبد اللطيف البغدادى فى القاهرة ، لمجتمع يتحدث عن مدى رقيه بنفسه .

الاتصال بأوربا تجاريا وسياسيا :

ولقد كشف الملوك الايوبيون عن روح واقعية عملية ، ففتحوا مصر للتجارة الأوربية ، فترى السلطان العادل عام ١٢٠٨ م يمنح تجار البندقية تسهيلات خاصة لتجارتهم عبر مصر كلها ، وسمح لهم ببناء الأسواق والفنادق الخاصة فى الاسكندرية كما منح تجار بيزا امتيازات مماثلة وارسلوا قنصلا لهم الى الاسكندرية . وقد تجددت هذه الامتيازات عام ١٢١٩ م .

وكانت الضرائب التى تجبى على التجار غير المسلمين تبلغ عشر قيمتها . أما عن علاقة السلاطين الايوبيين برعاياهم المسيحين فقد كانت علاقات طيبة ، وظلت تتحسن مع مرور الزمن ، حتى ان الكنيسة المصرية تعتبر السلطان الكامل اكرم واعدل حاكم عاش فى ظله المسيحيون فى مصر . وبلغ من اعجابهم به الى حد تصور امكان تحويله الى الدين المسيحى . وعلى الجملة يجب اعتبار حكم الأيوبيين فى مصر ، سواء من ناحية اتساع الرقعة التى شملتها سيادة الدولة ، أو من ناحية الازدهار الداخلى ، والقدرة على مواجهة الغزو ، كأعلى ما وصل اليه المستدى فى أى عصر من عصور الدولة قبل ذلك .

الفصل الرابع عشر

دولة مماليك الأتراك البحرية

١٢٥٠ م — ٦٤٨ هـ : تولية الملك المعز عز الدين أيبك :

فى يوم السبت التاسع عشر من ربيع الثانى من هذه السنة تربع عز الدين ايبك بالملك واطلق عليه اسم المعز .

وقد وقع اختيار المماليك عليه فى بادىء الامر ليكون مديرا لشئون المملكة مع شجرة الدر : وليكون سلطانا بعد ذلك ، لانه كان يعتبر أقل الامراء خطرا على غيره من الامراء ، وكان يعتبر من أوسطهم شأنا ، وعرف عنه لين العريكة وسعة الصدر وسداد الراى والتدين فكان يلازم الصلاة ولا يشرب الخمر .

وبعد أن تولى السلطنة خطب له على المنابر كما هو التقليد المتبع وضربت السكة باسمه ، وقد زاد من مكانته واعانه فى تدبير شئون المملكة زواجه من شجرة الدر ارملة سيده وسلطانة مصر .

قيام المعارضة فى وجه عز الدين أيبك :

على أن المعارضة التى قامت فى وجه شجرة الدر باعتبارها امراة سرعان ماقامت فى وجه عز الدين أيبك باعتباره مملوكا سابقا ، أو بحسب تعبير ذلك الزمان ، (ممن مسهم الرق) وكان امراء البيت الايوبى لا يزالون بكل قوتهم فى الشام . وماكانوا ليسكنوا على زوال ملكهم ، والعدوان ظلما على توران شاه ، وسلطنة واحد من مماليكهم السابقين . ولذلك فقد وحدوا كلمتهم وقرروا الهجوم على مصر لاستئصال شأفة المماليك ، واعادة مصر الى سلطان الايوبيين .

وكان لهذه العناصر مجتمعة رد فعل فى صفوف المماليك البحرية انفسهم فراوا من الاصلح بالنسبة لهم ان يشركوا فى الحكم احد سلالة الأيوبيين على أن يكون لا حول له ولا طول ، فوقع اختيارهم على حفيد السلطان الكامل وكان صبيا صغيرا لا يتجاوز عمره ست سنوات فى بعض أقوال (المقريزى) وعشر فى اقوال (اخرى) واطلقوا عليه اسم الملك الاشرف موسى .

واصبح الحكم للسلطانين معا فكانت صيغة الاوامر والمراسيم تجرى على الوجه التالى :

رسم بالأمر العالي المولوي السلطاني الملكي الاشرفي والملكي المعزي .

واستمر الحال على هذا المنوال بعض الوقت ، وعز الدين أيبك هو المستولى على التدابير وليس الاشرف معه سوى صورة .

وقد أراد عز الدين أيبك من ناحية أخرى أن يظهر امام الشعب مدى ولائه للاسرة الايوبية فنقل جثمان سيده السابق الملك الصالح أيوب من مدفنه المؤقت الذى كان قد دفن فيه خفية فى قلعة الروضة ، الى مدفن خصص له بين القصرين ، وانتهز هذه الفرصة فأقام جنازة كبيرة .

١٢٥١ م — ٦٥٩ هـ : انتصار المماليك على الايوبيين :

اذا كان لهذه المناورات التى قام بها المماليك فى مصر لتدعيم شرعية حكمهم اذاء الشعب المصرى من أثر فان ذلك لم يكن له أثر لدى الامراء الايوبيين فى الشام . وتولى الملك الناصر صاحب حلب تجميع قوى الايوبيين ، فبدأ بالاستيلاء على دمشق، وبذلك وحد الشام تحت زعامته وزحف بعد ذلك على مصر . ولم يفته أن يقوى جبهته بالتحالف مع الصليبيين فوعدهم أن هم ساعدوه ضد مماليك مصر أن يسلمهم بيت المقدس .

ولكن خوف الصليبيين على العدد الكبير من أسراهم الذين كانوا لا يزالون فى يد المماليك جعلهم يقفون على الحياد .

مضى الملك الناصر فى زحفه على مصر فاستولى على مدينة غزة . ثم اجتاز الحدود المصرية واشتبك مع المماليك فى معركة بالقرب من الصالحية ، فدارت الدائرة فى بادىء الامر على المماليك حتى نهب معسكرهم ووصلت الاخبار الى القاهرة انهم هزموا ، ولما كان هوى المصريين مع الايوبيين فقد اقيمت الاحتفالات والزينات للملك الناصر الايوبى باعتباره سلطان مصر والشام .

ولكن المعركة لم تكن كد انتهت عندما فر قسم من المماليك، وظل ميزانها يتأرجح، وانحازت طائفة كبيرة من المماليك التى كانت تحارب فى جيش الملك الناصر الى جيش عز الدين أيبك باعتبارهم من جيش واحد ، فهزم الناصر وفر ناجيا بنفسه نحو حلب ، بينما وقع فى يد عز الدين أيبك عدد كبير من قادة البيت الايوبى وملوكهم .

وعاد عز الدين أيبك الى القاهرة ، بعد أن ثبت هذا النصر الحاسم حكمه وسلطانه على ديار مصر .

وكان أن عزل الملك الصبى الاشرف الايوبى وانفرد بالسلطان .

١٢٥٢ م — ٦٥١ هـ : الخليفة العباسى يتوسط فى الصلح :

دفع الخطر المغولى الذى أصبح بعد أن احتل التتار ديار بكر من ناحية ،والخطر الصليبى المتربص من ناحية أخرى بالخليفة العباسى الى أن يتدخل بين مماليك مصر

والايوبيين فى الشام وبتوسط فى عقد صلح بينهم وتم الصلح بالفعل على أساس ان يكون للسلطان المعز عز الدين أيبك ملك مصر والجزء الجنوبى من فلسطين بما فى ذلك غزة والقدس وبلاد الساحل ، وان تكون الاجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة فى يد أصحابها من الايوبيين وأن يطلق سراح من وقع فى الأسر من رجال الملك الناصر والبيت الأيوبى.

ويعتبر هذا الاتفاق الذى تم باسم الخليفة العباسى ، انتصارا سياسيا للمماليك وبدءا رسميا القيام دولتهم فى مصر فقد اسبغ الصفة الشرعية على حكمهم .

ثورة الاعراب فى مصر :

على ان اعتراف الخليفة بشرعية الحكم على مصر ، لم يكن كافيا لاقناع سكان مصر او على الاقل فريق منهم بهذه الشرعية ، فقد أرسلت القبائل العربية التى كانت تسكن مصر منذ الفتح العربى فى الصعيد وفى مديريات الوجه البحرى وخاصة فى الشرقيه والبحيرة ، الصيحة فى طول البلاد وعرضها أن مصر للعرب وليست للترك . ووجد الاعراب زعيما لهم فى شخص حصن الدين تعلب ، الذى استطاع أن يحشد حشود العرب حوله حتى تجمع له جيش من اثنى عشر الف فارس .

فارسل الملك المعز الامير فارس الدين اقطاى على رأس جيش لاخضاع هذه الثورة ، فانتصر على حصن الدين بالقرب من ديروط . ثم تتبع المعز أيبك القبائل العربية فى مديريات الوجه البحرى فانزل بهم الهزائم الكثيرة .

وارسل حصن الدين يطاب الامان من المعز فأمنه وطلب منه الحضور اليه ليعطيه امارات واقطاعات . فلما وصل الى المعز وكان مقيما فى بلبيس قبض عليه وعلى كل من كان معه وكانت عدتهم على ما يقول المقريزى الفين وستمائة فارس .. فشنقوا جميعا على طول الطريق من بلبيس الى القاهرة باستثناء حصن الدين الذى أرسل الى الاسكندريه ليسجن بها ، يقول المقريزى ثم فرض المعز الضرائب الثقيلة على العرب ، وعوملوا بالعسف والقهر فذلوا وقلوا على ما هو عليه الحال فى وقتنا (القرن الخامس عشر الميلادى) .

١٢٤٥ م ــ ٦٥٢ هـ : مصرع الفارس اقطاى :

نجح المعز ايبك فى التغلب على الايوبيين والقضاء على ثورة الاعراب ولكن هذا النجاح فى كلتا الحالتين قد نسب الى الفارس اقطاى ، باعتباره صاحب الدور الاكبر فى كلا الانتصارين .

وصل الفارس اقطاى الى أعلى درجات العظمة والتف حوله المماليك البحرية وحدثته نفسه بالملك ، وكان من خشداشيته (اى زملائه) أقطاب المماليك من أمثال بيبرس البندقدارى ، وسنقر الاشقر وسيف الدين قلاوون . واذا كان اى سطر من سطور تقاليد المماليك ان يشب للحكم كل من يقدر عليه فان السطر التالى ، كان أن

يقتل الملك كل من يتصور انه قد يصبح منافسا له ، حتى ولو لم يكن قد وقع منه ما يؤاخذ عليه .

وعلى ذلك فقد قرر السلطان أيبك أن يتخلص من اقطاى ، أرسل اليه يستدعيه الى القلعة بحجة أنه يريد استشارته فى أمر من الامور ، فلما وصل أقطاى الى القلعة أمر أيبك بغلق أبوابها فى وجه مماليك أقطاى للحيلولة دون صعودهم معه ، ثم أصدر أمره بالقبض على أقطاى وقتله . وتسامع المماليك البحرية بقتل زعيمهم فأجتمع سبعمائة من أصحابه وحاصروا القلعة، تصوروا منهم أنه مقبوض عليه داخلها ، فماكان من المعز أيبك الا أن ألقى عليهم راسه ، فلما تحقق المماليك البحرية من مصرعه اسقط فى أيديهم ، وضعفت معنوياتهم وخافوا على أنفسهم ، فخرجوا من مصر هاربين وقصدوا الملك الناصر يوسف صاحب حلب . واتجه بعضهم الى الملك المغيث صاحب الكرك ، والتجاء بعضهم الى الخليفة العباسى فى بغداد ، أو الى الملك علاء الدين ملك السلاجقة الروم فى آسيا الصغرى . على أن السلطان المعز أيبك لم يعد آمنا على سلطانه بعد مقتل أقطاى ، اذ أنقسم المماليك وقام حزب قوى منهم معارض له فى مصر والشام ففكر فى أن يدعم سلطانه بالتحالف مع أمير من أمراء المسلمين عن طريق المصاهرة ، فاتصل بالامير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، باعتباره أقوى شخصية فى الشرق الاوسط وقتذاك ، وطلب منه يد ابنته للزواج .

١٢٥٧ م ـ ٦٥٥ هـ : مقتل السلطان المعز عز الدين أيبك :

لم يقدر السلطان المعز وهو يفكر فى زواج أبنة صاحب الموصل لتدعيم سلطانه فى مصر والشام ، ما تحدثه هذه الحركة من رد فعل عند شجرة الدر .

لقد خلعت شجرة الدر نفسها من السلطنة لحساب عز الدين أيبك زوجها ، واذ كانت بطبيعتها امرأة قوية فقد اعتبرت تصرف عز الدين أيبك جحودا وكنودا وأدركت من ناحية أخرى أنه اذا تزوج ابنة صاحب الموصل فلابد ان يتخلص منها ولاسبيل الى ذلك الا بالقتل فقررت أن تكون هى البادئة .

وكان السلطان المعز على خلاف مع شجرة الدر لاستبدادها بأمور المملكة ومنعها أياه من الاجتماع بأم ابنه : والزمته بطلاقها ، ولذلك فقد هجرها وأقام بمناظر اللوق اياما ، فلما أحكمت شجرة الدر كيدها بعثت اليه تسترضيه وتحلف له أن تكون طوع أمره ، وانخدع المعز وطلع الى قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء رابع عشر من ربيع الأول حتى اذا دخل الحمام ليلا كان فى انتظاره خمسة من المماليك ، فشرعوا فى خنقه فأستغاث بشجرة الدر فرق له قلب شجرة الدر وطلبت منهم ان يطلقوه : فاغلظ لها كبير القتلة (محسن الجوجرى) وقال لها متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك . ثم قتلوه .

وكان عز الدين أيبك فى الستين من عمره يوم قتل ، وكانت مدة سلطنته سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوما ... يقول عنه المقريزى : كان ملكا حازما شجاعا سفاكا للدماء ، قتل خلقا كثيرا وشنق عالما من الناس بغير ذنب ليوقع فى القلوب مهابته ، واحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده .

ولكن ابا المحاسن يقول عنه : كان شجاعا عاقلا سيوسا كثير البذل للأموال : اطلق فى مدة سلطنته من الاموال والخيول ما لا يحصى حتى رضى الناس بسلطان مسه الرق . واما اهل مصر فلم يرضوا بذلك الى أن مات ، وكانوا يسمعونه ما يكره ، حتى فى وجهه اذا ركب ومر بالطلمات ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة .

وكان الملك المعز عفيفا طاهر الذيل ، بعيدا عن الظلم والعسف كثير المداراة لخشداشيته والاحتمال لتجنيهم عليه وشر أخلاقهم .

ولا سبيل للتوفيق بين هاتين الصورتين المتضاربتين الا أن نقول أن واحدة منهما من وجهة نظر طبقة الحاكمين : والثانية من وجهة نظر المحكومين .

وقد بنى المعز المدرسة المعزية على النيل بمصر القديمة ووقف عليها أوقافا .

سلطنة الملك المنصور نور الدين :

فى يوم الخميس سادس عشر من ربيع الاول ، بويع بالسلطنة على مصر على ابن عز الدين ايبك وكان غلاما لا يتجاوز عمره خمسة عشر عاما (المقريزى) .. وابن اياس يجعل سنه احد عشر عاما .. وقد لقب بالمنصور وجعل الأمير قطز نائبا للسلطان واتابكا للعسكر .

وسنظل المماليك طول حكمهم لا يؤمنون بنظام الوراثة ، ومع لك سنرى أن كل سلطان كان يأخذ العهد لابنه من بعده ويجيبه الامراء الى ذلك حتى اذا مات السلطان رفعوا ابنه بالفعل على العرش تحقيقا لميثاقهم ، ولكن الى المدة التى يصفى فيها الامراء الحساب فيما بينهم ويتفقوا على من يكون سلطانا عليهم ، فيعزلون الصبى الصغير ويولونه مكانه وينفى الصبى الصغير الى دمياط أو الاسكندرية وأحيانا الى خارج مصر كلها ، الى اراضى الدولة البيزنطية مثلا .

مقتل شجرة الدر :

كان من الطبيعى وقد اصبح ابن المعز سلطانا ، أن يبدأ عمله بالاقتصاص من قتلة ابيه وعلى راسهم شجرة الدر ، وقد استطاع أن يقبض على القتلة بسهولة وأن يقتلهم ، ولكن شجرة الدر ظلت بعيدة عن متناول يده ، فقد تصدى لحمايتها طائفة من المماليك الصالحية ، فاكتفى المنصور بنقلها من دار السلطنة الى بعض أبراج القلعة ، حتى اذا استتب له الامر قبض عليها وأسلمها الى أمه التى أسلمتها بدورها الى جواريها (على ما يقول المقريزى) فقتلتها ضربا بالقباقيب ثم رمينها من فوق

اسوار القلعة ، حيث وجدت مقتولة فى الحادى عشر من ربيع الثانى وليس عليها شيء يسترها ودفنت بالقرب من مشهد السيدة نفيسة حيث لاتزال موجودة حتى الآن

ويقول أبو المحاسن عنها : وكانت خيرة دينة رئيسة عظيمة فى النفوس ، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البر معروفة بها (١) .

ولا نستطيع أن نحبس حزننا لمقتل شجرة الدر على هذه الصورة وهى التى انقذت مصر بلا مراء من الخطر الصليبى ، ولكنها كانت البادئة كما رأينا فحرضت على قتل توران شاه ثم قتلت زوجها . وسيظل هذا الشعور المزدوج يلازمنا حتى نهاية العصر المملوكى ، فالاعجاب بالاعمال العظيمة ، يسير جنبا الى جنب مع استنكار أعمال الغدر والقتل والفتك .

تجدد المعارك بين مصر والشام :

واستهل السلطان الجديد عهده بسلسلة من المعارك وقعت على حدود مصر الشمالية وعند مدينة غزة : ذلك أن المماليك البحرية الذين فروا الى الشام عقب مقتل الفارس اقطاى وعلى رأسهم الظاهر بيبرس وقلاوون ، وكانوا قد التجأوا الى الملك الناصر يوسف صاحب الشام ، ولم يلبث أن خاف منهم على نفسه ، فتركوه الى الملك المغيث صاحب الكرك : فأستولوا على مدينة غزة لحسابه ، وراحوا يحرضونه على الاستيلاء على مصر . فاستجاب لهم وزحف بجيشه يؤازروه المماليك البحرية الذين لجأوا اليه ، فتصدى لهم الجيش المصرى تحت قيادة قطز (٢) عند مدينة الصالحية فهزمهم هزيمة منكرة وفر المغيث الى الكرك ومعه بيبرس البندقدارى ، بعد أن نهب معسكره وقتل زهرة فرسانه .

١٢٥٨ م ـ ٦٥٦ هـ : سقوط بغداد بيد التتار :

فى العاشر من المحرم من هذه السنة وقعت الواقعة التى كان يمكن ان تكون خاتمة المطاف للاسلام . وهى سقوط بغداد فى يد هولاكو حفيد جنكيزخان .

وكان سقوط بغداد هو ختام هذه المرحلة من الزحف المغولى الجارف الذى بدأ عام ٦١٧ هـ كما أشرنا الى ذلك . والذى توقف ذاتيا بوفاة جنكيزخان ، حتى اذا قسمت الدولة من بعده وأصبحت بلاد فارس وخراسان احدى الدول المغولية الثلاث التى تجزأت اليها الدولة الكبيرة ، استأنفت صراعها للسيطرة على كل ما يحيط بها .

---

(١) ظل اسم شجرة الدر يتكرر فى مصر كل عام بمناسبة احتفالات المحمل .. لقد كان يقال لنا ان هذا الهودج الذى يتألف منه المحمل ، خاص بشجرة الدر .

(٢) أى أنه فى المواجهة بين جيش فيه قطز وآخر فيه بيبرس انتصر جيش قطز .

وكتب التاريخ الاسلامية ، غاصة بالتفاصيل التى ادت مباشرة الى كارثة سقوط بغداد . وكيف كان الخلاف فى بغداد بين أهل السنة وأهل الشيعة (وأهل السنة يسمونهم الرافضة) هو الحلقة الأولى من سلسلة الحوادث التى انتهت بدخول المغول بغداد ، فقد غضب الوزير العباسى مؤيد الدين بن العلقمى لما أصاب الرافضه ، وكان هو نفسه رافضيا فدخل فى مراسلات مع هولاكو وأطمعه فى الاستيلاء على بغداد ؛ بينما راح من ناحية آخرى يثبط عزم الخليفة العباسى المستعصم عن الاستكثار من الجند ، وحثه على تسريح الجزء الاكبر من الجيش القائم فعلا ، بدعوى انه بتوجيه بعض ما ينفق على الجيش ، لاستجلاب رضاء هولاكو خير واجدى ، ولذلك فقد كان زحف هولاكو على بغداد هينا ، ولم تجر سوى معارك ضئيلة للدفاع عن المدينة الخالدة . فلما احدق هولاكو ببغداد اقنع مؤيد الدين بن العلقمى الخليفة أن يستسلم لهولاكو ، بل واوهمه ان هولاكو قد قبل أن يصهر اليه ويزوجه ابنته . وذهب الخليفة فى ابهى حلله وحوله امراؤه وقواده وكبار رجال دولته فقبض عليهم هولاكو ، كما راح يقبض على الطوائف التى بدأت ترد اليه لحضور الزفاف ، وقتل الجميع (١) ، ثم اجتاز بجيشه بعد ذلك الى المدينة وأباحها هولاكو لجنوده اربعين يوما ، فراحوا ينهبون ويسلبون ويقتلون ويحرقون . ويقدر المعتدلون عدد من مات فى هذه الكارثة بثمانمائة ألف بينما يصل بهم البعض الى ألف الف وثمانمائة الف . على ان اعظم ما منيت به الحضارة الاسلامية بل الانسانية فى هذه الواقعة ، هو اتلاف مئات الالوف من الكتب التى هى خلاصة التراث الانسانى حيث جعل منها جسرا فى نهر الدجلة . وبعد أن احترق من المدينة ما احترق وقتل من قتل ، أمر هولاكو جنوده بالكف عن القتل وأن ينصرف كل الى عمله .

يقول ابن كثير : ولما نودى فى بغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى اذ نشروا من قبورهم ، وقد انكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى .

وانصرف هولاكو بعد ذلك عن مدينة بغداد وما حولها بعد ان فسد الهواء المحيط بها ، وأسلمها الى مؤيد الدين بن العلقمى الذى عينه حاكما عليها (٢) .

(١) تأخر قتل الخليفة بعض الوقت ؛ والرواية الراجحة فى قتله انه وضع فى غرارة وظل يرفس حتى مات وذلك حتى لا يراق دمه .

(٢) من أسخف ما قيل دفاعا من بعض مؤرخى الشيعة عن مؤيد الدين العلقمى ان تسليم هولاكو بغداد بعد قتل اكثر اهلها وكبرائها لمؤيد الدين العلقمى هو الدليل على أنه لم يكن خائنا ، ولم يتصل بهولاكو من قبل والا لما وثق به وسلمه المدينة (انظر كتاب المغول فى التاريخ) وما جاء فيه من دفاع ابن طباطبا من مؤيد الدين ، والذى دحضه ورد عليه مؤلف الكتاب بالحجج الدامغة الدكتور فؤاد الصياد .

١٢٥٩ م ـ ٦٥٧ هـ : سـلطنة الملك المظفر قطز على مصر :

استأنف هولاكو زحفه فى بلاد الموصل فاستولى على قلاعها بعد حروب مريرة وحصار دام حول بعض المواقع (مينافارقين) عامين كاملين اظهر فيها سكان المدينة من البسالة ما لا يوصف ثم انتهى أمرهم بالاستسلام فأبيدوا عن بكرة أبيهم .. وانطلق المغول بعد ذلك كالأعصار حتى وصلوا مشارف الشام .

وسقطت فى أيديهم مدينة حلب ، فأرسل الملك الناصر صاحب الشام يستنجد بسلطان مصر ، بعد أن خابت مساعيه فى التفاهم مع المغول على أن يكون حليفهم فى فتح مصر . وخشيت دمشق ان يكون مصيرها مصير حلب فاستسلمت للتتار بعد أن خرج منها الملك الناصر قاصدا مصر .

وشاء القدر أن يهيىء للاسلام بطلا ينقذ آخر قلاعه وهى مصر ، وكان هـذا البطل هو سيف الدين قطز عبد الله المعزى احـد مماليك المعز أيبك ، والذى كان فى ذلك الوقت قد أصبح نائب السلطان ومدير المملكة .

وشاءت المقادير أن يكون قطز هو ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزماه شاه وابوه ابن عم السلطان جلال الدين . وكان قد أسر فى حرب التتار ، ثم أنجاه الله من أيديهم بالبيع فتقلبت به الأمور الى أن وصل ما وصل .

فلم تكد انباء ما حدث فى بغداد تصل الى مسامعه ، حتى نهض للأمـر فى عزيمة جبارة ، بدأت تتجلى فى كل تصرفاته وكان أول هذه التصرفات ، أن خلع الملك منصور لصغر سنه وعدم جدارته : ففى هذا الوقت العصيب لابد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه الناس وينصب للجهاد وليس صبيا صغيرا لا يحسن التدبير .

ولما غضب لعزل المنصور مماليك أبيه ، قال لهم : انى ما قصدت الا أن نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فاذا خرجنـا وكسرنا العدو فالأمر لكم تقيمون فى السلطة من شئتم .

وكانت خطوته الثانية تعبئة البلاد لمواجهة الخطر المغولى واعداد الجيش بالسلاح والعتاد والمؤونة فكان لابد من جمـع الأموال اللازمة لذلك فعقد مؤتمرا لذلك من العلماء ليجيزوا له فرض الضرائب على الشعب . وهنا عادت شخصية عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء للظهور ، حيث أفتى فتواه الخالدة :

اذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله ، وجاز للسـلطان أن يأخذ من أموال التجار واعيان البلد ما يستعين به على تحضيره العسـكر لدفع العدو ولكن بشرط الا يبقى فى بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهب والفضة الكبابيش الزركش واسقاط السيوف الفضة وغير ذلك ، وان كلا من الجند يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه ويتساوى فى ذلك بين العامة وقت القتال ـ أما أخذ أموال التجار والرعية ـ مع وجود ما فى بيت المال من السلاح والقماش ـ فلا يجـوز لأنه من باب أخذ أموال الرعية بغير حق .

وكانت هذه الفتوى تعنى تجريد المماليك الحاكمين من معظم ثرواتهم التى تتدفق عليهم من بيت المال ، فكادوا يبطشون بعز الدين عبد السلام ، لولا أن حماه قطز الذى فعل بما أشار رغم معارضة أمراء المماليك .

١٢٦٠ م ــ ٦٥٨ هـ : هولاكو ينذر قطز :

ولم يكد قطز يشرع فى تجهيزاته لملاقاة التتار ، حتى بعث اليه هولاكو سفارة من بعض أمراء المغول يطلب منه الانقياد لطاعته وينذره ويحذره من سوء العاقبة والمصير ، ولن تجد أروع من هذا الخطاب ما يصور مدى ما كان المغول قد وصلوا اليه من جبروت وطغيان وولع بسفك الدماء :

من ملك الملوك شرقا وغربا القان الاعظم باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السما يعلم الملك قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا وسائر امراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الاعمال ، أنا نحن جند الله فى ارضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فأتعظوا بغيركم ، وأسلموا الينا امركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا . فلا تطباوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فأى أرض تأويكم ، وأى طريقة تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال . فقد انصفناكم اذ راسلناكم وايقظناكم اذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى من اطاع الهدى وخشى عواقب الردى واطاع الملك الاعلى .

فلم يكن لقطز من رد على هذه الرسالة الا أن قتل سفراء التتار وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، محددا بذلك القضية فأما انتصار على التتار وأما فناء .

موقعة عين جالوت :

وبدأت الارهاصات تكشف عن طبيعة المعركة القادمة وتثبت من عزائم المماليك المصريين ، فقد مات خان المغول الاعظم مانجوخان ، فعاد هولاكو بجمهرة جيشه الى الشرق ليكون على مقربة من الاحداث .

ولم يخلف فى الشام من جيوش المغول سوى عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة قائد جيشه الاول كتبغا .

ومن ناحية أخرى ، فان المماليك البحرية الذين كانوا فى الشام وعلى راسهم بيبرس وقلاوون : قد حز فى قلوبهم ما أصاب العالم الاسلامى على يد المغول ، فكتبوا

لقطز يطلبون منه أن يعفو عنهم ليقفوا معه صفا واحدا لقتال التتار فاستجاب لهم قطز وجاءوا الى مصر فكان لمقدمهم اثر كبير فى رفع الروح المعنوية فى الجيش .

فلم تكد الأخبار تصل قطز بزحف كتبغا نحو مصر واستيلاء طلائعه على غزة، حتى قرر قطز أن يخرج بالجيش المصرى لمواجهتهم فلما تردد بعض الأمراء فى الخروج ، واقترحوا الانتظار حتى يقدم التتار ... هددهم قطز أن يسير وحده ومن يريد لمحاربة التتار ، فاضطروا للانصياع لأمره .

وعين قطز بيبرس البندقدارى على رأس مقدمة الجيش فأسرع الى مدينة غزة ، وكانت عساكر التتار الموجودين بها قد ارسلو الى أميرهم كتبغا يطلبون منه أن يوافيهم بالنجدات ليستأنفوا الزحف على مصر ولكن بيبرس عاجلهم قبل وصول النجدات بالهجوم عليهم ، فأنزل بهم هزيمة وطاردهم حتى نهر العاص ، فكانت هذه أول هزيمة تلحق بالتتار الذين كان الرعب منهم يحمل جيوشا بأكملها على الاستسلام فكان ذلك أول الفتح فقويت عزائم المسلمين ، وامتلأوا بالأمل فى هزيمة التتار .

ووصل قطز على رأس بقية الجيش ، وصحب بيبرس وسارا معا بحذاء الساحل الصليبى بعد أن نجح فى حمل الصليبيين على الوقوف على الحياد ، ثم اتجهوا شرقا عبر الجليل الى الأردن لاسترداد دمشق من المغول .

وفى هذه الأثناء كان كتبغا كبير التتار قد علم بهزيمة رجاله عند غزة فأسرع بالحضور وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب . وهكذا التقى المغول بجيش مصر عند قرية عين جالوت بين بيسان ونابلس فى أوائل سبتمبر .

وتتضمن كتب التاريخ تفاصيل سير المعركة وكيف تقلبت بين المد والجزر ، والذى يهمنا هنا أن نسجله أن بطل هذا اليوم كان هو قطز بلا مراء ، فقد حدث أن فر المماليك من حوله أثناء سير المعركة فثبت فى مكانه ، بل وخلع خوذته وقذف بها على الأرض وصاح صيحته الخالدة « واسلاماه » وانقض على التتار بنفسه ، فكان لفعلته أكبر الأثر فى اعادة الثقة الى المماليك الذين عادوا واستأنفوا القتال ... وكرر قطز هذا الموقف مرة ثانية ، عندما أوشكت المماليك على الفرار مرة أخرى .

وهكذا حتى تم النصر النهائى ووقع كتبغا فى الأسر ولم يلبث أن قتل ، وفرت جنود التتار لأول مرة فى تاريخ حياتهم مذعورين ومن ورائهم فرسان المماليك وعلى رأسهم الظاهر بيبرس (١) فطاردهم وقتل منهم وأسر . بينما كان قطز ، ينزل عن حصانه ويمرغ وجهه على الأرض شكرا لله ، ولم يترك مكان المعركة الا بعد أن صلى ركعتين لله .

---

(١) كان الظاهر بيبرس بعد أن أصبح سلطانا شديدالاحتفال بوقعة عين جالوت معتبرا نفسه صاحب الدور الأكبر فيها ، حتى لقد أقام بعد سلطنته نصبا فى مكان المعركة ، لعله أول وآخر نصب من نوعه فى تاريخ الدولة الاسلامية .

نتائج معركة عين جالوت :

ولسنا فى حاجة للوقوف طويلا أمام تحليل النتائج التى أدت اليها معركة عين جالوت بالنسبة للاسلام بل بالنسبة للحضارة الانسانية كلها ، فالمؤرخون الأوربيون يعترفون بأن هذه المعركة لم تنقذ العالم الاسلامى وحده ، بل لقد أنقذت العالم المسيحى كذلك ، لأنه لم يكن فى أوربا المسيحية كلها وقتذاك ملك قوى يستطيع مقاومة المغول لو انهم انتصروا على المماليك واستولوا على مصر . (المغول فى التاريخ) .

نتائج المعركة بالنسبة للمماليك :

على أن أحد النتائج المباشرة لموقعة عين جالوت ، هى تثبيت حكم المماليك بصفة نهائية ، لاعلى مصر فحسب ، بل على مصر والشام . فقد وصل قطز الى مدينة دمشق ، وسط الاحتفالات التى لم تشهد مثلها فى ظل تاريخها ، وفى دمشق جاء حكام المدن الشامية من الأيوبيين مستسلمين لقطز وطائعين ، فأمنهم وأعاد كل منهم الى مركزه على أن يكون تابعا له .

اما الملك الناصر صاحب الشام ، فكان قد عاد الى ضلاله القديم ، فبعد أن استغاث بسلطان مصر وغادر دمشق عند زحف التتار عليها ، متوجها الى مصر ، فقد عاد ادراجه ، واستسلم لهولاكو الذى اصطحبه معه ، فلما أن وصلت اليه أنباء هزيمة جيشه على يد قطز لم يجد مايفتأ به غضبه الا أن يقتل الملك الناصر .

وهكذا خسر الملك الناصر يوسف الدين والدنيا لشديد حرصه على الملك ، وفى الوقت الذى كان المماليك فيه قد أصبحوا فى نظر العالم الاسلامى كله حماته ومنقذيه .

مصرع قطز :

على أن هذا النصر الذى لايزال قلب الانسانية يخفق لذكراه ، سرعان ماشابته شائبة مكدرة ، اذ بينما كان قطز يتهيأ للعودة الى مصر ، وقد سبقته البشائر اليها فأقيمت الاحتفالات والزينات فى انتظار مقدمه ، لتجزيه عما فعل لمصر والاسلام، كان بيبرس البندقدارى يدبر لقتله فى الطريق ، فعندما وصل الجيش الى الصالحية ، اظهر السلطان قطز رغبته فى الصيد فصحبه المتآمرون وعلى رأسهم بيبرس ، فلما فرغ السلطان من الصيد ، تقدم اليه بيبرس متظاهرا بتقبيل يده شكرا على منحه اياه جاريه تتريه كان قد اعجب بها بيبرس ، فلما امسك بيده كانت هذه هى اشارة للمتآمرين فانقضوا عليه واعملوا فيه سيوفهم حتى أجهزوا عليه .

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور مرددا قول الدكتور محمد جمال الدين سرور ، وكلاهما الف عن الظاهر بيبرس كتابا . أن السبب فى فعلة بيبرس، هو رفض قطز اعطاء نيابة حلب لبيبرس وانه بذلك : قد تنكر لجميل بيبرس ، وعدم اعطائه نيابة حلب لبيبرس قد اظهر قصر نظر قطز لأن المكانة التى أحرزها فى ذلك الوقت كانت اعظم من أن يتجاهلها انسان ، ولو كان قطز حكيما لألهى بيبرس بنيابة حلب

وبذلك يأمن منافسته له فى مصر . ونحن من ناحيتنا لانرى فى هذه الجريمة النكراء مايقبل عدلا ولاحرفا ولاشفعا ولا وترا ، وانه شىء يجل عن الوصف ، ان يقتل رجل من أعظم الرجال غداة انقاذه لمصر والعالم الاسلامى والانسانية من خطر داهم ، لغير سبب جناه ، فقد رأينا أن بيبرس كان عاصيا وخاض المعارك ضد جيوش مصر ، حتى اذا طلب العفو من قطز عفا عنه واتاح له فرصة الجهاد فى سبيل الله ، والوقائع التى رويناها عن مصرع قطز تثبت انه كان قد جعل من بيبرس محل ثقة حتى صحبه معه فى رحلة صيد ، وتثبت انه منح بيبرس الجارية التى يريدها ، حتى أن بيبرس تقدم له تحت ستار الرغبة فى شكره .

ويذهب الأستاذ الكبير على احمد باكثير فى روايته التاريخية الفذة « واسلاماه » الى أن قطز كان منتويا أن يستخلف بيبرس سلطانا على مصر من بعده وهذا سبب اصطحابه له .

ولا جدال فى ان بيبرس قد لعب بعد هذا الحادث فى تاريخ مصر والشام والاسلام دورا عظيما جديرا بكل تقدير واعظام ، ولكن هذا لايمنع أن المقاييس الخلقية كلها تنكر هذا الذى اقدم عليه بيبرس والذى لايسفر الا على ضوء نوع الحياة التى كان المماليك يحيونها ، والتى جعلت كلا منهم على استعداد أن يقتل او يقتل فى أى لحظة باعتباره مجرد آلة للفتك .

وكان مقتل قطز فى يوم السبت السادس عشر من ذى القعدة من هذه السنة فلم تزد مدة حكمه كسلطان على سنة الا يوم . ولكنها كانت سنة بمئات السنين ، فقد كانت سنة فاصلة بين قدر وقدر .

سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى :

ينتمى بيبرس الى العائلة التركية وقيل انه من قبيلة القيبجاق فى جنوب روسيا، وقد اشتراه الأمير علاء الدين البندقدار أحد مماليك الملك الصالح ايوب ابان أعتقاله فى دمشق ، واشتراه بثمن بخس ، وعندما أفرج عن الأمير علاء رجع الى مصر وفى صحبته بيبرس الذى انتسب كما هى العـــادة الى سيده فأصبح اسمه بيبرس البندقدارى ، ثم آلت ملكيته الى الملك الصالح ايوب فأعجب بذكائه وهمته فأعتقه وأصبح عنده من المقربين ، وقد مر بنا فعله بأبنه توران شاه عندما اشترك فى قتله ، وكيف سارت حياته بعد ذلك حتى انتهى الى قتل قطز ، يقول المؤرخون انه بعد ان قتل المتآمرون قطز فى الصيد عادوا الى بقية الجيش وكان قد شاع نبأ مقتل قطز، فسأل أمير الأمراء المتآمرين :

ـ من الذى قتل السلطان قطز ؟

قال بيبرس :

ـ أنا قتلته .

فقال الأمير :

ـ ياخوند أجلس في مرتبة السلطان مكانه .

وهكذا أصبح بيبرس سلطانا ، ولقب في بادىء الأمر بالملك الناصر ثم أستبدل ذلك بالملك الظاهر .

ودخل الظاهر بيبرس الى القاهرة وسط الزينات والمهرجانات التى أقيمت استعدادا لاستقبال قطز ، فراح المنادى ينادى الناس :

ترحموا على الملك المظفر قطز ، وادعوا بالنصر لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس

١٢٦١ م ـ ٦٥٩ هـ : نقل الخلافة العباسية الى مصر :

يعتبر الكثيرون الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر ، فهو واضع الأنظمة التى جرى عليها العمل من بعده ٢٥٠ سنة . ونحن لانوافق على هذا الراى ، فالحكم المملوكى كان قد قام وتأصلت أسسه وقواعده ، فاعترف به الخليفة العباسى فاخذ الصبغة الشرعية ثم جاءت موقعة عين جالوت فكرست الحكم من الناحية الواقعية والفعلية .

وحقيقة الأمر أن الظاهر بيبرس طالت أيام حكمه ، فوضحت معالم الحكم المملوكى فى أحسن صورها .

وكان من آحكم ماأقدم عليه الظاهر بيبرس وما يشهد له بأنه رجل دولة ، فوق كونه فارسا مغوارا ، انه انتهز فرصة تقوض الخلافة العباسية فى بغداد لكى يحييها فى مصر ، ولقد مر بنا محاولات ابن طولون والأخشيد من بعده لنقل الخلافة العباسية الى مصر فلم يهيأ لهما ذلك ، فقد كانت بغداد لاتزال بكل ثقلها ووزنها وما ترمز اليه من عظمة وسؤدد فلما دالت دولة بغداد أصبح الطريق معبدا لهذه الخطوة . فلم يكد يصل الى مصر شخص يدعى أبو القاسم أحمد وبصحبته جماعة من العربان وطواشي بغداد يشهدون بنسبة وأنه ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، حتى انتهز الظاهر بيبرس هذه الفرصة الذهبية ، فجمع مجلسا من العلماء والفقهاء والقضاة ، وبايعوا الامام أحمد خليفة على المسلمين وأطلقوا عليه لقب المستنصر بالله . ولم يكد المستنصر يصبح من الناحية الرسمية خليفة حتى قلده بدوره حكم : الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفرانية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا وثمدا . وفوض اليه أمر جندها ورعاها ، بعد ان اصبح بالمكارم فردا . وقد اورد المقريزى نص هذا التقليد فى كتابه السلوك وهو اشبه ما يكون بدستور مثالى لما يجب ان يكون الحاكم فى زمن السلم والحرب .

ويتهم البعض الظاهر بيبرس انه بعد أن حصل على اعادة الخلافة العباسية فى مصر على عادته ، فقد راى ان يتخلص من الخليفة نفسه حتى لايتحول الى خطر عليه فأرسله الى بغداد مع بعض العسكر لاسترداد ملكه فكان فى ذلك نهايته حيث

قتله التتار ، ويقولون أن الظاهر بيبرس كان يعرف أن مثل هذه المهمة الجبارة لا ينهض بها الخليفة بهذا العدد القليل من الجند ، ولو كان جادا فى هذه القضية ، لسار معه بنفسه بكل جيشه .

ولكن يرد على ذلك باحتمال أن يكون الخليفة العباسى الجديد هو الذى طلب من الظاهر بيبرس أن يقوم بهذه الحملة ، فلم يكن باستطاعة بيبرس الا ان يجيبه الى طلبه .

الخليفة الحاكم بأمر الله :

استحضر الظاهر بيبرس فى العام التالى اميرا عباسيا جديدا ، وجعل منه خليفة بدلا من الخليفة الراحل ، ولقب باسم الحاكم بأمر الله . ويبدو أن الظاهر بيبرس فى خلال هذه المدة ، كان قد راجع نفسه فيما يجب ان يكون عليه دور هذا الخليفة، فحظر عليه أن يظهر فى المناسبات العامة ، وحظر عليه أن يقابله أحد الا باذن من السلطان فاصبح محجورا عليه فى خلافة وصفها المقريزى بأنها : لا أمر فيها ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين .

وأصبح المستفيد الوحيد من اعادة الخلافة العباسية هم سلاطين المماليك ، اذ أصبح لهم المقام الأسمى على كل ملوك وحكام العالم الاسلامى . باعتبارهم حماة الخلافة المستمتعون ببيعتها .

أصبحت القاهرة هى البلد الوحيد الذى يتطلع اليه العالم الاسلامى كله ويدين له بالولاء . حقا لقد كانت القاهرة مقر خلافة فاطمية كما تعرف ، ولكن كان ينازع هذه الخلافة العباسيون فى الشرق ، والأمويون فى الغرب ، اما فى هذه الفترة من تاريخ العالم الاسلامى فلم يعد باقيا فيها الا خلافة واحدة يستظل العالم الاسلامى كله بلوائها وهى خلافة عباسية فى مدينة القاهرة .

وسرعان مانهضت القاهرة الى مستوى المكانة التى رفعتها اليها الأحداث . فلم تلبث أن تكون هى حامية التراث الاسلامى ومنقذته من التبدد والضياع ، بما سيؤلف فيها من موسوعات فى شتى فروع المعرفة ، هى سبيلنا فى الأيام الحاضرة للاحاطة بالتراث الحضارى الاسلامى .

١٢٦٥ م ــ ٦٦٣ هـ : بناء المدرسة الظاهرية ببين القصرين :

تم انشاء المدرسة الظاهرية فى هذه السنة . وفى يوم الأحد الثالث عشر من صفر بدأ التدريس فيها . وقد خصص لها المدرسون فى مختلف فروع العلوم الدينية ووقف عليها خزانة كتب ، وبنى الى جانبها مكتب لتعليم الأيتام وأجرى عليهم الخبز فى كل يوم وكسوة الفصلين .

١٢٦٥ م – ٦٦٣ هـ : تعيين أربعة قضاة للمذاهب الأربعة :

فى هذه السنة اوقف ماكان العمل جاريا عليه من تخصيص القضاء بالمذهب الشافعى ، واقام نظام القضاة الأربعة بحيث كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة الشافعى والحنفى والمالكى والحنبلى قاض مستقل يحكم على حسب فتوى مذهبه .

١٢٦٧ م – ٦٦٥ هـ : ابطال المنكرات فى مصر :

وفى هذه السنة ابطل الظاهر بيبرس ضمان الحشيشة وأمر باحراقها واخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمور فأراقها ، ومنع الحانات من الخواطىء وعم هذا الأمر سائر الجهات المصرية ، والجهات الشامية .

وقد وصف لنا الشيخ شمس الدين بن دانيال صاحب كتاب طيف الخيال حالة مصر فى هذه السنة : لما قدمت من الموصل الى الديار المصرية ، فى الدولة الظاهرية ، سقى الله من سحب الأنعام عهدها ، واعذب مشارب وردها ، فوجدت مواطن الأنس دارسة وارباب اللهو والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة ، وهزم أمر السلطان ، جيش الشيطان ، وتولى والى القاهرة اهراق الخمور ، وأحراق الحشيش

وشاعت بذلك الأخبار ، ووقع الانكار واختفى المسطول فى الدار وقد آذى الخلاعة غاية الأذية . وقد دعانى بعض اصدقائى الى محله واعتذر الى عن تقصيره فى الاكرام ، اذ لم يأتنى بمدام . وقال قد غلب على ظنى ان أبا مرة (ابليس) قد مات، وعد من الرفات فقم بنا نبكيه ونصف الحالة ونرثيه فابتدأت وقلت فى هذا المعنى .

وقال ابن اياس الذى اورد هذه الرواية بقصيدة ضافية الذيول ينعون فيها ابطال الخمر والملاهى وسائر المنكرات .

جهاد بيبرس ضد الصليبيين :

امضى الظاهر بيبرس السنوات العشر التالية لاستقراره فى الحكم فى جهاد مستمر ضد التتار من ناحية وضد الصليبيين من ناحية اخرى ، حيث اتخذ هذا الجهاد الاخير فى بادىء الامر صورة الغارات المتفرقة ثم تحولت الى معارك واسعة النطاق تنتهى بالاستيلاء على حصون وقلاع ومواقع هامة . ولكنه لم يتوصل الى ذلك ، الا بعد ان كان عليه ان يسوى حسابه مع التتار اولا .

ومن حسن حظ العالم الاسلامى ان احدى فرق المغول التى استقرت فى القبجاج (وادى المغول) والتى كان يطلق عليها اسم « القبيلة الذهبية » قد اعتنقت تعاليم الاسلام ، واصبحت على خلاف مع تتار ايران الذين يهددون العالم الاسلامى .

وتبادل زعيمها (بركة خان) الرسائل والسفارات الودية مع الظاهر بيبرس : حتى بلغ عدد هذه السفارات تسعا فى عهد حكم الظاهر بيبرس وحده ، وظلت

مستمرة بعد ذلك مع خلفاء الظاهر . وقد كان لاسلام القبيلة الذهبية ، ولوقوف زعيمها بركة خان الى جوار المسلمين أثر فى تخفيف الضغط الى حد ما ، عن العالم الاسلامى . بل ان لين بول يذهب الى حـد القول انها هى السبب فى انقاذ الاسلام من الفنـاء .

وكان انكسار حـدة الخطر المغولى : هـو الذى مكن الظاهر بيبرس أن يتفرغ لجهاد الصليبيين .

ولكنه قبل ان يقدم على حرب الصليبيين ، رأى ان يتابع سياسة الايوبيين فى عزل صليبى فلسطين عن العالم المسيحى الخارجى ليسهل عليه الانقضاض عليهم . ولذلك فقد دخل فى مفاوضات انتهت الى معاهدات واتفاقات مع امبراطور بيزنطة بعد ان نجح هذا الاخير فى طرد الحاكم اللاتينى البندقى من القسطنطينية . كما أبرم معاهدة مع منفرد امبراطور الدولة الرومانية الغربية وقد سـجل لنا ابن واصل (مؤلف مفرج الكروب) الذى قام بالسفارة بين الظاهر وبين منفرد ، تفاصيل بعثته ومهمته وما وجده فى صقلية وجنوب ايطاليا من مدن اسلامية .

حتى اذا اطمأن الظاهر بيبرس الى سلامة موقعه السياسى والعسكرى بدأ غزواته الموفقة ضد الصليبيين فى فلسطين فراحت معاقلهم تتساقط واحدة بعد أخرى طوال السنوات الماضية ــ قلعة قيسارية (٥ مارس سنة ١٢٦٥) مدينة ارشوف (٢٦أبريل سنة ١٢٦٥) واستسلمت له قلعة صفد (٢٣ يونية سنة ١٢٦٦) وسقطت مدينة يافا فى يده (فبراير سنة ١٢٦٨) .

١٢٦٨ م ــ ٦٦٦ هـ : سـقوط دولة انطاكية الصليبية :

فى ٥ رمضان (٢٠ مايو) توج الظاهر بيبرس انتصاراته ضد الصليبيين بالاستيلاء على مدينة انطاكية مركز احدى دويلات الصليبيين القوية فأحدث سقوطها دويا فى العالم الاسلامى والمسيحى معا ، فقد كانت انطاكية هى ثانى دولة صليبية انشئت فى الشرق بعد دولة الرها ، وكانت تعتبر أكبر حصن للصليبيين فى الشرق ، فهى مدينة قوية محصنة عجزت بيزنطة بكل قوتها أن تستولى عليها .

ولم يبق بعد سقوط انطاكية ، سوى مملكة طرابلس فى الشمال وعكا وصـور فى الجنوب ، وقد عادت كلها فطلبت عقد الصلح مع الظاهر بيبرس ، فأجابهم الى هذا الصلح . ويقال أن الظاهر بيبرس دخل الى طرابلس متخفيا باعتباره أحـد أعضاء وفد المفاوضات ليعرف مداخل المدينة ومخارجها تمهيدا لفتحها فى الوقت المناسـب .

١٢٧٠ م ــ ٦٦٨ هـ : الحملة الصليبية الثامنة :

اهتزت أوربا كما هو دأبها لسقوط انطاكية ، وارتعد البابا اربان الرابع فدعا

لويس التاسع ملك فرنسا بعد أن أصبح يطلق عليه اسم الملك القديس ، ليعد حملة صليبية جديدة على أن اربان لم يلبث أن توفى وخلفه البابا كلميت الرابع فكتب الى ملوك أوربا يهيب بهم ويستحثهم لانقاذ الدولة الصليبية فى الشرق ، فلم يستجب له سوى لويس التاسع ملك فرنسا ، ورغبة من البابا فى تشجيع لويس على تدبير الحملة فقد أطلق يده فى أموال الكنائس يأخذ منها ما يشاء ، فشرع لويس التاسع فى تجهيز الحملة الصليبية الثامنة وكأنه يريد ان يثأر لما منى به من فشل فى المرة السابقة ووصل نبأ الاستعداد لهذه الحملة الى الظاهر بيبرس فترك الشام الى مصر ليتخذ الاجراءات اللازمة لمواجهتها .

تحول الحملة الصليبية عن وجهتها :

رفضت البندقية أن تنقل جيوش هذه الحملة الى مصر أو الشام حرصا على اتفاقاتها التجارية وعلاقاتها الودية مع مصر . فاستعان لويس التاسع بسفن جمهورية جنوا التى بدأت تنافس البندقية ، وعندما وصلت الحملة الى جزيرة صقلية ، استطاع شارل دانجو أخو لويس التاسع والذى كان قد أصبح ملكا على الجزيرة ، أن يقنع لويس التاسع بأن يتجه بالحملة صوب تونس للاستيلاء عليها أولا بدلا من مصر أو بيت المقدس مصورا له أن عملية الاستيلاء على تونس ستكون هينة لينة ذلك أن هوى سلطان تونس (على مازعم) مع المسيحيين وسيفتح للحملة ذراعيه . وان الاستيلاء على تونس هو خير طريق للاستيلاء على مصر من طريق شمال افريقيا .

واستمع لويس التاسع لهذا التوجيه ، فقصد بجيشه المؤلف من ستين الف مقاتل الى تونس ، وانتهت الحملة بالاخفاق الذريع فقد قاومتهم تونس وانتشر الطاعون بين افراد الحملة ، ومات لويس التاسع نفسه ضحية للطاعون ، دون أن تكتحل عيناه برؤية ذهب تونس الموعود فضلا عن الوصول الى وادى النيل ، وحاول شارل ان يواصل الحرب ولكنه اخفق بدوره عن أن يحقق نصرا ، فدخل فى مفاوضات مع المستنصر الحفصى سلطان تونس ، مبديا الاستعداد للانسحاب بالحملة من تونس مقابل دفع مبلغ من المال على سبيل التعويض عما أنفق فى الحملة . واشترى سلطان تونس السلام بدفع هذا المبلغ . وانسحبت فلول الفرنسيين من تونس تجر أذيال الهزيمة والاخفاق . وكان ذلك آخر العهد بالحملات الصليبية الاوربية ، فقد كانت الريح بدأت تهب فى اتجاه مغاير .

١٢٧٣ م — ٦٧٢ هـ : تصفية خطر الاسماعيلية (الحشاشين) :

وتنفس الظاهر بيبرس الصعداء ، ورأى ان يستعد للجولة الاخيرة لتصفية الصليبيين فى فلسطين ، ولكنه رأى قبل أن يقدم على خطوته الاخيرة ، أن يخلص المجتمع الاسلامى من احدى البؤر التى كانت تهدده دائما بكثير من المخاطر والاضرار ، وتلك هى الطائفة الاسماعيلية ، التى طالما أرقت بفدائييها أبطال العالم الاسلامى ، والتى أوشكت يوما ما أن تفجع المسلمين باغتيال صلاح الدين ، وكان خطرهم المميت

يتجلى اكثر مما يتجلى فى تحالفهم مع الصليبيين ضد المسلمين فى كل الغزوات التى قام بها الصليبيون .

وكان نجم الاسماعيلية فى افول ، بعد ان قضى عليهم جنكيزخان فى بلاد فارس ، ومع ذلك فقد ظل لهم عدد من القلاع القوية فى بلاد الشام . مثل مصياف والعليقة والقدموس والخوابي والكهف والرصافة وغيرها .

وقرر الظاهر بيبرس ان يستولى على هذه القلاع كلها ، بالسلم والمفاوضة حينا وبالقوة حينا آخر ، حتى استولى على هذه القلاع كلها ، وسير الاسماعيلية الى مصر ، حيث اقطعهم بعض الاقطاعيات ، فلم يلبثوا ان زال خطرهم وذابوا فى شعب مصر المسالم .

١٢٧٢ م ــ ٦٧١ هـ : هزيمة التتار على نهر الفرات :

فى الخامس من جمادى من هذه السنة وصلت الاخبار الى الظاهر بيبرس وكان مقيما فى دمشق ؛ أن التتار يحاصرون مدينة البيرة ويرابطون على شاطىء الفرات ليحولوا دون وصول النجدات اليها . فسار اليهم الظاهر فى جيشه واستطاع أن يهزم التتار وأن يجليهم عن شاطىء النهر بعد ان عداه سباحة من فرسانه وارتد التتار عن مدينة البيرة مخلفين وراءهم معسكرهم وانقالهم وازوادهم ، ودخل الظاهر الى مدينة البيرة فائزا منتصرا .

١٢٧٥ م ــ ٦٧٤ هـ : فتح بلاد النوبة والسودان :

انتهز داود ملك النوبة المسيحى فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه ضد الصليبيين والاسماعيليين فى الشام ، لكى يخرج الى الظاهر بيبرس ويشن الغارات على مدينة أسوان ، وميناء عيذاب ونهب ما فى البلدتين وأحراقهما ، فبعث اليه الظاهر بجيش هزمه هزيمة منكرة وطارده داخل بلاده وأستولى على كل بلاد النوبة حتى مدينة دنقلا ووضع على العرش النوبى شكنده الذى أخذ على نفسه أغلظ المواثيق أن يكون تابعا مخلصا أمينا لسلطان مصر . وأن يؤدى كل عام من العبيد والحيوانات والاموال ما جرى الاتفاق على تقديمه منذ أقدم العصور .

١٢٧٦ م ــ ٦٧٥ هـ : انتصار الظاهر على التتار :

قرر بيبرس أن ينزل ضربة قاضية بالتتار الذين ما انفكوا منذ ولى السلطان يهاجمون أطراف مملكته ويستولون على بعض المدن الشمالية فلا يكاد يسرع اليهم حتى يتقهقروا متخلين عنها . ورأى الظاهر أن يضربهم فى معقلهم الجديد بآسيا

الصغرى ، فقد كانوا قد استقروا بها بعد أن اخضعوا سلاجقة الاتراك لسلطانهم واصبح معين الدين برواناه السلطان السلجوقى يحكم باسمهم تحت رقابة جيش مغولى كبير يرابط فى بلاده . فزحف الظاهر بيبرس فى هذه السنة بجيشه الذى اصبح يتألف من أحد عشر الفا من المماليك المختارين المدربين . وعند مدينة ابلستين تم اللقاء بين التتار وجيش بيبرس ١١ ذى القعدة (١٦ ابريل) ودارت معركة من أعنف المعارك ، انتهت بهزيمة التتار وقتل قائدهم ، وبلغ عدة من جندل على أرض المعركة منهم سبعة آلاف قتيل ، أضاف اليهم الظاهر بيبرس الاسرى اذ أصدر أمره بقتلهم جميعا .

وقد قرر لايقاء ملك التتار ان يمر بأرض المعركة فلم يتملك نفسه على ما يقول لنا مؤرخ المغول رشيد الدين الهمزانى ، من البكاء حزنا على رجاله .

اما الظاهر فقد دخل مدينة (قيساوية) قصرية عاصمة الاتراك السلاجقة طوال المائتى سنة السابقة ، وجلس على عرش السلاجقة يتلقى ولاء الشعب وقد اقيمت الصلوات باسمه فى المساجد ، وضربت السكة باسمه ، ووفدت اليه أمراء الاطراف والنواحى يقدمون خضوعهم وتبارى الشعراء فى تخليد هذا الانتصار الرائع بقصائدهم التى لا تزال تحفظها كتب التاريخ .

١٢٧٧ م – ٦٧٦ هـ : وفاة الظاهر بيبرس :

فى يوم الخميس الثامن والعشرين من المحرم مات الظاهر بيبرس فى مدينة دمشق بعد مرض أستغرق اسبوعين .

وهكذا طويت صفحة بطل آخر من اكبر أبطال المسلمين ، واذا كان يشين بطولته من وجهة نظرنا عدوانه على قطز وغدره به ، فقد عاش بقية حياته بعد ذلك يحاول التكفير عن هذه الفعلة فقد كان شديد الحرص على أن يعوض المسلمين خسارتهم بفقدان قطز . فانتصر اكثر من مرة على التتار ، وشرع فى تقويض بنيان الدولة الصليبية .

عهد بناء وانشاء وتعمير :

وعلى الرغم من أن الصفة الغالبة على عهد الظاهر بيبرس ، هى انتصاراته العسكرية فأن منشآته المدنية والعمرانية كفيلة وحدها بأن تجعله على رأس من حكموا مصر . وتخصص كتب التاريخ صفحات عديدة لتعداد هذه المنشآت وحسبنا أن نشير اليها ليدرك الباحث مدى اتساع نطاقها .

قناطر :

انشأ قناطر شبرامنت بالجيزة وعمر جسر القليوبية والقناطر التى على بحر

ابى المنجا — وقنطرة السباع ، وقنطرة مينا السيرج — وقنطرتين عند القصير على بحر أبراس بسبعة أبواب لكل قنطرة .

وانشأ فى الجسر الذى سلك فيه الى دمياط ست عشرة قنطرة وبنى على خليج الاسكندرية قنطرة عظيمة بعقد واحد .

الـتـرع :

وانشأ من الترع والخلجان كما كانت تسمى : خليج اسكندرية الذى أعاده الى سابق فاعليته ، وحفر بحر أشموم وترعة الصلاح وخور منجا والمحارى والكافورى وأبو الفضل ، وبحر الصمصام بالقليوبية وبحر سردوس .

المدارس والجوامع والقصور :

انشأ المدرسة الصالحية ، وعمر الجامع الكبير الذى فى زقاق الكحل خارج الحسينية (والذى لا يزال قائما « بالظاهر ») وانشأ دار الذهب بقلعة الجبل . ودورا وقصورا بظاهر القلعة . والبرج الكبير بقلعة الجبل .

كما جدد الجامع الانور والجامع الازهر وأعاد اليه الخطبة بعد أن كان خرابا منذ بدأت الدولة الايوبية . وبنى جامع العافية بالحسينية وانفق عليه اكثر من الف الف درهم .

وانشأ قريبا منه زاوية الشيخ فضل . وعمر بالمقياس القبة وانشأ بها عدة جوامع وعدة قلاع .

فى الاسكندرية ودمياط :

وعمر سور الاسكندرية ، وجدد المنائر التى بها وعمر منارا بثغر رشيد وردم فم بحر دمياط حتى لا تدخل اليه مراكب الافرنج .

الاسـطول :

وعمر الشوانى (أى الاسطول) وأعاده الى سابق قوته بعد أن كان الاسطول قد بلغ نهاية ضعفه أيام الصالح أيوب فجدده بيبرس حتى اصبح لدى مصر ما يزيد على أربعين سفينة حربية كبيرة مما كانت تسمى (الشوانى) وأضعاف هذا العدد من الجرار ويعدو الطرائد ونحوها وكان ينزل بنفسه الى دار الصناعة بجزيرة الروضة ويشرف بنفسه على بناء السفن .

ولم يقلل من اهتمامه بالاسطول ، الاخفاق الذى منى به الاسطول عند محاولته فتح قبرص بسبب الريح التى اطاحت به ، فقد اعاد بناء الأسطول واعاده الى اكبر من قوته الضائعة .

فى بلاد الشـــــام :

وبنى بالبلاد الحجازية والشامية ما لا يمكن حصره من القلاع والعمائر والمساجد .

يقول ابو المحاسن : وبالجملة فقــد بنى أيامه بالديار المصرية ما لم يبن مثله ايام الخلفاء المصريين ولا ملوك بنى أيوب ، من الابنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات .

واضع نظـم دولة المماليك :

وكان هو واضع درجات الوظائف الكبرى ــ كأمير السلاح وأمير المجلس ورأس نوبة والحاجب والخازندار وأمير آخور والسراخور والجمدار . وحدد لكل هــذه الوظائف اختصاصها الذى ظل متبعا من بعده خلال قرنين من الزمان .

وهو الذى نظم البريد بحيث أصبح يمثل فى عصره ذروة ما وصل اليه البريد فى كل تاريخ الدولة الاسلامية على ما يقرره الدكتور نظير سعداوى .

وحيث وصل نظام استخدام الحمام الزاجل الى ما يقرب من أسرع بريد فى وقتنا الحاضر . وحلت الاشارات الضوئية بأشعال النيران ، محل اللاســلكى فى عصرنا الحديث . فلا يكاد التتار يهاجمون حدود الدولة فى الموصل ، حتى ينتقل الخبر فى ساعات الى مصر .

العلمـاء والأعــلام :

ويزين عصر بيبرس عدد كبير من الرجال الاعلام فى كل علم وفن ومجال . وعلى رأس الجميع الشيخ عز الدين عبد السلام الملقب بسلطان العلمــاء والذى اشرنا الى بعض مواقفــه .

والقاضى ابن خلكان صــاحب كتاب وفيات الاعيــان الذى عينه الظاهر بيبرس قاضيا لدمشق والذى ترك لنا مرجعا يعتبر من كنوز التاريخ . والمؤرخ جمــال الدين بن واصل .

وغص عصره بالشعراء واهمهم شرف الدين البوصيرى صاحب المسجد المشهور فى الاسكندرية ومؤلف قصيدة البردة فى مدح الرسول .

اشتداد تيار الصوفية :

ويزدان عصره بأسماء اقطاب التصوف الذين لا يزال الناس يبجلونهم حتى الوقت الحاضر من امثال ابو الحسن الشاذلى وابو العباس المرسى والسيد أحمد البدوى وابراهيم الدسوقى .

والقول على تيار التصــوف فى هذه الفترة : هو رد فعل ما حاق بالمســلمين من تدمير بغداد فى الشرق ، وتصدع الدولة الاندلسية فى الغرب ، مما جعل ريح الزهد والتقشف والعودة الى الله تتملك كثيرا من النفوس الحساسة .

بيبرس الأسطورة :

وبعد فقد استطاع الظاهر بيبرس أن يستولى على عقول معاصريه بحياته وأسلوكه ومعاركه وأسلوبه فى الحكم ، وظهوره فى كل مكان فى أرجاء دولته حيث لا يتوقعون ظهوره ، فحيث يظن انه فى مصر اذا به فى بلاد الحجاز يحج فى خشوع ، ويترك آثاره المعمارية قائمة حتى اليوم ، وحيث يظن انه فى قلعة الجبل ، اذا به يعيش فى احدى القرى على صورة درويش يستطلع احوال الشعب .

وهكذا ظلت الأساطير تنسج حوله ، فتلقف ذلك أديب مصرى مجهول الف لنا « سيرة الظاهر بيبرس » فكانت ملحمة للبطولة وظلت قرونا يتغنى بها الشعراء والقصاص فى المقاهى ومجالس السمر فتثير الحماسة والنخوة فى نفوس السامعين .

١٢٧٧ م — ٦٧٦ هـ : سلطنة الملك سعيد محمد بن الملك الظاهر :

فى يوم الجمعة ٢٧ صفر من هذه السنة بويع بالسلطنة محمد بن الملك الظاهر المدعو بركة خان وكان أبوه الظاهر قد أسماه بركة خان تيمنا باسم جده بركة خان زعيم مغول القبيلة الذهبية والذى تزوج الظاهر بيبرس ابنته فأنجب منها السلطان محمد المذكور . وقد لقب بالملك السعيد ناصر الدين .

وكان أبوه قد جعله ولى العهد من بعده عام ٦٦٢ هـ وزوجه ابنة كبير الأمراء سيف الدين قلاوون ليضمن ولاءه من بعد ، حيث كان يدرك ضيق المماليك به .

واذا كان القول على أن الظاهر بيبرس هو واضع اسس النظام المملوكى فباستطاعتنا أن نجد فى وصيته لابنه ، المبدأ الذى سار عليه كل سلاطين المماليك من بعده حيث قال له :

انك صبى وهؤلاء الأمراء الأكابر سيظلون ينظرون اليك باعتبارك صبى ، فأيما أمير بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت من ذلك فاضرب عنقه فورا ، لا تعتقله ولا تستشر أحدا فى هذا ، وافعل به ما أمرتك والا ضاعت مصلحتك .

ولم يجد السلطان الجديد نفعا من توصية أبيه له ، ولا زواجه من ابنة سيف الدين قلاوون ، فلم تكن له صفات أبيه وانما كان شابا حدثا محبا للهو واقعا تحت تأثير أمه المغولية من ناحية ، وحاشيته العابثة من ناحية أخرى . وقد حرضته حاشيته على كبار الأمراء فعزل بعضهم وحبس الآخر ، فتآمر المماليك عليه وقرروا خلعه .

١٢٧٩ م — ٦٧٨ هـ : خلع السلطان الملك السعيد :

كان الرجل الذى تصور الظاهر بيبرس وهو سيف الدين قلاوون أن يكون هو

يسند ابنه من بعده ، هو العامل على خلعه ، ولا عجب فى ذلك ، فقلاوون كان احد بناة حكم المماليك البحرية ، شهد الوقائع كلها الى جوار الظاهر بيبرس ، ولم يكن يرى أحد من ميزة عليه .

ولذلك فقد تزعم القرار بخلع السلطان سعيد ، فتم خلعه فى اليوم السابع عشر من ربيع الثانى من هذه السنة .

ورعاية لكونه زوج ابنة قلاوون ، فقد ملكوه حصن الكرك وسار اليه مع زوجته ابنة قلاوون .

تولية السلطان الملك العادل سلامش على مصر :

عرض الأمراء كما هى عادتهم السلطنة على قلاوون باعتباره اقواهم وأقدمهم والساعى على خلع السلطان السابق ، ولكن حنكة قلاوون ودربته رات أن لا يتعجل الأمر ، فقد كان يحس بعض المعارضـــة الخفية فى صـــفوف الأمراء ، ولذلك فقد قال لهم :

انا ما خلعت الملك السعيد طمعا فى السلطة ، والأولى أن لا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر . ورشح لهم بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس الصغير الذى لم يكن عمره يتجاوز سبع سنوات ليكون سلطانا ، على أن يكون هو مدبر المملكة أو بلغة ذلك العصر (اتابكا) فتم ذلك فى نفس اليوم الذى خلع فيه أخوه وأطلق عليه اسم العادل وعلى الوجه الآخر اسم قلاوون ، وخطب للاثنين معا على المنابر .

سلطنة منصور سيف الدين قلاوون على مصر :

لم تكد تمضى ثلاثة اشهر على تولية السلطان الجديد ، حتى كان قلاوون قد دبر اموره هو الى جـــوار تدبير امور المملكة ، فتخلص من بعض الأمراء الذين يخشى معارضتهم لسلطنته ، ووضع اهل ثقته فى المراكز الحساسة . حتى اذا اطمأن الى عمله جمع الأمراء واعلنهم أن الملك لا يصلح مع وجود طفل صـــغير فى السلطنة . فالمملكة لا تقوم الا على اكتاف رجل كامل فوافقوه على رأيه وعزل سلامش وأبعد الى الكرك ليكون مع اخيه بركة . وعين الابن الثالث للظاهر بيبرس واسمه خضر نائبا على حصن الشوبك .

١٢٨٠ م ـ ٦٧٩ هـ : ثورة سنقر الأشقر بالشام :

لم يعجب هذا التصرف احد اقطاب المماليك البحرية وهو سنقر الأشقر ، وكان قلاوون قد بعث به نائبا للسلطان على الشام ، فأعلن استقلاله بملك الشام ، وتلقب بالملك الكامل وحمل القضاة والأمراء والعامة على الاعتراف به ، وانضمت اليه قبائل البدو الشامية .

فبعث اليه قلاوون بجيش على رأسه الأمير علم الدين سنجر ، فاستطاع أن يهزم جيش سنقر الأشقر فى مكان قريب من دمشق بعد أن خذلته بعض فرقه وانحازت الى علم الدين . ولكن سنقر الأشقر لم يستسلم واستطاع مع فريق من انصاره أن ينحاز الى بعض المواقع فى شمال الشام وأن يتحصن بها ، وبعث برسله الى مغول فارس يحرضهم على غزو الشام وانه سيكون عونا لهم .

١٢٨١ م ــ ٦٨٠ هـ : هزيمة التتار فى موقعة حمص :

لم يكن التتار يترقبون خيرا من هذه الفرصة لكى يحققوا ما عجزوا حتى ذلك الوقت عن تحقيقه وهو احتلال الشام تمهيدا لاحتلال مصر . وكانوا قبل هذا التمرد الذى قام به سنقر الأشقر ، قد أغاروا على مدينة حلب ونهبوها ، ولكنهم عادوا الى بلادهم خوفا من تكتل جيش المماليك عليهم . أما هذه المرة فقد عقدوا العزم على خوض معركة حاسمة فجاءوا بقوة كبيرة .

وتسامع قلاوون بمقدمهم فخرج من مصر حاشدا كل ما استطاع حشده من قوى . وعندما وصل الى أرض الشام ، أدرك سنقر الأشقر أن لا قبل له بمعاداة قلاوون ، أو لعل ضميره قد استيقظ ثانية على استقدامه للتتار ، فاتصل بقلاوون طالبا منه العفو والصلح فمنحه اياه على الفور .

وفى يوم الخميس الرابع عشر من شهر رجب ، تم اللقاء بين جيوش التتار تحت قيادة منكوتمر بن هولاكو على رأس جيش يتراوح عدده ما بين ستين وثمانين ألفا .

وجيش مصر يزيد على خمسين ألفا ، وعلى ذلك فقد كانت معركة حمص تفوق معركة عين جالوت من حيث كثرة عدد الجند الذى اشترك فيها من الطرفين .

وبعد أن تقلب سير المعركة بين انتصار التتار فى أولها على الجناح الأيسر للجيش المصرى ، فان بقية الجيش (الجناح الأيمن) استطاعت ان تتغلب على التتار وأن توقع بهم هزيمة منكرة ، فر على أثرها التتار وفرسان المماليك تتعقبهم قتلا وأسرا ، حتى وصلت فلول المنهزمين من التتار الى نهر الفرات فغرق فيه عدد كبير منهم .

وقد أصيب منكوتمر نفسه فى المعركة ، ولكنه نجا بنفسه ليموت فى العام الثانى متأثرا باصابته وما أصابه فى المعركة .

وهكذا كانت موقعة حمص تتويجا لمعركتى عين جالوت وأبلستن وهى باتفاق المؤرخين أعظم هزيمة منى بها التتار .

وقد أعقبها ما يشبه الهدنة المسلحة التى دامت سبعة عشر عاما لم يجرؤ فى خلالها مغول ايران على العدوان على حدود الدولة الاسلامية المصرية .

ومن حسن حظ الاسلام والبشرية ، أن دين الاسلام لن يلبث أن يأخذ طريقه

الى قلوب سلاطين التتار ، ولذلك فعندما يستأنفون هجومهم على الدولة الاسلامية لن يكونوا خطرا ماحقا ولن يكرروا أساليبهم البربرية التى كانت دستورهم .

١٢٨٤ م — ٦٨٣ هـ : بناء القبة والمسجد والبيمارستان :

وفى هذه السنة أتم قلاوون مؤسسته الاجتماعية العظمى المثلثة الاغراض وهى المدرسة والقبة والبيمارستان والتى غلب عليها اسم البيمارستان (المستشفى) وقد قيل فى سبب بنائها على ما روى ابن اياس أن الملك المنصور أمر مماليكه ذات يوم أن يضعوا السيف فى العوام لأمر أوجب تغير خاطره عليهم . فلما راق خاطر السلطان ندم على فعلته بالناس وبنى هذا البيمارستان وفعل من أنواع الخير ما لم يفعله غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس ، لعل الحسنات يذهبن السيئات

ولكنا لا نميل لهذا الرأى ، لما اشتهر به قلاوون من حبه للعدل وكراهيته لسفك الدماء ، واذا كانت يد المماليك مبسوطة على بعضها فقلما كانوا يعترضون لعامة الشعب ظلما وعدوانا .

ولذلك فنحن نرجح الرواية الأخرى التى ذكرها المقريزى من أن سبب بنائها ، هو أن قلاوون مرض فى حياة الظاهر بيبرس وكان بدمشق فعالجه الأطباء بأدوية اخذت له من بيمارستان نور الدين الشهيد فشفى . ثم زار البيمارستان فلما رآه أعجبه ونذر أن اتاه الله الملك ان يبنى مارستانا مماثلا ، فلما تسلطن حقق نذره .

ولا جدال أن انتصاره الساحق على التتار ، قد قوى عزمه على المضى فى انشائه واتمامه على أحسن وجه .

القبــــة :

أما القبة فقد بناها قلاوون لتكون جامعا ومسجدا ومدفنا له بعد موته ، وقرر لها خمسين مقرئا يتناوبون قراءة القرآن ليلا ونهارا — ورتب لها اماما دائما لاقامة الصلوات كما جعل رئيسا للمؤذنين يؤذنون فوق منارة (مئذنة) ليس فى مصر اجل منها . ورتب بهذه القبة درسا لتفسير القرآن وعين له مدرسا ومعيدين وثلاثين طالبا .

كما كان يدرس بها الحديث النبوى . وانشأ فى القبة خزانة كتب عامرة .

المدرســــة :

أما المدرسة فقد انشئت على نهج المدارس أصبح انشاؤها مألوفا فى مصر ، لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ، وعين لها اماما وامينا ، ومعلمين لتدريس المذاهب الأربعة والحق بهـا ملجأ للايتام .

البيمارستان :

على انه لا القبة ولا المدرسة هى التى خلدت منشآت قلاوون العمرانية بقـدر

ما خلدها بيمارستانه الذى لا يزال يعمل حتى الآن بعد انقضاء خمسمائة عام على انشائه ، وهو اذا كان اليوم قد اقتصر على علاج العيون ، لقد كان عند انشائه أحد أعاجيب العصر ، كما قرر ذلك ابن بطوطة عندما زار مصر بعد انشائه بسنوات .

ويصف لنا المقريزى بتفصيل دقيق نظام البيمارستان ، فيأخذنا العجب لهذا الوصف الذى ينطبق على أرقى المؤسسات العلاجية فى عصرنا الحديث حيث يقول :

وقد رتب فيه الأطباء والعقاقير وسائر ما يحتاج اليه من به لعلاج أى مرض من الأمراض .

وجعل فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى وقرر لهم لعالم (أى المرتبات) ونصب الاسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها فى المرض . وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعا ، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها . وافرد قاعة للرمد وقاعة للجرحى وقاعة للاسهال وقاعة للنساء ، ومكانا للمبرودين منقسم الى قسمين . للرجال وقسم للنساء . وجعل الماء يجرى فى كل هذه الأماكن .

وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال وغيرها . ومواضع لتخزن فيه الحواصل (أى المؤونة) وجعل مكانا تفرق فيه الأشربة والأدوية (العيادة الخارجية) ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء — لالقاء دروس الطب .

وكان القائم بعمارة وانشاء هذا العمل العظيم هو الأمير علم الدين سنجر الشجاعى .

ويضيف لين بول فى أوصاف المستشفى وطرق العلاج به :

ان الموسيقى كانت تعزف للمرضى الذين لا يستطيعون النوم وتوج ذلك كله بتخصيص مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء دروس الطب (على مثال كلية الطب الملحقة بالقصر العينى) .

وكان المشرف على بناء هذا العمل العظيم هو الأمير علم الدين الشجاعى .

مؤسسة للملوك وعامة الشعب :

وبعد أن أوقف المنصور قلاوون على هذا المستشفى الأوقاف الجليلة التى تكفى لنفقاته السنوية والتى قدرت بألف ألف درهم خصص هذا العمل العظيم على من هو مثله (أى سلطان) فمن دونه ، وجعله وقفا على الملك والمملوك والجندى والأمير ، الكبير والصغير ، والحر والعبد ، الذكور والاناث .

ونحسب أن ليس فى الدنيا كلها من مشرقها الى مغربها قبل أيام قلاوون أو بعده

فى عصرنا الحديث ، أن كرست مؤسسة لكل البشر على السواء والصغير الحر والعبد الذكر والانثى والملك والجندى كما هو شأن هذه المؤسسة .

١٢٨٥ م ــ ٦٨٤ هـ : سقوط حصن المرقب الصليبى :

لم يكد قلاوون يخلص من الخطر المغولى بانتصاره الحاسم فى معركة حمص ، حتى تفرغ لمواصلة ما بداه الظاهر بيبرس من تصفية الدويلات الصليبية والتى كان لا يزال باقيا منها :

ــ مملكة طرابلس فى الشمال .

ــ مملكة القدس المستقرة فى عكا .

وكان الى جوار هذين المركزين عدد من القلاع والمواقع المتناثرة هنا وهناك ، تقيم فى بعضها فرسان الاسبتارية ، ويقيم فى بعضها الآخر فرسان الداوية .

فبدأ عملياته الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على هذه المراكز والحصون المتفرقة ، فتوجه الى اقواها واحصنها وهو حصن المرقب والذى لم يستطع صلاح الدين أن يستولى عليه ، فضرب عليه الحصار ثمانية وثلاثين يوما ، استسلم بعدها حماة الحصن ، فتسلمه قلاوون فى يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول من هذه السنة .

١٢٨٩ م ــ ٦٨٨ هـ : سقوط مملكة طرابلس :

وكان سقوط حصن المرقب مقدمة لعملية أوسع نطاقا وهى الاستيلاء على طرابلس . فلم يكد قلاوون يتلقى خطابا من نائبه بالشام يعلمه فيه أن افرنج طرابلس قد نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين . حتى خرج قلاوون بجيشه من مصر على رأس جيشه من منتصف المحرم قاصدا الشام للاستيلاء على طرابلس .

وفى يوم الثلاثاء الرابع من ربيع الثانى (ابريل) سقطت المدينة الحصينة العظيمة فى يد قلاوون بعد حصار دام اربعة وثلاثين يوما .

وزفت البشائر على الآفاق بهذا النصر العظيم ، وزينت المدن واحتفل الناس فى ارجاء العالم الاسلامى وتبارى الشعراء فى تخليد هذا العمل العظيم .

١٢٩٠ م ــ ٦٨٩ هـ : خرق صليبى عكا الهدنة :

ولم يبق بعد سقوط دولة طرابلس الصليبية الا دولة عكا .

ولسنا ندرى مدى لصحة فيما يقوله مؤرخو المسلمين من ان عكا بعد طرابلس

كانت هى البادئة بخرق الهدنة . فان العقل يستبعد بعد أن وصل الصليبيون الى ما وصلوا اليه من ضعف ، وانشغال أوربا عنهم ، وبعد أن رأوا قوة قلاوون ، أن يكونوا هم الذين يخرقون الهدنة .

وأغلب الظن أن خرق الهدنة كان يتخذ علة للهجوم عليها والفراغ منها .

ومع ذلك فان للقدر أحكامه ، وليس هناك ما يمنع بالفعل أن يجعل الطيش يستهوى عقول بعض المغامرين تعجيلا لنهايتهم ، فينقضون الهدنة ويعتدون على بعض تجار المسلمين . كيفما كان الأمر ، فقد خرج قلاوون بجيشه الى ظاهر القاهرة فى أواخر شوال من هذه السنة ، استعدادا للسير نحو مدينة عكا والاستيلاء عليها ، ولكن المرض حل به فأقعده عن السير .

وفاة السلطان المنصور قلاوون :

فى ليلة السبت السادس من ذى القعدة توفى السلطان الملك المنصور قلاوون وكان عمره يوم وفاته سبعين سنة ومده سلطنته على مصر احدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوما ، وهو من هذا الرعيل الأول من المماليك البحرية الصالحية الأتراك أمثال قطز وبيبرس الذين أسهموا فى قيام دولة المماليك ولذلك فقد سار على نهجهم ، واتبع أسلوبهم . سواء فى شئون السياسة أو فى الحرب ، أو فى البناء والتعمير الداخلى .

مؤسس المماليك البرجية :

وكما يعتبر الصالح نجم الدين أيوب هو مؤسس المماليك البحرية فان المنصور قلاوون هو مؤسس المماليك البرجية الذين ينتمون الى الجنس الشركسى : أما سبب تسميتهم البرجية ، فلانه بنى لهم أبراجا فى القلعة وأنزلهم بها ، وكان عدة من اقاموا بهذه الأبراج على أيامه ثلاثة آلاف وسبعمائة .

ووضع لهم النظام الذى من شأنه أن يجعل منهم قوة فعالة ، فكانوا يستوردون من موطنهم وهم صغار السن ، ثم يتعهدونهم بالتربية الدينية والعسكرية ولا يسمح لهم بالنزول من القلعة الى المدينة .

ثم يتدرجون بعد ذلك حسب ما يظهرونه من نجابة واستعداد للترقى كما كان متبعا بالنسبة للمماليك البحرية .

ولن يلبث المماليك البرجية أن يصبحوا هم القوة الحاكمة . وينشئوا لأنفسهم دولة فى مصر تعرف باسمهم .

سلطنة الملك الأشرف خليل على مصر :

على الرغم من أن قلاوون لم يشأ أن يوقع على المرسوم القاضى بتعيين ابنه الأشرف خليل سلطانا من بعده لعدم رضائه على سلوكه بعد أن جربه فى نيابة

السلطنة ، فقد كان لله من قوة الشخصية ، والشهرة بين الأمراء ، ما جعلهم يبايعونه عندما جلس على أريكة الملك ولم يتخلف واحد منهم . وكان ذلك في يوم الاثنين الثامن من ذى القعدة .

١٢٩٠ م ـ ٦٩٠ هـ : سقوط مدينة عكا الصليبية :

مضى الأشرف خليل في تنفيذ عزم والده الذى مات قبل انجازه وهو تصفية آخر مراكز الصليبيين فى فلسطين فخرج بالجيوش التى كان أبوه قد أعدها من مصر وكتب لنوابه فى الشام ان يوافوه بجيوشهم حول مدينة عكا .

وفى الثالث عشر من شهر ربيع الأول من هذه السنة بدىء في حصار مدينة عكا ونصبت حولها المنجنيقات التى بلغ عددها ٩٢ منجنيقا وكان من بينهما ما يسمى بمنجنيقات افرنجية ، ومنجنيقات شيطانية وهى التى تقذف بالحجارة لتهديم الأسوار ، كما تقذف بالنيران .

واستنجد أهل عكا بصاحب قبرص الذى كان يعتبر ملكا لهم فخف لنجدتهم ، ولكنه بعد أن وصل الى المدينة رأى من أحوالها وانقسام أهلها ما دله على أن نهاية المدينة أصبحت محتومة ، فلم يلبث أن انسحب عائدا الى جزيرته .

وفى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأول (١٨ مايو) سقطت المدينة وإن ظلت أربعة أبراج داخل المدينة تجمعت فيها فرسان الاسبتارية والداوية ، تقاوم وترفض الاستسلام ، ولكنها سقطت فى النهاية بعد أن مات أو جرح أكثر من فيها .

وقد سجل لين بول فى كتابه القيم تفصيلا رائعا للحظات الأخيرة فى حياة الصليبيين فى عكا .

تساقط بقايا المراكز الصليبية :

وبعد سقوط عكا ، تساقطت آخر الحصون والمراكز الصليبية فى صور التى لو سقطت منذ مائة عام بيد صلاح الدين لتغير تاريخ المنطقة ، ثم سقطت على أثرها صيدا وبيروت وعثليث والطرسوس ولم يبق شبر واحد على أرض ما نسميه اليوم فلسطين أو لبنان فى حكم الصليبيين .

وارتجت دمشق والقاهرة وجميع مدن العالم الاسلامى بالافراح والزينات لانتهاء عهد الصليبيين فى الشرق ، وعودة الأرض الى أصحابها .

خمود الروح الصليبية :

ولم يثر استئصال شأفة الحكم الصليبى فى الشرق ما اعتاده أن يثيره من قبل فى أوربا ، ولم يصل جندى واحد من أى بلد من البلاد التى اعتادت أن ترسل الحملات على سبيل النجدة . ذلك أن ريح تغير عميق كانت توشك أن تهب على

أوربا ، حيث تخلع رداء ظلمات العصــور الوسطى ، لتدخل فى نور نهضتها العظيمة التى لا تزال مستمرة حتى الآن ، وان كان السلطان السياسى والعلمى قد تحول عنها الى أمريكا والاجمــاع بين المؤرخين منعقد على ان احتكاك الغرب الأدنى بالشرق الاســلامى هو أحد اســباب هذه النهضة .

يقول احد المؤرخين الأوربيين : لقد جاء الصليبيون الى الشرق مخلفين وراءهم أوربا التى كانت مؤلفة وقتذاك من قرى صغيرة تغص بالزرايب ومرابط الخنازير والفضلات المتعفنة وروائح الناس الذين ورثوا معاطفهم وقبعاتهم عن أجدادهم ، الذين لم يعرفوا قط نعمة الصابون ، حتى لقد غشى يوما ما على ملك فرنسا عندما كان ينظر من نافذة قصره من شدة نتن رائحة الخنازير التى كانت ترعى فى شوارع باريس وكانت الأوبئة والطواعين والجدرى تفرى الناس فريا .

وعاد الصليبيون من الشرق بعد أن رأوا شــمسه وحضــارته وجمــال مدنه ، وتسامح أهله ، ناقلين معهم طائفة جديدة من المواد الغذائية والفواكه التى زرعوها ولا تزال حتى الآن تحمل أسماءها العربية . وعادوا يلبسون العباءات الفضفاضة من الحرير والقطن المصنوعة فى الشرق (١) .

وليس هناك ما يؤكد الصلة بين نهضة أوربا الحديثة واتصالها بالشرق الاسلامى ، اكثر من انها بدأت فى ايطاليا والمانيا وقد رأينا كيف كانت صقليا دولة اسلامية ، وكيف كان امبراطور المانيا يتكلم العربية ويحيط نفسه بعلماء المسلمين .

١٢٩٣ م ـ ٦٩٣ هـ : مقتل السلطان الأشرف خليل :

يخيل الينا أن احدى سنن الحكم المملوكى وتقاليده هى قتل الملك غداة انتصاره ، رأينا ذلك بالنسبة لتوران شاه ، وقطز ، ولم يلبث أن لحق بهم الأشرف خليل . اذ انقض عليه الأمراء أثناء وجوده فى رحلة الصيد بمديرية البحيرة عند كوم شروجه (أبو المطامير حاليا) فقتلوه وكان ذلك فى يوم السبت الثانى عشر من المحرم .

وكان على رأس قاتليه نائب السلطان بيدار الذى قال مدافعا عن نفســه عندما احيط به بعــد ذلك :

« ان رجلا كخليل يشرب الخمر فى شــهر رمضان ، والذى غرق فى الشــذوذ الجنسى ، والذى حول عبيده الى نبلاء ونكل بأمراء أبيه فقطع رقاب بعضهم بالسيف ، والقى بالبعض الآخر فى الحبوس ، لا يصلح أن يكون حاكما للمسلمين » .

ولكن الذهبى المؤرخ المعاصر يرسم له فى تاريخه صورة أكثر انصافا مع وصفه بأوصاف سلاطين المماليك المعتادة ، فيقول :

ولو طالت أيامه أو حياته لأخذ العراق وغيرها (من المغول) فانه كان بطلا شجاعا مقداما مهيبا عالى الهمة يملا العين ويرجف القلب ، رأيته مرات ، وكان ضخما سمينا

---

(١) قصة الجنس البشرى .

كبير الوجه بديع الجمال مستدير اللحية ، على وجهه رونق الحسن وهيبة السلطنة وكان مخوف السطوة سديد الوطأة ، قوى البطش ، تخافه الملوك فى امصارها والوحوش فى آجامها . اباد جماعة من كبار الدولة . وكان منهمكا فى الملذات ، لا يعبأ بالتحرز لنفسه لفرط شجاعته ولا أحسبه بلغ الثلاثين ، ولعل الله عز وجل قد عفا عنه وأوجب له الجنة لكثرة جهاده واذلاله فى الكفار . انتهى وكانت مده حكمه ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام .

وسنه يوم مات ثلاثون سنة .

الأمير بيدرا يعين سلطانا :

وقع اختيار المتآمرين الذين قتلوا الأشرف خليل على كبير المتآمرين نائب السلطنة الأمير بيدرا ليكون سلطانا وأسرعوا فلقبوه بالأوحد . ولكن أمراء الأشرف الذين كانوا بالقاهرة وعلى رأسهم كتبغا وسنجر الشجاعى ، لم يعترفوا بسلطنة بيدرا ، واصطدم الفريقان فى موقعة ، فانهزم فريق بيدرا وقتلوه هو نفسه .

وبموته فتحت مشكلة اختيار السلطان الجديد ، ولم يستطيع أحد الأمراء أن يتغلب على الآخرين . فاستقر رأيهم على أن يسلطنوا الابن الأصغر لقلاوون .

سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون :

كان عمر محمد بن قلاوون عندما أجلس على العرش تسع سنوات وكان جلوسه على كرسي السلطنة يوم الأثنين الرابع عشر من المحرم ، وتعين الأمير زين الدين كتبغا ليكون نائبا للسلطان بالديار المصرية ، والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيرا ومدبرا المملكة واتابكا للعسكر .

وسرعان ما دب النزاع بين الرجلين الكبيرين وقامت المعارك الحربية بينهما ، وانتهى الأمر بمقتل سنجر الشجاعى ، وانفرد كتبغا بالسلطنة الفعلية . فأقدم على الخطوة الأخيرة للوصول الى السلطنة .

١٢٩٥ م ـ ٦٩٤ هـ : خلع الناصر وسلطنة الملك العادل زين العابدين كتبغا :

فى الثانى عشر من المحرم من هذه السنة استدعى كتبغا الخليفة العباسى والأمراء والقضاة واتفق معهم على عزل السلطان فالبلاد لا يحكمها صبى صغير .

فوافقوه على رأيه ، وخلع السلطان الناصر ، ونقل من قصر الحكم هو وأمه الى بعض القاعات بالقلعة .

وتولى الملك كتبغا السلطنة ولقب بالملك العادل .

وينفرد من بين سلسلة المماليك البحرية بأن أصله من القتار وقد سبى فى معركة حمص ، فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه ثم اعتقه ورقاه حتى صار من اكابر قواده .

وكان أول عمل قام به كتبغا بعد أن صار سلطانا ، هو تعيين صاحبه القديم الأمير حسام الدين لاجين المنصوري نائبا للسلطنة . وكان حسام الدين لاجين أحد الذين اشتركوا في قتل السلطان خليل ولكن كتبغا بسط عليه حمايته وظل يواليه برعايته حتى جعله نائبا له على السلطنة ، وقد قيل أن لاجين كان هو الذى حرض كتبغا للحصول على السلطنة ، فلما تم له الأمر كافأه بنيابة السلطنة .

١٢٩٦ م ـ ٦٩٥ هـ تفشى القحط والمجاعة في البلاد :

واجه كتبغا في مطلع حكمه عدة مشاكل اثارت عليه الرأى العام المصرى ، ودفعت امراء المماليك للتآمر عليه .

أما المشكلة الأولى فهى قدوم عشرة آلاف مغولى الى الشام معلنين رغبتهم في اعتناق الاسلام ، فبادر كتبغا بالترحيب بهم ليتخذ منهم درعا له وحصنا ، ووصل الى القاهرة مندبون عنهم كانوا لا يزالون على وثنيتهم فكانوا يتجاهرون بالافطار في رمضان . وخاف جمهرة المماليك الذين لم يكونوا من أصل مغولى على انفسهم من هذه الواقعة الجديدة. ولكن الذى أهم الشعب المصرى واحنقه على كتبغا،هو قصور النيل عن الفيضان الطبيعى فقحطت الارض وانتشرت المجاعة وغلت الاسعار فأصبح ثمن اردب القمح ١٦٠ درهما بدلا من خمسة وعشرين ، وكذلك اردب الفول . وبلغ ثمن رطل الخبز درهما ورطل اللحم بسبعة دراهم ، وكل سبع حبات من البيض بدرهم .

وفشا الموت في القاهرة ، واحصى من مات بها ودون اسمه في ديوان المواريث بسبعة عشر الفا وخمسمائة . وهذا سوى ما لم يرد اسمه في ديوان المواريث من الغرباء والفقراء .

حاول كتبغا مواجهة الأزمة قدر طاقته ، فاستورد القمح من الشام وفرق الفقراء على المماليك ليعولوهم .

ولكن ذلك كله لم يخفف نقمة الشعب على كتبغا ، واعتبر حكمه شؤما ، وراح يندد بغدر كتبغا وعزله ابن سيده الناصر قلاوون .

١٢٩٧ م ـ ٦٩٦ هـ : خلع السلطان العادل كتبغا :

استغل لاجين نائب السلطنة وصديق كتبغا فرصة المصاعب التى قامت في وجه كتبغا ، وتزايد السخط عليه لكى يتآمر مع بعض الأمراء على خلعه . فانتهزوا فرصة وجوده في الشام وهجموا على خيمة كتبغا اثناء عودتهم في الطريق الى مصر وكان ذلك يوم الثلاثاء السابع عشر من المحرم . فقتلوا بعض اتباعه ولكن كتبغا تمكن من الفرار والعودة الى دمشق حيث لجأ الى قلعتها واحتمى بها .

واتفق الأمراء على خلعه وتولية لاجين بدلا منه سلطانا على مصر بعد أن اشترطوا عليه أن يكون كواحد منهم ولا ينفرد برأى دونهم ولا يبسط أيدى مماليكه ولا يقدمهم عليهم . وحلفوه على ذلك فحلف لهم أغلظ الايمان .

سلطنة الملك المنصور لاجين على مصر :

فى يوم الجمعة العاشر من شهر صفر من هذه السنة تمت مبايعة لاجين رسميا بالسلطنة . وقد كان لاجين أحد مماليك قلاوون اشتراه ورباه ثم أعتقه ، فلما تسلطن جعله نائبا بقلعة دمشق ثم زوجه احدى بناته .

وكاد أن يهلك أيام الأشرف خليل ويقتل مع من قتل من أمراء ووصل الأمر الى حد وضع الوتر بالفعل حول رقبته لخنقه ولكن الوتر قطع ، وتشفع فيه الأمراء فأبقى عليه الأشرف خليل حيا . فلم ينس لاجين للأشرف ذلك الموقف ، ولذلك فقد سعى الى قتله وكان من بين المتآمرين على قتله وكان يمكن أن يهلك لولا أن حماه كتبغا كما قدمنا .

تحول كتبغا الى قلعة صرخد :

كان على لاجين أن يحل مشكلة كتبغا المتحصن فى قلعة دمشق فكتب له يؤمنه على نفسه ، ويطلب منه أن يخرج من قلعة دمشق ويتوجه الى قلعة صرخد ليكون نائبا للسلطان عليها بعد أن يقسم على أن لا يكاتب أحدا أو يشاور أحدا ، فضلا عن أن يتآمر على السلطان فقبل كتبغا هذه الشروط ، وخرج من قلعة دمشق وتوجه الى صرخد حيث عاش بها بقية حياته مغمورا منسيا لا يأبه به أحد ولا يحاول هو أن يذكر أحدا بنفسه . وهو ما جعل أبو المحاسن يعتبر أمره غريبا شاذا .

وكانت مدة سلطنة كتبغا سنتين وسبعة عشر يوما .

ارسال الناصر قلاوون الى الكرك :

وامعانا فى اجراءات الأمن أخرج الملك السابق قلاوون وأمه من القلعة وارسل ليقيم فى قلعة الكرك ، بعد أن أقسم له السلطان لاجين أنه يحكم لحسابه، وانه لايكاد يكبر فى الحكم حتى ينزل له عن السلطان .

تحسن الأحوال العامة :

كان من حسن حظ لاجين ، أن النيل عاد الى وفائه ، فكثر الخير ورخصت الأسعار حتى اصبح ثمن أردب القمح عشرين درهما بدلا من (١٨٠) أما اردب الشعير فبعشرة دراهم ورطل اللحم بدرهم وربع . وأصدر لاجين أمره بمسامحة الفلاحين وسائر الرعايا بما عليهم من بواقى الخراج التى عجزوا عن دفعها .

وكان حسام الدين يحيا أثناء نيابته فى دمشق حياة كلها لهو وانصراف الى شرب الخمر والبحث عن الملذات حتى لقد بعث قلاوون اليه يهدده ، فلما أن ولى السلطنة،

تاب عن ذلك كله وأقبل على العبادة ، وقرب اليه العلماء ، وبذل كل ما يستطيع من جهد لارضاء الشعب وحرص على أن يسود العدل بين الناس .

وتقرب الى عامة الشعب فكان يجالسهم ويشاركهم فى طعامهم وأصدر كثيرا من الأوامر للمحافظة على أموال اليتامى .

وقام باصلاح جامع طولون اصلاحا عظيما ، وكان قد نذر ابان اختفائه به بعد مقتل السلطان خليل اذا أنجاه الله أن يصلحه .

وقرر فيه دروس الفقه والحديث والتفسير والطب وغير ذلك . يقول أبو المحاسن :

ولولا الأوقاف التى أوقفها لاجين على مسجد طولون لتخرب .

١٢٩٨ م ــ ٦٩٧ هـ : عمل الروك الحسامى :

وفى هذه السنة راك السلطان البلاد المصرية ، أى اعاد مسح أرضها الزراعى لتقدير الخراج المستحق عليها (وهو ما يسمى فى عصرنا الحاضر بعملية فك الزمام) وذلك هو الروك الحسامى .

وتكشف لنا هذه العملية عن ظروف الملكية الزراعية فى مصر فى هذه الفترة ، فقد كانت الأرض تعتبر مملوكة لبيت المال ، وقد قسمت ايراداتها الى أربعة وعشرين قيراطا منها أربعة قراريط للسلطان ، و ١٠ قراريط للأمراء و ١٠ قراريط للجند .

وكان الأمراء يأخذون كثيرا من اقطاعات الجنود فلا يصل منها اليهم شيئا ، ويصير هذه الاقطاعات الى دواوين الأمراء فتحتمى بها قطاع الطرق وتثور بها الفتن وتمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصبح كلها مأكلة للأمراء وأعوانهم وتتحول الى مضرة بأهل البلاد التى تجاورها .

ورأى السلطان لاجين أن يبطل ذلك ويعيد تنظيم البلاد ، فأصدر أوامره للمباشرين بعملية اعادة مسح الأراضى المصرية وعلى رأسهم التاج الطويل وهو قبطى أسلم أن يجعل نصيب الأمراء والجند معا عشر قراريط (بدلا من عشرين) ثم زادهم قيراطا فأصبح أحد عشر قيراطا . على أن تكون الثلاثة عشر قيراطا الباقية من نصيب السلطان يوجهها للخدمة العامة .

وغنى عن البيان أن مثل هذا العمل من شأنه أن يحنق عليه الأمراء فيعملون على قتله .

١٢٩٩ م ــ ٦٩٨ هـ : مقتل السلطان لاجين :

فى يوم الخميس العاشر من ربيع الثانى ، قتل السلطان المنصور لاجين وهو جالس يلعب الشطرنج مع بعض خواصه ومن بينهم قاضى القضاة وامام الصلاة .

وكان قاتله هو كبير المماليك البرجية الذى كان أقرب الناس اليه .

وقد احتج امراء المماليك عليه ، بأنه خالف الشرط الذى اشترطوه عليه وهو أن لا يقدم أحدا من مماليكه عليهم ، حيث جعل منكوتمر هو المتحكم فى كل الأمور والذى عامل بقية الأمراء فى غطرسة واستعلاء . وأوشك لاجين أن يجعل منه ولى عهده من بعده على ان الذى عجل بقتله من غير شك ، هو حرمانه الأمراء والجنود من نصف ما كانوا يحصلون عليه من موارد الدولة كما قدمنا .

وكان عمر لاجين يوم مات ثلاثا وسبعين سنة ،ومدة حكمه سنتين وثلاثة شهور .

ويجمع المؤرخون وعلى رأسهم أبو المحاسن انه كان فيه كل الخصال الحسنة ، لولا توليته مملوكه منكوتمر الأمور ومحبته له فقد كانت السبب فى هلاكه . وقد الحق المتآمرون منكوتمر بأستاذه فقتلوه فى نفس الليلة .

ابن دقيق العيد ـ قاضى القضاة :

وعلى ذكر منكوتمر وغلبته على الأمور فان تاريخ هذه الحقبة يسجل لنا موقفا لقاضى القضاة ابن دقيق العيد ، يكشف عن سلطان رجال الدين ، وخوف السلاطين منهم . فقد حدث أن اختلف منكوتمر مع قاضى القضاة الذى رفض أن يأخذ بشهادته فى قضية ميراث الا أن يأتى الى مجلسه ويشهد معه شاهد آخر .

ولما حاول منكوتمر أن يضغط على قاضى القضاة ـ قال لمن معه من القضاة : أشهدكم أننى عزلت نفسى باسم الله قولوا له يولى غيرى ثم انصرف الى داره وأغلق بابه عليه .

وبالرغم من حب السلطان لمنكوتمر فقد أنكر عليه موقفه وبعث الى القاضى يعتذر ويرجوه الحضور الى القلعة ، وابن دقيق يأبى ويعتذر وأخيرا ذهب الى السلطان الذى تلقاه بما يليق به من الاحترام ، وراح يرجوه أن يعدل عن استقالته ، حتى قبل . ولما هم ابن دقيق بالانصراف قال له السلطان :

يا سيدى هذا ولدك منكوتمر . خاطرك معه ، ادع له . فنظر اليه القاضى وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول : منكوتمر لا يخشى منه شىء وظل يكررها ثلاث مرات . ثم قام متجها الى منزله .

وتمضى كتب التاريخ فى تفصيلات هذا المشهد فتقول ان ابن دقيق كان قد فرش تحته قبل أن يجلس منديله الذى كان صنعه باليد من الكتان وذلك مخافة أن يجلس فوق الحرير فلما انصرف من حضرة السلطان ناسيا وراءه منديله ، أخذه السلطان ليتبرك به ، وفرقه الأمراء بعد ذلك قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركته .

السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون :

فى يوم الاثنين سادس جمادى الأول من هذه السنة ، بايع الخليفة العباسى والقضاة الأربعة والأمراء ـ السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطانا على مصر بعد

مقتل لاجين ، وعجز الأمراء على الاتفاق على من يتولى الملك منهم ، فراوا أن اسلم حل هو اعادة السلطان الناصر الى الملك ، فاستدعوه من قاعة الكرك حيث كان عمره قد بلغ الرابعة عشرة .

وجعل نائب السلطنة على ديار مصر سيف الدين سلار . وعين ركنى الدين بيبرس الجاشنكير استدارا أى متولى شئون أطعمة القصر وأشربته . فأصبح هذان الأميران هما أصحاب السلطان والنفوذ ، وبدأ الصراع بينهما على الانفراد بالسلطة .

١٣٠٠ م ـ ٦٩٩ هـ : غازان ملك التتار يغزو الشام :

كان السلطان لاجين قبل مصرعه قد اخلف ثانية على الشام الأمير قبجق المنصور فلجأ الى قازان او غازان ملك تتار ايران ، والذى كان قد اعتنق الاسلام وراح يحسن له فتح الشام . فاستجاب للتحريض وزحف بجيوشه على الشام .

ووصل الخبر الى مصر فسار السلطان على رأس جيشه لملاقاة التتار .

وفى يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة تم اللقاء بين الجيوش المغولية والجيوش المصرية .

وكانت عدة المماليك على ما يقول المقريزى فى كتاب السلوك بضعة وعشرين الف فارس والتتار فى مائة الف ، وربما كان فى هذا الرقم الأخير مبالغة .

وقد بدأت المعركة بانتصار الجيش المصرى ، حتى أوشك قازان أن يفر ، لولا أن تنبه حليفه المملوكى قبجق ، فلم تلبث الدائرة ان دارت على الجيش المملوكى ، فهزموا هزيمة منكسرة وولوا الأدبار ولولا أن غازان توقف عن متابعتهم لكانت الكارثة أفدح .

وتسلم غازان مدينة دمشق بالأمان ، فسار اليها ودخلها ، ولكن قلعة المدينة رفضت التسليم ، بل رفضت أن تصغى لأى حديث عن التسليم . ومن المحقق أن اسلام غازان قد وقى مدينة دمشق مما كان يصحب غارات التتار من قتل وفتك وحرق ونهب .

وخطب لغازان على منابر يوم الجمعة رابع عشر من ربيع الثانى على منابر دمشق حيث وصف بأنه : مولانا السلطان الأعظم سلطان الاسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان .

على أن رفض قلعة دمشق التسليم ومقاومتها الحصار المفروض عليها تحت قيادة ارجواش الذى ظل على ولائه للسلطان الناصر ، قد أحنق المغول ، فبداوا ينهبون القرى المحيطة بدمشق ويفرضون عليها الاتاوات العظيمة التى بلغت ثلاثة ملايين وستمائة دينار فى بعض الروايات ودرهم فى روايات أخرى (السلوك) .

وقد لعب شيخ الاسلام ابن تيمية دورا فى هذه الأزمة فقام بمقابلة السلطان مرتين وطلب منه أن يكف يد جنوده عن النهب والسلب . وقد تقبل السلطان وساطته ، ولكنه أفهم أن لا بد من الاجتهاد فى جمع المال المطلوب .

ورأى غازان بعد ذلك أن يعود الى بلاده فأقر الأمير قبجق نائب الشام السابق حاكما عليها من قبله كما عين بعض أمراء المماليك نوابا عنه على حمص وحماة وحلب . وانسحب بجيشه من الشام مخلفا وراءه حامية صغيرة .

عودة الخطبة للناصر فى دمشق :

لم يكد غازان ينسحب من المدينة ، حتى استطاع أراجواش الذى رفض تسليم قلعة دمشق أن يعيد سيطرته على المدينة ، وأعاد الخطبة الى السلطان الناصر .

ولم يشأ الأمير قبجق أن يقاوم ذلك ، وآثر أن يعود لحظيرة السلطان قلاوون . فجاء الى مصر تائبا معتذرا ، فقبل منه السلطان ، وعفا عنه .

١٣٠٢ م ــ ٧٠١ هـ : تمرد العربان وقمع التمرد :

هزت الصدمة التى منى بها الجيش فى معركته مع التتار المشاعر فى مصر ، وكان احد ردود الفعل لهذه الهزيمة المنكرة ، أن استخف العربان فى الصعيد بالولاة ، وخرجوا عن الطاعة ومنعوا الخراج ، وأخرجوا من فى السجون . وبدأوا يفرضون الضرائب على التجار وأرباب المعاش من أقصى جنوب مصر حتى مدينة أسيوط ومنفلوط . فسير اليهم الملك الناصر قلاوون أربعة جيوش مختلفة تحت رئاسة كبار قواده ، سلار وبيبرس وغيرهما بعد أن أذاعوا هذه الجيوش متوجهة نحو الشام ، لتباغت الأعراب وتأخذهم على غرة وأحاطت بهم من كل جانب ، حتى أهلكوهم عن آخرهم على ما يقول المقريزى .

وساقوا خيولهم ومواشيهم وأغنامهم الى مصر .

١٣٠٣ م ــ ٧٠٢ هـ : المفاوضات بين قلاوون وغازان :

لم ييأس قلاوون عقب هزيمته الأولى من التتار رغم صغر سنه ، بل انه شرع فدعا والى مصر عقب هذه الهزيمة ، أن يعيد تنظيم جيشه ويستعد لجولة جديدةمع التتار ، ولم يؤخره عنها الا وصول الأخبار بانسحاب غازان من دمشق والشام ، وقد رأينا كيف عاد سلطان الناصر قلاوون الى دمشق بمجرد انسحاب غازان . وكذلك تم الأمر بالنسبة لجميع أمراء الشام الذين أنابهم غازان على مختلف مدن الشام ، فقد استجابوا جميعا الى دعوة الناصر قلاوون الى عودتهم الى طاعته .

فلما وصلت هذه الأنباء لغازان ، رأى أن يدخل فى مفاوضات للصلح بينه وبين قلاوون ، ليتعاونا سويا باعتبارهما ملكين اسلاميين لما فيه خير المسلمين من نشر العدل وتوحيد الأمن وتشجيع التبادل التجارى بين الاقليمين .

فبعث برسالة الى قلاوون أثبتتها كتب التاريخ ، وضمنها بأن طلب من قلاوون أن يبعث له بهدية لتكون عربونا على العودة : لنعلم بارسالها قد حصل منكم اجابتنا للصلح بحسن نية ، ونهدى اليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه اليكم والسلام الطيب عليكم ان شاء الله تعالى .

ولم يطمئن السلطان الناصر الى صدق طوية غازان ، ولم ير فى الخطاب وفى طلب الصلح الا مراوغة لكى يثبط من عزيمة قلاوون فى الاستعداد للحرب . ولذلك فقد رد عليه مناقشا ما جاء فى خطابه ومفندا بعض ما قيل عن أسباب انتصار غازان وهزيمة قلاوون . وطلب فى نهاية الخطاب أن يبعث غازان الى مصر رجلا من خواص دولته : اذا قطع بأمر وقفتم عنده ، أو فصل حكما انتهيتم اليه أو جزم أمرا عولتم عليه . وهو ما يسمى بلغة عصرنا مندوب مفوض مخول بكل السلطات . وذلك للتفاوض فى موضوع الصلح .

اما بخصوص الهدية التى طلبها غازان فان : الديار المصرية لا تبخل بها عليه ومقداره عندنا أجل مقدار وجميع ما يهدى اليه دون قدره . وانما الواجب ان يهدى أولا من يستهدى ، لتقابل هديته بأضعافها ويتحقق صدق نيته واخلاص سريرته .

انتصار قلاوون على التتار :

على أن هذه المفاوضات لم تسفر عن شيء ، ولذلك فقد زحف غازان من جديد بجيشه على الشام ووصل الى مشارف نهر الفرات ، وبعث بكبير جيشه فظلوشاه على راس جيش مؤلف من ثمانين الفا ليعيد سلطان غازان على الشام ، وكتب الى أمراء الشام يدعوهم الى طاعته .

وفى يوم السبت الثانى من رمضان عام ٧٠٢ هـ ٢٠ ابريل سنة ١٣٠٢ تم اللقاء بين جيوش المغول تحت قيادة فظلو شاه والجيش المصرى تحت قيادة الناصر قلاوون عند بلدة شقحب بمرج الصفر . واستمرت المعركة طوال يوم السبت ، ثم استؤنفت فى اليوم الثانى (الأحد) دون التوصل الى نتيجة حاسمة ، واستمر القتال لثالث يوم (الاثنين) وفى هذا اليوم تم انتصار الجيش المصرى الساحق على التتار الذين فروا منهزمين ، والسيف يعمل فى أقفيتهم بحسب تعبير ذلك الزمان ، فقد تعقبتهم فرسان المماليك قتلا وأسرا . وانهارت معنويات التتار فاذا بهم يلقون بأسلحتهم ويستسلمون للقتل ، فراح الجنود المصريون يقتلونهم فى غير مدافعة .

ويقول المؤرخون فى تصوير مدى الهزيمة : حتى أن اراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا عدة غنائم . وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتر فما فوقها . بحيث أن فظلوشاه لم يعبر الفرات الا فى قليل من أصحابه .

وعندما بلغ نبأ الهزيمة الى غازان ، أغتم غما عظيما : وقيل أنه خرج من انفه دم كثير حتى أشرف على الموت ، ولم يلبث أن مات حسرة وكمدا فى العام التالى .

دور ابن تيمية فى هـذا النصر :

وكتب التاريخ طافحة بذكر الدور الكبير الذى قام به شيخ الاسلام ابن تيمية لتحقيق هذا النصر ، فقد كان على رأس السفارة التى أوفدها أهل الشام الى السلطان قلاوون يستحثونه على اعداد العدة والخروج بالجيش لملاقاة التتار ، حتى قيل انه اشتد على السلطان . وقد سار مع الجيش عند خروجه من مصر ، وقيل انه حارب بنفسه خلال المعركة . وعلى اية حال فالمحقق انه كان يلهب مشاعر الجند بمواعظه وترديد آيات الجهاد (ابن تيمية من اعلام الحرب) .

احتفالات النصر فى القاهرة :

وقد استعدت القاهرة لعودة الناصر قلاوون بالزينات والاحتفالات كما لم يحدث فى تاريخ حياتها ، فقد تفاخر الناس فى الزينة ونصبوا القلاع (أى أقواس النصر) واخرج الناس ما عندهم من الحلى وجواهر ولآلىء وانواع الحرير فتزينوا بها ، واقيمت احواض ملئت بالسكر والليمون (١) ليشرب منها العساكر والناس . وفرشت الأرض بالحرير تحت أقدام السلطان ومن معه .

على أن زينة هذه الاحتفالات الكبرى حسب روح العصر على ما تقول كتب التاريخ كان هو منظر الألف وستمائة اسير وهم يسيرون مقيدى الأيدى وقد علق فى رقبة كل واحد منهم رأس واحد من قتلاهم . وذلك بالأضافة الى ألف رأس أخرى كانت مرفوعة فوق الحراب .

١٣٠٤ م ــ ٧٠٣ هـ : افتتاح المدرسة الناصرية :

وفى هذه السنة اتم الناصر المدرسة الناصرية بين القصرين وأوقف عليها الاوقاف ورتب بها المدرسين للمذاهب الاربعة .

١٣٠٨ م ــ ٧٠٨ هـ : اعتزال السلطان الناصر الملك للمرة الثانية :

استحق السلطان الناصر قلاوون ، بعد انتصاره الباهر على التتار أن يزاول بنفسه دور السلطان ، ولكن الاميرين المتسلطين على شئون الدولة سلار وبيبرس حالا بينه وبين ذلك وضاعفا فى اجراءات التشدد عليه . وضيقا عليه فى النفقة ، حتى بلغ الامر بهما الى أن حالا بينه وبين ما يشتهيه من أصناف الطعام .

---

(١) لا يزال يوجد بفم الخليج حارة تسمى حارة السكر والليمون اشارة الى هذا الحادث .

وحاول قلاوون أن يتخلص منهما على عادة سـلاطين المماليك فى التخلص من الأمراء الأقوياء . فدبر لهما مؤامرة لقتلهما ، ولكن من سوء حظه أن المؤامرة انكشفت وتحرز الأميران على نفسيهما ، وحاصرا السلطان فى القلعة ، وكان يمكن أن يتغلبا عليه ويقتلانه لولا تدخل عنصر لا عهد للمماليك به من قبل حال دون تنفيذ ارادتهما وهذا العنصر هو الشعب المصرى .

وقوف الشعب المصرى الى جوار الناصر قلاوون :

تغص كتب التاريخ بتفاصيل غضبة الشعب المصرى ضد سلار وبيبرس ووقوفه الى جوار الناصر قلاوون ، فأجمعت جموع العامة كما تسميهم كتب التاريخ وراحوا يهتفون يا ناصر يا منصور الله يخون من يخون بن قلاوون . فحاول الأمراء فى بادىء الأمر ان يرهبوا العامة بالضرب والايذاء . فلم يزد ذلك الجماهير الا غضبا ، وقويت الحركة الى الحد الذى رأى فيه الامراء أنه من الصالح أن يحاسنوا الجماهير .. وصالحوا السلطان وأعلنوا للجماهير أنه قد رضى عنهم .. ولكن ذلك كله لم يكن كافيا لتهدئة مشاعر الجماهير . فطلب الأمراء من السلطان أن يشق القاهرة فى موكب ليراه الناس ويطمئنوا وبهذا فقط هدات الفتنة .

على أن السلطان الناصر ظل متخوفا على نفسه مما قد يفعله به الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير . ولذلك فقد أعلن أنه ينوى الحج . وغادر مصر فى الخامس عشر من رمضان بدعوى أنه مسافر للحجاز . حتى اذا وصل الى حصن الكرك فى العاشر من شوال . التجأ اليه وأمر بأن يخرج منه اميره واعلن أنه سيقيم بالحصن ولن يحج ، وأنه نزل عن السلطة للاميرين سلار وبيبرس .

وكانت مدة سلطنة الناصر الثانية عشر سنين وأيام .

فلما وصل هذا الخبر الى الأمراء فى مصر أسقط فى أيديهم ، وبدأ النزاع يشتد بين سلار وبيبرس حول من يتقلد منهم السـلطة . وكانت المماليك البرجية تؤيد بيبرس ، أما باقى الامراء فيؤيدون سلار : وهكذا أوشك الامر أن يصل الى فتنة فى صفوف المماليك لو ولى سلار السلطنة ، فحسم القضية بأن ترك لصاحبه بيبرس الجاشنكير السـلطنة .

سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير على مصر :

فى يوم السبت الثالث والعشرين من شـوال من هـذه السنة : بويع بيبرس الجاشنكير سلطانا على مصر ولقب بالملك المظفر .

وأصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجية وهو جركسى الاصل ، ومن هنا يعتبره البعض اول المماليك البرجية الذين حكموا مصر ، لولا أن سلطانه لم يدم ورجع الحكم الى الناصر قلاوون ، وقد تدرج فى الطريق المألوف ، فقد أعتقه سيده المنصور قلاوون ثم جعله أميرا ، وفى عهـد ابنه الاشرف خليل أصبح من كبار الامراء ، فلما

تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون أول مرة جعله استدارا أي مشرفا على قصر السلطان وما يحتاجه من نفقة ومطالب ، وقد حاول سلار ان يستعفى من منصبه كنائب للسلطان ، ولكن الملك المظفر رفض استعفاءه واصر على أن يبقى فى منصبه نائبا للسلطان .

وبعث الى الناصر قلاوون ليقره على آمرة الكرك .

وبعث الى امراء الشام يقر كل منهم فى منصبه ويطلب منهم البيعة له .

وقد توقف الأمراء عن اجابته للبيعة فى بادىء الأمر ، ولم يبادر بها الا نائب السلطان فى دمشق ، ثم لم يلبث باقى أمراء حمص وحماة وحلب أن اجابوه الى البيعة ريثما ينظموا صفوفهم للانقضاض عليه .

١٣٠٩ م — ٧٠٩ هـ : وصول الناصر قلاوون الى دمشق :

شاء سوء طالع بيبرس ، أن يقصر النيل عن الوفاء فى هذه السنة ، فشحت الأقوات ، وارتفعت الأصوات بالشكوى ، ومرة أخرى ظهر الشعب المصرى على مسرح الحوادث ، اذ راح العامة يتظاهرون فى الشوارع وهم يهتفون .

سلطاننا ركين (أى ركن الدين بيبرس) .

وتائبنا دقين (يقصدون سلار وكانت لحيته خفيفة لا تزيد عن شعرات) تجينا الماء منين ؟

تجيبوا لنا الاعرج (يقصدون الناصر قلاوون وكان به عرج خفيف) يجينا الماء ويدحرج .

واصطنع المظفر بيبرس الشدة مع الشعب فأصدر أوامره بالقبض على عدد كبير من العامة وانزل بهم العقوبة الصارمة حتى لقد قطع السنة الكثير على ما يقول ابن اياس .

ومن ناحية أخرى استعمل الخشونة مع الملك الناصر قلاوون فبعث يطالبه بالاموال التى اخذها ، ويهدده اذا لم يبادر بأرسالها .

فكتب الناصر الى امراء الشام يشكو اليهم ، وكانوا على اتصال به فالتفوا حوله كما خرج اليه من مصر كثير من الأمراء الذين (انقلبوا) على المظفر . فأجتمع حول الناصر قوة كبيرة من الامراء والجند ، فسار بهم الى دمشق ، فدخلها فى امان بعد أن اخرج منها نائب السلطنة « الامير الاقرم » .

ودعى له على المنابر يوم الجمعة ٢٢ شعبان باعتباره سلطان مصر والشام .

خلع السلطان المظفر بيبرس :

كان لهذه الانباء تأثير قوى فى مصر ، فقد زادت احوالها سوءا واضطرابا وعمتها الفوضى ، وسقطت هيبة بيبرس وشرع العامة يسبونه : وعبثا حاول السلطان ان يردعهم بالقوة ، فلم يكن ذلك يزيد الموقف الا سوءا . فجمع المظفر واستشارهم فيما عليه أن يفعله ، فأشاروا عليه بالتنازل عن العرش ، وان يكتب للسلطان طالبا منه العفو فصدع بمشورتهم ، وبعث الى الناصر بخطاب يطلب منه العفو وقد جاء فى آخره :

.. فان سجنتنى عددت ذلك خلوة . وان نفيتنى عددت ذلك سياحة ، وان قتلتنى كان ذلك لى شهادة .

ثم أشهد الخليفة والقضاة الاربعة أنه خلع نفسه ، واسقط اسمه فى اليوم التالى من قلعة الجبل : كما خطب فى الجوامع باسم السلطان الناصر يوم الجمعة ١٩ رمضان وكانت مدة سلطنة المظفر عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

العامة يشيعون بيبرس باللعنات :

وخرج بيبرس من مصر فى مماليكه البالغ عددتهم سبعمائة ، فكأنما نودى فى الناس انه خرج هاربا فاجتمع القوم وراحوا يتابعونه بالصياح حتى خرجوا عن الحد ورماه بعضهم بالحجارة فشق ذلك على مماليكه وهموا بوضع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفر من ذلك : وأمر أن ينثر المال عليهم لينشغلوا بجمعه عنه ، فأخرج كل المماليك حفنة من الذهب فلم يلتفت العامة الى ذلك وواصلوا العدو خلفه وهم يسبون ويصيحون فأشهر المماليك سيوفهم ورجعوا الى العامة فانهزموا منهم .

وقصد بيبرس الى مدينة اطفيح فى الصعيد .

سلطنة الملك الناصر قلاوون الثالثة على مصر :

فى يوم الخميس الثانى من شوال ، بدأ الناصر قلاوون فى ممارسة سلطته للمرة الثالثة بعد ان وصل الى القاهرة : وطلع الى قلعة الجبل ، ثم جلس على العرش فى هذا اليوم ، وكان صبيحة وصوله . وكان قد بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة وقد حنكته التجارب وقرر أن يباشر السلطنة بنفسه .

.. وكان أول ما فعله عفا عن الخليفة العباسى والقضاة الاربعة ، بعد أن بكتهم وعاتبهم على موقفهم منه وتحريضهم ضده .

ثم اصدر أمانا لبيبرس ، فلما جىء به اليه راح يؤنبه على ما فعله معه ويذكره بمنعه الطعام الذى تشتهيه نفسه عنه .

ثم أمر بقتله فى الخامس عشر من ذى القعدة .

وكان سلار قد استعفى من نيابة السلطنة وانعم عليه الملك بقلعة الشوبك وبعد فترة من الزمن استدعاه اليه وسجنه ثم قتله . وكان سلار من التتار ؛ وقد أحصيت ثروته بعد قتله فكانت شيئا يجل عن الوصف ،وقد افرد ابن أياس صفحاتعديدة لتسجيل جرد هذه الثروة وما كان يوجد منها يوما بعد يوم .

وليس هناك ما يصور حالة ما كان عليه المماليك ، وكيف كان كل أمير منهم أشبه بملك أكثر من ان نسجل بعض مفردات هذه الثروة .

ففي يوم الأحد عثر له على مائتى الف دينار ذهب و ٤٧١ الف دينار فضة .

وفى يوم الاثنين وجد له خمسة وخمسون الف دينار ذهب ومن الفضة ألف الف درهم .

وفى يوم الثلاثاء : وجد له خمسة وأربعون الف دينار ذهب ومن الفضة ثلثمائة وثلاثين ألف درهم .

وفى يوم الأربعاء : وجد له من الذهب الا الف دينار ، ومن الفضة ثلاثمائة ألف درهم .

أما الملابس والجواهر واطباق الفضة فكانت بالقناطير .

ووجد عنده من الخيول ثلثمائة رأس ، ومن البغال مائة وعشرين قطارا ومن الجمال مائة وعشرون .

وذلك كله خارج عما وجد له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوارى .

ووجد عنده من الأغنام والأبقار ما لا يحصى .

ووجد عنده من الغلال ثلثمائة الف اردب فى الشون .

١٣١١ م — ٧١١ هـ — سلطان الناصر يمتد الى تونس :

فى هذه السنة لجأ الى مصر صاحب تونس أبو زكريا اللحيانى — احد ملوك الحفصيين — وطلب من الناصر ان يساعده على استرجاع عرشه على أن يكون نائبا له فبعث معه بعض مماليكه وعساكره ، فاسترد ابو زكريا عرشه ، وخطب للناصر قلاوون فى مساجد تونس التى كانت تسمى فى ذلك الوقت اترنبيا .

وفاة ابن منظور مؤلف لسان العرب :

وفى هذه السنة مات مؤلف اعظم موسوعة لغوية وهو لسان العرب . ذلكم الكتاب الخالد ، والذى جمع فيه مؤلفه بين كتب ستة وهى التهذيب للأزهرى — والصحيح للجوهرى — وحواش بن برى على الصحيح — والمحكم لابن سيدة —

المخصص له كذلك والنهاية لابن الأثير ، وبلغت مواد اللغة في هذا المعجم ثمانية الف مـــادة .

ولسان العرب هو نموذج لما وصفت به هذه الفترة الثقافية من حياة العرب والمسلمين من انها كانت فترة الموسوعات ، حيث خشي على العلم الاسلامى من الضياع بعد ان حل ببغداد ما حل ، فأخذ التأليف صور الموسوعات ، لجمع أكبر قدر ممكن من المعارف والثقافات .

١٣١٥ م ـ ٧١٥ هـ ـ الروك الناصرى :

أعاد الناصر مسح بلاد القطر المصرى لاعادة توزيع حاصل خراجه على بيت المال والأمراء والأجناد بصورة اكثر عدلا .

وانتهز هذه الفرصة لكى يخفض اقطاع الجندى فأصبح يتراوح من ثلاثة آلاف درهم الى عشرة آلاف بعد ان كان أكثر من ذلك ، وكذلك اقطـاع الأمير ، فاصبح يتراوح بين عشرة آلاف درهم الى أربعين الف درهم ، وكان فى الأصل أكثر من ذلك بكثير .

ابطال العديد من المكوس ((الضرائب)) :

وكانت هناك كثير من الضرائب « المكوس » تجبى لحساب الجنود وكانت تسبب للناس كثيرا من المتاعب والأضرار ، وتزيد فى غلاء الأسعار فأبطلها . ومن ذلك على سبيل المثال مكس الغلال حين كان يؤخـذ على كل اردب درهمين ونصـف ، فلما الغى هذا المكس رخص سعر الغلال بهذا القدر ، وكانت هناك ضريبة تؤخذ على الملح فألغاها . وألغى نصف ما كان السماسرة يتقاضونه عند التوسط فى البيع والشراء ، حيث كانوا يتقاضون درهمين عن كل مائة درهم فجعلها درهما واحدا .

والغى ما كان يؤخذ من ضريبة على طرح الفراريج (أى الدجاج) .

وما كان يؤخذ على المعاصر . وما كان يؤخذ من المساجين ، حيث كان كل سجين يدفع ضريبة عن سجنه كل يوم .

كما الغى الضرائب التى كانت تؤخذ من البغايا وبيوت الفواحش .

فكان لذلك كله أثره فى تحسين حالة الشعب الذى قابل هذه الاجراءات بالفرح والابتهـاج .

١٣٢٣ م ـ ٧٢٣ هـ ـ بناء الخانقاه فى سرياقوس :

فى هذه السنة انشأ السلطان خانقاه سرياقوس بناء على اشارة تلقاها من رسول

الله صلوات الله عليه على حد قوله ، اذ زاره فى المنام وطلب منه اقامتها لتكــون بيتا للمتصوفة ــ فأنشأ هذه الخانقاة أو الزاوية أو الرباط ــ « وكلها بمعنى واحد » لتقيم فيها مائة من المتصوفة ، وعين الخانقاة شيخا ليشرف على المقيمين بها .

ولا تعجب هذه الحركة ابن اياس ، فيسمى المتصوفة : جماعة من الافافية « أى الافاقين » الذين لا حرمة لهم .

وسرعان ما أصبحت منطقة الخانقاة مدينــة عامــرة ، اذ أقيمت بها البساتين والقصور للأمراء ، وهى لا تزال باقية حتى اليوم وان كان اللفظ قد تحور الى الخانكا .

واقامة هذه الخانقاة هى بداية التطور الكبير للحركة الصوفية فى مصر .

عصر بنـــاء وانشاء :

على ان هذه الخانقاه ، ليست الا رمزا لما يمكن ان يوصف به عهد الناصر قلاوون من انه أعظم عهد شهدته البلاد من حيث الانشاء والبناء والتعمير .

ففى عهده وبأمره أنشئت دور الأمراء بالقلعة ، وانشىء القصر الكبير الابلق الذى تكلف وحده نصف مليون درهم ، والذى سمى بالابلق لأن واجهته بنيت بالأحجــار الصفراء والسوداء على التوالى ، كما بنى الى جواره قصرين ، وعمر الايوان الكبير وعقد قبة عظيمة وشحها من الداخل بالقيشانى ومن الخارج بالرصاص .

وقد انشأ ميدانا تحت قلعة الجبل وأجــرى فيه الميــاه ، وغرس فيه النخل والأشجار وكان يلعب فيه بالكرة مع الأمراء وأولاد الملوك كل ثلاثاء .

وحفر الخليج الناصرى ، خارج القاهرة حتى أوصله الى سرياقوس .

وانشأ فيه عدة قناطر ــ وانشأ على جانبى هذا الخليج عدة بساتين وأعاد حفر خليج الاسكندرية من النيل عند مدينة فوة حتى الاســكندرية بعد أن كانت الرمال قد طمرته وتعطلت به الملاحة ، فنشطت مدينة الاسكندرية وزاد عمرانها وازدهرت تجارتهــا .

وانشأ عشرات من القناطر التى تذكر باسمها فى كتب التاريخ .

وكان للملك الناصر عناية كبيرة ببلاد الجيزة حتى انه عمــل على كل بلد جسرا وقنطرة ، وكانت قبل ذلك نظرا لارتفاعها كثيرا لا تصــل اليها الميــاه فأقــام جسر أم دينار بارتفاع ١٢ قصــبة فعمرت بلاد الجيزة بسبب ذلك .

واستجد فى ايام الملك الناصر عدة اراض بالشرقية ونواحى فوة وكانت قبل ذلك خرابا . وانشأ سد شبين فزاد بسببه خراج الشرقية ، وعمل جسرا خارج القاهرة رد به النيل عن منية السيرج فعمر بذلك عدة بساتين .

واحكم عامة اراضى مصر قبليها وبحريها بالترع والجسور ، حتى اتقن أمرها فزاد فى ايامه خراج مصر زيادة هائلة .

٣٣ مســجدا :

وبلغ عدد المساجد التى بنيت فى ايامه بمعرفة أمراء دولته أكثر من ٣٣ مسجدا لا يزال أكثرها باقيا حتى الآن يمثل ذروة ما وصل اليه الفن فى هذه الحقبة من تاريخ مصر .

١٢٣٥ م ــ ٧٢٥ هـ : نفوذ مصر السياسى :

اجتمع فى مصر هذا العام على مايقول المقريزى فى كتاب السلوك رسل صاحب اليمن ــ ورسل صاحب استنبول اى « بيزنطة » ورسل ملك سيس « ملكة ارمنيا » ورسل أبى سعيد خان مغول ايران الذين أسلموا ــ ورسل ماردين ــ ورسل ابن فرمان « وهى دولة صغيرة ، قامت فى جنوب شرق آسيا الصغرى على أنقاض دولة سلاجقة الروم » .

ورسل ملك النوبة .

وكل هؤلاء كانوا يبذلون الطاعة للناصر قلاوون .

وقد أكد أحياء الخلافة العباسية فى مصر ، زعامتها على كل الدول الاسلامية فقد أرسل السلطان محمد بن طغلق احد ملوك الهند الى الخليفة العباسى فى القاهرة يطلب منه ن يصدر له تقليدا بتوليه السلطان على بلاده كما ارسل الى الناصر قلاوون يطلب منه أن يتحالف على مهاجمة مغول ايران .

مع غــرب افريقيا :

وقامت لأول مرة علاقات ود وصداقة بين مصر والدول الاسلامية التى بدات تتكون فى غرب افريقيا ، كدولة الكاتم ، والبورنو ، والنكروز ، وقدم ملك النكروز مسى موسى بمصر فى طريقه لأداء الحج فقوبل بكل ترحاب .

السفارات المســيحية :

كما وصلت الى القاهرة سفارات من البابا ومن ملك فرنسا وملك ارجونة (اسبانيا) وامبراطور القسطنطينية وامبراطور الحبشة ، وكلهم يخطبون وده ويرجونه أن يحسن معاملة رعاياه من المسيحيين .

وهذا ما كان يفعله السلطان قلاوون بصفة عامة .

وهكذا أصبح البلاط المصرى فى هذه الفترة مركز تطلع جميع دول العالم .

١٣٢٥ م ــ ٧٢٦ هـ ــ رخص الأسعار :

وليس هناك ما يقاس به ازدهار اى مجتمع أدق من مدى توفر الأقوات ورخص اسعارها وسهولة الحصول عليها .

ولذلك فان المؤرخين القدامى يعنون جد العناية بهذه الناحية فسجلوا لنا قائمة الأسعار فى عهد الناصر قلاوون ، ونحن ننقلها عنهم لتكون مرجعا للمقارنة لما سيكون عليه الحال بعد ذلك فثمن الأردب من القمح الصعيدى أصبح ثمانية دراهم .

وأردب الفول او الشعير أربعة دراهم ، وبلغ ثمن الخبز العلامة العال « اى افخر انواع الخبز » ٢٠ رطلا بدرهم .

لكن يدلل المؤرخون المعاصرون على مدى ما وصلت اليه الأسعار من رخص وتوفر الأقوات فى ايدى الناس الا أن يقولوا : ورفض صعاليك الناس أعمال الكنس وسائر الأعمال الحقيرة لاستغنائهم .

ابن بطوطة فى مصر :

وفى هذه السنة وصل ابن بطوطة أعظم رحالة المسلمين الى مصر فدخل مدينة الاسكندرية فى اول جمادى الأولى « أبريل سنة ١٣٢٦ » .

ويقول عن مدينة الاسكندرية آنها من أعظم ما شاهده فى العالم من موانى وكانت منارة الاسكندرية لا تزال قائمة فى هذه الزيارة الا أنها كانت مهدمة فى أحد جوانبها ــ وسيعود اليها عام ٧٥٠ ليقول لنا انها تخربت واصبح لا يمكن دخولها والصعود اليها ــ ثم يصف لنا ابن بطوطة طريقه من الاسكندرية حتى ميناء عيذاب على البحر الأحمر مارا ببلاد الصعيد ــ ويصور لنا عمران مصر وما كانت عليه من رخاء فيقول ومن هذه المدينة « سمنود » ركبت النيل مصعدا الى مصر ما بين مدائن وقرى منظمة متصلة ــ بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لانه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك : والأسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى أسوان .

ويصف لنا الكثير من أحوال مصر الاجتماعية ــ ويشيد بعدل السلطان الناصر والذى كان يجلس يومين كل آسبوع يتلقى بنفسه الشكايات من الناس ويستمع لما يريدون ان يسمعوه أياه من المظالم .

ويحدثنا عن انتشار الطريقة الشاذلية وغيرها من الطرق المنتشرة فى مصر .

ويقول عن مدينة القاهرة :

هى أم البلاد ، قرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد ، وهى كثيرة العمارة ، متباهية بالحسن والنضارة . يستطيع الضعيف والقادر ان يعيش

فيها ، ومجمع الصادر والوارد مصريين وعربا وغيرهم . وانك لتجد فيها العلماء الكبار والجهلة الكبار ، والجد والهزل ، والحليم والسفيه والشريف والمشروف : والنبيل والوضيع كالبحر بساكنيها — ويقال أن فيها أثنى عشر ألف سقاء وان فيها ثلاثين الف مكارى « أى حمار » : بتشديد الميم .

وأن السفن التى تسير فى النيل ٣٦ ألفا — أما عن سكان القاهرة فهم أهل طرب وسرور ولهو يخرجون كثيرا الى منازهها وبساتينها .

يحدثنا عن سفر المحمل وعن تزين القاهرة بمناسبته .

وفاة السلطان عثمان خان مؤسس الدولة العثمانية :

وفى هذه السنة مات السلطان عثمان خان مؤسس الدولة العثمانية عن سبعين سنة وولى عرش هذه الدولة الاسلامية الوليدة ابنة اروخان .

١٣٢٧ م — ٧٢٨ هـ — وفاة الامام ابن تيمية :

فى ليلة الاثنين والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة مات شيخ الاسلام تقى الدين بن تيمية الحرانى الدمشقى الحنبلى فى سجنه بقلعة دمشق وكان سجنه هذا هو أحد مظاهر جهاده واجتهاده فى الدين ، فقد نقم عليه علماء عصره الفقهاء — اجتهاده فى أحكام الدين — فقد زعم الكل أن باب الاجتهاد قد أغلق ، كما نقم عليه أقطاب الصوفية — من الناحية الاخرى — أنكاره لمذاهبهم على أساس ان لا دين يعتبر عمل الا على أساس من الشريعة .

وحسده الأمراء على ما وصل اليه من نفوذ وسلطان روحى بين الجماهير سواء فى مصر — أو فى الشام ونقم عليه السلطان — انه اجترا على تحديه وعدم اطاعة امره فقد حظر عليه أن يفتى بما انتهى اليه اجتهاده : فأفتى .

وقد اثنى الكثيرون من معاصرى ابن تيمية على علمه ونفهه واجتهاده ، لكن اذا كان أعظم الشهادة ما جاء على لسان الخصم — فقد اخترنا ما قاله عنه القاضى كمال الدين بن الزملكانى (وكان خصما له) فقال :

اجتمعت فيه شروط الاجتهاد وعلى وجهها ثم جرت له محن فى مسألة الطلاق ثلاث ، وشد الرحال الى قبور الانبياء الصالحين : وحبب للناس القيام عليه . وحبس مرة فى القاهرة والاسكندرية ، ودمشق : وعقد له مجالس بالقاهرة ودمشق وحصل له فى بعضها تعظيم من الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم انطلق وتوجه الى دمشق واقام بها الى ان ورد مرسوم شريف فى سنة ستة وعشرين وسبعمائة : بأن يجعل فى قلعة دمشق فى قاعة ، فجعل فى قاعة حسنة وأقام بها مشغولا بالتصنيف والكتابة ، ثم بعد ذلك منع من الكتابة واخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا عنده دواة ولا قلما ولا ورقة » .

والحق ان ابن تيميه بشخصيته المتعددة الابعاد ، سواء فى ناحية التقوى والورع أو الجهاد : والكفاح ضد التتار ، أو بعمله الواسع وفقهه واجتهاده : واخيرا بتلميذه الكبير ابن القيم يعتبر بحق أحد مجددى شباب الاسلام العالمى ومن أعادوا الى الفقه الاسلامي نضارته .

١٣٣٢ م ـ ٧٣٢ هـ ـ الناصر يحج ويعمل بابا للكعبة :

كانت مكة والمدينة يقعان فى سلطان المماليك لا نتيجة الفتح أو الغزو ولكن نتيجة ارتباط الحجاز بمصر واعتمادها عليها قد أصبحت مركزا للسلطة والقوة ، فأصبح سلطان مصر هو فى نفس الوقت حامى الحرمين ، فكان يخطب له على منابرها : وقد كان الظاهر بيبرس هو أول من حج واهتم بعمارة الحرم ولا تزال آثار سلاطين المماليك مسجلة ومنقوشة على منشئات الكعبة .

وكان الناصر قلاوون من أكثر المماليك احتفالا بالحرم المكى ومنسك الحج . فحج أكثر من مرة وقد سجل لنا الملك ابو الفدا صاحب حماة تفاصيل هذا الحج اذ كان مصاحبا لقلاوون ـ وفى هذه السنة ٧٣٢ هـ أهدى قلاوون للكعبة بابا جديدا من خشب السنط الأحمر المغلف بالفضة التى كانت تزيد على ثلاثين ألف درهم فرأى ان يسافر بنفسه لوضع الباب الجديد فى حضوره .

وفاة الملك المؤيد أبو الفدا المؤرخ :

وفى هذه السنة مات الملك المؤيد عماد الدين ابو الفدا ، صاحب حماة ، سليل الأسرة الايوبية : وقد أنعم عليه الملك الناصر بامارة حماة عام ٧٢٠ هـ وكان قد ولد عام ٦٧٢ وحفظ القرآن وبرع فى الفقه والأصول العربية والتاريخ والادب والطب والتفسير والمنطق والفلسفة مع الاعتقاد الصحيح .

وقد خلده تاريخه المشهور « المختصر فى أخبار البشر » وقد لخص فيه تاريخ الكامل لابن الاثير : ثم واصل تسجيل ما استجد بعد ذلك من الحوادث ، وبلغ تاريخه ذروة أهميته فى الفترة التى عاش فيها والتى أربت على نصف قرن . فهو مصدر من الدرجة الاولى لهذه الفترة وقد ظل يكتب التاريخ حتى هذه السنة : حيث أكمله مؤرخ آخر حتى أيامه هو مبتدئا بقوله : وفى هذه السنة مات السلطان المؤيد صاحب هذا الكتاب .

١٣٣٨ م ـ ٧٣٨ هـ : نفى الخليفة العباسى الى الصعيد :

كان الخليفة العباسى قد أصبح مجرد منصب رمزى لا حول له ولا طول : وكان الخلفاء العباسيون قد راضوا أنفسهم على أن يقنعوا بالعيش الهنى فى رغد ، ملبين كل ما يطلبه منهم السلاطين . ولكن الخليفة المستكفى تجاوز حده عندما رفعت اليه

ظلامة ضد قلاوون ، فأشر على العريضة وجوب حضور محمد بن قلاوون الى مجلس العرش : أو أن يوكل عنه وكيلا : فغضب قلاوون لذلك وأصدر أمره بنفيه هو وعائلته الى قوص .

فعهد الخليفة المستكفى الى ابنه أحمد بالخلافة على يد قاضي قوص واستشهد بأربعين رجلا من العدول .

ولكن الملك الناصر لم يصدق على التفويض وجمع القضاة الأربعة ، وعقد مجلسا بسبب ذلك . فتمسك القضاة الأربعة بحكم قاضي قوص ووجوب ولاية أحمد ابن المستكفى الخلافة ، ولكن السلطان قلاوون رفض ذلك وانفض المجلس بدون الوصول الى نتيجة .

وولى قلاوون بعد ذلك ابراهيم أخ المستكفى خليفة ولقب بالواثق بالله فكان العامة يلقبون الخليفة الجديد المستعفى بالله لقذارة نفسه وسوء تدبيره .

وهكذا انحدرت الخلافة الى أحط دركاتها : ولكن هذا الموقف يصور لنا كيف أن القضاة الأربعة قد خالفوا السلطان ولم يخشوا بأسه ، كما أن السلطان من ناحيته لم يغضب عليهم لتمسكهم بأحكام الشرع .

١٣٤١ م ـ ٧٤١ هـ : وفاة السلطان الملك الناصر قلاوون :

فى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة مات الناصر قلاوون . وكان عمره يوم وفاته سبعا وخمسين سنة واحد عشر شهرا وأياما . حكم فيها ثلاث مرات ـ على ما مر بنا ـ وكانت مدة حكمه الأخيرة اثنتين وثلاثين سنة وشهرين وخمسة وعشرين يوما وهى مدة لم تتهيأ لأحد من سلاطين المماليك قبله او بعده ولانحسب بعد مااستعرضناه من وقائع حياته اننا فى حاجة للوقوف طويلا امام شخصيته والدور العظيم الذى قام به فى حياة مصر والاسلام فى هذه الفترة .

وحسبنا أن نشير الى بعض اللمسات اللازمة لاكمال صورة شخصيته :

ففى أحد المرات عندما علم أن الأمراء يتلاعبون بأسعار القمح مما أدى الى ارتفاع سعره اشتد غضبه عليهم ، حتى لقد انتهر قوصون زوج ابنته وأفزعه عندما علم باشتراكه فى هذا التلاعب .

ولم يلبث أن رخص القمح وهبطت أسعاره .

وقد اشتهر بحبه لاقتناء المماليك وشاع فى اقطار الدنيا احسانه الى مماليكه فكان المغول يبيعون أولادهم التجار ليحملوهم الى مصر ليحصلوا على السعادة . ودفع ثمنا لبعض المماليك اربعين الف درهم .

كما شغف بحب الخيل واقتناء الجيد منها وخاصة الجياد العربية حتى لقد دفع فى فرس اسمها بنت الكرماء مائتى الف درهم .

وعندما مات كان فى اصطبلاته أربعة آلاف وثمانمائة فرس .

يقول عنه أبو المحاسن : وكان رحمة الله عليه فى غاية الحشمة والرياسة وسياسة الأمور ، فلم يضبط عليه أحد أنه أطلق لسانه بكلام فاحش فى شدة غضبه ولا فى انبساطه . وكان مفرط الذكاء يعرف جميع مماليك آبائه وأولادهم بأسمائهم .

وكان يكره شرب الخمر ويعاقب عليه ويبعد من يشربه من الأمراء وكان فى الجود والكرم . غاية لا تدرك ، وهب فى يوم واحد ما يزيد على مائة ألف دينار ذهب .

سلالة قلاوون على العرش :

وفى خلال الاحدى والاربعين سنة التالية تبوأ كرسى السلطنة اثنا عشر سلطانا كلهم من سلالته، ثمانية من ابنائه واثنان من حفدته واثنان من ابناء حفدته ، وهكذا استطاعت قوة شخصية قلاوون وأثره الكبير ان ينشىء أسرة حاكمة وأن يوطد فكرة الملك بالوراثة فى صفوف المماليك رغم عدم اعترافهم به .

١٣٤٢ م — ٧٤١ هـ : سلطنة الملك المنصور سيف الدين أبو بكر :

فى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة أى فى يوم وفاة قلاوون جلس على تخت الملك بالايوان من قلعة الجبل سيف الدين أبو بكر ابن الناصر قلاوون بعهد من أبيه . وكان عمره يوم ولى السلطنة عشرين سنة وأطلق عليه اسم الملك المنصور .

واتفق الأمراء على أن يكون مدبر المملكة ورأس النورى هو الأمير قوصون الناصرى .

١٣٤٢ م — ٧٤٢ هـ : خلع السلطان منصور أبو بكر :

وفى يوم السبت ١٩ صفر من هذه السنة خلع السلطان منصور ثم قتل بعد ذلك فلم يكن تولية الأمراء لسيف الدين أبو بكر الا تنفيذا للعهد الذى قطعوه على أنفسهم لأبيه ولكن الأمراء ما كانوا ليهدأوا عن السعى للحصول على السلطة ، ولما كان السلطان المنصور كبيرا الى الحد الذى لا يستطيع قوصون معه أن ينفرد بالسلطة ويمكن أن يكون خطرا عليه وعلى الأمراء فقد جمع قوصون الأمراء ولما ينقض ثلاثة اشهر على تنصيب السلطان منصور وقال لهم :

« ان السلطان يريد أن يقتلكم ولا يبقى على أحد منكم » ، فالتف الأمراء حول قوصون ، والقوا القبض على السلطان وأبعدوه الى قوص وأصدر قوصون أمره الى متولى قوص بقتله فنفذ الأمر .

سلطنة الملك الأشرف علاء الدين كجك :

فى يوم الاثنين الحادى والعشرين من شهر صفر اجاس على العرش السلطان الأشرف علاء الدين الابن الأصغر للسلطان الملك الناصر باتفاق الأمراء على اختياره بعد خلع أخيه ولم يكن عمره وقتئذ سوى خمس سنوات .

وهكذا أصبح قوصون نائب السلطان والحاكم الفعلى معا .

١٣٤٢ م ـ ٧٤٣ هـ : قتل الأمير قوصون :

غضب الشعب لما حل بالسلطان منصور ابن السلطان الناصر ، فراحوا يعبرون عن سخطهم بملاحقة مماليك قوصون بالسب فقبض على الكثيرين من أفراد الشعب وقتلوا وصلبوا فزاد من حقد الجماهير على قوصون .

وكان للناصر قلاوون ابن كبير يقيم فى حصن الكرك : وهو شهاب الدين أحمد فاستغل حنق أمراء الشام على فعلة قوصون ، وغضب الشعب المصرى ، لكى يعلن حقه فى تولى السلطنة ، فلم يكد هذا النبأ يعلن ، حتى انفض الأمراء من حول قوصون ، وحاصروه فى القلعة ، وأباحوا للعامة نهب بيته وأمواله ، ونهبوها ، ولم يسع قوصون الا أن يستسلم فقبض عليه وأرسل الى الاسكندرية ليسجن بها . حيث قتل بعد ذلك .

خلع السلطان الأشرف :

وخلع أمراء المماليك السلطان الأشرف بعد أن دامت سلطته الاسمية خمسة شهور وعشرة أيام ، تمهيدا لمبايعة أخيه .

سلطنة الناصر شهاب الدين :

فى يوم الاثنين العاشر من شوال ، بويع شهاب الدين احمد بعد أن وصل الى مصر وصعد الى القلعة ؛ وتمت مبايعته بمعرفة الخليفة والقضاة الأربعة ، ولقب بالناصر .

ولم يفعل فى مستهل حكمه الا أنه انتقم من قتلة أخيه ، ثم قرر أن يعود للاقامة فى حصن الكرك ولما يمض عليه شهر واحد فى مصر ، وعندما اعتزم السفر الى الكرك دخل الى الخزائن السلطانية فأخذ منها ما قدر على أخذه من الأموال والتحف والذخائر الثمينة ، وألوف الأغنام والأبقار التى كانت لابيه وساق ذلك كله معه وسار الى حصن الكرك ، وأعلن أن مقامه سيكون به .

١٣٤٢ م ــ ٧٤٣ هـ : خلع السلطان الناصر شـهاب الدين .

أستاء الأمراء من استقرار السلطان الناصر شهاب الدين فى قلعة الكرك فاجتمعوا وتداولوا فيما بينهم وقالوا : ان أحوال المملكة ضائعة والسلطان لا يلتفت الى شيء فأرسلوا يكاتبونه فى الحضور الى مصر ، فان حضر فذاك ، وان لم يحضر ولوا غيره .

ولكن السلطان لم يأبه بأمرائه وكتب لهم يقول « أننى أقيم فى الموضـع الذى اشتهى ، وأى وقت أردت حضرت اليكم » ..

فأستقر رأى الأمراء على خلعه ، فخلعوه فى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شهر المحرم . فكانت مدة سلطنته ثلاثة أشـهر وأيام .

سـلطنة الصالح عماد الدين اسـماعيل :

فى يوم الخميس الثانى والعشرين من محرم جلس على تخت الملك والسـلطان الملك الصالح عماد الدين بن الملك الناصر قلاوون بعد أن خلع أخيه باتفاق الأمراء على ذلك .

وبعـد ان أخـذوا عليه العهـد والميثـاق الا يقبض على أحـد منهم بغير ذنب ولا يؤذى أحـدا .

١٣٤٤ م ــ ٧٤٥ هـ : قتل الملك الناصر أحمد :

لم يكد الملك الصالح يلى السـلطنة حتى شرع يناهض أخاه فى الكرك ويطالبه بما اسـتولى عليه من أموال ، فلم يجبه أخوه الى شيء من ذلك ، وأعلن تمسـكه بسلطانه الكامل وعدم الاعتراف بخلعه . فبدأت الجيوش تخرج من مصر وتحاصر قلعة الكرك ، ودارت المعارك دون أن تصل الى نتيجة ، واستمر الحـال على هذا المنوال أكثر من سنتين .

ولكن الحصار قد أضر فى نهاية الأمر بالملك الناصر ، وخاصة بعد أن انفق آخر ما كان متجمعا لديه من أموال : فانتهى أمره بالاستسلام الى الجيش المصرى فى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر صفر . فقبض عليه ثم قتل .

١٣٤٥ م ــ ٧٤٦ هـ : موت السلطان الصـالح اسماعيل :

فى ليلة الخميس الرابع من ربيع الثانى مات السلطان الصالح اسماعيل وكان عمره يوم موته عشرين سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وشهرا وثمانية عشر يوما .

سـلطنة الملك الكامل شـعبان :

فى يوم الخميس الرابع من ربيع الثانى فى نفس اليوم الذى مات فيه السلطان

الصالح بويع بالملك الابن الخامس للناصر قلاوون وهو السلطان الكامل سيف الدين شـــعبان .

١٣٤٦ م ٧٤٧ هـ : قتل السـلطان الكامل :

لم يكد السلطان الكامل يجلس على العرش حتى أقبل على حياة اللهو والمجون واشاعها فى البلاد كلها واهمل شئون الدولة ، فنفر منه الرأى العام فاجتمع الأمراء الموجودين فى دمشق ، وعرضوا على نائب السلطان على دمشق ان يكتب له محذرا ومنذرا فكتب يقول :

انى أحد الأوصياء عليك . وكان مما قاله لى أبوك ولغيرى من الامراء فى وصيته اذا أقمتم أحدا من أولادى ولم ترضوا عن سيرته فجروا برجله وأخرجوه واقيموا أحدا غيره .

وانت افسدت المملكة واقصيت الأمراء والأجناد . وقتلت أخاك ، وقبضت على أكابر أمراء السلطان وانشغلت عن الملك ، والتهيت بالنساء وشرب الخمر .

وذكروا له أمورا فاحشة عملها .

فلما وصل هذا الخطاب الى مصر اعتبره السلطان الكامل أنه بمثابة تمرد من نائب الشـــام ، وقرر أن يبعث اليه بالجيش لتأديبه .

وقبض على أخويه حاجى وحسين وأعد العدة لقتلهما . فلما تسامع الأمراء بذلك انفضوا من حوله ، وحاصروا القلعة ثم قبضوا عليه وأفرجوا عن أخويه ، وأجلسوا أحدهما وهو « حاجى » على العرش وقتلوا السلطان الكامل فى ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة . فكانت مدة سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما .

ســلطنة الملك المظفر حاجى :

فى يوم الاثنين أول جمادى الثانى اجلس على العرش الابن الســـــادس للناصر قلاوون وهو الملك المظفــر زين الدين حاجى ، وقــد ولد على ما يقــول ابن اياس عام ٦٣٢ هـ عندما كان أبوه يحج ولذلك أطلق عليه حاجى .

ولم يكد يلى الملك حتى أقبل على اللهو واللعب ، وشغل نفسه بلعب الحمام مع « الأوباش » على ما يقول معاصروه . فى الوقت الذى قتل فيه عددا كبيرا من الامراء وهدد بقتل غيرهم عندما أنكروا عليه الاختلاط بالأوباش واللعب بالحمام .

فبادر الأمراء بالتآمر عليه لقتله .

١٣٤٧ م ــ ٧٤٨ هـ : مقتل الســلطان المظفر حاجى :

ففى يوم الأحد ثانى عشر من رمضان ، أحاط الأمراء بالسلطان المظفر حاجى بعد

ان خاض معهم معركة فاشلة ، فقبضوا عليه وذبحوه فكانت مدة سلطنته على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وأربعة أيام .

١٣٤٧ م ــ ٧٤٨ هـ : سلطنة الملك الناصر حسن الأولى على مصر :

فى يوم الثلاثاء رابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة بويع بالملك سابع أولاد الملك الناصر أبو المحاسن حسن بعد مقتل أخيه حاجى ، وكان عمره يوم بويع احدى عشرة سنة على ما يقول أبو المحاسن ، وثلاث عشرة سنة على ما يقول ابن اياس .

ولقب بالملك الناصر ..

وتم الاتفاق بين الأمراء على أن يتولى تسعة منهم على رأسهم شيخون العمرى مهمة التشاور فيما بينهم لتدبير أمور المملكة حسب ما يتفقون عليه .

١٣٤٨ م ــ ٧٤٩ هـ : وباء الموت الأصفر الذى غمر العالم ووصوله الى مصر :

وصل الى مصر فى هذه السنة وباء الطاعون الذى اجتاح العالم فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى وأطلق عليه اسم الموت الأصفر .

وقد بدأ الوباء فى أواسط آسيا ثم انتقل الى شبه جزيرة القرم ومنها انتقل الى جنوا عن طريق مراكب البحر ثم سرى فى سائر انحاء أوروبا ووصل الى انجلترا عام ١٣٤٨ فقضى على نصف سكانها .

يقول ابن اياس انه كان يخرج من القاهرة فى كل يوم ما يزيد على عشرين الف جنازة . وقد بلغ عدد من ماتوا فى شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة الف .

ولم يزرع من أراضى مصر فى هذه السنة الا القليل بسبب موت الفلاحين وعدم وجود من يزرع ، فوقع الغلاء حتى بيعت الربعة من القمح بمائتى درهم وكادت مصر تخرب فى هذه السنة .

يقول ابو المحاسن نقلا عمن عاشوا بعد هذا الوباء :

فما ان اهل ذو القعدة الا والقاهرة خالية مقفرة لا يوجد بشوارعها مار بحيث يمر الانسان من باب زويلة الى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لاشتغال الناس بالموتى . وعلت الأتربة على الطرقات ، وتنكرت وجوه الناس وامتلأت الأماكن بالصياح فلا تجد بيتا الا وفيه صيحة ولا تمر بشارع الا وترى فيه عدة أموات .

وصلى فى يوم الجمعة بعد الصلاة على الأموات فى جامع الحاكم ، فصفت التوابيت اثنين اثنين من باب مقصورة الخطابة الى باب الجامع ، ووقف الامام على العتبة والناس خارج الجامع .

وخلت ازقة كبيرة وحارات عديدة من الناس وبقيت الأزقة والدروب المتعددة خالية .

واشتد الأمر فلم يعد هناك مجال لعمل التوابيت والصلاة على المتوفى فحمل أكثر الموتى على الواح الخشب وعلى السلالم والأبواب وحفرت الحفائر والقى فيها الموتى فكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون .

وكانت صفة الموت بالطاعون ، أن يبصق الانسان دما ، ثم يصيح ويموت .

١٣٥٠ م ـ ٧٥١ هـ : ترشيد السلطان حسن :

اضطربت أحوال البلاد من جراء ما وقع فيها من فناء ، وضاعف فى شدة الأمور قصور فيضان النيل ، فزاد البلاء بالناس : فاستغل السلطان هذه الفرصة ليتمرد على الحجر الذى فرضه عليه الأمراء ، والذى بلغ الى حد تحديد مصروفه اليومى بمائة درهم لا يجوز له أن يتجاوزها .

فجمع السلطان القضاة الأربعة وسائر الامراء ، وطلب أن يعتبر رشيدا فأجيب الى طلبه ، وأصبح بيده الحل والعقد ، فأصدر أمره بالقبض على عدد من الأمراء .

١٣٥١ م ـ ٧٥٢ هـ : خلع السلطان حسن :

لم يرض الامراء عن هذه الخطوة التى أقدم عليها السلطان حسن ولذلك فقد تآمروا عليه وقرروا خلعه . فتم لهم ذلك فى يوم الاحد سابع عشر جمادى الاخرة ، وقبضوا عليه وسجنوه فى أحد الأمكنة داخل دور الحريم .

سلطنة الملك الصالح صلاح الدين :

فى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة تسلطن صلاح الدين الابن الثامن من أبناء الناصر قلاوون باتفاق الأمراء بعد خلع أخيه السلطان حسن ، ولقبوه بالملك الصالح . وزينت القاهرة وسائر بيوت الأمراء حسب ما هو متبع وكان المتصرف فى شئون الدولة الأمير شيخون العمرى والأمير صرغتمش والأمير طاز .

١٣٥٢ م ـ ٧٥٣ هـ : قيام الفتنة فى الشام وقمعها :

اعلن امير حلب يلبغا أردس ، عصيانه على سلطنة القاهرة ونادى بنفسه سلطانا على الشام وزحف على مدينة دمشق وفرض عليها الحصار ، فخرج السلطان والأمراء من القاهرة ، قاصدا الشام ، فلم يكد أمير حلب المتمرد يسمع بقرب وصول السلطان

حتى رفع الحصار عن دمشق وانسحب عائدا الى حلب ولكن جيوش السلطان التى كانت قد وصلت لاحقته فى فراره فلم يعد أمامه الا أن يفر من البلاد كلها .

وعاد السلطان الى القاهرة فى أواخر شوال ، فكان دخوله الى القاهرة يوما مشهودا لم يتفق لأحد من أخواته ، فزينت له الشوارع ، وحمل على رأسه القبة والطير وهى « شعائر السلطنة » وفرشت له شقق الحرير من باب النصر الى القلعة وهو فى غاية العز والنصرة والامراء مشاة بين يديه يلعبون قدامه بالغواشى والذهب، وينثرون عليه الذهب والفضة والناس تصيح له بالدعاء .

١٣٥٤ م ــ ٧٥٥ هـ : خلع الملك الصالح واعادة السلطان حسن :

وفى يوم الاثنين الثانى من شوال من هذه السنة ، اتفق الأمراء على خلع الملك الصالح صلاح الدين لغير سبب واضح الا الرغبة فى التبديل لمجرد التبديل . فقبض عليه وحبس فى بعض دور القلعة وكان عمره يوم خلعه واحد وعشرين عاما .

ثم تشاوروا فيما بينهم عمن يكون سلطانا ، فانتهى رأيهم الى اعادة السلطان حسن الى العرش .

عودة السلطان حسن الى الملك :

فى نفس اليوم الذى خلع فيه السلطان الصالح أخرج السلطان حسن من محبسه بالقلعة واجلس على العرش واقيمت الاحتفالات المعتادة بهذه المناسبات .

وكان القائم على امر الخلع والتولية هما الأميران شيخون العمرى وصرغتمش . وقد تعين شيخون اتابكا للعسكر .

١٣٥٥ م ٧٥٦ هـ : جامع وخانقاه شيخون :

أتم الأمير شيخون فى هذه السنة ، بناء مؤسسته الدينيه العلمية الصوفية المؤلفة من جامعه المشهور وخانقاه ، ولا يزال الجامع والخانقاه قائمين حتى اليوم بشارع الصليبة ، وتقام الشعائر الدينية فى المسجد ، اما الخانقاه فتعتبر أكمل خوانق القاهرة حتى لا تزال بها مساكن الطلبة فى دورين تشرف بشكلها المدرسى الجميل على صحن الجامع وان كانت شاغرة اليوم .

اما على عهد منشئها فقد كانت تغص بطلبتها من الصوفية الذين قرر لهم الخبز والطعام كل يوم والحلل العجيبة مرة كل شهر .

١٣٥٨ م - ٧٥٩ هـ : افتتاح مدرسة ومسجد السلطان حسن :

فى هذه السنة تم بناء المدرسة التى شرع السلطان حسن فى انشائها منذ ثلاث سنوات سابقة ، والتى تعرف اليوم باسم السلطان حسن ، والتى تواجه جامع الرفاعى بمنطقة القلعة .

وتعتبر مدرسة السلطان حسن فخر العمارة الاسلامية وأجمل ما بنى فى مصر منذ دخلها الاسلام حتى الآن . ويقرر هذه الحقيقة كل المؤرخين الذين كتبوا عن هذا الأثر . وكل الرحالة الذين زاروا مصر من شرقيين وغربيين .

وكان يصرف على هذه المدرسة ابان بنائها عشرون ألف درهم فى كل يوم أو ما يعادل ألف مثقال من الذهب .

وفى هذه المدرسة عجائب من فن البناء ، منها أن ذرع ايوانها الكبير ٦٥ ذراعا فى مثلها ومن عجائب بنائها كذلك القبة العظيمة ، التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب مثلها وفيها المنبر الرخام الذى لا نظير له فى الدنيا ، ومنها البوابة العظيمة . وقيل أن ايوانها بنى على قدر ايوان كسرى انوشروان فى الطول والعرض، وهذه المدرسة تستعمل على أربع مدارس لكل شيخ مذهب مدرسة يختص بها ..

يقول أمين باشا سامى :

وبالجملة فهذا الجامع انشىء فى أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يماثله ..

ومن ناحيتى أنا ، فلقد طالما بهرنى مبنى مسجد السلطان حسن بأكثر مما بهرنى بناء الأهرام نفسه ، ولطالما وقفت أمامه مبهوتا ازاء شموخ جدرانه الضاربة فى الفضاء قبل أن تعرف الدنيا ناطحات السحاب .

ولطالما أخذت رفاقى واصحابى لزيارة هذا المسجد العتيد ، ورحت أحاضرهم عنه ، واضعا أيديهم على مغزى امكان المجتمع أن يقيم مثل هذا البناء ، الذى يكشف عن وفرة من كان به من الفنانين والمهندسين والبنائين ومختلف أنواع الحرفيين .

وفوق ذلك كله المديرون والمنظمون .

وفاة السلطان اورخان غازى العثمانى :

وفى هذه السنة ٧٦١ مات السلطان أورخان غازى بعد أن بلغ من العمر ٨١ سنة حكم منها ٣٥ سنة ، وسع فيها رقعة الدولة العثمانية .

وتسلطن من بعده ابنه مراد خان الغازى .

١٣٦١ م — ٧٦٢ هـ : مقتل السلطان حسن :

حرص السلطان حسن أن يكون هو صاحب الملك الحقيقى فتخلص من كبار امراء أبيه شيخون وصرغتمش ، وأنشأ لنفسه جيشا خاصا من المماليك الذين اشتراهم ودربهم ورقاهم الى أعلى المراتب .

وجعل الأمير يلبغا العمرى رئيسا لهم .

فكان خلعه على يد الأمير يلبغا الذى اشتبك مع سيده فى معركة ، فانهزم السلطان حسن ، وفر هاربا ولكنه لم يلبث أن قبض عليه ، وجيء به الى يلبغا فلم يمهله وارداه قتيلا .

وكان عمر السلطان حسن يوم مقتله ثلاثين سنة . ومدة ملكه فى سلطنته الثانية ست سنين وسبعة اشهر .

ومرة أخرى يعجب الانسان ، كيف استطاع فى هذه المدة القصيرة والظروف المضطربة التى كانت طابع الحياة المملوكة فى ذلك الوقت : أن ينشيء هذا المبنى الذى لا مثيل له فى العالم الاسلامى .

الحق أن هذا ان دل على شيء ، فعلى حيوية هذا الشعب وقدرته فى كل زمان ومكان أن يعبر عن طاقاته الفنية وابداعاته الانشائية متى أتيحت له الفرصة .

سلطنة الملك المنصور محمد على مصر :

فى يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى من هذه السنة ، بويع السلطان ، الملك المنصور أبو المعالى ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المظفر حاجى ابن السلطان الناصر قلاوون ، فهو أول أحفاد الناصر ممن جلسوا على العرش .

وكان لا زال باقيا من أبناء الناصر قلاوون ابنه حسين ، ولكن يلبغا العمرى آثر ان يولى سلطانا صغيرا ليكون أقدر على التحكم فيه .

وكان عمره على ما يقول أبو المحاسن أربعة عشر عاما ، وهو الرأى الذى اخترناه ، من بين الأقوال الأخرى المتعددة .

وعين الأمير يلبغا العمرى مديرا للمملكة فتزوج زوجة أستاذه السلطان حسن الذى قتله .

١٣٦٢ م — ٧٦٤ هـ — خلع السلطان الملك منصور محمد :

فى يوم الثلاثاء : خامس عشر شعبان من هذه السنة ، اتفق الأمراء وعلى رأسهم يلبغا العمرى وطيبغا الطويل على خلع الملك المنصور محمد لما بلغهم عنه على ما يقول

ابو المحاسن من انه كان يدخل الى نساء الأمراء ويمزح معهن وكان يعمل مكاريا للجوارى ويركبهن الحمار ويجرى وراء الحمار بالحوش السلطانى ، وانه كان ياخذ زنبيلا به كعك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك على سبيل المجانة . وانه كان يفسق فى حريم الناس ويخل بالصلوات ويجلس على كرسى الملك جنبا وأشياء غير ذلك فاتفق الأمراء على خلعه فخلعوه وقد عاش بعد ذلك خاملا غارقا فى السكر واللهو الى أيام السلطان برقوق (١) .

وكانت مدة سلطنة الملك منصور سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام .

سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر :

فى نفس اليوم الذى خلع فيه الملك منصور، أجلس على تخت الملك السلطان الملك الأشرف أبو المفاخر « على ما يلقبه بعض المؤرخين وأبو المعاطى على ما يلقبه البعض الآخر » زين الدين شعبان ابن الملك حسين ابن السلطان الناصر قلاوون .

وكان عمر الأشرف يوم توليه عشر سنوات .

واستقر الاتابك يلبغا العمرى مديرا للمملكة ، ومعه خشداشه « اى زميله » طيبغا الطويل اميرا على السلاح .

١٣٦٥ م – ٧٦٧ هـ : ملك قبرص ينهب الاسكندرية :

كان سقوط عكا على يد الأشرف خليل عام ١٢٩١ م هو آخر العهد بالصليبيين على أرض فلسطين ، ولكن بقايا الصليبيين الذين جلوا عن فلسطين والشام التجأوا جميعا الى جزيرتى قبرص ورودس ، وسرعان ما تحولت هاتان الجزيرتان الى قلعة صليبية تعمل بالليل والنهار على استعادة بيت المقدس من ايدى المسلمين .

وقد استغل بطرس لورنيان ملك قبرص ، اضطراب الاحوال فى مصر ، وعدم استقرار سلاطينها فحاول أن يهيب بأوروبا لتشن حربا صليبية جديدة على مصر ، ولكن الجذوة الدينية ، كانت قد انتهت نهائيا فى أوروبا ، ومع ذلك فقد أمدوا ملك قبرص ببعض العون الذى جعله يتجرأ على مهاجمة اسكندرية بسبعين مركبا من المراكب الحربية المشحونة بالمقاتلين .

وبدلا من أن يتربص بهم والى المدينة داخل أسوار مدينته الحصينة ريثما يصل

(١) حرصنا على ثبات خلع الملك المنصور كما كتبها أبو المحاسين تغرى بردى لانها أعظم شهادة لهذا المؤرخ الفقيه الامين ، وتجرده وحياته بالنسبة لما يكتب ، ذلك أن ابا المحاسن يقول لنا فى تاريخه أن اباه تزوج ابنة هذا الملك أيام السلطان برقوق ، وكانت هذه الصلة جديرة بان تجعل أبا المحاسن يغفل ذكر هذه التفصيلات المشينة عن رجل صاهره أبوه ، ولكن روح المؤرخ غلبت عليه فكتب كل ما نقل اليه من الرجل .

الخبر الى القاهرة ويأتيه منها المدد ، استخف بالجيش المهاجم ، وخاض معهم معركة خارج اسوار المدينة فدارت عليه الدائرة وفر مذعورا ومن معه مسجها نحو دمنهور لا القاهرة مخلفا وراءه المدينة مفتوحة الأبواب خالية من أى دفاع فدخلها القبرصيون وانبثوا فى شوارعها ينهبون متاجرها وبيوتها ومساجدها وكنائسها ويقتلون من يعترضهم ويخربون ويحرقون مالا يقدرون على سرقته ، وظلوا على هذا الحال ثلاثة أيام وهم ينقلون الى سفنهم كل ما وصل الى أيديهم .

حتى اذا وصل الى سمع القبرصيين تحرك السلطان الأشرف شعبان من القاهرة ، أسرعوا الى سفنهم لائذين بالفرار بغنيمتهم ، تاركين وراءهم الاسكندرية قاعا صفصافا .

ويصف النويرى سلوك بطرس اورنيان ملك قبرص انه جاء الى المدينة لصا وخرج منها لصا .

وغنى عن البيان ان هذه الهزيمة العسكرية ونهب مدينة الاسكندرية على هذه الصورة هى حصيلة سوء الأحوال التى انتهت اليها البلاد والسلاطين العوبة فى يد الأمراء يعينون من يشاءون ويعزلون من يشاءون ويقيلون من يشاءون ، لا لمصلحة عامة ولكن لتحقيق أغراض شخصية .

وقد سجل ديوان الشعر المصرى هذه النكبة التى حلت بمدينة الاسكندرية على لسان الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجلة ، حيث يقول فى قصيدة طويلة :

الا فى سبيل الله ما حل بالثغر على فرقة الاسلام من عصبة الكفر
اتاها من الافرنج سبعون مركبا وضاقت بها العربان فى البر والبحر

١٣٦٦ م — ٧٦٨ هـ : مقتل يلبغا العمرى :

وقع الاصطدام المألوف بين الملك الأشرف شعبان وبين صاحب السلطة الحقيقى يلبغا العمرى ، وكانت مماليك يلبغا هى التى حرضت السلطان عليه والزمته بمحاربته بسبب الشدة التى كان يعاملهم بها يلبغا .

فحاول يلبغا ان يسلطن ملكا جديدا وهو « انوك » اخو السلطان الأشرف ولكنه خاب فى مسعاه .

وغلب على أمره وقبض عليه مماليكه وضربوه وشهروا به وقطعوا رأسه ، وهكذا شرب من نفس الكأس التى أشربها لسيده من قبله .

١٣٧٢ م — ٧٧٤ هـ : وفاة الحافظ ابن كثير :

في يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من هذه السنة مات الشيخ الامام الحافظ المؤرخ عماد الدين بن كثير القرشي الشافعي صاحب التاريخ الشهير « البداية والنهاية » وصاحب التفسير الجليل للقرآن .

قال عنه القاضي العيني : كان قدوة العلماء ، والحفاظ وعمدة اهل المعاني والالفاظ وسمع وجمع وصنف دروسا ، وحدث والف وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ واشتهر بالضبط والتحرير .

وبالنسبة لى انا ، فان كتابيه العظيمين البداية والنهاية ، وتفسير القرآن : يؤلفان اعظم ذخيرة في مكتبتي بعد ان اصبحت كثير الاعتماد عليهما سواء في كتابة التاريخ او في تفسير القرآن .

١٣٧٣ م — ٧٧٥ هـ : اضطراب فيضان النيل واشتداد الغلاء :

اضطرب فيضان النيل في هذه السنة ، وشح ماؤه فأمر السلطان الناس بالخروج الى الصحراء ليصلوا صلاة الاستسقاء في يوم الخميس الثاني من ربيع الثاني ، فاجتمع في الصحراء الجمع الغفير من العلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنساء والاطفال وطائفة اليهود ، وطائفة النصارى ، وحضر الخليفة العباسي المتوكل والقضاء الاربعة والسلطان .

ولكن النيل هبط في هذه الليلة هبوطا جديدا .

فبدأ الغلاء يشتد في مصر ، حتى بلغ ثمن اردب القمح مائة وعشرين درهما واردب الشعير ثمانين درهما . وبلغ ثمن الرغيف الخبز أربعة دراهم ، وبلغ ثمن رطل اللحم الضاني درهمين ونصف ، وبلغ ثمن رادية الماء خمسة دراهم .

ومات في تلك السنة أكثر الدواب من قلة العلف .

فلما اشتد الأمر وجهدت البلاد رسم السلطان أن يجمع الفقراء ويوزعون على الأمراء واعيان التجار ، ورسم السلطان أن يعطى لكل فقير رغيفين وما يشاكل ذلك من الطعام .

واستمر الحال على ذلك سنة بغير أن يتراجع السعر أو ينحط حتى صار الناس يأكلون خبز الفول وخبز النخالة الذرة .

١٣٧٦ م — ٧٧٨ هـ : مقتل الملك الاشرف :

فى ليلة الثلاثاء ثالث ذى القعدة من هـذه السنة قتل الملك الاشرف شـعبان خنقا اذ وثب عليه بعض امرائه أثناء ذهابه الى الحج فقتلوه وكان عمره يوم مات اربعا وعشرين سنة ، ومدة حكمه فى مصر أربعة عشر عاما .

يقول ابن اياس ، وكان الملك الاشرف شعبان من محاسن الزمن فى العدل والحلم وكان ملكا هينا لينا محبا للناس منقادا للشريعة ويحب أهل العلم ، وكان كثيرا البر والصدقات على الفقراء والمساكين .

وكان محسـنا لاقاربه وابناء عمه بخلاف من يقدمه من بنى قلاوون ..
وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن .
وساس الناس فى أيامه أحسن سياسة .
وكانت الناس عنه راضـية حتى مات .

وقد فتحت فى عهده مدينة سيس « عاصمة دولة الارمن » ومدينة سينجار ومدينة دوركى .

وانشا مدرسة فى رأس الصوة .

وأبطل ضمان المغانى وهو المال الذى كان يجىء من المغنيين والمغنيات ..
ويضيف أبو المحاسن :

ومع وقوع الغـلاء فى ايامه فلم يختل شىء من أحوال مصر لحسـن تدبره . ونفقت فى أيامه البضائع الكاسدة من الفنون ، وقصده اربابها من كل الاقطار وهو لا يكل من الاحسان اليهم . فلما كلمه بعض خواصـه قال رحمة الله لئلا تموت الفنون فى دولتى وأيامى .

سلطنة الملك المنصور على ابن الملك الأشرف :

فى يوم الخميس ثامن ذى القعدة من هذه السنة بعد مقتل الملك الأشرف شعبان بثلاثة أيام جددت البيعة للملك منصور على بمعرفة الخليفة والقضـاة الأربعـة والامـراء ..

وكان أبوه قد انابه على العرش قبل سفره الى الحجاز فانتهز الامراء المقيمون فى القاهرة هذه الفرصة لكى يخلعوا أباه ويجعلوه سـلطانا ، فى الوقت الذى كان الامراء الذين صحبوا السلطان الى الحجاز يتواثبون عليه كما قدمنا فيفر منهم عائدا الى القاهرة فقبض عليه المماليك الذين خلعوه وقتلوه .

ولما كان الخليفة والقضاة الأربعة فى صحبة الملك عند ذهابه للحج فقد جددت البيعة لابنه بعد عودتهم .

وكان عمر السلطان منصور سبع سنوات .

١٣٨٠ م – ٧٨٢ هـ : بزوغ نجم برقوق :

لم يكد السلطان الطفل يتولى الملك ، حتى بدأت الرواية التى لا تنتهى ، رواية اقتتال المماليك حـول السلطنة : وعدوان بعضهم على بعض وتآمرهم مما يسأم الانسان لمتابعته فى كتب التاريخ التى توردها بتفاصيل شيقة .. وقد انتهت موجة المؤامرات : وعمليات القتل والخنق والسجن والابعاد بظهور نجم جديد على المسرح كان مقدر له أن يتألق صفحة من تاريخ مصر لتبدأ صفحة جديدة .

وتلكم الشخصية هى سيف الدين برقوق الجركسى .

وكان ظهور نجمه وغلبته على باقى الامراء والمتطلعين للرئاسة يعنى انتصار المماليك البرجية نهائيا ، على من أصطلح بتسميتهم المماليك البحرية .

والمماليك البرجية هم الذين أنشأ لهم المنصور قلاوون الابراج ليقيموا فيها بالقلعة وأطلق عليهم اسم مماليك الطباق وهم من أصل شركسى : حيث كانوا يضمون الى الطباق بالقلعة فيرتبه الطواشى أو الاغا المقدم عليه عندالفقيه ليربيه بالآداب والحشمة والحرمة « ثم يدرب على اعمال الفروسية كالرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل ثم يدرج بعد ذلك فى الجامكية والرواتب من ٣ الى ٧ دنانير فى الشهر » .

وقد وصل برقوق بحيث أصبح اتابكا للعسكر ومديرا للمملكة بعد سلسلة من المعارك الصغيرة والكبيرة مع أعدائه ومنافسيه ثم مع أصدقائه ومعاونيه .

وكان أول ما فعله بعد ان استجمع فى يده السلطة استدعى من بلاد الشركس والده (آنص) وأخواته ، فجاءوا الى مصر لينعموا بعز ابنهم الذى تركهم رقيقا ، وسمعوا عنه أمير الامراء فى مصر . وقد استقبل والده برقوق باحتفال عظيم .

١٣٨١ م – ٧٨٣ هـ – موت السلطان الملك المنصور على :

فى يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر صفر مات السلطان الملك المنصور على بعد مرض الزمه الفراش وكان عمره يوم مات اثنى عشر عاما ، تسلطن منها خمس سنوات وثلاثة اشهر وعشرين يوما .

وقد كان لا يعدو صورة الى جوار برقوق .

فيقول أبو المحاسن : ولم يستطع برقوق رغم ما كان عليه من العظمة ان يتسلطن فأخرج أمير حاج أخا الملك المنصور على وسلطنه عوضا عن اخيه .

سلطنة الملك الصالح زين الدين حاجى :

فى يوم الاثنين الرابع والعشرين من صفر أجلس على تخت الملك الصالح زين الدين حاج ابن السلطان الملك الأشرف شعبان .

وكان عمره تسع سنوات . وكان مدير شئون الدولة وأتابك العسكر هو برقوق . وبقية الأمراء يركبون فى خدمته ينزلون عنده ويأكلون على سماطة .

١٣٨٢ م ــ ٧٨٤ هـ : خلع السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى :

فى والتاسع عشر من شهر رمضان ، من هذه السنة خلع الملك الصالح زين . وكان برقوق قد دبر أموره للوثوب الى آخر قمة السلطة ، بأرضاء بعض الأمراء والتخلص من بعضهم الآخر : وابعاد بعض ثالث الى الشام . فلما اطمأن الى سيطرته على الموقف . استدعى المتوكل الخليفة العباسى والقضاة ــ الاربعة وسائر الامراء . فلما اجتمعوا قام كاتب السر القاضى بدر الدين فى وسط المجلس وقال : يا أمير المؤمنين ويا سادات القضاة ، أن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد ، وغامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة : والاحوال غير مستقيمة والوقت قد ضاق ومحتاجون الى اقامة سلطان كبير يجتمع فيه الهمة ويسكن الاضطراب

فاقترح القضاة والخليفة سلطنة الاتابك برقوق . وهكذا خلع الملك الصالح زين الدين حاجى وتسلطن الاتابك برقوق .

وادخل الملك الصالح الى دور الحريم عند اخوته .

وكانت مدة سلطنته بعد أخيه سنة وسبعة أشهر وأياما .

وبخلع زين الدين حاجى آخر سلالة قلاون ، يعتبر المؤرخون أن دولة المماليك البحرية قد انتهت لتبدأ دولة المماليك البرية أو المماليك الجراكسة نسبة الى اصلهم الجركسى .

ولكن الحق أن لا فارق على الاطلاق فى الدولتين ، فهما متداخلتان وقد ظلت الانظمة هى الانظمة والاساليب هى الاساليب ، ولم يتغير شيء قل أو كثر ، ولعل الاصح ان يقال أن سلسلة السلاطين الاسمية التى انحدرت من سلالة قلاوون ، والتى ظلت فى الحكم رغم ضعفهم وهوانهم ، قد انتهت بسلطنة برقوق واصبحت الكلمة الاخيرة فى كل ما يتعلق بشئون الحكم الى مماليك القلعة يعيشون فى ابراجها بغير تدخل من غيرهم . فانعدم بذلك آخر ظل لمبدأ الوراثة فى ولاية الملك .

واصبحت حقيقة السلطان انه كبير الامراء او الاول بين الامراء .

الفصل الخامس عشر

دولة المماليك الشراكسة
٧٨٤ : ٩٢٤ هـ ــ ١٣٨٢ ــ ١٥١٧ م

سلطنة الملك الظاهر برقوق الاولى على مصر :

فى يوم الاربعاء التاسع عشر من رمضان الموافق السادس من نوفمبر سنة١٣٨٢ ، جلس الملك برقوق على تخت الملك بعد أن بايعه الخليفة المتوكل على الله أبى عبدالله محمد والقضاة الاربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ولقب بالملك الظاهر .

وقيل أن أسمه الأصلى كان الطنبكا فغيره أستاذه يلبغا لما اشتراه وسماه برقوقا على ما قرر المقريزى ، ولكن أبا المحاسن لايوافق على هذا الرأى ويدحضه بعدة حجج أوردها ، ويقول أن أسم برقوق هو اسمه منذ ولادته .

وكان يلبغا قد اشتراه من الخواجة عثمان بن مسافر ، ولم يلبث يلبغا أن أعتقه كما هى العادة ، ووهبه ما اعتادوا ايهابه للمملوك المعتق من قماش وخيل ومال ليستعين به على حياته الجديدة . ثم راح يتدرج فى الوظائف ، حتى أصبح أميرا على عشرة ، وانخرط بعد ذلك شأن المماليك فى المؤامرات والمناورات التى انتهت به الى سلطنة مصر .

مقدم ابن خلدون الى مصر :

وقد عاصر جلوس برقوق على عرش مصر ، حدث مر فى وقته غير ملحوظ : وربما لم يعلق عليه أحد من الأهمية : ما يعلقه على سقوط ملك وتولية ملك جديد: ومع ذلك فان التاريخ يحتفل اليوم بهذا الحدث ، بأكثر من احتفاله بتولية برقوق، أو كل ما وقع فى مصر فى هذه اللحظة من أحداث محلية .

أما هذا الحادث فهو مقدم عبد الرحمن بن خلدون الى مصر ، حيث وصل الى الاسكندرية فى أول أيام عيد الفطر من هذه السنة ٧٨٤ هـ وكان السبب الذى أظهره لتعليل قدومه الى مصر هو رغبته فى أداء فريضة الحج : ولكن السبب الحقيقى ، هو سوء الاحوال فى البلاد المغربية ، وقد اقام فى الاسكندرية شهرا يهىء العدة فيه للحج ، أو يتظاهر بذلك . فلم تتح له فرصة السفر الى مكة ووصل الى القاهرة ليستقر فيها بدلا من ذلك .

القاهرة كما يصفها ابن خلدون :

يقول ابن خلدون فى كتابه التعريف ، وهو ترجمة حياته الذاتية فانتقلت الى القاهرة أول ذى القعدة : فرأيت الدنيا وشباب العالم : ومحشر الامم ، ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام ، وكرسى الملك . تلوح القصر والاواوين فى جوه : وتزهو الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه . قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة مدفع مياه السماء تسقيهم النهال والعال سيحة . ويجنى اليهم الثمرات والخيرات فجة ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة .

واسواقها تزخر بالنعم .. وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران ، واتساع الاحوال ، لقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا واصحابنا، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرى ، مقدمه من الحج سنة اربعين وسبعمائة فقلت له كيف القاهرة ، فقال من لم يرها لم يعرف عز الاسلام . وسألت شيخنا أبا العباس بن أدريس كبير العلماء ببجاية فقال : كانما انطلق أهله من الحساب .. اشارة الى كثرة أممه وامنهم العواقب .

وحضر صاحبنا قاضى العسكر بفاس الفقيه الكاتب ابو القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان ، منصرف من السفارة عنه الى ملوك مصر ، وناديته رسالته النبوية الى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة وسأله عن القاهرة فقال: أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار : أن الذى يتخيله الانسان فانما يراه دون الصورة التى يتخيلها : لاتساع الخيال عن كل محسوس الا القاهرة فانها أوسع من كل ما يتخيل فيها ، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك .

واذا كنا اطلنا فى النقل عن ابن خلدون ، ممثلة وهو فى رأى بعض العلماء الغربيين أعظم العقول التى انجبتها العرب ، بل التى أنجبتها الانسانية كلها فى هذه الفترة ، جدير بأن ينقل عنه ما يصور مكانه وسمعتها وغناها وثروتها وحضارتها فى هذه الفترة من التاريخ .

ثم يقول ابن خلدون عن حفاوة القاهرة وعلمائها به .

فلما دخلتها أقمت اياما ، وانهال على طلبة العلم ، يلتمسون الافادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعونى عذرا ، فجلست للتدريس فى الجامع الازهر .

وهكذا اندمج ابن خلدون منذ وصوله الى مصر فى نسيج حياتها ــ وسيظل علما من اعلامها ــ يدرس ويتولى رئاسة القضاء الحنفى ، يعيد كتابة مقدمته الخالدة ، التى تعتبر بحق أعظم كتاب ظهر فى العربية منذ عصره حتى الآن (على الاقل) .

١٣٨٣ م ـ ٧٨٥ هـ ـ خلع الخليفة المتوكل :

كان من غير الطبيعى أن يمر حادث تولى برقوق السلطنة دون أن يحدث رد فعل شديد من الاستنكار والاعتراض فى أكثر من جهة . وقد جاء أول رد فعل من الجهة التى ظلت حتى الآن سلبية لا تتدخل فى موضوع السلطة : ونعنى بها الخليفة العباسى فقد اتصل المتوكل . الذى يبدو انه كان شديد الطموح : ببعض امراء المماليك ، ليقنعهم انه باعتباره الخليفة هو الاحق بالسلطنة من برقوق . . ووصل نبأ المؤامرة الى برقوق ، فأسرع الى الخليفة المتوكل والامراء الذين تآمر معهم . وهم بأن يقتل الخليفة ، ولكن القضاة الاربعة رفضوا أن يفتوه بجواز قتل الخليفة ، فأكتفى بخلعه وسجنه فى أحد ابراج القلعة ، وولى الخلافة بدلا منه عم المتوكل عمر بن ابراهيم ولقبه بالواثق بالله .

١٣٨٦ م ـ ٧٨٨ هـ ـ افتتاح مدرسة برقوق :

انشأ برقوق مدرسة بين القصرين . وافتتحها فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الاولى : وملأ فسقية المدرسة على جارى العادة بالماء والسكر ووزعه على الناس .

وعين الشيخ علاء الدين السيرانى شيخا للمدرسة ، وخلع على الامير جركس الخليلى الذى شاد العمارة . والمهندسين والمرخمين والنجارين والدهانين والبنائين لكل واحد منهم خلعة ووزع أشرفين (دينارين) على كل واحد من الفعلة (العمال) الذين اشتغلوا فى بناء المدرسة ولا تزال هذه المدرسة قائمة بشارع المعز لدين الله (شارع النحاسين) وتسمى جامع السلطان برقوق ، وهو من أبدع مساجد القاهرة .

١٣٨٩م / ٧٩٠ هـ ـ بزوغ نجم تيمورلنك :

فى هذه السنة ، ارتفع نجم تيمورلنك ملك التتار والذى كان نجمه قد بزغ منذ سنوات مضت . وتيمورلنك ينحدر من سلالة أحد وزراء المغول وقد ولد فى مدينة سمرقند : ولما شب عن الطوق التحق بخدمة حاكم سمرقند ، واستطاع بقوته الشخصية ، أن يخضع سمرقند لسلطانه ؛ ثم بدأ يضم ما حولها من المدن والمقاطعات، فضم خوارزم وهراه وسستان (سنة ٧٨٥ هـ) ثم ضم شمال فارس بعد ذلك بسنة ، ثم اذربيجان وجورجيا (٧٨٨ ـ ٧٩١ هـ) وبلاد طقتمش خان ، حاكم القبيلة الذهبية فى حوض نهر الفولجا ، حتى اذا فر من بلاد ايران تحرك نحو العراق واطراف الامبراطورية المصرية المملوكية .

وكانت أخبار زحف تيمورلنك وانتصاراته تترى على السلطان برقوق فى حينها .

اول اصطدام بين تيمورلنك وبرقوق :

وفى هذه السنة وقع اول احتكاك بين تيمورلنك وبين السلطان برقوق ، فقد تقدمت طلائع جيشه الى بلد ملطية الخاضعة لحكم مصر — ووصل الى القاضى برهان الدين صاحب مدينة سيواس بآسيا الصغرى ، كتابا من تيمورلنك شديد اللهجة يطلب منه فيه أن يخطب باسمه على المنابر ، وان يضرب السكة باسمه فأرسل القاضى برهان الدين يستنجد بالسلطان برقوق عام ٧٨٩ هـ فأرسل اليه بجريدة فى نفس السنة توجهت الى حلب ومنها زحفت نحو ديار بكر بقيادة الأمير الطنبغا الجوبانى نائب الشام ، فقابلت فى زحفها بعض فلول جيش تيمورلنك . وكان الأمير قره يوسف أمير الشاه السوداء التركمانية قد استطاع ان يهزم احدى فرق جيش تيمورلنك التى كان يقودها ابنه ، وأسرع أبرع قواده وهو اكلاميش فأرسله الى برقوق .

قدمت البشائر احتفالا بهذا النصر ، وأصدر برقوق أمره بعودة العسكر فوصلت الى مصر فى هذه السنة .

١٣٨٩ م / ٧٩١ هـ — تمرد يلبغا الناصرى امير حلب :

لم ينعم برقوق طويلا بهذا النصر على جيوش تيمورلنك اذ انقلب عليه أكبر امراء دولته ، وهو الأمير يلبغا الناصرى أمير حلب . وكان يلبغا الناصرى غير راض منذ اللحظة الأولى عن تولى برقوق السلطة ، فقد كان يلبغا الناصرى من كبار الأمراء عندما كان برقوق لا يزال فى اول درجات السلم .

وكان قد حدث أن وفد يلبغا الناصرى الى مصر عقب تولى السلطان برقوق السلطة ليهنئه تبعا للعادة المرعية ، فما كان من برقوق الا أن أعتقله وسجنه خوفا منه ، ولكنه لم يلبث ان أطلق سراحه واعاده الى نيابة حلب ولذلك فلم يكد يلبغا الناصرى يعود الى مقر امارته ، حتى أعلن التمرد والعصيان وتسارع امراء المماليك الشام فانحازوا اليه .

وانتصر يلبغا الناصرى على الحملة التى بعث بها برقوق من مصر لمحاربته وترتب على ذلك دخل مدينة دمشق واستولى عليها ، وتسلم قلعتها بغير قتال .

خلع برقوق :

كان لهزيمة برقوق فى الشام ، اثرها فى مصر ، اذ هاج الشعب وماج ضد برقوق ، وعبثا حاول برقوق ان يرضى الشعب برفع المكوس عنه ، فقد بدأ الأمراء ينفضون عنه ويلحقون بغريمه ، وبدأت العامة ترجم مماليكه .

فلما أيقن برقوق أنه مغلوب على امره ، أرسل الى يلبغا الناصرى يطلب امانا لحياته فى مقابل النزول عن السلطة ، كما ارسل اليه شعائر السلطنة بالفعل . وكان

رد يلبغا الناصرى : ان الملك الظاهر اخونا وخشداشنا ، ولكن يجب عليه أن يختص فى هذه الآونة بمكان ما ، حتى تخمد الفتنة وندبر له أمرا يكون فيه نجاته . وصدع برقوق بالنصيحة ، فهرب من القلعة فى جنح الليل فى ليلة الاثنين الخامس من جمادى الآخرة من هذه السنة .

سلطنة الملك الصالح (المنصور) حاجى الثانية :

لم يستطع يلبغا الناصرى أن يلى السلطنة لخلاف الأمراء على التولية فاستقر الرأى على اعادة الملك الصالح بحجة ان برقوق قد خلعه ظلما وتعسفا لغير سبب ، فجىء به من عند أهله وبايعه الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء ، فبايعوه بالسلطة ، وأجروا له الاحتفالات المعتادة وغيروا لقبه من الصالح الى المنصور وعين يلبغا الناصرى اتابكا للعسكر فقبض على زمام السلطة وباشر سلطاته ، كما اصبحت العادة بالقبض على عشرات من الأمراء والمقدمين وعزل بعضهم وتعيين الانصار ومن هم محل الثقة .

ثم جرى البحث عن السلطان برقوق . ووعد من يعثر عليه بالترقية الى درجة أعلى أن كان مملوكا ، وألف دينار أن كان عاميا .

وكان ذلك كافيا للعثور على السلطان برقوق ، واختلفت الآراء بشأن مصيره ، فقال البعض بوجوب اعدامه ، ولكن يلبغا الناصرى وجد من مصلحته (فيما يبدو) ان يبقى على حياته ، على أن يرسل الى حصن الكرك تحت الترسيم (أى معتقلا) حتى يفصل فى أمره .

فأرسل برقوق الى حصن الكرك فى ليلة الخميس الثانى والعشرين من جمادى الثانى .

حرب بين يلبغا ومنطاش :

استبد يلبغا كما هو المتوقع بالسلطان وحجر على السلطان حاجى واحتكر لنفسه اجود الاقطاعيات ، غير معط لصاحبه وحليفه ، الأمير تمربغا الافضلى الشهير بمنطاش ، الا أقل من القليل . وكان الاتفاق عندما قاما بحركتهما فى الشام قد اقسما اليمين أن يكون الاثنان كرجل واحد . فلما أن استأثر يلبغا بالسلطة بدأ منطاش يدبر المكائد للايقاع به ، واستغل غضب الشعب من ناحية ، ومماليك برقوق الذين كانوا لا يزالون مختفين عن الأنظار من ناحية أخرى ، لكى يقوم بحركة ضد يلبغا ، فاحتل سطح مسجد السلطان حسن على حين غرة ، وأخذ يرمى على القلعة وتكاثر أعوانه ، وراح يتقرب الى العوام فوزع عليهم الذهب وكان يقول لهم : انا واحد منكم ، وأنتم اخواننا وأصحابنا فبذلوا انفسهم فى خدمته .

وتقابل يلبغا الناصرى بمن معه من أمراء ، ومنطاش ومن معه فى معركة مفتوحة فدارت الدائرة على يلبغا وفر هاربا .

منطاش يصبح اتابكا :

وفى يوم الخميس تاسع عشر من شعبان ، صعد منطاش الى القلعة وأعلم السلطان الملك المنصور انه فى خدمته .

فعينه السلطان اتابكا للعساكر بدلا من يلبغا . فكان أول عمل قام به هو القبض على يلبغا الناصرى ، وايداعه سجن الاسكندرية . على أن منطاش لم ينعم بانتصاره ؛ فقد دهم مصر وباء الطاعون . وسقط المئات والألوف ضحايا له ؛ فى الوقت الذى ظلت القاهرة مسرحا للفتن بين أمراء المماليك . فهيأ ذلك لعودة السلطان برقوق للسلطان .

استشهاد السلطان مراد خان :

وفى هذه السنة فى الخامس عشر من شعبان قتل السلطان مراد خان الغازى اثناء حربه مع الصرب ، بعد أن كان قد ضم أكثر منطقة البلقان فى شرق أوروبا تحت سلطانه وكان عمره يوم استشهاده ٦٥ سنة ومدة حكمه ٣١ سنة وقد تسلطن من بعده السلطان يلدرم بايزيد خان .

١٣٩٨ م / ٧٩٢ هـ ــ سلطنة برقوق الثانية على مصر :

كان وقوع الخلاف بين يلبغا ومنطاش ، وهما اللذان كانا السبب فى خلع برقوق ، ذريعة لأهل حصن برقوق ليخرجوه من سجنه ويلتفوا حوله منادين به سلطانا . ولم يكد النبأ يذاع فى الشام حتى توافد اليه عدد من النواب والامراء ومن مماليكه . وكان على رأس الذين انضموا اليه نائب حلب ، فاشتد أمره وقوى ساعده .

وخرج الاتابكى منطاش من القاهرة على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة برقوق واصطحب معه السلطان والقضاة والخليفة وعند قرية شقحب دارت معركة عسكرية طاحنة ، لعلها أكبر المعارك التى خاضها برقوق طوال حياته ؛ وثبت فيها ثباتا غير عادي ، فكانت له الغلبة على جيوش منطاش .

وقبض على السلطان حاجى والخليفة والقضاة الأربعة ولكن برقوق استقبلهم بقبول حسن وأحسن الهم وخاصة السلطان .

وعاد برقوق الى مصر فى الثالث عشر من شهر صفر من هذه السنة فاستقبلته الجماهير استقبالا حافلا .

وفى يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ، خلع الخليفة والقضاة الأربعة السلطان حاجى ، وبايعوا السلطان برقوق ؛ وسط رضاء عام شامل من المماليك والشعب فى ذات الوقت .

وقد اصطنع برقوق الحكمة والكياسة في تهدئة الموقف .. فأفرج عن يلبغا الناصري ، وزاد على ذلك أن جعله نائبا على دمشق . وبعث به على رأس جيش من المماليك ليحارب عدوه منطاش ، الذي كان لا يزال متسلطنا على الشام .

وسار يلبغا الى دمشق واستقر بها . دون ان ينال من منطاش منالا . وقيل أن يلبغا الناصري كان يتعمد الابقاء على منطاش ليظل ورقة يلعب بها في دنيا السلطان الأمر الذي جعل برقوق يتحايل فيما بعد على القبض على يلبغا الناصري واعدامه ، ويلوم أبو المحاسن السلطان برقوق على هذه الفعلة ، على أساس أن يلبغا الناصري كان هو الذي حقن دماء برقوق في وجه الأغلبية التي كانت تريد اعدامه .

١٣٩٢ م / ٧٩٥ هـ ــ قتل منطاش :

ظل الأمير منطاش ثائرا على السلطان برقوق في الشام وينقض من حين لآخر على هذه المدينة أو تلك فيستولى عليها او ينهبها ثم ينسحب منها الى غيرها ، وقد تنكسر عساكره في بعض المواقع ولكنه كان يعود للانقضاض من جديد .

وقد كان ذلك يسبب ضيقا وقلقا شديدين لبرقوق ، حتى لقد قيل أنه مرض بسبب ذلك . على أن الأمير نعير بن جبار أمير آل فضل من اعراب الشام ، والذي كان الامير منطاش متزوجا احدى بناته ، خانه واسلمه لنائب حلب لحساب السلطان في مقابل ثمن معلوم ــ وقتل منطاش وعلقت رأسه على باب زويلة . وهكذا هدأ بال برقوق من هذه الناحية .

تيمورلنك يغزو العراق ويهدد الشام :

ولكن بال برقوق لم يكد يهدأ من ناحية تمرد اقوى أمرائه ، حتى جاءته الأخبار من بغداد بأنها سقطت بيد تيمورلنك خان المغول . وفر صاحبها الخان احمد بن أدريس من وجه تيمورلنك والتجأ الى مصر ، فأستقبله السلطان برقوق احسن استقبال ووعده بالنصر .

٧٩٦/١٣٩٤ هـ ــ برقوق يزحف الى الشام لمحاربة تيمورلنك :

في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الثاني ، وصل برقوق على رأس جيش ضخم أعده لحرب تيمورلنك ، الى مدينة دمشق ، وكان بصحبته أحمد بن أدريس صاحب بغداد . وبمجرد وصول برقوق الى دمشق . جاءت السفارات من الملوك المجاورين تترى وكلها تضع نفسها تحت امرته لمحاربة تيمورلنك ــ وكان اهم هؤلاء السفراء مبعوث بايزيد سلطان الدولة العثمانية ،التي اخذت على عاتقها حمل راية الجهاد عن الاسلام واستئناف فتوحاته في شرق أوروبا .

وكان بايزيد يعرض محالفته ضـد تيمورلنك فاستقبل برقوق مبعوث بايزيد استقبالا حسنا ، وارسل الى بايزيد ردا مطمئنا .

على أن الأخبار سرعان ماجاءت تنبيء بان تيمورلنك قد عاد ادراجه منسحبا من البلاد التى فتحها بعد ان سمع بسير برقوق اليه .

وهكذا اعاد السلطان برقوق الخان أحمد بن ادريس الى قاعدة ملكه فى بغداد بعهد من لدنه ، وعاد برقوق الى القاهرة متوجا بأكاليل الغار وان كان لم يلق العدو .

١٣٩٩ م / ٨٠١ هـ ـ وفاة السلطان برقوق :

وفى ليلة الجمعة خامس عشر من شوال من هذه السنة توفى الملك الظاهر برقوق ابن انص . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والشامية الى ان مات على فراشه ست عشرة سنة واربعة اشهر وسبعة وعشرين يوما وذلك على مرتين ، وكان عمره يوم مات ثلاثا وستين سنة .

ولعل الامبراطورية المصرية المملوكة قد وصلت الى اوج اتساع رقعتها فى عهده ، فقد خطب باسمه فى أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من المماليك فخطب باسمه فى مدينة تبريز (اذربيجان) وفى الموصل وفى ماردين وسنجار وضربت السكة باسمه فى هذه الأماكن . وقد رأينا كيف ان ملك بغداد اصبح يحكم باسمه وبعهد منه .

وقد خلف خزائن الدولة بعده عامرة كما لم يسبق له مثيل فكان بها الف ألف واربعمائة الف دينار من الذهب ـ ومن الثياب وانواع الفـرو والفـلال والسكر والأعسال ما يبلغ قيمته مثل هذا القدر ـ وخلف من الخيول ستة آلاف فرس ، ومثلها من الجمال والبغال . وبلغت عدة مماليكه التى اشتراها خمسة آلاف .

يقول أبو المحاسن عن السلطان برقوق ـ وكان كثير الصدقات والمعروف . حبس الأوقاف على فقراء مكة والحجاج . وكان يذبح فى طول أيام امارته وسلطنته كل يوم من أيام رمضان خمسا وعشرين بقرة يتصدق بها ، بعد أن تطبخ ومعها آلاف من ارغفة الخبز النقى تفرق على أهل الجوامع والربط واهل السجون لكل انسان رطل لحم مطبوخ وثلاثة أرغفة وذلك بخلاف ماكان يأمر بتوزيعه على الزوايا من اللحم ، حيث كان يخص كل زاوية خمسين رطلا من لحم الضأن بخلاف الأرغفة .

وكان يفرق فى كل سنة فى أهل العلم والصلاح مائتى الف درهم وثمانية آلاف اردب قمح . ويبعث فى كل سنة الى الحجاز ثلاثة آلاف اردب قمح لتوزع على فقراء الحرمين .

ولما عمت موجة من الغلاء فى مصر على أيامه كان يوزع يوميا ثمانية آلاف رغيف فلم يمت فيها أحد من الجوع .

سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الأولى على مصر :

وفى يوم الجمعة غداة وفاة السلطان برقوق بايع الخليفة والقضاة الاربعة وشيخ الاسلام البلقينى وتلاهم الامراء ، فرج ابن السلطان برقوق ولم يكن عمره يزيد على عشر سنوات ، وقيل اثنتى عشرة سنة ولقب بالناصر .

وتولى اتابكية العسكر الأمير ايتمش البيجاسى وصحب عملية السلطنة الهزة المعتادة فى مثل هذه الظروف من قبض واعتقال وقتل وخنق وعزل لبعض أمراء المماليك من ناحية ، وافراج وترقية وتولية لبعض الأمراء من ناحية اخرى كما بدأت المؤامرات والفتن حول السلطنة والاضرار بها .

١٤٠٠ م./٨٠٢ هـ — ترشيد السلطان الملك الناصر فرج :

فى يوم الخميس السادس من شهر ربيع الأول،طلب الملك الناصر فرج من الامراء والقضاة أن يعلنوا بلوغه سن الرشد فأقروا له بذلك . وقد كان المحرض على هذه الخطوة مماليك الطباق الساكنين فى القلعة وعلى رأسهم الامير يشبك الخازندار .

وقد غضب الأمير ايتمش لهذه الخطوة التى تحد من سلطانه،فاعلن عدم موافقته عليها : واستمرت المعارك بين مماليك الطباق وعلى راسهم يشبك من ناحية ، واتابك العسكر الأمير ايتمش من ناحية أخرى ، ولكن الدائرة دارت على الأمير ايتمش ومن معه ففروا هاربين الى الشام ، واستبيحت بيوتهم فى القاهرة فنهبها العامة .

تمرد فى الشام واخماده :

وصل الامراء الهاربون من القاهرة الى الشـام ، فأحسن استقبالهم تنم أمير الشام ، واستقر رأيهم على خلع السلطان فرج ، وزحفوا بجيشهم على مصر لهذا الغرض .

ولكن السلطان فرج — أو بالأحرى قواده وأمراؤه — بادروا لمقابلة هذا الجيش الزاحف على ارض فلسطين .

وفى يوم السبت الثانى عشر من رجب دارت معركة طاحنة بين الطرفين فى مكان بين غزة والرملة . فكان النصر لجيوش السلطان وانهزم تنم ومن معه من الامراء ، وقبض على تنم وقتل ، ودخل السلطان فرج الى دمشق وسط الاحتفالات المعتادة ، ومن دمشق عاد فرج الى القاهرة ، لتتجدد له الاحتفالات .

١٤٠١ م / ٨٠٣ هـ نكبة حلب ودمشق على يد تيمورلنك :

عاود تيمورلنك زحفه على راس التتار على بلاد الشام وفى يوم السبت الحادى

عشر من ربيع الأول ، وصلت جيوشه الى مدينة حلب ، فهزم الجيش الذى تصدى لحربه واستولى على المدينة عنوة : فنكل بأهلها تنكيلا فاق مافعله هولاكو من قبل . فابن اياس يقول لنا أن تيمورلنك بنى من رؤس القتلى عشرة مآذن ، محيط كل مئذنة نحو عشرين ذراعا وارتفاعها مثل ذلك، وجعلوا الوجوه فيها بارزة الى الخارج تسفو عليها الرياح ، وتركوا اجساد القتلى فى الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش وكان عدد من قتل فى هذه الواقعة من اهل حلب نحو عشرين الف انسان وهلك من الجوع والعطش اكثر من ذلك .

وبعد حلب استولى تيمورلنك على مدينة حماه ، وفعل باهلها مثل الذى فعله بأهل حلب .

فلما وصلت هذه الأنباء الى مصر ، خرج السلطان فرج بجيشه الى الشام لمحاربة تيمورلنك ، فوصل الى دمشق فى يوم الخميس السادس من جمادى الأول .

ودارت بعض المعارك المحدودة بين جيش السلطان فرج وطلائع جيش تيمورلنك فكانت سجالا ، وبدات مفاوضات الصلح تجرى بين تيمورلنك وبين السلطان ولكن عقارب الفتن دبت الى صفوف الجيش المملوكى : فانسحبت بعض الأمراء فى طريقهم الى القاهرة لاقامة سلطان غير فرج ، ولما سمع فرج بالنبأ أسرع نحو القاهرة تاركا جيشه ودمشق وسوريا كلها تحت رحمة تيمورلنك .

ابن خلدون وتيمورلنك :

ولما كان ابن خلدون قد خرج من القاهرة فى رفقة السلطان كغيره من العلماء والقضاة ، وكان يقيم فى دمشق ، فهو يصور لنا فى كتابه التعريف ماجرى فى لقاء تم بينه وبين تيمورلنك قبل تسليم دمشق له ، وكيف تم الاتفاق على طلب الامان من تيمورلنك ، فلما اعطاهم الامان انقسمت الآراء واصر فريق على عدم تسليم المدينة والمضى فى المقاومة حتى النهاية فخاف ابن خلدون على نفسه ان يعتبر هو المحرض على هذا الموقف لانه لم يكن فى الوفد الذى ذهب لملاقاة تيمورلنك .. ولذلك فقد عمل على أن يغادر المدينة ، فأدلى بالحبال من اسوارها . وفر الى مخيم تيمورلنك الذى لما عرف بأمره اذن له بالدخول عليه . ويقول ابن خلدون : ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئا على مرفقة ، وصحاف الطعام تمر بين يديه فيوجهها الى عصب المغول الجالسين امام خيمته حلقا حلقا .. فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام ، واوميت ايماءة الخضوع ، فرفع رأسه ومد يده الى فقبلتها ، واشار بالجلوس حيث انتهيت ، ثم استدعى من بطانته الفقية عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا .

ويسجل لنا ابن خلدون فى امانة ما دار بينه وبين تيورلنك من حديث يفيض بالخضوع والاستكانة والخوف من بطش الطاغية ، واملا فى أن يعهد له بعمل من الاعمال ، فقد قال لنا انه راح يثنى على تيمورلنك ، ويقول انه قد مضى عليه ثلاث

وأبعون سنة يتمنى لقاء تيمورلنك ، فلما سأله تيمورلنك عن سبب ذلك ، اجابه : لأنك سلطان العالم وملك الدنيا ، وما اعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثلك ولست ممن يقول فى الأمور بالجزاف ، فانني من أهل العلم .

وقد كلف تيمورلنك ابن خلدون ، ان يكتب له عن بلاد المغرب كلها اقاصيها وادانيها ، وجبالها وانهارها وقراها وامصارها ، حتى كأنه يشاهدها. فقلت يحصل ذلك بسعادتك .

وكتبت له بعد انصرافى من المجلس ماطلب من ذلك واوعيت الغرض فيه فى مختصر وجيز يكون قدر اثنى عشر من الكراريس (عبد الرحمن بن خلدون) .

تيمورلنك يحرق دمشق :

والحق أن هذا الحديث والحوار والجو الذى يصوره لنا ابن خلدون فى مقابلته مع تيمورلنك ، يتناقض كل التناقض مع الصورة المفزعة التى حوتها كتب التاريخ عما فعله تيمورلنك بعد ذلك فى مدينة دمشق والتى دخلها بعد ان اعطى أهلها الامان فى الثامن عشر من شهر رجب فراح جنوده ينهبون من أهلها ماينهبون ، وراح هو يفرض على اهلها من صنوف الغرامات المرهقة مايعجزون عن تسديده فاذا سددوه بعد مشقة ، طالبهم بأضعاف ماقدموا .

وفى يوم الخميس أول شعبان اصدر امره باحراق المدينة فتحولت على مايقول ابن اياس : الى اطلال بالية ورسوم خالية قد خوت عروشها واقفرت من زخرفها ونقوشها — لاترى بها دابة تدب ، ولا حيوانا يهب ، سوى جثث قد احترقت، وصور فى الثرى قد تعفرت ، وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ، ومغنما للكلاب ونهبا .

وكان تيمورلنك قبل ان يفعل بالمدينة هذه الفعلة : قد جمع كل عمال دمشق الفنيين واسطوانها ، وبعث بهم الى مدينة سمرقند .

وكانت مدة اقامة تيمورلنك فى دمشق وماحولها ثمانين يوما ، كأنه اراد أن يتوج فظائعه فى بلاد الشام ، فأمر يوم رحل عن المدينة جنوده على مايقول ابن اياس أن يجمعوا له اطفال المدينة الذين اسر أهلهم فكان عدتهم عشرة آلاف طفل مابين ابن خمس سنين الى شهر وشهرين، فوقف تيمورلنك ينظر اليهم ساعة ثم قال للعسكر : سوقوا عليهم بالخيل ، فساقوا عليهم بالخيل فماتوا أجمعين .

ولا جدال فى ان الهول الذى عانته مدن الشام من حملة تيمورلنك قد فتح المجال لمثل هذه الصور ، التى قد يكون فيها شيء من المبالغة لأن أخذ هذه الصورة بمدلولها يعنى ان سكان دمشق قد ابيدوا عن بكرة أبيهم لعدة اجيال ، واحرقت المدينة . مع ان الثابت ان تيمورلنك لايكاد يغادر المدينة، حتى تعود الحياة فيها الى سابق عهدها، ولكنها تعطينا صورة عن مدى الرعب الذى كانت تنشره غارات التتار .

تيمورلنك يتوجه لحرب بايزيد :

كان المفروض ان يتابع تيمورلنك زحفه على مصر بعد ان كسر جيشها في الشام ؛ ولكن تيمورلنك ماكان ليقدم على هذه الخطوة مخلفا وراءه هذه القوة العسكرية الكبرى قوة بايزيد السلطان العثماني ، فراى ان يصفى حسابه اولا مع هذه القوة الضاربة . ولكنه قبل ان يتوجه لمحاربة بايزيد،راى ان يتقى شر السلطان فرج حتى لايباغته اثناء قتاله مع بايزيد . فأرسل الى السلطان فرج يعتذر له عن هذا الذى وقع منه ويعزوه الى سلطان القضاء والقدر كما بعث له بعض الهدايا فيما بعد ومن بينها فيل على ظهره صندوق خشبى يجلس فيه نحو عشرة انفس ، وافرج عن كل الأسرى من المماليك الذين كانوا فى حوزته . وكل ذلك ليحول دون تحالف مصر مع الدولة العثمانية . وقد وقع السلطان فرج ومن معه فى هذه الخدعة خـــلال السنوات التالية ، فخلوا بين تيمورلنك وبين حربه مع بايزيد،واكتفى السلطان فرج بأرسال نوابه من جديد البلاد الشامية ليحكموها باسمه .

١٤٠٢ م / ٨٠٤ هـ ـ تيمورلنك ينكل بالسلطان بايزيد :

فى هذه السنة تم اللقاء المنتظر بين جيوش تيمورلنك وجيش السلطان بايزيد حول مدينة انقرة ، فكانت الهزيمة على جيش بايزيد ، ووقع فى اسر تيمورلنك،الذى بالغ فى تعذيبه واهانته حتى لقد وضعه داخل قفص حديدى وراح يستعرضه فى كل مكان ذهب اليه وظل فى هذا العذاب والمهانة حتى مات فى العام التالى (٨٠٥) وفتح تيمورلنك بغداد مرة اخرى فى طريق عودته الى بلاده .

١٤٠٥ م / ٨٠٧ هـ ـ وفاة تيمورلنك :

وفى السابع عشر من شعبان الموافق التاسع عشر من فبراير مات تيمورلنك ببلاد التركستان عن واحد وسبعين سنة بعد ان خضب ارض الشرق بالدماء . .

١٤٠٦ م / ٨٠٨ هـ ـ اختفاء السلطان فرج :

ضاق السلطان فرج بالمؤامرات من حوله ومايدبره الامراء من محاولات مستمرة لخلعه وقتله ؛ فتسلل من القلعة وهو متنكر فى هيئة لايعرفها احد وسار على قدميه مبتعدا عنها واختفى فى مكان حيث لايعرف احد ماذا حل به . وكان ذلك يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع الاول من هذه السنة .

سلطنة الملك المنصور عز الدين :

عندما بلغ الامراء نبأ اختفاء السلطان فرج ؛ تشاوروا فيما بينهم فيمن يولوه سلطانا . فوقع الاتفاق على سلطنة اخيه عبد العزيز فطلبوه من دور الحريم وسلطنوه

فى يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول . وكان عمره يوم ولى السلطنة لا يزيد عن عشر سنوات .

وتولى اتابكية العسكر الأمير بيبرس وأصبح هو صاحب الحل والعقد . .

فأهاج ذلك غضب الأمراء الآخرين وخاصة الامير يشبك الخازندار فتعصبوا لعودة السلطان فرج ، الذى لم يلبث أن ظهر من مخبئه عندما وصلت اليه هذه الاخبار ، فاستعاد ملكه ، واعاد اخاه عز الدين الى حيث كان فى دور الحريم . فكانت مدة سلطنة عز الدين شهرين وعشرة أيام .

عودة السلطان الناصر فرج للسلطنة :

كان تجديد البيعة للسلطان الناصر فرج يوم الخميس الرابع من جمادى الثانية حيث بايعه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الامراء .

وفاة ابن خلدون :

فى السادس والعشرين من رمضان من هذه السنة توفى العلامة عبد الرحمن ابن خلدون فجاة عن ست وسبعين سنة ، عاش الأربع والعشرين سنة الأخيرة منها فى مصر . فاحبه من أحبه وتتلمذ على يده من تتلمذ وكان على رأس هؤلاء مؤرخنا الكبير تقى الدين المقريزى وأبو المحاسن تغرى بردى . كما كرهه من كرهه واختلف معه من اختلف من أصحاب المذاهب الاخرى . ولكن الذين كرهوه كالذين احبوه قد اجمعوا على تقدمه بالعلم الغزير .

وابن خلدون اعظم من أن يعرف فى سطور أو صفحات وحسبه انه مؤلف المقدمة التى اقر العلماء من جميع الأجناس فى وقتنا الحاضر ، أنها من أعظم ما الف فى كل زمان ومكان .

وبالنسبة لى شخصيا ، فطالما وقفت أمامها محتارا ، فما من باب من أبواب العلم او المعرفة ، الا وتعرضت له بأقوال وآراء تعتبر سابقة ورائدة فى ميدانها ، بحيث يمكن اعتباره منشىء علم الاقتصاد الحديث ، وعلم الاجتماع الحديث ، وعلم التاريخ الحديث .

شهادة ابن خلدون للعلوم فى القاهرة :

وحسب ابن خلدون عظمة ، اننا ناخذ من أقواله العلمية . . ما يفسر لنا سر هذه الظاهرة التى تعيا على التفسير وهى كثرة ما أنشىء فى مصر من مدارس وجوامع ومؤسسات اجتماعية فى هذه الفترة من حياتها ، وما شهدته من نهضة علمية لم يسبق لها مثيل من قبل فى العهد الاسلامى ، كما لم يلحقها حتى الآن شبيه ــ فيقول لنا ابن خلدون :

ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، كما

ان عمرانها مستمر ، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ، ما وقع لهذه العصور منذ مائتين من السنين من دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا .

وذلك ان أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لما له عليهم من الرق او الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته ، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، وأوقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شرطا لولدهم ينظر عليها ، أو نصيب منها ، مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال ، فكثرت الأوقاف لذلك ، وعظمت الغلات والفوائد ، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جراياتهم فيها . وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها أسواق العلم وزخرت بحارها والله يخلق مايشاء .

ولما درست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة ، بل والعلم الى مصر والقاهرة ، فلم تزل أسواقه تابعة لهذا العهد . وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين في وصفها وأشكالها متعارفة بينهم ، فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على هذه الأوضاع وقد لقنها حسنا وحذق فيها دربه وكتابة وأخذها قوانين علمية فتجيء احسن ما يكون .

ويمضي ابن خلدون على هذه الوتيرة من التحليل وربط الأسباب بالمسببات فيدرس سبب تمكن الحضارة في مصر وأن ذلك راجع الى تاريخها القديم .

١٤١٢ م ـ ٨١٥ هـ : اعدام الملك الناصر فرج :

أمضى السلطان الناصر فرج ، السنوات التي عاد فيها الى الحكم من جديد ، في سكر وعربدة وسفك لدماء المماليك الذين عانى منهم الأمرين ، حتى قيل أنه كان يسكر الى منتصف الليل ثم يخرج الى حوش القلعة ، فيستعرض المماليك الذين بالسجون فيختار منهم كل ليلة من يذبحه بيده .

وكان يذبح في الليلة الواحدة عشرين مملوكا ، وقيل ان عدة من ذبحهم من مماليك أبيه الفين (١) وذلك لشدة بغضه لهم لكثرة ما تآمروا عليه وحاولوا الغدر به .

وقد أدى ذلك الى هياج المماليك ، واندلعت الفتنة من بلاد الشام ، فخرج على السلطان الأمير نوروز الحافظي والأمير شيخ المحمودي .

وكان على السلطان فرج أن يذهب على رأس جيش من مماليكه الساخطين لاطفاء هذه الفتنة . ولم يكد يتم اللقاء بين الجيشين في يوم الثلاثاء خامس عشر من

(١) لعل هذه الواقعة خير ما يظهرنا على طبيعة الحياة في مصر طوال حكم المماليك ، فحيث تجرى هذه المذابح بين افراد الطبقة الحاكمة وجندها المسلح ، فان الحياة تجرى في انحاء البلاد في سبيلها العادي الطبيعي .

المحرم عند اللجون ، حتى انفض عن السلطان فرج اكثر عسكره وانضموا الى خصومه . فدارت عليه الدائرة ، وفر هاربا . ولكنه لم يلبث ان قبض عليه وقتل . وكان عمره يوم قتل ستا وعشرين سنة .

سلطنة الخليفة المستعين بالله :

حار الأمراء المماليك فيمن يولونه السلطنة : لعدم اتفاقهم على واحد منهم يكون سلطانا ، فخرجوا من مأزقهم بحل هو الأول من نوعه منذ نقلت الخلافة العباسية الى مصر ، وهو تولية الخليفة العباسى نفسه السلطنة الاسمية ، على أن يكون الحل والعقد فى مصر بين الأمير شيخ وفى الشام من غزة حتى الفرات بين الحافظ وقد اشترط الخليفة لنفسه أنه اذا عزل من السلطنة عاد الى الخلافة .

وعلى ذلك ففى يوم الاثنين سابع عشر من المحرم من هذه السنة تمت سلطنة الخليفة العباسى أبو الفضل بن المتوكل ، وكانت مبايعته فى مدينة دمشق ثم دخل على رأس موكبه الى القاهرة وسط احتفالات ارتجت لها البلاد .

خلع الخليفة العباسى من السلطنة :

على أن ذلك لم يدم طويلا ، فان هى الا بضعة أشهر أو على وجه التحديد فى يوم الاثنين أول شعبان ، حتى كان الأمير شيخ قد قرر عزل الخليفة من السلطنة ، فجمع القضاة الأربعة والأمراء فى هذا اليوم وقرروا أن الفساد قد عم فى الأرض وأن لابد من سلطان تركى له سطوة لقمع اهل الفساد واصلاح البلاد على يديه .

سلطنة الملك المؤيد أبو النصر شيخ :

وهكذا خلع الخليفة العباسى وعاد الى قواعده سالما ، وبويع بالسلطنة على عرش مصر شيخ المحمودى الظاهرى ، ولقب بالسلطان الملك المؤيد أبو النصر .

١٤١٤ م — ٨١٧ هـ : عصيان نوروز ومصرعه :

عندما بلغت اخبار عزل الخليفة العباسى من السلطنة الى الشام ، اعتبر نوروز أن ذلك اخلالا بالعهد والميثاق الذى ارتبط به مع الأمير شيخ فأعلن التمرد والعصيان وظل يخطب على منابر الشام باسم الخليفة العباسى فارتحل السلطان المؤيد الى الشام على رأس جيشه ، والتقى به نوروز الحافظ ، ولكن الدائرة دارت عليه ، فانهزم جيشه وقبض عليه وأعدم ، وكان ذلك فى شهر جمادى الاولى من هذه السنة .

ولكن السلطان المؤيد لم يكد يرجع الى القاهرة حتى عاود نواب الشام التمرد ، فخرج المؤيد على رأس جيش جديد لقمع حركتهم ، فانتصر عليهم مرة اخرى ، وعاد الى القاهرة فائزا منتصرا وقد صفا له الجو على ما يقول ابن اياس .

١٤١٦ م — ٨١٩ هـ : تفشي الطاعون في مصر :

على أن الطاعون تفشي في مصر هذه السنة ، وفتك بالناس شر فتك على ما تجمع كتب التاريخ .

١٤١٩ م — ٨١٩ هـ : الطاعون والغلاء :

ظل الطاعون يستشرى وينتقل طوال السنوات الثلاث الماضية حتى اذا كانت هذه السنة ، عاد الى الانتشار الذريع ، وتحالف معه الغلاء لعدم وفاء النيل ، مما جعل السلطان المؤيد يخرج بالناس والعلماء والأطفال والبهائم للاستسقاء ، كما جرت العادة ، وتواضع الله واظهر الزهد وصلى على الرمل بغير سجادة ، ووزع على الفقراء ثلاثين ألف رغيف ، وذبح بيده اغناما وابقارا . ولكن ذلك لم يجد فتيلا : فشرقت البلاد وقحطت وظلت كذلك لمدة عام كامل .

جامع المؤيد :

وعلى الرغم من هذا الضيق الذى الم بالبلاد في هذه السنة ، فقد كمل فيها بناء جامع المؤيد الذى أقامه مكان السجن الذى اشتهر باسم « خزانة شمايل » وفاء لنذر كان قد نذره ، ذلك ان السلطان المؤيد كان قد سجن بهذا السجن أيام السلطان الناصر فرج وقاسى به شدائد كثيرة ، فنذر الى الله ان أنجاه الله من هذه الشدة وافرج عنه ، وصار في يوم من الأيام سلطانا أن يهدم هذا السجن ويجعله مسجدا . فلما تحقق له ذلك . وفى بالنذر ، وأقام هذا المسجد الذى يعتبر تحفة معمارية من تحف هذا العصر ، وقد أقيم لافتتاح الجامع الحفلة المعهودة حيث ملئت فسقية الجامع بالماء والسكر والليمون ووزعت على الجمهور ، كما وزعت العطايا على كل من أسهم في بناء المسجد .

ثم رتب في المسجد بعد ذلك دروس الشافعية والمالكية والحنابلة وكان ذلك بحضور السلطان .

١٤٢١ م — ٨٢٤ هـ : وفاة السلطان المؤيد :

في يوم الاثنين التاسع من المحرم ، مات السلطان شيخ المؤيد وله من العمر خمس وستون سنة .

يقول ابن اياس وكانت دولته ثابته القواعد وصار الذئب والغنم يمشيان في صعيد واحد ، مشيرا بذلك الى توطيده أمن الدولة في مصر والشام وقطع دابر الفتن خلال السنوات الثمانى والشهور والخمسة التى تسلطن فيها .

ويقول عنه انه رغم اقدامه فى الحروب ، وحنكتــه ودربته فى الادارة والمكايد والحيل ، فقد كان يميل الى اللهو والطرب ، ويستعمل الراح ويميل الى الملاح ، وكان يستعمل الأشياء المخدرة من المصطلات وكان يقرب أرباب الفنون الذين راحوا يتبارون فى أيامه فى خدمة فنونهم التماسا للزلفى عنده فقد كان يحسن الفهم ويحسن المعرفة . وكان يغنى وينظم الشعـر .

ويندد به المقريزى من ناحية أخرى لسفكه الدماء وقتله عددا كبيرا من النواب والأمراء فى غير رحمة .

ســلطنة الملك المظفر أبو الســعادات :

فى يوم الاثنين التاسع من المحرم بويع بالسلطنة ابن السلطان المؤيد الذى كان طفلا لا يتجاوز عمره سنة وثمانية أشهر ، وقد جيء به الى سرير الملك وهو فى حجر مرضعته ، وكان ذلك بتدبير من الأمير ططر الذى تولى الاتابكية وراح يدير شئون المملكة ، وتزوج والدة السلطان (خوند سعادات) أرملة السلطان المؤيد ، وبذلك ازداد نفوذه وسـلطانه .

خلع الملك المظفر أحمد من السـلطنة :

وثار امراء الشام عندما بلغهم الخبر ، فأعلنوا التمرد والعصيان ، فخرج اليهم الأتابكى ططر لمحاربتهم ، واصطحب معه السلطان أحمد ومرضعته وزوجته ... وانتصر ططر على الأمراء الثائرين ، فقويت شوكته بذلك ورأى أن يخلع السـلطان الطفل وينادى بنفســه ســلطانا .

ســلطنة الملك الظاهر ططر :

وهكذا فى يوم الجمعة التاسع عشر من شعبان خلع الخليفة والقضــاة الأربعة السلطان الطفل ، وبايعوا الأمير ططر سيف الدين أبو سعيد سلطانا ولقبوه الظاهر .

فكان أول ما فعله أن طلق زوجته خوند سعادات أم الملك المظفر أحمد خوفا على نفســه منها ثم ارسل الطفل المخلوع ومرضعته ودادته الى السجن بثغر الإسكندرية ، حيث ظل مقيما به الى أن مات فيما بعد عام ٨٣٣ هـ .

موت الظــاهر ططر :

لم ينعم السلطان ططر طويلا بالحكم اذ لم يلبث أن مات فى يوم الأحد رابع ذى الحجة من تلك السنة ، أى أن مدة سلطنته لم تزد على ثلاثة اشهر وأيام ، ولما كان عمره لا يتجاوز خمسا وخمسين سنة ، فقد قيل ان خوند سعادات أم الملك هى التى دســت له السم ، وهى التى طلقها خوفا من أن يقع له ذلك .

السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد :

بويع بالسلطنة يوم وفاة ططر ابنه محمد الذى لم يكن يتجاوز عمره يوم مبايعته احدى عشرة سنة ، ولقب بالصالح ناصر الدين .

وتولى اتابكية العسكر وتدبير شئون المملكة جانى بك الصدفى ، فلم يرض عن ذلك الأمير برسباى الدقماقى الداودار ، فوثب على الأمير جانى الصدفى ، وقبض عليه وبعث به سجينا الى ثغر الاسكندرية وأمسك هو بزمام الأمور .

١٤٢٢ م ــ ٨٢٥ هـ : سلطنة الملك الأشرف برسباى :

فى يوم الأربعاء الثامن من ربيع الثانى، خلع برسباى السلطان الصالح ناصر الدين ابن ططر ، وبايعه الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء سلطانا على مصر ولقب بالملك الأشرف .

وبرسباى الذى سيقدر له ان يكون من ألمع سلاطين المماليك الجراكسة قد جاء به بعض تجار الرقيق من بلاد الجركس ، فاشتراه أحد الأمراء ، ثم آلت ملكيته الى السلطان برقوق ، الذى أعتقه ووهبه مالا وقماشا وخيلا ليبدأ حياته الحربية وجعله من خدمه الخصوصيين ، أو بحسب الترتيب الذى كان معمولا به ، جمدارا فى صكيا . فلما تسلطن الملك المؤيد جعله أمير عشرة ، ثم امير طلبخانة ، ثم رقى الى امير مائة ومقدم الف وتقلبت به الأحداث الى ان جعله السلطان ططر داودارا ، فكان منه بعد ذلك الذى مر بنا .

١٤٢٤ م ــ ٨٢٨ هـ : الأسطول المصرى يغزو قبرص :

كان الصليبيون كما راينا قد انحازوا الى جزيرة قبرص ، وردوس التى اتخذها فرسان الاسبتارية قاعدة لهم ، بعد ان اجلوا عن الأرض الاسلامية . وكان القبرصيون فى الآونة الأخيرة قد نشطوا نشاطا غير عادى فتوالت غاراتهم على الساحل الشامى ، وعلى السفن القاصدة الى مصر ، فأهاج ذلك ذكرى غارة القبرصيين على مدينة الاسكندرية عام ٧٦٧ هـ ، فقرر السلطان برسباى أن يضرب القبرصيين ضربة رادعة فأصدر أمره بانشاء اسطول بحرى فى ترسانات مصر فى بولاق ودمياط فتم صنع هذا الأسطول فى هذه السنة فبعث به بعد ان شحنه بالبحارة والمقاتلة الى جزيرة قبرص فهاجم مدينة ليماسول العاصمة وعاد محملا بالغنائم والأسرى .

الحملة الثانية على قبرص :

شجع برسباى النجاح الذى حققته الحملة البحرية الأولى فارسل حملة اكبر

تألفت من اربعين سفينة ،ونجحت فى الاستيلاء على مدينة فماجوستا واستسلمت لها حامية المدينة المؤلفة من جنود جنويه (أى من جمهورية جنوا) ثم قصدت القوة الى مدينة لارناتا وحطمت جيشا بقيادة أخى الملك حانوس (جيمس) ثم خضعت ليماسول بعد مقاومة يسيرة ثم يافوس جنوب غربى الجزيرة ، وفشلت كل محاولات الاسطول القبرصى لمقاومة المماليك . وعاد قائد الاسطول المصرى جيرباش ومعه الف أسير بيعوا فى أسواق القاهرة .

١٤٢٦ م ــ ٨٢٩ هـ : الاستيلاء على قبرص :

استقر عزم السلطان برسباى ، بعد أن ظهر له من ضعف قبرص ما ظهر ان يستولى عليها جملة . وكان جنا الثالث امبراطور بيزنطة قد حاول التوسط بين ملك قبرص وبرسباى ، ولكن برسباى رفض وساطته وجهز اسطولا ضخما مؤلفا من ١٨٠ سفينة محملة بالمقاتلة الذين كان أقلهم من المماليك وأكثرهم من المتطوعين والعرب والبدو .

وفى ٢ يوليو من السنة الميلادية ١٤٢٦ ، سقطت مدينة ليماسول بيد الجيش المصرى الذى تحرك منها صوب الشمال تحت حماية الأسطول ، فاستولى على لارناتا ثم وقعت معركة حامية الوطيس بين ملك الجزيرة جانوس والجيش المصرى عند شيركتيوم ، فانهزم الجيش القبرصى ، ووقع الملك جانوس نفسه أسيرا . ثم سقطت نيقوسيا عاصمة الجزيرة وبذلك تم اخضاع الجزيرة لسلطان مصر الأشرف برسباى .

يقول ابن اياس عن حوادث عام ٨٢٩ هـ : وفى هذه السنة تم فتح مدينة (جزيرة) قبرص وأسر ملكها وجىء به الى القاهرة أسيرا فكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وزينت المدينة سبعة ايام . ودخل عسكر الفرنج وهم فى زناجير (سلاسل) وملكهم راكب وعليه آلة الحرب .

اما لين بول فيصف هذا الحادث فى تاريخه بقوله :

وكان تاج قبرص والاعلام الملكية من بين ما عرض على الجماهير فى موكب النصر ــ اما الملك جيمس نفسه فقد حمل الى القلعة وادخل الى حضرة السلطان الذى كان يحيط به أمراؤه وحاشيته وسفراء السلطان ــ العثمانى ودولة التركمان ، وممثلو القبائل العربية وشريف مكة وملك تونس .

وقبل ملك قبرص المقيد بالسلاسل الأرض بين يدى برسباى ثم اغمى عليه ولما ضغط عليه فى طلب الفدية التى قدرت بمائتى الف دينار ، كان رد الملك ، اننى لا أملك شيئا الا حياتى فليتصرف فيها السلطان كما يشاء فلما هدد بالموت لم يظهر اى جزع . ولكن قنصل البندقية وبعض التجار الاوربيين ، تدخلوا وتعهدوا بدفع مائة الف دينار فى الحال على أن يدفع الملك جيمس بعد عودته الى قبرص مثلها ، وأن يكون تابعا لمصر ويدفع جزية سنوية تتراوح بين خمسة الى ثمانية آلاف دوكية .

وهذا النصر البحرى الذى احرزه برسباى والذى انتهى بضم قبرص الى السيادة المصرية ، هو آية انفراط عقد الدول الأوربية المسيحية وانشغال كل منها بنفسها واهتمامها بمصالحها الخاصة .

عمارة المدرسة الاشرفية :

وفى هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان وهى المدرسة الاشرفية التى عند سوق الورافين ، وقد أمر السلطان أن تعلق خوذه ملك الأفرنج على باب هذه المدرسة لتكون تذكارا له .

يقول ابن اياس (المتوفى عام ٩٣٠) ان هذه الخوذة ظلت معلقة على باب المدرسة حتى أيامه ، أى بعد مائة سنة .

١٤٢٨ م ـ ٨٣١ هـ : عمارة مدرسة سرياقوس :

وفى هذه السنة ابتدأ السلطان عمارة مدرسته التى فى خانقاه سرياقوس وقد تناهى فى رخامها وزخرفنها ثم أقام فيها الخطبة ، وكان اول من خطب فيها الشيخ عبد الرحيم المحمدى الواعظ ـ ولم يحدث من قبل أن اقيمت الخطبة فى الخانقاة .

١٤٣٠ م ٨٣٣ هـ : تفشى الطاعون فى مصر :

فى هذه السنة تفشى الطاعون فى مصر ، وكان مخالفا لبقية الطواعين ، فقد جرت العادة أن يقع الطاعون فى فصل الربيع ، أما هذه المرة فقد وقع فى وسط الشتاء .
وقد مات فيه على ما يقول ابن اياس ما لا يحصى عدده من الناس حتى قيل انه مات فى يوم واحد أربعة وعشرون ألفا .

وكان ممن ماتوا بالطاعون الخليفة العباسى المستعين بالله ابو الفضل العباسى .

ويقول الحافظ بن حجر الذى كان متوليا القضاء الشافعى فى هذه الفترة والذى يعتبر علما من أكبر الأعلام .

« لما كثر الطاعون بمصر ، اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ودعوا الله برفعه ، فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص .

١٤٣١ م ـ ٨٣٤ هـ : اتصالات شاه رخ ابن تيمورلنك ببرسباى :

كان شاه رخ ابن تيمورلنك قد وطد ملكه فى بلاد ما بين النهرين (سيحون وجيحون) وبلاد فارس كلها وكان الاسلام قد انتشر فى صفوف المغول واصبح هو

الدين الحاكم .. فأرسل فى هذه السنة سفيرا الى برسباى يطلب منه ارسال بعض المؤلفات لعلماء مصر المعاصرين . كشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ، وتاريخ المقريزى ، ويطلب كذلك السماح له بكسوة الكعبة . ولكن السلطان برسباى رفض هذا الطلب ، بل ولم يرسل المخطوطات المطلوبة .

ولما كان شاه رخ من اكبر هواة جمع المخطوطات ، فانه لم ييأس لهذا الرفض ، وظلت سفاراته تتوالى على القاهرة ، حاملة الهدايا ، ومجددة طلب السماح له بكسوة الكعبة ، ليبر بيمين كان قد أقسمها وهو أن يكسو الكعبة .

ولكن برسباى ظل على رفضه هذا الطلب بحجة أن كسوة الكعبة ، هى من حقوق سلطان مصر ، وان فى مصر من الأوقاف المرصودة على كسوة الكعبة ما يجعلها فى غنى عن تقبل أى كسوة أخرى .

١٤٣٣ م — ٨٣٦ هـ : برسباى يقود حملة تأديبية ضد دولة التركمان :

كانت دولة التركمان التى انشأها تيمورلنك تتألف من دولتين متنافستين اولاهما مؤلفة من قبيلة الشاه البيضاء وزعيمها عثمان قرايلوك التركمانى ويسميه ابن اياس قراملك .

وقد بدأ هذا الزعيم يستخف بسلطنة مصر ويغير على بعض ممتلكاتها ثم رأى ان يستفز برسباى ، فبعث اليه بهدية رمزية مؤلفة من مرآة وخروف وخلعة ، كناية عن أن السلطان وامراءه نعاج والمرآة فانهم مثل النساء والخلعة باعتبار ان برسباى نائب لقرايلوك . وقد اهان برسباى السفراء الذين حملوا له هذه الهدايا وطلب منهم أن يبلغوا ملكهم أن يقابله على نهر الفرات .

وفى شهر مارس من هذه السنة خرج برسباى من القاهرة على رأس جيشه وبصحبته الخليفة المعتضد والمؤرخ أبو المحاسن و (تغرى بردى) والقضاة الأربعة ، ووصل الى نهر الفرات وحاصر قلعة آمد أشد الحصار ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، وساءت الأحوال بين جنوده ولذلك فقد رضى بعقد صلح مع عثمان قرايلوك على ان يكون تابعا لسلطان مصر ، فيخطب لبرسباى على المنابر وتضرب السكة باسمه .

على أن برسباى لم يكد يرجع الى مصر : حتى عاد عثمان قرايلوك الى التمرد .

على ان نيران القتال لم تلبث ان اشتعلت بين عثمان قرايلوك وبين زعيم الدولة التركمان الثانية وهى الشاه السوداء ، وانتهت الحرب بهزيمة عثمان قرايلوك ، حيث قطع زعيم الشاه السوداء المنتصر راسه وبعث بها الى برسباى ، الذى احتفل بوصول راس غريمه اليه احتفالات ضخمة .

١٤٣٥ م ـ ٨٣٩ هـ : الأزمة بين شـاه رخ وبرسـباى :

تجددت الأزمة بين شاه رخ سلطان المشرق وبين برسـباى عندما أرسل يجدد طلبه لكسوة الكعبة ويندد بعلماء مصر وقضاتها الذين افتوا انه يسـتطيع أن يبر بيمينه لو انه انفق قيمة الكسوة على الفقراء والمساكين فى مكة ، واتهمهم بأنهم غير نزيهين وانهم يفتون بما يوافق هوى السلطان حرصا على مصالحهم الدنيوية .

ووصلت الأزمة الى حد خيف معه أن يهاجم شاه رخ بلاد الشام مكررا ما فعله أبوه من قبل ، خاصة وان شاه رخ كان يرسل السفارات والهدايا الى السلطان العثمانى والى أمير الشاه البيضاء التركمانى ، والى امراء الغادر وقرمان ، مما دل على انه يؤلف حلفا يمهد به للهجوم على برسـباى .

كل ذلك جعل برسباى يعلن انه سيجهز جيشا لمواجهة شاه رخ . وطلب من القضاة أن يوافقوه على جمع الأموال اللازمة للحملة من الشعب ، فرفض القضاة الموافقة على ذلك ، وانتقدوا اسرافه ، وكان مما قالوه : لا يجوز للسلطان أن يفرض الأموال على المسلمين وزوجته تلبس فى يوم ختان ابنها ثوبا يساوى ثلاثين ألف دينار (مصر فى عهد الجراكسة) .

وعاد شاه رخ فأرسل الى برسباى رسالة رابعة وكان شاه رخ يطالب برسباى هذه المرة بأن يقيم الخطبة باسمه ويضرب السكة باسمه كذلك . على أساس ان برسـباى تابع له .

وكان رد برسباى على هذه الرسالة : أن أمر باهانة السفير الذى حملها ، وهكذا تأزمت الأمور . ووصل التوتر الى أعلى مداه ، واصبح هجوم شاه رخ على أرض الدولة متوقعا فى أى لحظة .

١٤٣٧ م ـ ٨١٤ هـ : عودة الطاعون الى مصر :

فى هذه السنة عاود الطاعون مصر المرة الثانية فى حياة برسباى وان كان بدرجة أخف من الطاعون السابق ، ومع ذلك فقد مات بسببه عدد كبير .

وفاة السلطان الملك الأشرف برسـباى :

فى يوم السبت الثالث عشر من ذى الحجة دفن الملك الأشرف برسباى وكان عمره خمسا وسبعين سنة ، حكم منها ستة عشر عاما وثمانية اشهر وخمسة أيام .

يقول ابن اياس : فكثر عليه الحزن والأسف من الناس فأن مصر كانت هادئة فى أيامه من الفتن والحروب .

وكان الملك الأشرف برسباى ملكا جميلا مبجلا فى موكبه وكان منقادا للشريعة ويحب أهل العلم ويقربهم .

وكانت النقود التى سكها احسن النقود ، وكانت من الذهب والفضة ، ولا سيما الأشرفية البرسبيبية فانها من خالص الذهب .

احتكاره تجارة الهند :

واذا كان اخضاع قبرص للسيادة المصرية هو ما تم فى عهد برسباى يميزه عن بقية عصور المماليك الجراكسة ، فان ثمة مميزا آخر لعصره : وهو احتكاره لبعض أصناف التجارة ، وخاصة تجارة الهند التى ازدهرت من جديد فى عصره . ومن عجب أن ازدهارها لم يكن سوى آخر خفقة فى سراج هذه التجاره فلن يلبث أن تكتشف أمريكا ، وتكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ؛ وتتحول تجارة الهند نهائيا عن مصر ، مما سارع الى افقارها فى أخريات العهد المملوكى وطوال العهد العثمانى .

المقريزى وابن حجر والعينى :

وقد تألق فى عهد برسباى ثلاثة من أعلام مصر ، وأعلام العرب والمسلمين فى كل زمان ومكان وهم المقريزى الشهير صاحب التآليف التاريخية الخالدة وثانيهما الحافظ بن حجر شارح البخارى وقد رأينا كيف أن شاه رخ بن تيورلنك قد بعث الى مصر ليحصل على كتبهما .

أما ثالثهما وهو بدر العينى ، فقد كان لى شخصيا حظ مصاحبته الدائمة قبل زميليه ، حيث تقوم فى مكتبتى منذ أمد بعيد سبع مجلدات ضخمة فى شرح صحيح البخارى ، تؤلف بالنسبة لى مرجعا اساسيا فى كل ما يتصل بأحاديث رسول الله .

وقد رأينا كيف أن وجود عالم واحد فى عصر من العصور قد يزينه ويرفع من شأنه فكيف بعلماء ثلاثة .

سلطنة الملك العزيز أبو المحاسن :

بويع بالسلطنة فى يوم وفاة الأشرف برسباى ، اى فى يوم السبت الثالث عشر من ذى الحجة ، الملك العزيز ابو المحاسن جمال الدين يوسف دقماق ، ابن الملك الأشرف برسباى ، وكان عمره يوم سلطنته أربعة عشر عاما ولقب بالعزيز .

وتولى اتابكية العسكر جقمق العلائى ، فاصبح كما هى العادة صاحب الحل والعقد والمتصرف فى كل الشئون .

١٤٣٩ م – ٨٤٢ هـ : خلع السلطان العزيز :

لم يكد جقمق الاتابك ينجح فى القضاء على حركة قام بها الأمراء ضد الملك

العزيز ، حتى رأى هو أن يخطو هذه الخطوة التى أصبحت تقليدية . فاستدعى الخليفة والقضاة الأربعة وطلب منهم خلع السلطان العزيز فخلعوه فى يوم الأربعاء التاسع عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، فكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وخمسة ايام . على أن جقمق لم يقتل السلطان العزيز أو يسجنه واكتفى بادخاله دار الحريم ليسكن بها .

سلطنة الملك الظاهر جقمق :

وبويع بالسلطنة فى نفس اليوم جقمق ولقب بالملك الظاهر . وهو كسائر ملوك المماليك ــ جلب من بلاد الجركس فاشتراه السلطان برقوق واصبح من جملة المماليك السلطانية . ثم اعتق . وعينه خاصكيا ثم ساقيا وفى دولة الناصر فرج أصبح أمير عشرة وفى عهد الملك المؤيد شيخ صار امير طلبخانة ، وفى دولة ططر أصبح أمير مائة ومقدم الف . ثم عين صاحب الحجاب فى دولة الأشرف برسباى . ثم عهد اليه بمنصب أمير آخور (أى المشرف على الاسطبلات السلطانية) ثم أمير سلاح ثم اتابك العسكر فسلطانا كما رأينا .

وقد عين قرقماش اتابكا العسكر .

الفتن ضد السلطان الجديد :

استهل جقمق عهده كأى سلطان من سلاطين المماليك . بالعزل والسجن والقتل لمن يتخوف منهم ، والترقية والتعيين فى المناصب الرئيسية لمن يطمئن اليهم . وسرعان ما تكون هذه الحركات هي مصدر فتن ومتاعب .

وكان أول ما واجهه جقمق هو فرار السلطان العزيز المخلوع واختفائه لدى بعض أنصاره ، مما دل على أن له حزبا قويا يساعده على استعادة السلطة ولكن جقمق استطاع ان يقبض على العزيز وأن يرسله مقبوضا عليه الى الاسكندرية .

ولم يكد جقمق يفرغ من هذه الحركة : حتى نما الى علمه ان الأمير قرقماش الاتابك قد دبر أن يقبض عليه أثناء لعبهما معا بالكرة . فاحتاط السلطان لذلك . وفشلت خطة قرقماش فقام الصراع العلنى بين الرجلين ودارت بينهما المعارك التى انتهت بانتصار جقمق ، وارسال قرقماش مقبوضا عليه الى سجن اسكندرية حيث اعدم بعد ذلك .

١٤٤٠ م ــ ٨٤٣ هـ : تمرد نائب الشام اينال الجكمى :

وفى الشام أعلن الأمير اينال الجكمى خروجه عن طاعة جقمق وانضم الى نائب حلب ، ولكن جقمق استطاع أن يرسل جيشا الى الشام هزم الخارجين عليه وقبض عليهم وقطع رؤوسهم .

جقمق يحـــاول غزو رودس :

كانت انتصارات برسباى على جزيرة قبرص وضمها الى الســـيادة المصرية لا تزال أصداؤها تتجاوب فى أرجاء البــلاد ، وكانت جزيرة رودس لا تزال تمثل شوكة فى البحار وتمثل خطرا دائما على الدولة المصرية ، فقد كان فرسان الاسبتارية قد جعلوا منها قاعدتهم الحصينة ، وزادت أهميتها بعد سقوط قبرص فضاعف من نشاطها .

وفكر جقمق فى أن يلحق بسلفه برسباى ، ولبس كالانتصـــارات العســـكرية ما يوطد أركان أى ســـلطان فى الحكم .

لذلك فقد أعد فى ميناء بولاق أسطولا بحريا يتألف من خمس عشرة سفينة من السفن المعروفة باســم الغراب عهد الى الأميرين تغرى بردى الساحدار ويونس المحمودى أمير خور بغزو جزيرة رودس وحشد ما يزيد على ألف مقاتل فى هـــذا الأســـــطول .

ولكن خبر هذه الحملة تسرب الى رودس ، فلم يكد الأسطول يصل الى مياه الجزيرة حتى وجد أســـطول الجزيرة بأكمله فى انتظاره ، فأوقع بهـــذه التجريدة خســـارة جسيمة فعادت على أترها الى مصر دون أن تحقق شيئا نافعا .

١٤٤٢ م — ٨٤٦ هـ : ثورة العبيد الســـود :

تجمع الأرقاء السود فى القـــاهرة فى هذه الســـنة ، وعبروا منطقـــة الجيزة واعلنوا التمرد والعصيان وولوا عليهم سلطانا ووزيرا وأميرا كبيرا وداويدارا وصار سلطانهم يركب وعلى رأسه علم أصفر يحيط به خمسمائة من اتباعه فبعث اليهم الســـلطان جقمق جيشـــا من أمرائه ومماليكه فأوقعوا بهم وأمسكوا بجمـــاعة منهم ، وفر البـــاقون .

فاستقر رأى السلطان على أن يتخلص نهائيا من الأرقاء السود فأعلن أن كل من يملك رقيقا أسود يسلمه الى السلطان ويأخذ فى مقابله اثنى عشر دينارا وهكذا جمع الأرقاء السود ، ثم سيقوا الى الدولة العثمانية حيث بيعوا بها .

وفاة تقى الدين المقريزى :

وفى هذه السنة مات شيخ المؤرخين المصريين من عصره حتى اليوم وكان عمره يوم مات ثمان وسبعين ســـنة شمسية .

وقد ولد أحمد بن على المقريزى بالقاهرة عام ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) ومات عام ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م) .

وقد كان حنفى المذهب ثم تحول الى المذهب الشافعى والتحق بدايون الانشاء بالقلعة ثم عمل قاضيا شافعيا ، فاماما لجامع الحاكم فمدرسا لعلم الحديث بالمدرسة

المؤيدية ، واختاره السلطان برقوق ليكون محتسب القاهرة والوجه البحرى ، ثم انتقل الى دمشق وقام بتدريس الحديث الشريف ، ثم عين قاضيا بدمشق .

وسئم المقريزى وظائف الحكومة على اختلافها ، فرجع الى القاهرة ، واستقر فى حارة برجوان التى ولد فيها ، واشتغل بالتدريس والتأليف وخاصة فى هذا العلم الذى أحبه من كل قلبه وهو التاريخ . وكان أول كتبه هو أعظم كتبه على الاطلاق وهو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار والذى قال فى مقدمته .

« وكانت مصر هى مسقط رأسى وملعب اترابى ومجمع ناسى ومغنى عشيرتى وموطن خاصتى » .

وكتاب الخطط هو كتاب شامل لجغرافية مصر وتاريخها منذ خلق الله الدنيا حتى أيام المقريزى .

ثم رأى المقريزى أن يؤرخ لمصر تاريخا سياسيا كاملا منذ الفتح العربى الى العصر الذى عاش فيه ، فقسم هذه الفترة الى ثلاثة أقسام عصر التبعية للخلافة الاسلامية ، وخصه بكتاب عقد جواهر الاسقاط فى أخبار مدينة الفسطاط .

عصر الخلفاء الفاطميين وخصه بكتاب الفاظ الحنفا بذكر الأئمة الخلفا .

عصر بنى أيوب والمماليك وخصه بكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . والمقريزى بعد ذلك عشرات المؤلفات التى لم تصل الينا ، ومن أهمها كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة » وقد نحا فيه نحو أستاذه ابن خلدون من حيث النظرة الشاملة للتاريخ . والاجتماع والاقتصاد ، وقد انتهى به بحثه فى هذا الكتاب الى أن اسباب ما ينزل بالناس من المجاعات والأوبئة هو سوء تدبير الزعماء والحكام والقادة واغفالهم النظر فى مصالح الجمهور .

١٤٤٣ م ـ ٨٤٧ هـ : اخفاق حملة بحرية ثانية على رودس :

غادرت دمياط فى أغسطس من هذه السنة الميلادية حملة بحرية ثانية بقيادة الأمير اينال العلائى لمحاربة رودس ، فقصدت أولا الى سواحل الشام حيث انضمت اليها قوات شامية ، واحتشد الأسطول بعد ذلك فى ميناء ليماسول بجزيرة قبرص ، حيث مونها ملكها بما هى فى حاجة اليه ، ولكن قيام ريح عاصفة حال دون وصول هذا الاسطول الى رودس فعاد الى الاسكندرية ورشيد .

١٤٤٤ م ـ ٨٤٨ هـ : حملة ثالثة ضد رودس :

لم ييأس السلطان جقمق لفشل حملتيه السابقتين وزاد تصميمه على غزو جزيرة رودس ، فأعد أسطولا أضخم من كل ما سبق أن اعدته مصر ، حيث كان

ما يقرب من ثمانية عشر الفا من المتطوعين المصريين والسوريين بالاضافة الى الف مملوك ، وجعل الامارة على القوات البرية للامير اينال العلائى وامرة البحر للامير تمرباى .

وكان فى الحملة عدد كبير من الوعاظ والعلماء .

ووصلت الحملة الى جزيرة رودس فى جمادى الأولى من هذه السنة الهجرية (اغسطس) وحاصرت مدينة رودس ، واشتد القتال ، واستمر الحصار العنيف أربعين يوما ، ولكن المدافعين عن المدينة تلقوا مددا من فرنسا وأسبانيا ، فاستطاعوا أن يرفعوا الحصار عن المدينة ، وان يهاجموا الجيش المصرى فقتلوا عددا من المماليك وهرعت بقية الجند الى السفن ، وعادت ادراجها الى مصر ، فى الوقت الذى كان جقمق قد ارسل لهم المدد .

ومع ان الجيش المصرى لم يوفق فى مهمته ، فان حكام رودس طلبوا الدخول فى مفاوضات الصلح مع مصر للتوصل الى اقرار السلام ، فقد راوا أن جقمق لن يكف عنهم .

ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الدولة العثمانية قد بدات تهدد جزر شرق البحر الأبيض . وكانت هذه القوة التى تنمو بسرعة فائقة هى التى أصبحت تقض مضاجع أهل رودس ، فكان ان سعوا الى الصلح مع مصر على شروط رضاها .

شاه رخ يكسو الكعبة بموافقة جقمق :

كان شاه رخ ملك ما وراء النهر وبلاد فارس ، لايفتأ يطالب بتحقيق رغبته فى كسوة الكعبة ، وهى الرغبة التى رفضها برسباى اكثر من مرة فلم يكد السلطان جقمق يتولى السلطنة حتى جدد طلبه وبعث الى مصر وفدا من لدنه وزوده بالثمين من الهدايا مع ابداء الرغبة فى كسوة الكعبة فاعتذر جقمق كسلفة عن اجابة هذه الرغبة ، ولكن انهزام الجيش المصرى فى حملة رودس جعل جقمق يكف عن عناده ، ويسعى لعدم توريط مصر فى حرب جديدة مع شاه رخ فأجابه الى طلبه ، وشرط أن تكون كسوة شاه رخ من الداخل أى تحت كسوة السلطان . فقبل شاه رخ هذا الشرط وبعث بكسوته الى القاهرة لترسل مع كسوة السلطان ، وكان من بين مرافقى هذه الكسوة أرملة تيمورلنك .

وهكذا بر شاه رخ بقسمه فى نهاية الأمر ، فوضعت كسوته فوق الكعبة وكأنه كان لايعيش الا لتحقيق هذا النذر اذا لم يلبث أن مات فى العام التالى .

١٤٤٩ م – ٨٥٣ هـ : الطاعون والغلاء :

توقف النيل عن الوفاء فى هذه السنة ، ولم تجد صلاة الاستسقاء فشرقت

البلاد وعزت الاقوات ، وارتفعت الأسعار بحيث أصبح ثمن أردب القمح خمسة دنانير أشرفية ثم زاد الى سبعة . وغلا سعر كل شيء حتى روايا الماء . وشرقت غالب البساتين وماتت الاشجار والبهائم فلما حدث ذلك خاف الأمراء ان ينهب العامة غلالهم فحولوها من الشون الى بيوتهم تحت حراسة مماليكهم فضاعف ذلك فى غلاء الأسعار حتى اصبح سعر رطل الخبز نصف فضة . فأدى ذلك الى اشتعال ثورة الشعب فرجمت الجماهير وكيل بيت المال ، والمحتسب . وفى أعقاب الغلاء والقحط جاء تابعهما الطاعون ، فبدأ يفرى فى الناس فريا حتى قيل انه كان يموت سبعة عشر الفا كل يوم .

١٤٥٠ م ـ ٨٥٤ هـ : وفاة شهاب الدين بن حجر العسقلانى :

وفى هذه السنة مات شيخ الاسلام قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلانى الشافعى ، فكانت له جنازة مشهورة ، وتبارى الشعراء فى رثائه مما نفص به كتب التاريخ .

وقد كان ابن حجر هو اول من تصدى من علماء المسلمين لشرح صحيح البخارى ، مما جعل شاه رخ كما قدمنا يرسل الى مصر وفدا فى طلب هذا الكتاب .

١٤٥٢ م ـ ٨٥٧ هـ : السلطان محمد الفاتح يفتح القسطنطينية :

فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الثانية من هذه السنة تم الفتح العظيم الذى ما فتىء المسلمون يسعون لتحقيقه فباءت كل جهودهم بالفشل منذ أيام معاوية ابن أبى سفيان : وهو فتح مدينة القسطنطينية التى كانت تعتبر قاعدة المسيحيين الكبرى .. فتم هذا العمل العظيم على يد السلطان محمد الذى اطلق عليه منذ هذا الحدث لقب الفاتح . وقد نقل السلطان محمد الفاتح عاصمة الدولة العثمانية الى القسطنطينية واطلق عليها اسم اسلام بول أى مدينة الاسلام ، وهى التى حرفت الى استنبول .

وبصيرورة القسطنطينية عاصمة للدولة العثمانية ، بدات هذه الدولة صفحة جديدة فى تاريخ حياتها . فالى ما قبل هذه الخطوة كان سلاطين آل عثمان يقصرون جهادهم على غزو الأقطار المسيحية فى شرق أوروبا من صرب وبلغار ويونان .

اما بعد فتح القسطنطينية ، فقد بدأت ابصارها ترنو الى توحيد العالم الاسلامى تحت لوائهم ، وان كانت هذه الرغبة لم تتحقق الا بعد اكثر من نصف قرن .

وقد كان لسقوط القسطنطينية فى يد المسلمين أثر فى أوروبا ، جعل شعوبها

يعتبرون انفسهم فى حرب مقدسة ضد الدولة العثمانية ظلت طوال اربعة قرون ، ولم تهدأ الا بعد ان صفيت الدولة العثمانية بالفعل .

وفاة السلطان الملك المظفر جقمق :

فى ليلة الثلاثاء الرابع من شهر صفر من هذه السنة ، مات السلطان المظفر جقمق عن احدى وثمانين سنة ، حكم منها أربع عشرة سنة وعشرة اشهر ويوما .

يقول عنه ابن اياس : وكان ملكا عظيما جليلا دينا خيرا متواضعا يحب فعل الخير . وكان عنده لين جانب يحب العلماء وينقاد للشريعة ، ويقوم للعلماء اذا دخلوا عليه . وكانت الدنيا فى ايامه هادئة من الفتن والتجاريد .

ولكن ابن اياس يأخذ عليه انه سجن قاضى القضاة : وسجن جماعة من العلماء ، وانه غضب فى وقت ما على النصارى فهدم جانبا من كنائسهم وحجر عليهم ان يبيعوا النبيذ .

ولك ان تتصور هذه السماحة الدينية التى لن تجدها الا فى صفوف المسلمين حيث ينعى عالم دينى وهو ابن اياس على السلطان اضطهاده للمسيحيين ومنعه اياهم من ان يبيعوا النبيذ الذى حلال فى شريعتهم .

ويجمل ابن اياس القول فى السلطان جقمق فيقول : وبالجملة كانت محاسنة أكثر من مساوئه ، وكان خيار ملوك الترك من الجراكسة بالنسبة الى غيره من الملوك .

سلطنة الملك المنصور ابو السعادات :

فى الحادى والعشرين من المحرم بويع بالسلطنة الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان ، ابن الملك الظاهر جقمق العلائى . وكانت سنة يوم بويع تسع عشرة سنة وتولى اتابكية العسكر الأمير اينال العلائى .

خلع المنصور ابو السعادات :

لم تكن تولية المنصور ابو السعادات ، الا ريثما يتفق امراء المماليك فيما بينهم على تولية واحد منهم ، ولذلك فلم يمض شهر وبعض شهر حتى اجتمع امراء المماليك حول الاتابكى اينال العلائى وأرغموه على ان يتولى السلطنة . وحاصر اينال السلطان المنصور فى القلعة ، وقطع عنه الماء والطعام ، ولم تلبث المماليك ان تفرقت من حول السلطان ، فاستولى اينال على القلعة ، وخلع الملك المنصور عثمان وبعث به سجينا الى الاسكندرية ، وكانت مدة سلطنته ثلاثا وأربعين يوما .

سلطنة الملك الأشرف اينال :

بويع بالسلطنة بعد خلع المنصور فى يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ولقب بالملك الاشرف .

واصل الملك الأشرف جركسى الجنسية جلبه الخواجه علاء الدين على فاشتراه الظاهر برقوق ، واعتقه ابنــه فرج من بعده ، ثم ثار فى سلم الترقى على النظام المألوف ، تولى فى عهد برسباى ادارة بعض المدن فى الشام ، ثم جاء الى القاهرة وأنعم عليه بامرة مائة وتقــدمة آلف وفى عام ٨٤٩ عين اتابكا للعســكر ، وكان ذلك سبيله الى السلطنة . ولم يكد يســتهل سلطنته حتى واجهته الفتن المعهــودة من الأمراء ، فقد استقل الجميع نفقة البيعــة التى انفقها عليهم ، وطالبوا بالمزيد . فاعتذر بضيق ذات اليد ، ووعد باجزال العطاء لهم عند ميسرة .

الاحتفال بفتح مدينة القسطنطينية :

وقبيل آخر هذا العام ، وفد من السلطان محمد الفاتح ، قاض (سفير) لابلاغ سلطان مصر بطريقة رســمية نبأ فتح مدينة القسطنطينية ، قدمت له البشائر فى القلعة : واستقبل اعظم استقبال ، ونودى فى القاهرة بالزينة لعدة ايام .

وعين السلطان اينال وفــدا من لدنه للسفر الى القسطنطينية لتهنئة الســلطان الفاتح رسميا باسمه واسم مصر .

ولعل ذلك يكشف عن مدى حسن العلاقات بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية فى ذلك الوقت .

١٤٥٤ م — ٨٩٥ هـ : فتنة المماليك ضد السلطان :

قام مماليك السلطان الذين يعيشون فى الطباق بالقلعة وهم الذين كانوا يسمون بالجلبان ، بفتنة ، فراحوا يهجمون على محلات التجار وينهبونها . ثم امتد هجومهم الى مخازن وشون الأمراء انفسهم .

وفى شهر رجب من هذه السنة تطورت الفتنة الى ثورة عامة ضد السلطان اينال تزعمها من يدعى شبك بن مهدى — وانحاز اليه الخليفة العباسى حمزة رغم تحذير السلطان له — ولكن اينال استطاع ان يقضى على الثورة وأن يقبض على الخليفة .

وقد حاول الخليفة ان يتحدى السلطان ، فاعلن فى حضرة الأمراء والقضاة انه خلع نفسه من الخلافة وخلع السلطان اينال من السلطنة . ولكن قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى افتى بأنه وقد خلع نفسه ابتداء ، لم يملك السلطــة لخلع السلطان لزوال صفته .

وسجن الخليفة العباسى بعد ان خلع نفسه ، وعين اخوه ابو المحاسن يوسف بن محمد المتوكل على الله ، ولقب بالمستنجد بالله .

١٤٥٦ م ـ ٨٦١ هـ : ارسال حملات لمحاربة التركمان :

هاجمت دويلة التركمان التى كانت خاضعة لسيادة مصر ، أطراف الدولة العثمانية واستولت على مدينة طرطوس فى آسيا الصغرى ، فخشى السلطان اينال من ان تؤدى هذه الحركة الى اساءة العلاقات بين مصر والدولة العثمانية ، فأرسل الى دويلة التركمان حملة تأديبية بقيادة الأمير خشقدم ، فأتمت مأموريتها بنجاح .

١٤٥٧ م ـ ٨٦٢ هـ : اصلاح النظام النقدى :

تصاعدت فى هذه السنة الشكوى من سوء النقود المتداولة وبلغت ذروتها اذ كثر فيها الغش والتدليس .

فأصدر السلطان فى ربيع الأول من هذه السنة مرسوما بتسعير الذهب والفضة، وضرب السلطان فضة جديدة وسعر الدينار الذهب بثلثمائة والفضة الجديدة على أساس ان كل أشرفى (دينار ذهبى) بخمسة وعشرين نصفا عددية من خالص الفضة.

وابطل سائر المعاملات من الفضة المغشوشة ، والتى كان الدينار قد وصل منها الى اربعمائة وستين درهما .

فخسر الناس ثلث اموالهم من هذه الحركة ، ولكن انصلح امر العملة بعد فسادها .

يقول ابن اياس ففرحت طائفة بهذا الاصلاح واغتمت طائفة .

١٤٥٨ م ـ ٨٦٣ هـ : مصر تبعث بأسطول الى قبرص :

وفى هذه السنة وقع خلاف بين (جيمس) ابن ملك قبرص وبين أخته شالوت على العرش ، فبعث جيمس يستنجد بمصر ، فى الوقت الذى لجأت فيه شارلوت الى رودس ، فبعث اينال بنجدة للملك جيمس ، فانتصر على أخته وانصارها بفضل المعونة المصرية ... وكانت هذه الحركة مظهرا لمباشرة مصر سلطانها على قبرص .

١٤٥٩ م ـ ٨٦٤ هـ : انتشار الطاعون :

وتفشى هذا الوباء الذى اصبح من سمات هذه الفترة من تاريخ مصر والعالم ونعنى به الطاعون ـ وقد بدأ تفشيه هذه المرة فى الشام ومن الشام امتد الى مصر ـ ويبدو ان الوباء هذه المرة كان شديدا الى الحد الذى هلك به ثلث المماليك والأطفال والجوارى والعبيد والغرباء ، وظل يعمل طوال خمسة شهور ، قبل أن يتوقف فجأة ، كما بدأ فجأة .

خشقدم يقضى على الفتنة ضده :

وجرت حركات القبض والاعتقال والعزل ، والترقية ووقعت الفتن المعتادة ، واراد المماليك أن يكرروا لعبتهم فيعينوا الأتابك الجديد جرباش سلطانا ولكن الحركة فشلت وظل خشقدم سلطانا . ولكى يحتفظ بهذا السلطان راح يقتل من أمراء المماليك كل من يتصور انه يهدده فى ملكه ، كما فعل بالأمير مانى نائب جدة ، لمجرد ان كثرت أمواله ، وبرزت شخصيته ، وبهر الناس بكرمه ومنشئاته الخيرية وفوق ذلك فصيح لسانه العربى ، فكان ذاك سببا لقتله بأمر خشقدم .

١٤٦٧ م ــ ٨٧٢ : وفاة خشقدم :

وقع خشقدم فريسة المرض الذى استمر أربعين يوما ، مات فى نهايتها وكان موته يوم السبت العاشر من ربيع الأول من هذه السنة ، وكان عمره يوم وفاته خمسا وسبعين سنة ، ومدة سلطنته بالديار المصرية ست سنوات وخمسة اشهر وعشرين يوما .

وكانت مماليكه السلطانية التى تحمل اسمه يوم مات أربعة آلاف مملوك .

سلطنة الملك الظاهر بلباى المؤيدى :

وبويع فى نفس اليوم الذى مات فيه خشقدم أى يوم السبت العاشر من ربيع الأول اتابك العسكر أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى .

وقد أطلق عليه اسم بلباى المجنون ، وقد غلب عليه منذ ولى السلطنة داوداره الأمير خيربك ، فلم يكن بلباى يتصرف فى شىء من أمور المملكة الا بأمره واشارته ، فكان اذا سئل عن شىء يقول ايش كنت أنا قل له ــ أى قل لخيربك ــ فأطلقت عليه العامة السلطان « قل له » .

خلع الملك الظاهر بلباى :

فى يوم السبت السابع من جمادى الأول خلع السلطان بلباى بعد حكم لم يكمل شهرين وقبض عليه وأرسل الى سجن الاسكندرية .

سلطنة الملك الظاهر أبو سعيد :

وبويع فى ذات اليوم أتابك العسكر تمربغا الظاهرى ولقب بالملك الظاهر أبو سعيد ، ولكن ملكه لم يدم بدوره أكثر من شهرين . فقد اتفق خيربك مع امراء المماليك على توليته بدلا من السلطان ، وقبض على السلطان بالفعل فى يوم ٦ رجب من هذه السنة ، وجلس على سرير الملك ولقب نفسه بالملك الظاهر ــ ولكن لم يصبح الصباح

١٤٦٠ م ـ ٨٦٥ هـ : موت السلطان اينال :

فى يوم الخامس والعشرين من جمادى الأول ، مات الملك الأشرف اينال ، وكان عمره يوم مات احدى وثمانين سنة ، حكم منها ثمانى سنوات وشهرين وستة أيام . ثار عليه المماليك فيها سبع مرات .

وكان اينال قد عين ابنه اتابكا للعسكر ، فلما اشتد عليه المرض خلع نفسه وعهد بالسلطنة الى ابنه .

يقول ابن اياس عنه : كان طويل القامة اسمر اللون ، عربى الوجه ، ضعيف العوارض ، وكان يعرف بأينال الاجرود وكان ملكا هينا قليل الأذى ولولا جور مماليكه فى حق الناس لكان خير ملوك الجراكسة .

سلطنة الملك المؤيد احمد ابو الفتح العلائى الناصرى :

بويع بالسلطنة فى عهد ابيه كما قدمنا ، ولقب بالملك المؤيد وكان عمره يوم بويع بالسلطنة ثمان وثلاثين سنة .

وقد تولى الاتابكية العسكر خشقدم الناصرى .

خلع الملك المؤيد :

وعلى الرغم من أن السلطان الجديد ، كان كفؤا للسلطنة ، وكان كأبيه قليل الأذى محبا للناس .. فان المماليك الجلبان الذين استمرأوا الحصول على نفقة بيعة كلما ولى سلطان جديد كرروا فعلتهم عندما اجبروا الاتابك أينال على مخاصمة السلطان وتولى السلطنة ، فقد حرضوا خشقدم الاتابك على خلع السلطان، والتسلطن بدلا عنه .

سلطنة الملك الظاهر ابو سعيد :

وفى يوم السبت ١٧ رمضان تم خلع الملك المؤيد احمد ومبايعة الاتابكى خشقدم بمعرفة الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء . وكانت مدة الملك أحمد فى السلطنة لاتزيد على اربعة أشهر وثلاثة ايام .

اما خشقدم فقد لقب بالملك الظاهر .

وقد عرف خشقدم بالناصرى نسبة الى التاجر الذى جلبه الى مصر وهو الخواجة ناصر الدين . وكان الذى اشتراه هو الملك المؤيد شيخ ثم أعتقه وعينه جمدارا فى صكيا . وفى عهد الملك الظاهر جقمق أنعم عليه بأمارة عشرة وفى سنة ٨٥٠ هـ ترقى الى رتبة أمير مائة وتقدمة الف بمدينة دمشق . ثم حضر الى مصر فعين امير سلاح فى دولة اينال فاتابكيا فى عهد ابنه فسلطانا كما رأينا .

حتى كان الأمير قايتباى قد أقنع باقى الأمراء على أحقيته بالسلطنة ، واستولى على القلعة وقبض على الأمير خيربك وأفرج عن السلطان الأسبق تمربغا . وسمح له ان يسافر الى دمياط .

ولا يعد خيربك من سلاطين المماليك ، حيث لم يكمل حكمه الا بضع ساعات من الليل .

سلطنة الملك الأشرف قايتباى :

فى نفس اليوم الذى كان خيربك يخلع الظاهر تمربغا أى فى يوم الاثنين السادس من رجب ، بايع الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء الاتابكى قايتباى بالسلطنة ، رغم معارضته التى وصلت الى حد البكاء ، فأصر الأمراء والجند على توليته فانذرهم انه لن يدفع لهم ما اعتادوا من نفقات البيعة فأجابوه الى هذا الشرط .

وهكذا وصل قايتباى الذى سيقدر له أن يكون ألمع المماليك الجراكسة الى كرسى السلطنة .

وليس فى حياته قبل وصوله الى السلطنة ما يخالف حياة بقية السلاطين الجراكسة فقد جلبه الى مصر الخواجة محمود واشتراه منه الملك الأشرف برسباى بخمسين دينارا ، ثم راح يتدرج بعد ان أعتق هذا التدرج المألوف ... الى ان صار أتابكيا .

خروج شاه سوار على سلطة مصر :

واجه قايتباى بمجرد جلوسه على عرش مصر ، فتنة شنها الأمير شاه سوار احد امراء دولة التركمان التابعة لمصر ، فقد طرد أخاه الأمير التابع لمصر ، والتف حوله التركمان ، واستغل العثمانيون هذه الفتنة لأول مرة ، ليتدخلوا فى شئون دولة تابعة لمصر ، فأيدوا شاه سوار ، الذى اشتد ساعده بهذا التاييد فأعلن استغلاله وضرب السكة (النقود) باسمه ، ثم قويت مطامعه فشرع يهاجم اطراف الدولة المملوكية .

شاه سوار يهزم الحملة المصرية :

تعجل قايتباى الحوادث على ما يقول ابن اياس ، فأسرع بارسال حملة لاخضاع شاه سوار واعادة أميرها المخلوع ، ولكن شاه سوار تمكن من هزيمة هذه الحملة واسر قائدها الأتابكى قلقشير نفسه ، كما قتل كثيرا من الأمراء المقدمين فى هذه الحملة ، وكان طبيعيا ان يشجعه هذا النصر على مزيد من التهجم والعدوان فاستولى على مدينة عينتاب ، وشرع يهدد مدينة حلب نفسها .

١٤٧٣ م ــ ٨٧٧ هـ : الأمير يشبك الدوادار يهزم شاه سوار :

ظل شاه سوار يهزم التجريدات التى يبعث بها قايتباى اليه ، ويخلط الشدة

باللين ، فيتظاهر بالخضوع للسلطان أحيانا ، ليستأنف اعتداءاته من جديد .

وأخيرا رأى قايتباى أن يحسم هذه الفضيحة ، فألف جيشا كبيرا ووضع على رأسه أقـدر أمرائه وهو الأمير يشبك الدوادار ، وخوله سلطة مطلقـة حيثما حل وأينما سار .

فاستطاع الأمير يشبك أخيرا أن يهزم شاه سوار وان يسترد منه المدن التى استولى عليها وهى ادنه وطرسوس وعينتاب وهرب شاه سوار وأهله واحتمى بقلعة زمنوطو الحصينة . لكن رجاله بدأوا ينفرون عنه ، فأظهر الخضوع والاستعداد لأن يكون تابعا للسلطان كما كان ، وان يقدم كل عام ما اعتاد أن يقدمه من مال للسلطان وانتهى به الأمر الى أن يسلم نفسه فجىء به أسيرا الى القاهرة يوم الاثنين الثـامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة .

وكان يوم وصوله من الأيام التى ارتجت لها القاهرة . « فقد زينت احتفالا بهذا النصر زينة حافلة ، وبلغ أجر البيوت على الشارع الذى كان مقدرا أن يسـير فيه شـاه سوار ، اربع أشرفيات ، وأجرة كل دكان اشرفى ذهب ، وذلك للفرجة على شاه سوار ، الذى قتل العباد ويتم الأطفال ونهب الأموال » .

وشنق شاه سوار وأخوته على باب زويلة . .

وهكذا انتهت فتنة شاه سـوار التى كلفت الدولة ما كلفت من أموال ورجال وجهود طوال خمس سنوات .

حسن الطويل ملك العراقيين يهدد الدولة :

لم تكد متاعب قايتباى تنتهى من شاه سوار ، حتى جاء خطر جديد بمن يسمى فى كتب التاريخ العربية حسن بك الطويل ، وكان قد ملك العراقيين وراح يتودد الى قايتباى فى بادىء الأمر ، ولكن لما ان منيت جيوش مصر بالهزيمة ازاء شاه سوار فى بادىء الأمر ، بدأ يتنكر لمصر ويستخف بها ، فشرع يغـير على أطراف الدولة . ثم راح يحرض شاه بضاع الذى ولته مصر على دولة شاه سـوار أن ينحاز اليـه ويتبعه ، ولكن شاه بضاع أرسل ما وصله من رسائل الى قايتباى ، الذى انتدب الأمير يشبك الدوادار مرة أخرى لحرب حسن الطويل .

فغزا يشبك بجيشه عبر بلاد الشام حتى وصل الى نهر الفرات حيث تقـابل مع جيش حسن الطويل عند مدينة « البيرة » فانتصر عليه وتراجع حسن الطويل الى ما وراء نهر الفرات . وشرع يراسل دول الغرب وخاصة البندقية ، ليعاونوه فى حربه ضد سلطان مصر عن طريق الغارة البحرية على مصر ، ثم زاد على ذلك عرضه محاربة الدولة العثمانية فى ذات الوقت اذا ساعدته دول الغرب .

وعندما وصلت هذه الأنباء الى السلطان محمد الفاتح ارسل الى قايتباى يعرض استعداده للتعاون مع مصر للقضاء على حسن الطويل .

ولم تسفر جهود حسن الطويل مع دول الغرب الى اى نتيجة ، وادرك انه أصبح وحيدا فى الميدان ضد اكبر قوتين فى الشرق وهما مصر والدولة العثمانية فأرسل الى قايتباى يتقرب اليه ويعتذر عما وقع منه ، ويطلب منه العفو ... فأجابه قايتباى الى ذلك .

١٤٧٥ م — ٨٨٠ هـ : انشاء منطقة الأزبكية :

فى هذه السنة شرع الأتابكى الأمير ازبك فى تعمير المنطقة التى سميت فيما بعد بالأزبكية نسبة اليه ، وكان قد بدأ بتعمير مناخ (١) الجماله فى هذه المنطقة فلم تلبث أن حسنت فى عينيه « فبنى عدة قاعات جليلة ثم دورا ومقعدا ومبيتات وحواصل وغير ذلك . ثم احضر أبقارا ومحاريث ، وجرف الكيمان « التلال » التى كانت هناك ومهدها ثم حفر بها بركة الأزبكية .

واجرى اليها الماء من الخليج الناصرى ، ثم بنى حول البركة رصيفا .

وقيل انه صرف على ذلك اكثر من مائتى ألف دينار .

واقتدى بقية الامراء ووجهاء الناس بالأتابكى ، فانشاوا القصور الفاخرة والبيوت العامرة حول البركة ، وظلت عماراتها فى ازدياد ، بعد ان احبها الناس ورغبوا فى سكناها .

وقد انشا بها الأمير ازبك جامعا كبيرا ، وانشأ حول الجامع الربوع والحمامات والقياصرة والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع وهكذا أصبحت الأزبكية مدينة عامرة .

وكان عند فتح سد هذه البركة تجتمع عنده الامراء المقدمون بالقصر وتأتى الناس للفرجة افواجا ، ويكون لها يوم مشهود . وكان يصنع فى كل سنة وقدة هائلة لم يسمع بمثلها ، ويدفق بها فى تلك الليلة اموالا جمة بسبب الفرجة ويضرب حول البركة عدة خيام ويقع بها من القصف والفرجة اشياء غريبة وتكون ليلة حافلة (٢) .

---

(١) ظلت هذه المنطقة حتى الثلاثينات تدعى باسم شارع المناخ اشارة الى هذا التاريخ الى ان ابدل هذا الاسم باسم عبد الخالق ثروت . وليس هنا ما هو اقبح من العدوان على الاسماء التاريخية التى تذكر بصفحات من تاريخ البلاد الى اسماء اشخاص ، اذا أريد تكريمهم فيجب ان تطلق اسماؤهم على شوارع او منشئات جديدة .

(٢) اطلنا فى النقل من ابى اياس فى وصفه لمنطقة الازبكية ، وقد ظلت الازبكية تتمتع — بشهرتها — كمنطقة للسرور والمباهج والمتعة حتى مطلع القرن العشرين — اما اليوم فلم يبق منها الا هذه الاشلاء من حديقة الازبكية .

١٤٧٦ م ـ ٨٨١ هـ : تفشى الطاعون :

تفشى الطاعون فى هذه السنة بالقاهرة ، وهو الطاعون الثانى الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ، ووصل الطاعون الى ذروته فى شهر ذى القعدة ، فمات به عدد كبير من الأمراء وأعيان البلاد وكبرائها بما فى ذلك ابن الخليفة العباسى ، وبطريرك النصارى اليعاقبة . اما أفراد الشعب الفقراء ، فقد كان الطاعون يفرى بهم فريا الى أن توقف من تلقاء نفسه .

١٤٧٧ م ـ ٨٨٢ هـ : انشاء حصن قايتباى :

كان قايتباى كَكل ملك كبير عاكفا على الانشاء والتعمير ، وقد شملت عنايته أرجاء دولته كلها ، وحظيت منه الاسكندرية بنصيب كبير من الاهتمام بتحصينها ضد الغارات المحتملة ، فأقام حصنه المشهور الذى لا يزال باقيا حتى الآن كأثر خالد لهذا العهد من قوة المبانى وعظمة الانشاء ، وفن المعمار وذروته ـ وقد أقامها على أساس منارة الاسكندرية الشهيرة ـ التى كانت فى ذلك الوقت قد تخربت وقد أقام قايتباى فى الاسكندرية بمناسبة الانتهاء من بناء حصنه عدة أسابيع ، زار فيها المدن المحيطة بالاسكندرية وأصلح شئونها .

رحلة قايتباى الى الشام ووصوله الى نهر الفرات :

وفاجأ قايتباى أمراءه فى مصر والشام برحلة خاطفة الى الشام لم يصحب معه فيها سوى اربعين نفرا من الجند ، وذلك ليفتش أحوال القطر الشامى ، ووصل فى تجواله حتى مدينة حلب ، ثم وصل الى نهر الفرات وأقام عليه بضعة ايام . التجأ اليه خلالها محمد اغزلو ابن حسن الطويل ليعيش فى بلاطه .

وعاد قايتباى من هذه الرحلة الفذة فى تاريخ سلاطين المماليك بعد أن أمضى فيها أربعة اشهر .

١٤٧٨ م ـ ٨٨٣ هـ : وفاة حسن الطويل :

وفى شعبان من هذه السنة جاءت الأخبار بموت حسن الطويل ملك العرقيين وهكذا تخلص قايتباى من عدو طالما أرقه .

١٤٧٩ م ـ ٨٨٤ هـ : قايتباى يحج :

فى هذه السنة حج قايتباى ، وتصدق بألوف الدنانير على فقراء مكة واظهر

وصول جم أخو السلطان بايزيد الى مصر :

وفى شعبان من هذه السنة وصل الى القاهرة الأمير جم بن عثمان أخو السلطان العثمانى بايزيد لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباى ، وأحاطه بعناية كبيرة نكاية فى أخيه ، فكانت هذه الحركة سببا لافساد العلاقات بين مصر والدولة العثمانية .

قايتباى يجدد الحرم النبوى :

وفى رمضان من هذه السنة ، أصدر قايتباى أمره بتجديد بناء المسجد النبوى الشريف فى المدينة ، واعاد بناء القبة الشريفة والمآذن ، منفقا فى ذلك مائة ألف دينار بحيث أصبح المسجد النبوى تحفة معمارية .

١٤٨٢ م ـ ٨٨٧ هـ : هزيمة جم بن عثمان على يد أخيه :

لم يكن التجاء جم بن عثمان الى مصر ، الا ليستعين بقايتباى ضد أخيه ، وعلى الرغم من ان قايتباى بالغ فى كرمه فلم يدر فى خاطره أن يعاونه بجيش ضد أخيه ، فلما يئس جم من هذه الناحية فكر فى مغادرة مصر ، وعبثا حاول قايتباى أن يثنيه عن حرب أخيه بالحيلولة بينه وبين مغادرة مصر ، حتى لقد قيل أن الأمير يزبك قد اشتد على الأمير جم لمنعه ولكن الأمير اصر على مغادرة مصر ، فغادرها على كره من قايتباى على ما يقول ابن اياس ، فتوجه الى بلاد قرمان . فأرسل اليه بايزيد جيشا هزمه وأجبره على الفرار ، فركب سفينة فى البحر الأبيض ، فلم يلبث أن وقع فى أسر بعض الافرنج وامضى ما بقى بعد ذلك من حياته فى ذل الأسر ، والاتجار به بين شتى الدول ، لاستخدامه فى مناوراتها السياسية ضد الدولة العثمانية ..

١٤٨٤ م ـ ٨٨٩ هـ : اصطدام الجيوش العثمانية بالجيوش المصرية :

لم يغفر السلطان بايزيد لقايتباى ايواء جم ، وتمكينه بعد ذلك من اشهار السلاح فى وجهه ، ولم يصدق بايزيد الا أن قايتباى هو الذى سهل لجم عملية الخروج من مصر لمحاربته .

ولذلك فقد أنتهز فرصة تمرد على دولات أخى شاه سوار زعيم الشاه البيضاء على الدولة المصرية ، حتى امده بالتشجيع والسلاح والجند العثمانى ، فتصدى لهم نائب حلب ، فدارت عليه الدائرة وقتل ، ولكن الأمراء المصريين استأنفوا المعركة فانهزم عسكر على دولات وحلفاؤه من العثمانيين .

الخضوع والتواضع ، ثم قصد بعد الحج الى المدينة المنورة فتدفق فيها من الأموال مثل ما انفق فى مكة .

ولا تزال آثاره فى حرم مكة والمدينة باقية حتى الآن .

وعندما عاد الى مصر كتب الى الأمراء أن لا يخرج أحد الى ملاقاته ..

١٤٨٠ م ـ ٨٨٥ هـ : مصرع الأمير يشبك الدوادار :

ارسل قايتباى الأمير يشبك الدوادار على رأس جيش لاخماد فتنة فى الشام قام بها سيف امير آل فضل الذى قتل نائب حماة وأعان العصيان . ولم يكد الأمير يشبك يصل الى حماة وحلب على رأس جيشه حتى راح سيف يفر من أمامه ، حتى انتهى به المطاف خارج حدود الدولة فى مدينة الرها ، ولكن الأمير يشبك أبى الا أن يتبعه ، فعبر هو وجنوده نهر الفرات وضرب الحصار على مدينة الرها .

وكانت تابعة ليعقوب بن حسن الطويل . وحاول أميرها بانبدر أن يفاوض يشبك على أساس أن يسلمه سيف شريطة أن يرفع الحصار عن المدينة ، ولكن يشبك أصر على فرض ارادته بالعنف ، فانتهى الأمر الى أن دارت الدائرة عليه ، وفر عنه أكثر عساكره ، ووقع هو وعدة من أمراء جيشه أسرى .

« وقطع بانبدر رأسه » .

وكانت هذه لطمة شديدة أصابت قايتباى وقرر أن يخرج بنفسه آنفا لهجوم محتمل قد يقوم به يعقوب بن حسن الطويل بعد هذا الانتصار الذى لم يكن قد علم به .

ورأى أن يبعث بالأمر الى يزبك الأتابكى ، ليستقر فى حلب ويستعد للدفاع عنها ريثما يتم استعداده .

١٤٨١ م ـ ٨٨٦ هـ : وفاة السلطان محمد الفاتح :

فى الرابع من ربيع الأول من هذه السنة مات السلطان محمد الفاتح خان أعظم سلاطين آل عثمان لفتحه مدينة القسطنطينية وكان عمره يوم وفاته لا يتجاوز الثلاثة والخمسين سنة حكم منها واحدا وثلاثين سنة فتح خلالها اثنتى عشرة مملكة ومائتى مدينة وسلطنتين عظيمتين .

وولى السلطنة من بعده بايزيد الثانى .

وكانت هذه أول معركة مباشرة تدور بين جنود الدولة العثمانية والجنود المصرية والتى ظلت مستمرة حتى انتهت باحتلال العثمانيين لمصر كما سنرى .

وقد حاول قايتباى ، أن يصلح ما بينه وبين بايزيد ، فعمل على خطب وده ، وبعث اليه سفيرا عرف بالمهارة الدبلوماسية ، كما أرسل اليه تقليدا من الخليفة العباسى يوليه كل ما تحت يده من بلاد ، وما قد يفتحه بعد ذلك ولكن هذه المحاولة كانت بغير جدوى .

وكان لابد من اصطدام جديد حاسم يقع بين جيوش الدولتين .

١٤٨٦ م ـ ٨٩١ هـ : هزيمة العثمانيين امام الجيش المصرى :

وقع الاصطدام المتوقع فى شهر صفر من هذه السنة حيث التقى جيش مصرى ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصرى ، مع جيش عثمانى فى أقصى الشمال فهزم الجيش العثمانى هزيمة ساحقة ، حتى قيل أن عدة من قتل من العثمانيين يربو على أربعين ألفا ، وقبض على قائد الجيش العثمانى احمد بن هرسك ، واستولى على الأعلام العثمانية واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير ، وأقيمت الزينات وسارت المواكب التى استعرضت فيها الأعلام العثمانية وبعض رءوس القادة التى أرسلت على سبيل البشارة .

واخيرا سار الموكب الكبير عندما وصل الاتابكى يزبك ، وهو يقود أمامه الأسرى من أمراء الجيش العثمانى وسلاسل الحديد فى أعناقهم وعلى رأسهم قائد الجيش العام أحمد بن هرسك .

١٤٨٦ م ـ ٨٩٢ هـ : استغاثة امير غرناطة بقايتباى :

وبينما كان سلطان الاسلام قائما فى مصر يذود عن هذه الرقعة من العالم العربى والاسلامى ضد الافرنج ، وكان العثمانيون لا يزالون يقدمون حدود الاسلام فى أوربا نحو المغرب سنة بعد أخرى . وكانت آخر قلاع الاسلام فى الأندلس ممثلة فى دولة بنى الأحمر فى مدينة غرناطة فى النزع الأخير فأرسل أمير غرناطة استغاثة لقايتباى طالبا منه ان يمده بجنود لترفع الحصار عن غرناطة ، ولكن الشقة بين مصر والأندلس كانت جد بعيدة فحاول قايتباى أن يساعده باستعمال الضغط ضد مسيحى الشرق ، وبناء كنيسة القيامة . فهدد اذا لم يرفع ملك اشبليه الحصار عن غرناطة فسوف يهدم الكنيسة ، ولكن ذلك التهديد كان بغير اثر .

١٤٨٧ م ـ ٨٩٣ هـ : انتصار الأمير يزبك الثانى على العثمانيين :

لم يكن النصر الذى احرزته الجيوش المصرية على الجيوش العثمانيـة حاسـما ولذلك فهم لم يتوقفوا عن معاودة الهجوم على حدود الشام الشمالية واستولوا على بعض القلاع المصرية ، كما أرسل بايزيد أسطولا فى البحر الأبيض ليحول دون وصول الجيش المصرى الى شمال الشام .

ولكن قايتباى تمكن من أرسال جيش ضخم انفق على تجهيزه ألف الف دينار وهو ما لم نسمع بمثله من قبل وجعل على رأسه الأمير يزبك .

وفى الثامن من رمضان من هذه السـنة ، دارت معركة كبيرة بين عسـكر مصر وعسكر ابن عثمان ، وانتهت بانتصار الجيش المصرى على الجيش العثمانى والأسطول العثمانى انتصارا حاسـما .

ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد ، وزينت واقيمت بها احتفالات لم تشهد البلاد لها مثيلا من قبل طوال سبعة أيام .

وعندما وصل الأمير يزبك الى القاهرة ، سار فى موكب نصره عدد كبير من الجند العثمانيين الذين انحازوا الى جانب الجيش المصرى وآثروا أن يحضروا مختارين الى مصر ، فتألفت منهم كتيبة خاصـة بهم أطلق عليها منـذ ذلك الوقت الفـرقة « العثمانيـة » .

١٤٨٨ م ـ ٨٩٤ هـ : قايتباى يخلع نفسه من السلطة :

أرهقت هذه الحملات المستمرة وما كان قايتباى يتكبده فى سـبيل تجهيزها من مشـقات ومعاناة ، وضغط على الشعب لتحصيل الأموال اللازمة لها ، أعصـابه . وكان يضـاعف فى ارهاقـه فتن المماليـك التى لم تكن تنتهى ، فلا يكادون يتهيأون للخروج فى حملة الا ويطالبون بالمال ، وعنـدما يعودون منها منتصرين يطالبون بالمال الأكثر ، ويستغلون كل ما يعطى لهم ويهددون بالثورة والتمرد .

وكان قايتباى قد أصبح شيخا اثقلت السنون كاهله ، ولذلك فقد فاجأ الأمراء والمماليك بأن جمع الخليفة والقضاة والأمراء فى يوم السبت الرابع من ربيع الثانى من هذه السنة ثم قال لهم :

ان هؤلاء المماليك يرومون منى نفقة ، وقد نفد جميع ما كان فى الخزائن من المال على التجاريد ولم يبق فيها شىء من المال .

ثم أقسم بالله أنه أنفق على التجاريد من حين ولى السـلطنة الى ذلك الوقت سـبعة آلاف ألف دينار ومائة وخمسة وستين ألف دينار .

ثم التفت صوب الأمراء وقال لهم : اختاروا من تسلطنونه غيرى واشـهدوا أيها القضـاة أننى خلعت نفسى .

ولكن القضاة والأمراء رفضوا هذه الاسـتقالة ، وخشى المتمردون من عواقب تمردهم وانتهى الأمر بمصالحة السلطان ورضـاء المماليك ببعض المال الذى كانوا يطالبـون به .

وجدد الخليفة العباسى والقضاة الأربعة والأمراء مبايعـة السـلطان للاسـتقرار فى السـلطنة .

١٤٩٠ م ـ ٨٩٦ هـ : تفشى الطاعون فى مصر :

وتفشى الطاعون فى مصر فى هذه السنة ابتداء من شهر جمادى الأولى . وهو أول طاعون يقع فى مصر منذ عام ٨٨١ هـ أى انه انقضى على مصر سـتة عشر عاما نظيفة من الطاعون ، وهو الطاعون الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ، ويقول ابن اياس لتعليل سبب انتشار هـذه الطواعين انه كان قـد كثر بمصر : الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس ، وقد روى عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا الا اخذوا بالفناء » . .

١٤٩٢ م ـ ٨٩٨ هـ : عقد الصلح بين قايتباى وبايزيد :

استقر الرأى بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباى والسلطان بايزيد على عقد صلح بين الملكين على أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التى اسـتولى عليها الى مصر اشارة الى ردها الى ملكية مصر ، على أن يطلق قايتباى من عنده من الأسرى العثمانيين .

وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صـفحة جديدة من الود بين الدولتين .

اكتشاف امريكا :

وفى هذه السنة وصل كريستوف كولمبس الى ما تصور انه الهند وذلك عن طريق السير اليها بالاتجاه فى المحيط الأطلسى غربا مثبتا بذلك كروية الأرض ومهيئا السبيل لاكتشاف هاتين القارتين اللتين سيطلق عليهما فيما بعد اسم ملاح من ملاحيه وهو امرجو ونعنى بهما أمريكا الشمالية وامريكا الجنوبية ، أو ما أصبح يطلق عليه اسم العالم الجديد ، والذى لن يلبث أن ينقل مركز الثقل فى الحضارة والنشاط الانسانى من الشرق الأوسط الى غرب أوربا .

سقوط مدينة غرناطة فى الأندلس :

وفى يناير من هذه السنة الميلادية « ١٤٩٢ » صفيت آخر جيوب المقاومة الاسلامية فى مدينة غرناطة . فسقطت بايدى الأسبانيين وهكذا طويت صفحة الاسلام فى أسبانيا والتى استمرت ثمانمائة سنة .

وقد صحب سقوط غرناطة قتل كل من لم يتنصر من المسلمين أو يغادر البلاد نهائيا فجلت آخر بقايا المسلمين من شبه الجزيرة كما أجلى اليهود الذين عاشوا عصرهم الذهبى فى ظل الدولة الاسلامية حتى آن عدة من هاجر من أسبانيا بعد سقوط دولة الاسلام بها ١٦٠ الف يهودى .

١٤٩٥ م — ٩٠٠ هـ : استقالة الأمير يزبك من الأتابكية :

قام نزاع حاد بين مماليك السلطان الجلبان ، وبين الأمراء وعلى رأسهم الأمير يزبك وقد تعرضت حياة الأمير يزبك الخطر لولا حماية السلطان له .

فطلب الأمير يزبك من السلطان أعفاءه من الأتابكية والسماح له بأن يسافر الى مكة ليجاوز بها فأذن له قايتباى .

١٤٩٦ م — ٩٠١ هـ : الاعتداء على السلطان :

وكان طبيعيا ، وقد وصل طغيان المماليك الجلبان الى حد الاطاحة بأعظم من شهدت مصر من الأمراء ونعنى به الأمير يزبك ، أن يتطاولوا بعد ذلك على السلطان نفسه ولذلك فقد رموا مجلسه ببعض النشاب الذى كان يمكن ان يقتله لو لم يتصادف غيابه عن المجلس فى هذا اليوم . وقد ثقل هذا الحادث على السلطان ، فأمرضه واشتعلت الحمى فى جسده ..

موت السلطان قايتباى :

فى يوم الأحد سابع عشر من ذى القعدة توفى السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى وكان عمره يوم مات ستا وثمانين سنة ومدة سلطنته على مصر والشام والحرمين تسعا وعشرين سنة واربعة أشهر وواحد وعشرين يوما .

يقول ابن اياس : قد عاش عمره كله وهو فى عز وشهامة من حين كان خاصكيا الى ان صار سلطانا . وما نفى قط ولا سجن ولا تقيد وكان عليه سكينة ووقار . كفؤا للسلطنة وافر العقل سديد الرأى . عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأمور فى مكانها ، ولم يكن عجولا فى الأمور . وكان تقيا لم يشرب الخمر قط ، ولا الاشياء المخدرة ، وكان له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعة فى الكتب ، وله اذكار وأوراد جليلة

تتلى حتى الآن فى الجوامع ، وكان معظم العلماء عارفا بمقام الناس ، وكان تابعا لطريقة الصوفية فى التقشف .

عماراته ومنشئاته :

وقايتباى ثالث ثلاثة ، بالغوا فى البناء والانشاء والتعمير ، وأولهم الظاهر بيبرس وثانيهم قلاوون . وثالثهم قايتباى ، وقد لخص أمين باشا سامى هذه المنشآت على الوجه التالى :

وقد أنشأ فى حكمه من المبانى الفاخرة اشياء كثيرة منها مدرسة بثغر دمياط ومدرسة بثغر الاسكندرية والبرج العظيم الذى انشأه مكان الفنار القديم والبرج الذى بثغر رشيد وأما ما انشاه بمصر فهو الجامع الذى بالصحراء مكان تربته وجامع بالروضة وجامع برأس الكبش وجامع بباب الخزن عند الشيخ سلطان شاه والسبيل والمكتب اللذان بقرب تحت الربع وجامع لطيف خارج باب القرافة ، وجدد عماره قبة الامام الشافعى ، وأنشأ مدرسة بالخانقاه ، وانشا غير ذلك عدة زوايا واسبلة ومدارس وجوامع وصهاريج وربوع فى مواضع متفرقة وجعل لها أوقافا ، وجدد عمارة قناطر أبو النجا والقناطر التى بشبرامنت وانشأ هناك رصيفا وحصل بتمامه فى أيام النيل للمسافرين وجدد عمارة قنطرة باب البحر والميدان الكبير الذى بجوار البركة الناصرية ، وجدد مقام سيدى أحمد البدوى ، وانشأ عدة ربوع بالخشابين والجامع الأزهر وانشأ اماكن كثيرة حصل منها النفع العام للمسلمين .

ولم يذكر أمين سامى فى هذا التخليص ، ما أنشأه قايتباى فى مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق وغيرها من مدارس وجوامع وسبل .

رخص الأسعار فى سنة وفاته :

وكان السنة التى مات فيها قايتباى ارادت ان تخلد عصره الذهبى فقد بلغت الأسعار حدا من الرخص لم يسبق له مثيل ، فكان كل خمسة ارادب من القمح بدينار .

سلطنة الملك الناصر أبو السعادات :

بويع بالسلطنة يوم السبت سادس عشر من ذى القعدة ، بعد خلع ابيه قايتباى الذى كان يحتضر فى هذا اليوم ، ولقب بالناصر وكنى بأبى السعادات ، وكان عمره يوم ولى السلطنة اربع عشرة سنة وعدة أشهر .

ويقول ابن اياس : ولو كان قايتباى واعيا لما يجرى حوله لما قبل بسلطنته فلم يكن هذا قصده .

وفى اليوم التالى لتولى الناصر ابو السعادات السلطنة توفى قايتباى ودفن يوم الاثنين فى احتفال مهيب .

وتعين الأمير قنصوه أتابكا للعسكر .

١٤٩٧ م ــ ٩٠٢ هـ : خلع الناصر أبي السعادات :

قام الأتابكي قنصوه بالفتنة المعتادة ليخلع السلطان الصبي . ويجلس هو على أريكة الملك . فجمع الخليفة والقضاه الأربعة في يوم الأربعاء ١٨ جمادى الأولى على باب السلسلة وطلب منهم خلع السلطان الناصر أبو السعادات . ومبايعته على السلطنة فأجابوه الى ما طلب وبويع قنصوه بالسلطنة ونقلب بالأشرف أبي النصر .

عودة السلطان الأشرف أبو السعادات :

ولكن مماليك السلطان المقيمين في القلعة ، تعصبوا للسلطان وحاربوا عنه ، وجرت المعارك حامية الوطيس : انتهت بهزيمة قنصوه وفر هاربا نحو الشام .

وفي يوم السبت اول جمادى الثاني طلع الخليفة الى القلعة وفي معيته القضاة الأربعة ، وأعادوا بيعة السلطان وبلوغه رشده وحقه الكامل في التصرف في كل شئون المملكة .

وطالب المماليك بتغيير لقب السلطان من الناصر الى الأشرف .

ولم تلبث الأخبار أن جاءت من الشام ، بانتصار الأمير اقبردى الداودار على قنصوه ووصلت راسه المقطوعة ورءوس من معه من الأمراء وطيف بها في شوارع القاهرة .

سوء سلوك السلطان الأشرف :

وكان اثر هذا الانتصار على السلطان الأشرف سيئا اذ أنه انكب على شهواته وملذاته ، حتى وصل الأمر به الى أن امتنع عن مقابلة الخليفة والقضاة والأمراء ، عندما طلعوا الى القلعة ليهنئوه بعيد الفطر وذلك لانهماكه في ألعاب الطيش .

وأصبح من الاعيبه التي فتن بها ، أن تعلم كيف يعدم بيديه بعض المنكودين من المحابيس ، وكيف يقطع أيديهم وآذانهم والسنتهم . وكان لذلك الاثر السيىء في نفوس أمراء المماليك ، فأعلن أقبردى الداودار عدم رضائه عن تصرفات السلطان وآثر ان تكون السلطنة بيده ، فقام صراع بين حزب السلطان من المماليك وبين اقبردى الداودار ، وانتهى الصراع بغلبة السلطان وهزيمة اقبردى الداودار ونهب دوره ودور من سانده من الأمراء ولكن اقبردى نجح في الهرب الى الشام .

١٤٩٨ م ــ ٩٠٣ هـ : عودة الأمير يزبك للأتابكية :

ورأى أمراء المماليك أن يعيدوا الى الأتابكية الأمير يزبك الذى كان مقيما في مكة عساه أن يتمكن من اصلاح الأحوال .

فوصل الى مصر في ربيع الأول من هذه السنة .

البرتغاليون يكتشفون طريق رأس الرجاء الصالح :

فى رمضان من هذه السنة الموافق شهر ابريل ، توصل فاسكودى جاما على رأس مركب برتغالى لأول مرة من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، دائرا بذلك حول افريقيا وواصلا الى الهند عن طريق بحرى متصل من غرب أوربا اليها ، مبتدئا بذلك ما يعتبر انقلابا فى التجارة العالمية ، والتفاف الصليبيين حول العالم الاسلامى لطعنه من الخلف ، ولم يلبث الشرق الاسلامى وخاصة مصر أن أحس بآثار هـذا الانقلاب فى طرق التجارة .

١٤٩٩ م ـ ٩٠٤ هـ : قتل السلطان الأشرف أبى السعادات :

تزايدت شرور السلطان الأشرف . وبدأ يصدر مراسيم جنونية اشبه بما كان يصدره الحاكم بأمر الله وتفشى الطاعون فى مصر ، وهكذا تحالفت شرور السلطان وفتن المماليك وضراوة الوباء على الشـعب .

فقرر بعض المماليك ان يتخلصوا من السلطان فكمنوا له يوم الأربعاء خامس عشر من ربيع الأول وكان مقيما فى البر الغربى للنيل عند الطالبية ، يلهو ويعربد ويسكر بين جوقات المغنين ، واصحاب ملاعيب خيـال الظل ، وظفر به المتآمرون وقتلوه شر قتلة .

وكان سنه يوم قتل سبعة عشر عاما ، حكم فيها سنتين وثلاثة اشهر وتسعة عشر يوما وكانت أيامه كلها فتن وشرور وحروب مسـتمرة .

سـلطنة الملك الظاهر أبو سعيد قنصوه :

هو الملك الظاهر أبو سعيد قنصوه بن قنصوه الأشرفى وهو جركسى الأصـل . وقد اعتقه السلطان قايتباى عندما اكتشف انه شقيق لجاريته أم ولده « محمد الذى اصـبح سـلطانا » .

وفى عهد السلطان محمد جعله خازندارا كبيرا واصبح ينادى بخال السلطان فلما ان قتل السلطان تشاور الأمراء فيمن يولونه السلطنة ، فعرضوها على الأمير يزبك ، فابى بشدة بل وحلف بالطلاق ثلاثا أن لا يلى السلطنة ، وطلب أن يعود الى مكة . فتحول الأمراء عنه الى قنصوه خال السلطان ، وتمت البيعة له فى ذات اليوم الذى قتل فيه السلطان السابق أى يوم الأربعاء الخامس عشر من ربيع الأول ولقب بالملك الظاهر أبى سعيد .

وفاة الأمير يزبك :

وفى يوم الأربعاء عشرين رمضان ، مات الأتابك الأمير يزبك بن ططخ عن خمس وثمانين سنة ، ولعل تاريخ المماليك لم يرزق بشخصية مثل شخصية الأمير يزبك

الذى تعفف عن السلطنة مع انه كان كفؤا لها . بل لعله لو ولى السلطنة لكان أعظم من عرفهم تاريخ المماليك سواء فى دنيا الحرب والقتال ، أو دنيا الانشاء والتعمير ، وليس أدل على أن شخصية الرجل العظيم تبقى أبدا ، من أنه ظل طوال قرابة أربعة قرون ونصف واسمه لا يفتأ يتردد على الألسنة ، وهى تتحدث قديما عن بركة الأزبكية ثم عن حى الأزبكية ، وحديقة الأزبكية . وهى تتحدث اليوم عن سور الأزبكية حيث تعرض الكتب والمعارف .

١٥٠٠ م — ٩٠٥ هـ : خلع السلطان الظاهر :

تمرد الأمير طومان باى الداودار على السلطان ، وظاهره جان بلاط الأتابكى فتمت لهم الغلبة على السلطان الذى اختفى نجاة بنفسه من الموت ، فخلع من السلطنة فى آخر ذى القعدة بعد أن حكم سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما كانت خير فى مجموعها بالنسبة للحكم من سبقه .

سلطنة الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط :

فى يوم الاثنين الثانى من ذى الحجة بويع بالسلطنة الأتابكى جان بلاط وأصله كبقية السلاطين مملوكا شركسيا ، اشتراه أحد الأمراء وقدمه لقايتباى فأعتقه وصار يتدرج فى المناصب حتى أصبح أتابكا .

وكانت مبايعته بسعى طومان باى على كره من الأمراء والعسكر لجفوته وغلاظته .

١٥٠١ م — ٩٠٦ هـ : خلع السلطان جان بلاط وتولية طوماى باى :

ولم تمض بضعة شهور على تولية جان بلاط ، حتى كان طومان باى يحقق ما خططه لنفسه من تولية السلطة فانتهز فرصة خروجه على رأس جيش الى بلاد الشام للقضاء على فتنة أثارها نائب الشام قصرده واتفق مع هذا الأخير ان يتولى طومان باى السلطنة ، فنودى به سلطانا على مصر والشام بدون مبايعة من الخليفة والقضاة الأربعة ولقب بالملك العادل أبى النصر ، وعين قصرده نائب الشام أتابكيا ، وقنصوه الغورى داودارا كبيرا واستادارا وزيرا ، ثم زحف على رأس الجيش الذى خرج به من مصر وقد تضاعفت قوته بمن انضم اليه من أمراء وأجناد الشام ، فدخل القاهرة فى يوم السبت ١١ جمادى الآخرة ، وحاصر القلعة ، وبعد معارك بينه وبين أنصار جان بلاط ملك القلعة وقبض على جان بلاط .

وذلك فى يوم السبت الثامن عشر من جمادى الثانى ، وتم بذلك خلع جان بلاط بعد أن حكم ستة أشهر وثمانية عشر يوما .

سلطنة الملك العادل طومان باى :

عندما تخلص طومان باى من جان بلاط بالقبض عليه واعتقاله استدعى الخليفة

العباسي أبو الصبر المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة فقرروا بطريقة شرعية خلع الأشرف جان بلاط ومبايعة طومان باي على السلطنة .

وعين طومان باي حليفه قصروه نائب الشام أتابكيا .

قتل قصروه :

على انه لم تمض بضعة أيام على تولى طومان باي السلطنة وصديقه وحليفه الأتابكية وبينما جلس الاثنان للمسامرة في القلعة اذ قال طومان باي لقصروه :

قلبي خايف منك يا أمير كثير . وبعد ان صلى معه العشاء أصدر امره بالقبض عليه . وبعد أيام قليلة كان قد تخلص منه بالخنق ، فنفرت القلوب من طومان باي لهذه الفعلة .

ولم يلبث أن تابعها باصدار أمره بقتل السلطان المخلوع جان بلاط والذى كان قد سيق الى سجن الاسكندرية فقتل خنقا .

خلع السلطان العادل طومان باي :

وأدت هذه الأعمال الغادرة ، وان كانت ليست جديدة على نظام الحكم المملوكي الى تآلب الأمراء على طومان باي ، فاعلنوا عليه الحرب ، وانفض من حوله أمراؤه واجناده .

فنزل من القلعة في ليلة عيد الفطر ، واختفى عن الانظار وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وعشرة أيام .

١٥٠١ م ــ ٩٠٦ هـ : سلطنة الملك الأشرف قنصوه الغوري :

في أول شوال من هذه السنة بويع بالسلطنة الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري . بعد أن تردد وتمنع ، حتى لقد سيق اليها سوقا . ولأول مرة في تاريخ المماليك راح الأمراء يتهربون من هذا المنصب . الذى انتهى بأصحابه في السنوات الأخيرة الى الذبح أو الخنق وقد استقر رأى الأمراء على تولية الغوري باعتباره لين العريكة سهل الارادة في اى وقت عندما يستقرون على رأى . وسرعان ما سوف تظهر الحوادث خطأ تقديرهم ، فقد اثبت الغوري انه أحد سلاطين المماليك العظام ؛ وان جاءت نهاية الدولة على يده .

ولا جديد في تاريخ الغوري يختلف عن اى ممن سبقه من السلاطين ، فهو أحد المماليك الجراكسة الذين جلبوا من بلاد الجركس ليباعوا في مصر فاشتراه السلطان قايتباي واسكنه كبقية زملائه في الطباق بالقلعة ، ثم لما انس منه نجابة وتفوقا ، أعتقه ، ومنحه المنحة المألوفة في مثل هذه الأحوال من مال وقماش وخيل ، وجعله من جملة مماليكه الجمدارية الذين يعاونونه على لبس ملابسه ، ثم رقاه الى المماليك

الخاصكية ، ثم جعله كاشفا للوجه القبلى ، فأمير عشرة ، وفى زمن السلطان محمد بن قايتباى رقى الى أمير مائة ومقدم ألف . وكان ممن سافروا فى صحبة الأمير طومان باى لما خرج لمحاربة قصروه نائب الشام . ..

ولما سلطن طومان باى ، عينه فى المناصب التى كان يحتلها وهى الداودارية الكبرى والوزارة والاستدارية .

وكان الذى تحمس لتعيينه بعد اختفاء العادل طومان باى هو أمير السلاح قيت الرجبى والأمير مصرباى . فدعى الخليفة المستمسك بالله يعقوب . والقضاة الأربعة فخلعوا العادل وأبرموا البيعة لقنصوه الغورى فى يوم الاثنين أول شوال ولقبوه بالملك الأشرف ، وكان عمره يوم تسلطن قد جاوز الستين عاما وتعين قيت الرجبى أتابكا للعسكر .

مصرع طومان باى :

وكان أول شاغل للغورى بعد توليه السلطة ، هو العثور على طومان باى المختفى والتخلص منه ، وقد تحقق له ذلك فقبض على طومان باى وأعدم .

١٥٠٢ م – ٩٠٧ هـ : فتنة المماليك بسبب نفقة البيعة :

واجه الغورى منذ تقلد زمام السلطة ، مشكلة المماليك وميلهم المستمر للفتنة ، خاصة بعد أن عجز عن أن يدفع ما اعتادوا أن يتقاضوه لدى ولاية أى سلطان جديد مما كان يطلق عليه اسم نفقة البيعة ، فقد اعتذر لهم الغورى فى الأيام الأولى ، واعتذر لهم بخلو الخزانة من الأموال ، واستمهلهم بعض الوقت ، فلما مضت الشهور دون أن يحصلوا عليها ، نزلوا الى الشوارع وهاجموا البيوت والمتاجر ونهبوا ما فيها ولم تتوقف الفتنة الا بعد أن وعدهم الغورى من جديد وعدا محددا أن يفى لهم بالنفقة فى وقت قريب ..

فرض ضريبة ظالمة على التجار والملاك :

واتجه رأى الغورى وعصبة من المماليك ان يستولى على أوقاف الجوامع والمدارس لتعينه على أداء هذه النفقة ولكن قضاة الشريعة ، وقفوا فى وجهه وقفة حازمة ، موضحين له أن الاستيلاء على الأوقاف اهدار للشريعة لا يمكن أن يفتوا به ، فغضب الغورى على القضاة ، ولكن ذلك لم يجعلهم يغيروا موقفهم .

واخيرا رأى عدم المساس بأعيان الوقف على أن يؤخذ منها ربع سنة كاملة معجلا ، وعلى أن يؤخذ من أملاك القاهرة وغيرها أجرة عشرة شهور كاملة معجلة .

واذا كان المماليك الجلبان يضغطون فى المطالبة بنفقتهم ، والسلطان يضغط على الأمراء لتحصيل ما تم الاتفاق عليه ، فقد لجأ الأمراء الى الشدة والتعسف لتحصيل المبلغ المطلوب فاستاءت جماهير الشعب لهذا الاجحاف وتجلى ذلك فى أن بعض

الجوامع اغلقت أبوابها ، وتوقف الناس عن صلاة الجمعة واخيرا انتهى الأمر فى الثامن من شهر المحرم من هذه السنة الى صورة من صور الانفجار الشعبى ، اذ رجعت الجماهير الأتابكى قيت الرجبى أثناء سيره فى موكبه فأصيب هو ومن معه من الأمراء . ولم نهدأ الخواطر الا بعد أن خفض المطلوب من عشرة أشهر الى سبعة اشهر فقط .

خروج الجازانى ابن أمير مكة عن الطاعة :

خرج الجازانى ابن أمير مكة عن طاعة سلطان مصر ، وشرع يهاجم الحجاج ويعتدى على الرجال والنساء . وينهب ما ينهب ويقتل ما يقتل ، ولم يلبث أن اشتد ساعده بمن انضم اليه من قبائل الأعراب ، ثم يحيى بن سبع أمير ينبع ، فهجم على مدينة مكة واستولى عليها ونهب سكانها .

فأرسل الغورى فى هذه السنة حملة من ستمائة مقاتل وعلى رأسهم الأتابكى قيت الرجبى ، فاستطاعوا أن يهزموا الجازانى الذى فر هاربا ، ثم لم يلبث أن سقط فى الأسر فقتل وقطعت رأسه وأرسلت الى مصر ، ولكن حليفه يحيى بن سبع ظل على تمرده ، واستمر يقطع على الحجاج طريقهم وينهب قوافلهم .

١٥٠٥ م — ٩١٠ هـ انشاء البستان العظيم وقبة الغورى :

منذ ولى الغورى السلطنة ، وعلى الرغم من المشاغل والفتن التى جوبه بها منذ يومه الأول ، فقد أبدى اهتماما شديدا بالبناء والتعمير ، فكان أول ما قام به من أعمال فى هذا الصدد أن أمر باعادة تخطيط ميدان القلعة فارتفع بناء الأسوار المحيطة به . وغطى أرضه بطمى كثيف ، وانشأ فى الجهة الغربية من الميدان قصرا وبحيرة جلبت اليها المياه بواسطة السواقى والقناطر المعلقة من النيل وانشأ بستانا عظيما حمل اليه من الشام أنواعا عدة من الزهور والرياحين ومختلف الثمار .

ولما كانت عادة السلاطين أن يستعملوا لجلوسهم اذا جلسوا مجلس القضاة دكة خشبية فقد رفع هذه الدكة الخشبية واتخذ لجلوسه مقعدا مبنيا فلم تتفاءل الناس بهذه الخطوة على ما يقول ابن اياس .

وصارت مواكب الغورى ومجالسه واحتفالاته واستقبالاته تتم فى هذا الميدان .

ونقل اهتمامه بعد ذلك الى قصور القلعة ومبانيها ، فجود بناءها وزخرف قاعته السرية وقاعة العواميد ، ولجأ فى سبيل تزين هذه القاعات أجمل زينه الى اغتصاب ما كان فى بيوت الأمراء من رخام تفنن الصناع فى نقشه .

وكان قد أصدر أمره ببناء مدرسة وجامع بالشرابشية ثم أنشأ لنفسه مدفنا وقد كان فوقه قبة ، لا تزال قائمة حتى اليوم تحمل اسمه باعتبارها احد معالم القاهرة ، بل لا يزال شارع الغورية المحيط بهذه القبة يذكر بالأثر الكبير الذى احدثه باقامة هذه المنشآت .

وفى هذه السنة افتتح الغورى مدرسته وجامعه وقبته . بعد أن حمل الى المدرسة المصحف العثمانى وبعض الآثار النبوية التى كانت موزعة على بعض المساجد .

تفشى الطاعون واظهار السلطان للعدل :

وفى شوال من هذه السنة ، ازداد تفشى الطاعون الذى كان قد بدأ من شهر رمضان ، وبلغت ضحاياه أربعة آلاف جنازة فى اليوم الواحد ، فاظهر السلطان الغورى ميلا الى العدل والورع تقربا الى الله ليرفع الوباء فنادى بابطال بعض الضرائب ، ودعا الناس الى الاقلاع عن المعاصى والذنوب .

يقول ابن اياس :

ولكن الطاعون لم يكد يرتفع حتى أعاد الغورى الضرائب والمكوس بأسوأ مما كانت عليه .

١٥٠٥ م — ٩١١ هـ : الغورى يدفع المخاطر عن دولته :

كان الغورى بطبيعته ممن يميلون الى السلام ، ويفضلون حياة البناء والانشاء والتعمير ، ولكنه فى ذلك الوقت كان يقدر واجبه فى الذود عن حياض الدولة ، فتراه فى هذه السنة يجهز تجاريد لجهات مختلفة من الدولة .

احداها للحجاز للقضاء على فتنة يحيى بن سبع التى كانت لا تزال مستمرة — تهدد الحجاج ، وحملة ثانية الى بلاد الشام . للقضاء على فتنة أهاجها العرب :

على أن الحملة الثالثة هى التى تكشف عن بصيرة الغورى وادراكه الخطر الجديد الزاحف على دولته والعالم الاسلامى ، وهو خطر البرتغاليين الذين وصلت سفنهم الى ساحل مليبار الهندى ، وبدأوا يهددون التجارة الهندية والشرقية المارة عبر مصر ولذلك فقد جهز السلطان الغورى أسطولا بحريا لطرد المراكب البرتغالية من مياه المحيط الهندى والخليج العربى وكان بصحبة الاسطول المصرى عدد كبير من البنائين والنجارين والصناع من مختلف الحرف ، ليقوموا بانشاء التحصينات اللازمة فى الأماكن والموانى التى أصبحت مهددة ، وجعل على رأس هذه الحملة الأمير حسين الكردى وقد قصدت هذه الحملة مدينة جدة أول ما قصدت ، وشرع الأمير حسين فى تحصينها ، وبناء سور يحيط بها .

توقف المحمل عن السفر الى الحجاز :

وفى هذه السنة على ما يقول ابن اياس ، أصدر السلطان أمره بعدم سفر المحمل على جارى العادة ، وعدم سفر الحجاج الى بيت الله الحرام ، نظرا لفتنة يحيى بن سبع الذى كان يقطع الطريق ويقتل الحجاج وينهبهم .

وقد كان منع المحمل من السفر وايقاف الحج حدثا لم تشهد البلاد مثيلا له من قبل في كل تاريخ المماليك ، الذى كان يعتبر سفر المحمل كل عام وما يصحب ذلك من احتفالات عند الذهاب وعند الاياب من أهم معالم دولتها ، وآية عزها ، ومظهر مجد سلطانها .

على أن الغورى قرر وضع حد لفتنة يحيى بن سبع . فأرسل جيشا استطاع أن يهزم المتمردين ، وأن يبدد شملهم ، ويفتك بالأكثرية منهم ، بحيث استتب الأمن من جديد واعيد فتح طريق الحج ، وان كان يحيى بن سبع نفسه ظل حيا .

وفاة العلامة جلال الدين السيوطي :

وفى يوم الخميس التاسع من جمادى الاولى خبا نور الحافظ العلامة جلال الدين السيوطي خاتمة العلماء الأفذاذ الذين أنجبتهم مصر فى هذه الحقبة من تاريخها .

يقول عنه ابن اياس :

وكان عالما فاضلا بارعا فى الحديث الشريف وغير ذلك من العلوم ، وكان كثير الاطلاع نادرة فى عصره بقية السلف ، وعمدة الخلف ، وبلغت عدة مصنفاته نحوا من ستمائة تاليف ، وكان فى درجة المجتهدين فى العلم والعمل ، وكان عمره يوم وفاته اثنتين وستين سنة واشهر .

١٥٠٧ م - ٩١٣ هـ : اسماعيل الصفوى يهدد الدولة المصرية :

تفاقم في هذه السنة هذا الخطر الجديد الوافد من بلاد فارس ، فقد كان من يدعى الشاه اسماعيل الصفوى قد نجح أخيرا فى تأسيس دولة بلاد فارس وهى الدولة الصفوية نسبة الى جده صفى الدين .

وكان الشاة اسماعيل شيعيا متطرفا سيطر على بلاد فارس ثم بدأت اطماعه تتسع ففكر فى الاغارة على الدولتين السنيتين المجاورتين لفارس ، وهما الدولة المصرية المملوكة ، والدولة العثمانية فى آسيا الصغرى .

وفى هذه السنة زحفت جيوش الشاه اسماعيل على مدينة ملطية احدى النيابات المصرية ، فلم تكد الأخبار تصل الى الغورى حتى أسرع الى اعداد جيش لمواجهة الصفوى ، ولكن على دولات أمير التركمان التابع لمصر ، تصدى لجيش اسماعيل الصفوى فهزمه هزيمة منكرة وارتد جيشه مدحورا ... وأرسل على دولات بعض رءوس القتلى الى القاهرة مع انباء النصر .

ولم يلبث اسماعيل الصفوى بعد قليل أن بعث الى مصر بقاض من لدنه يعتذر عما وقع من جنوده ويؤكد للسلطان الغورى أن ما حدث كان بغير علمه ، فتقبل الغورى هذا الاعتذار واكرم وفادة سفير الصفوى وأعاده الى بلاده معززا مكرما .

١٥٠٨ م — ٩١٤ هـ : بناء مدينة العقبة :

اصدر السلطان أمره فى هذه السنة الى خايربك المعمار ان يتوجه الى مدينة العقبة « عقبة ايلة » وان يصطحب معه جماعة من البنائين والمهندسين، لبناء مستودع للماء وفندق عظيم لنزول الحجاج وراحتهم ، وان ينشىء مخازن لايداع الودائع ورصيفا لرسو السفن ، وان يقيم بروجا وقلاعا للدفاع عن المدينة ، كما أمر باصلاح طريق العقبة الذاهب الى المدينة واقامة بروج وحفر الآبار على طول الطريق ليشرب منها الحجاج .

انتصار حسين الكردى على البرتغاليين :

وفى هذه السنة وقعت اول واقعــة بحرية بين اسطول مصر واسطول البرتغال فى المحيط الهندى ، فكان النصر حليف اسطول مصر ، وغنم حسين الكردى من البرتغاليين غنائم كثيرة ، وتزينت القاهرة لأنباء هــذا النصر ، وظلت الموسيقات « الكوسات » تدق ثلاثة ايام متوالية .

وبعث الامير حسين الكردى يطلب عسكرا جديدا وسفنا حربية ليواصل حربه ضد البرتغاليين ، فلم يتأخر الغورى عن ارسال المدد المذكور . واستعرض فى النيل ست من السفن الحربية التى كان يطلق عليها اسم « اغرته » ليبعث بها الى الكردى فكان يوم عرضها كما يقول ابن اياس من الأيام التى ارتجت لها القاهرة .

١٥٠٩ م — ٩١٥ هـ : هزيمة الأسطول المصرى :

على ان البرتغاليين فيما يبدو استفادوا من الدرس الذى تلقوه فى هزيمتهم الأولى ، فعــادوا بأسطول اضخم وأكبر تحت قــادة من يدعى فرنسكو والميــدا وتربصوا بالأسطول المصرى فهزموه هزيمة منكرة ، وقتلوا الكثير ممن كان فى مراكب الاسطول من جند وبحارة وغنموا غالبية السفن ولكن الامير حسين الكردى استطاع أن ينجو بنفسه على احدى السفن .

ويمكن ان تعتبر هذه المعركة البحرية احدى المعارك الفاصلة بين الشرق والغرب فى بحارة الشرق . فمنذ هذا التاريخ بدات غلبة البرتغاليين فالانجليز والفرنسيين والهولانديين من بعدهم على بحار الشرق ثم الشرق نفسه .

ابن اياس المؤرخ والغورى :

ويحدثنا ابن اياس المؤرخ المعاصر للغورى بواقعة جرت بينه وبين الغورى فى هذه السنة ، حيث كان قد حرمه من أقطاعه ، بنــاء على بعض الدسائس والوشايات ، فوقف ابن اياس فى طريق الغورى وقدم له عريضة تظلم فيها مما حل به فأنصفه الغورى ورد له اقطاعه . وجبر بخاطره حتى نظم فى مدحه قصيدة طويلة اثبتها فى تاريخه ، كسائر القصائد التى نظمها فى سائر المناسبات فى عصر الغورى .

روعة بستان الغورى :

ويصف لنا ابن اياس فى حوادث هـذه السنة مدى ما وصـل اليـه ازدهار بستان الغورى الذى انشأه فى ميدان القلعة ، مما نقله بنصـه اذ يصـور لنا جانبا من حياة الغورى .

وفى هذه السنة اينعت الأشجار التى غرسها السلطان بالميدان ، واخرجت الوانا من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسن وغير ذلك من الأزهار العربية ولقد عاينت به وردا أبيض زكى الرائحة وهو غير أنواع الورد التى بمصر وقد نقل من الشام .

وكان السلطان له دكة مطعمة بالعاج والأبنوس ، ويفرش فوقها مقعدا مخملا ويجلس عليه ، تظله فروع الياسمين ، وتقف حوله المماليك والحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه . ومعلق فى الأشجار اقفاص بها طيور مسموع ما بين عزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور مسموع ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وجحل وغير ذلك من الطيور المختلفة ، وتارة يجلس على البحيرة التى طولها اربعون ذراعا وتمتلىء كل يوم من ماء النيل بسواقى نقالة من المجراة تجرى ليلا ونهارا فيجلس على سرير هناك فى غالب أيام الجمعة ولا يدخل عليه أحد من الأمراء الا من يختاره .

١٥١٠ م ــ ٩١٦ هـ : فتنة المماليك الجلبان :

عاد المماليك الجلبان المقيمون فى القلعة الى تمردهم فى مطلع هذا العام ، ورشقوا المارين فى الطرقات بالحجارة وطالبوا السلطان بأن يدفع لكل واحد منهم مائة دينار .

وامتنع السلطان عن اجابتهم الى مطلبهم وهدد بخلع نفسه ، ولكن هذا التهديد احدث اثرا عكسيا ، فقد زادت ثورة المماليك الجلبان ، ونزلوا من الطباق فى القلعة الى الشوارع ونهبوا الدكاكين الكائنة فى سوق جامع ابن طولون ، ثم دكاكين الصليبية، ثم تحت الربع حتى كادت مصر تخرب على مايقول ابن اياس فى هذا اليوم .

واستمر الحال على هذه الصفة من النهب والسلب ، وقد ملت الجماهير فى اليوم التالى . وفى اليوم الثالث من أيام هذه الفتنة قصد المماليك الى دولات أمير السلاح وارادوا أن يسلطنوه بدلا من الغورى ، ولكنه فر منهم ولجأ الى السلطان فى القلعة .

ثم بلغ المماليك ان الأمراء قد تجمعوا لينقضوا عليهم ويمسكوا بهم . فدب الفشل الى صفوفهم ، وتسللوا عائدين الى الطباق فى القلعة .

وقد قدر مانهب من الدكاكين بخمسمائة وتسعين دكانا وقدرت قيمة مانهب بعشرين ألف دينار ذهب على أصحابها هدرا دون أن يجدوا لهم منصفا .

ملوك الهند يستغيثون بالغورى :

وفى صفر من هذه السنة تلقى الغورى رسالة من ملوك الهند يحذرونه من اطماع البرتغال فى امتلاك سواطىء الهند بعد أن احتلوا منطقة جوا وجعلوها قاعة لهم (١). ويطلبون منه المبادرة بارسال جيش واسطول لردع البرتغاليين ، ولكن الأحداث كانت تتوالى فى سرعة حالت بين الغورى وبين عمل أى شىء لانقاذ هذا الخطر .

اسماعيل الصفوى يتآمر مع الفرنج ضد مصر :

وكان اخطر ما توافد على الغورى من اخبار . ماذكره نائب مدينة البيرة (على الفرات) من انه قبض على جماعة من طرف اسماعيل الصفوى شاه العجم ، ومعهم كتب الى بعض ملوك الفرنج يطلب منهم فيها ان يتحالفوا معه على سلطان مصر . فيتجهون لغزوه بحرا فى الوقت الذى يشن عليه هجوما من البر ، وقد ارسل النائب المقبوض عليهم الى الغورى .

وكان قد سبق ذلك غارة بعض السفن على سفن مصرية ونهب ماكان فيها واسر رجالها الامر الذى جعل الغورى يأمر باغلاق كنيسة القيامة كرد على هذه الغارة ، فلما أن وصل الى سمعه هذه المؤامرة الجديدة غضب الغورى لذلك اشد الغضب واصدر امره القبض على قناصل الأفرنج فى الاسكندرية وطرابلس وهددهم بالشنق واسلمهم للتحقيق والاعتقال ... وقد حاول قنصل فرنسا ان يترضى الغورى بأن وعد بالسعى أرد السفن المنهوبة واطلاق سراح من كانوا فيها من الاسرى .

١٥١١ م ٩١٧ هـ : اسماعيل الصفوى يهدد ويندد بالغورى :

على ان هذه الاخبار عندما وصلت الى مسامع اسماعيل الصفوى لم تزده ذلك الا امعانا فى التحرش والتحدى فارسل الى مصر وفدا يحمل رأس ازبك ملك التتار اشعارا بما وصل اليه من القوة ، وتهديدا من طرف خفى أن يكون ذلك مصير الغورى .

ويقول المؤرخون انه بعث مع هذه الرأس ببيتين من الشعر — يعرض فيهما بما اشتهر عن الغورى ولعه بالزهور وغرس البساتين :

السيف والخنجر ريحاننا ... اف على النرجس والاس
مدامنا من دم اعدائنا ... وكأسنا جمجمه الرأس

وقد اورد ابن اياس فى تاريخة عشرات الابيات التى نظمها شعراء مصر فى الرد على الصفوى ولكن الغورى لم يستحسن من كل ما قيل الا بيتين لصفى الدين الحلى

ولى فرس للخير بالخير ملجم ... ولى فرس للشر بالشر مسرج
فمن رأى تقويمى فانى مقوم ... ومن رام تعويجى فانى معوج

---

(١) ظل البرتغاليون يتشبثون بهذا الموقع حتى بعد استقلال الهند وزوال الاستعمار .

السلطان سليم يخلع والده بايزيد :

وفى هذه السنة ، اشتجر خلاف بين السلطان بايزيد وابنه سليم الذى جمع من حوله جيشا ضخما لقتال ابيه ، فانتهى الامر بنزول السلطان بايزيد عن العرش ، وتربع ابنه السلطان سليم عليه .

١٥١٢ م : البندقية ترسل بعثا للغورى :

وصل الى مصر فى هذه السنة بعث من البندقية وقد تعددت الوفود والبعوث الأجنبية الى بلاط الغورى فى هذه السنة حتى ليحصى منها ابن اياس اربع عشرة سفارة اجنبية . واليك ما قاله ابن اياس وصفا للاحتفال باستقبال وفد البندقية . وهو كثير الشبه بما لايزال يتبع حتى الان فى استقبال السفراء الأجانب .

« واركب السلطان فى ذلك اليوم وزين باب الزردخانة بالملبوس والسلاح ثم طلع القاضى وصحبته تقدمة حافلة « اى هدية » نحوا من مائة جمل يحملون اوانى بلور وجوخا ومخملا وانواب مخمل تماسيح وشفق وحرير اطلس وغير ذلك اشياء حافلة فيطلع القاضى وهو راكب على فرس وقدامه سبعة انفس من اخصائه وهم راكبون على خيول والباقى مشاه ، فكانوا نحوا من خمسين انسانا من جماعة القاضى الذين جاءوا بصحبته وكان القاضى رجلا شيخا بذقن بيضاء وهو جسيم وعليه وقار . وكان لابسا خلعة حبر ذهب على حرير اصفر . فطلعوا الى القلعة واشاعوا ان قاضى ملك الفرج قد جاء يسعى عند السلطان فى فتح كنيسة القيامة التى بالقدس الشريف » .

الغورى يجرب مدافع هذا العصر :

ومما يشهد للغورى انه كان مقدرا للمخاطر التى اصبحت تحيق ببلاده سواء من ناحية الصليبيين الذين يتمثلون فى البرتغاليين الذين التفوا حول مصر وقطعوا وصول التجارة الشرقية اليها ، او من ناحية الشمال الشرقى من ناحية اسماعيل الصفوى او الشمال . من ناحية الدولة العثمانية . او من الافرنج عن طريق البحر . انه مافتىء يشيد السفن الحربية الكبيرة من شوانى واغربه . ويستعرضها بعد تمام صنعها وتجهيزها بالسلاح والمقاتلة .

وكان آخر ماامر به الغورى من استعدادات حربية . صنع مكاحل ثقيلة ومتوسطة وخفيفة . والمكحلة اقرب الأشياء الى المدافع فى العصر الحديث ؛ ولكنها كانت تقذف بقطع الاحجار او البارود او النار المشتعلة . وكانت تصنع من النحاس او الحديد ، فاقام الغورى لذلك مسبكا ضخما خلف ميدان القلعة . وحشد الصناع المختصين الذين بذلوا فى صنع هذه المكاحل جهدا جبارا حتى تمكنوا من عمل سبعين مكحلة زنة بعضها يصل الى ستمائة قنطار . وطولها يبلغ عشرة اذرع . وقد جربت هذه المكاحل

فى حضرة الغورى فى منطقة الريدانية خارج القاهرة فلم يخطىء منها سوى واحدة أو اثنتين وكان مقياس النجاح ان تقذف بأحجارها مسافة معينة .

موت السلطان بايزيد وتولى السلطان سليم العرش :

وفى يوم الجمعة الثانى من جماذى الأولى ، مات السلطان العثمانى بايزيد بعد ان حكم مملكته بنو عثمان ثلاثا وثلاثين سنة واصل فيها فتوحات ابيه محمد الفاتح. وبوفاة بازيد تدعم مركز السلطان سليم الذى كان قد خلع أباه من قبل كما رأينا

على ان اخوة السلطان سليم وأولاد أخوته لم يتقبلوا سيادته عليهم الا بعد خصام ونزاع وصل الى امتشاق السلاح فيما بينهم ، ولكن السلطان سليم قهرهم جميعا وقتل اخاه احمد وأولاد اخوته الخمسة . كما قتل اخاه كركور ولم ينج من القتل الا ابنان للامير احمد التجأ أحدهما الى الشاه اسماعيل الصفوى والثانى الى مصر فاستقبله السلطان الغورى واكرمه اكراما زائدا عن الحد ، مما أحفظ عليه السلطان سليم ، وادى ذلك الى سوء العلاقات بين السلطانين .

١٥١٣ م ــ ٩١٩ هـ : عودة الطاعون للانتشار :

اجتاح وباء الطاعون مصر فى هذه السنة ومات به العديد من الأمراء والكبراء ممن مات به أميران من أمراء بنى عثمان كانوا قد التجأوا اليها فرارا من وجه السلطان سليم كما أصيب الغورى بمرض فى عينه ، واستطارت الاشاعة بين الناس أنه فقد عينية .

وجاءت الأخبار من بلاد الحجار ان البرتغاليين قد استولوا على كمران وانهم يحاصرون سواكن .

وكثرت الاشاعات ان الامراء يتآمرون على خلع السلطان ، فلجأ الى اسلوبه المعتاد فخلع نفسه وانسحب الى المسجد الذى بناه .

لا ظلم اليوم :

ولجأ الغورى على مايقول ابن اياس الى ما اعتاده كلما ضاق به الأمر ، واشتدت من حوله الأزمات وهو اجراء العدل ورفع المظالم ، فنودى بالغاء الضرائب التى كان قد فرضها ــ وطالما اشتكى الناس منها ، وخاصة ضريبة الجامفة والمشاهرة ، ومافرضة من مكوس اخرى على القمح والبطيخ

وافرج عن المسجونيين من الامراء وغيرهم ، ووعد الامراء وجند المماليك بأنه سيوزع عليهم أموالا . ونودى فى القاهرة ، ان كل من قهر أو ظلم فعليه الاعتاب الشريفة ولا ظلم اليوم .

وراح يوزع الوف الدنانير على المحتاجين والمحاربين ، وحدد تسعيرة للحاجات حتى يخفف من وطأة الغلاء .

فارتفعت الأصوات بالدعاء له من الخاص والعام .

حادث خلقى يشغل القاهرة :

وكان مما نادى به الغورى بين الناس أن يكفوا عن المعاصى ويقلعوا عن المنكرات وشاء القدر أن تقع فى هذا الجو احدى الجرائم الخلقية التى رجت البلاد رجا وأحدثت أزمة فى الحكم ، وقد كان يمكن أن تمر دون أن يحس بها أحد فى غير دائرتها لولا هذا الظرف العصيب الذى كانت تمر به البلاد .

أما هذه الجريمة الخلقية فتتصل بأحد القضاة الشافعيين الذى قبض عليه متلبسا بجريمة زنا مع زوجة أحد قضاة الحنفية ، وقد قبض على الاثنين متلبسين بالجريمة واعترفا بجرمهما المشهود . فصدر الحكم برجمهما ، ولكن أحد قضاة الشافعية أصدر فتوى مؤداها انه لو عدل المذنبان عن اعترافهما فلا يعود من الجائز رجمهما .

وكان المذنبان قد عدلا فعلا عن اعترافهما .

واقر القضاة الأربعة هذه الفتوة على أساس أن ذلك هو حكم الشرع (١) . وغضب الغورى وتصور أن القضاة الاربعة يتلاعبون بالاحكام الشرعية : وقال القضاة انه سيأمر برجم المذنبين بما له من حق السلطان فأجابه القضاة : بأنه لو فعل ذلك لوجبت عليه الدية لقتله من لا يستحق القتل .. فزاد ذلك من غضب الغورى وعزل القضاة الاربعة من مناصبهم .

وهكذا آثر القضاة احتمال غضب الغورى وعزلهم ، على أن يحرفوا فى شريعة الله لارضائه .

وظلت مصر لاول مرة فى تاريخها منذ بدء العصر الاسلامى بغير قضاة للشرع بضعة أيام ، شنق الغورى خلالها المذنبين على باب زويلة فى حبل واحد . وعين السلطان أربعة قضاة جدد .

يقول ابن أياس ، ولما ارتفع الطاعون ، وسكنت الجند والأمراء ، وشفى السلطان الغورى ، فأعاد مرة اخرى الضرائب التى سبق أن رفعها .

١٥١٤ م — ٩٢٠ هـ : الغورى يستعرض قواته البحرية فى السويس :

فى هذه السنة سافر الغورى الى مدينة السويس بعد أن زادت أهميتها فى الآونة الاخيرة ، وقد اصبحت ميناء حربيا ، وترسانة تصنيع السفن الحربية وشهد عملية انزال عشرين مركبا حربيا « غرابا » فى البحر وهى مجهزة بكامل الاسلحة والاعتدة والمكاحل وقبل ان السلطان انفق على انشائها اربعمائة ألف دينار ، وكان المشرف على بناء هذا الاسطول البرنس سليمان العثمانى ، وقد جهز الاسطول للسفر الى

---

(١) وهذا هو حكم الشرع بالفعل .

بحار الهند ، وايقاف القرصنة البرتغالية واقتلاعهم من المناطق التى احتلوها سواء فى الهند أو الجزر المحيطة بعــدن .

وكان مما نادى به الغورى بين الناس أن يكفوا عن المعاصى ويقلعوا عن المنكرات فأصدر أمره بانشاء فندق بها ودكاكين ودور لشتى الأغراض ، وحفر العــديد من الابار واقام السـواقى لتوكير المــاء اللازم للمدينة .

يحاول اعادة تحصين الاسكندرية واحيائها :

وفى نفس العام قصد الغورى الى مدينة الاسكندرية ، لمعرفة ما يجب عمله من ترميم أبراجها وقلاعها وتهيئة سبل الدفاع عنها ، وانعاش المدينة بصفة عامة .

وقد صور لنا ابن اياس : حالة مدينة الاسكندرية فى هذه الفترة وكيف اوشكت أن تتحول الى مدينة مهجورة فيقول :

لم يكن بالمدينة من أعيان التجــار سواء من المســلمين أو من الفرنج وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض « اى جباة الضرائب » فأنهم صاروا يأخذون من التجار عشرة أمثال ما كان يؤخذ قبلا وهو العشر .

فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخــول الى الثغر فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها الى الخراب : حتى قل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الاكل .. ووجد بهــا بعض دكاكين مفتوحة . والبقية خراب لم تفتح .

ولا يفوت ابن أياس أن يقارن الاسكندرية فى هذه الفترة بما كانت عليه فى سابق الزمان من ازدهار وعمران وغنى مما مر بنا ذكره فى هذا التاريخ .

والذى لم يعرفه ابن أياس فى أيامه ، واصبحنا نحن نعرفه الآن تمام المعرفة ، أن هذا الخراب ألم بالاسكندرية : كان نتيجة تحول تجارة الشرق عن مصر بعد أن اصبحت تطوف حول رأس الرجاء الصالح ، وأن الاستعمار البرتغالى والاسبانى والاوربى الغربى قد بدأ نشاطه فى التضييق بالتدريج على الشرق .

السلطان سليم يسحق جيش اسماعيل الصفوى :

وفى السادس من رجب من هذه السنة ، اندلعت نيران الحرب بين السلطان سليم وبين الشاه اسماعيل الصفوى ولو كان الغورى رجل حرب لادرك أن مصير مصر سيتقرر فى هذه المعركة ، وكان عليه أن لايقف منها موقفا سلبيا ، ولكنه كان كما قدمنا يؤثر السلام وأن كان مستعدا للدفاع عن حدود بلاده وانتهت المعركة بانتصار السلطان سليم انتصارا حاسما على جيش الشاه اسماعيل ، بحيث أستولت جنوده على مدينة تبريز عاصمة الدولة الصفوية . وقد كادت الدائرة تدور على السلطان سليم فى أول المعركة ، ولكن سلاح المدفعية العثمانية الجديد وبنادق الرصاص التى كان يتسلح بها أثنا عشر ألفا من جنود السلطان سليم . كان هو العنصر الحاسم ... كما سيظل هو العنصر الحاسم فى كل معارك العثمانيين المقبلة وانتصارهم فيها .

السلطان سليم يبلغ الغورى بانتصاره :

وقد أرسل السلطان سليم الغورى مبعوثا رسميا من لدنه يحمل له هذه الاخبار ، ولم يفت الغورى مدلول هذا النصر العظيم على اسماعيل الصفوى ولذلك فلم يأمر بدق الكوسات « الموسيقى » كما جرت العادة فى أمثال هذه المناسبات ولا أمر بتعليق الزينات . فقد ادرك بحسه ان المعركة التالية ستكون مع مصر .

فتنة المماليك الجلبان :

لم يكن لهذا الخطر الداهم على مصر اى أثر فى سلوك المماليك الجلبان الذين قاموا فى هذه السنة بأخطر فتنهم على الاطلاق ، وتحدوا السلطان الغورى مواجهة فقالوا له :

هذا ما كان طريق الملك الاشرف قايتباى ، وانت الذى أشحت الدواوين حتى صار اللحم ينكسر خمسة أشهر ، وكذلك العليق يعطوه لنا من الشون قمح مسوس ما تأكله الخيل والجامكيا التى تعطيها لنا ما تكفينا لكراء بيت وأسطبل وجامكية الغلام ولكسوتنا . والقماش كله غالى حتى الخام ما يوجد : والانسمة «المشروبات» صارت غالية كل جرة بنصفين فضة ، فما نشبع فى أيامك من اللحم ولا من الانسمة ونحن جياع عرايا .

يقول ابن اياس الذى ننقل عنه هذه الصورة البحتة :

فسكت السلطان ساعة ثم قال : اكم الرضا أصرف لكم اللحم المكسور وكذلك العليق أصرفه لكم شعيرا مغربلا وأجعل الانسمة كل جرة بنصف فضة فارتفعت الأصوات له بالدعاء وانصرفوا من بين يديه شاكرين وخمدت تلك الفتنة قليلا .

ولكن الفتنة لم تختف فى الظاهر ، الا لتظهر بعد ذلك فى أدق الأوقات ونعنى بها فى ساحة المعركة وفى مواجهة العدو : حيث سينخذلون عن سلطانهم فى أحرج اللحظات المصيرية .

١٥١٦ م ـ ٩٢٢ هـ : خروج السلطان لمواجهة جيوش السلطان سليم :

أمضى السلطان الغورى طوال عام ٩٢١ هـ وهو يجهز للحرب التى كان متوقعا بقرب وقوعها بينه وبين السلطان سليم .

ولم تعوز السلطان سليم المكائد لاستثارة الغورى ودفعه الى الحرب فقد هاجم دولة التركمان التابعة لمصر وقتل حاكمها على دولات وقطع رأسه ورءوس أولاده وبعث بها الى الغورى .

وأهان سفراء الغورى وعذبهم ونكل بهم .

فأنتهى ذلك كله الى تصميم الغورى على أن يخرج على رأس جيشه لملاقاة السلطان سليم . فخرج من القاهرة فى يوم السبت الخامس عشر من ربيع الثانى بعد أن تقدمته طلائع جيشه الى الريدانية ، ومنها من سبق الى بلاد الشام ..

ويخصص ابن أياس عشرات من الصفحات من كتابه الذى يؤلف الوثيقة الوحيدة عن هذه الفترة : ليصف لنا أدق تفاصيل هذا الجيش ، وما فيه من أسلحة : وخيول وأعلام ونظام الامراء سيرهم ومعدات كل واحد منهم .

ولامر فى مكنون علم القدر ، أخرج الغورى معه كل كنوزه وكنوز من سبقه من السلاطين والتى تجمعت فى خزائن بيت المال عبر السنين : بحيث احتاج الى خمسين جملا لحملها .

وقد أودع الغورى هذه الكنوز عندما وصل الى حلب فى قلعة المدينة لكى لاتقع بعد ذلك غنيمة باردة فى يد السلطان سليم .

معركة مرج دابق :

وفى الخامس عشر من شهر رجب ، تلاقى الجيشان العثمانى والمصرى فى المكان الذى حدده لسلطان سليم لهذا اللقاء وهو مرج دابق فقد قال لسفراء الغورى الذى ذهبوا للتفاوض معه فى شأن الصلح بعد أن انتهرهم وطردهم « **قولوا لاستاذكم يلاقينا على مرج دابق** » .

وقد أوشك أمراء المماليك أن يوقعوا الهزيمة فى مراحل المعركة الاولى بالعثمانيين حيث هجموا عليهم هجمة صادقة عصفت بالجيش العثمانى وأوشك أن يولى الادبار: لولا هذا السلاح الجديد ، سلاح المدفعية من ناحية : وغدر الخيانة الذى حسم الموقعة لصالح العثمانيين ، فقد كان جماعة من الامراء المصريين قد لجأوا قبل المعركة الى السلطان سليم : وكانوا هم الذين هونوا له أمر القتال مع السلطان الغورى .. وكان خاير بك نائب حلب والذى كان يقف على رأس ميسرة الجيش المصرى من الضالعين فى الخيانة مع السلطان سليم .

فقد انسحب بجيشه متظاهرا بالهزيمة فى الوقت الذى دبت فيه فتنة بين مماليك الجلبان .. والمماليك القرانصة فزعم الآخرون ان الغورى أصدر الأمر لمماليكه الجلبان أن يدعو القرانصة ينفردون بمواجهة العدو حتى يبادوا عن آخرهم .

وعبثا راح السلطان ينادى المنهزمين : يا اغوات هذا وقت المروءة .. هذا وقت النجدة ، ولكن هيهات هيهات .

وفجأة وجد الغورى نفسه وحيدا على أرض المعركة الا من بعض المشايخ الذين قد جمعهم حوله ، فراح يستحثهم على الدعاء الله : ولكن ساعة الدعاء لله كانت قد ولت مع الجنود الفارين .

فلندع ابن أياس يصف لنا لحظات الغورى الاخيرة فى المعركة :

« ولما اضطربت الاحوال وتزايدت الأهوال خاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق السلطانى « العلم » فأنزله وطواه وأخفاه ، ثم تقدم الى السلطان وقال له : يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل الى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك غابه فى الحال خط فالج « أى شلل » أبطل شقه وأرخى حنكه فطلب ماء فآتوه بماء فى طاسة من ذهب فشرب منه قليلا ، وادار راس فرسه ليهرب فمشى خطوتين ، وانقلب عن الفرس الى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ، وقيل فقئت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر ولا يعرف بعد ذلك ماذا حل بجسد الغورى ، فكأن الأرض قد ابتلعته فى الحال وفى ذلك عبرة لمن اعتبر .

ابن اياس والغورى :

ويتحدث ابن اياس عن نهاية حكم الغورى المفجعة فيقول :

وقد مات وله من العمر نحو ثمان وسبعين سنة حكم منها خمس عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوما .

وكان الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك ومرت على الناس وكل يوم فيها كأنه ألف سنة مما يعدون . وقد قلت فى هذا المعنى :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى   مذ تناهى ظلمه فى القاهرة
زال عنه ملكه فى ساعة   خسر الدنيا اذن والآخرة

وابن اياس فى هذا يمثل الروح المصرية عبر آلاف السنين فصفحات كتابه تفيض بقصائد المدح والثناء على الغورى طوال ايام حياته ووصفه بالعدل والورع والتقوى ، وانه لم يسبقه من الملوك سابق وها هو ذا يحكم عليه بأنه قد خسر الدنيا والآخرة . ولا لوم فى ذلك ولا تثريب . فكل الثناء السابق ، وكل قصائد المديح ، وكل الدعوات الحارة التى كان يرسلها الشعب من أجل حاكمه ، لم تكن صادقة ولا هى خارجة من القلب وانما هى اتقاء لطغيان الحاكم الفرد المستبد وابعاد لأذاه وشروره . فاذا زال الطاغية وامن الناس شروره قالوا رأيهم فيه بصراحة وصدق ، فى الوقت الذى يدارون فيه الطاغية الجديد بالمدح والثناء ، دفعا لشره واتقاء لأذاه .

ولا لوم ولا تثريب فالناس تريد أن تحيا وأن تحافظ على بقائها . على أننا يجب أن نذكر لابن اياس من باب الانصاف .. أنه سجل للغورى حسناته كما سجل سيئاته ، ولكنك لا تكاد تقرأ الحسنات حتى يخيل اليك ان الغورى كان هو الحسن كله ، ثم لا تكاد تقرأ صفحة السيئات ، حتى لتتصور الغورى الشر كله ، ويخلص ابن اياس من ذلك بذكر عبارة طالما ترددت كثير ما السلاطين :

« وقد كان ملكا مهيبا جليلا ، مبجلا ، فى المواكب ، تملأ العيون منه ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية ، لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة » .

نحن والغـورى :

إما نحن وبعد انقضاء قرابة أربعة قرون ونصف ، وقـد بعدت المسـافة وأثر السيئات والمظالم قد انتهى ولم يعد يحس ، وليس الا الأعمـال النافعة والطيبة ، هى التى تذكرنا بالغورى . مصـداقا للحديث الشريف « اذكروا محاسن موتاكم » فلسنا نفرق بين الغورى وبين أعظم من حكم من مصر من السلاطين المماليك ، وحسبه وهو الشيخ الذى أشرف على الثمانين قد خرج على رأس جيشه للدفاع عن حدود دولته فى أقصى الشمال ، ولم يفته وهو ذاهب على رأس جيشه للذود عن الحـدود الشمالية أن يبعث بالأسطول نحو بحار الجنوب لقتال البرتغاليين ، وقد أبلى هـذا الأسطول بلاء حسنا ومرة أخرى هزم الأساطيل البرتغالية ولكن وفاة الغورى وما تلى ذلك من تطورات ، عفا على آثار هذا الانتصار .

وقد ثبت فى المعركة كأعظم ما يكون الثبات ، وكان من الممكن أن ينتصر لولا الخيانة فى صفوفه ، وكأى ملك عظيم مات فى أرض المعركة ، حتى لا يعيش لحظة واحـدة فى ظل الذل والهـوان .

ولقد رأينا الرجل وهو يمضى طوال مدة حكمه ، متجولا فى البلاد فتارة فى الفيوم وأخرى فى السويس وثالثة فى الاسكندرية بانيا منشئا معمرا مصلحا .

اما الصعوبات المالية التى تعرض لها ، فنحن نعرف الآن سببها وهو انقطاع تجارة المشرق .

سلطنة الأشرف أبو النصر طومان باى :

فى الرابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة ، استقر رأى أمراء المماليك فى القاهرة على سلطنة طومان باى وكان السلطان الغورى قد خلفه وراءه نائبا عنـه فى حكم البلاد أثناء غيابه .

ولما كان الخليفة وثلاثة من رؤساء القضاة الأربعة ، قد أصبحوا فى ركاب السلطان سليم بعد أن انضموا اليه عقب الهزيمة الساحقـة فى مرج دابق ، فقد تولى بيعـة طومان باى أمير المؤمنين يعقوب والد الخليفـة بعد أن أظهر توكيلا كان ابنـه قـد أعطاه له .

وكان القدر وهو بصدد طى صفحة حكم السلاطين المماليك فى مصر ، قد شاء أن يختم كتابهم بصفحة هى من أزهى الصفحات ، فلعله لم يتول عرش مصر من يصـل الى مكانة طومان باى لا فى شجاعته الخارقة واقدامه ، وذكائه وحيويته ، بل ومن حيث حبه للناس وتقديسه للعدل وحكم الشريعـة أى القانون ، ويصـفه ابن اياس فى فترة نيابته عن الغورى بأنه كان محبا للعوام لين الجانب ، قليل الأذى ، غير متجبر ولا متكبر .

وسنرى الآن كيف كانت صفاته على العكس من ذلك تماما بالنسبـة لخصومه المحاربين فكان قوى الشكيمة لا بلين ، فى الوقت الذى زاد فيه حبه للعدل والانصاف بالنسـبة للرعاية .

طومان باى بعد مصر للمقاومة :

كان الطريق قد انفتح امام السلطان بعد هزيمة الفورى فى مرج دابق وخيانه خاير بك نائب حلب ، فقد تسلم المدينة وقلعتها بكل ما فيها من ذخائر بغير قتال ، وكذلك استولى على دمشق ، ووصلت طلائع جيوشه الى غزة ، وارسل الى طومان باى خطابا شديد اللهجة يأمره فيه بأن يعلن خضوعه له ويضرب السكة باسمه ويخطب له فى صلاة الجمعة .

ولكن السلطان طومان باى رفض هذا الانذار وقرر المقاومة . وكان عليه أن يبدأ بتنظيم المقاومة من تحت الصفر ، فقد كانت الخزينة خاوية على عروشها ؛ وقد رفض الاقتراح الذى عرض عليه ليجمع ما يلزمه من النفقات من الرعايا وقال : انه لا يحب ان يلقى الله وفى صفحته النقطة السوداء . ولكنه أمر ان يشمر هو وبقية المماليك عن ساعد الجد ، وان يحاربوا عن اعراضهم وكرامتهم ونسائهم وأطفالهم . وكان يقول لكل من يطالبه بالنفقة ، لطالما اخذتم الأموال والنفقات وانتم لا تعملون شيئا ، وقد جاء الوقت لتؤدوا الواجب مرة اخرى . .

ويعجب ابن اياس للهمة غير المعهودة التى بذلها طومان باى فى هذه الفترة الصغيرة لاعداد مصر للحرب . فقد كان من رأى طومان باى أن يخرج لملاقاة الجيوش العثمانية فى فلسطين بعد أن هزأها البرد ، وتشتت قواها ، ولكن أمراء المماليك أصروا على ان تكون الحرب قريبا من القاهرة ، فرفضوا حتى ملاقاة العدو فى الصالحية أو فى بلبيس .

ولذلك فقد أعد طومان باى خطا حصينا عند الريدانية ، يذكرنا بخطوط التحصينات الحديثة ؛ وضع فى القاهرة انواعا من الأسلحة لم يكن لمصر سابق عهد بها ، من ذلك مائة عجلة تجرها ابقار ، وتحمل رماة يرمون بندق الرصاص ، وجمالا تزيد عدتها على مائتى جمل تحمل فوق ظهرها مكاحل ورماة يرمون بالرصاص ، وطوارق خشب تسير بها الرماة بالنشاب .

كما نجح طومان باى نتيجة عدله وحبه للناس فى استثارة حماس افراد الشعب ليحاربوا الى جوار المماليك .

ولكن ذلك كله كان بغير جدوى ، فقد كان القدر قد قال حكمه فى انتهاء دولة المماليك ، ولذلك فقد لعبت الخيانة مرة أخرى ، فالاعراب وبعض امراء المماليك قد دلوا الجيش العثمانى على طرق توصلهم الى القاهرة بغير حاجة للمرور على هذه الخطوط المحصنة التى اقامها طومان باى ، فالتفوا حولها .

وفى يوم **الخميس التاسع عشر من ذى الحجة** دارت معركة رهيبة تفوق معركة مرج دابق من حيث الشدة ، وأبلى فيها طومان باى بلاء منقطع النظير ، فقد خاض فى قلب الجيش العثمانى هادفا الى قتل السلطان سليم نفسه ؛ وقتل من كان يظن انه السلطان سليم ولم يكن سوى سنان باشا كبير وزراء السلطان . ولكن مدافع

العثمانيين وبنادق الرصاص ، كانت لها الغلبة فى خاتمة المطاف ، فانهزم الجيش المصرى ، وانسحب طومان باى .

١٥١٧ م — ٩٢٤ هـ : السلطان سليم يدخل القاهرة :

وفى يوم الاثنين نات المحرم ، دخل السلطان سليم شاه الى القاهرة من باب النصر . وكان موكبه موكبا حافلا ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان يسير أمامه فى موكبه الخليفة والقضاة الأربعة .

طومان باى يهاجم من جديد :

على أن المعركة لم تكن قد انتهت بالنسبة لطومان باى الذى لم يلبث أن هاجم السلطان سليم فى داخل معسكره الذى أقامه على ساحل بولاق ، حيث دارت معركة رهيبة انفرط فيها عقد الجيش العثمانى ، وعاد السلطان طومان باى الى القاهرة ، حيث خطب باسمه فى المساجد فى يوم الجمعة .

طومان باى يهاجم من الصعيد :

ولكن عوامل التفتت احدثت أثرها ، فاذا قوات طومان باى الجديدة تنحل وتتفرق من حوله ، فانسحب الى الصعيد ، حيث استطاع أن يؤلف قوة جديدة ، أخافت السلطان سليم حتى أنه عرض الأمان والصلح على طومان باى أن يقبل أن يكون نائبا له فى حكم مصر وان يضرب السكة ويخطب باسمه فى المساجد وفى مقابل ذلك ينسحب السلطان سليم بجيشه .

واكن الخيانة من ناحية ، وبعض أمراء المماليك تحالفوا على افساد هذا الاتفاق اذ قتلوا رسل السلطان سليم الى طومان باى . وعلى ذلك لم يبق سوى السيف ليكون حكما .

وحكم السيف فى معركة جديدة كانت كأعنف ما دار من معارك بالقرب من الجيزة . ورغم بسالة طومان باى فقد خسرها مرة ثانية .

القبض على طومان باى وشنقه :

لم ييأس طومان باى رغم هذه الهزائم المتكررة ، وظل يرسم الخطط لمواصلة المقاومة ، وكان آخر ما هداه اليه تفكيره أن يلجأ الى شيخ العرب حسن بن مرعى زعيم قبائل البحيرة والذى كان يربط معه برباط الأخوة والصداقة .

وعلى الرغم من ان حسن بن مرعى عاهده على الوفاء والاخلاص .. فقد أرسل سرا الى السلطان سليم يعلمه بوجود طومان باى عنده ، فأرسل السلطان سليم اربعمائة من الجند الذين اعتقلوا طومان باى على غرة .

وتجمع كتب التاريخ على أن السلطان سليم أخذ بشجاعة طومان باى وعزته وكرامته وهو يحاوره فى الحديث فقال له : والله ما كان قصدى أذينك ونويت الرجوع من حلب ، ولو أطعننى من الاول وجعلت السكة باسمى ما جئت لك ولا دست أرضك فأجاب طومن باى : أن الأنفس التى تربت فى العز لاتقبل الذل ، هل لو أرسلت لك أنا خطابا وأمرتك أن تكون تحت أمرى هل كنت ترضى بذلك ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع ، وليس فى عسكرك من بقايسنى فى حومه الميدان . وليس أضر عليك من هذين الشيطانين الخائنين (وأشار الى خاير بك والغزالى ، فانهما لو كان بهما خير لكان لنا .

وكاد السلطان يقتنع بالابقاء على حياة طومان باى . ولكن الخائنين خاير بك والغزالى أقنعا السلطان سليم ، أن وجود طومان باى على ظهر الحياة من شأنه أن يضيع كل تعبه وسفره وهلاك زهرة عساكره وأمواله ، فأنه لا يكاد يغادر أرض مصر حتى يخرج طومان باى ولو كان تحت الأرض ، ليفسد عساكر السلطان عليه ، فاذا أراد السلطان أن تطيعه الدول وأن تمهد له البلاد فعليه أن يعجل بهلاك طومان باى .

ونزل السلطان سليم عند مشورة الخائنين وقضى باعدام طومان باى .

وفى يوم الاثنين ١١ ربيع الأول الموافق ٢٣ ابريل ، أخرج طومان باى من سجنه فى انبابه واقتيد الى حيث يعدم عند باب زويلة فكان رافع الراس يسلم على الناس طوال الطريق ، حتى اذا وصل الى حيث يشنق ، طلب طومان باى من الجمهور المحيط به أن يقرأوا الفاتحة على روحه ثلاث مرات ، وقرأ هو بنفسه الفاتحة ، حتى اذا فرغ منها التفت الى الجلاد وقال له : شوف شغلك .

وكأن الأقدار أبت حتى آخر لحظة أن لا تزهق هذه الروح القويه فى يسر وبساطة ، فاذا بالحبل ينقطع مرتين ، ولم يمت طومان باى الا فى المرة الثالثة .

وظلت جثته معلقة بعد ذلك على باب زويلة ثلاثة أيام .

يقول ابن اياس : فلما أن شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فانه كان شابا حسن الشكل كريم الخلق سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان بطلا شجاعا تصدى لقتال ابن عثمان وبيت وقت الحرب بنفسه وكسرهم ثلاث مرات ، ووقعت منه فى الحرب امور لم تقع من الأبطال العنابرة . ومد أبطل لما تسلطن من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى ، ولما طلب منه أن يفرض الضرائب على الناس ليملأ الخزائن ، وصف ذلك بالظلم ورفض أن يمس أموال الرعية .

انتهاء دولة المماليك :

وبموت طومان باى ، استقرت الأمور فى مصر للسلطان سليم شاه وانتهت دولتا المماليك البحرية والجركسية ، بعد أن حكمت الأولى ١٣٦ سنه و ٤ شهور وعشرين

يوما ، والثانية ١٣٨ سنة و ٣ شهور و ١١ يوما فكانت مدة حكمهم جميعا ٢٧٤ سنة و ٨ أشهر .

ويقول أمين باشا سامى وهو يغلق كتاب المماليك : ومن راجع مدة سلطنتهم على الديار المصرية يجد أنهم أنشأوا بها عمائر شتى من قناطر وجسور ومدارس كثيرة بها مكتبات فيها كتب قيمة ومساجد وجوامع وأوقفوا عليها الضياع وغيرها مما يقوم بسيرها سيرا حسنا . وهى فى متانة بنائها كالأهرام وأنفع كجامع السلطان حسن وجامع قلاوون وغيرهما . وترفت العمارات وانقنت فى عصرهم النقوش والزخارف العربية اتقانا فائقا ، حتى أن الفاتيكان فى روما دعا مهرة هؤلاء الصناع لعمل أعمال الزخارف وغيرها ، وهى باقية حتى الآن فى متلث الجمـالون الكبير مع ما كتبوه من الكتابات باللغة العربية وبالجملة فقد سعدت البلاد فى مدتهم وترقت أدبيا وماديا كما ذكر ذلك ابن خلدون فى مقدمته فى عدة مواضع .

وقد أورد أمين باشا سامى بعد ذلك قائمة مفصلة بعـــدد الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والربط والخوانق التى أنشأوها فى القاهرة وشتى بلاد القطر .

ولست أعرف لـــاذا نسى أمين باشا سامى وهو يحاول أن يلخص آثار المماليك الشاهقة ، دين الاسلام والمسلمين لهم بانقاذ الاســلام من خطر المغول الســاحق ، وتطهيرهم أرض فلسطين من الصليبيين .

انتهى الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث
وهو يتضمن الحكم العثمانى
والتاريخ الحديث ابتداء
بحملة نابليون